المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

الجزء الأول

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

29436

المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الأول

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وهو في الواقع كتاب جديد ، يختلف عن كتابي السابق الذي ظهرت منه ثمانية أجزاء. يختلف عنه في إنشائه، وفي تبويبه وترتيبه ، وفي كثير من مادته أيضاً ، فقد ضمّنته مادة جديدة، خلا منها الكتاب السابق ، تهيأت لي من قراءاتي لكتابات جاهلية عُثر عليها بعد نشر ما نشرت منه ، ومن صور كتابات أو ترجماتها أو نصوصها لم تكن قد نشرت من قبل ، ومن مراجعاتي لموارد نادرة لم يسبق للحظ أن سعد بالظفر بها أو الوقوف عليها ، ومن كتب ظهرت حديثاً بعد نشر هذه الأجزاء ، فرأيت إضافتها كلها الى معارفي السابقة التي جسّدتها في ذلك الكتاب .

وقد رأى أستاذي العالم الفاضل السيد محمد بهجت الأثري تسميته : « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » ، لما فيه من تفصيل لم يرد في الكتاب السابق ، فوجدت في اقتراحه رأياً صائباً ينطبق كل الانطباق على ما جاء فيه ، فسميته بما سماه به ، مقدماً إليه شكري الجزيل على هذا التوجيه الجميل .

وكتاباي هذان ، هما عمل فرد عليه جمع المادة بنفسه ، والسهر في تحريرها وتحبيرها ، وعليه الإنفاق من ماله الخاص على شراء موارد غير متيسرة في بلاده ، أو ليس في استطاعته مراجعتها بسبب القيود المفروضة على إعارة الكتب ، أو لاعتبارات أخرى ، ثم عليه البحث عن ناشر يوافق على نشر الكتاب ، ثم عليه تصحيح المسودات بنفسه بعد نجاحه في الحصول على ناشر ، الى غير ذلك من أمور تسلبه راحته وتستبد به وتضنيه . ولولا الولع الذي يتحكم في المؤلفين في هذه البلاد ، لما أقدم انسان على تأليف كتاب .

وإن عملاً يتم بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة ، لا يمكن أن يرضي المؤلف أو يسعده ، لأنه عمل يعتقد أنه مهما انفق فيه من جهد وطاقة واجتهاد ، فلن يكون على الشكل الذي يتوخاه أو يريده ، والصورة التي رسمها في فكره وتصورها له . ولولا طمع المؤلف في كرم القراء بتبرعهم في تقويم عوجـه وإصلاح أغلاطه وارشاده الى خير السبل المؤديـة الى التقويم والإصلاح ، ولولا اعتقاده أن في التردد أو الاحجام سلبية لا تنفع ، بل إن فيها ضرراً ، وان كتاباً يؤلَّف وينشر على ما يجمع من عيوب ونقائص خير من لا شيء ، أقول : لولا هذه الاعتبارات لما تجرأت ، فأخرجت كتاباً وعددتني مؤلفاً من المؤلفين .

وأنا إذ أقول هذا القول وأثبته ، لا أريد أن أكون مرائياً لابساً ثوب التواضع لأتظاهر به على شاكلة كثير من المرائين . وإنما أقول ذلك حقاً وصدقاً ، فأنا رجل أعتقد أن الانسان مهما حاول أن يتعلم ، فانه يبقى الى خاتمة حياته جاهلاً ، كل ما يصل اليه من العلم هو نقطة من بحر لا ساحل له . ثم اني ما زلت أشعر أني طالب علم ، كلما ظننت أني انتهيت من موضوع ، وفرحت بانتهائي منه ، أدرك بعد قليل أن هناك علماً كثيراً فاتني ، وموارد جمة لم أتمكن من الظفر بها ، فأتذكر الحكمة القديمة « العجلة من الشيطان » .

وقد رأيت في هذا الكتاب شأني في الكتاب السابق ، ألاّ انصّب نفسي حاكماً تكون وظيفته اصدار أحكام قاطعة ، وابداء آراء في حوادث تاريخية مضى زمن طويل عليها ، بل أكتفي بوصف الحادث وتحليله كما يبدو لي . وقد لا تعجب طريقتي هـذه كثيراً من القراء ، وعذري أني لا أكتب لإرضاء الناس ، ولا أدوّن لشراء العواطف ، وإنما أكتب ما أعتقده وأراه بحسب علمي وتحقيقي ، والرأي عندي أن التأريخ تحليل ووصف لما وقع ويقع ، وعلى المؤرخ أن يجهد نفسه كل الإجهاد للإحاطة به ، بالتفتيش عن كلّ ما ورد عنه ، ومناقشة ذلك مناقشة تمحيص ونقد عميقين ، ثم تدوين ما يتوصل اليه بجده واجتهـاده تدويناً صادقاً على نحو ما ظهر له وما شعر به ، متجنباً إبداء الأحكام والآراء الشخصية القاطعة على قدر الاستطاعة .

لقد قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي السابق : « والكتاب بحث ، أردت جهد طاقتي أن يكون تفصيلياً ، وقد يعاب عليّ ذلك ، وعذري في هذا

التفصيل أنني أريد تمهيد الجادة لمن يأتي بعدي فيرغب في التأليف في هذا الموضوع، وأنني أكتب للمتتبّعين والمتخصصين ، ومن حق هؤلاء المطالبة بالمزيد . وقد فعلت في هذا الكتاب ما فعلته في الأجزاء الثمانية من الكتاب السابق من تقصّي كل ما يرد عن موضوع من الموضوعات في الكتابات وفي الموارد الأخرى ، وتسجيله وتدوينه ، ليقدم للقارىء أشمل بحث وأجمع مادة في موضوع يطلبه ، لأن غايتي من هذا الكتاب أن يكون « موسوعة » في الجاهلية والجاهليين ، لا أدع شيئاً عنها أو عنهم الا ذكرته في محله ، ليكون تحت متناول يد القارىء . فكتابي هذا وذاك هما للمتخصصين وللباحثين الذين يطمعون في الوقوف على حياة الجاهلية بصورة تفصيلية ، ولم يكتبا للذين يريدون الإلمام بأشياء مجملة عن تلك الحياة .

والكتاب لذلك سيخرج في أجزاء ، لا أستطيع تحديد عددها الآن ، ولكني أقول بكل تأكيد انها ستزيد على العشرة ، وانها ستتناول كل نواحي الحياة عند الجاهليين : من سياسية ، واجتماعية ، ودينيـة ، وعلمية ، وأدبية ، وفنية ، وتشريعية .

لقد أشار عليّ بعض الأصدقاء أن أدخل في العرب كل الساميّين ، وأن أتحدث عنهم في كتابي هذا كما أتحدث عن العرب ، لأن وطن الساميين الأول هو جزيرة العرب ، ومنه هاجروا الى الأماكن المعروفة التي استقروا فيها ، فهم في ذلك مثل القبائل العربية التي تركت بلاد العرب ، واستقرت في العراق وفي بادية الشام وبلاد الشام ، لا يختلفون عنهم في شيء . ثم قالوا : فإذا كنتَ قد تحدثت عن تلك القبائل المهاجرة على أنها قبائل عربية ، فلمَ تسكت عن اولئك الساميين ، ولم تجعلهم من العرب ؟

وجوابي أن القبائل العربية المهاجرة هي قبائل معروفـة الأصل وقد نصّت الكتابات والموارد الأخرى على عروبتها ، ونسبت نفسها الى جزيرة العـرب ، ولهجاتها لهجات عربية ، لا ريب في ذلك ولا نزاع ، وثقافتها عربية . أما الشعوب السامية ، فليس بين العلماء، كما سنرى، اتفاق على وطنها الأول ، وليس بينها شعب واحد نسب نفسه الى العرب ، وليس في الموارد التأريخيـة الواصلة الينا مورد واحد يشير الى أنها عربية ؛ ولهجاتها وان اشتركت كلها في أمور ،

فانها تختلف أيضاً في أمور كثيرة ، هي أكثر من مواطن الاشتراك والالتقاء . ففرقٌ كبير اذن بين هذه الشعوب وبين القبائل العربية من حيث العروبة . ثم ان العروبة في نظري ليس بها حاجة الى ضم هذه الشعوب اليها ، لاثبات انها ذات أصل تؤول اليه ، فقد أعطى الله تلك الشعوب تاريخاً ثم محاه عنهم ، وأعطى العرب تاريخاً أينع في القديم واستمر حتى اليوم، ثم إن لهم من الحضارة الاسلامية ما يغنيهم عن التفتيش عن مجد غيرهم وعن تركاتهم ، لإضافتها اليهم . فليس في العرب مركب نقص حتى نضيف اليهم من لم يثبت انهم منهم ، لمجرد أنهم كانوا أصحاب حضارة وثقافة ، وأن جماعة من العلماء ترى أنهم كانوا من جزيرة العرب . والرأي عندي أن العرب لو نبشوا تربة اليمن وبقية الترب لما احتاجوا الى دعوة من يدعو الى هذا الترقيع . فأنا من أجل هذا لا أستطيع ان أضم أحداً من هؤلاء الى الأسرة العربية بالمعنى الاصطلاحي المعروف المفهوم، من لفظة العرب عندنا ، إلا اذا توافرت الأدلة ، وثبت بالنص أنهم من العرب حقاً ، وأنهم كانوا في جزيرة العرب حقاً .

نعم ، لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن اطلاقه على تلك الشعوب ، وإن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح «عربي» و «عربية» بـ « سامي » و « سامية » ، وقلت أشياء أخرى شرحتها في الجزء الثاني من الكتاب السابق في تعليل ترجيح هذه التسمية [1] . ولكني لم أقصد ولن أقصد أن تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية وحدة ثقافية ، اصطلح عليها اصطلاحاً ، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط دموية وتاريخية ، وبين المفهومين فرق كبير .

إن مما يثير الأسف والله في النفوس ان نرى الغربيين يعنون بتأريخ الجاهلية ويجدّون في البحث عنه والكشف عن مخلفاته وتركاته في باطن الأرض ، ونشره بلغاتهم ، ولا نرى حكوماتنا العربية ولا سيما حكومات جزيرة العرب، إلا منصرفة عنه ، لا تعنى بالآثار العناية اللازمة لها ، ولا تسأل الخبراء رسمياً وباسمها البحثَ عن العاديات والتنقيب في الخرائب الجاهلية لاستخراج ما فيها من كنوز، وجمعها في دار للمحافظة عليها ولاطلاع الناس عليها . وقد يكون عذر هذه الحكومات

---

١ (ص ٢٨٧)

أن الناس هناك ينظرون الى التماثيل نظرتهم الى الأصنام والأوثان ، والى استخراج الآثار والتنقيب عن العاديات نظرتهم الى بعث الوثنية واحياء معالم الشرك ، وهي من أجل هذا تخشى الرأي العام ، وإني على كل حال أرجو أن تزول هذه الأحوال في المستقبل القريب ، وأن يدرك عرب الجزيرة أهمية الآثار في الكشف عن تأريخ هذه الأمة العربية القديم .

كذلك أرجو أن تنتبه حكومات جزيرة العرب لأهمية موضوع التخصص بتأريخ العرب القديم ، وأن تكلف شبابها دراسة علم الآثار ودراسة لهجات العرب قبل الإسلام والأقلام العربية الجاهلية ، ليقوموا هم أنفسهم بالبحث والتنقيب في مواطن العاديات المنبثة في مواطن كثيرة من الجزيرة .

ورجاء آخر أتمنى على جامعة الدول العربية والدول العربية أن يحققوه ، وهو ارسال بعثات من المتخصصين بالآثار وباللهجات والأقلام العربية القديمة الى مواطن الآثار في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية والمواضع الأخرى من جزيرة العرب للتنقيب عن الآثار ، والكشف عن تأريخ الجزيرة المطمور تحت الأتربة والرمال ، ونشره نشراً علمياً ، بدلاً من أن يكون اعتمادنا في ذلك على الغربيين . أفلا يكون من العار علينا أن نكون عالة عليهم في كل أمر ، حتى في الكشف عن تأريخنا القديم !

وأضيف الى هذا الرجاء رجاء آخر هو أن تقوم أيضاً بتدوين معجم في اللهجات العربية الجاهلية ، تستخرجه من الكتابات التي عُثر عليها ،وبتأليف كتب في نحوها وصرفها ، وترجمة الكتب الأمهات التي وضعها المؤلفون الأجانب في تأريخ الجاهلية ، ترجمة دقيقة تنأى عن المسخ الذي وقع في ترجمة بعض تلك المؤلفات فأشاع الغلط ونشر التخريف .

لقد راجعت بعض المستشرقين الباحثين في تأريخ العرب القديم ، وسألت بعض من ساح في جزيرة العرب في هذه الأيام ، وبعض الشركات العاملة فيها ، في آخر ما توصلوا اليه من بحوث ، وعثروا عليه من عاديات ، فوجدت منهم كل معونة ، وأرسلوا وما برحوا يرسلون أجوبتهم إليّ بكل ترحاب ولطف ، وكتبت الى بعض حكومات جزيرة العرب والى بعض المسؤولين من أصحاب المكانة فيها والنفوذ مراراً ، أسألها وأسألهم عن العاديات وعن الآثار التي عثر عليها

حديثاً في بلادهم ، فلم أسمع من الاثنين جواباً ، وإني اذ أكتب هذه الملاحظة المرّة المؤسفة ، إنما أرمي بها إلى التنبيه ولفت أنظار أولي الأمر أصحاب الحكم والسلطان . فمن واجب المسؤول اجابة السائل ، ولا سيما أن القضية قضية تخص البلاد المذكورة بالذات والعرب عموماً ، وقبيح أن ينبري الغريب ، فيساعد طالب بحث عن تأريخ أمتــه واخوته ، ويستنكف المسؤولون من أبناء هذه الأمة عن تنفيذ طلب لا يكلفهم شيئاً ، وهو خطير يتعلق بتأريخ هذه الأمـة قبل الإسلام واذاعته أولاً ، وهو واجب من واجباتهم التي نصبوا من أجلها ثانياً .

لقـــد تمكن الباحثون في التأريخ الجاهلي ، من سياح وعلماء ، من الارتقاء بتأريخ الجاهلية بمئات من السنين قبل الميلاد ، وذلك على وجه صحيح لا مجال للشك فيه ، مع أن بحوثهم هذه لم تنزل سوى أمتار في باطن الآثار وفي أماكن محدودة معينة . وسوف يرتفع مدى هذا التأريخ الى مئات أخرى ، وربما يتجاوز الألفي سنة أو أكثر قبل الميــلاد اذا أتيحت الفرص للعلماء في الحفر في مواضع الآثار حفراً علميــاً بالمعنى الحديث المفهوم من (الحفر) . وأنا لا أستبعد بلوغ هذا التأريخ الجاهلي في يوم من الأيام التأريخ الذي وصل اليه العلماء في مصر وفي العراق ، أو في أمــاكن أخرى عرفت بقدم تأريخها ، بل لا أستبعد أيضاً أن يتقدم هذا التأريخ تأريخ بعض الأماكن المذكورة .

وبعد هذا ، لا بد لي هنا من الاعتراف بفضل رجل ، له على هذا الكتاب وعلى الكتاب الأول يد ومنة ، وله كذلك على مؤلفها فضل سابق ، يسبق زمن تأليف كتابيه بأمد طويل، هو فضل الارشاد والتوجيه والتعليم . وأريد به الاستاذ العلامة الفاضل السيد محمد بهجت الأثري ، العضو العامل في مجمع اللغة العربيـــة بالقاهرة وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضو المجلس الأعلى الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . فقد كان لي ولأمثالي من الدارسـين والباحثين ولا يزال مرشداً وموجهاً ومشوقاً لدراسة التراث العربي والتراث الإسلامي والتأليف في ذلك ، مذ كنت تلميذه في الإعدادية المركزية ببغداد أتلقى عنه في جملة من كانوا يتلقون عنــه الأدب العربي ، فكان يشوقنا بأسلوبه الجذاب ، وبتأثيره القوي المعروف ، الى التوسع في دراسة الأدب العربي وتأريخ الأمــة العربية ، وهو ما برح يحثني على الاسراع في اتمام هذا الكتاب واخراجه للناس ، قارئاً مسوداته ، ومبــدياً آراءه وارشاداته وملاحظاته القيمة ، التي أفادتني ، والحق

أقول ، كثيراً . وهما فضلان لن ينساهما تلميذ يقدّر الفضل لأستاذ كريم يفني نفسه في تربية الأجيال ونشر الأدب والعلم .

وبعد ، فهذا الكتاب هو جمعي وترتيبي ، فأنا المسؤول عنه وحدي، وليس لأحد محاسبة غيري عليه ، اجتهدت ألا اضمّنه الا الحق والصواب من العلم على قدر طاقتي واجتهادي ، فإن أكن قد وفقت فيما قصدت اليه وأردته ، فذلك حسبي وكفى ، لا أريد عليه حمداً ولا شكراً ، لأني قمت بواجب، وعملت عن شوق ورغبة وولع قديم بهذا الموضوع يرجع الى أيام دراستي الأولى ، فليس لي فضل ولا منّة ، وإن كان فيه حسناً فهو للعلماء الذين اعتمدت عليهم وأخذت منهم ، وليس لي فيه غير الجمع والتأليف . وإن أخفقت فيه فذلك مبلغ علمي واجتهادي ، أديته بعد تعب،لا أملك أكبر منه ، وبغيتي حسن التوجيه والإرشاد وتقويم الأود ، وتصحيح الأغلاط ، فالنقد العلمي الحق إنشاء وبناء ، والمدح والإطراء في نظري ابعاد لطالبي العلم من أمثالي عن العمل والتقدم،وسبب يؤدي الى الخيلاء والضلال ، وفوق كل ذي علم عليم .

جواد علي

الفصل الأول

تحديد لفظة العرب

نطلق لفظة « العرب » اليوم علــى سكّان بلاد واسعة ، يكتبون ويؤلفون وينشرون ويخاطبون بالإذاعة و « التلفزيون » بلغة واحدة ، نقول لها لغـة العرب أو لغة الضاد أو لغة القرآن الكريم . وإن تكلموا وتفــاهموا وتعاملوا فيما بينهم وفي حياتهم اليومية أدّوا ذلك بلهجات محلية متباينة ، ذلك لأن تلك اللهجات إذا أرجعت رجعت الى أصل واحد هو اللسان العربي المذكور ، وإلى ألسنـة قبائل عربية قديمة ، وإلى ألفاظ أعجمية دخلت تلك اللهجات بعوامل عديدة لا يدخل البحث في بيان أسبابها في نطاق هذا البحث .

ونحن إذْ نطلق لفظة (عرب) و (العرب) على سكان البلاد العربية ، فإنما نطلقها اطلاقاً عاماً على البدو وعلى الحضر ، لا نفرق بين طائفة من الطائفتين ، ولا بــين بلد وبلد . نطلقها بمعنى جنسية وقومية وعلم على رسٍّ له خصائص وسمات وعلامات وتفكير يربط الحاضرين بالماضين كما يربط الماضي بالحاضر .

واللفظة بهذا المعنى وبهذا الشكل ، مصطلح يرجع الى ما قبل الإسلام،ولكنه لا يرتقي تأريخياً الى ما قبل الميلاد ، بل لا يرتقي عن الإسلام الى عهــد جدّ بعيد . فأنت إذا رجعت الى القرآن الكريم ، والى حديث رسول الله ، وجـدت للفظة مدلولاً يختلف عن مدلولها في النصوص الجاهلية التي عُثر عليهـا حتى الآن، أو في التوراة والإنجيل والتلمود وبقية كتب اليهود والنصارى وما بقي من مؤلفات

يونانية ولاتينية تعود الى ما قبل الإسلام . فهي في هذه أعراب أهل وبر ، أي طائفة خاصة من العرب . أما في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي الشعر المعاصر للرسول ، فإنها علَم على الطائفتين واسم للسان الذي نزل به القرآن الكريم، لسان أهل الحضر ولسان أهل الوبر على حد سواء . «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[1] » ، « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادَون من مكان بعيد[2] » .

وإذا ما سألتني عن معنى لفظة (عرب) عند علماء العربية ، فإني أقول لك: إن لعلماء العربية آراء في المعنى ، تجدها مسطورة في كتب اللغة وفي المعجمات . ولكنها كلها من نوع البحوث المألوفة المبنية على أقوال وآراء لا تعتمد على نصوص جاهلية ولا على دراسات عميقة مقارنة ، وُضعت على الحدس والتخمين ، وبعد حيرة شديدة في ايجاد تعليل مقبول فقالوا ما قالوه مما هو مذكور في الموارد اللغوية المعروفة ، وفي طليعتها المعجمات وكتب الأدب . وكل آرائهم في تفسير اللفظة وفي محاولة ايجاد أصلها ومعانيها ، هو اسلامي ، دوّن في الاسلام .

وترى علماء العربية حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية ، فبينما يذهبون الى أن (يعرب) كان أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي، ثم يقولون : ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم ، أي انهم يرجعون عهده الى مبدأ الخليقة ، وقد كانت الخليقة قبل خلْق (يعرب) بالطبع بزمان طويل . ثم تراهم يقولون : أول من تكلم بالعربية ونَسِي لسان أبيه اسماعيل . ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً . وكان أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة ، وهو ابن أربع عشرة سنة [3] . واسماعيل هو جدّ العرب المستعربة على حد قولهم .

والقائلون إن (يعرب) هو أول من أعرب في لسانه ، وانه أول من نطق

---

١ سورة النحل . رقم ١٦ الآية ١٠٣ .
٢ سورة فصلت . رقم ٤١ الآية ٤٤ .
٣ تاج العروس (٢ / ٣٥٢) ، « طبعة الكويت » « عرب » ، اللسان (٢ / ٧٥) المزهر (١ / ٣٠ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢ / ٨٦) .

بالعربية ، وان العربية إنما سميت به ، فأخذت من اسمه ، انما هم القحطانيون . وهم يأتون بمختلف الروايات والأقوال لإثبات أن القحطانيين هم أصل العرب ، وأن لسانهم هو لسان العرب الأول ، ومنهم تعلّم العدنانيون العربية ، ويأتون بشاهد من شعر (حسان بن ثابت) على اثبات ذلك ، يقولون : انه قاله ، وان قوله هذا هو برهان على ان منشأ اللغة العربية هو من اليمن . يقولون انه قال :

تعلمتُم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر[1]

ولم يكن يخطر ببال هؤلاء أن سكان اليمن قبل الإسلام كانوا ينطقون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، وأن من سيأتي بعدهم سيكتشف سر «المسنَد» ، ويتمكن بذلك من قراءة نصوصه والتعرف على لغته ، وأن عربيته هي عربية تختلف عن هذه العربية التي ندوّن بها ، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في الاسلام بالطبع الى اخراج الحميرية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى من العربية، وقصْر العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وعلى ما تفرع منها من لهجات كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . وهو رأي يمثل رأي العدنانيين خصوم القحطانيين .

والقائلون إن يعرب هو جدّ العربية وموجدها ، عاجزون عن التوفيق بين رأيهم هذا ورأيهم في أن العربية قديمة قدم العالم ، وأنها لغة آدم في الجنة ، ثم هم عاجزون أيضاً عن بيان كيف كان لسان أجداد (يعرب) ، وكيف اهتدى (يعرب) الى استنباطه لهذه اللغة العربية ، وكيف تمكن من ايجاده وحده لها من غير مؤازر ولا معين ؟ الى غير ذلك من أسئلة لم يكن يفطن لها أهل الأخبار في ذلك الزمن . وللأخباريين بعد كلام في هذا الموضوع طويل ، الأشهر منه القولان المذكوران ، ووفق البعض بينهما بأن قالوا : إن (يعرب) أول من نطق

---

١ كتاب الاكليل ، (١/١١٦) تحقيق (محمد بن علي الاكوع الحوالي) ، القاهرة سنة ١٩٦٣ (مطبعة السنة المحمدية) ، المكتبة اليمنية (٢) ، الاصمعي .

بمنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن[1] .

أما المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون ، فقد تتبعوا تأريخ الكلمة ، وتتبعوا معناها في اللغات السامية، وبحثوا عنها في الكتابات الجاهلية وفي كتابات الآشوريين والبابليين واليونان والرومان والعبرانيين وغيرهم ، فوجدوا أن أقدم نص ّ وردت فيه لفظة (عرب) هو نص آشوري من أيام الملك (شلمنصر الثالث) (الثاني ؟) ملك آشور[2] . وقد تبين لهم أن لفظة (عرب) لم تكن تعني عند الآشوريين ما تعنيه عندنا من معنى ، بل كانوا يقصدون بها بداوة وإمارة « مشيخة » كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية ، كان حكمها يتوسع ويتقلص في البادية تبعاً للظروف السياسية ولقوة شخصية الأمير ، وكان يحكمها أمـــير يلقب نفسه بلقب « ملك » يقال له (جنديبو) أي (جندب) وكانت صلاته سيئة بالآشوريين .

ولما كانت الكتابة الآشورية لا تحرك المقاطع ، صعُب على العلماء ضبط الكلمة، فاختلفوا في كيفية النطق بها، فقرئت : (Aribi) و (Arubu) و (Aribu) و (Arub) و (Arabi) و (Urbi) و (Arbi) الى غير ذلك من قراءات[3] . والظاهر أن صيغة (Urbi) كانت من الصيغ القليلة الاستعمال ، ويغلب على الظن أنها استعملت في زمن متأخر[4] ، وأنها كانت بمعنى (أعراب) على نحو ما يقصد من كلمي (عُربي) و (أعربي) في لهجة أهل العراق لهذا العهد . وهي تقابل كلمة (عرب) التي هي من الكلمات المتأخرة كذلك على رأي بعض المستشرقين . وعلى كل حال فإن الآشوريين كانوا يقصدون بكلمة (عربي) على اختلاف أشكالها بداوة ومشيخة كانت تحكم في أيامهم البادية تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرة في تخوم البادية[5] .

---

١ تاج العروس (٢ / ٣٥٢) ، « طبعة الكويت » .

٢ Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to the rise of Islam, P. 3, The Jewish Encyclopedia, New York, 1902, P. 41, Reallexikon der Assyriologie, erster Band, Zweite Lieferung, S., 125, James A. Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 27.

٣ Erich Ebling und Bruno Meissner, Reallexikon der Assyriologie, Erster Band, Berlin and leipzig 1922, P. 125.

٤ Ency, Bibli. Vol., I, P. 273, E. Schrader Keilinschriften und Geschichtforschung, PP. 100, Fr. Delityech, wo lag das Paradise?, P. 295, 304, F, Caussin de Perceval, Histoire des Arabes I, P., 4ff.

٥ ENCYCLOPEDIA BIBLICA, by cheyne, vol., I, p. 273.

ووردت في الكتابات البابليـــة جملة « ماتواربي » (Matu A-Ra-bi) ، (Matu Arabaai) ومعنى (ماتو) (متو) أرض ، فيكون المعنى (أرض عربي) ، أي (أرض العرب) ، أو (بلاد العرب) ، أو (العربية) ، أو (بلاد الأعراب) بتعبير أصدق وأصح . اذ قصد بهـــا البادية ، وكانت تحفل بالأعراب[1] . وجاءت في كتابة (بهستون) (بيستون)[2] (Behistun) لدارا الكبير (داريوس)[3] لفظة (ارباية) (عرباية) (Arabaya)[4] وذلك في النص الفارسي المكتوب باللغة (الأخمينية)، ولفظة (Arpaya) (M Ar Payah) في النص المكتوب بلهجة أهل السوس (Susian) (Susiana) وهي اللهجـــة

١ W. Muss Arnolt, و assyrisch — english — Deutsches handwort-erbuch, Berlin, 1903, s., 616, Winckler, A.O.F., Band, 2, S., 465, Margoliouth, The relations between Arabs and israelites prior to the rise of islam, London, 1924, p., 3.

٢ (بهستون) و (بسيستون) . « بهستون (بالفتح ثم الكسر) : قرية بيـــن همذان وحلوان ، اسمها ساسباتان ، بينها وبين همـــذان اربع مراحـــل ، وبينها وبين قرميسين ثمانية فراسخ . وجبل بهستون ، عال مرتفع ممتنع ، لا يرتقى الى ذروته ، وطريق الحاج تحته سواء ، ووجهه من أعلاه الى أسفله أملس كانه منحوت ، ومقدار قامات كثيرة من الارض قد نحت وجهه وملس. فزعم بعض الناس أن الأكاسرة أراد أن يتخذ حول هذا الجبل موضع سوق ليدل به على عزته وسلطانه . وعلى ظهر الجبل بقرب الطريق مكان يشبه الغار وفيه عين ماء جارية ، وهناك صورة دابة كأحسن ما يكون من الصور ، زعموا انها صورة دابة كسرى المسماة شبديز ، وعليها كسرى ، وقد ذكرته مبسوطا في باب الشين » ، البلـــدان (٢ / ٣١٥) ، (طبعـــة وستفلـــد) (٧٦٩/١) (شيـــداز : بـــكسر اولـــه وسكـــون ثانيـــه ثم دال مهملـــة وآخره زاي . ويقال : شيديز بالياء المثناة من تحت .... منزل بين حلوان وقرميسين في لحف جبل بيستون ، سمي باسم فرس كان لكسرى ، وقد وصف ياقـــوت الحموي الموضع ، وذكر آراء الناس فيه والقصص التي كانت تروى عـــن الصور ، البلدان (٥ / ٢٢٨) .

٣ يعرف في الكتب العربية بـ (دارا) ، كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ص (٢٠) ، مـــروج الذهـــب (١٩٦/١ ، ٢٤٥) ، (دارا الكبـــير) (دارا الاكبر) تأريخ الطبري (٦٨٧/١ ، ٧٠٦ ، ٧١٩) طبعة اوروبة .

٤ The Sculptures and inscription of Darius the great on the Rock of Behistun in persia, London, 1907, p., XIVIII, 161 Ency. Bibli., 273, Hastings, Dictionary of the Bible, p., 46 Hastings : وسيكون رمزه :

العيلامية لغة عيلام[1] .

ومراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من (العربية) أو (بلاد العرب) ، البادية التي في غرب نهر الفرات الممتدة الى تخوم بلاد الشام .

وقد ذكرت (العربية) بعد آشور وبابل وقبل مصر في نص (دارا) المذكور[2]، فحمل ذلك بعض العلماء على ادخال طور سيناء في جملة هذه الأرضين[3] . وقد عاشت قبائل عربية عديدة في منطقة سيناء قبل الميلاد .

وبهذا المعنى أي معنى البداوة والأعرابية والجفاف والقفر ، وردت اللفظة في العبرانية وفي لغات سامية أخرى . ويدل ذلك على أن لفظة (عرب) في تلك اللغات المتقاربة هو البداوة وحياة البادية ، أي بمعنى (أعراب) . واذا راجعنا المواضع التي وردت فيها كلمة (عربي) و (عرب) في التوراة ، نجدها بهذا المعنى تماماً . ففي كل المواضع التي وردت فيها في سفر (أشعياء) (Isaiah) مثلاً نرى أنها استعملت بمعنى بداوة وأعرابية ، كالذي جاء فيه : (ولا يخيم هناك أعرابي[4]) و(وحي من جهة بلاد العرب ، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين[5]) . فقصد بلفظة (عرب) في هذه الآية الأخيرة البادية موطن العزلة والوحشة والخطر ، ولم يقصد بها قومية وعلمية لمجلس معين بالمعنى المعروف المفهوم .

ولم يقصد بجملة (بلاد العرب) في الآية المذكورة والتي هي ترجمة (مسا

---

١ (السوس بضم اوله وسكون ثانيه وسين مهملة اخرى . بلفظ السوس الذي يقع في الصوف : بلدة بخوزستان ، فيها قبر دانيال عليه السلام . قال حمزة : السوس تعريب الشوش بنقط الشين ، ومعناه الحسن والنزه والطيب ... قال ابن المقفع : أول سور وضع في الارض بعد الطوفان سور السوس وتستر ولا يدرى من بنى السوس وتستر والابلة . وقال ابن الكلبي : السوس بن سام بن نوح) ، البلدان (٥ / ١٧١ وما بعدها)

٢ Sculp. P., 4, 95, 161.

٣ Ency., Bibli., P., 273, Hastings, P. 46.' Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, I, PP., 267, J. Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P., 131, J. Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, p., 84.

٤ الاصحاح الثالث عشر ، آية ٢٠ (ولا يضرب أعرابي فيها خباء) ، الترجمة الكاثوليكية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

٥ الاصحاح الحادي والعشرين ، الآية ١٣ ،
J. Simons, The Georgraphical and Topographical Texts of the Old Testament, Leiden, 1959, P., 4.

هـ ــ عراب) (Massa ha-Arab) ، المعـنى المفهوم من (بلاد العرب) في الزمن الحاضر أو في صدر الإسلام ، وإنما المراد بها البادية ، الـتي بين بلاد الشام والعراق وهي موطن الأعراب[١] .

وبهذا المعنى أيضاً وردت في (أرميا) ، ففي الآية (وكل ملوك العرب) الواردة في الاصحاح الخامس والعشرين[٢] ، تعني لفظة « العرب » «الأعرابي» ، أي « عرب البادية » . والمراد من « وكل ملوك العـرب » و « كل رؤساء العرب » و « مشايخهم » ، رؤساء قبائل ومشايخ ، لا ملوك مدن وحكومات. وأما الآية : « في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية »[٣] ، فإنها واضحة ، وهي من الآيات الواردة في (أرميا) . والمراد بها أعرابي من البادية ، لا حضري من أهل الحاضرة . فالمفهوم اذن من لفظة (عرب) في اصحاحات (أرميا) إنما هو البداوة والبادية والأعرابية ليس غير .

ومما يؤيد هذا الرأي ورود (ها عرابة ha ‘Arabah) في العبرانية ، ويراد بها ما يقال له : (وادي العربة) ، أي الوادي الممتد من البحر الميت أو من بحر الجليل الى خليج العقبة[٤] . وتعني لفظة (عرابة) في العبرانية الجفاف وحافة الصحراء وأرض محروقة ، أي معاني ذات صلة بالبداوة والباديـة . وقد أقامت في هذا الوادي قبائل بدوية شملتها لفظة (عرب) . وفي تقارب لفظة (عرب) و (عرابة) ، وتقارب معناهما ، دلالة عـلى الأصل المشترك للفظتين . ويعدّ وادي (العربة) وكذلك (طورسيناء) في بلاد العرب . وقصد بـ (العربية) برية سورية في (رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية)[٥] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٨٨ فما بعدها) ،
A Religios Encylopaedia or Dictionary of Biblical, Historical Doctorinal, and Practical Theology, by, Philip Schaff, 1894, Vol., I, P., 122.

٢ الاية ٢٤ ، The Bible Dictionary, I, P., 98

٣ الاصحاح الثالث ، الاية الثانية .

٤ Ency. Bibli., I, P., 271.

٥ « مكتوب انه كان لابراهيم ابنان : احدهما من الأمة ، والآخر من الحرة . غير أن الذي من الامة ولد بقوة الجسد ، اما الذي من الحرة فبقوة الموعد . وذلك انما هو رمز ، لان هاتين هما الوصيتان احداهما من طورسيناء تلد للعبودية ، فهي هاجر ، فان سيناء هو جبل في ديار العرب ، ويناسب أورشليم الحالية ، لان هذه حاصلة في العبودية مع بنيها) ، رسالة القديس بولس الـى اهـل غلاطية) ، الرسالة الرابعة ، ٢٢ فما بعدها، قاموس الكتاب المقدس (٢/٨٩).

وقد عرف علماء العربية هذه الصلة بين كلمة (عرب) و (عرابة) أو (عربة) ، فقالوا : (إنهم سمّوا عرباً باسم بلدهم العربات . وقال إسحاق بن الفرج : عربة باحة العرب ، وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام) [1] . وقالوا : (وأقامت قريش بعربة فتنخت بها ، وانتشر سائر العرب في جزيرتها ، فنسبوا كلهم الى عربة ، لأن أباهم اسماعيل ، صلى الله عليه وسلم ، نشأ وربى أولاده فيها فكثروا . فلما لم تحتملهم البلاد، انتشروا ، وأقامت قريش بها [2] . وقد ذهب بعضهم الى أن عربة من تهامة [3] ، وهذا لا ينفي على كل حال وجود الصلة بين الكلمتين .

ورواية هؤلاء العلماء ، مأخوذة من التوارة ، أخذوها من أهل الكتاب ، ولا سيما من اليهود، وذلك باتصال المسلمين بهم ، واستفسارهم منهم عن أمور عديدة وردت في التوراة ، ولا سيما في الأمور التي وردت مجملاً في القرآن الكريم والأمور التي تخص تأريخ العرب وصلاتهم بأهل الكتاب .

ويرى بعض علماء التوراة أن كلمة (عرب) إنما شاعت وانتشرت عند العبرانيين بعد ضعف (الاشماعيليين) (الاسماعيليين) وتدهورهم وتغلب الأعراب عليهم حتى صارت اللفظة مرادفة عندهم لكلمة (اشماعيليين) . ثم تغلبت عليهم ، فصارت تشملهم ، مع أن (الاشماعيليين) كانوا أعراباً كذلك ، أي قبائل بدوية تتنقل من مكان الى مكان ، طلباً للمرعى وللماء . وكانت تسكن أيضاً في المناطق التي سكنها الأعراب ، أي أهل البادية. ويرى أولئك العلماء ان كلمة (عرب) لفظة متأخرة ، اقتبسها العبرانيون من الآشوريين والبابليين ، بدليل ورودها في النصوص الآشورية والبابلية ، وهي نصوص يعود عهدها الى ما قبل التوراة . ولشيوعها بعد لفظة (اشماعيليين) ، ولأدائها المعنى ذاته المراد من اللفظة ، ربط بينها وبين لفظة (اشماعيليين) ، وصارت نسباً ، فصيّر جد هؤلاء العرب (اشماعيل) ، وعدّوا من أبناء إسماعيل [4] .

---

١ اللسان (٢ / ٧٢) ، القاموس المحيط (١ / ١٠٢) .
٢ اللسان (٧٢/٢) ، تاج العروس (٣٤٤/٣) ، « طبعة الكويت » .
٣ اللسان (٧٦/٢) ، تاج العروس (٣٤٤/٣) ، « الكويت » .
٤ راجع الالفاظ : (عرب) و (يشمعيل) في معجمات التوراة .

هذا ما يخص التوراة ، أما (التلمود) ، فقـد قصدت بلفظة (عرب) و (عربيم) ('Arbim) (عربئيم) ('Arbi'im) الأعـراب كذلك ، أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة ، وجعلت لفظة (عربي) مرادفـة لكلمة (اسماعيلي) في بعض المواضع[١] .

وقبل أن أنتقل من البحث في مدلول لفظة (عـرب) عند العبرانيين الى البحث في مدلولها عند اليونان ، أود أن أشير الى أن العبرانيين كانوا اذا تحدثوا عن أهل المدر ، أي الحضر ذكروهم بأسمائهم . وفي سلاسل النسب الواردة في التوراة ، أمثلة كثيرة لهذا النوع ، سوف أتحدث عنها .

وأول من ذكر العرب من اليونان هو (أسكيلوس ، أسخيلوس) « أشيلس » « أخيلوس » (Aeschylus) ، (٥٢٥ – ٤٥٦ قبل الميلاد) من أهل الأخبار منهم ، ذكرهم في كلامه على جيش (أحشويرش) (Xerxes) ، وقال : انه كان في جيشه ضابط عربي من الرؤساء مشهور[٢] . ثم تلاه (هيرودوتس) شيخ المؤرخين (نحو ٤٨٤ – ٤٢٥ قبل الميلاد) ، فتحـدث في مواضيع من تأريخه عن العرب حديثاً يظهر منه انه كان على شيء من العلم بهم . وقد أطلق لفظة (Arabae) على بلاد العرب ، البادية وجزيرة العرب والأرضين الواقعة الى الشرق من نهر النيل[٣] . فأدخل (طور سيناء) وما بعدها الى ضفاف النيل في بلاد العرب .

فلفظة (العربية) (Arabae) عند اليونان والرومان ، هي في معنى (بلاد العرب) . وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام. وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، على سبيل التغليب ، لاعتقادهم ان البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين ، فأطلقوها من ثم على الأرضين المذكورة .

وتدل المعلومات الواردة في كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد (هيرودوتس) على تحسن وتقدم في معارفهم عن بلاد العرب ، وعلى أن حدودها قد توسعت في مداركهم فشملت البادية وجزيرة العرب وطور سيناء في أغلب الأحيان، فصارت لفظة (Arabae) عندهم علماً على الأرضين المأهولة بالعرب والتي تتغلب عليها

---

١ موعيد قطان ١٢٤ أ
٢ Ency. Bibli., I, P., 273.
٣ Ency. Bibli., I, P., 271.

الطبيعة الصحراوية ، وصارت كلمـــة (عربي) عندهم علماً للشخص المقيم في تلك الأرضين ، من بدو ومن حضر ، إلاّ أن فكرتّهم عن حضر بلاد العرب لم تكن ترتفع عن فكرتّهم عن البدوي ، بمعنى انهم كانوا يتصورون أن العرب هم أعراب .

ووردت في جغرافية (سترابون) كلمة (أرمبي) (Erembi) ، ومعناها اللغوي الدخول في الأرض أو السكنى في حفر الأرض وكهوفها ، وقـــد أشار الى غموض هـــذه الكلمة وما يقصد بهـــا ، أيقصد بها أهل (طرغلوديته) (Troglodytea) أي (سكان الكهوف) أم العرب ؟ ولكنـــه ذكر أن هناك من كان يريد بها العرب ، وانها كانت تعني هذا المعنى عنـــد بعضهم في الأيام المتقدمة ، ومن الجائز أن تكون تحريفاً لكلمة (Arabi) فأصبحت بهذا الشكل[١].

أما الإرميون ، فلم يختلفوا عن الأشوريين والبابليين في مفهوم (بلاد العرب)، أي ما يسمى بـ (بادية الشام) وبادية السماوة . وهي البادية الواسعة الممتدة من نهر الفرات الى تخوم الشام . وقد أطلقوا على القسم الشرقي من هـــذه البادية ، وهو القسم الخاضع لنفـــوذ الفرس ، اسم (بيت عرباية) (Beth 'Arb'aya) و (باعرباية) (Ba 'Arabaya) ،ومعناها (أرض العرب) . وقـــد استعملت هذه التسمية في المؤلفات اليونانيـــة المتأخرة[٢] . وفي هـــذا الاستعمال أيضاً معنى الأعرابية والسكنى في البادية .

ووردت لفظة « عرب » في عدد من كتابات « الحضر » . ووردت مثلاً في النص الذي وسم بـ « ٧٩ » حيث جاء في السطرين التاسع والعاشر « وبجندا دعرب » ، أي « وبجنود العرب » . وفي السطر الرابع عشر : « وبحطـــر وعرب » ، أي « وبالحضر وبالعرب »[٣] . ووردت في النص : « ١٩٣ » : « ملكادي عرب » ، أي « ملك العـــرب » وفي النص « ١٩٤ » وفي نصوص أخرى[٤] . وقد وردت اللفظة في كل هذه النصوص بمعنى « أعراب » ، ولم ترد علماً على قوم وجنس ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر[٥] .

١ Strabo, Vol., 3, P., 215.

٢ Ency. Bibli., Vol., I, P., 273, Hastings, P., 46, Schrader, Keilinschr. und Gesch. S., 100, Delitzsch, Wo lag das Paradies? S., 295.

وسيكون رمزه Delitmych

٣ مجلة سومر ، السنة ١٩٦١ ، Die Araber, IV, S., 243. ff.

٤ سومر ، ١٩٦١ ، Die Araber, IV, S., 261.

٥ Die Araber, IV, S., 269.

هذا ، وليست لدينا كتابات جاهلية من النوع الـذي يقول له المستشرقون (كتابات عربية شمالية) ، فيها اسم (العرب) ، غير نص واحد، هو النص الذي يعود الى (امرىء القيس بن عمرو) . وقد ورد فيه : « مر القيس بر عمرو ، ملك العرب كله ، ذو اسرالتج وملك الأسدين ونزروا وملوكهم وهرب مذحجو ... »[1] . ولورد لفظة (العرب) في هذا النص الذي يعود عهده الى سنة (٣٢٨م) شأن كبير ، غير اننا لا نستطيع ان نقول : ان لفظة (العرب) هنا ، يراد بها العرب بدواً وحضراً ، أي يراد بها العلم على قومية ، بل يظهر من النص بوضوح وجلاء انه قصد (الأعراب) ، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيام .

أما النصوص العربية الجنوبية ، فقد وردت فيهـا لفظــة (اعرب) بمعنى (أعراب) ، ولم يقصد بها قومية ، أي علم لهذا الجنس المعروف،الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو ومن حضر ، فورد : (واعرب ملك حضرموت) ، أي (وأعراب ملك حضرموت)[2] ، وورد : (واعــرب ملك سبا) ، أي (وأعراب ملك سبأ)[3] . وكالذي ورد في نص (أبرهة) ، نائب ملك الحبشة على اليمن[4] . ففي كل هذه المواضع ومواضع أخرى ، وردت بمعنى أعراب[5] . أما أهل المدن والمتحضرون ، فكانوا يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم،وكانت مستقرة في الغالب . ولهذا قيل (سبأ) و (هَمْدان) و (حِمْيَر) وقبائل أخرى ، بمعنى انها قبائل مستقرة متحضرة ، تمتاز عن القبائل المتنقلة المسماة (اعرب) في النصوص العربية الجنوبية ، مما يدل على أن لفظة (عرب) و (العرب) لم

---

١ Ephemeris, 2-34, Nabia, P., 4, Plate, 2, Dussaud, in rev. Archeologique, II, (1902), 409, ff., Arabes en Syrie avant L'Islam, P., 34, Montgomery, Arabia and the Bible, P., 28.

وسيكون رمزه Montgomery .

٢ لما كان المسند لا يعرف الحركات ، صعب علينا قراءة الكلمات قراءة صحيحة فتجوز قراءة كلمة « اعرب » مثلا : (اعرب) وتجوز قراءتها (أعراب) .

٣ نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، بقلم الدكتور خليل يحي نامي (ص ٩٢) ، النقش ٧١ سطر ٢ ، وسأشير اليه بـ : نشر ، (ص ٩٣) نص رقم ٧٢ ، و ٧٣ .

٤ Glaser, Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib, S., 33, Ency, Bibli., I, P., 275, Cis, 541 Glasser, 618.

٥ Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Biqis Baltimore, 1962, P., 445

تكن تؤدي معنى الجنس والقومية وذلك في الكتابات العربية الجنوبية المدونة والواصلة الينا الى قبيل الإسلام بقليل (٤٤٩ م) (٥٤٢ م)[١] . والرأي عندي ان العرب الجنوبيين لم يفهموا هذا المعنى من اللفظة الا بعد دخولهم في الإسلام ، ووقوفهم على القرآن الكريم ، وتكلمهم باللغة التي نزل بها ، وذلك بفضل الإسلام بالطبع. وقد وردت لفظة (عرب) في النصوص علماً لأشخاص[٢] .

وقد عرف البدو ، أي سكان البادية ، بالأعراب في عربية القرآن الكريم . وقد ذكروا في مواضع من كتاب الله ، وقد نعتوا فيه بنعوت سيئة [٣] ، تدل على أثر خلق البادية فيهم . وقد ذكر بعض العلماء ان الأعراب بادية العرب ، وانهم سكان البادية [٤] .

والنص الوحيد الذي وردت فيه لفظة (العرب) علماً على العرب جميعاً من حضر وأعراب ، ونعت فيه لسانهم باللسان العربي ، هو القرآن الكريم . وقد ذهب (د. هـ. ملر) الى أن القرآن الكريم هو الذي خصص الكلمة وجعلها علماً لقومية تشمل كل العرب . وهو يشك في صحة ورود كلمة (عرب) علماً لقومية في الشعر الجاهلي، كالذي ورد في شعر لامرىء القيس ، وفي الأخبار المدونة في كتب الأدب على ألسنة بعض الجاهليين[٥] . ورأي (ملر) هذا ، رأي ضعيف لا يستند الى دليل ، اذ كيف تعقل مخاطبة القرآن قوماً بهذا المعنى لو لم يكن لهم علم سابق به ؟ وفي الآيات دلالة واضحة على أن القوم كان لهم إدراك لهذا المعنى قبل الاسلام ، وانهم كانوا ينعتون لسانهم باللسان العربي ، وانهم كانوا يقولون للألسنة الأخرى ألسنة أعجمية : (أأعجمي وعربي ؟ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء)[٦] . (وكذلك أنزلناه حكماً

---

١ Margoliouth, The Relations, P., 2, Glaser, 554, 2, MVAG., VI, 7, CIH. 79. 9. CIH, 343, 397, 7. CIH, IV, Pars Himyaritica, Nos, 79, 343, 397 Montgomery. P. 27.

٢ نشر (ص ٨٩) نص ٦٩ ،
Ansaldi, Cesare il Yemen, Nella Storia e nella Legenda,. Roma, 1933, Nr., 17, 69, Ryckmans, in Le Muséon, Vol., I, Part., 3, (1937), Nr. 180.

٣ التوبة ، الآية ٩٧ ، ١٠١ ، الفتح ، الاية ١١ ، الحجرات ، الاية ١٤ .

٤ بلوغ الارب (١/١٣) ، تاج العروس (٣/٣٣٣ فما بعدها) .

٥ D.H. Muller, in Neue Freie Presse, (1894), 20th April, Ency. Bibli., I, P., 274.
(قرى عربيات) ، الاغاني (٩ / ١٩) ، (١٠ / ١٤٩) .

٦ سورة فصلت رقم ٤١ ، الاية ٤٤ .

عربياً)[١] . (وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا)[٢] . (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين)[٣] . ففــي هذه الآيات وآيات أخرى غيرها دلالة على أن الجاهليين كانوا يطلقون عــلى لسانهم لساناً عربياً ، وفي ذلك دليل على وجود الحس بالقومية قبيل الإسلام[٤] .

ونحن لا نزال نميز الأعراب عن الحضر ، ونعتّدهم طبقة خاصة تختلف عن الحضر ، فنطلق عليهم لفظة : (عرب) في معنى بدو وأعراب ، أي بالمعنى الأصلي القديم ، ونرى ان عشيرة (الرولة) وعشائر أخرى تقسم سكان الجزيرة الى قسمين : حضر و (عرب) . وتقصد بالعرب أصحاب الخيام أي المتنقلين. وتقسم العرب ، أي البدو الى (عرب القبيلة) ، و (عرب الديرة) ، وهم العرب المقيمون على حافات البوادي والأرياف ، أي في معنى (عرب الضاحية) و (عرب الضواحي) في اصطلاح القدامى .

ثم تقسم الحضر وتسمّيهم أيضاً بـ (أهل الطين) الى (قارين) ، والواحد (قروني) ،وهم المستقرون الذين لهم أماكن ثابتة ينزلونها أبداً ، والى (راعية) والمفرد راع ، وهم أصحــاب أغنام وشبــه حضر ، ويقال لهم (شوّاية) و (شيّان) و (شاوية) و (رحم الديرة) بحسب لغات القبائل[٥] .

وأشبه مصطلح من المصطلحات القديمة بمصطلح (شوّاية) و « شاوية » ، هو (الأرحاء) ، وهي القبائل التي لا تنتجع ولا تبرح مكانها ، إلا ان ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب[٦] .

وخلاصة ما تقدم ان لفظة (ع ر ب) ، (عرب) ، هي بمعنى التبدي والأعرابية في كل اللغات الساميــة ، ولم تكــن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم

---

١ سورة الرعد رقم ١٣ ، الاية ٣٧
٢ سورة الاحقاف ، رقم ٤٦ الاية ١٢
٣ النحل ، السورة رقم ١٦ ، الاية ١٠٣
٤ سورة يوسف الاية ٢ ، سورة طه الاية ١١٣ ، سورة الزمر ، الاية ٢٨ ، سورة الشورى ، الاية ٧ ، سورة الزخرف ، الاية ٣ .
٥ B.R. 527 (Restricted), Geographical Handbook Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June 1946, Naval Intelligence Division, PP., 398. « شاوية » .
٦ العقد الفريد (٣ / ٣٣٥) .

النصوص التاريخية التي وصلت الينا ، وهي النصوص الآشورية . وقد عنت بها البدو عامة ، مهما كان سيدهم أو رئيسهم . وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم. ولما توسعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب ، توسعوا في استعمال اللفظة ، حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار انهم أهل بادية وان حياتهم حياة أعراب . ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم ، فصارت علمية عند اولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها ، وأطلق لذلك كتبة اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظة (Arabae) (Arabia) أي (العربية) بمعنى بلاد العرب .

لقد أوقعنا هذا الاستعمال في جهل بأحوال كثير من الشعوب والقبائل، ذكرت بأسمائها دون أن يشار الى جنسها . فحرنا في أمرها ، ولم نتمكن من ادخالها في جملة العرب ، لأن الموارد التي نملكها اليوم لم تنص على أصلها . فلم تكن من عادتها ، ولم يكن في مصطلح ذلك اليوم كما قلت اطلاق لفظة (عرب) إلا على الأعراب عامة ، وذلك عند جهل اسم القبيلة ، وكانت تلك القبيلة بادية غير مستقرة، وقد رأينا ان العرب أنفسهم لم يكونوا يسمون أنفسهم قبل الميلاد ، إلا بأسمائهم ، ولولا وجودهم في جزيرة العرب ولولا عثورنا على كتابات أو موارد أشارت اليهم ، لكان حالهم حال من ذكرنا ، أي لما تمكنّا من ادخالهم في العرب . ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً تجاه القبائل المذكورة ، وليس لنا إلا الانتظار ، فلعل الزمن يبعث نصاً يكشف عن حقيقة بعض تلك القبائل .

هذا ويلاحظ أن عدداً من القبائل العربية الضاربة في الشمال والساكنة في العراق وفي بلاد الشام ، تأثرت بلغة بني إرم ، فكتبت بها ، كما فعل غيرهم من الناس الساكنين في هذه الأرضين ، مع انهم لم يكونوا من بني إرم . ولهذا حسبوا على بني إرم ، مع أن أصلهم من جنس آخر . وفي ضمن هؤلاء قبائل عربية عديدة ، ضاع أصلها ، لأنها تثقفت بثقافة بني إرم ، فظن لذلك انها منهم .

الآن وقد انتهيت من تحديد معنى (عرب) وتطورها الى قبيل الإسلام ، أرى لزاماً عليّ أن أتحدث عن ألفاظ أخرى استعملت بمعنى (عرب) في عهد من العهود ، وعند بعض الشعوب . فقد استعمل اليونان كلمة (Saraceni)

و (Saracenes) ، واستعملها اللاتين على هـذه الصورة (Saracenus) ، وذلك في معنى (العرب)[1] وأطلقوها على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشأم[2] وفي طور سيناء[3] ، وفي الصحراء المتصلة بأدوم[4] . وقد توسع مدلولها بعد الميلاد ، ولا سيما في القرن الرابع والخامس والسادس ، فأطلقت على العرب عامة ، حتى أن كتبة الكنيسة ومؤرخي هذا العصر قلما استعملوا كلمة (عرب) في كتبهم ، مستعيضين عنها بكلمة (Saraceni)[5] . وأقدم من ذكرها هو (ديوسقوريدس Dioscurides of Anazarbos) الذي عاش في القرن الأول للميلاد[6] . وشاع استعمالها في القرون الوسطى حيث أطلقها النصارى على جميع العرب ، وأحياناً على جميع المسلمين[7] . ونجد الناس يستعملونها في الانكليزية في موضع (عرب) ومسلمين حتى اليوم .

وقد أطلق بعض المؤرخين من أمثال « يوسبيوس » « أويسبيوس » (Eusebius) و (هيرونيموس) (Hieronymus) هذه اللفظة على (الاشماعيليين) الذين كانوا يعيشون في البراري في (قادش) في برية (فاران) ، أو مدين حيث جبل (حوريب)[8] . وقد عرفت أيضاً بـ (الهاجرين) (Hagerene) ثم دعيت بـ (Saracenes)[9] .

ولم يتحدث أحد من الكتبة اليونان والرومان والسريان عن أصل لفظة (Saraceni) (Sarakenoi) . ولم يلتفت العلماء الى البحث في أصل التسمية إلا بعد النهضة العلمية الأخيرة ، ولذلك اختلفت آراؤهم في التعليل ، فزعم بعضهم انه مركب من (سارة) زوج ابراهيم ، ولفظ آخر ربما هو (قين) ،

---

١ Forster, Vol., 2, P., 9, Webester's New International Dictionary of English Language, Vol., 2, P., 2216, Ency. Brita., Vol., 19, P. 987

٢ Ency. Brita., Vol., 19, P., 987

٣ Forster, Band, 2, S., 9, Ptolemy, 5, 16, Ency. of Islam, Vol., 4, P. 155.

٤ Forster, Vol., P. 20. f.

٥ Ency. of Islam, Vol., 4, P., 156.
وسيكون الرمز : Ency

٦ Ency., Vol., 4, P., 155, Bretzl, Botanische Forschungen des Alx Alexanderzuges, S., 282.

٧ Ency. Vol, 4 P., 155.

٨ قاموس الكتاب المقدس (١ / ٣٩٥) .

٩ Ency., Vol., 4, P., 156, Eusebius, (ed. Schoene), II, 13, Chron. Pasch., 94, 18.

فيكون المعنى (عبيد سارة)[1] . وقال آخــرون : انه مشتق من (سرق) ، فيكون المواد من كلمة (Saraceni) (سراكين) (السراقين) أو (السارقين) اشارة الى غزوهم وكثرة سطوهم[2] . أو من (Saraka) بمعنى (Sherk) أي (شرق)[3] ، ويراد بذلك الأرض التي تقع الى شرق النبط . وقال (ونكلر) انه من لفظة (شرقو) ، وتعني (سكان الصحراء) أو (أولاد الصحراء) . استنتج رأيه هذا من ورود اللفظة في نص من ايام (سرجون)[4] . ويرى آخرون انه تصحيف (شرقين) ، أو (شارق)[5] على نحو ما يفهم من كلمة (قدموني) (Qadmoni) في التوراة ، بمعنى شرقي ، أو أبناء الشرق (Bene Kedem) (Bene Qedhem)[7] . وكانت تطلق خاصة على القبائــل التي رجع النسابون العبرانيون نسبها الى (قطورة)[8] .

وقد مال الى هذا الرأي الأخير اكثر من بحث في هذه التسمية من المستشرقين، فعندهم ان (سرسين) أو (سركين) أو (Sarakenoi) من (شرق) ، وان (Bene Kedem) و (Qadmoni) العبرانيتــين همــا ترجمتان للفظــة (Saraceni)[9] . ولهذا يرجحون هذا الرأي ويأخذون به .

---

١ الهلال السنة السادسة ، الجزء (١٥ دسمبر) ١٨٩٧ ، ص ٢٩٦ ، المشرق : السنة السابعة ، الجزء ٧ ، ص ٣٤٠ ، حيث رأى (الاب أنستاس مــاري الكرملي) ان Sarrasins من (سرحة) ، وهو مخلاف باليمــن . وعلى هذا فهم (السرحيون) . (وسمعتهم يقولون : سراكنــو ، سراكنــو ، ومعناه المسلمون) ، رحلة ابن بطوطة (٢ / ٤٤١) (طبعة اوربة) ، تحفــة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار : تهذيب رحلة ابن بطوطة ، بقلــم احمد العوامري بك ومحمد احمد جاد المولى بك ، (بولاق ١٩٣٤) ، (١ / ٢٨٨) ، (قل لهذا السركنو يعني المسلــم) (ص ٢٩٣) ، (وكانت الــروم تسمي العرب سارقيوس ، يعني ذوي سارة ، بسبب هاجر أم اسماعيل) ، ابــن الاثير : الكامل (١ / ١١٧) .

٢ الهلال : السنة ٦ (ج ٨) (١٨٩٧) ص ٢٩٦ .

٣ Musil, Arabia Deserta, P., 311, Stephen of Byzantium, Ethnica, P., 556, (Meineke),

٤ Ency., Vol., 4, P., 156, Winckler, Altorient. Forschungen, II, Ser., I, 77f.

٥ الهلال : الجزء المذكور ، ص ٢٩٦ ، مجلة لغة العرب ، الجــزء ٤ السنــة ٧ (١٩٢٩) ص ٢٩٣ ، Ency., Vol., 4, P., 156

٦ التكوين : الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١٩ .

٧ قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٢٠٦) ، Hastings, P., 512,

٨ التكوين ٢٥ ، الاية ١ ــ ٦ ، Hastings, P., 512,

٩ Musil, Deserta, P., 494.

والقائلون ان (سارقين) من أصل لفظتين (سارة) ، زوج ابراهيم، ومن (قين) بمعنى (عبد) وان المعنى هو (عبيد سارة) ، متأثرون برواية التوراة عن سارة وبالشروح الواردة عنها [1] . وليست لأصحاب هذا الرأي أيـة ادلة أخرى غير هذا التشابه اللفظي الذي نلاحظه بين (سرسين) وبين (سارقين)، وهو من قبيل المصادفة والتلاعب بالألفاظ ولا شك ، وغير هذه القصة الواردة في التوراة : قصة (سارة) التي لا علاقة لها بالسرسين .

هذا وما زال أهل العراق يطلقون لفظة (شروك) و (شروكية) عـلى جماعة من العرب هم من سكان (لواء العمارة) والأهوار في الغالب ، وينظرون اليهم نظرة خاصة ، ولا شك عندي ان لهذه التسمية علاقة بتلك التسمية القديمة.

ويستعمل اهل العراق في الوقت الحاضر لفظة اخرى ، هي (الشرجية) ، أي (الشرقية) ، ويقصدون بها جهة المشرق . وتقابل لفظة (بني قديم) في العبرانية،وهي من بقايا المصطلحات العراقية القديمة التي تعبر عن مصطلح(شركوني) و (بني قديم) .

هذا وقد عرف العرب ان الـروم يسمونهم (ساراقينوس) ، فقد ذكـر (المسعودي) ان الروم الى هذا الوقت (أي الى وقته) تسمي العرب(ساراقينوس). وذكر خبراً طريفاً عن ملك الروم (نقفور) المعاصر لـ (هارون الرشيد) . فقد زعم انه (أنكر على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس . تفسير ذلك عبيد ساره ، طعناً منهم على هاجر وابنها اسماعيل ، وانها كانت امةً لسارة ، وقال: تسميتهم عبيد سارة ، كذب[2] .

وقد كانت منـازل (القدمونيين) ، (هقدمـني) ، (هاقدمونـي) (Kadmonites) ، في المناطق الشرقية لفلسطين ، أي في بادية الشام . ولمـا كان (قيدما) (Kedemeh) هو أحد أبناء اسماعيل في اصطلاح (التوراة)، فيكون أبناء (قيدما) من العرب الاسماعيليين[3] . وقد ذكر في موضع من التوراة انهم كانوا يقطنون المناطق الشرقية لفلسطين قرب (البحر الميت) المعروف في

---

١ لغة العرب ج ٤ ، من السنة ٧ ، ص ٢٩٤ .
٢ التنبيه (ص ١٤٣) (طبعة عبد الله اسماعيل الصاوي) .
٣ Hastings, P., 512, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P., 633.

العبرانية بـ (هايم هقدموني) ، أي (البحر القدموني) (البحر الشرقي)[1] .

وقد كان (القدمونيون) ، أي (بنو قديم) أعراباً يقطنون في بادية الشام، وأشباه أعراب ، أي رعاة وأشباه حضريين ، واللفظة لا تعني قبيلة واحدة معينة، أي علمية ، ولا تعني قبائل معينة ، وإنما هي لفظة عامة أطلقت على الساكنين في الأماكن الشرقية بالنسبة الى العبرانيين[2] .

ونجد في الكتب اليونانية لفظة لها علاقة بطائفة من العرب، هي (Skenitae) (Scenitae) ، وقد أطلقت خاصة على أعراب بادية الشام . وقصد بها الأعراب سكان الخيام ، أي (أهل الوبر) في اصطلاح العرب . وقد ذهب بعض العلماء الى أنها من (الخيمة) التي هي منزل الأعرابي ، لأن الخيمة هي (Skene) (Skynai) في اليونانية . فالمعنى إذن (سكان الخيام)[3] .

وقد ذكـــر (سترابون) ان الـ (Scenitae) كانوا نازلين عـــلى حدود (سورية) الشرقية ، كما ذكر ان منهم من كان ينزل شمال (العربية السعيدة) وهم سكان خيام[4] . وقد فرّق (سترابون) بينهم وبين البدو تفريقاً ظاهراً ، وميزهم عن غيرهم من الأعراب بسكناهم في الخيـــام . وقال عنهم في موضع آخر : انهم يمثلون بصورة عامة (بدو) العراق[5] . وانهم يعتنون بتربية الإبل. وقد ذكرهم أيضاً في اثناء كلامه على ساحل (Maranitae) فقال : انه مأهول بالفلاحين وبالـ (Scenitae) وأراد بهم الأعراب الذين لا يسكنون إلا الخيام ويعيشون على تربية الإبل ، وقد ذكر انهم كانوا قبائل ومشيخات[6] .

وقد ذكرهم (بلينيوس) كذلك ، فدعاهم بـ (Scenitae)[7] . وقـــد كانوا يقيمون في البادية . وقـــد حاربهم (سبتيموس سفيروس) ، وسأتحدث

---

١ حزقيال ، الاصحاح ٤٤ ، الاية ١٨ Hastings, A Dictionary, I, P., 8311,

٢ J. Simons, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament, P., 13.

٣ Webester's New International Dictionary of the Englisch Language, Vol, 2, P. 2233, Strabo, XVI, 2 : 2, Vol., I, P., 63, 196, 441, Vol., 2, P. 219, 252. Vol. 3. P. 160. 166, ,185, 190, 204, (Hamilton).

٤ Strabo, Vol., I, P., 196, 441.

٥ Musil, Palmyrena, p., 209, Strabo, Vol., 3, P., 166, 190, 204.

٦ راجع المواضع المشار اليها من جغرافية (سترابون) ، Dio., P., 254, A Cyclopaedia of Biblical Literature, by, John Kitto, I, P., 184.

٧ Pliny, 6, 143, Der Araber, 1, 178.

عن ذلك فيما بعد ، كما أشار غـيره اليهم . والظاهـر ان لفظة (Nomas) (Nomadas) التي تعني (البدو) لا تؤدي معنى (Scenitae) أي سكان الخيام. اذ فرّق الكتبة اليونان في مؤلفاتهم بين اللفظتين . وأغلب ظني ان المراد بسكان الخيام الأعراب المستقرون بعض الاستقرار ، أي الذين عاشوا في مضارب عيشة شبه مستقرة ، لهم خيامهم وإبلهم وحيواناتهم على مقربة من الريف والحضارة . أما الـ (نومادس) (Nomades) (Nomadas) فقد كانوا قبائل رحـلا يعيشون في البوادي لا يستقرون في مكان واحد ، متى وجدوا فرصة اغتنموها فأغاروا على من يجدونهم أمامهم ، للعيش على ما يقع في أيديهم . ولذلك كانت ظروف ضعف الحكومات أو انشغالها بالحروب من أحسن الفرص المناسبة لهم . ومن هنا فرّق الكتبة اليونان وغيرهم بين الجماعتين[١] .

إننا لا نستطيع أن نحدد الزمان الذي ظهر فيه مصطلح (سكينيته) بين اليونان واللاتين . وقد يكون ترجمة للفظة أخذوها من الفرس أو الآشوريين أو غيرهم من الشعوب . ومصطلح (أهل الوبر) ، هـو مصطلح يقابل جملة (سكان الخيام) في نظري . أما مصطلح (أهل بادية) أو (أعراب بادية) أو (سكان البوادي) ، فانه تعبير يقابل (Nomadas) عند اليونان .

وعرف العرب عند الفرس وعند بني إرم بتسمية أخرى ، هي: (Tayayo) و (Taiy) . أما علماء عهـد التلمود من العبرانيين ، فأطلقوا عليهم لفظـة (ط ي ي ع ا) (طيعا) و (طيايا) (طياية)[٢] وأصل الكلمتين واحد على مـا يظهر ، أخذ من لفظة (طيء) اسم القبيلة العربية الشهيرة على رأي أكثر العلماء[٣]. وكانت تنزل في البادية في الأرضين المتاخمة لحدود امبراطوريـة الفرس ، وكانت من أقوى القبائل العربية في تلك الأيام ، ولهذا صار اسمها مرادفاً للفظة (العرب) (عرب) . وقـد ذكر (برديصـان) اسم (Tayaye) (Tayoye) مع (Sarakoye)[٤] .

---

١ Der Araber, I, S., 178.

٢ The Uni. Jew. Ency., Vol., 2, P., 43, Margoliouth, P., 57, Ency, Vol. 4. p. 598.

٣ Ency., Vol., 4, P., 598,

٤ Ency., Vol., 4, P., 598, Cureton, Spicil. Syr., P., 16, Noldeke, in ZDMG. IXIX. 713, Margoliouth, The Relations, P., 57, Kraus, in ZDMG, IXX, 321, foll.

وقد شاعت هذه التسمية قرب الميلاد ، وانتشرت في القرون الأولى للميلاد ، كما يتبين ذلك من الموارد السريانية والموارد اليهودية [1] .

واستعملت النصوص (الفهلوية) (Pahlawi) لفظة (تاجك) (Tadgik) (Tachik) (Tashik) في مقابل (عرب) ، كما استعملت الفارسية لفظة (تازي) بهذا المعنى أيضاً . واستعمل الأرمن كلمة (تجك) (Tachik) في معنى عرب ومسلمين ، واستعمل الصينيون لفظة (تشي) (Tashi) لهذه التسمية . وقد عرف سكان آسية الوسطى الذين دخلوا في الإسلام بهذه التسمية ، كما أطلق الأتراك على الايرانيين لفظة (تجك) ، من تلك التسمية ، حتى صارت لفظة (تجك) تعني (الإيراني) في اللغة التركية [2] .

ويرى بعض العلماء ان (تاجك) و (تجك) و (تازك) ، هي من الأصل المتقدم . من أصل لفظة (طيء) [3] . ولكلمة (تازي) في الفارسية معنى (صحراوي) ، من (تاز) (Taz) ، بمعنى الأرض المقفرة الخالية، ولذلك نسب بعض الباحثين كلمة (تازي) الى هذا المعنى ، فقالوا انها أطلقت على العرب لما اشتهر عنهم أنهم صحراويون [4] .

وقد زعم (حمزة الأصفهاني) ان الفرس أطلقوا على العرب لفظة(تاجيان) ، نسبة الى (تاج بن فروان بن سيامك بن مشى بن كيومرث) ، وهو جد العرب [5] .

وبعض هذه التسميات المذكورة ، لا يزال حياً مستعملاً ، ولكنه لم يبلغ مبلغ لفظة (عرب) و (العرب) في الشهرة والانتشار . فقد صارت لفظة (عرب) ، علماً على قومية وجنس معلوم ، له موطن معلوم ، وله لسان

---

١ O'Leary, Arabia, P., 18, J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S., 233. f.

٢ Ency., Vol., 4, P., 598.

٣ Ency., Vol., 4, P., 598.

٤ الرسالة : الجزء ٦٥٤ ، السنة ١٩٤٦ ، تعليق بقلم (ح٠ م٠ ع) من النجف على كلمة « تاجك » ، وكنت قد كتبت فيها في مجلة الرسالة المصرية قبل هذا الجزء .

٥ حمزة (٢٤) .

خاص به يميزه عن سائر الألسنة،من بعد الميلاد حتى اليوم . وقد وسع الاسلام رقعة بلاد العرب ، كما وسع مجال اللغة العربية ، حتى صارت بفضله لغة عالمية خالدة ذات رسالة كبيرة ، غمرت بفضل الاسلام بعض اللغات مثـل الفارسية والتركية والأردية ولغات اخرى، فزودتها بمادة غزيرة من الألفاظ ، دخلت فيها حتى صارت جزءاً من تلك اللغات ، يظن الجاهل انها منها لاستعماله لها ، ولكنها في الواقع من أصل عربي .

وربّ سائل يقول: لقد كان للعرب قبل الإسلام لغات ، مثل المعينية والسبئية والحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية وأمثالها ، اختلفت عن عربية القرآن الكريم اختلافاً كبيراً ، حتى إن أحدنا إذا قرأ نصاً مدوناً بلغة من تلك اللغات عجز عن فهمه ، وظن إذا لم يكن له علم بلغات العرب الجاهليين أنه لغة من لغات البرابرة أو الأعاجم ، فماذا سيكون موقفنا من أصحاب هذه اللغات ، وهل نعدهم عرباً ؟

والجواب أن هؤلاء ، وإن اختلفت لغتهم عن لغتنا وباينت ألسنتهم ألسنتنا ، فإنهم عرب لحماً ودماً، ولدوا ونشأوا في بلاد العرب ، لم يردوا اليها من الخارج، ولم يكونوا طارئين عليها من أمة غريبة . فهم إذن عرب مثل غيرهم ، وكل لغات العرب هي لغات عربية ، وإن اختلفت وتباينت ، وما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم إلاّ لغة واحدة من تلك اللغات ، ميزت من غيرها ، واكتسبت شرف التقدم والتصدر بفضل الإسلام ، وبفضل نزول الكتاب بها ، فصارت (اللغة العربية الفصحى) ولغة العرب أجمعين .

وحكمنا هـذا ينطبق على النبط أيضاً وعلى من كان على شاكلتهم ، وإن عدهم علماء النسب والتاريخ واللغة والأخبار من غير العرب ، وأبعدوهم عن العرب والعربية،فقد كان أولئك وهؤلاء عرباً أيضاً ، مثل عرب اليمن المذكورين ومثل ثمود والصفويين واللحيانيين ، لهم لهجاتهم الخاصة ؛ وإن تأثروا بالإرمية وكتبوا بها ، فقد تكلم اليهود بالإرمية ونسي كثير منهم العبرانية ، ولكن نسيان أولئك اليهود العبرانية ، لم يخرجهم مع ذلك عن العبرانيين .

وسترد في بحثنا عن تاريخ الجاهلية أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة لا عهد للإسلاميين بها ، ولا علم لهم عنها ، ذكروا في التوراة وفي كتب اليهود الأخرى

وفي الموارد اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية . واذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات الكتبة (الكلاسيكيين) على اعتبار أنها أخطأت في ادخالها في جماعة العرب ، فإن هذا الجواز يسقط حتماً بالنسبة الى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية ، وبالنسبة الى القبائل التي دونت تلك الكتابات . فهي كتابات عربية ، وإن اختلفت عن عربيتنا وباينت لغتها لغتنا، لأنها لهجة قوم عاشوا في بلاد العرب ونبتوا فيها ، وقد كان لسانهم هذا اللسان العربي المكتوب .

فسبيلنا في هذا الكتاب إذن ، هو البحث في كل العرب : العرب الذين تعارف العلماء الإسلاميون على اعتبارهم عرباً ، فمنحوهم شهادة العروبة ، بحسب طريقتهم في تقسيمهم الى طبقات ، وفي وضعهم في أشجار نسب ومخططات ؛ والعرب المجهولين الذين لم يمنحوا هذه الشهادة بل حرموا منها ، ونص على إخراجهم من العرب كالنبط على ما ذكرت ، والعرب المجهولين كل الجهل الذين لم يكن للمسلمين علم ما بهم ، ولم يكن لهم علم حتى بأسمائهم. سنتحدث عن هؤلاء جميعاً ، على اعتبار أنهم عرب ، جهلهم العرب ، لأنهم بادوا قبل الإسلام،أو لأنهم عاشوا في بقاع معزولة نائية ، فلم يصل خبرهم إلى الإسلاميين، فلما شرع المسلمون في التدوين ، لم يعرفوا عنهم شيئاً ، فأُهملوا ، ونسوا مع كثير غيرهم من المنسيين .

سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] . ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ، ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان آخر مخالف للساننا ، بل عدّوهم من صميم العرب ومن لبّها ، ونحن هنا لا نستطيع أن ننكر على الأقوام العربية المنسية عروبتها ، لمجرد اختلاف لسانها عن لساننا ، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لا نفهمها . فلغتها هي لغة عربية ، ما في ذلك شك ولا شبهة ، وإن اختلفت عن لسان يعرب أو أي جدّ آخر يزعم أهل الأخبار أنه كان أول من أعرب في لسانه ، فتكلم بهذه العربية التي أخذت تسميتها من

---

١ الجمحي : طبقات الشعراء (ص ٤ وما بعدها) .

ذلك الإعراب .

وبعد أن عرفنا معنى لفظة العرب والألفاظ المرادفة لها ، أقول إن بلاد العرب أو (العربية) ، هي البوادي والفلوات التي أطلق الآشوريون ومن جاء بعدهم على أهلها لفظة (الأعراب)، وعلى باديتهم (Arabeae) و (Arabae) وما شاكل ذلك . وهي جزيرة العرب وامتدادها الذي يكون بادية الشام حتى نهايتها عند اقتراب الفرات من أرض بلاد الشام ، فالفرات هو حدها الشرقي . أما حدها الغربي ، فأرض الحضر في بلاد الشام . وتدخل في العربية بادية فلسطين و (طور سيناء) الى شواطىء النيل . وقد أطلق بعض الكتاب اليونان على الأرضين الواقعة شرق الـ (Araxe) ، أي الخابور اسم (Arabia)[١] كما أدخل (هيرودوتس) أرض طور سيناء الى شواطىء نهر النيل في (العربية) (Arabia) أي بلاد العرب[٢] .

أما الآن ، وقد عرفنا لفظة عرب ، وكيف تحددت ، وتطورت ، أرى لزاماً علينا الدخول في صلب موضوعنا وهو تاريخ العرب ، مبتدئين بمقدمة عن الجاهلية وعن الموارد التي استقينا منها أخبارها ، ثم بمقدمات عن جزيرة العرب وعن طبيعتها وعن الساميين وعقليتهم وعن العقلية العربية، تليها بحوث في أنساب العرب ، ثم ندخل بعد ذلك في التاريخ السياسي للعرب ، ثم بقية أقسام تاريخ العرب من حضارة ومدنية ودينية واجتماعية ولغوية .

ولما كان الاسلام أعظم حادث نجم على الاطلاق في تاريخ العرب، أخرجهم من بلادهم الى بلاد أخرى واسعة فسيحة ، وميزهم أمة تؤثر تأثيراً خطيراً في حياة الناس .. صار ظهوره نهاية لدور ومبدأً لتاريخ دور ، ونهاية ايام عرفت بـ (الجاهلية) وبداية عهد عرف بـ (الاسلام) ما زال قائماً مستمراً ، وسيستمر الى ما شاء الله ، به أُرخ تاريخ العرب ، فما وقع قبل الاسلام، عرف بتاريخ العرب قبل الاسلام ، وما وقع بعده قيل له : تاريخ العرب بعد الاسلام .

وسيكون بحثنا هنا ، أعني في هذه الأجزاء المتتالية في القسم الأول من

١ Xenophon, An., I, 5, I, Der Araber, In der Alten Welt, I, S., 165.

٢ Heredot, 2, 15, Der Araber, I, S., 166.

تاريخ العرب ، وهو قسم تاريخ العرب قبل الاسلام ، أما القسم الثاني ، وهو تاريخ العرب في الاسلام ، فستأتي أجزاؤه بالتتالي أيضاً بعد الانتهاء من هذا القسم .

وبعد هذه المقدمة ، فلنطو صفحات هذا الفصل ، ولننتقل الى فصل جديد، هو الفصل الثاني من هذه الفصول ، فصل : الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلي .

الفصل الثاني

الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلي

اعتاد الناس أن يسموا تأريخ العرب قبل الاسلام (التأريخ الجاهلي) ، أو (تأريخ الجاهلية) ، وان يذهبوا الى ان العرب كانت تغلب عليهم البداوة ، وانهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم في الحضارة ، فعاش أكثرهم عيشة قبائل رحّل ، في جهل وغفلة ، لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي ، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم ، أميّون ، عبدة أصنام ، ليس لهم تاريخ حافل ، لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الاسلام عندهم بـ (الجاهلية) .

و (الجاهلية) اصطلاح مستحدث ، ظهر بظهور الاسلام ، وقد أطلق على حال قبل الاسلام تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة ، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من اطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة ، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتتمكن منها ، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضاً بتسميات جديدة [1] . وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة ، ما يدل ضمناً على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان .

وقد سبق للنصارى ان أطلقوا على العصور التي سبقت المسيح والنصرانية

١ (وفي كتاب ليس لابن خالويه ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة) ، المزهر (١٧٦) ، بلوغ الارب (١ / ١٥) .

(الجاهلية) ، أي (ايام الجاهلية) ، أو (زمان الجاهلية) ، استهجاناً لأمر تلك الأيام ، وازدراءً بجهل أصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليهـا ، ولجهالة الناس اذ ذاك وارتكابهم الخطايا التي أبعدتهم ، في نظر النصرانية ، عن العلم ، وعن ملكوت الله . (وقد أغضى الله عن أزمنة هذا الجهل فيبشر الآن جميع الناس في كل مكان الى ان يتوبوا)[1] .

وقد وردت لفظة (الجاهلية) ، في القرآن الكريم،وردت في السور المدنية[2] ، دون السور المكية ، فدل ذلك على أن ظهورها كان بعد هجـرة الرسول الى المدينة ، وان اطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة ، وان المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده .

وقد فهم جمهور من النـاس أن الجاهلية من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم،ومن الجهل بالقراءة والكتابة ، ولهذا ترجمت اللفظة في الانكليزية بـ (The Time of Ignorance) ، وفي الألمانية بـ (Zeit der Unwissenheit)[3] وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية والتعبد لغـير الله ، وذهب آخرون الى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهليين[4] .

ويرى المستشرق (كولدتزهير) (Goldziher) أن المقصود الأول من الكلمة

---

١ اعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ٣٠ .

٢ آل عمران ، الاية ١٥٤ ، المائدة ، الاية ٥٠ ، الاحزاب ، الاية ٣٣ ، الفتـح ، الآية ٢٦ .

٣ Ency., Vol., I, P., 999, Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, P., 158.

٤ لسان العرب (١٣ / ١٣٧) ، اساس البلاغة (١ / ١٤٥) ، صحاح الجوهري، (٢ / ١٦٩) ، القاموس المحيط (٣ / ٢٥٣) (الطبعة الرابعة) ، ذيل اقرب الموارب (ص ١٤٧) ، شرح المعلقات السبع للزوزني (١٧٦) ، شرح ديـوان عنترة بـن شداد ، (ص ١٢٦) ، الاغاني (٢١ / ٢٠٧) ، بلـوغ الارب (١ / ١٦) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) .

لامية العرب ، للشنفرى ، « ولا يزدهي الاجهال حلمي » ، ٥٣ فجر الاسلام ص ٨٦ ، (الطبعة الثالثة) ، الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٣ ، (وهذا يؤيد قول المستشرق كولدزهير الذي اثبت ان الجهل ضد الحلم ، لا ضـد العلـم) ،

Ency., Vol., P., 999, Muh. Stu., I,S., 219. ff., Nicholson, A. Literary, 1941 P. 30.

(السفه) الذي هو ضد الحلم ، والأنفة والخفة والغضب وما إلى ذلك من معان، وهي أمور كانت جد واضحة في حياة الجاهليين ، ويقابلها الاسلام ، الذي هو مصطلح مستحدث أيضاً ظهر بظهور الاسلام ، وعمادة الخضوع لله والانقياد له[1] ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن الكريم والحديث .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في مواضع منه[2]،منها آية سورة الفرقان: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً)[3] ، وآية سورة البقرة : (قالوا أتخذنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)[4] ، وآية سورة الأعراف : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[5] ، وآية هود : (اني أعظك أن تكون من الجاهلين)[6]. وفي كل هذه المواضع ما ينم على أخلاق الجاهلية . وقد ورد في الحديث : (اذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل)[7] ، وورد أيضاً : (إنك امرؤ فيك جاهلية)[8] وبهذا المعنى تقريباً وردت الكلمة في قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[9]

أي : لا يسفه أحد علينا ، فنسفه عليهم فوق سفههم ، أي نجازيهم جزاء يربي عليه .

---

١ فجر الاسلام (ص ٨٧) ،
Ency., Vol., I, P., 999, Muh. Stud.,, Bd., I, S. 244 f.

٢ راجع فهارس القرآن الكريم

٣ سورة الفرقان ، اية ٦٣ ، تفسير الطبري (١٩ / ٢١) (انهم يمشون عليها بالحلم ، لا يجهلون على من جهل عليهم) ، بلوغ الارب (١ / ١٦) .

٤ سورة البقرة ، اية ٦٧ .

٥ سورة الاعراف ٧ اية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٠٤/٩) ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ، هامش تفسير الطبري (٩ / ١٠٥) .

٦ سورة هود ١١ اية ٤٦ .

٧ بلوغ الارب (١ / ١٦) .

٨ ذيل اقرب الموارد (٣ / ١١٥) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) ، بلوغ الارب (١ / ١٦ فما بعدها) .

٩ بلوغ الارب (١ / ١٦) ، محيط المحيط ص ٣٠٩ ، اساس البلاغة (١ / ١٤٥) فجر الاسلام (١ /٨٧) ، شرح المعلقات السبع للزوزني ١٥١ .

واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير[١] .

وجاء في سورة المائدة : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[٢] أي أحكام الملة الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكـــام والتفريق بين الناس في المنزلة والمعاملة[٣] .

وأطلقوا على (الجاهلية الجهلاء) ، والجهلاء صفة للأولى يراد بها التوكيد، وتعني (الجاهلية القديمة)[٤] . وكانوا اذا عابوا شيئاً واستبشعوه ، قالوا : (كان ذلك في الجاهلية الجهلاء)[٥] . و (الجاهلية الجهلاء) هي الوثنيـــة التي حاربها الاسلام . وقد أنب القرآن المشركين على حميتهم الوثنية،فقال : « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية »[٦] .

والرأي عندي ان الجاهلية من السفه والحمق والأنفة والخفة والغضب وعـدم الانقياد لحـــكم وشريعة وارادة إلهية وما الى ذلك من حالات انتقصها الاسلام . فهي في معنى (اذهب يا جاهل) نقولها في العراق لمـــن يتسفه ويتحمق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل ، فلا يبالي أدباً ولا يراعي عرفاً ، و (رجل جاهل) نطلقه على من لا يهتم بمجتمع ودين ، ولا يتورع من النطق بأفحش الكلام . ولا يشترط بالطبع أن يكون ذلك الرجل جاهـــلاً أمياً ، أي ليس له علم ، وليس بقارىء كاتب .

وقد اختلف المفسرون في المراد من الجاهلية الأولى في قوله تعالى : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[٧] ، فقيل : (الجاهلية الأولى التي

---

١ بلوغ الارب (١ / ١٦) .

٢ سورة المائدة ٥ اية ٥٠ . تفسير الخازن (١ / ٥١٦) ، مدارك التنزيل وحقائق التاويل للنسـفي ، حاشية على الخازن (١ / ٥١٦) .

٣ محيط المحيط (٣٠٩) ، تفسير الخازن (١ / ٥١٦) .

٤ محيط المحيط ٣٠٩ ، اساس البلاغـــة (١ / ١٤٥) ، صحاح الجوهـــري (٢ / ١٦٩) ، اقرب الموارد ص (١٤٧) (وقالوا الجاهلية الجهلاء فبالغـــوا) ، لسان العرب (١٣ / ١٣٧) شمس العلوم ، (ج ١ ي ٢ ، ص ٣٦٨)

٥ اقـــرب الموارد ١٤٧ .

٦ سورة الفتح ٤٨ اية ٢٦ . عن الجاهلية والجهل وما ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم ، راجع تفصيل ايات القرآن الحكيم ، تأليف جون لابوم ، نقلـــه الـــى العربية محمد فؤاد عبد الباقي ص ٦٢١ .

٧ سورة الاحزاب رقم ٣٣ ، اية ٣٣

ولد فيها ابراهيم ، والجاهلية الأخرى التي ولد فيها محمد)[1] . وقيل (الجاهلية الأولى بين عيسى ومحمد)[2] ، وقد أدى اختلافهم في مفهوم هذه الآية الى تصور وجود جاهليتين جاهلية قديمة ، وجاهلية أخـرى هي التي كانت عند ولادة الرسول[3] .

واختلف العلماء في تحديد مبدأ الجاهلية ، أو العصر الجاهلي ، فذهب بعضهم الى أن الجاهلية كانت، فيما بين نوح وإدريس[4] . وذهب آخرون الى أنهـا كانت بين آدم ونوح ، أو انها بين موسى وعيسى ، أو الفترة التي كانت ما بين عيسى ومحمد[5] . وأما منتهاهـا ، فظهور الرسول ونزول الوحي عند الأكثرين ، أو فتح مكة عند جماعة[6] . وذهب ابن خالويه الى أن هذه اللفظة اطلقت في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة[7] .

والذي يفهم خاصة من كتب الحـديث أن أصحاب الرسول كانوا يعنون بـ (الجاهلية) الزمان الذي عاشوا فيه قبل الإسلام ، وقبل نزول الوحي، فكانوا يسألون الرسول عن أحكامها ، وعن موقفهم منها بعد اسلامهم ، وعن العهود التي قطعوها على أنفسهم في ذلك العهد ، وقد أقر الرسول بعضها ، ونهى عن بعض آخر[8] ، وذلك يدل على أن هذا المعنى كان قد تخصص منذ ذلك الحين،

---

١ طبقات ابن سعد (١٤٣/٨ ، ١٤٥) .

٢ بلوغ الارب (١٧/١) ، مفتاح كنوز السنة (تأليف فنسنك) ص ١٠٩ .

٣ (وليس المعنى أن ثم جاهلية اخرى ، وقد اوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التي قبل الاسلام كما لا يخفى) بلوغ الارب (١٨/١) .

٤ تأريخ الطبري (٨٣/١) ، الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢ .

٥ بلوغ الارب (١٦/١ فما بعدها) ، (والفترة ما بين كل نبيين . وفي الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيـه الرسالة ، وفي الحديث فترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام) ، لسان العرب (١٣٧/١٣) .

٦ بلوغ الارب (١ / ١٦ فما بعدها) .

٧ بلوغ الارب (١ / ١٥) ، المزهر ١٧٦ وفي (كتاب ليس) لابن خالويه : أن لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة) .

٨ صحيح مسلم (١ / ٧٩) ، صحيح البخاري ك ٢٤ ب ٢٤ ، ك ٣٤ ب ١٠٠ ، ك ٤٩ ب ١٢ ، ك ٧٨ ب ١٦ ، ك ٨٨ ب ١ ، ك ٣٣ ب ٥ ، ١٥ ، ك ٦٤ ، ب ٥٤ ، (قال صلى الله عليه وسلم : اربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالاحساب ، والطعن في الانساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة) ، بلوغ الارب (١ / ١٧) ، مسند احمد بـن حنبـل (٢ / ١١ ، ١٠٣ ، ١٨٧) ، (٣ / ٤٢٥) ، مفتاح كنوز السنة ص ١٠٨ .

وأصبح للفظة (الجاهلية) مدلول خاص في عهد الرسول .

وأطلق بعض العلماء على الذين عاشوا بين الميلاد ورسالة الرسول (أهل الفترة) وهم في نظرهم جماعة من أهل التوحيد ممن يقر بالبعث ، ذكروا منهم: (حنظلة ابن صفوان) نبي (أصحاب الرّس) وأصحاب الأخدود ، وخـالد بن سنان العبسي ، و(وثاب السني) وأسعد أبا كرب الحميري ، وقس بن ساعدة الإيادي وأمية بن أبي الصلت ، وورقة بن نوفل ، وعداس مولى عتبة بن أبي ربيعة ، وأبا قيس صربة بن أبي أنس من الأنصار ، وأبا عامر الأوسي ، وعبدالله بن جحش وآخرين[1] . فهم اذن طبقة خاصة من الجاهليين ، ميزوا عن غيرهم بهذه السمة ، لأنهم لم يكونوا على ملة أهل الجاهلية من عبادة الأصنام والأوثان .

فلفظة (الجاهلية) اذن نعت اسلامي ، من نوع النعوت التي تطلق في العهود السابقة على حركة ما أو انقلاب . أطلقه المسلمون على ذلك العهد ، كما نطلق اليوم نعوتاً وأسماء على العهود الماضية التي يثور الناس عليها ، من مثل مصطلح (العهد المباد) الذي أطلق في العراق على العهد الملكي منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، ومثل المصطلحات الأخرى الشائعة في الأقطار العربية الأخرى ، والتي اطلقت على العهود السابقة للثورات والانقلابات .

موارد التاريخ الجاهلي :

تاريخ الجاهلية هو أضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب ، يعوزه التحقيق والتدقيق والغربلة . وأكثر ما ذكروه على انه تاريخ هذه الحقبة ، هو أساطير ، وقصص شعبي ، وأخبار أخذت عن أهل الكتاب ولا سيما اليهود ، وأشياء وضعها الوضاعون في الاسلام ، لمآرب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة .

وقد تداول العلماء وغير أصحاب العلم هذه الأخبار على انها تاريخ الجاهلية حتى القرن التاسع عشر . فلما انتهت الى المستشرقين ، شكّوا في أكثرها ، فتناولوها بالنقد . استناداً الى طرق البحث الحديثة التي دخلت على العلوم النظرية ،وتفتحت بذلك آفاق واسعة في عالم التاريخ الجاهلي لم تكن معروفة ،ووضعوا الأسس للجادات التي ستوصل عشاق التاريخ الى البحث في تاريخ جزيرة العرب .

---

١ مروج الذهب (١ / ٣٨ فما بعدها) .

وكان أهم عمل رائع قام به المستشرقون هو البحث عن الكتابات العربية التي دوّنها العرب قبل الاسلام ، وتعليم الناس قراءتها بعد أن جهلوها مدة تنيف على ألف عام . وقد فتحت هذه النصوص باب تاريخ الجاهلية ، ومن هذا الباب يجب أن نصل الى التاريخ الجاهلي الصحيح .

لقد كلف البحث عن هذه الكتابات العلماء والسياح، ثمناً غالياً كلفهم حياتهم في بعض الأحيان ، ولم يكن من السهل تجول هؤلاء الأوروبيين بأزياء مختلفة في أماكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية للحصول على معلومات عن الخرائب والعاديات والحصول على ما يمكن الحصول عليه من نقوش وكتابات .

والتاريخ الجاهلي مع ذلك في أول مرحلة من مراحله وفي الدرجات الأولى من سلم طويل متعب . ولا يُنتظر التقدم أكثر من ذلك،إلا إذا سهّل للعلماء التجوال في بلاد العرب ، لدراستها من جميع الوجوه ، وللبحث عن العاديات ، ويسرت لهم سبل البحث ، ووضعت أمـــامهم كل المساعدات الممكنة التي تأخذ بأيديهم الى الكشف عن مواطن ذلك التاريخ والبحث عن مدافن كنوز الآثار تحت الأتربة واستخراجها وحلّ رموزها،لجعلها تنطق بأحوالها في تلك الأيام . وتلك مسؤولية لن تُفهم الاّ اذا فهم العرب وعلى رأسهم الحاكمون منهم أن من واجبهم المحافظة على تأريخ العرب القديم بصيانة مواطن الآثار ومنع الاعتداء عليها ، بانزال أشد العقوبات فيمن يحطم تمثالاً ، لاعتقاده بأنه صنم ، أو يهدم أثراً للاستفادة من حجره ، أو ما شابه ذلك من هدم وتخريب .

لم يطمئن المستشرقون الى هذا المرويّ في الكتب العربية عن التاريخ الجاهلي ولم يكتفوا به ، بل رجعوا الى مصادر وموارد ساعدتهم في تدوين هذا الذي نعرفه عن تاريخ الجاهلية ، وهو شيء قليل في الواقع ، ولكنه مع ذلك خير من هذا القديم المتعارف وأقرب منه الى التأريخ ، وقد تجمعت مادته من هذه الموارد :

(١) النقوش والكتابات .

(٢) التوراة والتلمود والكتب العبرانية الأخرى .

(٣) الكتب اليونانية واللاتينية والسريانية ونحوها .

(٤) المصادر العربية الاسلامية .

١ ــ النقوش والكتابات :

تعد النقوش والكتابات في طليعة المصادر التي تكوّن التاريخ الجاهلي ، وهي وثائق ذات شأن ، لأنها الشاهد الناطق الحي الوحيد الباقي من تلك الأيام، وأريد أن أقسمها الى قسمين : نقوش وكتابات غير عربية تطرقت الى ذكر العرب كبعض النصوص الآشورية أو البابلية ، ونصوص وكتابات عربية كتبت بلهجات مختلفة، منها ما عثر عليه في العربية الجنوبية ، ويدخل ضمنها تلك التي وجدت في مصر أو في بعض جزر اليونان أو في الحبشة ، وهي من كتابات المعينين والسبئيين ، ومنها ما عثر عليه في مواضع أخرى من جزيرة العــرب ، مثل أعالي الحجاز وبلاد الشام والعربية السعودية والكويت ومواضع أخرى ، وكل ما عثر أو سيعثر عليه من نصوص في جزيرة العرب مدوناً بلهجة من اللهجات التي تعارف علماء العرب أو المستشرقون على اعتدادها من لغات العرب .

وأغلب الكتابات الجاهلية التي عثر عليها هي ويا للأسف في امور شخصية ، ولذلك انحصرت فوائدها في نواح معينة ، في مثل الدراسات اللغوية ، وأقلهـــا النصوص التي تتعرض لحالة العرب السياسية ، أو الأحوال الاجتماعية أو العلمية او الدينية أو النواحي الثقافية والحضاريـــة الأخرى ، ولهـــذا بقيت معارفنا في هذه النواحي ضحلة غير عميقة . وكل أملنا هو في المستقبل ، فلعله سيكون سخيـــاً كريماً ، فيمدنا بفيض من مدونات لها صلة وعلاقة بهذه الأبواب، وينقذنا بذلك من هذا الجهل الفاضح الذي نحن فيه ، بتاريخ العرب قبل الاسلام .

بل حتى النصوص العربية الجنوبية التي عثر عليها حتى الآن ، هي في امور شخصية في الغالب ، من مثل انشاء بيت ، او بناء معبد ، او بناء سور ، او شفاء من مرض ، ولكنها أفادتنا ، مع ذلك ، فائدة كبيرة في تدوين تاريـــخ العرب الجنوبيين ، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، ولولاها لما عرفنـا عنهم شيئاً . ونظراً الى ما نجده في بعض النصوص من اشارات الى حروب[١] ، ومن صلات بين ملوك الدول العربية الجنوبية ، ونظراً الى كون بعض الكتابات أوامر ملكية وقوانين في تنظيم الضرائب وتعيين حقوق الغرباء وفي امور عامة أخرى لها

١ Reportoire D'Epigraphie Semitique, Nr., 2633, 2687, 3943.

علاقة بصلة الحكومات بشعوبها ، ونظراً الى ما عرفنــــاه من ميل الى الحضارة والاستقرار والعمل والبناء ، وفي حكوماتهم من تنظيم وتنسيق في الأعمال ، فاننا نأمل الحصول في المستقبل على وثائق،تعطينا مادة مهمة جديدة عن تأريخ العرب



كتابة عثر عليها في ظفار بعمان ، ويعود عهدها الى القرن الثاني بعد الميلاد
من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٤).

الجنوبيين وعن صلاتهم ببقية العــــرب او بالعالم الخارجي ، لأن جماعة تهتم هذا الاهتمام بالأمور المذكورة ، لا يمكن ان تكون في غفلة عن اهمية تدوين التاريخ. وتختلف الكتابات العربية الجنوبية طولاً وقصراً تبعاً للمناسبات وطبيعة الموضوع،

وتتشابه في المضمون وفي انشائها في الغالب ، لأنها كتبت في أغراض شخصية متماثلة . ومن النصوص الطويلة المهمة ، نص رقمه العلماء برقم : (C.I.H. 1450) وقد كتب لمناسبة الحرب التي نشبت بين قبائل حاشد وقبائل حمير في مدينة (ناعط)[1] ، ونص رقمه (C.I.H. 4334) ، وقد أمر بتدوينه الملك (شعر أوتر بن علهان نهفان) (شعر أوتر بن علهن نهفن) ، (٨٠ – ٥٠ ق.م)[2] ، ونص (أبرهة) نائب ملك الحبشة على اليمن (عزلي) ، وهو يحوي كتابة مهمة تتألف من (١٣٦) سطراً ، يرتقي تاريخها الى سنة ٦٥٨ الحميرية أو ٥٤٣ م وقد كتب بحميرية رديئة ركيكة ، ونص يرتقي تاريخه الى سنة ٥٥٤ م .

أما الكتابات المكتوبة باللهجات التي يطلق عليها المستشرقون اللهجات العربية الشمالية ، فقليلة . ويراد بهذه اللهجات القريبة من عربية القرآن الكريم . وأما الكتابات التي وجد أنها مكتوبة بالثمودية أو اللحيانية أو الصفوية ، فإنها عديدة ، وهي قصيرة ، وفي أمور شخصية ، وقد أفادتنا في استخراج أسماء بعض الأصنام وبعض المواضع وفي الحصول على أسماء بعض القبائل وأمثال ذلك .

تأريخ الكتابات :

والكتابات المؤرخة قليلة . هذا أمر يؤسف عليه ، اذ يكون المؤرخ في حيرة من أمره في ضبط الزمن الذي دوّن فيه النص ، ولم نتمكن حتى الآن من الوقوف على تقويم ثابت كان يستعمله العرب قبل الإسلام ، مدة طويلة في جزيرة العرب . والذي تبين لنا حتى الآن هو أنهم استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وتثبيت زمانها ، فأرخوا بحكم الملوك ، فكانوا يشيرون الى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، أو في السنة كذا في حكم الملك فلان . وأرخوا كذلك بأيام الرؤساء وسادات القبائل وأرباب الأسر وهي طريقة عرفت عند المعينين والسبئيين والقتبانيين وعند غيرهم في مختلف أنحاء جزيرة العرب .

---

١ Margoliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930, P., 29
وسارمز اليه بـ Lectures P., 30

٢ « شعراوتي » ، (شاعر اوتر) (شاعر اوتار) . وقد ورد الاسم في كتاب (الاكليل) مكتوبا كتابة صحيحة (شعرم اوتر) في طبعة نبيه فارس ، واخطأ فيه انستاس الكرملي فكتبه (سعوان أوثر) ، كما ورد في احدى المخطوطات التي اعتمد عليها ، طبعة الكرملي ٢٤ .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقـة ، وان كانت أحسن حالاً من الكتابات المهملة التي لم يؤرخها أصحابها بتاريخ ، الا اننا قلما نستفيد منها فائدة تذكر ، اذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عـن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة او حكمه ، أو زمانه ، او زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات أن شهرة الانسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الزعيم فلاناً ربما لا يعرف بعد أجيال ، وقد يصبح نسياً منسياً ، لذلك لا يجدي التأريخ به شيئاً ، وذاكرة الانسان لا تعي إلا الحوادث الجسام . لهـذا السبب لم نستفد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وأملنا الوحيد هو أن يأتي يوم قد نستفيد فيه منها في تدوين التاريخ .

وترد التواريخ في الكتابات العربية الجنوبية ، ولا سيما الكتابات القتبانية ، على هذه الصورة : (ورخس ذو سحر خرف ....)[١] ، او (ورخس ذو تمنع خرف ....)[٢] ، أي : (وأرخ في شهر سحر من سنة ....) و (أرخ في شهر تمنع من سنة ....) . ويلاحظ ان (ورخ) و (توريخ) ، مثل (أرخ) و (تاريخاً) ، هما قريبتان من استعمال تميم ، اذ هي تقول : (ورخت الكتاب توريخاً) أي : (أرخت الكتاب تأريخاً)[٣] . وأما حـرف (السين) اللاحق بكلمة (ورخ) ، فانه أداة التنكير . ويلي التاريخ اسم الشهـر ، مثل شهر (ذو تمنع) و (ذو سحر) وغير ذلك . وقد تجمعت لدينا أسماء عدد من الشهور في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة تحتاج الى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة الى الموسم والسنة . ثم تلي الشهور في العادة كلمة (خرف) أي (خريف) ، وهي في العربية الجنوبية ، السنة أو العام او الحول . وعندئذ يذكر اسم الملك او الرجل الذي أرخ به ، فيقال : (خرف شهر يكل) أي سنة (شهريكول) ، وهو ملك من ملوك قتبان . وهكذا بالنسبة الى الملوك او غيرهم .

نرى من ذلك ان التاريخ بأعوام الرجال كان يتضمن شهوراً . غير اننا لا

---

١ N. Rhodokanakis, Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, Bd., I, S., 123.
وسارمز اليه بـ : KTB

٢ Glaser 1395 — 1604, Se 84. Glaser 1412 — 1612, SE81, KTB, BD., 130.

٣ بلوغ الارب (٣ / ٢١٤)

نستطيع أن نجزم بأن هذه الشهور كانت ثابتة لا تتغير بتغير الرجال ، او انهـا كانت تتبدل بتبدل الرجال . والرأي الغالب هو انهـا وضعت في وضع يلائم المواسم وأوقات الزراعة . ويظهر انهم كانوا يستعملون أحياناً مـع هذا التقويم تقويماً آخر هو التقويم الحكومي ، وكان يستند الى السنين المالية ،أي سني جمع الضرائب . وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن اسماء شهور التقاويم التي تؤرخ بالرجال[١].

ويظهر أن العرب الجنوبيين كانوا يستعملون التقويم الشمسي في الزراعة ، كما كانوا يستعملون التقويم القمري والتقويم النجمي أي التقويم الذي يقوم على رصد النجوم [٢] .

وقد اتخذ الحميريون منذ سنة (١١٥ ق. م) تقويماً ثابتاً يؤرخون به، وهي السنة التي قامت فيها الدولة الحميرية — على رأي بعض العلماء — فأخذ الحميريون يؤرخون بهـذا الحادث ، واعتدوه مبدأً لتقويمهم . وقد درسه المستشرقون ، فوجدوه يقابل السنة المذكورة قبل الميلاد.والكتابات المؤرخة بموجب هذه الطريقة، لها فائدة كبيرة جداً في تثبيت التاريخ .

وقد ذهب بعض الباحثين حديثاً الى أن مبدأ تأريخ حمير يقابل السنة (١٠٩ق.م) اي بعد ست سنوات تقريباً من التقدير المذكور ، وهو التقدير المتعارف عليه . والفرق بين التقديرين غير كبير[٣] .

ومن النصوص المؤرخة ، نص تأريخه سنة ٣٨٥ من سني التقويم الحميري . وإذا ذهبنا مذهب الغالبية التي تجعل بداية هذا التقويم سنة (١١٥ق.م)، عرفنا أن تاريخ هذا النص هو سنة ٢٧ م تقريباً ، وصاحبه هو الملك (يسر يهنعم)

---

١ KTB., I, S., 81. f.

٢ N. Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen, 2 BD., BD., 2, S., 145.

وسأرمز اليه بـ : LEXI

Sab, Denkm., 21, Glaser, Zwei Inschriften, 47, note 7, ZDMG., 46, Glaser Die Sternkunde der Südarabischen Qabylen, in SBWA, Winckler, AOF., 2, 35. ff.

٣ للوقوف على مبدأ التقويم الحميري ، راجع :

Glaser, Skizze, I, S., 3. ff., F. Hommel, Geschichte Südarabiens, 1, 1937, S. 96. Ryckmans, Chronologie Sabéenne, C. Rend. Ac. Inscr. et Belles, Lettres, 1943, P., 236 — 246, Le Muséon, 1964, 3 — 4, P., 407 — 427, 429. f.

«ياسر يهنعم» (ياسر ينعم) ملك سبأ وذو ريدان وابنـــه (شمر يهرعش)[1] .
وللملك (ياسر يهنعم) نص آخر يعود تاريخـــه الى سنة ٣٧٤ من سني التقويم



كتابة قتبانية عثر عليها في تمنع وهي لرجل اسمه ثويب
من كتاب Qataban صفحة (١٠٢)

الحميري ، أي الى سنة (٢٩٥ م)[2] . (ولشمر يهرعش)[3] كتابة أمر بتدوينها سنـــة ٣٩٦ للتقـويم الحمـيري ، اي سنة ٢٨١م[4] . وقـــد ورد

---

١ نص رقم C.I.H. 46, Hartmann, Arabische Frage, S., 174, Rhodokanakis, WZKM, XXXVII, S., 148, J.H. Mordtmann und EUgen Mittwoch, Sabaische Inschriften, Hamburg, 1931, S., I. ff.
وسأرمز اليه بـ : Sab. Inschr.

٢ يعرف في الكتب العربية بـ (ياسر أنعم) (ياسر انعم الحميري) ، (ياسر ناشر النعم) (مالك ناشر النعم) ، الاكليـل (٨ / ٢٠٧ فمـا بعدها) (طبعـة نبيه) ،التيجان ٠ ١٧ فما بعدها ، ١١٩ فما بعدها ، الطبرى (١ / ٦٨٣ فمـا بعدها) ، (١ / ٥٦٦) (طبعة دار المعارف) (تحقيق محمد ابي الفضـــل أبراهيم) .

٣ ويعرف بـ (شمر يرعش) في الموارد العربية ، الاكليل ٨ (٢٠٨) ، التيجان (ص ٢٢٢ فما بعدها) ، الاكليل (١٠ / ١٩ ، ٣٣) .

٤ MMI50 — C.I.H. 448.

اسمه في نصوص أخرى ، وقد لقّب نفسه بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) ، ولقّب نفسه في مكان آخر بلقب (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت)، مما يدل على أنه كان قد وسّع ملكه ، وأخضع الأرضين المذكورة لحكمه[1] ، وهي نصوص متأخرة بالنسبة الى النصوص الأخرى .

ولما أراد الملك (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال والسواحل) بناء السدّ ، أمر بنقش تاريخ البناء على جداره . وقد عثر عليه ، واذا به يقول : إن العمل كان في سنة ٥٦٤ — ٥٦٥ الحميرية ، وهذا يوافق عامي ٤٤٩ — ٤٥٠ من الأعوام الميلادية[2] . وبعد ثماني سنوات من هذا التأريخ ، أي في عام ٤٥٧ — ٤٥٨ من التأريخ الميلادي (٥٧٢ — ٥٧٣ حميري) ، وضع عبد كلال نصاً تاريخياً يذكر فيه اسم (الرحمن)، ولهذين النصين أهمية عظيمة جداً من الناحية الدينية . يذكر النص الأول (إله السماوات والأرضين) ، ويذكر الثاني (الرحمن) . وتظهر من هذه الاشارة فكرة التوحيد على لسان ملوك اليمن وزعمائها[3] .

وقد عثر على نصين آخرين ورد فيهما اسم الملك « شرحب آل يكف » و « شرحبيل يكيف » . تأريخ أحدهما عام ٥٨٢ الحميري (٤٦٧ م) ، وتأريخ النص الثاني هو سنة ٥٨٥ الحميرية ، الموافقة لسنة ٤٧٠ م[4] .

ومن النصوص الآثارية المهمة ، نص حصن غراب . وهذا النص أمر بكتابته (السميفع أشوى) (السميفع أشوع) وأولاده، تخليداً لذكرى انتصار الأحباش على اليمانيين في عام ٥٢٥ م (سنة ٦٤٠ الحميرية)[5] . ويليه النص الذي أمر أبرهة حاكم اليمن في عهد الأحباش بوضعه على جدران سدّ مأرب لما قام بترميم السدّ واصلاحه في عام ٦٥٧ الحميري ، الموافق لعام ٥٤٢ م[6] .

وآخر ما نجده من نصوص مؤرخة ، نص وضع في عام ٦٦٩ لتقويم حمير (يوافق عام ٥٥٤ م)[7] . ولم يعثر المنقبون بعد هذا النص على نص آخر يحمل

---

١ راجع النصوص : C.I.H. 628, C.I.H. 353, 407, 430, 431, 438

٢ Sab. Inschr., S., 2, CIH 540.

٣ BOASOR, 83 (1941), PP., 22, Sab. Inschr., S., 2.

٤ CIH 537, 644, Sab. Inschr., S., 2.

٥ Sab. Inschrl., S., 2.

٦ Sab. Inschr., S., 2, CIH 541, Margoliouth, P., 32.

٧ Sab. Inschr., S., 2, CIH 325.

تأريخاً . نعم ، عثروا على نصوص كثيرة تشابه في مضمونها وعباراتها وألفاظها النصوص التي أقيمت في الفترة بين ٤٣٩ م وسنة ٥٥٤ م ، وهذا يبعث على احتمال كون هذه النصوص مكررة ، وأنها من هذا العهد الذي بحثنا عنه آنفاً [١].

هذا ، وإن مما يلاحظ على الكتابات العربية الجنوبية أن التي ترجع منها إلى العهود القديمة من تأريخ جنوب بلاد العرب ، قليلة . وكذلك الكتابات التي ترجع الى العصور الحميرية المتأخرة ، أي القريبة المتصلة بالإسلام . ولذلك أصبحت أكثر الكتابات التي عثر عليها حتى الآن من العهود الوسطى المحصورة بين أقدم عهد من عهود تأريخ اليمن وبين أقرب عهود اليمن إلى تأريخ الإسلام. وأكثرها خلو من التأريخ غير عدد منها يرد فيه أسماء ملوك وملكات أرخت بأيامهم . لكننا لا نستطيع تعيين تأريخ مضبوط لزمانهم ، لعدم وجود سلسلة لمن حكم أرض اليمن ، ولعدم وجود جداول بمدد حكمهم ، ولفقدان الإشارة إلى من كان يعاصرهم من الملوك والأجانب .

وقد كان ما قدمناه يتعلق بالكتابات العربية الجنوبية المؤرخة . أما الكتابات العربية الشمالية المؤرخة ، فهي معدودة ، وهي لا تعطينا لهذا السبب فكرة علمية عن تأريخ الكتابات في الأقسام الشمالية والوسطى من بلاد العرب . وقد أرخ شاهد قبر (امرىء القيس) في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ (٣٢٨م) . وهذه السنة هي من سني تقويم بصرى Bostra ، وكان أهل الشام وحوران وما يليهما ، يؤرخون بهذا التقويم في ذلك العهد ، ويبدأ بدخول بصرى في حوزة الروم سنة ١٠٥ م [٢] .

وعثر على كتابة في خرائب (زبد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تأريخها الى سنة (٨٢٣ للتقويم السلوقي) ، الموافقة لسنة ٥١٢ م . والمهم عندنا ، هو النص العربي ، ولا سيما قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فان أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة [٣] .

١ Sab. Inschr., S., 2, CIH 541, CIH 45, KTB, S., 140.

٢ العرب قبل الاسلام ٢٠٣ ، مجلة سومر ، الجزء الاول ، كانون الثاني ، ١٩٤٧ المجلد الثالث ، ص ١٣١ .

٣ Dussaud, Les Arabes en Syrie, PP., 34, Nabia, P., 4.
Grund., I, S., 156, Edward Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed, Monatsbericht der Preussiche Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr., 1881, S., 169 — 190, zur Triliguis Zebedaea, in ZDMG., 36 (1882) S., 345 — 352.

وأرخت كتابة (حرّان) اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ م ، والأندقطية ، هي دائرة ثماني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة[١] . أما النص العربي ، فقد أرخ (بسنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم) (عام)[٢] . ورأى الاستاذ (ليتمن) أن عبارة (بعد مفسد خيبر بعم) ، تشير إلى غزوة قام بها أحد أمراء غسان لخيبر[٣]. وفي استعمال هــذه الجملة التي لم ترد في النص اليوناني ، دلالة على أن العرب الشماليين كانوا يستعملون التواريخ المحلية ، كما كانوا يؤرخون بالحوادث الشهيرة التي تقع بينهم .

أما الكتابات الصفوية والثمودية واللحيانية ، فإن من بينها كتابات مؤرخة ، إلا أن تورخها لم يفدنا شيئاً أيضاً . فقد أرخت على هذا الشكل : (يوم نزل هذا المكان) أو (سنة جاء الروم) . ومثل هذه الحوادث مبهمة ، لا يمكن أن يستفاد منها في ضبط حادث ما .

هذا وقد أشار (المسعودي) إلى طرق للجاهليين في توريخ الحوادث ، تتفق مع ما عثر عليه في الكتابات الجاهلية المؤرخة ، فقال : (وكانت العرب قبــل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فأما حمير وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطـــان بأرض اليمن ، فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم)[٤] ، ثم ذكر أنهم أرخوا أيضاً بما كان يقع لديهم من أحداث جسيمة في نظرهم ، مثل (نار صوان) ، وهي نار كانت تظهر ببعض الحرار من أقاصي بلاد اليمن ، ومثل الحروب التي وقعت بين القبائل والأيام الشهيرة . وقد أورد جريدة بتواريخ القبائل الى ظهور الإسلام[٥] . وذكر (الطبري) أن العرب « لم يكونوا يؤرخون بشيء من قبل ذلك ، غير أن قريشاً كانوا — فيما ذكر — يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل ، وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة ، كتأريخهم بيوم جبلة وبالكلاب الأول والكلاب الثاني »[٦] .

---

١ ولفنستون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٩٢ ، وسأرمز اليه بـ : السامية .
٢ السامية ١٩٢ ، سومر ، العدد المذكور ص ١٣٢ .
٣ Rivista degli Studi Orientali, 1911, P., 195,
السامية ١٩٢ .
٤ التنبيه والاشراف (ص ١٧٢) (القاهره ١٩٣٨) (دار الصاوي)
٥ التنبيه والاشراف (ص ١٧٢ وما بعدها)
٦ الطبرى (١ / ١٩٣) (طبعة دار المعارف) .

وقد ذكر المسعودي أن قدوم أصحاب الفيل مكة ، كان يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمئة واثنتين وثمانين سنة للاسكندر ، وست عشرة سنة ومئتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة العدد[1] (حجة الغدر)[2] ، ولسنة أربعين من ملك كسرى أنوشروان[3] . ولم يشر المسعودي الى العرب الذين أرّخوا بالتقويم المذكور ، غير أننا نستطيع أن نقول إن (المسعودي) قصد بهم أهل مكة ، لأن حملة (أبرهة) كانت قد وجهت الى مدينتهم ، وأن الحملة المذكورة كانت حادثاً تاريخياً بالنسبة اليهم ، ولذلك أرّخوا بوقت وقوعها .

ويرى كثير من المستشرقين والمشتغلين بالتقاويم وبتحويل السنين وبتثبيتها ، وفقاً لها ، أن عام الفيل يصادف سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، وبذلك يمكن اتخاذ هذا العام مبدءاً نؤرخ به على وجه التقريب الحوادث التي وقعت في مكة أو في بقية الحجاز والتي أرّخت بالعام المذكور .

٢ — التوراة والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية :

وقد جاء ذكر العرب في مواضع من أسفار التوراة تشرح علاقات العبرانيين بالعرب . والتوراة مجموعة أسفار ، كتبها جماعة من الأنبياء في أوقات مختلفة ، كتبوا أكثرها في فلسطين . وأما ما تبقى منها ، مثل حزقيال والمزامير ، فقد كتب في وادي الفرات أيام السبي ، وأقدم أسفار التوراة هو سفر (عاموس) (Amos) ، ويظن أنه كتب حوالي سنة ٧٥٠ ق. م[4] .

---

١ (حجة العدد) مروج الذهب (١ / ٢٨٢) ، (حجة العدد) ، مروج (٢ / ١٧٠) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (سنة ثمان مئة واثنتين وثلاثين سنة للاسكندر ، مروج (٨/٢) (تحقيق محمد محي الدين)

٢ (حجة الغدر) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣١ وما بعدها)

٣ مروج (٢ / ١٧٠) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (وسنة أربع وأربعين من ملك انوشروان بن قباذ) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣١) .

٤ أحد الانبياء ، وكان راعيا في (تقوع) (تقوعة) مدينة صغيرة جنوبي يهوذا على بعد نحو « ١٢ » ميلا من جنوب القدس . عاش في أيام عزيا ملك يهوذا ويربعام ملك اسرائيل نحو سنة ٨٠٠ ق . م . وسفر عاموس هو الثلاثون من أسفار التوراة ، قاموس الكتاب المقدس (ترجمة الدكتور جورج بوست) ٢ / ٥٩
Hastings, Dictionary of the Bible, p., 27,
وسارمز اليه بـ Hastings
Encyclopaedia of the Bible, P., 147,
وسارمز اليه بـ Ency. Bibli.

وأما آخر ما كتب منها ، فهو سفر (دانيال) (Daniel) والإصحاحان الرابع والخامس من سفر (المزامير) . وقد كتبت، هذه في القرن الثاني قبل المسيح[1] .

فما ذكر في التوراة عن العرب يرجع تاريخه اذن الى ما بين سنة ٧٥٠ والقرن الثاني قبل المسيح .

وقد وردت في التلمود (Talmud) اشارات الى العرب كذلك . وهناك نوعان من التلمود الفلسطيني أو التلمود الأورشليمي (Yeruschalmi) كما يسميه العبرانيون اختصاراً ، والتلمود البابلي نسبة الى (بابل) بالعراق، ويعرف عندهم باسم (بابلي) اختصاراً .

أما التلمود الفلسطيني ، فقد وضع ، كما يفهم من اسمه ، في فلسطين . وقد تعاونت على تحبيره المدارس اليهودية (Academies) في الكنائس (الكنيس) . وقد كانت هذه مراكز الحركة العلمية عند اليهود في فلسطين ، وأعظمها هو مركز (طبرية) (Tiberias) ، وفي هذا المحل وضع الحبر (رابي يوحان) (Rabbi Jochanan) التلمود الأورشليمي في أقدم صورة من صوره في أواسط القرن الثالث الميلادي وتلاه بعد ذلك الأحبار الذين جاؤوا بعد (يوحنان)،وهم الذين وضعوا شروحاً وتفاسير عدة تكون منها هذا التلمود الذي اتخذ هيأته النهائية في القرن الرابع الميلادي .

وأما التلمود البابلي ، فقد بدأ بكتابته — على ما يظهر — الحبر (آشي) (Rabbi Ashi) المتوفى عام ٤٣٠ م ، وأكمله الأحبار من بعده ، واشتغلوا به

---

١ (التلمود) (تعليم) Learning راجع عن التلمود المصادر الاتية :
Hastings, P., 890, Ency. Britani., Vol., 21, P. 769, J.Z.
Lauterbach, Mishna and W. Bacher, Talmud, In Jew. Ency., Funk, Entstehung des Talmud, Leipzig, 1910, Rodkinson, History of the Talmud, New York, 1903, Strack, Einleitung in den Talmud, 1908.
ويتألف التلمود من (المشنة) Mishnah ، وهو الموضوع ومن (جمارة) (كماره) Gemara ، وهو التفسير . فالمشنة (التكرار) عبارة عن مجموع تقاليد أعطيت لموسى حين كان على الجبل ثم تداولها هارون واليعازر ويشوع، وسلموها للانبياء ثم انتقلت عن الانبياءالى أعضاء المجمع العظيم وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح حينما جمعها الحاخام (يهوذا) وكتبها ، ومن ثم صار بعد جامعا للمشنة . و (الجمارة) (الكمارة) (التعليم) ، وهو مجموع المناظرات والتعليم والتفاسير التي جرت فيالمدارس العالية بعد انتهاء المشنة .
قاموس الكتاب المقدس (١ / ٢٩٠) ، Pirqe Aboth, 1, 1.

حتى اكتسب صيغته النهائية في أوائل القرن السادس للميلاد[١] . ولكل تلمود من التلمودين طابع خاص به ، هو طابع البلد الذي وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث . وأما التلمود البابلي ، فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق في التفكير ، وتوسع في الأحكام والمحاكمات ، وغنى في المادة . وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني[٢] .

وبهذا يكمل التلمود أحكـام التوراة ، وتفيدنا إشاراته من هذه الناحية في تدوين تأريخ العرب . أما الفترة بـين الزمن الذي انتهي فيه من كتابة التوراة والزمن الذي بدأ فيه بكتابة التلمود ، فيمكن أن يستعان في تدوين تأريخها بعض الاستعانة بالأخبار التي ذكرها بعض الكتاب ، ومنهم المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس) (جوسفوس فلافيوس) (Josephus Flavius) الذي عـاش بين سنة ٣٧ و ١٠٠ للمسيح تقريباً . ولـه كتاب باللغة اليونانية في تأريخ عاديات اليهود (Joudaike Archaioloigia) ، تنتهي حوادثه بسنة ٦٦ للميلاد ، وكتاب آخر في تأريخ حروب اليهود (Peri tou Joudiakou Polemou)[٣] مـن استيلاء (انطيوخس افيفانوس) (Antiochus Epiphanos) على القدس سنة ١٧٠ قبل الميلاد الى الاستيلاء عليها مرة ثانية في عهد (طيطس) (Titus) سنة ٧٠ بعد الميلاد ، وكان شاهد عيان لهذه الحادثة. وقد نال تقدير (فسبازيان) (Vespasian) و (طيطس) وأنعم عليه بالتمتع بحقوق المواطن الروماني[٤] .

وفي كتبه معلومات ثمينة عن العرب ، وأخبار مفصلة عن العرب الأنباط ، لا نجدها في كتاب ما آخر قديم . وكان الأنباط في أيامه يقطنون في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات ، فتتاخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى تتصل بالبحر الأحمر[٥] . وقد عاصرهم هذا المؤرخ ، غير أنه لم يهتم بهـم الا من ناحية علاقة الأنباط بالعبرانيين ، ولم تكن بلاد العرب عنده الا مملكة الأنباط[٦] .

---

١ Hastings, P., 891.

٢ Hastings, P., 891.

٣ Peri tou Joudaikon Polemou, De Bello Judiaco.

٤ Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, P., 228, Simon Dubnow, Weltgeschichte des Judischen Volkes, BD., 2, s., 83. ff., BD. 3, s., 105, Ency. Brita., Vol., 13, P., 153.

٥ Josephus, Antiquities, BK., XIV, Ch., 14, I, The Jewish War, BK., I, ch. 1. 3. Ch. 4. 2.

٦ Hastings, P., 68.

هذا وان للشروح والتفاسير المدونة على التوراة والتلمود قديماً وحديثاً، وكذلك للمصطلحات العبرانية القديمة على اختلاف أصنافها أهمية كبيرة في تفهم تاريخ الجاهلية ، وفي شرح المصطلحات الغامضة التي ترد في النصوص العربية التي تعود الى ما قبل الإسلام ، لأنها نفسها وبتسمياتها ترد عند العبرانيين في المعاني التي وضعها الجاهليون لها . وقد استفدت كثيراً من الكتب المؤلفة عن التوراة مثل المعجمات في تفهم أحوال الجاهلية ، وفي زيادة معارفي بها ، ولهذا أرى أن من اللازم لمن يريد درس أحوال الجاهلية ، التوغل في دراسة تلك الموارد وجميع أحوال العبرانيين قبل الإسلام .

٣ ـ الكتب الكلاسيكية :

وأقصد بالكتب (الكلاسيكية) الكتب اليونانية واللاتينية المؤلفة قبل الإسلام. ولهذه الكتب ـ على ما فيها من خطأ ـ أهمية كبيرة ، لأنها وردت فيها أخبار تاريخية وجغرافية كبيرة الخطورة ، ووردت فيها أسماء قبائل عربية كثيرة لولاها لم نعرف عنها شيئاً . وقد استقى مؤلفوها وأصحابها معارفهم من الرجال الذين اشتركوا في الحملات التي أرسلها اليونان أو الرومان الى بلاد العرب ،ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل بلاد العرب أو أقاموا مدة بين ظهرانيهم ، ولا سيما في بلاد الأنباط ، ومن التجار وأصحاب السفن الذين كانوا يتوغلون في البحار وفي بلاد العرب للمتاجرة . وتعد الاسكندرية من أهم المراكز التي كانت تعنى عناية خاصة بجمع الأخبار عن بلاد العرب وعادات سكانها وما ينتج فيها لتقديمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط . وقد استقى كثير من الكتّاب(الكلاسيكيين) معارفهم عن بلاد العرب من هذه المصادر التجارية العالمية .

وتتحدث الكتب الكلاسيكية جازمةً عن وجود علاقات قديمة كانت بين سواحل بلاد العرب وبلاد اليونان والرومان ، وتتجاوز بعض هذه الكتب هذه الحدود فتتحدث عن نظرية قديمة كانت شائعة بين اليونان ، وهي وجود أصل دموي مشترك بين بعض القبائل العربية واليونان . وتفصح هذه النظرية ، على ما يبدو منها من سذاجة ، عن العلاقات العريقة في القِدَم التي كانت تربط سكان

البحر المتوسط الشماليين بسكان الجزيرة الغربية[١] .

ومن أقدم من ذكر العرب من اليونانيين (أخيلس) (Aescylus) (٥٢٥ — ٤٥٦ ق. م) ، و (هيرودتس) (٤٨٠ — ٤٢٥ ق. م) وقد زار مصر، وتتبع شؤون الشرق وأخباره بالمشاهدة والسماع ، ودوّن ما سمعه ، ووصف ما شاهده في كتاب تاريخي . وهو أول أوروبي ألّف كتاباً بأسلوب منمق مبوب في التاريخ ووصل مؤلفه الينا ، وقد لقّبه (شيشرون) (Cicero) الشهير بلقب (أبي التأريخ) .

تناول « هيرودتس » تاريخ الصراع بين اليونان والفرس ، وان شئت فسمّه (النزاع الأوروبي الآسيوي) ، فألّف عن تاريخه . والظاهر أنه لم يتمكن من إتمامه ، ففيه فصول وضعت بعد وفاته . وهو أول كاتب يوناني اتخذ من الماضي موضوعاً للحاضر ومادة للمناقشة ، بعد أن كان البحث في أخبار الأيام السالفة مقصوراً على ذكر الأساطير والقصص الشعبية والدينية . وهو مع حرصه على النقد والمحاكمة ، لم يتمكن أن يكون بنجوة من الأفكار الساذجة التي كانت تغلب على ذلك العالم الابتدائي في ذلك العهد[٢] ، فحشر في كتابه قصصاً ساذجاً وحكايات لا يصدقها العقل ، متأثراً بعقلية زمانه في التصديق بأمثال هذه الأمور.

ومنهم (ثيوفراستوس) (Theophrastus) ، (حوالي ٣٧١ — ٢٨٧ ق. م)، مؤلف كتاب (Historia Plantarum) وكتاب (De Causis Plantarum) . وفي خلال حديثه عن النبات تطرّق الى ذكر البقاع العربية التي كانت تنمو بها مختلف الأشجار، ولا سيما المناطق الجنوبية التي كانت تصدّر التمر واللبان والبخور والأفاويه[٣] . و (ايراتو ستينس) (Eratosthenes) (٢٧٦ — ١٩٤ ق. م) . وقد استفاد الكتّاب اليونانيون الذين جاؤوا من بعده من كتاباته، ونجد في مواضع مختلفة من جغرافية (سترابون أقوالاً معزوّة اليه[٤]).

---

١ Agatharchides, De Rubro Mari, Opud Geograph, Vet Script minton, I, P., 59, ed., Oxon, 1698, Ch. Forster, The Historical Geography of Arabia, in two Vol., Vol., I, PP., XXXVI,

وسأرمز اليه بـ : Forster :
Pliny, Nat. History, Vol., VI, P., 32, Vol., 2, PP., 718. ed. Paris, 1828. 8 Vol.

٢ اعتمدت على ترجمة George Rawlinson الانكليزية ،
The History of Herodotus, Translated by George Rawlinson, in 2 Vol., London, 1920

٣ Theopheophrastus, Historia Plantarum, Ed., Hort, 1916.

٤ H. Berger, Die Geogr. Fragmente des Eratosthenes, 1880.

ونضيف إلى من تقدموا (ديودورس الصقلي) (Diodorus Siculus) (٤٠ق.م).
وقد ألف باللغة اليونانية تأريخاً عاماً سمّاه (المكتبة التأريخيــة) (Bibliotheke Historike) ، تناول تأريخ العالم من عصر الأساطير حتى فتح (يوليوس قيصر) لأقليم (الغال) . وهو في أربعين جزءاً ، لم يبق منها سوى خمسة عشر جزءاً، تبحث في الحقبة المهمة التي تبتدىء بسنة ٤٨٠ ق. م. وتنتهي بسنة ٣٢٣ ق.م[1].
ويعوز هــذا المؤرخ النقد ، لأنه جمع في كتابه كل ما وجده في الكتب القديمة من أخبار ولم يمحصها ، وقد امتلأ كتابه بالأساطير ، والعــالم مع ذلك مدين اه الى حد كبير بمعرفة أخبار الماضين ، ولا سيما الأساطير الدينية القديمة.

ومن المؤلفين الكلاسيكيين، (سترابون) (سترابو) (Strabon) (Strabo) (٦٤ ق. م — ١٩ م) وهو رحالة كتب كتاباً مهماً باللغة اليونانية في سبعة عشر جزءاً سمّاه (جغرافيا) (Geographica)[2] . وقــد وصف فيه الأحوال الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الأمبراطورية الرومانية الرئيسية ، وتأريخها ، وحالات سكانها ، وغريب عــاداتهم وعقائدهم . وللكتاب شأن كبير ، اذ اشتمل على كثير من الأخبار التي لا تتيسر في كتاب آخر . وقد اعتمد فيه على ما ذكره الكتّاب السابقون .
وقد أفرد (سترابون) في جغرافيته فصلاً خاصاً من الكتــاب السادس عشر ببلاد العرب ، ذكر فيــه مدائن العرب وقبائلهم في عهده ، ووصف أحوالهم التجارية والاجتماعية والاقتصادية ، وحملة (أوليوس غالوس) (أوليوس كالوس) (Aelius Gallus) المعروفة لفتح بلاد العرب وما كان من اخفاقه . ولأخبــار هذه الحملة التي دوّنهــا (سترابون) في جغرافيته ، أهمية خاصة ، اذ جاءت بمعلومات عن نواحي من تأريخ العرب نجهلها ، وقد شارك هو نفسه في الحملة، وقد كان صديقاً لقائدها ، فوصفه وصف شاهــد عيان[3] . وقد استهل وصف

---

١ Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, Vol., 1-3, Edited by Friedrich Vogel, Vol., 4 and 5, Edited by C.T. Fischer, in Bibliotheca Scriptorum Graeco rum et Romanum Teubneriana, Leipzig, 1888-1906.

٢ وقيل (٦٦ ق . م — ٢٤ م) ، أعتمدت على ترجمة : Hamilton
The Geography of Strao, Translated by Hamilton, London, 1912, in 3 Vols., Strabo, Geographia, Edited by August Meineke, in 3 Vols. Leipzig, 1907-1913,

٣ Strabo, BK., 16, Cha., I, ed. Hamiton, Vol., 3, PP., 170, 209.

الحملة بهذه العبارة : (لقد علمتنا الحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب بقيادة أوليوس غالوس في أيامنا هذه أشياء كثيرة عن تلك البلاد[١] .

ومن تحدث عن العرب (بلينيوس) (بليني الأقدم) (Pliny the Elder) (Galus Plinius Secundus) المتوفى سنة ٧٩ م ، ومن كتبه المهمة كتابه (التأريخ الطبيعي) (Naturalis Historia) في سبعة وثلاثين قسماً ، وقد نقل في كتابه عمن تقدمه ، ولا سيا معلوماته عن بلاد العرب والشرق وجمع ما أمكنه جمعه ، غير أنه أتى في أماكن متعددة من كتابه بأخبار لم يرد لها ذكر من كتب المؤرخين الآخرين[٢] .

وهناك مؤلف يوناني مجهول، وضع كتاباً،سماه (الطواف حول بحر الأريتريا) (Periplus Maris Erythraei) (The Periplus of the Erythraean Sea)[٣] أتمه في نهاية القرن الأول للمسيح في رأي بعض العلماء ، أو بعد ذلك في حوالي النصف الأول من القرن الثالث للميلاد في راي بعض آخر[٤] ، وقد وصف فيه تطوافه في البحر الأحمر وسواحل البلاد العربية الجنوبية . والظاهر أنه كان عالماً بأحوال الهند وشواطىء أفريقية الشرقية ، ولعله كان تاجراً من التجار الذين كانوا يطوفون في هذه الأنحاء للاتجار ، ولم يعتن إلا بأحوال السواحل . أما الأقسام الداخلية من جزيرة العرب ، فيظهر أنه لم يكن ملماً بها إلماماً كافياً .

وقد ذهب (البرايت) إلى أن الكتاب المذكور قد ألف في حوالي السنة (٨٠) بعد الميلاد[٥] . وذهب آخرون إلى أن مؤلفه قد ألفه في حوالي السنة (٢٢٥) أو (٢١٠) بعد الميلاد[٦] .

---

١ Strabo, Vol., 3, PP., 209, O'Leary, Arabia, P., 75 Strabo. BK. 16 Ch. 4. 22.

٢ Pliny, Naturalis Historia, edited by, C. Mayerhoff, Teubner Series, 1882-1909, 2end Edition, 6 Vols., Leipzig, 1892-1909, D. Detlefson Die Geographischen Bucher (II.242 VI Schluss), Der Naturalis Historia des G. Plinius mit Vollstandigen Kritischen Appart., Edited by W. Sieglin, Vol., 9, Berlin, 1904.

٣ The Periplus of the Erythraean Sea, Translated by W. H. Schof, New York, 1912.

٤ Franz Altheim und Ruth Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, Bd., I, 108.

٥ BASOR., Num. 176, 1964, P., 51.

٦ J. Pirenne, La Date du Periple de la Mer Erythree, Journal Asiatique, 1961, PP., 441., F. Altheim, Geschichte der Hunnen, V. Berlin, 1962, PP., II, Le Museon, 1964, 3-4, P., 478.

وهناك طائفة من الكتّاب الذين تركوا لنا آثاراً وردت فيهـا اشارات الى العرب والبلاد العربية ، مثل (أبولودورس) (Apollodorus) (المتوفى سنة ١٤٠ بعد المسيح) . و (بطلميوس) (Claudius Ptolemaes) الـذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني للمسيح . وهو صاحب مؤلفات في الرياضيات منها (كتاب المجسطي) المعروف في اللغة العربية . وله كتاب مهم في الجغرافيـة سمّاه (Geographike Hyphegesis) ، ويعرف باسم (جغرافية بطلميوس)[١] . ولهذا الكتاب شهرة واسعة ، وقد درّس في أكثر مدارس العالم الى ما بعد انتهاء القرون الوسطى . جمع فيه بطلميوس ما عرفه العلماء اليونان وما سمعه هو بنفسه وما شاهده هو بعينه ، وقسّم الأقاليم بحسب درجات الطول والعرض . وقد تكلم في كتابه على مدن البلاد العربية وقبائلها وأحوالها ، وزيّن الكتـاب بالخارطات التي تصور وجهة نظر العلم الى العالم في ذلك العهد[٢] .

ويرى بعض الباحثين أن ما ذكره (بطلميوس) عن حضرموت يشير الى أن المنبع الذي أخذ منه كان يعلم شيئاً عنها ، وانه كان قد أقام مدة في (شبوة) العاصمة . ويرون أن ذلك المنبع قد يكون تاجراً رومياً ، أو أحد المبعوثين الرومان في تلك المدينة ، لأن وصف (بطلميوس) للأودية والأماكن الحضرميـة يشير إلى وجود معرفة بالأماكن عند صاحبه . أما ما ذكره (بطلميوس) عن أرض (سبأ) والسبئيين ، فانه لا يدل،على حد قول المذكورين،على علم بالأماكن ، وإجادة لأسمائها ، وأن الذي أخذ منه (بطلميوس) لم يكن قد شاهدها[٣] .

ومن الذين أوردوا شيئاً عن أحوال بـلاد العرب (أريان) (Arrian) (Flavius Arrianus) (٩٥ – ١٧٥ م) ، وقد ألف كتباً عديـدة . منهـا

---

١ Geographia, Edited by C.F. Nobbe, 3 Vols, Leipzig, 1843-1845, Vol., I, Part, I, Carolus Mullerus, Paris, 1884, Vol., I, P., 2, by C. Th. Fisher, Paris, 1901.

٢ (قال المسعودي : وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الارض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والانهار والعيون ، ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة ، وا عددهـا اربعة آلاف وخمس مئة وثـلاثـن مدينة في عصره وسماها مدينة مدينة في اقليم اقليم ....) ، مروج الذهب (١ / ٧٣) .

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P., 466.

كتابه (Anabasis of Alexander the Great) في خمسة عشر قسماً ، وصف في سبعة منها حملات الإسكندر الكبير ، وفي الثمانية الأخرى وصف الهند وأحوال الهنود ورحلة القائد (Nearchus) (نيرخس) (أميرال الإسكندر في الخليج العربي[1] . ومنهم (هيروديان) (Herodianus) (١٦٥ — ٢٥٠ ب. م) ، وهو مؤرخ سرياني ألف في اليونانية كتاباً في تأريخ قياصرة الروم من وفاة القيصر (ماركوس أوريليوس) إلى سنة ٢٣٨ م[2] .

الموارد النصرانية :

وللمواد النصرانية أهمية كبيرة في تدوين تأريخ انتشار النصرانية في بلاد العرب وتأريخ القبائل العربية ، وعلاقات العرب باليونان والفرس ، وقد كُتب أغلبها باليونانية والسريانية . ولها في نظري قيمة تأريخية مهمة لأنها عند عرضها للحوادث تربطها بتأريخ ثابت معين ، مثل المجامع الكنيسية ، أو تواريخ القديسين ، والحروب وأوقاتها في الغالب مضبوطة مثبتة .

ومن أشهر هذه الموارد مؤلفات المؤرخ الشهير (أويسبيوس) المعروف بـ (أويسبيوس القيصري) (Eusebius of Caesarea) (٢٦٣ — ٣٤٠م) (٢٦٥ — ٣٤٠ م) وبـ (أبي التأريخ الكنائسي) (Father of Ecclesiastical History) . وبـ (هيرودتس النصارى)[3] . وكان على اتصال بكبار رجال الحكومة وبروساء الكنيسة ، فاستطاع بذلك أن يقف على كثير من أسرار الدولة وأن يراجع المخطوطات والوثائق الثمينة التي كانت تحويها خزائن الحكومة وخزائن كتب الرؤساء والأغنياء .

وكان قد ألّف كتاباً في التاريخ باللغة اليونانية، عرف بـ (The Chronicon) ، حوى بالاضافة الى التاريخ العام تقاويم وجداول بالحوادث التي حدثت في أيامه .

---

١ Anabasis, Edited by, A.G. Ross, Leipzig, 1907, C. Muller, Paris, 1846, Historia Indica, Edited by Carl Muller, in his Geographi Graeci Minoris, Vol., I, Paris, 1861, PP., 306-369.

٢ Herodianus, Ab Excessu divi marci libri Octo, Edited by L. Mendelssohn, Leipzig, 1883.

٣ William Smith, A Dictionary of the Bible, Vol., 3, P., 107.

وقد أفاد هذا الكتاب فائدة كبيرة في معرفة تاريخ اليونان والرومان حتّى سنة ٣٢٥م، ولم يبق من أصله غير قطع صغيرة . غير أن له ترجمة باللاتينية عملها (جيروم) (Jerome) ، وأخرى باللغة الأرمنية ، وقد سدّ (جوزيف سكالكر) (Joseph Scaliger) النقص الذي طرأ على النسخة الأصلية ، باستفادته من هاتين الترجمتين[١] .

ولهذا الأسقف كتب مهمة أخرى ، في مقدمتها كتاب (التاريخ الكنائسي) (Ecclesiastical History) ، وهو في عشرة كتب ، يبدأ بأيام المسيح ، وينتهي بوفاة الامبراطور (Licinius) سنة ٣٢٤ م . وقد استقى كتابه هذا من مصادر قديمة ، وأورد فيه أموراً انفرد بها[٢] . ومن مؤلفاته : كتاب (شهداء فلسطين) (The Martyrs of Palastine) تحدّث فيه عن تعذيبهم واستشهادهم في أيام (Diocletian) و (Maximin) (٣٠٣ – ٣١٠ م) ، وكتاب (سيرة قسطنطين) (The Life of Constantine) ، وكتاب في فلسفة اليونان وديانتهم[٣] .

ومن مؤرخي الكنيسة : (Athanasius) (حوالي ٢٩٦ – ٣٧١ م) و (Gelasius) (حوالي ٣٢٠ – ٣٩٤ م) أسقف قيصرية ، وله تتمة لتاريخ (Eusebius) . و (روفينوس تيرانيوس) (Rufinus Tyranius) المتوفى سنة ٤١٠ م ، وصاحب كتاب (Historiae Ecclesiaticae) . وقد ضمّنه أقساماً من تاريخ (أويسبيوس) و (ايرينوس) (Irenaeus) (٤٤٤م) ، وكان أسقفاً على (صور) (Tyre) ، وقد كتب مؤلفاً عن مجمع (أفسوس) للنظر في النزاع مع النساطرة ، وكان يميل اليهم . والمؤرخ (سقراط) (Socrates) ، وهو من الفقهاء في الكنيسة ، وقد اعتمد في تواريخه على من كتب قبله من المؤرخين ، وقد وردت في ثناياها أخبار عن بلاد

---

١ Eusebius, Chronicorum, Edited by Alfred Schoene, in 2 Vols., Berlin, 1866-1875, Onomastikon der Biblischen Ortsnamen, by Erich Klostermann, Vol., II, Part, I, Eusebius, Vol., 3, Part, I, Leipzig, 1904.

٢ تاريخ الكنيسة ، تأليف يوسابيوس القيصري ، ترجمة القس مرقس داود ، الناشر ، دار الكرنك ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣ Smith, A dictionary, Vol., 3, P., 40, 107.

العرب[1] . والمؤرخ (سوزومينوس) (Sozomenus) (٤٠٠ – ٤٤٣) وله كتاب في التأريخ الكنائسي[2] ، و (ثيودوريت) (Theodoret) المتوفى حوالى سنة ٤٥٧ للميلاد . و (زوسيموس) (Zosimus) ، وهو مؤرخ يوناني ألّف في تاريخ الامبراطورية الرومانية – اليونانية ، فأشار الى العرب وعلاقاتهم بها[3] . و (شمعون الأرشامسي) (Simeon of Beit Arsham) ، وهو صاحب (رسائل الشهـــداء الحميريين)[4] التي تبحث في تعذيب ذي نواس للنصارى في نجران ، وقد جمع أخبارهم (على ما يدعيه) من بلاط ملك الحيرة أيام أوفده اليه امبراطوار الروم في مهمة رسمية . و (بروكوبيوس) (Procopius) من رجال القرن السادس للميلاد ، وكان أمين سر القائد (بليزاريوس) (Belisarius) أعظم قوّاد (يوسطنيانوس)[5] ، وقد رافقه عدة سنين في بلاد فارس وشمال أفريقية وجزيرة صقليـــة . ومن مؤلفاتـــه مؤلف في تأريخ زمانه ، لا سيما حروب (يوسطنيانوس) ، وكتاب (De Bello Persico) وقد وردت فيه أخبار ذات بال بالنسبة لبلاد العرب[6] .

ومن هؤلاء (زكريا) (Zacharias) ، المتوفى حوالى سنة ٥٦٨م[7] . و يوحنا)

---

١ Smith, A Dictionary, Vol., 3, P., 107. ff., Socrates, Ecclesiastical History, Oxon., 1844

٢ Sozomenos, Ecclesiasticae Histria, in, J.P., Migne Patrologiae, 67, 1859, Smith, A. Dictionary, P., 107. ff.

٣ Zosimus, Historia Nova, Edited by L. Mendelssohn, Leipzig, 1887.

٤ Simeon of Bejt Arsham, (524), Letter on the Himiarite Martyrs, by Ign. Guidi, entitled, La Lettra di Semeone Vescova di Beth Arsham (524), Spora i Lincei atti, Anno, CCIXXVIII, Storiche e Filologiche, Vol., 7, Rome. 1881, PP., 471-515.

٥ (يوسطنيانس) حمزة الاصفهاني في كتابه تأريخ سني ملوك الارض والانبياء ، (طبع مطبعة كاوياني ببرلين) ، ص ٤٧ ، (يوسطانيوس) ، مروج الـذهب (١ / ٢٧٧) ، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .

٦ J. Haury, Procopius De Bello Persico, in Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Romanorum, Leipzig, 1905.

٧ Zacharias, Historia Miscellanea, Edited by J.P.N. Land, Entitled Zacharia Episcopi mitylenes Aliorumuae Scripta Historica Graece Plerumque deperdita, Constituting J.P.N. Land, Anecdata Syriaca, Vol., 3, Leiden, 1870. Zachariah of Mtiylene, The Syriac Chronicle, Translated by Hamilton and Brooks, London, 1899.
وربما توفي ما بين ٥٣٦ – ٥٥٣ للميلاد .

ملالا (John Malalas) المتوفى سنة ٥٧٨ م[١]. و (ميننذر) (Menandar) Protector) المتوفى حوالي سنة ٥٨٢م[٢] . و (يوحنا الأفسي) (John of Ephesus) وقد ولد في حوالي سنة ٥٠٥م ، وتوفى سنة ٥٨٥م تقريباً ، وله مؤلفات عديدة منها كتابه : (التأريخ الكنائسي) (Ecclesiastica Historia) ، وهو في ثلاثة أقسام يبتدىء بأيام (يوليوس قيصر) وينتهي بسنة ٥٨٥م[٤] . وكتاب (تأريخ القديسين الشرقيين) ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٥٦٩م[٣] . ومن هؤلاء (اسطيفان البيزنطي) (Stephanus Byzantinus) المتوفي سنة ٦٠٠م[٥]. و (ايواكريوس) (Evagrius) المعروف بـ (Scholasticus) أي (المدرسي) المتوفي سنة ٦٠٠م . وهو صاحب كتـاب (التأريخ الكنائسي) (Historiae Ecclesiasticae) في ستة أقسام . يبتدى بذكر (المجمع الأفسوسي) المنعقد عام ٤٣١م وينتهي بسنة ٥٩٣م . وهو من الكتب المهمة ، لأن مؤلفه لم يكتب عن هوى ، شأن أكثر مؤرخي الكنيسة . وقد استعان بالنصوص الأصلية وبالكتب المؤلفة سابقاً[٦] .

ومن هؤلاء أيضاً (ثيوفليكت) (Theophylactus Simocatta) المتوفي سنة ٦٤٠م[٧] و (ثيوفانس) (Theophanes the Confessor) المتوفي سنة ٨١٨م[٨] . و (ايليا النصيبي) (Elijah (Elis) of Nisibis) [٩] ، (وميخائيل السوري)[١٠].

١ John Malades, Chronographia, in J.P. Migne Patrologiae cursus Completus, Series Graeca, Vol., 97, Paris, 1865, Cols., 65-716, Also, Dindorf, Bonn 1831.

٢ Menander Protector, (582), De Legationibus, in J.P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Graeca, Vol., 113, Paris, 1864, Cols 791-928.

٣ John of Ephesus, Ecclesiastical History, Part, 3, Edited by William Cureton, Oxford, 1853.

٤ Land, Anecdata Syriaca, 3 Vols., Leiden, 1862-1870, 1-288.

٥ Ethnica, by August Meineke, Ethnicorum Quae Supersunt, Vol. 1, Berlin, 1879.

٦ Evagrius Scholasticus, Historia Ecclesiasticae, Libri sex, in J.P. Migne, Petrologiae Graeca, Vol., 86, Part, 2, Paris, 1865, Cols, 2405-2906, Bury, Byzant. Texts, London, 1898.

٧ Historiae, Edited by, C. De Boor, Leipzig, 1887.

٨ Theophanes the Confessor, Chronographia, in J. P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Graea, Vol., 108, Paris, 1863, Cols, 1-1010, Also Edited by C. De Boor, Leipzig, 1887.

٩ Elijah of Nisibis, Opus Chronologicum, Edited and Translated by, F.W. Brooks, (Part) and J.P. Chabot, (Part 2), in Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Ser., 3, Vol., 7 and 8, Paris, 19091911.

١٠ Michael the Syrian, Chronicle, by J.B. Chabot, Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite D'Antioche (1166-1199), 4 Vols, Paris, 1899-1906.

وفي قائمة المخطوطات السريانية في المتحف البريطاني أسماء مخطوطات تأريخية ودينية أخرى ذات فائدة كبيرة في هذا الباب[1] . وفي مجموعة الكتابات اليونانية واللاتينية[2] وفي المجموعات التي تبحث في أعمال القديسين وفي انتشار النصرانية ، اشارات مهمة الى بـلاد العرب . وهناك كتاب نشره المستشرق (كارل مولر Carl Muller) لمؤلف مجهول اسمه (Glaucus) يبحث في (آثار بلاد العرب)[3].

وهناك طائفة من المؤرخين النصارى من روم وسريان عاشوا في أيام الدولة الأموية والدولة العباسية، ألفوا في التأريخ العام وفي تواريخ النصرانية الى أيامهم، فتحدثوا لذلك عن العرب في الجاهلية وفي الإسلام . ومؤلفات هؤلاء مفيدة من ناحية ورود معارف فيها لا ترد في المؤلفات الإسلامية عن الجاهلية والإسلام ، تفيد في سدّ الثغر في التأريخ الجاهلي وفي الوقوف على النصرانية بين العرب وعلى صلات الروم والفرس بالعرب .

وأكثر الموارد المذكورة هي ، ويا للأسف ، مخطوطـة ، ليس من المتيسر الاستفادة منها ، أو مطبوعة ولكنها نادة، لأنها طبعت منذ عشرات من السنين ، فصارت نسخها محدودة معدودة لا توجد الا في عدد قليل من المكتبات . ثم أنها في اليونانية أو اللاتينية أو السريانية ، أي في لغاتها الأصلية ، ولهذا صعب على من لا يتقن هذه اللغات الاستفادة منها ، ولهذه الأمور ولأمثالها ، لم يستفد منها الراغبون في البحث في التاريخ الجاهلي حتى المستشرقون منهم استفادة واسعة ، فحرمنا الوقوف على أمور كثيرة من أخبار الجاهلية كان في الامكان الوقوف عليها لو تيسرت لنا هذه الكنوز .

الموارد العربية الإسلامية :

وأعني بها الموارد التي دوّنت في الإسلام وقد جمعت مادتها عن الجاهلية من

١ Wright, W., Catalogue of the Syriac Manuscripts in the British Museum, in 3 Vols, London, 1870-1872.

٢ Corpus Inscriptionum Latinarum, Consilio et Auctoritate Academiae Litterarum Regiae Porussicae, Berlin, 1862, (15 Vols).

٣ Glaucus, Archaelogia Arabica, by, Carl Muller, in Fragmenta Historicorum Graecorum, Vol., 4, Paris, 1851, P., 409.

الأفواه ، خلا ما يتعلق منها بأخبار صلات الفرس بالعـرب وبأخبار آل نصر وآل غسان وبأخبار اليمن المتأخرة، فقد أخذت من موارد مرتبة يظهر أنها كانت مكتوبة كما سأتحدث عن ذلك .

والموارد المذكورة كثيرة ، منها مصنفات في التاريخ ، ومنها مصنفات في الأدب بنوعيه : من نثر ونظم ، ومنها كتب في البلدان والرحلات والجغرافيا وفي موضوعات أخرى عديدة،هي وإن كانت في أمور لا تعد من صميم التاريخ، إلا أنها مورد من الموارد التي يجب الاستعانة بها في تدوين تاريخ الجاهلية، لأنها تتضمن مادة غزيرة تتعلق بتاريخ الجاهلية القريبة من الإسلام والمتصلة به ، لا نجد لها ذكراً في كتب التاريخ ، فلا بد لمؤرخ الجاهلية من الأخذ منها لاتمام التاريخ .

الحق ، اننا إذا أردنا البحث عن مورد يصور لنا أحوال الحياة الجاهلية ، ويتحدث لنا عن تفكير أهل الحجاز عند ظهور الإسلام، فلا بد لنا من الرجوع الى القرآن الكريم ولا بد من تقديمه على سائر المراجع الإسلامية ، وهو فوقها بالطبع . ولا أريد أن أدخله فيها،لأنه كتاب مقدس ، لم ينزل كتاباً في التاريخ أو اللغة أو ما شاكل ذلك ، ولكنه نزل كتاباً عربياً ، لغته هي اللغة العربية التي كان يتكلم بها أهل الحجاز،وقد خاطب قوماً نتحدث عنهم في هذا الكتاب، فوصف حالتهم ، وتفكيرهم وعقائدهم ، ونصحهم وذكّرهم بالأمم والشعوب العربية الخالية[1] ، وطلب منهم ترك ما هم عليه ، وتطرق الى ذكر تجاراتهم ، وسياساتهم وغير ذلك . وقد مثّلهم أناس كانت لهم صلات بالعالم الخارجي ، واطلاع على أحوال من كان حولهم . وفيه تفنيد لكثير من الآراء المغلوطة التي نجدها في المصادر العربية الإسلامية . فهو مرآة صافية للعصر الجاهلي،وهو كتاب صدق لا سبيل الى الشك في صحة نصه .

وفي القرآن الكريم ذكر لبعض أصنام أهل الحجاز،وذكر لجدلهم مع الرسول

---

1 سورة هود سورة ١١ اية ٩٥ ، سورة الحج ، سورة ٢٢ اية ٤٢ ، سورة الشعراء ، سورة ٢٦ اية ١٤١ ، سورة الحاقة ، سورة ٦٩ اية ٤ ، سورة ق ، سورة ٥٠ اية ١٤ ، سورة الدخان ، سورة ٤٤ اية ٣٧ ، سورة الفيل ، سورة ١٠٥ ، اية ١ ، سورة البروج ، سورة ٨٥ اية ٤ .

في الإسلام وفي الحياة وفي المثل الجاهلية. وفيه تعرّض لنواح من الحياة الاقتصادية والسياسية عندهم ، وذكر تجارتهم مع العـالم الخارجي ، ووقوفهم على تيارات السياسة العالمية ، وانقسام الدول الى معسكرين ، وفيه أمور أخرى تخص الجاهلية وردت فيه على قدر ما كان لها من علاقة بمعارضة قريش للقرآن والإسلام . وفي كل ما ورد فيه دليل على أن صورة الإخباريين التي رسموها للجاهلية ، لم تكن صورة صحيحة متقنة ، وأن ما زعموه من عزلة جزيرة العرب ، وجهل العرب وهمجيتهم في الجاهلية الجهلاء ، كان زعماً لا يؤيده القرآن الكريم الذي خالف كثيراً مما ذهبوا اليه .

والتفسير ، مصدر آخر من المصادر المساعدة لمعرفة تأريخ العرب قبل الإسلام. وفي كتب التفسير ثروة تأريخية قيمة تفيد المؤرخ في تدوين هذا التأريخ ، تشرح ما جاء مقتضباً في كتاب الله ، وتبسط ما كان عالقاً بأذهان النـاس عن الأيام التي سبقت الإسلام ، وتحكي ما سمعوه وما وعوه عن القبائل العربية البائدة التي ورد لها ذكر مقتضب في السور،وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات .

ولكن كتب التفاسير – ويا للأسف – غير مفهرسة ولا مطبوعة طبعاً حديثاً، وهي في أجزاء ضخمة عديدة في الغالب ، ولهـذا صعب على الباحثين الرجوع اليها لاستخراج ما يُحتاج اليه من مادة عن التأريخ الجاهلي ، حتى ان المستشرقين المعروفين بصبرهم وبجلدهم وبعـدم مبالاتهم بالتعب ، لم يأخذوا من معينها إلا قليلاً ،مع أن فيها مادة غنية عن نواح كثيرة من أمور الجاهلية المتصلة بالإسلام .

وكتب الحديث وشروحها ، هي أيضاً مورد غني من الموارد التي لا بد منها لتدوين أخبار الجاهلية المتصلة بالإسلام ، اذ نجد فيهـا أموراً تتحدث عن نواح عديدة من أحوال الجاهلية لا نجدها في مورد آخر . فلا مندوحـة من الرجوع اليها والأخذ منها في تدوين تأريخ الجاهلية . ولكن أكثر من بحث في التـأريخ الجاهلي لم يغرف من هذا المنهل الغزير ، بسبب عدم انتباههم لأهميته في تدوين تأريخ عرب الحجاز عند ظهور الإسلام ، فعلينا نحن اليوم واجب الأخذ منه ، لنزيد علمنا بتأريخ هذه الجاهلية المتصلة بالإسلام .

والشعر الجاهلي ، مورد آخر من الموارد التي تساعدنا في الوقوف على تأريخ الجاهلية والاطلاع على أحوالها ، وقديماً قيل فيه إنه (ديوان العرب) . « عن عكرمة . قال : ما سمعت ابن عبّاس فسّر آية من كتاب الله ، عز وجلّ ،

إلاّ نزع فيها بيتاً من الشعر ، وكان يقول : إذا أعياكم تفسير آيــة من كتاب الله ، فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ، وبه حُفظت الأنساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله ، صـــلى الله عليه وسلم ، وحديث صحابته والتابعين »[1] .

« وعن ابن سيرين . قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[2] . وقال الجمحي فيـه ، أي في الشعر الجاهلي : (وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم،ومنتهى حكمهم ، به يأخذون،وإليه يصيرون[3] .)

وقد جُمع الشعر الجاهلي في الإسلام ، جمعه رواة حاذقون ، تخصصوا برواية شعر العرب . قال (محمد بن سلام الجمحي) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، حمّاد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار »[4] . واشتهر بجمعه أيضاً (أبو عمرو بن العلاء) المتوفى سنة (١٥٤) للهجرة[5]،وخلف بن حيّان أبو محرز الأحمر[6] ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والمفضّل بن محمد الضبّي الكوفي[7] صاحب المفضليات ، وهي ثمان وعشرون قصيدة ، قد تزيد وقد تنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية[8].

---

١ المزهر (٢/٤٧٠) ، (واخرج ابو بكر الانباري في (كتاب الوقف) من طريق عكرمة عـن ابـن عباس ، قال : اذا سالتم عـن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العـرب) ، المزهـر (٢/٣٠٢) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١/٣) .

٢ الجمحي : طبقات الشعراء (ص ١٠) (طبعة لندن).

٣ طبقات الشعـراء (ص ١٠) .

٤ طبقات الشعراء (ص ١٤) ، توفي حماد سنة ١٥٦ للهجرة ، الفهرست (ص ١٤٠) .

٥ البيان والتبيين (١/٣٢١) ، المزهـر (٢/٣٠٤) ، الفهـرست (ص ٤٨)ـ

٦ (وكان مـن امرس الناس لبيت شعر ، وكان شاعرا يعمل الشعر على لسان العرب وينحله اياهم ... وله مـن الكتب : كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر) ، الفهرست (ص ٨٠)

٧ طبقات الشعراء (ص ٩) ، الفهرست (ص ١٠٨) .

٨ الفهرست (ص ١٠٨) .

وأبو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة[١] ، قيل : إنه جمع أشعار العرب ، فكانت نيفاً وثمانين قبيلة[٢] . وأبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي ، المتوفي سنة ٢٣١ للهجرة[٣] ، وأبو محمد جنّاد بن واصل الكوفي[٤] ، وخلاّد بن يزيد الباهلي[٥] ، وغيرهم ممن تفرغوا له ، وصرفوا جلّ وقتهم في جمعه وحفظه وروايته .

(قال ابن عوف عن ابن سيرين . قال : عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم أكثره)[٦] . وورد عن (أبي عمرو بن العلاء) انه قال : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير)[٧] . ولا جدال بين العلماء حتى اليوم في موضوع ذهاب أكثر الشعر الجاهلي ، وفي أن الباقي الذي وصل الينا مدوناً في الكتب ، هو قليل من كثير . وقد عللوا سبب اندثار أكثره وذهابه بسبب عدم تدوين الجاهليين له ، واكتفائهم بروايته حفظاً ، فضاع بتقادم الزمان ، وبموت الرواة ، وبانطماس أثره من الذاكرة ، وبانشغال الناس بأمور أخرى عن روايته ، ولا سيما رواية القديم منه الذي لم يعد يؤثّر في العواطف تأثير الجديد منه الذي قيل قبيل الإسلام .

نعم جاء في الأخبار أنه (قد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار

---

١ (واخذ عند دواوين اشعار القبائل كلها) ، (قيل مات في اليوم الذي مات فيه ابو العتاهية وابراهيم الموصلي سنة ثلاث عشرة ومائتين) ، الفهرست (ص ١٠٧ وما بعدها)

٢ الفهرست (ص ١٠٧) .

٣ الفهست (ص ١٠٨ وما بعدها) .

٤ (كان من اعلم الناس بأشعار العرب وايامها) الفهرست (ص ١٤١) .

٥ الفهرست (ص ١٦٢) .

٦ طبقات الشعراء (ص ١٠) .

٧ المصدر نفسه .

الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بـــني مروان أو ما صار منه)[1] . وورد عن « حمّاد الراوية» أنه ذكر أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطّنوج ، وهي الكراريس ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : إنّ تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار[2] .

ووردت عنه أيضاً حكاية أهل مكة للمعلقات على الكعبة[3] . ووردت أخبار أخرى تدل على وجود تدوين للشعر عند الجاهليين . الا اننا لا نجد حماداً ولا غير حماد ينص على أنه نقل ما دوّنه من تلك الموارد المدونة أو من غيرها مما وجده مدوّناً . وهذا ما حدا بالعلماء قديماً وحديثاً إلى البحث في هذا الموضوع: موضوع الشعر الجاهلي من ناحية وجود تدوين له ، أو عدم وجود تدوين له . وأثر ذلك على درجة ذلك الشعر من حيث الصحة والأصالة والصفاء والنقاء[4] .

وفي الشعر الجاهلي الواصل الينا ، شعر صحيح وشعر موضوع منحول حمـل على الشعراء . وقد شخص أهل الفراسة بالشعر الصحيح منه ونصوا عـلى أكثر الفاسد منه . ولم يقل أحد منهم أن الشعر الجاهلي موضوع كله ، فاسد لا أصل له . فدعوى مثل هــذه ، هي دعوى كبيرة لا يمكن ان يقولها أحد . إنمـا اختلفوا في درجة نسبة الصحيح إلى الفاسد ، أو نسبة الفاسد إلى الصحيح .

« وكان ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غُثاء ، محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ، ويقول لا علم لي بالشعر انما أوتى به فأحمله،

---

١ طبقات الشعراء (ص ١٠) ، المزهر (٤٧٤/٢) .
٢ تـاج العروس (٧٠/٢) ، لسان العرب (١٤٢/٣) الخصائص لابـن جنـي (٣٩٢/١ وما بعدها) .
٣ المزهر (٤٨٠/٢) ، ياقوت ، ارشاد الاديب (١٤٠/٤) .
٤ طه حسين ، في الشعر الجاهلي ، ١٩٢٦ ، ثم في الادب الجاهلي ، مصطفى صادق الرافعي : تاريخ اداب العرب ، وتحت راية القران ، محمدالخضري : محاضرات في بيان الاخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلـي محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، محمد احمد الغمراوي: النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي ، محمد فريد وجدي : نقــد كتــاب الشعر الجاهلي ، محمد لطفي جمعة : الشهاب الراصد .

ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطّ ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود أفلا يرجع الى نفسه : فيقول من حمل هذا الشعر ، ومن أداه منذ ألوف من السنين ، والله يقول : (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى) . وقال في عاد : (فهل ترى لهم من باقية). وقال : (وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاّ الله)[1] .

واتّهم (حمّاد الرواية) بالكذب وبوضع الشعر على ألسنة الشعراء ، فقيل فيه : (وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار)[2] . وقال (أبو جعفر النحاس) المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة في أمر (المعلقات) : (إن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة)[3] ، واتّهم غيره ممن ذكرت من جهابذة حفظة الشعر الجاهلي بالوضع كذلك . وقد نصوا في كثير من الأحايين على ما وضعوه ، وحملوه على الجاهليين . وذكروا أسباب ذلك بتفصيل[4] ، كالذي فعله مصطفى صادق الرافعي في (تأريخ آداب العرب)[5] .

وبعد هذه الكلمة القصيرة في الشعر الجاهلي – الذي سأتحدث عنه بإطناب في الجزء الخاص باللغة – أقول : إن اليه يعود فضل بقاء كثير من الأخبار المتعلقة بالجاهلية ، فلولاه لم نعرف من أمرها شيئاً . ولست مبالغاً اذا قلت ان كثيراً من الأخبار قد ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسباتها ، وان أخباراً خلقت خلقاً، لأن واضع الشعر أو راويه اضطر الى ذكر المناسبة التي قيل فيها ، فعمد الى الخلق والوضع . وهو من ثم صار سبباً في تخليد الأخبار[6] ، لسهولة حفظه ، ولاضطرار راويه الى قص المناسبة التي قيل فيها .

وما قلته في أهمية الشعر الجاهلي بالقياس الى عمل مؤرخ الجاهلية ، ينطبق

---

١ طبقات الشعراء (ص ٤) .
٢ طبقات الشعراء (ص ١٤) .
٣ المزهر (٤٨٠/٢) .
٤ طبقات الشعراء (ص ٦١،٦٠،١٥ وما بعدها ، ومواضع عديدة اخرى)
٥ راجع الصفحات ٢٧٧ فما بعدها .
٦ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (تاريخ) (ص ٤٨٤) ، الترجمة العربية ،

أيضاً على أهمية شعر الشعراء المخضرمين بالقياس الى عمل هذا المؤرخ ، فقد أسهم أكثر الشعراء المخضرمين في أحداث وقعت في الجاهلية ، وكان منهم من جالس (آل نصر) و (آل غسان) ، وبقيـــة سادات العرب ، فورد في شعرهم أخبارهم وأحوالهم وطباعهم وغير ذلك . كما نجد في شعرهم مادة عن الحياة العقلية والمادية في أيامهم . ثم ان حياتهم اتصلت بالإسلام ، فلم يكن شعرهم وما قالوه ورووه بعيدً عهدٍ عن أهل الأخبار ورواة الشعر ، وهو من ثم أقرب الى المنطق والواقع من شعر الجاهليين لبعدهم عن الرواة بعض البعد .

ولم ينج هذا الشعر أيضاً من الوضع ، فحمل على بعض الشعراء مثل (حسان ابن ثابت) بعض الشعر لأغراض ، منها العصبية القبيلية ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد. وفي الجملة إن المؤرخ الحاذق الناقد لن تفوته هذه الملاحظة حين رجوعه الى هذا الشعر والى ما ورد على ألسنة الشرّاح .

وتعرضت كتب السيَر والمغازي لأخبار الجاهلية بقـــدر ما كان للجاهلية من صلة بتاريخ الرسول ، كما تعرضت لهـــا كتب الأدب وكتب الأنساب والمثالب والبيوتات ومجامع الأمثال والكتب التي ألفت في أخبار المعمرين ، وفي الأيام ، وفي البلدان ، وفي المعجمات والجغرافية والسياحات وغير ذلك ، فورد في ثناياها أخبار قيّمة عن هذه الجاهلية المتصلة بالإسلام . وهي موارد عظيمة الأهمية لمؤرخ هذه الحقبة ، كثيرة العدد ، هيأها عدد كبير من العلماء ، لا يمكن استقصاؤهم في هذه المقدمة ، ولا التحدث عن مؤلفاتهم ، وهو حديث يحتاج الى فصول .

على أنّا يجب أن نأخذ بعض هذه الموارد المذكورة بحذر جدّ شديد ، ولا سيما كتب (الأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب) ، فإنّ مجال الوضع والصنعة بها واسع كبير ، لما للعواطف القبيلية فيها من يد ودخل ، وللحزبيـــة والأغراض فيها من تأثير . وطالما نسمع أن فلاناً وضع كتاباً في مثالب القبيلـة الفلانية أو في مدحها ترضية لرجال تلك القبيلة ، أو لحصوله عـلى مال منها . ومن هنا وجب الاحتراس كل الاحتراس من هذه الموارد ، ووجوب نقد كل رواية فيها قبل الاعتماد عليها والأخذ بها كمورد صحيح دقيق .

وفي كتب الأدب ثروة تأريخية قيمة ، مبثوثة في صفحاتها ، لا نجد لها مثيلاً ولا مكاناً في كثير من الأحايين في كتب أهل التأريخ عن التأريخ الجاهلي، حتى اني لأستطيع أن أقـــول إن ما أورده رجال الأدب عنه هو أضعاف أضعاف ما

رواه المؤرخون عـــن ذلك التأريخ ، وأن ما جاءت به كتب الأدب عن ملوك الحيرة وعن الغساسنة وعن ملوك كندة وعن أخبار القبائل العربية ، هـــو أكثر بكثير مما جاءت به كتب التأريخ ، بل هو أحسن منها عرضاً وصفاءً ، وأكثر منها دقـــة . ويدل عرضه بأسلوبه الأدبي المعروف على أنه مستمد من موارد عربية خالصة ، وقد أخذ من أفواه شهود عيان ، شهدوا ما تحدثوا عنه . وقد أفادنا كثيراً في تدوين تأريخ الجاهلية الملاصقة للإسلام ، ولشأنه هـذا أودّ أن ألفت أنظار من يريد تدوين تأريخ هذه الحقبة اليه ، وأن يرعاه بالرعاية والعناية وبالنقد ، وسيحصل عندئـــذ على رأي لا يستطيع العثور عليـــه في كتب أهل التاريخ .

وقد صارت كتب المؤرخين المسلمين لذلك ضعيفة جداً في باب تأريخ العرب قبل الإسلام ، ومادّتها عن الجاهلية هزيلة جدّ قليلة بالقياس إلى ما نجده في كتب التفسير والحديث والفقه والأدب وشروح دواوين الشعراء الجاهليـــين والمخضرمين والموارد الأخرى . والغريب أن تلك الكتب اكتفت في الغالب بإيراد جريدة لأسماء ملوك الحيرة أو الغساسنة أو كندة أو حمير ، مع ذكر بعض مـــا وقع لهم في بعض الأحيان ، على حين نجد كتب الأدب تتبسط في الحديث عنهم، وتتحدث عن حوادث وأمور لا نجد لهـــا ذكراً في كتب المؤرخين ، بل نجد فيها أسماء ملوك لم تعرفها كتب التاريخ ، مما صيرها في نظري أكثر فائدة وأعظم نفعـــاً لتأريخ الجاهلية من كتب المؤرخين .

المؤرخون المسلمون :

لا نتمكن من الاطمئنان الى هذه الأخبار والروايات المدونة في الموارد الإسلامية عن الجاهلية ،الا اذا وقفنا بها الى حدود القرن السادس للميلاد أو القرن الخامس على أكثر تقدير . أما ما روي على أنه فوق ذلك،فإننا لا نتمكن من الاطمئنان اليه ، لأنه لم يرد به سند مدون ، ولم يؤخذ من نص مكتوب ، وانما أخذ من أفواه الرجال ، ولا يؤتمن على مثـــل هذا النوع من الرواية ، لأننا حتى اذا سلمنا ان رواة تلك الأخبار كانوا منزهين عن الميول والعواطف ، وانهم كانوا صدوقين في كل ما رووا ، وكانوا أصحاب ملكة حسنة ذات قدرة في النقد وفي

التمييز بين الصحيح والفاسد، فإننا لا نتمكن من أن نسلم أن في استطاعة الذاكرة أن تحافظ على صفاء الرواية وان تروي القصة وما فيها من كلام وحديث بالنص والحرف حقبة طويلة. لذا وجب علينا الحذر في الاعتماد على هذه الموارد وتمحيص هذا المدون الوارد ، وان تكاثر واشتهر وتواتر، فقد كان من عادة رواة الأخبار رواية الخبر الواحد دون الإشارة الى منبعه ، ويتداول في الكتب ، فيظهر وكأنه من النوع المتواتر في حين انه من الأخبار الآحاد في الأصل .

ولا أدري كيف يمكن الاطمئنان الى نص قصة طويلة فيها كلام وحوار أو قصيدة طويلة زعم ان التبع فلاناً نظمها ، في حين أننا نعلم أن الذاكرة لا يمكن أن تحفظ نصاً بالحرف الواحد إذا لم يكن مدوناً مكتوباً ، ولهذا جوّز أهل الحديث رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذا تعذرت روايته بالنص . ولا أعتقد ان عناية العرب المسلمين بحديث رسول الله كانت أقل من عنايتهم برواية ما جرى مثلاً بين النعمان بن المنذر وبين كسرى من كلام ، أو من رواية ذلك الكلام المنمق والحديث الطويل العذب ، الذي جرى بين وفد النعمان الذي اختاره من خيرة ألسنة القبائل المعروفة بالكلام ، وبين كسرى المذكور[1] .

ومن هذا القبيل نصوص المفاخرات والمنافرات ، فإن مجال لعب العاطفة فيها واسع رحيب . وكذلك كل الأخبار والروايات النابعة عن الخصومات والمنافسات بين القبائل أو الأشخاص ، فإن الوضع والافتعال فيها شائع كثير ، ولا مجال للكلام عليه في هذا الموضع ، لأنه يخرجنا من حدود التأريخ الجاهلي ، الى موضوع آخر ، هو نقد الروايات والأخبار والرواة ، وهو خارج عن هذا الموضوع .

لقد تحدث أهل الأخبار عن عاد وثمود وطَسْم وجديس وجُرْهُم وغيرهم من الأمم البائدة ، وتكلموا على المباني (العادية) وعن جن سليمان وأسلحة سليمان، ورووا شعراً ونثراً نسبوه الى الأمم المذكورة والى التبابعة ، بل نسبوا شعراً إلى آدم ، زعموا أنه قاله حين حزن على ولده وأسف على فقده ، ونسبوا شعراً الى (ابليس) ، قالوا إنه نظمه في الردّ على شعر (آدم) المذكور ، وأنه أسمعه

---

١ راجع النصوص في بلوغ الارب (١٤٧/١ فما بعدها) .

(آدم) بصوته دون أن يراه[1] . ورووا أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل .

ولكن هل يمكن الاطمئنان إلى قصص كهذا يرجع أهل الأخبار زمانه إلى مئات من السنين قبل الإسلام ، والى أكثر من ذلك ، ونحن نعلم ، بتجاربنا معهم ، أن ذاكرتهم اختلفت في أمور وقعت قبيل الإسلام ، واضطربت في تذكر حوادث حدثت في السنين الأولى من الإسلام . كيف يمكننا الاطمئنان الى ما ذكروه عن التبابعة وعن أناس زعموا أنهم عاشوا دهراً طويلاً قبل الإسلام ، ونحن نعلم من كتابات المسند ومن المؤلفات اليونانية والسريانية ، أنهم لم يكونوا على ما ذكروه عنهم ، وأنهم عاشوا في أيام لم تبعد بعداً كبيراً عن الإسلام ، وأنهم كانوا يكتبون بالمسند وبلسان يختلف عن هذا اللسان الذي نزل به القرآن. ثم خذ ما ذكروه عن حملة (أبرهة) على مكة وعن أبرهة نفسه ، وعن (أبي رغال) ، وعن حادث نجران وذي نواس ، وعن خراب سدّ مأرب ، وعن أمثال ذلك من حوادث وأشخاص سيرد الكلام عليها في أجزاء هذا الكتاب ، تجد أن ما ذكروه عنها وعنهم يتحدث بجلاء وبكل وضوح عن جهل بالواقع وعن عدم فهم لما وقع ، وعن عدم ادراك للزمان والمكان ، وعن عدم معرفة بالأشخاص . فرفعوا تواريخ بعض تلك الحوادث إلى مئات من السنين ، وخلطوا في بعض منها ، وفي كل ذلك دلالة على أن ما حفظته الذاكرة ، لم يكن نقياً خالصاً من الشوائب ، وأن الذاكرة لا يمكن أن تحافظ على ما تحفظه أمداً طويلاً وأن آفات النسيان وتلاعب الزمان بالحفظ لا بد أن يغير من طبائع المحفوظ .

والاخباريون إذ رووا ذلك ودوّنوه ، لم يكونوا أول من وضع وصنع وافتعل وجاء بالقصص والأساطير على أنها باب من أبواب التأريخ ، فقد فعل فعلهم اليونان والرومان والعبرانيون وسائر الشعوب الأخر ، يوم أرادوا تدوين تواريخ العصور التي سبقت عندهم عصور الكتابة والتدوين ، إذ لم يجدوا أمامهم غير هذا النوع من الروايات الشفوية البدائية التي عبث بصفائها الزمان كلما طال أجلها الى زمن التدوين ، فدوّنوه ورووه ، إلى أن وصل الينا على النحو المكتوب .

وللسبب المذكور نرى في الأخبار الواردة عن ملوك الحيرة ، أو عن صلات الفرس بالعرب أخباراً قريبة الى منطق التاريخ والى الواقع يمكن أن نأخذ بها وأن

---

١ مروج الذهب (٢٦/١ وما بعدها) ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)

نستعين بها في تدوين تاريخ الحيرة وتاريخ الساسانيين مع العرب . ويعود سبب ذلك الى رجوع الرواة الى موارد مدونة ، أو الى شهود عيان أدركوا أنفسهم الحوادث ، وكلها من الحوادث القريبة من الإسلام والتي وقع بعضها في أيام الرسول . أما حوادث آل نصر ، أو أخبار الفرس مع العرب البعيدة ، فلا نجد فيها هذا الصفاء والنقاء ، بل نجد فيها قترة وغبرة ، لنقلها بالسماع والمشافهة وتقادم العهد على السماع . وهكذا صار تاريخ الحيرة المروي في التواريخ غيوماً تتخللها فجوات متبعثرة تنبعث منها أشعة الشمس .

نعم جاء أن أهل الحيرة كانوا يُعنون بتدوين أخبارهم وأنساب ملوكهم وأعمار من ملك منهم ، وكانوا يضعون ذلك في بيع الحيرة[1] . وورد ان النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبي عبيدة ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[2] . وذكر ابن سلام الجُمَحِي انه (كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان ، أو ما صار منه)[3] .

ولكنني على الرغم من ورود هذه الأخبار لا أستطيع أن أقف منها الآن موقفاً ايجابياً ، إذ لم أسمع أن أحداً من رواة الشعر ذكر أنه رجع الى تلك الطّنوج والدواوين فأخذ منها ، أو أن بني مروان عرضوها على أحد . ولو كانت تلك الدواوين موجودة ، لم يسكت عنها رواة الشعر الجاهلي وطلابه الذين كانوا يبحثون عنه في كل مكان . ثم إن الأخباريين يذكرون ان (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، كان يرسل الى (حمّاد) رسلاً ليأتوا اليه بما يريد الوقوف عليه من الشعر الجاهلي ، وأنه (جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك وردّ الديوان الى حمّاد وجناد)[4] ، وأنه أحضره الى الشام ، واستنشده أشعار (بَلِيّ) وأشعاراً أخرى[5] ، ولو كان لدى (بني

---

١ الطبري (٢/٣٧) .
٢ تاج العروس (٢/٧٠) ، لسان العرب (٣/١٤٢) ، ابن جني ، الخصائص (١/٣٩٢ وما بعدها)
٣ طبقات فحول الشعراء (ص ١٠) ، المزهر (٢/٤٧٤) .
٤ الفهرست (ص ١٤٠)
٥ الاغاني (٦/٩٤) .

مروان) ديوان (النعمان بن المنذر) الذي جمع فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، لما احتاج (الوليد) الى أن يسأل حماداً وجناداً ليرسلا اليه ديوان العرب ، وهو ديوان لا ندري اليوم من أمره شيئــاً ، ولم يذكر (ابن النديم) صاحب الخبر ، ما علاقة الرجلين المذكورين بذلك الديوان . هل كانا اشتركا معــاً في جمعه، أو أن كل واحد منهما قد جمع بنفسه الأشعار في ديوان ، فأرسل الوليد اليهما يطلب منهما ما جمعاه ، ليجمعه مع ما عنده في ديوان .

ثم إننا لم نسمع أحداً يقول: (كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ابن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم ، لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها)[1] ، غير الراوية (هشام بن محمد الكلبي) . فلِمَ وقف (ابن الكلبي) وحده على تلك الكنوز ، ولم يلجأ غيره الى بيع الحيرة ، ليأخذ منها أخبار نصر ؟ ألم يعــلم بوجودها أحد غيره ؟ ثم لم اختلفت روايات (ابن الكلبي) وتناقضت في أمور من تأريخ الحيرة ، ما كان من الواجب وقوع اختلاف فيها، ولِمَ لجأ أيضاً الى رواية القصص والأساطير عن منشأ (الحيرة) ، وعن (عمرو بن عدي) ، وعن جذيمة ، وعن (قصر الخورنق) وعن غير ذلك ، ليقصها على أنها تأريخ آل نصر[2] . أيعد هـــذا دليلاً على أخذه من موارد قديمة مكتوبة مدوّنة ؟ نعم ، من الجائز أن يكون قد أخذ من صحف كانت قد دوّنت أسماء آل نصر المتأخرين ، وبعض الأخبار المتعلقة بهم ، أما أنه أخذ أخبارهم كاملة مدوّنة من كتاب أو من كتب تأريخ بالمعنى المفهوم من الكتـــاب ، فذلك ما أشك فيه ، لأن الذي ينقل أخباره من كتاب في التأريخ لا يروي تاريخ تلك الأسرة وتاريخ عربها على الشكل الذي رواه.

قال (الطبري) : (وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمّالهم على ثغر العرب الـــذين هم ببادية العراق عند أهل الحـــيرة ، متعالماً ، مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم)[3] ، وتدل هذه الملاحظة التي تؤيد رواية (ابن الكلبي) المتقدمة — ولعلّ (الطبري) أخذهـــا من رواية لابن

١ الطبري (٦٢٨/١) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٢ الطبري (٦٠٩/١ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٣ الطبري (٦٢٨/١) (طبعة دار المعارف بمصر) .

الكابي ، دون أن يشير اليه ، — على وجود أسفار في تواريخ أهـل الحيرة ، إلاّ أني أعود فأقول إن أكثر المروي عنهم ، لا يدل على أنه منقول من موارد مدوّنة ، لما فيه من اضطراب وتناقض ، ولغلبة طابع الروايات الشفويـة عليه . والأخبار الوحيدة التي يمكن أن تكون منقولة من موارد مدوّنـة ، هي الأخبار المتأخرة التي تعود الى أواخر أيام الحيرة ، الأيام المقاربة للإسلام الى زمن فتح المسلمين لها . ثم إن لقربها من زمن التدوين علاقة بوضوح هذه الأخبار المتأخرة وبدرجة صفائها .

ولا تعني هذه الملاحظات اننا ننكر وجود مدوّنات عند أهل الحيرة في التاريخ أو في الشعر أو في أي موضوع آخر ، ولا أعتقد أن في استطاعة أحد نكران وجود التأليف عندهم . فقد ورد في التواريخ الكنائسية أسماء رجال من أهـل الحيرة ساهموا في المجالس الكنائسية التي انعقدت للنظر في أمور الكنيسة ومشكلاتها، ومنهم من برز وألّف في موضوعات دينية وتاريخية ، كما ورد في أخبار أهل الأخبار أن أهل الحيرة كانوا يتداولون قصص رستم واسفنديار وملوك فارس ، وأن (النصر بن الحارث) الذي كان يعارض الرسول،تعلّم منهم،وكان يحدّث أهل مكة بأخبارهم معارضاً رسول الله ، ويقول : أينا أحسن حديثاً ؟ أنا أم محمد[١] ؟

ولا بد أن يكون معين القصص الذي تعلمه (النضر بن الحارث هو في هذا المعين المدون في كتب الفرس . وقـد كانت للفرس كتب في سير ملوكهم وآدابهم ترجم بعضها في الإسلام ، مثل كتاب (سير العجم)[٢] ، أو (كتاب خداي نامه)[٣] ، أو كتاب (سير الملوك) أو (سير ملوك العجم) ، ترجمـة (عبدالله بن المقفع) و (كتاب التاج)[٥] للمترجم نفسه ، وكتب أخرى لم تترجم

---

١ سيرة ابن هشام (٣٨١/١) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .

٢ ابن قتيبة : عيون الاخبار (١١٧/١) .

٣ الفهرست (ص ١٧٢) ، (خداي نامه ، وهو الكتاب الذي لما نقل من الفارسية الى العربية سمي كتاب تأريخ ملوك الفرس) ، حمزة (ص ١٥) ، (وهو في حكاية جمل ما في خداى نامة لم يحكها ابن المقفع ولا ابن الجهم ، فجئت بهـا في اخـر هذا الكتاب ....) ، (كتاب خدينامه في السير) ، حمزة (ص ٤٣) .

٤ عيون الاخبار (١١٧/١) .

٥ عيون الاخبار (٥/١) ، (كتاب التاج في سيرة انوشروان) ، الفهرست (ص ١٧٢)

كانت شائعة عند الفرس معروفة ، يحافظون عليها ويتداولونها ، منها استمد المؤرخون العرب الإسلاميون أخبار الفرس ومن حكم منهم من ملوك[1] .

ولقد قال (كولد تزهير) و (بروكلمن) بوجود أثر فارسي في ظهور علم التاريخ عند المسلمين[2] . أما أثر الموارد الفارسية في مادة الفصول المدونة عن الفرس وعن ملوك الحيرة ، فواضح ظاهر ، ولا يمكن لأحد الشك فيه ، وأما أثرها فيما عدا ذلك ، ولا سيما في كيفية عرض التأريخ وفي أسلوب تدوينه وتبويبه ، فدعوى أراها غير صحيحة ، لأن طريقة الابتداء بالزمان ثم ابتداء الخلق وعدد أيام الخلق وخلق آدم ثم التحدث عن الأنبياء بحسب تسلسل رسالاتهم ، وهي الطريقة التي سار عليها من دوّن في التأريخ العام من المسلمين مثلاً ، كما فعل (الطبري) في تأريخه ، طريقة لا يمكن أن تكون فارسية ، لأن الفرس مجوس ، والمجوس لا يعتقدون بهؤلاء الرسل والأنبياء . والصحيح ، انها طريقة المؤرخين الذين جاؤوا بعد الميلاد ، فهم الذين روّجوا الأسلوب المذكور في تدوين التأريخ . ويمكن ادراك ذلك من المقابلة بين الأسلوبين : الأسلوب الإسلامي في تدوين التأريخ وفي كيفية تبويبه وتصنيفه وأسلوب الكتب التأريخية المدونة في اليونانية وفي السريانية الى زمن تدوين التأريخ عند المسلمين .

والرأي عندي أن علمنا بأسلوب التأريخ عند الفرس : كيفية عرضه وطرقه وتبويبه علم نزر ، لأن ما وصل الينا من كتبهم معدود محدود ، وما ورد فيه سيَر ملوكهم وأيامهم وما نجده مترجماً ومنشوراً في المؤلفات العربية ، هو من نوع القصص الذي يغلب عليه الطابع الأدبي ، فيه أدب السلوك ومواعظ الحكم وأقوال في الحكمة ، وحتى القسم المتصل منه بالتأريخ قد وضع بأسلوب عاطفي أدبي . ومن هنا ابتعد عن أسلوب المؤرخين اليونان واللاتين ، وعن أسلوب المؤرخين الذين ظهروا بعد الميلاد . وقد يكون لاختلاف الذوق دخل في اختلاف الأسلوبين . ومهما يكن من أمر فأنا لا أريد أن أكون متسرعاً عجولاً في اصدار حكم على فن التأريخ عند الفرس ، فأبغض الأشياء إليّ التسرع في اصدار الأحكام

---

١ المسعودي : مروج (١/١٤٦) ، (وقد ذكر ابو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، عن عمر كسرى في كتاب له في اخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف . . .) ، المروج (١/١٩٩) ، التنبيه والاشراف (ص ٩٢) .
٢ الموسوعة الاسلامية ، مادة : تأريخ .

في التأريخ ، ومن الحكمة وجوب التريث والانتظار ، فلعل الأيام تتحفنا بتواريخ فارسية ، ترينا أن للفرس رأياً أصيلاً في التأريخ ، وأن لهم طريقة المؤرخين في تدوين تأريخ العالم وتأريخ بلادهم وفي تدوين سير الملوك والأشخاص ، وأنهم كانوا قد عينوا مراسلين يلازمون جيوشهم لتدوين أخبار الحروب ، كما فعل الروم ، ولكن بعقلية مستقلة لم تتأثر بطريقة اليونان واللاتين .

ويكاد يكون أكثر ما دوّن عن (الغساسنة) في المؤلفات العربية الإسلامية مأخوذاً من الروايات الواردة عن ملوك الحيرة وعرب الحيرة ، أنداد الغساسنة ، ولذلك لم تكن في جانبهم ، وتكاد تلك الأخبار ترجع في الغالب إلى شخص واحد ، تخصص بأخبار الحيرة وملوك الفرس ، هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وهو الذي روى هذه الأخبار اعتماداً على بحوثه الخاصة ، وعلى البحوث والدراسات التي قام بها والده من قبله . ويجب أن نجعل لهذه الملاحظات الاعتبار الأول في تدوين تاريخ الغساسنة . وقد وردت أخبارهم في الطبري مع أخبار ملوك الحيرة والفرس لهذا السبب . وأما في سائر الأصول التاريخية الأخرى، فهي مقتضبة ، وقد اكتفى بعض المؤرخين بايراد جريدة بأسماء الملوك ، وهو عمل ينبئك بقلة بضاعة القوم في تاريخ عرب الشام . وعلى كل حال ، فاننا نجد في كتب الأدب وفي دواوين الشعر عوناً لنا في تدوين ، تاريخ غسان ، قد يسد بعض الفراغ في تاريخ هذه الإمارة ، وان كان ذلك كلّه لا يكفي، بل لا بد من الاستعانة بأصول أعجمية من يونانية وسريانية ، ففيها مواد عن نواح مجهولة من هذا التاريخ ، كما أنها تصحح شيئاً مما ورد في الموارد العربية من أغلاط[1] .

ولقد تأثرت روايات (ابن الكلبي) بطابع التعصب لأهل الحيرة على الغساسنة، لاعتماده على روايات أهل الحيرة وعلى أهل الكوفة في سرد تاريخ الغساسنة ،وقد كان ملوك الحيرة أنداداً لملوك الغساسنة ، ولهذا تتعارض رواياته وروايات من استقى من هذا المورد مع روايات علماء اللغة والأدب والشعر التي وردت استطراداً عن أهل الحيرة أو الغساسنة ، وذلك في أثناء شرحهم لفظة أو بيت شعر أو قصيدة أو ديواناً أو حياة شاعر كانت له علاقة بالحيرة أو بالغساسنة ، أو عن

١ امراء غسان لنولدكه ، ترجمة الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بندلي جوزي ، (بيروت سنة ١٩٣٣) (ص ١ — ٢) .

قصة من القصص، وما شاكل ذلك . ومرجع أولئك الروايات العربية الخالصة، وقد استمدت من رجال كانوا شاهدي عيان،أو رووا ما سمعوه من أفواه الناس، ويمكن ادراك اتجاهها وميولها بوضوح ، ولهذا تجب الموازنة بين الروايتين .

أما روايات أهل (يثرب) أي (المدينة) ، فهي في مصلحة الغساسنة في الأكثر ، وقد كانوا على اتصال دائم بهم،ولهم تجارات معهم ، وكان شعراؤهم يفتخرون بانتسابهم هم وآل غسان إلى أصل واحد ودوحة واحدة هي الأزد . ولهذا يستحسن التفكير في هذا الأمر بالنسبة الى روايات أهل المدينة ، ولا سيما أخبار حسان بن ثابت الأنصاري عن آل غسان .

ومما يؤسف عليه أن المؤرخين المسلمين لم يغرفوا من المناهل اليونانية واللاتينية والسريانية لتدوين أخبارهم عن تأريخ العرب قبل الإسلام ، لا قبل الميلاد ولا بعده ، مع أنها أضبط وأدق من الأصول الفارسية ، ومن الروايات التي تعتمد على المشافهة بالطبع.وقد كان من عادة اليونان إلحاق عدد من المخبرين والمسجلين الرسميين بالحملات لتسجيل أخبارها ، كما حوت الموارد السريانية بصورة خاصة والموارد اليونانية المؤلفة بعد الميلاد أموراً كثيرة فيما يخص انتشار النصرانية بين العرب ، وفيما يخص المجامع الكنائسية التي حضرها أساقفة من العرب ، وكذلك الآراء والمذاهب النصرانية التي ظهرت بين نصارى العرب .

نعم لقد وقف المؤرخون على تواريخ عامة وخاصة مدونة بالرومية والسريانية كانت عند جماعة من المشتغلين بالتأريخ من أهل الكتاب . وقد فسّروها ، أو فسروا بعضها لهم ، ولا سيما ما يتعلق منها بموضوعات لها صلة بالقرآن الكريم، مثل كيفية الخلق والزمان والمكان وقصص الرسل والأنبياء والملوك ، نجد طابعها ومادتها وأسلوبها في هذا المدوّن عن قبل الإسلام ، والذي صار مقدمة لتاريخ الإسلام ، درج المشتغلون في التأريخ العام على وضعها قبل تاريخ الرسالة . وقد استفاد من بعضها بعض المؤرخين ، مثل المسعودي[1] وحمزة الأصفهاني وآخرين ،

---

١ مروج الذهب (١/١٨٧/٢٠٣) ، التنبيه (ص ١٣٢) ، (وهذه التواريخ اخذتها عن رجل رومي) ، وقال وكيع : نقلت هذه التواريخ من كتاب ملك من ملوك الروم ، تولى نقله الى العربية بعض التراجمة) ، حمزة : كتاب تأريخ سني ملوك الارض والانبياء (ص ٤٨ ، ٥٢) .

في تدوين تاريخ ملوك الروم ، وقد صارت طريقتهم كما قلت سابقاً أنموذجاً للمؤرخين ساروا عليه في عرض التأريخ وفي تدوينه ، غير أن هذا النقل لم يكن ويا للأسف قد تجاوز هذا الحد ، فكان ضيق المجال محدود المساحة ، وقد كان من الواجب عليهم الاستعانة بتلك الموارد في علاقات العرب بالروم وفي موضوع النصرانية في بلاد العرب على الأقل،وهي موارد فيها مادة مفيدة في هذا الباب .

وأود أن أشير الى الخدمة التي أداها علماء الأخبار برجوعهم الى الشيّب والى حفظة أخبار القبائل من مختلف القبائل لجمع أخبار القبائل وأيامها وحوادثها قبل الإسلام . وقد وضعت في ذلك جملة مؤلفات ضاع أكثرها ويا للأسف ، ولم يبق منها الا الاسم،ولكننا نجد مع ذلك مادة غنية واسعة منها في كتب الأدب، أستطيع أن أقول انها أوسع وأنفع بكثير من هذه المواد المدونة المجموعة في كتب التأريخ . وهذا شيء غريب ، اذ المأمول أن تكون كتب التأريخ أوسع مادة منها في هذا الباب ، وأن تأخذ لب ما ورد فيها مما يخص التأريخ لتضيفه الى ما تجمّع عندها من مادة . والظاهر ان المؤرخين ، ولا سيما المتزمتين منهم المتقيدين بالتأريخ على أنه حوادث – مضبوطة مقرونة بوقت وبمكان وبعيدة عن أسلوب الأيام والقصص ، رأوا أن ذلك المروي عن أخبار القبائل والأنساب وحوادث الشعراء هو ذو طابع أدبي أو طابع خاص لا علاقة له بالحكومات والملوك ، فلم يأخذوا به ، وتركوه ، لأنه خارج حدود موضوع التأريخ كما فهموه . وهو فهم خاطىء لمفهوم التأريخ ولمفهوم الموارد التي يجب أن يستعان بها لتدوينه . فأضاعوا بذلك مادة غزيرة لم يدركوا أهميتها وفائدتها اذ ذاك . واهمالهم لتلك الموارد هو من جملة مواطن الضعف التي نجدها عند أولئك المؤرخين . أما نحن، فقد وجدنا فيه ثروة تزيد كثيراً على الثروة الواردة في مؤلفات المؤرخين . واهمال المؤرخين لتلك الموارد هو من أسباب الضعف التي نجدها في فهمهم للمنابع التي يجب أن يستعان بها في تدوين التأريخ .

واذا كان القدامى قد أخطأوا في فهم معنى التأريخ ، ووقعوا من ثم في خطأ بالنسبة الى الموارد التي يجب أن يرجع اليها في تدوين تأريخ الجاهلية ، فعلينا يقع في الزمن الحاضر وعلى القادمين من بعدنا بصورة خاصة واجب مراجعة الموارد الأخرى من كتب في التفسير وفي الحديث وفي الفقه وفي الأدب وغير ذلك، لاستخراج ما فيها من مادة عن الجاهلية ، لأنها كما قلت أغزر مادة وأقرب الى

المنطق في بعض الأحيان في فهم الحوادث من كتب المؤرخين .

والغريب أن المستشرقين الذين عُرفوا بجدهم وبحرصهم على الاحاطة بكل ما يرد عن حادث ، أهملوا مع ذلك شأن الموارد المذكورة ، ولم يأخذوا منها الا في القليل . ولو راجعوها ، لكان ما جاؤوا به عن الجاهلية أضعاف أضعاف ما جاؤوا به وكتبوه ، ولكانت بحوثهم أدق وأعمق مما هي عليه الآن .

وفي طليعة من اشتغل برواية أخبار ما قبل الإسلام : عبيد بن شرية،ووهب ابن منبه ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وابنه أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وآخرون . وبعض هؤلاء مثل عبيد بن شرية وكعب الأحبار ووهب ابن منبه ، قصاص أساطير ، ورواة خرافات ، وسمر مستمد من أساطير يهود، وأولئك وأمثالهم هم منبع الإسرائيليات في الإسلام .

فأما عبيد بن شرية ، فقد كان من أهل صنعاء (في رواية) أو من سكان الرقة (في رواية أخرى)[1] . وكان معروفاً عند الناس بالقصص والأخبار ، فطلبه معاوية ، فصار يحدثه بأخبار الماضين[2] . ومن الكتب المنسوبة اليه : كتاب الأمثال[3] ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين ، وقد طبع في ذيل (كتاب التيجان في ملوك حمير) المطبوع بحيدراباد دكن بالهند بعنوان (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها)[4] وقد وضع الكتاب على الطريقة

---

١ الفهرست (ص ١٣٨) ، السجستاني : كتاب المعمرين (ص ٤٠) ، ياقوت : ارشاد (٥/١٠) و
Brockelmann, Bd., I, S., 64, Suppl., Bd., I, S., 100
Von Kremer Sudarabische Sage, 16-32, Muh. Stud., Bd., I, S., 183.

٢ (فأمر به معاوية ، فانزله في قربه ، واخدمه ، وامر من يجري وظيفته ، ووسع عليه ، والطفه فاذا كان في وقت السمر فهو سميره في خاصته من اهل بيته . وكان يقص عليه ليله ، ويذهب عنه همومه ، وانساه كل سمير كان قبله ، ولم يخطر على قلبه شيء قط الا وجد عنده شيئا وفرحا ومرحا ، فاذا كان يحدثه وقائع العرب واشعارها واخبارها امر اهل ديوانه ان يوقعوه ويدونوه في الكتب ...)، اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها (ص ٣١٢ فما بعدها) .

٣ (كتاب الامثال نحو خمسين ورقة رايته) ، الفهرست (١٣٨) ، ارشاد (١٢/١٩٠) .

٤ طبع سنة ١٣٤٧ هـ ، ويرى المستشرق (كرنكو) ، ان الجامع له ابن هشام ، راجع ملحوظة ١ ص ٣١٢ .

التي تروى بها الأسمار وأيام العرب ، وفيه أشعار كثيرة وضعت على لسان عاد وثمود ولقمان وطسم وجديس والتبابعة[1] ، وفيه قصص اسرائيلي وشعبي يمثل في جملته السذاجة وضعف ملكة النقد ، وبساطة القص والقصة ، ومبلغ علم الناس في ذلك الوقت بأخبار الأوائل[2] .

وقد حصل (كتاب الملوك وأخبار الماضين) على شهرة بعيدة ، وطلب في كل مكان ، وكثرت نسخه ، ومع هذه الكثرة اختلفت نسخه ، حتى صعب العثور على نسختين متشابهتين منه[3] . وقد نقل الهمداني (المتوفى سنة ٣٣٤ للهجرة) بعض الأخبار المنسوبة الى عبيد[4] . ولما نقله ، أهمية كبيرة في تثبيت مؤلفات عبيد ، اذ يمكن مقابلته بما نشر ، ومطابقته بما طبع ، فيمكن عندئذ معرفة ما اذا كان هناك اتفاق أو اختلاف . ويمكن عندئذ تعيين هوية المطبوع .

والطابع الظاهر على أخبار عبيد ، هو طابع السمر والقصص والأساطير المتأثرة بالاسرائيليات . وأما الشعر الكثير الذي روي على أنه من نظم التبابعة وغيرهم ، وفيه قصائد طويلة ، فلا ندري أمن نظمه أم من نظم أشخاص آخرين قالوها على لسان من زعموا أنهم نظموها ، أو أنها اضيفت فيها بعد الى الكتاب ونسبت روايتها الى عبيد ؟ وعلى كل فإنها تستحق توجيه عناية الباحثين الى البحث عن زمن ظهورها وأثرها في عقلية أهل ذلك الزمن .

وأما (وهب بن منبه) ، فقد كان من أهل (ذمار) ،وكان قاصاً أخبارياً ، من الأبناء ، ويقال انه كان من أصل يهودي ، واليه ترجع أكثر الاسرائيليات المنتشرة في المؤلفات العربية . وقد زعم أنه كان ينقل من التوراة ومن كتب بني اسرائيل ، وانه كان يقول : (قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتاباً) ، وانه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، ويحسن قراءة الكتابات القديمة الصعبة التي لا يقدر أحد على قراءتها[5] . قال المسعودي : (وُجد في

١ Muh. Stud., Bd., 2, S., 204.

٢ دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية (ص ٤٨٣) .

٣ مروج الذهب (١٥٣/٢) (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد)
Muh. Stud., Bd., I, S., 182. f., Brockelmann, Bd., I, S., 64. Wustenfeld Geschichte. S., 5, Lidsbarski, De Propheticis qu. d. Legendis Arabicis, Leipzig, 1893, 1-2.

٤ الاكليل (طبعة الكرملي) ، (٧١/٨ ، ١٨٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ومواضع اخرى) .

٥ ارشاد الاريب (٢٣٢/٧)

حائط المسجد[1] لوح من حجارة ، فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجّه به الى وهب بن منبه ، فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داوود ، عليهما السلام ، فقرأه ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك ، لزهدت فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وانما تلقي قدمك ندمك اذا زلّت بك قدمك ، وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد ، فاغتنم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يؤخذ منك بالكظم ، ويحال بينك وبين العمل . وكتب في زمن سليمان بن داوود[2]) .

وفي كتاب (التيجان في ملوك حمير) رواية ابن هشام نماذج لقراءته ، وهي على هذا النسق الذي يدل على سخريته بعقول سامعيه ان كان ما نسب اليه حقاً ، وأنه قرأه عليهم صدقاً ، ومن يدري ؟ فلعله كان لا يعرف حروف اليونانية ، ولا يميز بينها وبين الأبجديات الأخرى . ثم هل يعجز أهل دمشق عن قراءة نص يوناني أو سرياني أو عبراني وقد كان فيها في أيام وهب بن منبه علماء فطاحل حذقة بهذه اللغات هم نفر من أهل الكتاب ؟

والذي يهمنا من أمر (وهب بن منبه) أخباره عن الجاهلية . ولوهب أخبار عن اليمن والأقوام العربية البائدة ، ونجد روايته عن نصارى نجران وتعذيب (ذي نواس) إياهم ، وقصة الراهب (فيميون) مطابقة للروايات النصرانية ولما جاء في كتاب (شمعون الأرشامي) عن هذا الحادث[3] . والظاهر أنه كان قد أخذها من المؤلفات النصرانية أو من أشخاص كانوا قد سمعوا بما ورد عن حادث (نجران) من أخبار . وقد ذكر أن وهباً كان يستعين بالكتب ، وأن أخاه (همام بن منبه بن كامل بن شيخ اليماني) أبا عقبة الصنعاني الأبناوي ، كان يشتري الكتب لأخيه[4] . ولعله استقى أخباره عن بعض الأمور المتعلقة

---

١ يعني مسجد دمشق ، وذلك في ايام الخليفة الوليد .
٢ مروج الذهب (٢/١٥١ وما بعدها) . (طبعة عبد الرحمن محمد) .
٣ راجع الطبرى (٢/١٠٣) ، ايضا ما كتبته فيه في الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقي في (موارد تأريخ الطبري) سنة ١٩٥٠ م .
٤ تهذيب التهذيب (١١/٦٧) ، ابن سعد (٥/٣٩٥) .

بالنصرانية مثل مولد وحياة المسيح من تلك الموارد ، أو من اتصاله بالنصارى[1]. أما ما ذكره عن التبابعة والعرب البائدة ، فإنه قصص . وأما علمه بأخبار العرب الآخرين ، فيكاد يكون صفراً ، فلا نجد في رواياته شيئاً يعد تأريخاً لعرب الحيرة أو الغساسنة أو عرب نجد . فهو في هذا الباب مثل (عبيد بن شرية) من طبقة القصاص . لم يصل الى مستوى أهل الأخبار ، ولعله وجد نفسه ضعيفاً في التأريخ وفي أخبار العرب ، فمال إلى شيء آخر لا يدانيه فيه أحد ، وهو مرغوب فيه مطلوب ، وهو القصص الإسرائيلي ، ومما يتعلق بأقوام ماضين ، ذُكروا في القرآن الكريم ، وكانت بالمسلمين الأولين حاجة إلى من يتحدث لهم عن ذلك القصص وأولئك الأقوام .

ومن الكتب المنسوبة الى وهب (كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم)[2] ، وقد تناول أخبار التبابعة . والظاهر أن (كتاب التيجان في ملوك حمير) الذي طبع في الهند[3] ، رواية ابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) قد استند اليه ، بعد أن أضاف اليه أخباراً أخذها من مؤلفات محمد بن السائب الكلبي[4] وأبي مخنف لوط بن يحيى[5] وزياد بن عبدالله بن الطفيل العامري أبي محمد الكوفي المعروف بالبكائي رواية ابن اسحاق[6].وهو خليط من الإسرائيليات والقصص

---

١ تفسير الطبرى (١٤٧/٣ ، ١٧٧) ، (مولد المسيح وحياته) ، (٤٣/١٦) (الحمل) ، المذاهب الاسلامية في تفسير القران تأليف (كولدتزهير) ، ترجمة علي حسن عبد القادر ، ص ٨٨ ، تأريخ الطبري (١٠٢/١) ، تفسير الطبري (٤٣/١٦) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٠/١) ، Ency., Vol., 4, P., 1084

٢ ارشاد (٢٣٢/٧) ، (كتاب الملوك المتوجة من حمير واخبارهم وغير ذلك) ، وعثر على مجموعة من اوراق مخطوطة في خزانة كتب (هايدلبرك) بالمانية ، رأى (بيكر) انها جزء من كتاب في المغازي ، ينسب الى وهب بن منبه ، C.H. Becker, Papyri Schott-Reinhardt, I., 8, Fuck, Muhammad ibn Ishaq, S., 4, Ency., Vol. 4, P., 1084. f.

٣ في حيدراباد دكن سنة ١٣٤٧ هـ ، وبذيله (كتاب اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها) ، وقد مر ذلك .

٤ التيجان ص ١٣٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ومواضع اخرى .

٥ التيجان ص ١٢٥ ، ١٨٠ ومواضع اخرى .

٦ التيجان ص ٦٦،٧٥ ، ومواضع اخرى . راجع عن البكائي : لسان الميزان (٨٣٦/٦) ، سيرة ابن هشام (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ، (١٦/١) ، وكتاب الكنى والالقاب (٨٢/٢) لعباس بن محمد رضا القمي ، طبع مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٥٨ هـ .

اليماني ومن مواد أخرى قد تكون من وضعه ، أو من صنعة آخرين ، صنعوها قبله ، فأخذها من ألسنة الناس ، مثل تلك القصائد والأشعار الكثيرة المنسوبة الى التبابعة وغيرهم . وقد أورد في الكتاب أسماء أُخذت من التوراة ذكرها بنصها كما تلفظ بالعبرانية ، مما يبعث على الظن أنها أخذت من مورد يهودي[1] . وأما سائر الأخبار الواردة في الكتاب ، فالغالب عليها السذاجة ، اذ لا نجد فيها عمقاً ولا مادة تأريخية غزيرة كالمادة التي نجدها في مؤلفات ابن الكلبي ، وفي مؤلفات الهمداني الذي عاش بعده .

وأودّ أن ألفت أنظار العلماء الى أهمية روايات (وهب بن منبه) وأخباره بالنسبة الى من يريد الوقوف على الدراسات التوراتية والتلمودية في ذلك العهد ، ففيها فقرات كثيرة زعم (وهب) أو آخرون قالوا ذلك على لسانه ، أنها قراءات أي ترجمات أخذت من التوراة ومن كتب الله الأخرى . واذا ثبت بعد مقابلتها بنصوص التوراة والتلمود والمشنا وغيرها من كتب اليهود ، انها من تلك الكتب حقاً ، وانها ترجمات صحيحة ، فنكون قد حصلنا بذلك على نماذج قديمة لمواضع من تلك الكتب قد تفيد في ارشادنا الى ترجمات أقدم منها ، كما تعيننا في الوقوف على النواحي الثقافية للعرب في ذلك العهد .

ولأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦هـ، فضل كبير على دراسات تأريخ العرب قبل الإسلام ، فأغلب معارفنا عن هذا العهد تعود اليه[2] . وقد سلك مسلكاً جعله في طليعة الباحثين في الدراسات الآثارية

---

١ راجع ما كتبه (كرنكو) عن الكتابين : كتاب التيجان وكتاب اخبار عبيد، في مجلة: (The Islamic Culture) المجلد الثاني بعنوان : (The Two Oldest Books on Arabic Folklore) ، دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ص ٤٨٤ مادة : (تأريخ) .

٢ والده ابو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، من علماء الكوفة بالتفسير والاخبار والانساب ، الفهرست ١٣٩ ، الاغاني (١٦/٩) ، (٤٨/١١) (١٦١/١٨) ، ابن سعد : الطبقات (٢٥٠/٦) ، ابن خلكان : وفيات (١٣٤/٣ وما بعدها) ، ارشاد (٢٥٠/٧) ، تذكرة الحفاظ (٣١٣/١) ، تأريخ بغداد (٤٥/١٤ وما بعدها) ، انباري : نزهة الالباء في طبقات الادباء (١١٦) ، تهذيب التهذيب (١٧٨/٩) ، كتاب الاصنام ، تحقيق احمد زكي باشا ، Ency., vol., 2, P., 689, Muh. Stud., I, S., 186, Noldeke Gesch. der Araber und Perser, S., XXVII, ZDMG., XLIII, Brockelmann, Bd., I, S., 211.

عند المسلمين ، برجوعه الى الأصول ، واعتماده على المراجع التأريخية ، متبعاً سبيلاً تختلف عن سبيل أهل اللغة في البحث ، وهو — بطريقته هذه — قريب من طريقة المؤرخين في تدوين التأريخ[١] .

ولكنه لم يخل مع ذلك من مواطن الضعف التي تكون عادة في الأخباريين ، مثل سرعة التصديق ، ورواية الخبر على علاته دون نقد أو تمحيص . وقد اتهم بالوضع والكذب[٢] . ولذلك تجنب جماعة من العلماء الرواية عنه ، وقالوا عن بعض أسانيده أنها سلسلة الكذب[٣] . وذهب (بروكلمن) الى أن ما اتهم عليه ابن الكلبي لم يكن كله صحيحاً ، وأن البحوث العلمية التي قام بها المستشرقون دلتهم على أن الحق كان في جانبه في كثير من المواضع التي اتهم عليها[٤] .

وأنا لا أريد أن ابرئه من الوضع أو من تهمة أخذه كل ما يقال له ، ولا سيما إذا كان القائل من أهل الكتاب ، دون مناقشة ولا ابداء رأي . ففي المنسوب اليه شيء كثير من الإسرائيليات والقصص الممسوخ الذي يدل على جهل قائله أو استخفافه بعقل السامع وعلمه ، مثل اختراع سلاسل من النسب زعم أنها واردة في التوراة،أو عند أهل النسب ، مع ان الوضع فيها بيّن واضح،وهي غير واردة في التوراة ولا في التلمود . ولعلّ حرصه على الظهور بمظهر العالم المحيط بكل شيء من أخبار الماضين ، هو الذي حمله على الوضع ، وقد وضع غيره من أقرانه شعراً ونثراً ، وصنع قصصاً ، ليتفوق بذلك على أقرانه وخصومه،وليظهر بمظهر العالم الذي لا يفوته شيء من العلم .

---

١ Brockelmann, Bd., I, S., 138.

٢ لسان الميزان (١٩٦/٦ فما بعدها) ، تذكرة الحفاظ (٣١٣/١) ، الاغاني (١٩/٩) ، (وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي ، والتوليد فيه بين ، وشعره شعر ركيك غث لا يشبه اشعار القوم ، وانما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روي) ، الاغاني (١٦١/١٨) .

٣ مثل سنده عن أبي صالح عن ابن عباس ، ووجد من دافع عنه ، ارشاد (١٥٨/٢) .

٤ Brockelmann, I, S., 139, Noldeke, Ubers. d. Tabari, XXVII, Ency., 2, P., 689.

وقد عالج بعض الباحثين زعم « ابن الكلبي » أنه كان يستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ومبالغ أعمار من عمل منهم ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، فرأى أن كتابات أهل الحيرة كانت بالكتابة النبطية وبالأرقام النبطية ، كما أثبت ذلك نص « النمارة » أيضاً ، وأن « ابن الكلبي » لم يكن يحسن قراءة النبطية ولم يفهمها ، وعندما حاول قراءتها لم يتمكن من ذلك فوقع في أوهام ، وجاء بأمثلة على ذلك تتعلق بما ذكره « ابن الكلبي » من مدد حكم أولئك الملوك ، فوجد أنه لم يميز مثلاً بين الرقم « ٢٠ » والرقم « ١٠٠ » وذلك لتشابه شكل الرقم الأول مع شكل الرقم الثاني في النبطية ، فقرأ العشرين مئة ، فزاد سني حكم الملوك . ومن هنا أخطأ في ضبط مدد حكم ملوك الحيرة ، ولا سيما بالنسبة للقدامى منهم ، لأن الكتابات النبطية المتقدمة لم تكن مثل الكتابات النبطية المتأخرة في قربها من الأبجدية العربية القديمة[١] .

هذا ولم يُبحث موضوع أخذ « ابن الكلبي » من بيع الحيرة حتى الآن بحثاً علمياً مركزاً . وهو موضوع أرى أنه جدير بالدراسة والعناية . وحري بأن يقارن ما ذكره « ابن الكلبي » بما جاء في الموارد النصرانية عن « آل نصر » ،لنرى مقدار الصحة من الخطأ في فهم « ابن الكلبي » لتلك الموارد التي ذكر أنه قرأها وانه استعان بها في جمع تأريخ عرب العراق قبل الإسلام .

ولم يبق من القائمة الطويلة التي ضمنها (ابن النديم) مؤلفات ابن الكلبي غير قليل[٢] . وهي في المآثر والبيوتات والمنافرات والمؤودات وأخبار الأوائل ، وفيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وفي أخبار الشعر وأيام العرب ، والأخبار والأسماء والأنساب[٣] .

وهناك بعض الشبه بين بحوث أبي عبيدة (المتوفى سنة عشر

١ Die Araber, IV, S., 3. f.

٢ الفهرست ١٤٠ ، ارشاد (٢٥١/٧) ، Brockelmann, I, S., 138, Suppl., I, S., 211. f.

٣ الفهرست ١٤٠ ، وفيات الاعيان (٢٥٨/٢) ، (قال ياقوت في معجم البلدان ٢ : ١٥٨ : لله دره ما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب ، الا وكان قوله اقوى حجة ، وهو معذلك مظلوم وبالقوارض مكلوم) ، تأريخ الادب العربي لكارل بروكلمان (٣١/٣) ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

ومائتين)[1] الذي كان له علم بالجاهلية،ومصنفات وبحوث في القبائل والأنساب[2] ، وبين ابن الكلبي في اتجاهه ومناحيه . ولكنه دونه في أخباره عن الجاهلية ، ومؤلفاته في أمور الجاهلية لا تعد شيئاً بالنسبة الى ما ينسب الى ابن الكلبي من مؤلفات ، كما ان أخباره ورواياته عنها قليلة بالنسبة الى أخبار ابن الكلبي ورواياته .

وهناك عدد آخر من العلماء ، كالأصمعي ، و (الشرقي بن القطامي)[3] ، وسائر من اشتغل بالأنساب واللغة والأدب ، كان لهم فضل كبير في جمع أخبار الجاهلية المتصلة بالإسلام ، وقد تولدت من شروحهم وأماليهم وكتبهم ثروة تاريخية قيمة لم ترد في كتب التاريخ . ولكن عرض أسمائهم هنا وذكر بحوثهم ومؤلفاتهم يضطرنا الى كتابة فصول طويلة عن جهودهم وأتعابهم وعن ضعف رواياتهم أو قوتها ، وذلك يخرجنا عن حدود كتابنا ، ولهذا اكتفي هنا بما كتبت وذكرت ، على أن أتعرض لآراء الباقين في المواضع التي ترد فيها ، فأشير الى صاحبها والى روايته عن الحادث . ولكن لا بد لي من التحدث عن عالمين من علماء اليمن ، ألفا في تأريخ اليمن القديم ، وجاءا بمعلومات ساعدتنا كثيراً في توسيع معارفنا بالأماكن الأثرية هناك،إذ أشارا الى أسماء أبنية ومواضع ، وشخصا أمكنة ، ووصفا عاديات رأياها ، فأفادنا بذلك فائدة كبيرة .

أما أحدهما ، فهو الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف المتوفى سنة ٣٣٤هـ[4] . أو بعد ذلك كما ذهب الى ذلك الحوالي[5] . وأما

١ (وقيل احدى عشرة ، وقال ابو سعيد : سنة ثمان ، وقيل سنة تسع .) ، (أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي) ، (وقيل : كان شعوبيا يطعن في الانساب) الفهرست (ص ٧٩) ، ارشاد (١٦٥/٧) .

٢ Ency., Vol., I, S., 195, Flugel, Die Grammatischen Schulen, S., 68, Brockelmann, 1, S., 103.

٣ وقد اتهم بالوضع والتلفيق ، الفهرست (ص ١٣٢) .

٤ راجع عن الهمداني : تأريخ اداب اللغة العربية (٢٠٤/٢) ، ابن القفطي : تأريخ الحكماء (اخبار الحكماء) ، (طبعة Lippert) ، ١١٣ ، ارشاد (٩/٣) ، السيوطي :بغية الوعاة (٢١٧) ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : الجزء الاول من المجلد الخامس والعشرين سنة ١٩٥٠ ص ٦٢ ، مقالة للسيد حمد الجاسر بعنوان : (الجزء العاشر من الاكليل) . Brockelmann, I, S., 229, Suppl., I, S., 409, Ency., 2 P., 246, Muller, Sudarab. Stud., 170.

واشتهر بـ (ابن الحائك) وبـ (ابن ابي الدمينة) ، الاكليل (٢٩٧/٨) طبعة الكرملي .

٥ محمد بن علي الاكوع الحوالي ، محقق الجزء الاول من كتاب الاكليل للهمداني الاكليل (٦٠/١) .

الآخر ، فهو (نشوان بن سعيد الحميري) ، المتوفى سنة ٥٧٣ ه .

لقد بذل الهمداني مجهوداً يقدر في تأليف كتبه وفي اختيار موضوعاته، وسلك في بحوثه سبيلاً حسناً بذهابه بنفسه الى الأماكن الآثارية وبوصفه لها في كتبه ، فأعطانا بذلك صوراً لكثير من العاديات التي ذهب أثرها واختفى رسمها ، بل طمست حتى أسماء بعضها . وبمحاولته قراءة المسند وترجمته الى عربيتنا، للوقوف على معناها ومضمونها ، يكون قد استحق التقدير والثناء ، لأن عمله هذا يدل على ادراكه لأهمية الكتابات في استنباط التواريخ . على أننا يجب أن نذكر أيضاً أن الهمداني لم يكن أول من عمد الى هذه الطريقة ، طريقة قراءة الكتابات لاستنباط التواريخ منها ، فقد سبقه غيره في هذه القراءات ، وكانوا مثله يبغون الوقوف على ما جاء فيها ، ومعرفة تواريخها . وقد أشار (الهمداني) نفسه اليهم وذكرهم بأسمائهم ، مثل (أحمد بن الأغر الشهابي من كندة) و (محمد ابن أحمد الأوساني) و (مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني) وغيرهم[١] . فهم مثله يستحقون الثناء والتقدير أيضاً ، وهم بطريقتهم هذه في جمع مادة التأريخ يكونون على شاكلة الآثاريين المحدثين في ادراك أهمية دراسات الآثار والكتابات بالنسبة الى اكتشاف تواريخ العاديات ، وهم بطريقتهم هذه يكونون قد فاقوا غيرهم من المؤرخين العرب في الأمكنة الأخرى بهذه الطريقة ، فقلما نجد مؤرخين في الأماكن الأخرى لجأوا الى دراسة الآثار ودراسة الكتابات ووصف الأمكنة الآثارية لاستنباط التواريخ منها كما يفعل الآثاريون في الزمن الحاضر .

وقد أثنى الهمداني بصورة خاصة على أستاذ له أخذ منه ، فوسمه بأنه (شيخ حمير ، وناسبها ، وعلامتها ، وحامل سفرها ، ووارث ما ادخرته ملوك حمير خزائنها من مكنون علمها ، وقارىء مساندها ، والمحيط بلغاتها)[٢] وسمّاه (أبا نصر محمد بن عبدالله اليهري) . وقال انه كان مرجعه فيما كان يشكل عليه من أخبار أهل اليمن ، والمنبع الذي غرف منه علمه بأحوال الماضين ، الى أن قال: (وكان بحاثة ، قد لقي رجلاً وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل، فخففتها العرب ،

١ الاكليل (١٠/١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١١١) .
٢ الاكليل (١/٩) .

وأبدلت فيها الحروف الذلقية ، وسمع بها النـــاس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفّر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم ، وهو هو . فما أخذته عنه ، ما أثبته هنا في كتابي هذا من أنساب بني الهميسع بن حمير وعدة الأذواء وبعض ما يتبع ذلك من أمثال حمير وحكمها ، إلا ما أخذته عن رجال حمير وكهلان من سجل خولان القديم بصعدة ، ومن علماء صنعاء وصعدة ونجـران والجوف وخيوان وما أخبرني به الآباء والأسلاف)[1] .

والملاحظة (الهَمْداني) على الأسماء اليمانية القديمة ، وثقلها عـلى ألسنة الناس في أيامه وقبل أيامه ، شأن كبير ، إذْ ترينا أن لسان أهل اليمن كان قد تغير وتبدل ، وأن ذلك التغير قد تناول حتى الأسماء ، فصارت الأسماء القـديمة ثقيلة على أسماعهم ، غليظة الوقع عليهم ، فخففوها أو بدّلوها ، والواقع أننا نشعر من المسانـد المتأخرة التي وصلت الينا وقد دُونت في عهود لا تبعـد كثيراً عن الإسلام ، ومن الموارد الإسلامية أن الأسماء اليمانية المدوّنة في كتابات المسند التي يرجع عهدها الى ما قبل الميلاد ، هي أسماء أخذت تقل في كتابات المسند المدونة بعد الميلاد إلى قبيل الإسلام ، وأن أسماء أخرى جديدة أخف على السمع حلت محل الأسماء المركبة القديمة . وفي هذا التطور ، دلالة على حدوث تغير في عقلية أهل اليمن بعد الميلاد ، وعلى حصول تقارب بين لغتهم ولغة أهل الحجاز وبقية العرب الذين يسميهم المستشرقون (العرب الشماليين) .

وقــد حملني قول الهمداني إنه أخذ أخبار رجال حمير وكهلان من (سجل خولان القديم بصعدة)[2] ، على مراجعـة متن الجزء الأول من الاكليل للوقوف على الأماكن التي اعتمد فيها على هــذا السجل ، لأتمكن بها من تكوين رأي عنه ، ومن الحصول على فكرة عما جاء فيه . وقد وجدته يقول في موضع منه: (وقرأت في السجل الأول : أولد قحطان بن هود أربعة وعشرين رجـلاً ، وهم : يعرب ، والشلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال وهو الذي بنى صنعاء ، ويكلي الكبرى ، بكسر اليـاء ، وخولان : خولان رداع التي في القفـاعة ، والحارث وغوثـا ، والمرتاد ، وجُرهما ، وجديسا ، والمتمنع ، والملتمس ، والمتغشمر ، وعبادا ، وذا هوزن ، ويمنا ، وبه سميت اليمن ، والقطـاميّ ،

---

١ الاكليل (١/١٣ فما بعدها) .
٢ المصدر نفسه

ونباتة ، وحضرموت ، فدخلت فيها حضرموت الصغرى ، وسماكاً ، وظلماً ، وخياراً ، والمشفتر[1] . ووجدته يقول في موضع آخر :(وأصحاب السجل يقولون مثل قول بعض الناس فيما بين عدنان واسماعيل)[2] ، ووجدته يقول : (وفي سجل خولان وحمير بصعدة : أولد مهرة الآمري ، والدين ، ونادغم ،وبيدع...)[3] ويقول في (باب نسب خولان بن عمرو) ، (فهذه الآن بطونها على ما روى رجال خولان وحمير بصعدة . وقد سكنت بها عشرين سنة ، فأطللت على أخبار خولان وأنسابها ، ورجالها كما أطللت على بطن راحتي ، وقرأت بها سجل محمد ابن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية ، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب ، ومنها ما دخل في كتاب الأيام)[4] . وقال في موضع : (وقال بعض وضعة السجل ونساب الهميسع)[5] . ويتبين من هذه الملاحظات أن السجل المشار اليه هو مجموعة أجزاء ، وضعها جملة أشخاص ،كل جزء سجل قائم بذاته في الأنساب ، وهو متفاوت الأزمنة ، ويشمل القبائل والناس . وقد جمعت جمعاً ، على طريقة رواة النسب في رواية الأنساب . ولا استبعد أن يكون السجل قد وضع في صدر الإسلام ، حينما شرع في أيام (عمر) بتسجيل النسب في ديوان . فدوّنت عندئذ أنساب القبائل ، ورجع في ذلك إلى ما كان متعارفاً عليه من النسب في الجاهلية الملاصقة للإسلام وفي صدر الإسلام ، ثمّ أكمل على مرور الأيام . ولذلك تعددت الأيدي في كتابته ، وصار على شكل فصول في أنساب القبائل ، كل سجل في نسب قبيلة وما يتفرع منها . والطابع البارز عليه هو الطابع اليماني المحلّي المتأثر بالروايات التوراتية عن(اليقطانيين) ، الذين صُيروا قحطانيين بتأثير روايات أهل اليمن من أهل الكتاب وعلى رأسهم كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وربما من أناس آخرين سبقوهم ، ومن الروايات اليمانية المحلية التي تعارف عليها أهل اليمن في أنساب قبائلهم آنئذ . ولهذا نجد الطابع اليماني المحلي بارزاً في مؤلفات أهل اليمن التي نقل منها الهمداني وأمثاله ، ولا نجدها على هذا النحو في مؤلفات

---

١ الاكليل (١٣١/١ وما بعدها)
٢ الاكليل (١٣٦/١) .
٣ الاكليل (١٩٣/١) .
٤ الاكليل (١٩٩/١) .
٥ الاكليل (٣٥٥/١) ، « قال أهل السجل » ، الاكليل (١٦١/٢) .

النسابين الشماليين الذين ينسبون أنفسهم الى اليمن مثل (ابن الكلبي) وأضرابه ، لأنهم كانوا بعيدين عن اليمن ، فعلمهم بالروايات اليمانية ، ولا سيما روايات أهل حمير وصعدة وخولان وصنعاء وغيرهم من النسابين المحليين، لذلك ، قليل .

وقد أورد الهمداني في الجزء الثاني من كتابه « الإكليل » جملة تدل على أن « السجل القديم » الذي يشير اليه في كتابه ، كان سجل نسّابة عرف بـ « ابن أبان » ، اذ يقول : « قال الهمداني : قال علماء الصعديين وأصحاب السجل القديم : سجل ابن أبان »[1] . ولعل « ابن أبان » كان قد وضعه وجمعه في أبواب ، ثم جاء جمع من النسّابين فأضافوا عليه فصولاً جديدة في الأنساب ، وعرف الكتاب كله وبجميع فصوله بـ « السجل » . وقد كان أصحاب السجل من أهل صعدة ، لما ذكره الهمداني من قوله : « عن الصعديين من أصحاب السجل »[2] .

وكان « الهمداني » ، قد نص في الجزء الأول من « الإكليل » على أن ذلك السجل ، هو سجل « محمد بن أبان الخنفري » ، وذلك في أثناء حديثه على بطون « صعدة » ، إذ قال : «فهذه الآن بطونها على ما روى رجال خولان وحمير بصعدة . وقد سكنت بها عشرين سنة، فأطلت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطلت على بطن راحتي ، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية ، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب ، ومنها ما دخل في كتاب الأيام »[3] . ويفهم من هذا النص ، أن السجل المذكور هو سجل « محمد بن أبان » وكان يحفظه ، وقد ورثه من الجاهلية .

ويظهر من اشارات « الهمداني » اليه ، انه قصد بهذا السجل « السجل القديم » ، وأما السجلات الأخرى ، فقد كانت من وضع علماء آخرين من علماء النسب كانوا بمدينة صعدة ، وقد جمعوا أنساب خولان وحمير وقبائل أخرى ، وأضافوها على شكل مشجرات نسب الى ذلك الديوان ، فصار مجموعة سجلات . ولهذا كان ينبّه « الهمداني » الى الموارد التي كان يستقي منها من غير ذلك السجل ، كالذي ذكره من « أنساب بني الهميسع بن حمير » ، اذ قال : « الا

---

١ الاكليل (١٤/٢) .
٢ الاكليل (١٦/٢) .
٣ الاكليل (١٩٩/١) ، « وفي سجل خولان وحمير بصعدة » (١٩٣/١) .

ما أخذته عن رجال حمير وكهلان من سجل خولان القديم بصعدة وعن علماء صنعاء وصعدة ونجران والجوف وخيوان وما أخبرني به الآباء والأسلاف »[1] .

وأما ما يذكره « الهمداني » من أن أصل السجل القديم وأساسه جاهلي ، فأمر لا أريد أن أبتّ فيه الآن . لا أريد أن أنفيه ، ولا أريد أن أثبته أيضاً . بل أقف منه موقف المحايد الحذر ، لأني لا أجد في المنقول منه في كتاب « الاكليل » ما يشير الى جاهلية وأصل جاهلي ، فالمشجرات المذكورة هي من هذا النوع المألوف الذي نراه في كتب الأنساب المؤلفة في الإسلام، وبعضه متأثر بروايات التوراة ، ولهذا فأنا لا أستطيع أن أرجعه الى ما قبل الإسلام ، ولا أستطيع أن أتبحر فيه وفي أصله ما دمت لا أملك « السجل » نفسه ، لا القديم منه ولا الجديد ، أو نصوصاً طويلة أخذت منه ، حتى يسهل عليّ الحكم من قراءتي لما ورد ومن دراسته على أصل ذلك الكتاب وصحة نسبته الى الجاهلية .

وأما « الخنفري » ، صاحب السجل ، فهو : « محمد بن أبان بن ميمون ابن حريز الخنفري »[2] . ولد في ولاية معاوية بن أبي سفيان في سنة خمسين ، وتوفي في سنة خمس وتسعين ومائة ، ودفن في رأس « حدبة صعدة »[3] . هذا ما رواه « الهمداني » عنه . وذكر « الهمداني » انه عاش « ١٢٥ » سنة ، ولو أخذنا بهذا الرقم الذي ذكره « الهمداني » ، فيجب أن تكون سنة وفاته « ١٧٥ » ، لا « ١٩٥ » للهجرة . ولذلك ، فيجب أن يكون في تأريخ المولد أو الوفاة وربما في مدة عمر « الخنفري » خطأ . واني أشك في طول ما ذكره عن عمره .

وكان لغير أهل صعدة كتب في الأنساب أيضاً ، دوّنوا فيها أنسابهم ، كما كان هنالك نسابون حفظوا أنساب قبائلهم أشار « الهمداني » اليهم في مواضع من كتابه[4] . وهم من غير أصحاب السجل . وكان بعض منهم قد قابل بين ما دوّنه عن القبائل وبين ما دوّن في السجل عنها، كما كان أهل السجل يعرضون

---

١ الاكليل (١٣/١ فما بعدها) .
٢ اكليل (١٩٩/١ ، ٢٢٧) ، الاكليل (١١٨/٢) .
٣ الاكليل (١١٩/٢) .
٤ الاكليل (١٠٢/٢ ، ١٩٤) ، « قال الهمداني : فخبرني محمد بن احمد القهبي السمسار وكان خبيرا بالخطيين » ، الاكليل (٦٥/٢) .

ما دوّنوه عن القبائل على نسّابيها لبيان رأيهم فيها . قال الهمداني « بطون الصدف ، عن الصعديين من أصحاب السجل ، مقروء على بعض نسّابة الصدف »[1] .

ونجد في الجزء الثامن من الإكليل مواضع ذكر فيها الهمداني (أبا نصر) أيضاً . وقد راجعتها وراجعت الأماكن التي أشير فيها اليه في الجزء الأول ، فتبين لي أن علم (أبي نصر) بتأريخ اليمن القديم هو على هذا الوجه : احاطة بأنساب القبائل اليمانية على النحو الذي كان شائعاً ومتعارفاً في أيامه ومسجلاً في سجلات الأنساب في تلك الأيام ، ورواية للأساطير التي راجت عن التبابعة ، وأخذ من موارد توراتية ظهرت في اليمن من وجود اليهود فيها قبل الإسلام .

أما علمه بالمساند ومدى وقوفه عليها ، فأنا أعتقد أن علمه بها لا يختلف عن علم غيره من أهل اليمن : وقوف على الحروف ، وتمكن من قراءة الكلمات ، واحاطة عامة بالمسند . أما فهم النصوص واستنباط معانيها بوجه صحيح دقيق ، فأرى أنه لم يكن ذا قدرة في ذلك ، وهو عندي في هذا الباب مثل غيره من قراء الخط الحميري . ودليلي على ذلك أن القراءات المنسوبة اليهم هي قراءات لا يمكن أن تكون قراءات لنصوص جاهلية ، وإن تضمنت بعض أسماء يمانية قديمة ، لسبب بسيط ، هو أن أساليبها ومعانيها ونسقها لا تتفق أبداً مع الأساليب والمعاني المألوفة في الكتابات الجاهلية ، فقراءات أبي نصر وأمثاله قراءات بعيدة جداً عن النصوص المعهودة ، هي قراءات إسلامية فيها زهد وتصوف وتوحيد وحضّ على الابتعاد عن الدنيا . أما نصوص المسند التي عثر عليها حتى الآن ، فإنها نصوص وثنية لا تعرف هذه المعاني ، وأسلوبها في الكتابة لا يتفق مع ذلك الأسلوب . وهي في أمور أخرى شخصية أو حكومية لا صلة لها بمثل هذه الآراء والمعتقدات .

وقد أورد (الهمداني) نصاً قال إنه قراءة من قراءة (أبي نصر) فيه نسب (عابر) ، هذا نصه : (قال أبو نصر : الناس يغلطون في عابر ، وهو هود بن أيمن بن حلجم بن بضم بن عوضين بن شدّاد بن عاد بن عوص بن إرم بن عوص بن عابر بن شالخ . وذكر أنه وجد هذا النسب في بعض مساند

---

[1] الاكليل (١٦/٢) .

حمير في صفاح الحجارة)[1] . وقارىء هذا النص الذي هو مزيج من رواية توراتية ومن إضافة غريبة ، يخرج من قراءته ، برأي واحد هو أن (أبا نصر)، كان لا يتوقف عن نسبة أمور من عنده إلى المساند ، فيحملها ما لا يعقل أن تحمله أبداً . فلو كان النص حميرياً صحيحاً مأخوذاً من التوراة ، لكان النسب على نحو ما ورد في التوراة ، ولو كان صاحبه وثنياً لا يدين بدين سماوي ، فإنه لا يعقل أن يخلط فيه هذا الخلط .

ولكنني لا أريد هنا أن أكتفي بتقديم التقدير الى الهمداني والى الباقين من علماء اليمن الذين سبقوه أو جاؤوا من بعده والثناء على طريقتهم المذكورة ، بل لا بد لي من التحدث عن درجة علم هؤلاء العلماء بالمسند ، وبقراءة الكتابات وبعلمهم بمعانيها،أي علمهم بقواعد وأصول اللهجات التي كتبت بها مثل اللهجة المعينية أو السبئية أو القتبانية أو الحضرمية وغيرها من بقية اللهجات ، وذلك ليكون كلامنا كلاماً علمياً صادراً عن درس ونقد وفهم بعلم أولئك العلماء بتأريخ اليمن القديم .

ولن يكون مثل هذا الحكم ممكناً الا بالرجوع الى مؤلفات (الهمداني) وغيره من علماء اليمن لدراستها دراسة نقد عميقة . ومقابلة ما ورد فيها من قراءات للنصوص مع قراءات العلماء المحدثين المتخصصين بالعربيات الجنوبية لتلك النصوص ان كانت أصولها أو صورها موجودة محفوظة ، وعندئذ يمكن الحكم حكماً علمياً سليماً على مقدار علم أولئك العلماء بلغات اليمن القديمة وبتأريخها المندرس . ولكننا ويا للأسف لا نملك كل أجزاء كتاب (الإكليل) ولا كل مؤلفات الهمداني أو غيره من علماء اليمن ، فالجزء التاسع من الإكليل مثلاً وهو جزء خصص بأمثال حمير وبحكمها باللسان الحميري وبحروف المسند[2]،هو جزء ما زال مختفياً ، فلم نر وجهه ، وهو كما يظهر من وصف محتوياته مهم بالنسبة الينا ، وقد يكون دليلاً ومرشداً لنا في اصدار حكم على علم الهمداني بلغة حمير . ولكن ماذا نصنع

---

١ الاكليل (٩٣/١) .

٢ للوقوف على الاجزاء الاخرى من كتاب (الاكليل) تراجع مقدمة (نبيه فارس)
Brockelmann, Vol., I, S., 229, Ency., Vol., 2, P., 246.
(قال الهمداني : اكثر ما وجد في المساند القبورية بكلام الحميرية ، وأنا لما جعلنا الجزء السابع ؟ مقصورا على الكلام بالحميرية) الاكليل (١٤٣/٨) (طبعة الكرملي) وقد أخطأ الكرملي في كلمة (السابع) ، والواجب ان يكون الرقم : (التاسع)

ونفعل ، وقد حرمنا رؤية هذا الجزء ، وليس في مقدورنا نشره وبعثه ، فهل نسكت ونجلس انتظاراً للمستقبل ، عسى أن يُبعث الى عالم الوجود ؟

هذا ، وقد طبع الجزء الثامن من الإكليل وكذلك الجزء العاشر منه ، فاستفاد منهما المولعون بتأريخ اليمن القديم وبتأريخ بقية أجزاء العربية الجنوبيـــة ، وطبع الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً برواية (محمد بن نشوان بن سعيد الحميري) ، وقد ذكر أنه اختصر شيئاً في مواضع الاختلاف وفي النسب مما ليس له شأن في نظره دون أن يؤثر على الكتاب[1] .

وطبع الجزء الثاني من الإكليل أيضاً ، أخرجه ناشر الجزء الأول : « محمد ابن علي الأكوع الحوالي » من عهد غير بعيد[2] ، وليس لنا الآن إلاّ أن نرجو نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب ، ليكون في وسعنا الحكم على ما جاء فيه من أخبار عن أهل اليمن الجاهليين .

إن أقصى ما نستطيع في الزمن الحاضر فعله وعمله لتكوين رأي تقريبي تخميني من علم الهمداني وعلم بقية علماء اليمن بلهجات أهل اليمن القديمة وبتأريخهم القديم، هو أن نرجع الى المتيسر المطبوع من مؤلفاتهم ، لدراسته دراسة نقد علمية عميقة، لاستخراج هذا الرأي منها . وهو وإن كان أقل من الضائع بكثير ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، والموجود خير من المعدوم ، وفي استطاعته تقديم هذا الرأي التخميني التقريبي . فلنبحث إذن في هذا المطبوع لنرى ما جاء فيه .

أما بخصوص الخط المسند ، فقد ذكر (الهمداني) أن جماعة مـــن العلماء في أيامه كانت تقرأ المسند،غير أن أولئك العلماء كانوا يختلفون فيما بينهم في القراءة، وكان سبب ذلك — على رأيه — اختلاف صور الحروف ، (لأنـــه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويكون للذي يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة)[3] . وقد عرف (الهمداني) أن كتّاب المسند كانوا يفصلون بين كل كلمة وكلمة في السطر بخط قائم ، وذكر أنهم كانوا يقرأون كل سطر بخط . غير أنـــه لم يذكر عدد الحروف . وصرح أنهم « كانوا يطرحون الألف إذا كانت بوسط

---

١ طبع في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٦٣ ، ونشر برقم ٢ من المكتبـــة اليمنيـــة (ص ٥)

٢ القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، سنة ١٩٦٦ م .

٣ الاكليل (١٢٢/٨) .

الحرف ، مثل ألف همدان وألف رثام ، فيكتبون رثم وهمدن ، ويثبتون ضمة آخر الحرف وواو عليهمو»[1] . وهي ملاحظات تدل على احاطة عامة بالمسند،سوى ما ذكره من أنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويظهر أنه وغيره قد توصلوا إلى هذا الرأي من اختلاف أيدي الكتّاب في رسم الحروف ونقرها على الحجر ، كالذي يحدث عندنا من تباين الخطوط باختلاف خطوط كتبته ، فأدى تباين الخط هذا الى اختلافهم في القراءة ، وإلى ذهابهم الى هـذا الرأي ، أو أنهم اختلفوا فيها من جراء تشابه بعض الحروف مثل حرف الهاء والحاء ، فان هذين الحرفين متشابهان في الشكل ، فكلاهما على هيئة كأس يرتكز على رجل، والفرق بينهما ، هو في وجـود خط عمودي في وسط الكأس هو امتداد لرجل الكأس ، وذلك في حرف (الحاء) ، أما الهاء ، فلا يوجد فيه هذا الخط الذي يقسم باطن الكأس إلى نصفين . ويشبه حرف (الخاء) حرف (الهاء) في رسم رأس الكأس ، ولكنه يختلف عنه في القاعدة ، اذ ترتكز هذا الرأس على قاعدة ليست خطاً مستقيماً ، بل على قاعدة تشبه كرسي الجلوس ذي الظهر . ومثل التشابه بين حرفي الصاد والسين ، فكلاهما على هيئة كأس وضعت وضعاً مقلوباً، بحيث صارت القـاعدة التي ترتكز الكأس عليها إلى أعلى . أما الرأس ، وهو باطن الكأس ، فقد وضع في اتجاه الأرض . ولكن قاعدة (الصاد) هي على هيئة رقم خمسة في عربيتنا ، أي على هيئة دائرة أو كرة بينما قاعدة حرف السين هي خط مستقيم،أما باطن كأس حرف (الصاد) ، ففيه خط يقسمه الى قسمين وذلك في الغالب ، وقد يهمل هذا الخط المقسم ، أما حرف السين ، فلا يوجد فيه هذا الخط[2] .

وجاء (نشوان بن سعيد الحميري) بملاحظات عن (المسند) هي الملاحظات

---

١ الاكليل (١٢٢/٨) ، (طبعة نبية) ، (١٤١/٨) ، ـ طبعة الكرملي ـ ، لـه ملاحظات اخرى في كيفية الكتابة بـ المسند ، ذكرها في الجزء العاشر ص ١٦ ، ١٧ ، (والمسند : خط حمير ، مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه ايام مسكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في ايديهم الى اليوم باليمن) ، لسان العـرب (٢٠٦/٤) ، الفهرست ص ٨ ،الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقـي في (جمهرة النسب) ، ص ٣٤٥ ، سنة ١٩٥٠ .

٢ للوقوف على اشكال حروف المسند ، يستحسن مراجعـة جـدول الحـروف الموضوع في هذا الجزء .

التي أوردهـا (الهمداني) عنه ، فقال : المسند : خط حمير ، وهو موجود كثيراً في الحجارة والقصور ، وهذه صورته على حروف المعجم ... وله صور كثيرة ، إلاّ أن هذه الصورة أصحها . واعلم أنهم يفصلون بين كل كلمتين بصفر ، لئلا يخلط الكلام . وصورة الصفر عندهم كصورة الألف في العربي[1].. وما قلته عن تعدد صور الحرف قبل قليل ، ينطبق على ملاحظة (نشوان) أيضاً .

ويظهر أن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً في الإسلام وهم يتوارثون هذا الخط ويكتبون به . فقد جاء في بعض الموارد : (والمسند خط حمير ، مخالف لخطّنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال أبو حاتم : هو في أيديهم إلى اليوم باليمن)[2] ، إلاّ أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الخط العربي الشمالي الذي دوّن به القرآن الكريم ، فغلب على أمره ، وتضاءل عدد الكتاب به حتى صار صفراً .

ومما يؤسف عليه كثيراً اننا لا نملك النسخ الأصلية التي كتبها أولئك العلماء بخط أيديهم ،حتى نرى رسمهم لحروف المسند . فإن الصور المرسومة في المخطوطات الموجودة وفي النسخ المطبوعة ، ليست من خط المؤلفين ، بل من خط النساخ ، فلا أستبعد وقوع المسخ في صور حروف المسند في أثناء النقل ، ولا سيما اذا تعددت أيدي النساخ بنسخ أحدهم عن ناسخ آخر . وهكذا . فليس للنساخ علم بالمسند ، ولذا لا أستبعد وقوعهم في الخطأ . ومن هنا فإن من غير الممكن اصدار رأي في مقدار اتقان الهمداني وبقية العلماء لرسم حروف الخط المسند .

وقد أشار (الدكتور كرنكو) الى هذه الحقيقة ،إذ ذكر أن صور الحروف الحميرية في (الإكليل) تختلف باختلاف النسخ اختلافاً كبيراً ، فقد صوّر كل ناسخ تلك الحروف على رغبته وعلى قدرته على محاكاة النقوش ، ومن هنا تباينت وتعددت ، فأضاعت علينا الصور الأصلية التي رسمها الهمداني لتلك الحروف[3] .

أما رأينا في علم علماء اليمن بفهم المسند ، فيمكن تكوينه بدراسة النصوص الواردة في مؤلفاتهم وبدراسة معرباتها ومقابلتها بالنصوص الأصلية المنقورة على الحجارة ان كانت تلك النصوص الأصلية لا تزال موجودة باقية ، أو بمراجعة

---

١ منتخبات (ص ٥٢) .
٢ لسان العرب (٢٠٦/٤) .
٣ الاكليل (٣٢٨/٨) (طبعة الكرملي) .

النصوص المدونة ومقابلتها بمعرباتها لنرى درجة قرب التعريب أو بعده من الأصل. وعندئذ نستطيع ابداء حكم على مقدار فهم القوم لكتابات المسند . أما في حالة اكتفاء المؤلف بايراد التعريب فقط أي معنى النص لا متنـــه ، فليس أمامنا من سبيل غير وجوب مراجعة المعربات ودراستها من جميع الوجوه ، لنرى مقدار انطباق أساليبها على الأساليب المألوفة في كتابات المسند ، وعندئـــذ نتمكن من تكوين رأي في هذا الذي ورد في المؤلفات على أنه ترجمات ، ونتمكن بذلك من الحكم بمقدار قرب تلك الترجمات والقراءات من المسند أو بعدها منه .

وخلاصة ما توصلت اليه من دراستي الاجمالية للأجزاء المطبوعـة من مؤلفات (الهمداني) أن الهمداني ، وإن كان يحسن قـــراءة حروف المسند ، ويعرف القواعد المتعلقة بالخط الحميري ، الا انه لم يكن ملماً بألسنة المسند . ولم يتمكن من ترجمة النصوص التي نقلها ترجمة صحيحة ، ولم يعرف على ما يتبين منها كذلك ما كان قد ورد فيها وما قصد منها ، فجعل (تالباً) ، وهو اسم إلـه من آلهة اليمن المشهورة ، ومعبود قبيلة (همدان) الرئيس ، اسم رجل من رجال الأسرة المالكة لهمدان . وجعل (رياما) ، وهو اسم مكان من الأمكنة المشهورة، وكان به معبد معروف للإلـه (تالب) ، ابناً من أبناء (نهفان) ، ومن أبناء (تالب) . ولم يبخل الهمداني عليه ، فوهب له أماً قال لها : (ترعة بنت بازل بن شرحبيل بن سار بن أبي شرح يحضب بن الصوار)[١] .

وأورد (الهمداني) نصاً ذكر ان (أحمد بن أبي الأغر الشهابي)، وجده بـ (ناعط) ، فقرأه ، فإذا هو : (علهان ونهفان ابنا بتع بن همدان ، لهم الملك قديماً كان)[٢] . وقد عدّ (علهان نهفان) رجلين هما (علهان)و(نهفان)، مع أن (علهان نهفان) ، هو رجل واحد ، وهو ملك من ملوك سبأ وسيأتي ذكره . وقد كان والده (يريم أيمن بن أوسلت رفشان) من قبيلة (همدان) . وكلمة (نهفان) لقب له . أما اسمه فهو (علهان) . وكان له شقيق اسمـــه (برج يهركب) ، كما ورد ذلك في كتابة عثر عليها في (ريام)[٣] ، فلم يكن

---

١ الاكليل (١٠/١٧ ، ١٨)
٢ الاكليل (١٠/١٦)
٣ المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية ، تأليف (اغناطيوس غويدي) من نشريات الجامعة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٠ ، ص ٢١ ، راجع النص الموسوم بـ : C.I.H. 315

والده اذن رجلاً اسمه (بتع بن همدان) كما جاء في القراءة .

وأما (بتع) ، فقبيلة من قبائل همدان ، وأما جملة : « لهم الملك قديماً كان » ، فهي لا ريب من قول الشهابي ، وليست بعبارة حميرية . وليس التعبير – وان فرضنا أنها ترجمة للأصل – من التعابير المستعملة في الحميريـة ، التي ترد في الكتابات . ولما كنا لا نعرف المتن الأصلي للنص ، يصعب علينا الحكم عليه أكان قريباً من هذا المعنى أو كان شيئاً آخر ، عرف منه الشهابي بضع كلمات ثم فسره بهذا التفسير .

ويظهر على كل حال أن قراء المسند (وقد قلت إنهم كانوا يحسنون في أيام الهمداني قراءة حروف المسند) لم يكونوا على اطلاع بقواعد الحميريـة ، ولا باللسان الحميري ، أو الألسنة العربية الجنوبية الأخرى . خذ مثلاً على ذلك : (بن) وهي حرف جر عند العرب الجنوبيين ، وتعني (من) و (عن) بلغتنا قد أوقعتهم هذه الكلمة في مشكلات خطيرة . فقد تصور القوم عند قراءتهم لها ، أنها تعني أبداً (ابناً) على نحو ما يفهم من هذه الكلمة في لغتنا . وفسروها بهذا التفسير . ففسروا (بن بتع) أو (بن همدان) وما شابه ذلك (ابن بتع) أو (ابن همدان) ، والمقصود من الجملتين هو (من بتع) و (من همدان) ، وبذلك تغير المعنى تماماً ، ومن هنا وقع القوم – على ما أعتقد – في أغلاط حين حسبوا أسماء القبائل وأسماء الأماكن الواردة قبل (بن) وبعده ، أسماء أشخاص وأعيان ، وأدخلوها في مشجرات الأنساب . فاقتصار علمهم على الأبجدية وجهلهم باللغة ، أوقعهم في مشكلات كثيرة ، وسبب ظهور هذا الخلط[1] .

وجاء الهمداني بنصوص أخر ذكر أنها كانت مكتوبة بالحميرية ، مثل النص الذي زعم أن مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني قرأه على حجر في مسجد خيوان ، وهـذا نصه : (شرح ما ، وأخوه ما ، وبنوه ما ، قيول شهران بنو هجر ، هم معتة بدار القلعة)[2] . وأمثال ذلك من النصوص . ولا اعتقد أنك ستقول : إنّ هذا نص حميري ، ولا يسع أمرءاً له إلمام بالحميرية أن يوافق على وجود مثل هذه العائلة عائلة ما ، أو يسلم بأن هـذه قراءة صحيحة لنص

---

١ Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, Leipzig, 1910, 2.

٢ الاكليل (١٠/١٩) .

حميري . بل لا بد من وجود أخطاء في القراءة وفي التفسير . ولا أريد أن أتجاوز على رجل مشى الى ربه ، فلعلــه كان يحسن قراءة بعض الحروف والكلمات ، ويتصور أنه أحسن قراءة النص كله وفهمه ، فجاء بهذه العبارة . وعلى كل ، إن كلّ الذي جاء في النصوص التي وقفت عليها في كتب الهمداني لا يمكن أن يعطي غير هذا الانطباع ، ولعلنا سنغير رأينا في المستقبل اذا تهيأت لنا نصوص من شأنها أن تغيره .

ويأتي (الهمداني) أحياناً بأبيات شعر زاعماً انها من المسند . ففي أثنـاء كلامه مثلاً على قصر (شحرار) قال : « وفي بعض مساند هذا البنيان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف　　أسسه تبع ينوف
يسكنه القيل ذي معاهر　　تخر قدّامه الأنوف»[1]

أما نحن ، فلم نعثر حتى اليوم على أية كتابة بالمسند ، ورد فيهـا شعر ، لا بيت واحد ولا أكثر من بيت . وأما متن البيتين المذكورين ، فليس حميريـاً ولا سبئياً ولا معينياً وليس هو بأية لهجة يمانية أخرى قديمة ، وانما هو بعربيتنا هذه ، أي بالعربية التي نزل بها القرآن الكريم ، نظمه من نظمه من المحدثين بهذه اللغة البعيدة عن لغات أهل اليمن .

أما الباب الذي عقده في الجزء الثامن بعنوان : (باب القبوريات) ، فقد استمد مادته من روايات وأخبـار (هشام بن محمد بن السائب الكلبي)[2] ، و (ابن لهيعة)[3] و (موهبة بن الدعام) من همـدان[4] و (أبي نصر)[5] و (وهب بن منبه)[6] و (كعب الأحبار) و (عبدالله بن سلام)[7] . وقد

---

١ الاكليل (٨/٦٦) (طبعة الكرملي) .
٢ الاكليل (٨/١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٤ فما بعدها ، ١٧٧ ، ١٩٦ ومواضع اخـرى) (طبعة الكرملي) .
٣ الاكليل (٨/١٤٥ ، ١٩٥) .
٤ الاكليل (٨/١٤٦) .
٥ الاكليل (٨/١٧٣) .
٦ الاكليل (٨/١٨٠) (وقد ذكر القصة كاملة وهب بن منبه في تيجان الملـوك) ، الاكليل (٨/١٨٦) .
٧ الاكليل (٨/٣٠٩) (طبعة الكرملي) .

أورد فيه نصوصاً زعم انها ترجمات لنصوص المسند ، عثر عليها في القبور عند الأجداث . وأورد بعضها شعراً ، زعم انه مما وجـد في تلك القبور ، كالذي ذكره عند حديثه عن قبر (مرشد بن شدّاد)[1] ، وعن قبرين جاهليين عثر عليهما بـ (الجند) وقد نص على ان الشعر المذكور كان مكتوباً بالمسند وقد دونه[2].وهو وكل الأشعار الأخرى ومنها المراثي منظوم بعربية القرآن . وأما النثر ، فإنه بهذه العربية أيضاً ، وهو في الزهد والموعظة والندم والحث على ترك الدنيا ، فكأن أصحاب القبور ، من الوعاظ المتصوفين الزهاد ، ماتوا ليعظوا الأحياء من خلال القبور ، ولم يكونوا من الجاهليين من عبدة الأصنام والأوثان .

وهو قسم بارد سخيف ، يدل على ضعف أحلام رواته ، وعلى ضعف ملكة النقد عند (الهمداني) وعلى نزوله الى مستوى القصاص والسمّار والأخباريين الذين يروون الأخبار ويثبتونها وإن كانت مخالفة للعقل . إذ أنه لا يختلف عنهم هنا بأي شيء كان .

ومجمل رأيي في (الهمداني) أنه قد أفادنا ولا شك بوصفة للعاديات التي رآها بنصه على ذكر أسمائها ، وأفادنا أيضاً في ايراده ألفاظاً يمانية كانت مستعملة في أيامه استعمال الجاهليين لها : وقد وردت في نصوص المسند ، فترجمها علماء العربيات الجنوبية ترجمة غير صحيحة ، فمن الممكن تصحيحها الآن على ضوء استعمالها في مؤلفات الهمداني وفي مؤلفات غيره من علماء اليمن . أما من حيث علمه بتأريخ اليمن القديم ، فإنه وإنْ عرف بعض الأسماء إلاّ أنه خلط فيها في الغالب ، فجعل اسم الرجل الواحد اسمين ، وصير الأماكن آباءً وأجداداً ، وجعل أسماء القبائل أسماء رجال ، ثم هو لا يختلف عن غيره في جهله بتأريخ اليمن القديم ، فملأ الفراغ بايراده الأساطير والخرافات والمبالغات . وأما علمه بالمسند فقد ذكرت أنه ربما قرأ الكلمات ، ولكنه لم يكن يفقه المعاني ، ولم يكن ملماً بقواعد اللهجات اليمانية القديمة ، وقد حاولت العثور على ترجمة واحدة تشير الى أنها ترجمة صحيحة لنص من نصوص المسند ، فلم أتمكن من ذلك ويا للأسف .

---

١ الاكليل (١٧٥/٨) (طبعة الكرملي) .
٢ الاكليل (١٧٨/٨) .

وعلم (الهمداني) بجغرافيـــة اليمن والعربية الجنوبية ، يفوق كثيراً علمــه بتأريخ هذه الأرضين القديم ، فقد خبر أكثرها بنفسه وسافر فيهـا ، فاكتسب علمه بالتجربة . أما علمه بجغرافية الأقسام الشمالية من جزيرة العرب ، فإنه دون هذا العلم[١] .

وأفادت (القصيدة الحميرية) ، لصاحبهـا (نشوان بن سعيد الحميري) فائدة لا بأس بها في تدوين تأريخ اليمن[٢] . ولهذا المؤلف معجم سمّاه (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)[٣]، ضمنه ألفاظاً خاصة بعرب الجنوب[٤] . وينطبق ما قلته في الهمداني على نشوان أيضاً . فاذا قرأت كتبـه ، تشعر أنه لم يكن يفهم النصوص الحميرية ولا غيرها ، وإن كان يحسن قراءة المسند . وما ذكره في كتابه (شمس العلوم) — وإنْ دلّ على حرص على جمع المعلومات، وعلى تتبع يحمد عليه للبحث عن تأريخ اليمن ولغاتها القديمة — يدلّ على أنـه لم يكن يفهم نصوص المسند ، وليس له علم بتأريخها وبتواريخ أصحابها ، وأنه لا يمتاز بشيء عن الهمداني أو سائر علماء اليمن الذين كانوا يدعون العلم بأخبار الماضيين ، وأكثر الذي ذكره في كتابه على أنه من اللهجات الحميرية والعربيـة الجنوبية هو من مفردات معجمات اللغة ، ومن لهجات العربية الفصحى خلا ذلك الذي كان يستعمله أهل اليمن ، وهو قليل إذا قيس إلى سواه ، وقد فسر معانيه على نحو ما كان يقصده الناس في أيامه . ومع هذا ، فهـذا النوع من الكلمات هو الذي نطمع فيه ، لأنه من بقايا اللهجات البائدة ، ويفيدنا فائدة عظيمة في فهم معاني النصوص وفي قراءتها وشرحها وتفسيرها ، ولعله لم يكثر منها، لأنها كانت من كلام العوام فأشفق على نفسه من البحث في لغة العوام .

---

١ Moritz, S., 20.

٢ تجد ترجمته في : ارشاد الاريب (٢٠٦/٧) ، بغية الوعاة (ص ٤٣٠) ،
W. F. Prideaux, The Lay of the Himyarites, Sehore, 1879,
Von Kremer, Die Himjarische Qaside, Leipzig, 1865.
Brockelmann, I, S., 301, Suppl., I, 527, f., R. Basset,
La Qasidah Himyarite De N.B.S., Alger, 1914.

٣ الاكليل (٨/ث وقيل : (شمس العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم) نشـــر منتخبـات منه عظيم الدين احمد في سلسلة تذكار (كب) ليـدن ، ١٩١٦ ، (منتخبات في اخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)، وسأشير اليه بـ : منتخبـات .

٤ راجع مثة مادة هجر منتخبات ص ١٠٨ .

ولم يزد (نشوان) في شروحه لأسماء الأعيان والأجذام والقبائل والعمائر والأمكنة على ما أورده الهمداني أو سائر علماء التأريخ وأهل الأنساب ، فعدّ أسماء القبائل مثل همدان ، أسماء أشخاص لهم أنساب وأولاد وأقرباء ، وأخطأ في الأغلاط نفسها التي وقع فيها الهمداني، فذكر جملاً مسجوعة على انها من وصايا التبابعة، وعبارات متكلفة على انها قراءات لنصوص حميرية مكتوبة بالمسند[1] .

ومحمد بن نشوان بن سعيد الحميري نفسه هو ممن اعتمد على علم الهمداني ، كما نص على ذلك في فاتحة الجزء الأول من الإكليل . فهذا الجزء الذي طبع حديثاً هو برواية محمد بن نشوان ، رواه لمن سأله أن يوضح شيئاً من أنساب حمير وأخبارها وما حفظ من سيرها وآثارها ، فما كان منه الا أن أخذ الإكليل فكتب له ، لم يغير فيه سوى ما قاله : (غير اني اختصرت شيئاً ذكره في النسب ، ليس هو من جملته بمحتسب . بل هو مما ذكره من الاختلاف في التأريخ ونحوه ، من غير أن أنسب الكدر الى صفوه)[2] . وفي مقدمته لهذا الجزء ثناءٌ عاطرٌ على الهمداني ، وتقدير كبير لعلمه في أخبار اليمن .

هذا هو كل ما أريد أن أقوله هنا عن مصادر التأريخ الجاهلي ، وهو قليل من كثير ، ولكن التوسع في هذا الموضوع يخرجنا حتماً عن حدود بحثنا المرسوم ، ويخرجنا الى التحدث في شيء آخر لا علاقة له بالجاهلية ، وانما يعود الى البحث في التأريخ ، وفي نقده ودروبه عند المؤرخين . على أني أراني قد توسعت مع ذلك في هذا الباب ، وذلك للحاجة التي رأيتها في ضرورة توضيح بعض الأمور الخاصة بتلك الموارد .

---

١ منتخبات ص ٦٠،٧٥ ومواضع اخرى .
٢ الاكليل (١/٥) .

الفصل الثالث

اهمال التأريخ الجاهلي واعادة تدوينه

من الأمور التي تثير الأسف ، تهاون المؤرخين في تدوين التأريخ الجاهلي ، ولا سيما القسم القديم منه ، الذي يبعد عن الإسلام قرناً فأكثر ، فإن هذا القسم منه ضعيف هزيل ، لا يصح أن نسميه تأريخاً ، بعيد في طبعه وفي مادته عن طبع التواريخ ومادتها .

لقد وفق المؤرخون العرب في كتابة تأريخ الإسلام توفيقاً كبيراً ، من حيث العناية بجمع الروايات والأخبار واستقصائها ، وفي رغبتهم في التمحيص . أما التأريخ الجاهلي ، فلم يظهروا مقدرة في تدوينه ، بل قصروا فيه تقصيراً ظاهراً . فاقتصر علمهم فيه على الأمور القريبة من الإسلام ، على أنهم حتى في هذه الحقبة لم يجيدوا فيها إجادة كافية ، ولم يظهروا فيها براعة ومهارة ، ولم يطرقوا كل الأبواب أو الموضوعات التي تخص الجاهلية . فتركوا لنا فجوات وثُغراً لم نتمكن من سدّها وردمها حتى الآن ، ولا سيما في تأريخ جزيرة العرب ، حيث نجد فراغاً واسعاً ، وهو أمر يدعو الى التساؤل عن الأسباب التي دعت الى حدوثه : هل كان الإسلام قد تعمّد طمس أخبار الجاهلية ؟ أو أن العرب عند ظهور الإسلام لم تكن لديهم كتب مدونة في تأريخهم ولا علم بأحوال أسلافهم ، وكانت الأسباب قد تقطعت بينهم وبين من تقدمهم ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن ماضيهم غير هذا الذي وعوه فتحدثوا به الى الإسلاميين ، فوجد سبيله الى الكتب ؟ أو أن العرب لم يكونوا يميلون الى تدوين تواريخهم ، فلم يكونوا مثل

الروم أو الفرس يجمعون أخبارهم وأخبار من تقدم منهم وسلف ، فلما كان الإسلام ، وجاء زمن التدوين ، لم يجد أهل الأخبار أمامهم شيئاً غير هذا الذي رووه وذكروه ، وكان من بقايا ما ترسب في ذاكرة المعمرين من أخبار .

لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير الى الإسلام ، فزعم ان رغبة الإسلام كانت قد اتجهت الى استئصال كل ما يمت الى أيام الوثنية في الجزيرة العربية بصلة ، مستدلاً بحديث : (الإسلام يهدم ما قبله)[١] ، فدعا ذلك الى تثبيط همم العلماء عن متابعة الدراسات المتصلة بالجاهلية ، والى محو آثار كل شيء يتفرع عن النظام القديم ، لم يميزوا بين ما يتعلق منه بالوثنية والأنصاب والأصنام، وبين ما يتعلق بالحالة العامة كالثقافة والأدب والتأريخ . فعلوا ذلك كما فعل النصارى في أوروبة في أوائل القرن السادس للميلاد ، فكان من نتائجه ذهاب أخبار الجاهلية ، ونسيانها ، وابتدأ التاريخ لدى المسلمين بعام الفيل[٢] . ولهذا (كان المؤرخون أو الأخباريون ، الذين يترتب عليهم تدوين أخبار الماضي وحفظ مفاخره ، من الذين ينظر اليهم شزراً في المجتمع الإسلامي ، وخاصة في العهد الإسلامي الأول . أما مؤرخو العرب العظام ، فلم ينبغوا الا بعد تلك الفترة ، وحتى هؤلاء فإنهم صرفوا عنايتهم الى التأريخ الإسلامي ، ولم يدققوا فيما يخص الجاهلية . وبالإضافة الى ما سبق ، أصبح لكلمة مؤرخ (اخباري) معنى سيء بل أصبحت صفة تفيد نوعاً من الازدراء . وقد ألصقت هذه الصفة بابن الكلبي ، كما ألصقت بكل عالم تجرأ على البحث في تأريخ العرب قبل عام الفيل . لكن لم يهاجم أحد من المؤرخين بعنف كما هوجم ابن الكلبي . والراجح أن السبب في ذلك هو انصرافه لدراسة الأشياء التي قرر الإسلام طمسها ، أعني بذلك الديانات والطقوس الوثنية في بلاد العرب)[٣] .

---

١ مجلة الابحاث (ص ١٨٩) ، السنة الـ ٣ ، الجزء الـ ٢ ، حزيران ١٩٥٠ ، الاكليل : مقدمة نبيه امين فارس ص (ب) ، دراسات عن المؤرخين العرب ، تعريب الدكتور حسين نصار ، تأليف (مارغليوث) (ص ٥٣ وما بعدها) .

٢ مقدمة نبيه امين فارس للجزء الثامن من الاكليل (ص ب) ، قال : (وقد يكون للحديث المنسوب الى النبي اثر في ذلك . فقد جاء في الحديث ان (الاسلام يهدم ما قبله) ، ولا بد ان عنى النبي في قوله هذا الديانات الوثنية الشائعة في الجزيرة قبيل ظهوره من عبادة الاصنام والانصاب وغيرها . اما اتباعه ، فدفعتهم غيرتهم على تثبيت دعائم الدين الحنيف الى عدم التمييز بين الغث والسمين ، فكادوا يقضون على جميع معالم الثقافة والادب ... الخ) .

٣ الابحاث ، الجزء المذكور (ص ١٨٩) .

ثم سبب آخر ، هو أن الإسلام ثورة على مجتمع قائم ثابت ، وعلى مثل تمسك بها أهل الجاهلية ، وعلى قوم كانوا قد تسلطوا وتحكموا وتجبروا بحكم العرف والعادات ، وككل ثورة تقع وكما يقع حتى الآن ، وسم الإسلام الجاهلية ، بكل منقصة ومثلبة ، وحاول طمس كل أثر لها وكل ما كان فيها ، حتى ظهرت تلك الأيام على الصورة التي انتهت الينا عن « الجاهلية » وكأن الناس فيها جهلة لم يكن عندهم شيء من علم في هذه الحياة يومئذ ، وكأن عهدهم في هذا العالم لم يبدأ إلا ببدء الإسلام .

وجاءوا بدليل آخر في اثبات أن الإسلام كان له دخل في طمس معالم تأريخ الجاهلية ، إذْ ذكروا أن الخليفة (عمر) سأل بعض الناس (أن يرووا بعض التجارب الجاهلية ، أو ينشدوا بعض الأشعار الجاهلية ، فكان جوابهم : لقد جب الله ذلك بالإسلام ، فلمّ الرجوع)[1] . فوجدوا في امتناعهم عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الجاهلية ، دلالة على كره الإسلام لرواية تأريخ الجاهلية وانتهاء ذلك الى طمس معالم ذلك التأريخ .

أما حديث (الإسلام يهدم ما قبله) ، فهو حديث لا علاقة له البتة بتأريخ الجاهلية ولا بهدم الجاهلية ، وقد استل من حديث طويل ورد في صحيح مسلم في (باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج) ، وبعد (باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية) ، وقد ورد جواباً عن أسئلة الصحابة عن أعمال منافية للإسلام ارتكبوها في الجاهلية ، هل يغفرها الله لهم ، أو تكتب عليهم سيئات يحاسبون عليها ؟ فقالوا : (يا رسول الله ، انؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟)[2] . وقد ورد في صحيح مسلم بعد هذا الباب باب آخر بهذا المعنى ، هو(باب بيان حكم عمل الكافر اذا أسلم بعده) .

ولإعطاء رأي صحيح عن هذا الحديث ، أنقل الى القارىء نصه كما جاء في صحيح مسلم قال : (حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن شماسة المهري ، قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياقة الموت يبكي طويلاً ، وحول

---

١ دراسات عن المؤرخين العرب (ص ٥٣) . وقد اقتطعت نص هذا الدليل من الترجمة العربية لكتاب المستشرق (مرغليوث) ، المسمى : دراسات عن المؤرخين العرب ، لعدم وجود النص الانكليزي لدي ، فانا ارويه على مسؤولية المعرب وان كنت ارى أن في الترجمة وهما .

٢ صحيح مسلم (١/٧٧) .

وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بشّرك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟ قال: فأقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مني ، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النـار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه . قال : فقبضت يدي ، قال مالك يا عمرو ؟ قال : قلت أردت أن اشترط . قال : تشترط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لي . قال : أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحـد أحبّ إليّ من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا أجلّ في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له . ولو مت على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنـة ، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا مت ، فـلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني ، فشنوا عليّ التراب شنـاً ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به رسل ربي[1] .

وبعد ، فأية علاقة إذن بين هذا الحديث وبين الحث على تهديم الجاهليـة وإهمال التأريخ الجاهلي يا ترى ؟

وأما اتخاذهم نهي بعض الصحابة عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبـار الأيام دليلاً على كره الإسلام لإحياء ذكرى الجاهلية، ومحاولته طمس معالمها وتأريخها ، وحكمهم من ثم عليه بمساهمته في طمس تأريخ الجاهلية واطفائه له ، فإنه دليل بارد ليس في محله ، فإن الذين نهوا عن رواية الشعر الجاهلي أو رواية الأيام ، أو امتنعوا هم أنفسهم عن روايتهما ، لم ينهوا ولم يمتنعوا عن روايتها مطلقاً ، أي عن رواية جميع أنواع الشعر الجاهلي أو أخبار كـل الأيام التي وقعت في الجاهلية ، بل نهوا أو امتنعوا عن رواية بعض أبواب الشعر ، وبعض أخبـار تلك الأيام ، لما كان يحدثه هذا النوع من الشعر أو يوقعه هذا الباب من رواية

---

١ صحيح مسلم (٧٨/١) .

الأخبار من شرّ في النفوس ومن فتن قد تجدد تلك العصبيات الخبيثة التي حاربها الإسلام ، لتمزيقها الشمل ، وتفريقها الصفوف . « ومن ثم نهى الفاروق ، رضي الله عنه،الناس بدياً أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي بالميت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام . ومرّ عمر بحسان يوماً ، وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، فأخذ بأذنه ، وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ، فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد مَنْ خير منك ، فقال عمر : صدقت ، وانطلق »[1] . ولم يأخذ عمر على حسان رواية ذلك الشعر في مسجد رسول الله الا لأنه كان من ذلك الشعر المثير للنفوس المهيج للعواطف ، وانشاده في نظره يعيد الناس الى ما كانوا عليه من قتال قبل الإسلام. فللمصلحة العامة نهى بعض الصحابة عنه . ومع ذلك ، تساهل عمر مع حسان ، وتركه ينشد شعره ، بعد أن حاجّهُ حسان بما رأيت .

وهناك رواية أخرى تشرح لنا الأسباب التي حملت عمر على النهي عن رواية بعض الشعر الجاهلي ، وهي انه (قدم المدينة ، في خلافة الفاروق ، عبدالله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب – وكانا شاعري قريش في الشرك – فنزلا على أبي أحمد بن جحش ، وقالا له : نحبّ أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فتنشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا ، فأرسل اليه ، فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد : هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالوا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ، إن شعرك كان يحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا،وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : أفتبدآن ، أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن ، قال : ابتدئا . فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر ، فقص عليه قصتهما وقصته . فقال له عمر : لن يذهبا عنك بشيء إن شاء الله ، وأرسل من يردّهما ، وقال له عمر : لو لم تدركهما الا بمكة ، فارددهما عليّ ... فلما كان بالروحاء ، قال ضرار لصاحبه:

---

1 شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، لعبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ١٩٢٩ (ص . س . م) .

يا ابن الزبعرى ، أنا أعرف عمـــر وذبّه عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأني به قد جاء وشكا اليه ما فعلنـا ، فأرسل في آثارنا ، وقال لرسوله : إن لم تلحقهما الا بمكة ، فارددهما عليّ ... فأربح بنا ترك العناء ، وأقم بنا مكاننا ، فإن كان الذي ظننت فالرجوع من الروحاء أسهـل منـــه من أبعد منهـــا ، وان أخطأ ظــني ، فذلك الذي نحب . فقال ابن الزبعرى : نعم ما رأيت . فأقاما بالروحاء ، فما كان الا كمرّ الطائر حتى وافاهما رسول عمر ، فردّهما اليه . فدعا لهما بحسان وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله . فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما فأنشدهما ، حتى فرغ ممـا قال لهما ، فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشداك في الخلا ، وأنشدتهما في الملأ ... وقال لهما عمـــر : إن شئتما فأقيما ، وان شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : اني كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما اذ أبوا ، فاكتبوه ، واحتفظوا به . قال الراوي : فدوّنوا ذلك عندهم . قال : ولقـد أدركته والله وان الأنصار لتجدده عندها اذا خافت بلاه ..)[1] .

بل كان الرسول كما رأينا في خبر (حسان) ، وكما ذكر في أخبار أخرى يجلس وأصحابه يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أشياء من أمور الجاهلية ، وهو يسمع ويساهم معهم في الحديث ، وينشدهم شيئاً مما حفظه[2] . ولم ينه عن رواية شعر ما إلا ما كان فيه فحش ، أو إساءة أو إثارة فتنة ، أما ما شابه ذلك ، لما كان يحدثه ذلك الشعر من أثر سيء في النفوس . لقد تمثل بشعر « أميّة بن أبي الصلت » مع أنه كان من خصومه اللدّ ، وسمع النـــاس ينشدون شعره ، ولم يكره منه إلا ما كان منه في تحريض قريش بعد وقعة (بدر) على المسلمين ورثائه من قتل منهم[3] .

وقد كان (أبو بكر) ، وهو الخليفة الأول ، من حفظة الشعر الجاهلي ،

---

١ شرح ديوان حسان (ص . س . م)
٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) ، الاغاني (٧/٣ ، ١١٧) ، (١٢٩/٤) ، (٢٤٣/٨) الامالي (٢٤١/١) ، المرزباني (٢٠٣) ، الفائق للزمخشري (٥٢/٣) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) .
٣ الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، الفائق (٦٦٤/١) .

الراوين له ، المتشهدين به[1] . وكان (عمر) من العالمين بذلك الشعر الحافظين له البصيرين به[2] . وكذلك كان شأن كثير من الصحابة . لم يذكر أحد أنهم تحرجوا من روايته وانشاده ، وأنهم تهيبوا منه ، إلاّ ما ذكرته من إحجامهم عن رواية بعض منه ، وهو قليل جداً ، لأسباب ذكرتها ، وقد رووه مع ذلك ودوّنوه .

لقد حرم الإسلام أشيــاء من الجاهلية ، وأقر أشياء أخرى نص عليها في الكتاب والسنــة[3] ، ولم يرد أنه حرم أقلام الجاهلية أو الشعر الجاهلي أو النثر الجاهــلي أو أي أدب أو علم جاهلي ، ولم يصل إلى علمنا أنه أمر بهدم المباني الجاهلية وطمس معالمها ، حتى محجات الأصنام بقيت على حالها ، خـلا الأصنام والأوثان وما يتعلق بهـا من أمور مما كان من صميم الوثنية أو كانت له علاقة بإعادتها إلى الذهن مثل التصوير . ولم نسمع أنه أمر بإتلاف كتابات الجاهلية ، أو أنه نهى عن قراءتها والاستفادة منها ، أو أنه منع استعمال اللهجات الأخرى، التي كان يستعملها الجاهليون ، أو أن علماء الإسلام منعوا رواية أخبار الجاهلية، بل الذي نسمعه ونراه أن « ابن عباس » كان يستشهد بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن ، وبقية الصحابة يروونه ويحفظونه ، وأن خلفـاء بني أمية كانوا يدفعون الهدايا والجوائز لمن يروي لهم الشعر الجاهلي ، ونرى أنهم كانوا يقضون لياليهم برواية أخبار الجاهلية وحالتهم فيها، وما وقع لهم في تلك الأيام من نادر وطريف، وقد سجل ما بقي منه في الذهن في كتب الأخبار والأدب ، يوم شرع النـاس في التدوين .

وأما أنهم كانوا ينظرون الى (الأخباري) نظرة سيئة ، فيها شيء من ازدراء وعدم التقدير، فما كان ذلك لروايته أخبار الجاهلية واشتغاله بجمع تأريخها والتحدث عنها ، وما كانوا يريدون بلفظة (أخباري) راوي أخبار الجاهلية وحـدها في أي يوم من أيام التأريخ الاسلامي، وإنما كان ذلك لإغراب الاخباريين في رواية الأخبار ومبالغتهم فيها مبالغة تجافي العقل ، وسردهم الإسرائيليـات والنصرانيات والشعبيات وغير ذلك من القصص المدونة في الكتب، وكذب بعضهم كذباً يخالف

---

١ ابن سعد (٥٧/٦) ، ابو بكر الصولي ، ادب الكتاب (ص ١٩٠)
٢ الاغاني (١٩٩/٨) ، خزانة الادب : للبغدادي (٢٩٢/٢) ، العقد الفريد (٩٣/٦، وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٣/١)
٣ المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي (٣٩٣/١) .

أبسط قواعد المنطق،وما رُمي (ابن الكلبي) بالكذب أو نظر اليه نظرة ازدراء لكونه من رواة أخبار الجاهلية بل وثق في هذه الناحية وأخذ عنه دون ردّ أو اعتراض ، كما يتبين ذلك من اعتماد العلماء عليه في هذا الباب واشارتهم اليه ، وإنما ضعف في أمور أخرى هي أمور إسلامية لا علاقة لها بالجاهلية ولا صلة لها بها البتة ، مدوّنة في كتب التفسير والحديث .

ولو كان الإسلام قد حث على طمس أخبار الجاهلية أو اطفاء ذكر الأصنام والأوثان ، لما كان في وسع (ابن الكلبي) ولا غيره التحدث عنها والإشارة اليها ، ولما أخذ العلماء عنه ورووا كتبه وتوارثوا كتاب (الأصنام) ، بل القرآن نفسه حجة في ردّ هذا الزعم ، ففيه ذكر لرؤوس أصنام العرب ، وفيه مفصل حياة أهل الجاهلية ومثلهم وما كانوا يقومون به ، ولو شراً وباطلاً ، وروت كتب التفسير وكتب الحديث والسير والأخبار أوصاف بعض أصنام العرب وهيأتها وشكل محجاتها وأوقات الحج ، كما ذكرت ما أقر الإسلام من أمور كانت قائمة في الجاهلية وما حرم منها ، ولو كان الإسلام قد تعمد طمس الجاهلية والقضاء على معالمها ، لتحرج القرآن وتحرج المسلمون من الإشارة اليها ومن إحياء أسمائها وبعثها في ذاكرة الناشئين في الإسلام .

وقد تحدث (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) ، في المقالة الثالثة التي خصصها (في أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، عن (ابن الكلبي) وعن أبيه ، كما تحدث عن غيره من مشاهير العلماء من أمثال (عوانة ابن الحكم) و (ابن اسحق) صاحب السيرة ، و (أبي مخنف) و (الواقدي) و (الهيثم بن عدي) و (أبي البختري) و (المدائني) و (محمد بن حبيب) وغيرهم ممن ألف في أمور وقعت قبل الإسلام في أمور وأحداث إسلامية محضة ، وقد ضعف بعضهم ، مع أنهم لم يؤلفوا في أمور تخص الجاهلية ولا في أحداث وقعت قبل عام الفيل أو قبل الاسلام . وأطلقت عليهم لفظة (أخباري) أو (وكان اخبارياً) ، مع أنهم لم يكتبوا إلا في أخبار قريبة من الإسلام أو في أحداث إسلامية بحتة ، فلفظة (أخباري) إذنْ لم تكن قد عُلّمت بالشخص الذي تخصص برواية أخبار الجاهلية الواقعة قبل عام الفيل فقط ، بل قصد بها هؤلاء وكل من اشتغل برواية الأخبار مهما كانت صفتها وعادتها وطبيعتها، روى تاريخ ما قبل الفيل أو ما بعد الفيل الى الإسلام ، أو أخبار الإسلام .

والأخباري في عرف ذلك اليوم وقبل أن ينتشر التأليف وتتصنف المعارف ، هو من يروي الأخبار ، تمييزاً له عن الآخرين الذين اشتغلوا بالنسب ، فعرف أحدهم بـ (النسابة) ، وقيل عن أحدهم (أحد النسابين) أو (وكان ناسباً)[1] ، أو بالتفسير أو برواية الشعر وما شاكل ذلك من معارف . فهو مؤرخ ذلك الزمن اذن ، ولهذا نرى لفظة (أخبار) بمعنى تأريخ ، ورد في « الفهرست » في أثناء الحديث عن عبيد بن شرية الجرهمي ومعاوية : فسأله (أي معاوية عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم)[2] ، وورد عن (ابن دأب) وكان (عالماً بأخبار العرب وأشعارها)[3] وذكر عن (عوانة بن الحكم) انه كان (راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب)[4] . وورد عن (أبي اليقظان النسابة) أنه كان (عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب)[5]. وورد مثل ذلك عن أشخاص آخرين هم في أوائل من اشتغل بالتأريخ عند المسلمين ، يخرجنا ذكرهم هنا عن حدود هذا الموضوع[6] .

ويظهر من دراسة (الفهرست) لابن النديم والمؤلفات الأخرى ان العرب في صدر الإسلام لم يكونوا يطلقون لفظة (المؤرخ) على من يشتغل بالتأريخ، ذلك لأن التأريخ نفسه في ذلك العهد لم يكن قد تطور وبلغ الشكل الذي بلغه في أواخر أيام الأمويين وفي الدولة العباسية. بل كانوا يطلقون على المؤرخ (الأخباري) كما ذكرت ، لاشتغاله بالأخبار كائنة ما كانت أخبار ما قبل الإسلام أو أخبار الإسلام ، وكانوا يطلقون على الموضوع نفسه (الأخبار) . ولهذا نرى ان أكثرية المشتغلين بها ، أطلقوا على كتبهم : (الأخبار المتقدمة) و (أخبار الماضين) و (أخبار النبي) و (أخبار العرب) و (كتاب السير في الأخبار والأحداث) وأمثال ذلك،ولم يقولوا : (تأريخ المتقدمة) أو (تأريخ الماضين) أو (تأريخ العرب) أو (تأريخ الرسول) ، ويستعملون لفظة (سيرة)و(السير) في سير الأشخاص ، ولا سيما (سيرة الرسول) . وأما لفظة (تأريخ) ، فقد

---

١ الفهرست (ص ١٢٨) .
٢ الفهرست (ص ١٣٨) .
٣ الفهرست (ص ١٣٩) .
٤ الفهرست (ص ١٤٠) .
٥ الفهرست (ص ١٤٤) .
٦ يراجع الباب المسمى (المقالة الثالثة) : في اخبار الاخباريين والنسابين واصحاب الاحداث ... من كتاب الفهرست ، لابن النديم (ص ١٣٧) .

استعملت في عنونة بعض الكتب المؤلفة في التأريخ ، فقد كان لـ (عوانة بن الحكم) المتوفى سنة (١٤٧ هـ) كتاب اسمه (كتاب التأريـخ) كما كان له كتاب اسمه (كتاب سيرة معاوية وبني أمية)[١] . وكان للهيثم بن عدي المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) كتاب يدعى (كتاب تأريـخ العجم وبني أمية) و (كتاب تأريخ الأشراف) ، و (كتاب التأريخ على السنين)[٢] ، وكانت للمدائني المتوفى سنة (٢٢٥) للهجـرة كتاب عنوانه : (تأريخ أعمار الخلفاء) وآخـر اسمه (كتاب تأريـخ الخلفاء) وثالث اسمه (أخبار الخلفاء الكبير)[٣] ، لا أستبعـد أن يكون هو هذا الكتاب .

الا أن هذا الاطلاق لم يكن واسعاً كثير الاستعمال ، وفي استطاعتنا ذكر هذه الكتب وعدّها ، وما دامت الحال على هذا المنوال ، فليس من المعقول اطلاق لفظة (مؤرخ) و (المؤرخ) و (تأريخ) بصورة واسعة في هذا العهد، وفي جملة العهد الذي عاش فيه (ابن الكلبي) ، ما دام العرف فيه اطلاق لفظـة (أخبار) بمعنى (تأريخ) ، وانما طغت لفظة (تأريـخ) و (مؤرخ) في الأيام التي تلت هذا العهد ، ولا سيما أواخر القرن الثالث للهجرة فما بعده .

هذا من حيث استعمال لفظة (أخباري) . وأما من حيث اهمال التأريخ الجاهلي وصلة الإسلام به ، فقد ذكرت أنه لا علاقة للحديث المذكور بهدم الجاهلية أو باهمال تأريخها، وإنما الإهمال هو اهمال قديم ، يعود الى زمان طويل قبل الإسلام، فعادة قلع المباني القديمـة لاستخدام أنقاضها في مبانٍ جديدة ، والاعتـداء على الأطلال والآثار والقبور بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة الأخرى، هي عادة قديمة جداً ، ربما رافقت الإنسان منذ يوم وجوده . وهي عادة لا تزال معروفة في كثير من بلدان الشرق الأوسط حتى اليوم ، بالرغم من وجود قوانين تحرم هذا الاعتداء وتمنع هـذا التطاول . وقد كان من نتائجها تلف كثير من الآثار ، وذهاب معالمها ، فصارت نسياً منسياً . فتكبدت الآثار الجاهلية من أهل الجاهلية ، أي في الأيام السابقة للاسلام مثل ما تكبدته وتتكبده الآثار الجاهليـة والإسلامية معاً في أيام الإسلاميين حتى اليوم[٤] .

١ الفهرست (ص ١٤٠) .
٢ الفهرست (ص ١٥١ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٥٥) .
٤ راجعٍ عن فتح القبور الجاهلية للحصول على ما فيها من كنوز ، الاكليل (١٤٣/٨ فما بعدها) .

وأما موضوع إهمال الآثار وعدم توجيه عناية الحكومات نحوها ، لرعايتها وللمحافظة عليها من التعرض للسقوط والتلف والأضرار ونحو ذلك ، فإنه موضوع لم يدرك الناس أهميته إلا أخيراً ، ولم تشعر الحكومات بأنه واجب مهم من واجباتها إلا حديثاً ، ولذلك لا نستطيع أن نوجه اللوم الى القدامى لاهمالهم الآثار ولعدم اعتنائهم بالمحافظة عليها .

وكان من آثار هذا الجهل بأهمية الآثار أن أزيلت معالم أبنية وقصور، وحطمت تماثيل وكتابات، لغرض استعمالها في البناء ، وقد كان على مقربة من (سدوس) ، أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة، وأن من جملتها شاخص كالمنارة، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها ، فهدمها أهل سدوس ، لاختلاف بعض السياح من الافرنج اليها ملاحظة التداخل معهم[1]. ومثل ذلك حدث في اليمن وفي مواضع أخرى من أمكنة الآثار .

وقد هدمت قرى ومدن في الجاهلية وفي الإسلام من أجل استعمال أنقاضها في بناء أبنية جديدة . ذكر (الهمداني) حصن (ذي مرمر) ، وهو من المواضع الجاهلية المهمة ، وكذلك (شبام سخيم) (يسخم) ، وبقيا معروفين زمناً طويلاً بعده، ثم جاء أحد الأتراك واسمه (حسن باشا) فهدم حصن (ذي مرمر) لينشيء في أسفله مدينة جديدة ، أخذ معظم مواد بنائها من (شبام سخيم)[2] .

وذكر ان حكومة اليمن قامت بعد سنة (١٩٤٥ م) ببناء ثكنة لجنودها في المنطقة الشرقية من اليمن في (مأرب) على نمط الثكنة التي بناها الأتراك في صنعاء ، فهدموا أبنية جاهلية كانت لا تزال ظاهرة قائمة ، واستعملوا الحجارة الضخمة التي كانت مترامية على سطح الأرض ، وأزالوا بعض الجدر والأسوار وحيطان البيوت عند بناء تلك الثكنة ، فطمسوا بذلك بعض معالم تأريخ اليمن القديم[3] ، وأساؤوا بجهلهم هذا الى قيم الآثار اساءة لا تقدر في نظر عشاق التأريخ والباحثين في تأريخ العرب قبل الإسلام .

ويضاف الى ما تقدم عامل آخر ، هدم الآثار وقضى عليها بالجملة ،

---

١ الالوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ (ص ٢٨) .

٢ Beitrage, S., 18.

٣ Beitrage, S., 28.

وأعني به الحروب . وسوف نرى حروباً متوالية اكتسحت جميع مناطق العربية الجنوبية ، وأتت على مدنها ، اذ استعمل القادة سياسة حرق المدن والمواقع والمزارع ، وقتل السكان بالجملة فأدى ذلك الى اندثار الآثار وتشريد الناس وهربهم الى البوادي وتحول الأرضين الخصبة الى أرضين جُرد ، حتى ضاعت بذلك معالم الحضارة القديمة ، فخسرنا من جراء ذلك علماً كثيراً ، واأسفاه .

وهناك تقصير آخر لا يمكن أن ينسب الى الإسلاميين ، بل يجب عزوه الى الجاهليين فالظاهر من رجوع الصحابة الى ذاكرتهم والى ذاكرة الشَّيَبة الذين أدركوا الجاهلية في تذكر أيامها وما كانوا عليه قبل الإسلام ، ومن جلب (معاوية بن أبي سفيان) المولع بسماع الأخبار لـ (عبيد بن شرية) ليقص عليه « الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبليل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد »[1] ، ومن رجوع أهل الأخبار الى الأعراب لأخذ أخبار قبائلهم وأيامهم وأنسابهم وشعرهم وغير ذلك ، أن غالبية أهل الجاهلية لم تكن لهم كتب مدونة في تاريخهم ، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث وتسجيل ما يقع لهم في كتب وسجلات ، بل كانوا يتذاكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم ، ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظاً . ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة ، لا تستطيع أن تحمل كل ما تحمل ، ضاع الكثير من الأخبار ، بتباعد الزمن ، وبوفاة شهود الحوادث ، ولم يبق بتوالي الأيام غير القليل منها . ومن هنا كان تعليل علماء العربية ضياع أكثر الشعر الجاهلي ، فقالوا : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم كثير)[2] . واذا كان هذا ما وقع للشعر مع مكانته عندهم وسهولة بقائه في الذاكرة بالقياس الى النثر ، وتعصب القبائل لشعر شعرائها ، فهل في استطاعتنا استثناء الأخبار ، من هذا الذي يحدث للشعر ؟

---

١ الفهرست (ص ١٣٨) .
٢ المزهر (٢/٤٧٤) .

بل ما لنا وللجاهلية ، ولنراجع تأريخ الاسلام نفسه ، خذ تأريخ آباء الرسول وطفولة الرسول الى يوم مبعثه ، بل حتى بعد مبعثه ، ثم خذ سير الصحابة وما وقع في صدر الإسلام من أحداث ، ترَ أن مـا ورد من سيرة آباء الرسول وسيرة الرسول الى الهجرة ، مقتضباً بعض الاقتضاب ، وأن مـا ذكر هو من الأمور التي تحفظها الذاكرة عـادة ، وما فيما عدا ذلك مما وقع للرسول ، فغير موجود ، وترى اقتضاباً مخلاً في سيرة الصحابة ،واضطراباً في تواريخ الحوادث، واختلافاً بين الصحابة في ذلك . أما سبب ذلك فهو عـدم تعود الناس اذ ذاك تسجيل أخبار الحوادث وما يقع لهم ، وعدم وجود مسجلين مع السرايا والغزوات والفتوح يكون واجبهم تسجيل أخبارها وتدوين وقائعها ، حتى ما سجل من أمر ديوان الجند والأنساب وأمثال ذلك ، لم يكن في نسخ عديدة ، فضاع أكثره ، ولم يصل الى الأخباريين لذلك يوم شرعوا في التدوين . وإذا كان هـذا حال أخبار الاسلام ، وهي أمور على جانب خطير من الأهمية بالقياس الى المسلمين ، فهل يعقل بقاء أخبار الجاهلية كاملة الى زمن شروع الناس في التدوين في الإسلام، وقد ضاعت قبل الإسلام بزمان ؟

لقد قلت فيما سلف إن الهَمْداني وغيره ممن عنوا بأخبار اليمن ، لم يعرفوا من تأريخ اليمن القديم إلاّ القليل،ولم يعرفوا من أخبار دول اليمن القديمة شيئاً ، ولم يحفظوا من أسماء ملوكها إلا بعض الأسماء ، وقد حرف حتى هذا البعض ، أما معارفهم من معبودات أهل اليمن القديمة ، فصفر ، فلسنا نجـد في كتبهم إشارة ما الى عبادة (عشتر) ولا إلى عبادة (أنبي) و (ذات صنتم)و(نكرح) و (سين) و (حوكم) «حكم » و (هوبس) ولا الى بقية المعبودات . نعم ، أشار (الهمداني) إلى اسم إلـه من آلهة (همدان) هو (تالب) ، وكانت محجته في (ريم) (ريام) ، يقصدها الناس في ذلك الزمن للزيارة والتبرك ، ولكنـه لم يعرف أنه كان إلهاً ، بل ظن أنه ملك من ملوك همدان ، فدعاه باسم(تالب) ، وزعم أنه ابن (شهران)[1] . وجعـل (المقه) ، وهو إلـه سبأ العظيم ، المقدم عندهم على جميع الأصنام ، اسم بناء من أبنية جن سليمان . وقد بُني على مـا

---

١ الاكليـل (١٧/١٠) .

زعمـــه يأمر سليمان[1] . وتحدث عن « رئام » فقال : «أما رئام ، فإنه بيت كان متنسك ، تنسك عنده ويحج اليه . وهو في رأس جبل أقوى من بلد همدان » ، ونسبه الى (رئام بن نهفان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان)[2] . وقد ذكره (ابن اسحـــاق) و (ابن الكلبي) و (السهيلي) و (ياقوت الحمـــوي) وغيرهم أيضاً[3] وفي كل الذي ذكروه دلالة على أن ما رووه لم يكن عن مصدر مدوّن ، وإنما هو رويّ عن أفواه الرجال . وأن تلك الأفواه قد نسيت كثيراً من الأصل ، فحاولت سدّ الثُغر بالقصص المذكور .

بل نجد ما ذكره رجال هم أقدم من (ابن الكلبي) ومن (الهمداني) في الزمان ، وألصق منهما عهداً بالجاهلية مثل (ابن عباس)و(عُبَيْد بن شَرْيَة) وغيرهما ، تَرَ أن ما ذكراه عنها لا يدل على أنهما أخذا أخبارهمـــا من مورد مكتوب ومن كتب كانت موجودة ، ولا أعتقد أن (معاوية بن أبي سفيان)، وهو نفسه ، من أدرك الجاهلية ، كانت به حاجة الى (عبيد) وأمثال (عبيد) من قوّال الأساطير ، وإلى الاستماع إلى أخبارهم ، لو كان عنده شيء مدوّن عن أمر الجاهلية ، ثم إنه لو كانت عند (ابن عباس) و (عبيد) وطلاب الشعر الجاهلي والأخبار مدوّنات ، لما لجأوا الى الذاكرة والى الرواة والأعراب يلتمسون منهم الأخبار والأشعار وأمور القبائل !

إنّ جهل أهل الأخبار بأصنام أهل اليمن القديمة التي ترد أسماؤها في كتابات المسند ، وذكرهم أسماء أصنام جديدة زعموا أنها كانت معبودة عند أهـل اليمن لم يرد لها ذكر في كتابات المسند ، أشار (ابن الكلبي) وغيره إلى بعضها ، واشاراتهم الى دخول اليهودية والنصرانية الى اليمن ، والى تهود (تبّع) وهو في (يثرب) في طريقه الى اليمن ، وأخذه حبرين من أحبار يهود معـــه ، وأمره بتهديم معبد (رئام) ، بناء على اشارة الحبرين[4] ، ثم ظهور جمل وألفاظ في كتابات المسند تدل على التوحيد وعلى وقوع تغير وتطور في ديانات أهل اليمن، مثل عبادة (الرحمن) وعبادة (ذو سموي) ، أي (ذو السماء) أو (صاحب

---

1 Detlef Nielsen, Der Sab. Gott Ilmukah, S., 2, D.H. Mueller, Burgen und Schloesser, Bd., 2 S., 972.

٢ الاكليل (٨/٦٦) ، (٨/٨٢) ، (طبعة الكرملي) .

٣ الاصنام (١٢) ، الاكليل (٨/٨٢ فما بعدها) (طبعة الكرملي) .

٤ الاصنام (١٢ فما بعدها) ، البلدان (٤/٣٤٥) .

السماء)[1] : إن كل هذه الأمور وأمثالها ، هي دلائل على حدوث تغير وتطور في عقليات أهل اليمن ، أثرت في معتقداتهم فجعلتهم ينسون آلهتهم القديمة ، بل يتنكرون لها ، ويبتعدون بذلك عن ثقافتهم الوثنية القديمة ، ومثل هذا التطور والتغير لا بد أن يؤدي طبعاً الى نسيان الماضي والى الالتهاء عنه بالتطور الجديد. وقد وقع هذا قبل الإسلام بزمان .

كان لدخول اليهودية والنصرانية في اليمن وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب، دخلٌ من غير شك في إعراض القوم عن ديانتهم الوثنية وعن ثقافتهم وآدابهم. أما اليهود فقد سعوا بعد دخولهم في اليمن لتهويد ملوك اليمن وأقيالها ونشر اليهودية فيها للهيمنة على هذه الأرضين ، وأخذوا ينشرون قواعد دينهم وأمور شريعتهم بينهم ، ويذيعون قصص التوراة ، وأعاجيب سليمان وجن سليمان ، وتمكنوا من اقناع بعض حكّام اليمن بالتهود ، على نحو ما سنراه فيما بعد .

ووجدت النصرانية سبيلها الى اليمن كذلك من البحر والبر، وسعت كاليهودية لتثبيت أقدامها هناك وفي سائر أنحاء جزيرة العرب ، ووجدت من سمع دعوتها هنا وهناك ، فتنصرت قبائل ، وشايعتها بعض المقاطعات والمدن، وتعرضت الوثنية للنقد من رجال الديانتين، واقتبس من دخل في اليهودية الثقافة اليهودية، ومن دخل في النصرانية الثقافة النصرانية ، وأعرض عن ثقافته القديمة ، وفي جملتها الخط المسند ، خط الوثنية والوثنيين ، وصار عدد قرائه يتضاءل بمرور الأيام . ومن يدري ؟ فلعل رجال الدين الجدد ، صاروا يعلّمون الناس الكتابة بقلمهم الذي كانوا يكتبون به ، وهو قلم أسهل في الكتابة من المسند ، وخاصة على الورق والجلود والقراطيس. وقد يكون هذا سبباً من جملة أسباب تضاؤل عدد الكتابات المدونة في المسند ، في حقبة سأتحدث عنها فيما بعد .

وآية ذلك عثور المنقبين والسياح في مواضع من نجد وفي العروض ، وهي مواضع بعيدة عن اليمن ، على كتابات سبئية يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد وتأريخ بعضها الى ما بعده[2] ، ثم اختفاء آثار كتابات المسند من هذه

---

١ راجع النصوص :
"Zur Geschichte des Judentums im Jemen", in Alt-Orientalische Forschungen, I, 336. "A Monotheistic Himjarite Inscription", by F.V. Winnet, Glasser 399, Winckler, Asmare, I, Ryk 203, Le Muséon, LII, P., 51ff. BOASOR 83 (1941), P., 22, CIH537, 538, 539, 543, 645, Res 4109, Bose 13, RES 4069, Stambul, 7608 Res 3904

٢ The Qariya Ruin Field, Geographical Journal, June, 1949.
Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139, Philby, Two notes from Central Arabia,

المواضع في العهود المتأخرة من الجاهلية القريبة من الإسلام ، مما يبعث على الظن أن أهل الجزيرة كانوا قد استبدلوا بذلك القلم قبيل الإسلام قلماً جديداً مشتقاً من الأقلام الإرمية الشمالية ، وذلك بانتشاره بينهم على أيدي المبشرين وبالاتجار مع عرب العراق ، ولا سيما سكان الحيرة والأنبار ، وهو القلم الذي كان يكتب به أهل مكة وأهل يثرب عند ظهور الإسلام . وبذلك شارك هذا القلم الجديد في موت القلم المسند واختفائه من هذه المواضع،وبموته انقطعت صلات القوم بالثقافة العربية الجنوبية ، ثقافة القلم المسند .

ولا أستبعد أن يكون من بين رجال الدين من الديانتين أناس كانوا على قدر العلم والفهم بأمور التوراة والإنجيل وبالقصص الإسرائيلي والنصراني وعلى شيء من الالمام بالتأريخ . فقد كان من بينهم أناس هم من أصل رومي أو سرياني أو عبراني،فليس من المستبعد أن يكون لهم حظ من العلم بالأمور المذكورة أخذوه من كتبهم المكتوبة بلغاتهم ومن دراساتهم لأمور الدين . ومثل هؤلاء لا بد أن يستشهدوا في مواعظهم في (مدراشهم) أو (كنائسهم) في الأماكن التي نزلوا بها من جزيرة العرب ، بشيء من قصص التوراة والكتب اليهودية والأناجيل . ودليل ذلك أن معظم القصص الواردة عن الرسل والأنبياء وعن انتشار اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب ، مصدره أناس من أهل الكتاب ، هم من أهل يثرب ، أي من يهود المدينة ، ومن أهل اليمن ، وهو قصص على دلالته على جهل فاضح بأمور اليهودية أو النصرانية ، يدل عموماً على أنه أخذ من أصل يرجع الى أهل الكتاب،وقد غُطّي بقصص وأساطير ساذجة . وهو على بساطته وسذاجته يصلح إن صحت نسبته الى من نسب اليهم ، أن يكون موضوعاً لدراسة مهمة ، هي دراسة مقدار علم يهود جزيرة العرب ونصاراها في الجاهلية بأمور دينهم ومقدار جهلهم بأحكام اليهودية أو النصرانية في تلك الأرضين .

ونحن لا نجد في بقية جزيرة العرب تدويناً للتأريخ ، لعدم وجود حكومات منظمة كبيرة فيها ، ولسيادة النظام القبلي في أكثر أنحائها ، وإنما نجد فيها رواة يروون أخبار قبيلتهم وأمورها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى،وحوادثها وأيامها ، ورواة تخصصوا برواية الأنساب ، لما للنسب من أهمية في المجتمع القبلي ، ونجد جماعات تحفظ الشعر وما شاكل ذلك من أمور تخص القبيلة والنظام القبلي ، وكل ذلك رواية ، أي مشافهة ، لا كتابة . ومثل هذا النوع من التوريخ الشفوي

معرض كما قلت سابقـاً لآفات عديدة ، أهمها تحكم العواطف القبلية على الرواة وتعرض الخبر للنسيان كلما تقدم العهد به في الذاكرة ، وكلما ابتعد به الزمن ، اذ تقل حماسة الناس له،ويضعف تأثيره في العواطف ، وتفتر عندئذ همم الرواة عن حفظه وبذلك يتعرض للموت والاندثار ، ومن هنا اندثرت وضاعت أخبار الجاهلية البعيدة عن الإسلام . أما الجاهلية القريبة من الإسلام ، فقد بقي منها ما يشبه ذكريات الطفولة ، خلا الأمور التي عاصرت ظهوره ، فقد أدركهـا الصحابة ، فكان في امكانهم تذكرهـا وروايتها ، وانتقلت منهم الى من جاء بعدهم حتى وصلت الى المدونين .

ما ذكرته هو أهم أسباب إهمال التأريخ الجاهلي ، فجاء ذلك التأريخ لذلك ناقصاً فجاً على نحو ما نقرأه في المؤلفات العربية القديمة . أما تدوينه مجدداً ، واعادة كتابتـه وتنظيمه وتنسيقه وسد الفجوات الواسعة فيه ، فقـد تم على هذا النحو :

تدوين التأريخ الجاهلي :

للمستشرقين مجهود يقـدر في تدوين التأريخ الجاهلي وفي كتابتـه بأسلوب حديث ، يعتمد على المقابلات والمطابقات ونقد الروايات والاستفادة من الموارد العربية والأعجمية . وقد أفادوا مما جـاء عن العرب في التوراة وفي التلمود وفي الكتب اليهودية ، كما أفادوا مما جاء عن جزيرة العرب وسكانهـا في الكتابات الآشورية والبابلية ومن الموارد (الكلاسيكية) والمؤلفات النصرانية سريانية ويونانية ولاتينية ، فأضافوا كل ما تمكنوا الحصول عليه في هذا البـاب الى ما ورد في الموارد الإسلامية عن الجاهليين ، فصحّحوا وقوّموا ، وسدّوا بهذه المواد بعض الثلم في التاريـخ الجاهلي .

وعملهم في بعث الكتابات الجاهلية ونشرها ، مشكور مقدر ، فقد أعادوا الى الخط الذي كتبت به الحياة ، وجعلوه مقروءاً معروفاً ، وترجموا كثـيراً من هذه النصوص الى لغاتهم ، وهي وثائق من الدرجـة الأولى ، وعملوا على نشر النصوص بالمسند وبالحروف اللاتينية أو العبرانية أو العربية في بعض الأحيـان ، وعلى استخلاص ما جاء فيها من أمور متنوعة عن التأريخ العربي قبل الإسلام .

وقد أمكننا بفضل هذا المجهود المضني الحصول على أخبار دول وأقوام عربية لم يرد لها ذكر في الموارد الإسلامية،لأن أخبار تلك الدول وأولئك الأقوام كانت قد انقطعت وطمست قبل الإسلام ، فلم تبلغ أهل الأخبار .

وقد ساعدهم في شرح الكتابات الجاهلية وتفسيرها علمهم بلغات عديدة ، مثل اللغة العبرانية والسريانية والبابلية ، فإن في هذه اللغات ألفاظاً ترد في تلك الكتابات بحكم تقاربها واشتراكها في هذه الثقافة المتقاربة التي نسميها (الرابطة السامية) ، كما أن فيها أفكاراً وآراء ترد عند المتكلمين بهذه اللغات ، ولهذا صار في الامكان فهم ما ورد في الكتابات الجاهلية بالاستعانة بتلك الأفكار والآراء .

وقد كان للسياح الذين جابوا مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ولا سيما المنطقة الغربية والجنوبية منها ، فضل كبير في بعث الحياة في الكتابات الجاهلية . فقد أخذ أولئك السياح بعض كتابات ، كما أخذوا صور بعض آخر ، وبفضل تعاونهم مع العلماء المبحرين باللغات الشرقية أمكن حل رموزها وبعث الحياة فيها بعد موت طويل .

وقد كانت اسفار أولئك السياح مغامرات ومجازفات ،إذ تعرضت حياة أكثرهم للخطر ، بسبب عدم استقرار الأمن اذ ذاك ، وبسبب سوء الأوضاع الصحية ، ولعدم وجود أماكن مريحة ، تناسب حياتهم التي تعوّدوها ، إلا أنهم لم يبالوا ذلك ولم يحفلوا به ، وتحايلوا بمختلف الحيل للتغلب على تلك الصعوبات ولكسب ودّ رؤساء القبائل والحكام لتسهيل مهمتهم . وقد قضى نفر منهم نحبه في أسفاره هذه . وقد كانت أكثر أسفار هؤلاء الروّاد أسفاراً فردية قام بها أفراد من العلماء ومن الضباط والمغامرين . والأسفار الفردية، مهما كانت ، لا تأتي بالنتائج التي تنجم عن دراسات البعثات المتخصصة بمختلف الشؤون ، لذلك نتطلع الى اليوم الذي تتمكن فيه البعثات العلمية الكبيرة من اختراق آفاق بلاد العرب،وتقديم نتائج بحوثها الى العلماء لتدوين تأريخ مرتب لجزيرة العرب قبل الإسلام ، ولا سيما الى البعثات العلمية العصرية التي تتألف من متخصصين من الناطقين بلغة هذه البلاد ، لأن هؤلاء أقدر من غيرهم على فهم اللهجات القديمة ومحتوياتها وروح ذلك التأريخ .

ونستطيع أن نعدّ السائح الدانماركي (كارستن نيبور) Carsten Niebuhr الذي

قام في سنة ١٧٦١ للميلاد برحلة الى جزيرة العرب ، أول رائد من روّاد الغرب ظهر في القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت أنظار العلماء الى المسند والرقم العربية[١] . وقد أثارت رحلته هذه همم العلماء والسياح ، فرحل من بعده عدد منهم لا يتسع المقام لذكرهم جميعاً رحلات إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب عادت على التأريخ العربي بفوائد جزيلة .

فزار الدكتور (سيتزن) Dr. Seetzen جنوبي بلاد العرب ، وتمكن من نقش صور نصوص عربية جنوبية أرسلها الى أوروبة عام ١٨١٠ م وهذه النصوص على قصرها وغلطها ، أفادت في تدوين تأريخ العرب قبل الإسلام افادة غير مباشرة ، لأنها لفتت أنظار المستشرقين اليها والى دراسة التأريخ العربي القديم ، حتى آل الأمر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها[٢] .

وتمكن الرحالة السويسري (ليدويك بركهارد) Johann Ludwig Burckhard من القيام برحلة الى الحجاز ، فتزيا بزي مسلم اسمه (ابراهيم بن عبد الله) يريد الحج وزيارة مسجد الرسول وقبره . وقد صحب الحجاج في حجهم ، ووصف موسم الحج وصفاً دقيقاً ، وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية . وقد زار آثار الأنباط وعاصمتهم (البتراء)[٣] .

---

١ Carsten Niebur, Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Laendern, Kopenhagen, 1772-1837, in 2 Bande.

وهناك طبعة فرنسية وترجمة انكليزية ،

Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenhagen, 1773, Voyage en Arabie, Amsterdam, 1774-80, R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell University Press, 1954, P., 241.

٢ Pfannmueller, S., 85, Seetzen, Travels in Yemen, 1810, Hommel, Explorations in Arabia, in Hilprecht, Explorations in Bible Land, P., 702, Seetzen, Fundgruben des Orients, Vienna, 1811,

نشر مذكرات (Seetzen) التي ارسلها الى اوربة المستشرقون (Fleischer) و (Kruse) و (Heinrich Mueller) في اربع مجلدات :

Reisen durch Syrien, Palaestina, Phoenizien, die Transjordan-Lander, Arabia Petraea und Unter-Aegypten.

٣ Johann Ludwig Burckhardt, Travels in Arabia, London, 1829, Deutsch, Weimar, 1830, Burckhardt, Travels in Syria and Holy Land, London, 1822, Notes on the Bedouins and Wahabys, 2Vols., London, 1830, in German, Weimar, 1831, S. M. Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, London, Explorations, P., 703.

وتمكن ضابط انكليزي يدعى James R. Wellsted من زيارة الأنحاء الجنوبية من جزيرة العرب ، ومن الظفر بصور نصوص عربية قديمة قصيرة،ومن استنساخ كتابة حصن (غراب) التي يرجع تأريخها الى سنة (٦٤٠) من تأريخ أهل اليمن ، وتوافق سنة ٥٢٥ للميلاد . وبفضل هذا الضابط عرف المستشرقون هذا النص[١] .

وأضاف الرحالة (هوتن) T.G. Hutton عدداً آخر من الكتابات الجاهلية سنة ١٨٣٥ الى ما كان قد عرف سابقاً . وجاء (كروتندن) Cruthenden سنة ١٨٣٨ م بنقوش أخرى جديدة . وكذلك (الدكتور مكل) Dr. Mackell الذي عاد بخمسة نصوص سبئية ، فتوسعت بذلك دوائر البحث قليلاً ، وتمكن العلماء بفضل هذه النقوش من حل رموز المسند[٢] .

وقد قام الصيدلي الفرنسي (توماس يوسف أرنو) (Thomas Joseph Arnaud) برحلة الى اليمن ، كانت موفقة جداً ، اذ تمكن بفضل علمه بالعقاقير ، من اكتساب صداقة المشايخ والزعماء . وبهذه الصداقة استطاع أن يتجول في بعض أنحاء اليمن ومدنها ، ولم يكن ذلك أمراً ميسوراً للغرباء ، فزار الجوف ووقف على خرائب (مأرب) ، ومكث في مدينة (صنعاء) أمداً ، وزار (صرواح) المدينة الأثرية القديمة ، واستنسخ ستة وخمسين نصاً كتابياً قديماً[٣] .

وكتب التوفيق لسائح أوروبي آخر ، هو الضابط الانكليزي (Coghlan) ، فحصل في سنة ١٨٦٠ م على عشرين لوحاً برنزياً سليماً عثر عليهــا في أنقاض مدينة (عمران)[٤] . وقد أرشدت هذه الألواح المعدنية المستشرقين الى ناحية مهمة

---

١ Otto Weber, Arabien vor dem Islam, S., 10, Wellsted, Travels in Arabia, London, 1838, in 2 Vols., Narrative of a Journey to the Ruins of Nakeb el Hajar, in Journal Royal Geogr. Soc., VII, 20, in German, Halle, 1842, by Rodiger, Saenger, The Arabian Peninsula, p., 221, 241.

٢ Cruttenden C. J. Journy. of an Excursion to San'a the Capital of Yemen, Bombay, 1838, Journal of the Royal Geographical Society of London, Vol., III, 276-289, and in the Proceedings of the Bombay Geographical Society, 1838, PP., 39-55.

٣ Otto Weber, S., 10, Pfannmüeller, S., 85, Hommel, Explorations, P., 704 Arnaud Relation d'un Voyage a Mareb, in Journal Asiatique, 1845, 211, 309, 1874, 3.

٤ (عمران) ، الاكليل (١٣/٨ ، ١٠٦ ، ١١٠) .

من نواحي الفن العربي القديم[1] .

وتوصل العلماء ، بعد جهود ، الى حل رموز هذه الكتابة العربية ، فعرفوا منها — وكان أغلبها قصيراً — انها تبحث في موضوعات متشابهة ، وانها مؤلفة من حروف أطلقوا عليها اسم (الكتابة الحميرية) أو(الحروف الحميرية). وكان الرأي السائد باديء بدء انها كذلك ، حتى تبين لهم ان هذه النصوص والنصوص التي جيء بها أخيراً لم تكن جميعها نصوصاً حميرية،بل كان بعضها من النصوص المعينية ، وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبأ ، وبعضها بلهجات أخرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف . وهذه الكتابة،هي الكتابة المسماة بـ (خط المسند) وبـ (القلم المسند) وبـ (المسند) في الموارد العربية .

عالج بعض العلماء،ممن أولعوا بدراسة النقوش،تلك النصوص ، وأعملوا رأيهم فيها حتى تمكن بعضهم من التوصل الى حلّ رموز بعضها ، مثل العالم (وليم كسنيوس) (Wilhelm Gisenuis) والعالم (رودكر) (E. Rodiger) والعالم (هاينرش ايوالد) (Heinrich Ewald) والعالم (فريسنل) (F. Fresnel) الذي نشر النصوص التي جاء بها ، وعددها ستة وخمسون نصاً بحروف عربية وحميرية ، في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) سنة ١٨٤٥ م ، إلاّ أن نشره لم يكن متقناً اتقاناً تاماً.وجاء القسيس(أرنست أوسيندر)(Ernest Osiander) فأتم ما كان قد بديء به[2] . ولم يتمكن العلماء الذين عالجوا مشكلة الكتابة العربية الجنوبية من معرفة الحروف كلها ، ولذلك لم يستطيعوا قراءة أكثر النصوص التي جيء بها الى أوروبة وفهم معناها ، كما ان النصوص المقروءة لم تكن مضبوطة ضبطاً تاماً ، فاستطاع هذا العالم بجهوده العظيمة قراءة كل النصوص التي جاء بها السياح والعلماء ، وتعيين أشكال الحروف ، ووضع أسس متينة لدراسة عرفت بعد ذلك باسم (الدراسة العربية الجنوبية) وقد استعان العلماء على فهم هذه الكتابات بالدراسات اللغوية السامية مثل العبرانية ، وباللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وباللهجات اليمانية ، وبالمعلومات الجغرافية المدوّنة في الكتب

---

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmuller, S., 85, Fulgence Fresnel, in Journal Asiatique, 111, Series, V, 521, 1838, Lettres Sur Hist. des Arabes Avant l'Islamisme, 1853, Fresnel, Recherches sur les Inscriptions Himyariques de San'a, Kha'riba Marib in, Journal Asiatique, IV, Serie, Tom, 6, P., 169-1845.

العربية ، وبأسماء الملوك والأشخاص الذين وردت أسماؤهم في المؤلفات العربية[١] .

وترسم المستشرق (ليفي) (M. A. Levy) أثر (اوسيندر) ، وتتبع أسلوبه في البحث،وحاول استخراج مادة تأريخية من هذه النصوص التي ترجمت وعرفت. وقد تمكن من نشر ما تركه (أسيندر) من نصوص عاجلته المنية قبل أن يوفق لاخراجها الى الناس ، فتمكن (ليفي) من تنسيقها وتهذيبها ، وطبعها وعرضها على العلماء[٢] .

وفاق (يوسف هاليفي) (Joseph Halévy) ، وهـو يهودي فرنسي ، كل من تقدمه بكثرة ما جاء به الى أوروبة من نقوش ، وبسعة علمه في تأريخ اليمن ، وبدراسة الكتابات العربية الجنوبية . دخل هذا الفرنسي اليمن في هيئة يهودي متسول من أهل القدس ، ليتجنب بذلك ما يتعرض له الغرباء وأهـل البلاد المسلمون على السواء من أخطار رجال القبائل وقطّاع الطرق الذين لا يمسّون أهل الذمة بسوء .

وقد استطاع ، بهذه الطريقة ، التطواف في أرجاء اليمن ، حتى بلغ أعاليها مثل (نجران) ، وأعالي الجوف وهي المنطقة التي كان فيهـا (المعينيون) . ووصل في تطوافه الى حدود (مأرب) عاصمة سبأ والى (صرواح) ، وهو بهذا أول أوروبي زار (نجران)[٣] . ولما عاد الى أوروبة ، أحضر معه (٦٨٦) نقشاً جمعها من مواضع مختلفة من اليمن .

وفي سنـة ١٨٧٢ — ١٨٧٤ م نشر هـذا العـالم في الجريـدة الآسيويـة (Journal Asiatique) ما كتبه في وصف رحلته الى بلاد اليمن ، وقد ضمن كتاباته وصفاً للأماكن التي حل بها والطرق التي اجتازها ، وترجمة لـ (٦٨٦) نصاً ، وهي النصوص التي كان قد جاء بها أو استنسخها من أصولها ، ونشر بحثاً علمياً وانتقاداً قيّماً للأبحاث اللغوية والتراجم والنصوص التي سبق أن نشرها العلماء من قبله[٤] .

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmueller, S., 85.

٣ Halévy, in, Bulletin de la Société de Géographie, 1873, et 1877, Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asiatique, Series O, Vol., XIX, Joseph Halévy, in Journal Asiatique, 1874, Pfannmueller, S., 86, Explorations, P., 709.

٤ Pfannmueller, S., 85.

وكان ممن ذهب الى اليمن شاب نمساوي اسمه (سيكفريد لنكر) (Siegfrid Langer) ، وقد استطاع تصوير بعض النقوش واستنساخ قسم من الكتابات في عام ١٨٨٢ م . غير أن القدر عاجله اذ قتل هناك ، ففقد البحث في تأريخ اليمن بوفاته عضواً نشيطاً . غير أن نمساوياً آخر عوّض عن خسارة ذلك الشاب ، وهو العالم (ادورد كلاسر) (Eduard Glaser) . وقد قام بأربع رحلات الى اليمن، ورجع بعدد كبير من النصوص والنقوش وبمادة غزيرة من المعلومات[١] .

بدأ الرحلة الأولى (في اكتوبر من سنة ١٨٨٢ م) ، وختمها في شهر آذار (مارس) من سنة ١٨٨٤ م ، وكانت الحالة السياسية في ذلك الزمن مضطربة، والأوضاع غير مساعدة ، والفوضى عامة في بلاد اليمن ، ولم يكن للحكومة على القبائل من سلطان . ومع ذلك تمكن من الحصول على (٢٥٠) نقشاً رجع بها الى أوروبة . أما الرحلة الثانية ، فكانت في نيسان سنة ١٨٨٥ م ودامت حتى فبراير سنة ١٨٨٦ ، وقد زار في أثنائها المناطق الجنوبية الشرقية والمنطقة الجنوبية الممتدة من جنوب (صنعاء) حتى مدينة (عدن) . وقد تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبغرافية البلاد وأماكنها الأثرية ، وعاد بنصوص معينة مهمة دخلت في ممتلكات المتحف البريطاني[٢] .

وقام بالرحلة الثالثة في سنة ١٨٨٧ م ، ومكث في اليمن الى سنة ١٨٨٨ م ، وكانت رحلته هذه موفقة جداً ، اذ حصل على آثار ونقوش كتابية كانت على جانب عظيم من الأهمية ، منها أربعمئة نص أخذها من مدينة (مأرب) عاصمة (سبأ) ، ومن هذه النصوص نصان عن تصدع سدّ مأرب يرجع عهدهما الى زمن قريب من ميلاد الرسول ، ونصوص أخرى من مدينة (صرواح) يرجع عهدها الى العصر السبئي ، وهي ذات أهمية كبيرة في تدوين تأريخ بلاد العرب الجنوبية[٣] .

وكانت رحلته الرابعة ، وهي الأخيرة ، في سنة ١٨٩٢ م ، وكانت موفقة

---

١ O'leary, P., 221, Explorations, P., 722, Pfannmueller, P., 83, Weber S. 11

٢ Weber, S., 11.

٣ Explorations, P., 721, Mitheilungen der Vorder-Asiatischen Gesellschaft, Berlin, Beilage der Allgemeinen Zeitung, 1888, Nos, 293, f., Eduard Glaser, Reise nach Ma'rib.

جداً كذلك . اتبع فيهـا أسلوباً جديداً في الحصول على صور النصوص ، اذ استعان بالأعراب الذين فرقهم في مختلف الجهات التي لم يسبقه أحد من الأوروبيين الى زيارتها، بعد أن علمهم مختلف الطرق في الحصول على تلك النصوص بطريق الورق الذي يتأثر بالضوء وبطريقة القوالب الجبسية وبطرق أخرى . وقـد تمكن بهذا الأسلوب الجديد من الظفر بصور مضبوطة بعض الضبط للكتابات القديمة التي لم يكن بوسعه الذهاب الى أماكنها واستنساخها بنفسه، وبها أيضاً تمكن من تصحيح أغلاط الصور التي أخذها (هاليفي) عن النقوش الأصلية ، ومن الحصول على زهاء مئة نص قتباني أخذها من منطقة خرائب (مأرب). وفي متحف (فينا) قسم من الأحجار المكتوبة التي كان هـذا العالم قد جلبها معه في المرة الأخيرة إلى أوروبة[١] .

وقد زار المستشرق (جورج أغسطس والين George Augustus Wallin) سنة ١٨٤٥ م نجداً ودوّن رحلتـه اليها[٢] . وزار الحجاز المستشرق الهولندي الشهير (سنوك هرغونيه Snouk Hurgtonje) ، فكتب في أحوال مكة ووصف الحياة في الحجاز وموسم الحج . وكان قد ذهب اليه سنة ١٨٨٥ – ١٨٨٦ م وهو من العلماء المدققين[٣] .

وقد زار الحجاز (السير ريشارد برتن) (Sir Richard Burton) متنكراً بزي مسلم سمّى نفسه (عبدالله) زار الحرمين وكتب وصف رحلته هذه[٤] .

وتوغلت (حنة بلنت) (Anne Blunt) سنة ١٨٧٩ م في شمال بلاد العرب حتى بلغت أرض نجد ، وكانت مولعة بدراسة أحوال الخيول العربية[٥] . واخترق الرحالة الانكليزي (تشارلس دوتي) (Charlis M. Doughty) الصحارى العربية وشمال بلاد العرب ، ووضع كتاباً مهماً وصف فيه أسفاره في بلاد العرب

---

١ Weber, S., 12, Pfannmueller, S., 86.

٢ Ency. Brita., Vol., 2, P., 171, Explorations, P., 705.,

٣ Ency. Brita., Vol., 2, P., 170, Mekka, den Haag, 1888, Explorations, P. 720.

٤ Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medina and Meccah, London, 1857, in two Vols.

٥ Lady Anne Blunt, A Pilgrimage to Najd, 2 Vols, London, 1883, The Bedouins of the Euphrates, London, 1879.

الصحراوية[1] . وقد اهتم خاصة بدراسة النواحي (الجيولوجية) والجغرافيـة للبلاد العربية ، ودوّن ملاحظاته عن الظواهر الجوّية وتغيرات الجو ولم يغفل عن دراسة طبائع البدو وحياتهم الاجتماعية وطرق تفكيرهم وعقائدهم . وقد طبع كتابه ، في سنة ١٨٨٨ ، وترجم الى بعض اللغات الأوروبية لأهميته[2] .

ويعد هذا الرحالة من المتعصبين على الإسلام ، وقد يكون لهذا التعصب سبب ، فقد لاقى من الأعراب وأهل المدن شيئاً كثيراً أثر في نفسه ، فصار يتحامـل على المسلمين ويقسو في حكمه على الرسول ، إلا أنه لم يتمكن مع ذلك من الغض من قيمة المبادىء الأخلاقية التي يتحلى بها . ومما لاحظه على البدو ، عدم اهتمامهم بعبادتهم كالصلوات الخمس والصوم ، كما لاحظ من جهـة أخرى ان الخوف من وجود إلـه يكاد يكون أعمق أثراً في نفوس هؤلاء من الحضر . ولاحظ أيضاً أن جذور الوثنية القديمة لا تزال راسخـة حتى الآن في نفوس الأعراب وأكثر سكان القرى والمدن ، وقد أظهر هذا الرحالة ميلاً عظيماً لدراسة حيـاة البدو وطرق معيشتهم ، وهو يتشوق الى الصحراء ويحن اليها حنين البـدو ، ويتجلى ذلك العطف في رحلته التي تعد من روائع الأدب الانكليزي[3] .

ورحل (ثيودور بنت) (Theodore Bent) وزوجته الى البحرين وجنوب الجزيرة العربية فزارا الأمـاكن الأثرية ، وتحدثا عن بعض الخرائب الجاهليـة والكتابات . وكانت زيارتهما للبحرين سنـة ١٨٨٩ م . أما زيارتهما لمسقط وعمان وحضرموت ، فكانت في هذه السنة ثم في سنين بعدها[4] .

وتزيا الرحالة الألماني (هاينرش فون مالتزن) (Heinrich von Maltzen) بزي حاج مغربي ، وكان قد زار المغرب وتعلم لهجة سكانه ، وذهب إلى الحجاز وتظاهر هناك بأنه منهم ، وبعد عودته من الحج وضع رحلته[5] .

---

١ Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 1888, in 2 Vols.

٢ Charlis M. Doughty, Die Offenbarung Arabiens, Paul List Verlag, Leipzig, 1937.

٣ Passage from Arabia Deserta, Selected by, Edward Garnett, London, 1949, Pfannmueller, S., 54.

٤ Th. Bent and Mrs Bent, Southern Arabia Sudan and Socotra, London, 1900.

٥ von Maltzen, Meine Wallfart nach Mekka, Leipzig, 1865, Bd., 1, 2," bearbeitet von F. Gansberg, Braunschweig, 1919, Reise in Arabien, Braunschweig, 1873, Bd., 1, 2, Arabica, Parts 4 und 5, Leiden, 1896-1898.

ومن الجوابين العلماء (يوليوس أويتنك Julius Euting) ، وقد اهتم خاصة بدراسة أحوال البدو ، وكتب في الوهابيين والحركة الوهابية[1] .

ومنهم الرحالة الجيكوسلوفاكي الأصل (ألويس موسل) (Alois Musil) ، زار (العربية الحجرية) وكتب عدة كتب في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الأوسط وتدمر ونجد ، ووضع في نهاية كل كتاب من كتبه فصولاً علمية قيّمة فيها تحقيق تأريخي جليل[2] . وثمة جوابون آخرون لا بد من ذكرهم مثل (جوسن) (Antonine Jaussen)[3] و (برونوف) (R. E. Brünnow)[4] و(شارلس هوبر) (Charles Huber)[5] و (وبرترام توماس) الشاب الانكليزي المستشرق الذي استطاع في شباط سنة ١٩٢٩ م أن يخترق لأول مرة (الربع الخالي) فكشف بذلك بقعة من أكبر البقاع المجهولة في بلاد العرب[6] . ويضارعه في مخاطراته هذه (فلبي) الذي أسلم فأطلق على نفسه (الحاج عبدالله فلبي) . وقد ألّف هذا الانكليزي المستعرب عدة كتب بالانكليزية وصف فيها أسفاره في بلاد العرب ، وقد تهيأ له من الفرص ما لم يتهيأ لأوروبي آخر ، اذ كان من الملازمين للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود والمقربين اليه . وقد مكث الرحالة الألماني (راتجن) (C. Rathjens) بضع سنين في اليمن وكتب عنها ، وجلب معه عدة كتابات يمانية قديمة الى ألمانيا وضعت في (متحف الشعوب) في مدينة (هامبرغ)[7] .

---

١ Julius Euting, Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien, Leiden, 1896-1914, Bd., I.

٢ The Northern Hegas, New York, 1926, Arabia Deserta, New York, 1927, Palmyrena, New York, 1928, Northern Negd, New York, 1928, The Middle Euphrates, New York, 1927, In the Arabian Desert, New York, 1930.

٣ Antonine Jausen, Countems des Arabes au Pays de Moab, Paris, 1908, Pfannmueller, S., 29, Hitti, P. 7.

R.E. Bruennow und A.V. D omaszewski, Die Provincia Arabia, Strassburg, 1904-1909, 3 Baende.

٤ Charles Huber, Voyage dans l'Arabie Centrale, Paris, 1885, Journal d'un Voyage en Arabie, (1883-1884, Paris, 1891.

٥ Arabia Felix, Across The Empty Quarter of Arabia, New York, 1932.

٦ The Empty Quarter, 1988, The Background of Islam, 1947, وكتب كتبا اخرى

٧ C. Rathjens und H. von Wissmann, Suedarabien-Reise, 3 Bd., Hamburg, 1934, Rathjens und von Wissmann, "Sanaa, Eine Stuedarabische Stadtlandschaft" in, Zeitschrift der Gesellsch. f. Erdk. zu Berlin, Nos., 9-10, S., 329. ff.

وقامت بعثة أمريكيــة عرفت بـ (المؤسسة الأمريكيــة لدراسة الانسان) (The American Foundation for the Study of Man) برئاسة (وندل فيلبس) (Wendell Phillips) ، وضمت بعض العلماء الواقفين على تأريخ اليمن القديم مثل (البرايت) (Dr. W. F. Albright) أستاذ الآثار في جامعة (جون هوبكنس) بالولايات المتحدة ، وآخرين في مختلف الموضوعات وذلك ما بين سنتي ١٩٥٠ — ١٩٥٢ م بأعمال الحفر في منطقة (عدن) واليمن . وبالرغم من النهاية المحزنة التي انتهت أعمال البعثة اليها ، فقد تمكنت من الحصول على نتائج حسنة جديدة لم تكن معروفة عن تأريخ مملكة قتبان وسبأ ، وعادت ببعض الآثار[١] .

وكانت في جملة ما درسته هذه البعثة نظم الري في مملكة (قتبان) . ودراسة موضع (هجر بن حميد) ، حيث عثرت على فخار ومواد أخرى يعود عهدها، كما يرى خبراء البعثة الى ألفي سنة . ودراسة أخرى لمدينة (تمنه) عاصمة (قتبان) ولمعبدها الشهير ولبقايا مقبرتها ، وعثرت على كتابات جديدة ، وقدّرت سقوط تلك العاصمة وخرابها بسنة (٢٥) قبل الميلاد[٢] .

وقامت هذه البعثة في سنة (١٩٥٢) و (١٩٥٣) للميلاد بأعمال الحفر في (ظفار) بعمان . ثم عادت فنقبت في هذه المنطقة في ابتداء سنة (١٩٦٠)م ، حيث كشفت عن بعض الخفايا من تأريخ هذه المنطقة التابعة لسلطنة عمان[٣] .

وقامت في سنة (١٩٦٢)م بعثة أمريكية من المستشرقين الأميركان ، لا علاقة لها بالبعثة المتقدمة بزيارة مواضع من المملكة العربية السعودية ، فزارت (سكاكة) « سككه » والجوف وتيماء ومدائن صالح والعلا وتبوك ، وظفرت بـنماذج من فخار قديم ، ونقلت صوراً لكتابات ثمودية ونبطية ، أهمها الكتابات التي وجدتها في قمة (جبل غنيم) الذي يقع على مسافة ثمانية أميال من جنوب (تيماء) .

---

١ وقد ترجم كتاب (وندل فليبس) ونشر بعنوان : (كنوز مدينة بلقيس) ترجمة (عمر الديراوي) سنة ١٩٦١ ، وفي الكتاب ، ويا للاسف أغلاط كثيرة في تدوين الاعلام ، زيد بن علي عنان : تأريخ اليمن القديم (وقد اولاني ثقته — حفظه الله — حين ارسلني مشرفا على اعمال الحفر بمأرب الذي قامت به البعثة الاميركية المشؤومة برئاسة وندل فيليبس ، ذلك اللص النصاب الذي جنى على دعائم محرم بلقيس .... الخ) ، المقدمة ،
Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241.

٢ Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241. f.

٣ BASOR., Num. 159, (1960), PP., 14.

وهي ، كما تقول البعثة ، من أقدم الكتابات التي عثر عليها حتى الآن في العربية الشمالية . وكان (فلبي) قد استنسخها بيده ، وتبين بعد مقارنة ما استنسخه فلبي بالصور (الفوتوغرافية) التي أخذتها البعثة أن في نقل (فلبي) أوهاماً عديدة . وفي جملة ما عثرت عليه البعثة صور نحتت على أحجار تمثل آلهة عربية قديمة[1] .

وهناك طائفة أخرى من المستشرقين خدمت التأريخ العربي قبل الإسلام خدمة جليلة مهمة ، هي طائفة أساتذة الجامعات وأصحاب التتبع والبحوث ، استفادت من بحوث السياح ومن الموارد المذكورة التي تحدثت عنها عن مصادر التأريخ الجاهلي ، ثم غربلتها ونقدتها وألفت منها مادة جديدة لتأريخ الجاهلية . ومن هؤلاء المستشرق : (بركر) (Berger) مؤلف كتاب (جزيرة العرب قبل محمد في الآثار (L'Arabie Avant Mahomet d'après les Inscriptions), Paris 1885.) ، والمستشرق (كوسان دي برسفال) العلامة الفرنسي صاحب كتاب (تأريخ العرب قبل الإسلام) (Essai sur l'Histoire des Arabes Avant l'Islamisme)[2] وهو من الكتب المفيدة . وقد جاء صاحبه بنتائج مهمة وبآراء صائبة في بعض الموضوعات ، غير أن الكتاب أصبح قديماً ، وفيه نواقص كثيرة ، وهو لا يتفق اليوم مع أساليب البحث الحديثة . وقد اعتمد مؤلفه على المصادر العربية ولا سيما كتاب (الأغاني) وعلى مصادر أخرى كانت معروفة في ذلك الوقت ، غير أنه لم يتمكن من الوصول الى مصادر كثيرة أخرى مهمة ، لأنها لم تكن في متناول يده في ذلك العهد .

وللمستشرق الايطالي (كيتاني) (L. Caetani) بحث جيد في تأريخ العرب قبل الإسلام ، جعله مقدمة لتأريخ الإسلام[3] . وهو على جهده في محاولة التعمق في فهم تأريخ الجاهلية والإسلام ، لا يخلو من هفوات ومن تغلب العاطفة عليه ، ولا سيا في القسم الخاص بتأريخ الإسلام .

وممن كتب في حياة العرب قبل الإسلام المستشرق (أوليري Delacy O'Leary) ،

---

١ BASOR., Num 168, 1962, P., 9.

٢ Paris, 1847-1848, Reprinted, 1902, in 3 Vols.

٣ Annali Dell'Islam, by Leone Caetani, Principe di Teano, Vol., I, Milano, 1905, Studi di Storia Orientale, Milano, 1911.

صاحب كتاب (البلاد العربية قبل محمد)[١] . وقد تحدث فيه عن صلات العرب بالمصريين فالآشوريين الى زمن ظهور الإسلام ، وهو لا يخلو أيضاً من هفوات . وقد صار قديماً . والمستشرق (تشارلس فورستر) (Charles Forster) ، وله كتاب مفيد (وان أصبح قديماً جداً) في تأريخ بلاد العرب القديمة وجغرافيتها ويستند في أكثر أبحاثه كأغلب معاصريه الى نظريات التوراة[٢] .

وقد كتب المستشرق الألماني (أوتو ويبر) (Otto Weber) رسالة صغيرة في حالة العرب قبل الإسلام[٣] .

وقد كتب المستشرقون الذين عنوا بالسيرة النبوية وبالتأريخ الإسلامي عامة فصولاً تمهيدية في حالة العرب قبل الإسلام ، تعرضوا فيها لمختلف النواحي التأريخية ، وهي مفيدة للاطلاع على أحوال الجاهلية .

وهناك من كتب في موضوع خاص من التأريخ الجاهلي كالمستشرق (رينه دوسو) ، فقد وضع كتاباً في (العرب في الشام قبل الإسلام)[٤] . والمستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) ، وله كتاب في (تأريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين)[٥] ، وكتاب آخر في (أمراء غسان)[٦] .

وللمستشرق (روتشتاين) (Rothstein) كتاب (تأريخ أسرة اللخميين في الحيرة)[٧] ، وهو من الكتب المهمة التي جمعت شيئاً كثيراً من أخبار هذه الأسرة. وقد استعان مؤلفه بالمصادر العربية والسريانية واليونانية ، ولا يخلو على كل حال من الضعف في بعض مواضعه .

ويضاف الى كل ذلك ما كتبه بعض المستشرقين في الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، وأهمها كتاب (بركمن) (Bergmann) في أديان العرب في الجاهلية[٨] ، والفصل الذي كتبه المستشرق (أرنست أسيندر) (Ernst Osiander)

---

١ O'Leary, Arabia, before Muhammed, London, 1927.

٢ Charles Forster, The Historical Geography of Arabia, London, MDCCCXLIV, 2 Vols.

٣ Arabien vor dem Islam, 1904.

٣ Les Arabes avant l'Islam en Syrie.

٥ Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden, 1879.

٦ Die Ghassanidischen Fuersten aus dem Hause Gafna's, Berlin, 1887.

٧ Die Dynastie der Lachmiden in al-Hira, Berlin, 1899.

٨ De Religione Arabum anteislamica.

في ديانة العرب قبل الإسلام ، في مجلة الجمعية الآسيوية الألمانية[١] . وقد بحث هذا المستشرق في ديانة العرب قبل الإسلام بحثاً عميقاً ، وهو أول مستشرق درس هذا الموضوع بعد « بوكوك » (Pococke) الذي كان أقدم من درس الوثنية عند العرب دراسة تفصيلية مستقلة في كتابه المطبوع سنة ١٦٤٩ للميلاد[٢] . وقد تطرق (أسبندر) لعبادة النجوم عند العرب وعبادة الأصنام والأماكن المقدسة في جنوبي بلاد العرب وعبادة الأصنام في الحجاز ونجد ، وتوصل إلى أن العرب عبدوا النجوم في بادىء الأمر ، ثم تطورت الفكرة الدينية عندهم ، وبالرغم من ذلك ظلت عقدة عبادة النجوم راسخة في أدمغتهم .

وجاء المستشرق (لودولف كريل) (Ludolf Krehl) ، فأحيا هذه الدراسة مرة ثانية بكتابه « بحث عن ديانة العرب قبل الإسلام »[٣] ، وطرق موضوعات لم يتمكن من سبقه من البحث فيها . وقد ذهب الى أن العرب القدماء كانوا من الموحدين في الأصل . غير أنهم تركوا التوحيد بعدئذ ، وعمدوا الى عبادة النجوم والأصنام فالأحجار والأشجار ، وبذلك انحطت الحالة الدينية عندهم ، وفي القرن السادس تأثروا بالديانة اليهودية والنصرانية في الأماكن التي حدث فيها اتصال بهاتين الديانتين .

وأهم ما ألف في الوثنية عند العرب قبل الإسلام ، كتاب المستشرق الألماني (ولهوزن) الذي سماه : (بقايا الوثنية العربية)[٤] . وقد بحث في نواح مختلفة من نواحي الحياة الدينية عند عرب الجاهلية وفي الأصنام ، فجمع ما لم يتمكن من جمعه في هذا الباب أحد من المستشرقين قبله ، واتبع أسلوب المقابلة والنقد في البحث .

هذا ولا بد من الاشارة الى مجهود عدد من العلماء تخصصوا بالعربيات وعالجوا نواحي عديدة من دراسات الجاهلية ، ومنهم (فرتز هومل) (Fritz Hommel) صاحب المؤلفات والبحوث الكثيرة ، والدراسات القيّمة في تأريخ اليمن والعرب

---

١ Studien ber die vorislamische Religion der Araber, in: Zeitschrift der Deutchen Morgenlaendischen Gesellschaft, 7, 1853.

٢ Specimen Historiae Arabum, Oxford, 1649.

٣ Ueber die Religion der vorislamischen Araber, Leipzig, 1863.

٤ Reste arabischen Heidentums, Berlin, 1887., 2 Ausgabe 1929.

الجنوبيين ، وفي ترجمة الكتابات المعينية والسبئية والحضرموتية والقتبانية والحميرية ، وفي الدراسات اللغوية . وهو في مقدمة من وضع أسس الدراسات العربية الجنوبية ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين . و (رودوكناكس) (Nikolaus Rhodokanakis)[1] ، وهو صاحب جملة مؤلفات في شرح وحل النصوص العربية الجنوبية ، و (دتلف نيلسن) (Detlef Nielsen) الدانماركي من الباحثين في الكتابات العربية الجنوبية وفي الحضارة العربية ، والتأريخ العربي قبل الإسلام[2] .

كذلك خصص (موردتمن) (J. H. Mordtmann) و (داؤو هاندش ميلر) (D.H. Mueller) ، و (ميتوخ) (Eugen Mittwoch) ، و (فون فزمن) (von Wissmann) ، و (بيستن) (C.F.L. Beeston) ، و (كونتي روسيني) (C. Conti Rossini) ، و (فنت) (F.V. Winnett) ، و (ركمنس) (C. Ryckmanns) ، و (كروهمن) (A. Grohmann) ، و (ملاكر) (K. Mlaker) ، و (أغناطيوس كويدي) و (وهربرت كريمه) (Herbert Grimme) ، و (أنوليتمن) و (البرايت) ، وغيرهم قسطاً من بحوثهم في العربيات الجنوبية ، فساعدوا بذلك على تقديم مادة غنية للمؤرخين والباحثين ، وعلى تحسين معارفنا في اللهجات العربية الجنوبية وقواعدها وفي تأريخ الجاهلية[3] .

هذا ، ولا بد لي أيضاً من الإشارة الى جهود مستشرقين محدثين قصروا عملهم على البحوث العربية الجنوبية ، وصرفوا وقتهم في دراستها ، وألفوا وكتبوا فيها ، ونشروا بحوثهم في المجلات ، ونشروا نشراً جديداً نصوصاً سبق أن نشرت ، وبعثوا الحياة في نصوص لم تكن معروفة فعرفت . ومن هؤلاء : (فون وزمن) (H. von Wissmann) . و (ريكمنس) (J. Ryckmans) ، وهو صاحب

---

١ Nikolaus Rhodokanakis: Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, 2 Hefte, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsuedarabischen, Der Grundsatz der Offentlichkeit in den Sudarabischen, Urkunden, 1914.

٢ Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Bd., 1, Hamburg, 1927.

٣ للاطلاع على المؤلفات التي تعرضت لاسفار السياح في جزيرة العرب ، يستحسن الرجوع الى الكتب التي الفت في هذا الموضوع باللغات الاوروبية ، ومنها : Hilprecht: Explorations in Bible Land during the 19th Century, Edinburgh, 1903, Ency. Brita., Vol., 2, P., 169. ff.

بحوث وتحقيقات في نشر الكتابات والتعليق عليها وعلى أيام الملوك . و(البرايت) (W. F. Albright) العالم الآثاري الأمريكي الذي ذكرته قبل قليل . و (الأب جامة) (A. Jamme) الذي رافق البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان ، والخبير بقراءة النصوص وبتعيين زمان كتابتها ، وناشر جملة كتابات عثرت عليها البعثة المذكورة . و (مارية هوفنر) (M. Hofner) و (بيرين) (J. Pirenne) و (بيستن) (A.F.L. Beeston) وغيرهم ، ممن جاؤوا ببحوث قيمة جديدة وما زالوا يبحثون في التأريخ الجاهلي[1] .

هذا ، وسوف يكون لدراسة علماء الآثار للآثار التي عثر وسيعثر عليها من ناحية علم الآثار ، وكذلك تطور الخطوط ومقارنة الكتابات بعضها ببعض لمعرفة زمانها وتحليل الآثار ودراستها بالمختبرات وبطرق (الفحص الكاربوني) وبما شاكل ذلك من طرق تعد اليوم حديثة ، شأن كبير في الكشف عن التأريخ الجاهلي ، وتقريبه من الواقع ، وتضييق شقق الخلاف التي نراها بين العلماء في عمر الدول وفي حكم الملوك وأمثال ذلك من أمور هي اليوم في موضع اهتمام الباحثين في تأريخ الجاهلية .

هذا وأودّ أن أشير هنا الى أمر يتعلق بالكتابات الجاهلية ، هو أن غالبية من عالجها وترجمها اعتمد في الغالب على العبرانية وعلى السريانية في الترجمة ، ولهذا لم يوفقوا في ترجمتهم توفيقاً كبيراً ، وأعتقد أن دراسة اللهجات العربية لقبائل اليمن وبقية العربية الجنوبية وجمع معاني مفرداتها ، تفيد كثيراً في تفسير كتابات المسند وشرحها مثلاً ، لأن كثيراً من هذه المفردات ما زال مستعملاً استعمال القدماء له . ولكن مثل هذه الدراسات لم تتم بشكل علمي منظم منسق حتى الآن وياللأسف . ورجائي أن يأتي يوم يقوم فيه المتخصصون من العرب بدراسة تلك اللهجات وتثبيتها بصورة علمية ووضع معجمات بألفاظها ، فإن في هذا العمل خدمة كبيرة للتراث العربي القديم .

وقد قام المستشرقون بنصيبهم في كتابة تأريخ الجاهلية ، فهم يستحقون على عملهم هذا كل شكر وثناء ، مهما وقع في دراستهم من قوة وضعف ، وغرض ونيّة ، فهم قد قاموا بعمل ، وقد أفادونا في عملهم هذا ولو بعض الفائدة ،

---

١ E. Wright, The Bible and the Ancient Near East, Essays in Honor of William Foxwell Albright, New York, 1965, PP., 301.

فعلينا ألاّ ننكر فضل الناس ، واذا كان هناك شيء من خطأ أو نيّة سيئة ، فعلينا يقع واجب تصحيحه وبيان مواطن سوء النية ، فهم غرباء ، ونحن حملة هذا التأريخ وأصحابه . وعلينا وحدنا يقع واجب تدوينه وانتزاعه من باطن الأرض ، والبحث في كل زاوية ومكان لايجاد مورد جديد نضيفه الى الموارد الموجودة . وعلى الحكومات العربية واجب إتمام العمل ، وتيسير الوسائل التي توصل الباحثين الى الأماكن التي يقصدها العلماء وحمايتهم ورعايتهم ، وواجب اعداد طائفة من المنقبين العرب للقيام بهذه المهمة والإنفاق عليهم بسخاء ، وانشاء متاحف تحفظ فيها العاديات ، ومنع الناس من التجاوز والتطاول على الأماكن الآثارية ، ومن أحق بالمحافظة على تراث البلاد من أبنائها ؟.

الفصل الرابع

جزيرة العرب

ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة تنيف على شبه جزيرة العرب في المساحة، فهي أكبر شبه جزيرة في العالم. ويطلق العلماء العرب عليها تجوزاً اسم (جزيرة العرب)[1]. تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة، ومع ذلك لم يستطع الجو البحري أن يخفف من حدة الحرارة فيها، ويتغلب على جفافها، والأبخرة المتصاعدة من البحر لا تتمكن أن تصل الى أواسط بلاد العرب، لإنزال رحمتها عليها. فإنّ الرياح السمائم، وهي ذات الحرّ الشديد النافذ في المسام، تتلقى الرطوبة التي تنبعث من البحار بوجه كالح عبوس، ومقاومة تسلبها قوتها، وتنتزع الرطوبة منها، وتمنعها في الغالب من الوصول الى أواسط الجزيرة.

يحدّ جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونان باسم (الخليج الفارسي) (Sinus Persicus)، وما زال يعرف بهذه التسمية المأخوذة عن اليونانية في المؤلفات المعاصرة. أما قدماء أهل العراق، فقد عرف عندهم بـ (البحر الجنوبي) و(البحر الأسفل) و(البحر التحتاني) (Lower Sea)[2]، وبـ (البحر الذي تشرق منه الشمس) و(بحر الشروق) (Sea of the Rising Sun)

---

١ الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٤٧، وسيكون رمزه : صفة، الالوسي : بلوغ الارب (١٨٤/١ وما بعدها)، معجم البلدان (١٠٠/٣) وسيكون رمزه بـ (البلدان)، L.D. Stamp, Asia, an Economic and Regional Geography, P., 133.

٢ Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 29.

وبـ (البحر المر)و(البحر المالح) و(نار مرتو) (Nar Marrtu) في الآشورية[١].

ويحدها من الجنوب المحيط الهندي ، وقد أطلق بعض الكتبة اليونان واللاتين على القسم المتصل منه بسواحل جزيرة العرب الجنوبية والملاصق لسواحل إفريقية الشرقية المقابلة لهذه السواحل اسم (البحر الأريتري) (Mare Erythraeum) ؛ أما (بطلميوس) فقد أطلق على الماء المحصور بين عُمان وحضرموت اسم (خليج سخاليته) (Sinus Sachalites) ، وأطلق على القسم الغربي الباقي اسم (بحر ربرم) (Mare Rubrum)[٢] (Rubri Maris) ، أي البحر الأحمر . وقد قصد الاغريق واللاتين بـ (Mare Rubrum) في الغالب البحر الأحمر الحالي والبحر العربي والخليج العربي ، بل حتى المحيط الهندي، فهم يتوسعون في هذا الاطلاق كثيراً[٣] .

أما حدّها الغربي ، فهو البحر الأحمر كما يسمى في الخارطات الحديثة المعروف باسم (الخليج العربي) (Sinus Arabicus) في الخارطات اليونانية واللاتينية ، وبـ (بحر القلزم) في الكتب العربية[٤] . أما العبرانيون، فقد أطلقوا عليه (هـ ـ يم) (هايم) (اليم) ، ومعناه اللغوي : (البحر) من (يم) (يام) بمعنى (بحر) و (ها) أداة التعريف التي هي في مقام (ال) في العبرانية،وذلك بصورة عامة ، و (يام سوف Yam Suph) بصورة خاصة ، وبـ (سوف) و (سوفة) أحياناً[٥] . وقد فسّر (البيضاوي) لفظة (اليم) ، الواردة في القرآن الكريم بهذا البحر ، أي البحر الأحمر[٦] . وقد أريد بـ (Mare Erythraeum) وبـ (Mare Rubrum) البحر الأحمر أيضاً[٧] .

وشكل البحر الأحمر ، شكل يلفت النظر ، يظهر وكأنه خسط منظم ممتد من الشمال نحو الجنوب على هيأة ثعبان منتصب ذي قرنين . أما باقي جسمه ، فإنه

---

١ Ancient Iraq, P., 247.

٢ راجع الخارطات اليونانية واللاتينية الموضوعة في هذا الباب .

٣ Quintus Curtius, I, P., 75.

٤ راجع الخارطات اليونانية واللاتينية ، بلوغ الارب (١٨٤/١ فما بعدها) .

٥ (سوف) في اللغة العبرانية ، بمعنى اعشاب ضارة ، حشائش ودغل .
Smith, A Dictionary of the Bible Comprising its Antiquities, Biography, Geography, and Natural History, Vol., 1, 1009, Hastings, P., 833, 967.

٦ تفسير البيضاوي (١٣٢/٧ ، ٣٤١) .

٧ Smith, Vol., 1, P., 1009.

البحر العربي . أما هذا الثعبان ، فقد كان أرضاً في الأصل، خسفت على هذه الصورة في الزمن الثالث من الأزمنة الجيلوجية[1] ، فابتعدت بذلك بلاد العرب عن إفريقية ، الا من ناحية الشمال ، حتى لا تكون هنـاك قطيعة تامة ، وارتفعت بذلك السواحل الغربية ، نتيجة انخساف الأرض ، فسالت الى الأرض المنخسفة مياه البحر العربي ، ولو تم الخسف ، وامتدّ الى (طور سيناء) فشطرها ، لما كانت هناك حاجة الى قيام الانسان فيما بعد باتمام العمل الذي لم تكمله الطبيعة ، وهو ايصال البحر الأحمر الى البحر الأبيض بقناة السويس .

وهناك من يرى أن البحر الأحمر كان بحـيرة في الأصل ، وكانت إفريقية والعربية الجنوبية قطعة واحدة عنـد جنوب هذه البحيرة ، أي عند مـا يسمى بـ (مضيق باب المندب) في الزمن الحاضر ، ولكن خسفـاً وقع ، أدى إلى انفصال إفريقية عن العربية الجنوبية الغربية ، فاتصل المحيط الهنـدي بالبحيرة ، وتكوّن البحر الأحمر . وقـد كان الناس قبل وقوع هـذا الانفصال يتنقلون براً وكأن إفريقية وجزيرة العرب قطعة أرض واحدة ، ومن هنا كانت الهجرات .

أما خليج العقبة ، فقد عرف بـ (خليج أيلة) وبـ (خليج الأيلانيين) ، (Sinus Aelanites) (Sinus Aelaniticus) في الكتب الكلاسيكيـة ، نسبة الى مدينة (أيلة) المسماة (ايلات) (Elath) و (ايلوت) Eloth عنـد العبرانيين . وهي مدينة مهمة من مدن (أدوم) (الأدوميين)[1] . وأما (خليج السويس) فقد عرف بـ (Sinus Heroopolites) (Sinus Heroopoliticus) عند اليونان واللاتين[3] .

ويحصن مناطق واسعـة من ساحل جزيرة العرب على البحر الأحمر صخور مرجانية تفتك بالسفن التي تتجاسر فتقترب منها ، نبتت في تلك المواضع لتحمي الساحل من وصول الأجانب اليه . ولكنها أضرت سكانه من ناحية أخرى ، اذ جعلت الملاحة صعبة في هذه الأماكن ، فقللت بذلك الاستفادة من الاتجار بالبحر، وقللت أيضاً من عدد الموانىء الصالحة لرسو السفن على هذا الساحل . وهناك جزر متفرقة تقابل الساحل،أكثرها مهجور ، وبعضها قليل السكان ، ومعظمهم خليط

---

١ بروكلمن : تأريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنيـر البعلبكي (طبعة دار العلم للملايين) ، الجزء الاول (ص ١٠) .

٢ Hastings, P., 211, Smith, Vol., 1, 1009.

٣ Smith, Vol., 1, P., 1009

من دم إفريقي أسود ومن عرب ، عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام على التعرض للسفن بالغزو وعلى الصيد .

ويرى بعض الباحثين أن البحر الأحمر لم يكن وحده نتيجة خسف أصاب بلاد العرب ، ففصلها عن إفريقية إلا من جهـة (طور سيناء) ، بل ان سواحل بلاد العرب الأخرى ، أي السواحل الجنوبية والسواحل الشرقيـة ، تعرضت هي أيضاً لهزّات عديدة ، فخسفت في مواضع عديدة مثل (عدن) ، حيث تكون خليج عدن ، ومثل الخليج العربي ، وكانت هذه الهزات والتصدعات استجابة لتصدع واهتزازات حدثت في الشمال على مقربة من حدود بلاد الشام ، فامتدت الى وادي الأردن والبحر الميت فوادي عربة الى خليج العقبة . وهكذا تعرضت جزيرة العرب في عصور سحيقة في القدم قبل الميلاد لهزات وتحركات أرضية ، حتى جعلتهـا على الشكل الذي نراه عليه الآن[1] .

وحدّها الشمالي خط وهمي يمتد في اصطلاح العلماء العرب من خليج العقبـة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي ، فيكون النفود الشمالي من الحدود التي تفصل الهلال الخصيب عن جزيرة العرب . أما من الناحية « الجيلوجية » ، فإن باطن الهلال وحدة لا يستطاع فصلها عن تربـة الجزيرة ، وجزء لا يختلف من حيث طبيعته الصحراويـة وخواصه عن سائر أنحـاء بلاد العرب . وأما من الناحية التأريخية ، فإن هذا الخط الوهمي المتصور ، هو وهم وخطأ ، فقد سكن العرب في شمال هذا الخط قبل الميلاد بمئات السنين . سكنوا في العراق من ضفة نهر الفرات الغربية ، وامتدوا في البادية حتى بلغوا أطراف الشام . وسكنوا في فلسطين وطور سيناء ، حتى بلغوا ضفاف النيل الشرقية . وهي أرضون أدخلها الكتبة القدامى من يونان ولاتين وعبرانيـين وسريان في جملة مساكن العـرب ودعوها بـ (العربية) وبـ (بلاد العـرب) ، لأن أغلب سكانها كانوا من العرب[2] ، حتى ذهب بعض علماء (التوراة) ، الى أن (بلاد العرب) في التوراة ، هي مواطن (الإسماعيليين Ishmaelite) و (القطوريين Keturaean) ، أي البوادي التي نزلت بها القبائل المنتسبة الى (اسماعيل) و (قطورة) . وهي

١ B.R. 527 (Restricted), Geographical Handbook, Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June 1946, Naval Intelligence Division, PP., 11

٢ O'Leary, Arabia before Muhammad, P., 5.

قبائل بدوية ، كانت على اتصال بالعبرانيين . وهي بوادٍ تقع شمال جزيرة العرب وفي الأقسام الشمالية منها[1] .

أما (أريبي) ، أي (العربية) في النصوص الآشورية ، و (ماتو أريبي) (Matu A-ra-bi) ، أي (أرض العرب) و (بلاد العرب) في النصوص البابلية ، و (ارباايا (Arabaya) (Arpaya) في النصوص الفارسية ، و(بيث عربايا) (Beth 'Arabaya) في الإرمية ، فإنها كلها تعني البادية الواسعة التي تفصل العراق عن بلاد الشام . أما حدودها الجنوبية ، فلم تحددها النصوص المذكورة[2] . ولكننا نستطيع أن نقول ان امتدادها كان يتوقف على مبلغ علم تلك الشعوب بالعرب ، وعلى المدى الذي وصل اليه تعاملهم في بلاد العرب .

فبلاد العرب أو (أرض العرب) (مت أربي) (Mat Arabi) (Mat Aribi) ، هي بادية الشأم أيضاً ، وهي كل الأرضين التي تحدها جبال (الأمانوس) (Amanus) في الشمال ، أي الأرضين التي تقع في جنوبها وكل شبه جزيرة سيناء عند (بلينيوس) (Plinius)[3] . فهن اذن أوسع جداً مما تصوره علماء الجغرافيا المسلمون لجزيرة العرب .

وإذا نظرنا نظرة عامة الى خارطة جزيرة العرب ، نرى أنها أرضون مرتفعة في الغرب ، تسيطر على السواحل الضيقة ، وتكوّن سلاسل من المرتفعات متصلاً بعضها ببعض ، تمتد من بلاد الشأم الى اليمن ، ويقال لهذه المرتفعات جبال (السّراة)[4] . وهي توازي ساحل البحر الأحمر ، وتقترب منه في مواضع عديدة. ويبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم . أما أقصى ارتفاع لها ، فيبلغ زهاء ١٢,٣٢٦ قدماً ، وهو في اليمن[5] .

وأما الأرضون المحصورة بين هذه السلسلة وساحل البحر ، فإنها ضيقة ، تسيطر عليها هذه المرتفعات ، وتنحدر اليها انحداراً شديداً قصيراً . وسواحلها

---

١ Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol., 1, P., 585.

٢ Encyclopaedia Biblica, Vol., I, Col., 273.

٣ Pliny, Nat. Hist., VI, 142. f., A. Grohmann, Arabien, S., 3.

٤ السراة : أعلى كل شيء ، وهنالك مواضع عديدة يقال لها سراة مضافة الى القبائل ، تاج العروس (١٠/١٧٤) ، البلدان (٥/٥٩) .

٥ C. Rathjens und H. von Wissman: Suedarabische Reise, Hamburg, 1934, Bd., 111, S., 2, Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.

المهيمنة على البحر ، صخرية في أغلب الأحيان ، يصعب رسو السفن فيها[1] . وطالما تحطمت عليها السفن المنكوبة ، فتكون طعاماً للبحر ، وللأعراب الساكنين على السواحل ، فيكون من ينجو بنفسه من أصحاب تلك السفن وما يتبقى من حطامها ملكاً لأولئك الساكنين بحسب عرف أهل ذلك الزمان وعاداتهم .

أما الانحدار الى البحر العربي والخليج العربي ، فانه يكون تدريجياً وطويلاً ولذلك تكون الأقسام الغربية من جزيرة العرب أعلى من الأقسام الشرقية. وتتألف الأرضون الوسطى من هضبة تدعى (نجداً) ، يبلغ متوسط ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠ قدم . وتمتد في الأقسام الجنوبية من الجزيرة سلاسل من الجبال،يتفاوت ارتفاعها، تسيطر على المنخفضات الساحلية ، وعلى ما يليها من أرضين من جهة البرّ ، وتتصل هذه بسلسلة جبال اليمن ، وتكثر فيها الأودية التي تفصل بين السلاسل، وتأخذ مختلف الاتجاهات من الشمال الشرقي أو من الشمال الغربي الى سواحل البحر ، حيث تمثل اتجاهات المياه والسيول[2] . ويكون أعلى ارتفاع لسلسلة الجبال الجنوبية في أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة ، أي في عمان ، حيث يبلغ ارتفاع الجبل الأخضر زهاء عشرة آلاف قدم[3] .

وتتكون أغلب الأرضين في جزيرة العرب من بواد وسهول ، تغلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، لكن قسماً كبيراً منها يمكن اصلاحه إذا ما تعهدته يد الانسان ، واستخدمت في اصلاحه الوسائل العلمية الحديثة . وأما الأرضون الصالحة للزراعة ، فإنها تزرع فعلاً لوجود المياه فيها . أما الأرضون التي تعدّ اليوم من المجموعة الصحراوية ، فهي :

١ — الحِرار ، أو الأرضون البركانية : وقد تكونت بفعل البراكين،ويشاهد منها نوعان: نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها،ونوع تكون من حممها (اللابة) Lava التي كانت تقذفها ، فتسيل الى الأطراف ثم تبرد وتتفتت بفعل التقلبات الجوية ، فتكون ركاماً من الحجارة البركانية يغطي الأرض بطبقات ، قد تكون سميكة ، وقد تكون رقيقة ، تتبعثر فيظهر من خلال فجواتها وجه الأرض الأصلية .

---

١ Hitti, P., 14.

٢ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.

٣ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169, Hitti, P., 14.

وفي مثل هذه الأرضين يصعب السير ، لانتشار الحجارة ذات الرؤوس الحادة فيها ، وتقل الاستفادة منها ، فتتحول شيئاً فشيئاً الى مناطق صحراوية ، والسائر اليوم في منطقة (اللجاة) في جنوب شرقي دمشق ، يلاحظ الطريق الذي سلكته الحمم المقذوفة[1] .

وقد وصف العلماء العرب الحِرار ، فقالوا[2] : الحَرّةُ أرض ذات حجارة سُود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، ويكون ما تحتها أرضاً غليظة ، من قاع ليس بأسود ، وانما سوّدها كثرة حجارتها ، وتدانيها . وتكون الحرة مستديرة ، فإذا فيها شيء مستطيل ليس بواسع ، فذلك الكراع ، واللاّبة واللوبة ما اشتد سواده وغلظ وانقاد على وجه الأرض[3] . فيظهر من هذا ان (الحرار) هي أفواه البراكين ، ولذلك تكون مستديرة . وأما اللابّة أو اللوبة ، فإنها المناطق التي غطتها حمم البراكين ، وسالت فوقها ، ثم جفت . وأما الكراع ، فإنها أعناق الحرار[4] .

---

١ Moritz, Arabien, Studien zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes, Hannover, 1923, S., 12.

وسيكون رمزه : Moritz

(اللجاة اسم للحرة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام ، فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة) ، البلدان (٣٢٣/٧) .

٢ البلدان (٢٥٦/٣) ، تاج العروس (١٣٥/٣) ، ويقال للحرة المنعزلة في الرمال (بسقة) ، الطبرى (٢٢١/٣) ، وللنهير الذي يسيل من الحرار (شرج) و (شراج) ، وأحيانا (سواقي) ، البلاذري : الفتوح (١٢) ، المراصد (١٧٥/٢) ، المفضليات (ص ٢٤٥ ، ٤١٥) .

٣ لسان العرب (٢٤٢/٢) ، (لوآبة) (لابة ولوبة) ، المفضليات (ص ٢٤٥ ، ٤١٥) ، البلدان (٣٥٧/٣) ، ويقال (حرة سوداء) ، الطبرى (٩٥٩/٢) (طبعة اوربة) ، وجاء ايضا (حرة رجلاء) ، صفة ص ٢٠٥ ، وقد علل الهمداني ذلك بقوله (سميت الحرة الرجلاء لانها ترجل سالكها ، ولا يقدر فيها على الركوب) ، صفة ص ٢٠٥ ، راجع كذلك معلقة الحارث ، بيت ٣٨ ، وجاء (حرة سوداء) ، Moritz, S., 11 وجاء كذلك (حامية) ، والظاهر انها من الفاظ العوام .

وقد كتب العلماء في (الحرار) ، كتبا ، مثل (كتاب الحرة) المنسوب الى ابي عبد الله محمد الغلابي ، (الفهرست ص ١٠٨) ، و (كتاب الحرات) لابي عبيدة (الفهرست ص ٥٩) ، (طبعة اوربة) (٨٠) طبعة المطبعة الرحمانية ، لسان العرب (٢٤٢/٢) ، وورد ايضا (لابة سوداء) ، (لوابة) و (لوبة) ، ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ، ٢٥) ،

Moritz, S., 12, Anm. 1, Loth, in ZDMG., 22, 365-382.

٤ لسان العرب (٢٤٢/٢) ، (١٨٢/١٠) ، القاموس (٧٨/٣) .

وتكثر الحرار في الأقسام الغربية من جزيرة العرب، وتمتد حتى تتصل بالحرار التي في بلاد الشام ، في منطقـــة حوران ، ولا سيما في الصفاة[1] ، وتوجد في المناطق الوسطى ، وفي المناطق الشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ، حيث تلاحظ الحجارة البركانية على مقربة من باب المندب وعنـــد عدن[2] . وقد ذكر علماء العرب أسماء عدد منها[3] ، كما أضاف اليها السياح أسماء عدد آخر عثروا عليها في مناطق نائية[4] .

وقد وردت في الشعر الجاهلي اشارات اليها . وكانت إحـدى الحرار ، وهي (حرة النار) في عهد الخليفة عمر لا تزال ثائرة تخرج النار منها[5] . وقد ذكر أن سحب الدخان كانت تخرج في عهد الخليفة عثمان من بعض الجبال القريبة من المدينة[6] . وهذا يدل على أن فعل البراكين في جزيرة العرب ، لم يكن قد انقطع انقطاعاً تاماً ، وأن باطن الأرض ، كان ما زال قلقاً ، لم يهدأ .

وكان آخر حدث بركاني في الحجاز في سنة ٦٥٤ للهجرة (١٢٥٦م) ، إذ ثارت احدى الحرّات في شرقي المدينة ، واستمر هيجانها بضعة أسابيع ، وقـد وصل ماسال من حممها الى مسافة بضعة كيلومترات فقط من المدينـــة التي كان نجاتها من الأعاجيب[7] . وكان أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الميلاديين عهد زلازل وثوران براكين في مناطق آسية الغربية[8] . ومنذ القرن الثـالث عشر الميلادي ، لم يبق أثر لفعل البراكين في مختلف أنحاء بلاد العرب[9] .

وقد تركت الأصوات المزعجة ، و (الصيحات) المرعبة ، والنيران التي كانت ترى من مسافات بعيدة ، وسحب الدخان التي كانت ترتفع من أجواف

---

١ Moritz, S., 12, Chr. Philps Grant, The Syrian Desert, London, 1937, P., 122, Alios Musil, In the Arabian Desert, New York, 1930, PP., 3, 21.

٢ Ency. Brit., Vol., 2, P., 174.

٣ البلدان (٢٥٩/٢) (مطبعة السعادة ١٩٠٦) ، (حـــرة اشجع) الاصابـــة (٤٦٧/١) .

٤ Doughty, Arabia Deserta, 2, 618. f.

٥ البلدان (٢٦١/٣) ، Moritz, S., 13

٦ الطبرى (٢٩٨/١) (الطبعة الاوربية) ،

٧ Moritz, S., 13.

٨ Moritz, S., 14.

٩ Moritz, S., 19.

الأرض ، و (البريق) الذي كان يظهر من الحرار ، مثل حرّة (القوس) التي قيل انها كانت ترى كأنها حريق مشعل[1] ، و (حرة لبن) التي كان يخرج منها ما يشبه البرق ، ويسمع منها أصوات كأنها صياح[2] ، هذه كلها تركت صوراً مرعبة في نفوس الجاهليين ، تتجلى في القصص المروية عنها ، وفي عقائدهم بتلك النيران .

ولعل قوة نيران (حرة ضَرْوان) وشدة قذفها للحمم وارتفاع لهيبها ، هي التي دفعت أهل اليمن الى التعبد لها والتحاكم اليها ، فقد كانوا يذهبون اليها ليتحاكموا عندها فيما يحدث عندهم من خلاف ، والرأي عندهم ان النار تخرج فتأكل الظالم وتنصف المظلوم . وقد كانت حرة نشطة عاشت أمداً طويلاً كما يظهر من وصف (الهمداني) وغيرها لها ، وصلت حممها الى مسافات بعيدة عن الحرة[3] .

وقد تسببت أكثر هذه الحرار في هلاك كثير ممن كان يسكن في جوارها وفي هجرة الناس من الأرضين التي ظهرت بها ، فتحولت الى مناطق خاوية خالية . وقد وجد السياح أرضين شاسعة واسعة أصيبت بالحرار ، وتأثرت بفعل (اللابة) التي سالت عليها . وللناس الحق كل الحق في ارجاع أسباب هلاك أصحابها الى العذاب الذي نزل بهم بانفجار الأرض وبخروج النيران منها تلتهم الساكنين عندها. وقد جهلوا ان هذه النيران المتقدة الصاعدة والروائح الكريهة المنبعثة عنها ، هي من فعل العوامل الأرضية الداخلية التي تعمل سراً في بطن الأرض .

وكثرة الحرار في جزيرة العرب ، وانتشارها في مواضع متعددة منها ، دليل على أن باطنها كان قد تعرض لامتحانات عسيرة قاسية، ولتقلبات كثيرة ولضغط شديد في المناطق الشمالية والغربية والجنوبية،وقد ظهر أثر ذلك الضغط في وجهها فبان اليوم وكأنه حب الجُدَرِيّ ، يتحدث عن ذلك المرض القديم .

---

١ قال عرعرة النميري :

بحرة القوس وجنبي محفل   بين ذراه كالحريق المشعل

البلدان (٢٥٩/٣) .

٢ (لبن) ، بضم اللام وتسكين الباء الموحدة ، قال الشاعر :

بحرة لبن يبرق جانباها   ركود ما تهد من الصياح

البلدان (٢٦٠/٣) .

٣ الأكليل (٣٣/١) .

وقد اشتهرت بعض مناطق الحرار بالخصب والنماء وبكثرة المياه فيها ، ولا سيما حرار الحجاز التي استغلت استغلالاً جيداً ، ومنها (خيبر) ، التي ميزت على سائر القرى ، فقيل عنهـا إنها (خير قرى عربية)[١] ، غير أن ظهور العيون فيها بكثرة ، جعلها موطناً من مواطن الحمّى ، اشتهر أمرها في الحجاز حتى قيل : (حمى خيبر)[٢] . واستفاد الجاهليون من الحرار باستخراج الأحجار منها ، كأحجار الرحى والمعادن،فكانت موطناً من مواطن التعدين القديمة فيها[٣].

ويدرس علماء طبقات الأرض بعناية بالغة توزيع الحرار في جزيرة العرب ، وتقصي أنواع الحجارة التي يكثر وجودها مثل الحجارة الكلسية والغرانيتية والرملية وتوزّعها، والينابيع الحارة في الأحساء[٤] ، لما في هذه الدراسات من أهمية بالنسبة الى اكتشاف الموارد الطبيعية ، والثروات الكامنة في الأرض .

ويظن أن فعـل البراكين كان لـه أثر خطير في العصور الـ « ايوسينية » (Eocene) ، اذ ثارت براكين عديـدة في جزيرة العرب وفي الحبشة وفي السواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب . وقد أثرت هـذه البراكين بالطبع في شكل الأرضين التي ثارت فيها وفي شكل الأرضين القريبة منها ، وقد ظهرت براكين فعّالة نشيطـة في العصور (البليوسينية) (Pliocene) أيضاً ، أثرت كذلك في شكل سطح الأرض ، بأن أحدثت فيها تضاريس ، لا تزال آثارهـا تشاهد حتى الآن[٥] .

وفي جزيرة العرب عيون وينابيع ، تخرج منها مياه حارة . ففي عسير وفي الحجاز وفي اليمن وفي حضرموت وعمان والأحساء والهفوف وفي مواضع أخرى

---

١ (خير قرى عربية خيبر) ، ابن سعد ، الطبقات (١/ ٥٠) (قسم ٢)
Zwemer, Arabia, P., 23, Moritz, S., 12.

٢ كـأن به ــ اذ جئته ــ خيبـرة يعـــود عليه وردهـا وملالهـا

* * *

قلـت لحمى خيبر : استعـــدي هـــاك عيالي فاجهدي وجـدي
وباكـــري بصالـــب وورد اعـــانك الله على ذا الجند

البلدان (٣/ ٤٩٧) ، الحماسة (طبعة فرايتاك) (ص ٦٤) ، صفة ١١٨ ، نقائض جرير ٦٢٠ .

٣ مثل حرة سليم ، وحرة الرفاع على ساحل البحر الاحمر شمالي غربي ينبـع ، البلدان (٣/ ٢٥٨) ، (٨/ ٥٢٦) ، تـاج العروس (٣/ ٦٣٥)

٤ Ency. Brit., Vol., 2, P., 174.

٥ Naval, PP., 19.

غيرها ، مواضع تخرج منها مياه حارة كبريتية في الأكثر ، يستشفي بمياهها الناس بالاستحمام . وانتشارها على هذه الصورة وبهذه الكثرة يلفت النظر ، وهي من آثار التقلبات الجوفية التي حدثت في جزيرة العرب منذ القدم[1] .

٢ — الدهناء :

وهي مساحات من الأرضين تعلوها رمال حمر في الغالب ، تمتد من النفود في الشمال الى حضرموت ومهرة في الجنوب ، واليمن في الغرب ، وعمان في الشرق[2] . وفيها سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة ، تنتقل في الغالب مع الرياح ، وتغطي مساحات واسعة من الأرض[3] . ويمكن العثور على المياه في قيعانها اذا حفرت فيها الآبار[4] .

وقد أشير الى الدهناء في بيت شعر للأعشى هذا نصه :

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم   ويرجعن من دارين بُجر الحقائب[5]

وقد تصل الأمطار الموسمية الى بعض أجزاء (الدهناء) فتنبت فيها الأعشاب ، ولكن عمرها فيها قصير اذ سرعان ما تجف وتموت . وقد هجر الناس السكنى في أكثر أقسام الدهناء، لجفاف أكثر أقسام هذه المنطقة الصحراوية الواسعة ، وخلوها من الماء والمراعي ، ولكثرة هبوب العواصف الرملية فيها ، ولشدة حرارتها التي يصعب احتمالها في أثناء النهار ، وأقاموا في الأمكنة المرتفعة منها ، التي تتوافر فيها المياه ، وتتساقط عليها الأمطار ، فتنبت الأعشاب ، وينتجعها الأعراب . أما الأقسام الجنوبية من الدهناء فيسميها الجغرافيون المحدثون

---

١ Naval, P., 21.

٢ (الدهناء) بفتح اوله وسكون ثانيه ونون والف تمد وتقصر ، البلدان (١١٥/٤ وما بعدها) .

٣ Ency., Vol., 1, P., 893, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173 Hitti P. 15.

٤ Handbook of Arabia, vol., 1, P., 11

٥ الالوسي ، تأريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثري ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ (ص ٣٠) .

(الربع الخالي) (The Empty Quarter)[١] ، لخلوها من النـــاس ، وكانت تعرف بـ (مفازة صيهد)[٢] .

وقد تمكن السائح الانكليزي (برترام توماس Bertram Thomas) من اجتيازها في (٥٨) يوماً ، وهو عمل مجهد شاق ، فكان أول أوروبي جَرُؤ عـلى اجتياز هذه الأرض[٣] .

ويطلق على القسم الغربي من الدهناء اسم (الأحقاف) وهو منطقـة واسعة من الرمال بها كثبان اقترن اسمها باسم (عاد) . (واذكر أخا عاد ، إذْ أنذر قومه بالأحقاف)[٤] .

وكشف (برترام توماس) في الربع الخالي بحيرة من المياه الملحة ، وبقـايا حيوانات مبعثرة ، وتبين لدى العلماء أن هذه البحيرة كانت من متفرعات الخليج العربي، وأن من المحتمل أن هذه الأرضين التي تكثر فيها رواسب قيعان البحر، قد كانت في عهدها من المناطق البحرية التي تغمرها مياه المحيط ، كما عثر فيه على آثار جاهلية لم يعرف من أمرها شيء حتى الآن[٥] ، يظهر أنها لأقوام كانت تستوطن هذه المناطق أيام كانت ذات مياه صالحة للإنبات والخصب . وما زالت حتى اليوم تعد أرضاً مجهولة ، وإن تحسنت معارفنا عنهـا كثيراً ، بفضل بعض موظفي شركات البترول والباحثين عن المعادن في مختلف أنحاء الجزيرة . وستأتي الاكتشافات الجديدة لها بمعارف قيمة عن تأريخ العرب قبل الإسلام من غير شك .

وتكون (وبار) قسماً من الدهناء ، وكانت من الأرضين المشهورة بالخصب والنماء ، وهي اليوم من المناطق الصحراوية ، وبها آثار القرى القديمة التي كانت كثيرة قبل الإسلام . والظاهر أنها كانت مواطن الرباريـــين ، وهم الذين دعاهم

---

١ Terra Incognita, Hitti, P., 15, Ency., Vol., 1, P., 895, Philby, The Empty Quarter, London, 1933, Bertram Thomas, Arabia Fllix, P., XXiii, 180, Philby, In the Geographical Journal, "The Empty Quarter", 81, (1933), 1-26.

٢ صفة ٢١٤ ، البلدان (٥/١٩ ٤) ، Ency., Vol., 1, P., 370, Moritz, S., 15.

٣ Ency., Vol., 1, P., 183, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 11 Bertram Thomas Arabia Felix, Across the Empty Quarteer of Arabia, London, 1932, The Geographical Journal, Across the Empty Quarter, III, (1948), 1-21, Also "A Further Journey Across the Empty Quarter", CXIII, (1949), 12-45.

٤ سورة الاحقاف ، السورة ٤٦ اية ٢١ .

٥ Arabia Felix, PP., 180, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173.

(بطلميوس) (Jobaritai) الذين سأتحدث عنهم[1] . وفي الجهة الشمالية الشرقية من وبار ، رمال (يبرين) ، وكانت من المناطق المأهولة كذلك ، ثم دخلها الخراب[2] .

٣ — النفود :

أما النفود ، وهو اسم لم يكن يعرفه العرب[3] ، فهي صحـــراء واسعة ذات رمال بيض أو حمر تذروها الرياح فتكون كثباناً مرتفعة،وسلاسل رملية متموجة، تبتدىء من واحة (تيماء) ، وتمتد الى مسافة ٤٥٠ كيلومتراً تقريباً نحو الشرق ، ويبلغ امتدادها من الجوف الى جبل شمر زهاء ٢٥٠ كيلومتراً تقريباً . وقد عرفت أيضاً بـ (الدهناء) و بـ (رملة عالج) ، ثم تغلب عليهـــا اسم (النفود) وصارت تعرف به[4] .

وتعد النفود من الأماكن المائلة أو المنحدرة ، ويظهـــر من القياسات (وان كانت قليلة جداً) ، ان المنطقة الشرقية من النفود أوطأ من مستوى المنطقة الغربية عند خط طول (٢٧) درجة و (٣٠) دقيقة ، بما يزيد على ١٥٠ متراً ، أي ان هذه البادية مرتفعة في الغرب ، آخذة في الانخفاض والميل في الشرق[5] .

وقد نتج عن هذا الميل والانحدار المتوالي ان الرمال التي كانت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية تحملها ، تراكمت في المنخفض ، فأصبحت الحدود الغربيـــة والشرقية لهذه المنطقة مرتفعة بالنسبة اليها ، بحيث صار (الحماد) يشرف عليها اشرافاً تاماً[6] .

ويغطي وجه (النفود) ، كثبان من الرمال متموجـة يبلغ ارتفاع بعضهـــا

---

١ البلدان (٨/٣٩٢) ،
Philby, The Empty Quarter, PP., 157, Ency., Vol., 1, P., 370 Vol. 4, P. 1073.

٢ البلدان (٦/٩٩)، صفة (ص ٥١،٨٤ ، ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٥) .
Ency., Vol., 1, P., 370.

٣ فجـــر الاسلام (١/١) .

٤ (رمل عالج) باللام المكسورة والجيم ، (رملة عالج) ، البلدان (٦/٩٦) ،
Moritz, S., 15, Handbook of Arabia, Vol., P., 11.

٥ Ency. Brit., Vol., 2, P., 173, Moritz, S., 15, Musil, in the Arabian Desert PP. 124.

٦ Moritz, S., 15.

زهاء (١٥٠) متراً ، ولذلك لا يعد سطح بادية النفود سطحاً مستوياً منبسطاً . وتأخذ هذه المرتفعات مختلف الأشكال ، فتكون في أغلب الأحيان على شكل نعل الفرس ، ويكون اتجاهها من الغرب نحو الشرق،وتكون أبعادها وأعماقها مختلفة ، وتسمى (القعور) . وقد تركت أثراً عميقاً في مخيلة المسافرين ورجال القوافل[١] .

وبعد الأشتية الممطرة تتحول هذه المنطقة الرملية الموحشة الى جنة حقيقية فتظهر الرمال وكأنها قد فرشت ببسط خضر ، يزينها الزهر والشقائق ومختلف الأعشاب الصحراوية ، وينتجعها الأعراب للرعي . وقد تنمو فيها النباتات المرتفعة ذات السيقان القوية كبعض أنواع (الغَضَى) ، فتكون أدغالاً يحتطب منها البدو ، وقد يحرقونها لاستخراج الفحم منها[٢] . وهذه الأعشاب والنباتات ، لا تظهر إلا في المنطقة ذات الرمال الحمر (نفود سمرا) . أما النفود البيضاء المؤلفة من رمال نشأت من تفتت أحجار (الكوارتز) فإنها في أكثر الأماكن غير منبتة[٣] .

ولكن هذه الجنة الأرضية جنة قصيرة العمر ، لا يدوم عمرها الا أسابيع قليلة ، ثم يحل بها الجفاف ، وتهب السمائم ، فتقضي على كل ما نبت في هذه البادية،فتبدو كالحة عابسة مزعجة منفرة،وكأن انساناً كنس وجهها كنساً أزال عنه كل أثر لذلك الجمال . وتهب في شهر نيسان رياح حارة من الشرق والجنوب ، ورياح في شهور الصيف ، تحرق البادية حرقاً ، حتى تغدو وكأنها جحيم[٤] .

وفي العربية ألفاظ عديدة لها صلة بالبوادي ، كثرت وتعددت لاتصال حياة العرب بها ، منها ما لها علاقة بشكل البادية وظاهر وجهها ، ومنها ما لها علاقة بطبيعتها وبتركيبها ، الى غير ذلك من مصطلحات ، نشأ بعضها من تعدد لهجات العرب ولغاتها ، اذ تسمى قبيلة البادية باسم ربما لا تعرفه قبيلة أخرى ، وهكذا تنوعت التسميات .

مصدر الصحارى :

واذا سألتني عن مصدر هذه الصحارى المزعجة التي وسمت جزيرة العرب بسمة

---

١ Euting, in "Zeitschr. der Ges. fue Erdkunde zu Berlin" No. 5, Tagebuch, 1, 144.

٢ Moritz, S., 16.

٣ Moritz, S., 16. f., A. Blunt, Pilgrimage to Nejd, 2, 55.

٤ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 12, Moritz, S., 17.

خاصة ، وصيرت معظم أهلهـا بدواً بالرغم منهم ، فأقول لك : إن الرأي المنتشر أن هذه الصحارى تكوّنت من تفتت الأحجار الرملية بتأثير الرياح والجفاف فيها[1] . ويؤيد وجود مثل هذه الأحجار في الشمال الغربي من بلاد العرب هـذا الرأي كثيراً ، ويظهر أنه رأي علمي ينطبق على بعض الصحارى انطباقاً كبيراً، غير أنه لا يحل مشكلة مصدر الرمل الأحمر المتكون من أحجار غير رملية الذي يغطي مساحات واسعة من صحراء النفود ، بينما الرمل الناشيء من الأحجار الرملية لا يغطي إلاّ مساحات ضيقة بالنسبة الى المناطق الأخرى . وهذا يدل دلالة صريحة على أن رمـال (النفود) لم تتكون من تفتت الأحجار الرملية حسب ، بل من عوامل أخرى كالتقلبات الجوية وتأثيرها في قشرة الأرض[2] .

يكون ظاهر التربة الأجرد معرضاً لحرارة الشمس والتغيرات الجوية مباشرة ، إذْ لا أشجار تحميه ، ولا أعشاب تحافظ على تماسك ذراته وحفظهـا من تلك التغيرات . فـإذا انقطعت الأمطار ، جفت التربة ، فتفتتت تدريجياً ، وتستطيع الرياح أن تعبث فيها بكل سهولة ، وتتمكن الرياح التي سرعتهـا ١٨ كيلومتراً في الساعة من إثارة الطبقـات الرملية الخفيفة والأتربة الباقية المبعثرة عـلى سطح الأرض .

وإذا هبت الرياح بسرعة ٣٣ كيلومتراً في الساعة ، امتلأ الجو بالغبار . فاذا ازدادت السرعة ، استحالت الى عواصف ، تؤثر تأثيراً كبيراً في سطح الأرض فتحمل ما عليه من أتربة ، وتعرض الطبقات السفلى التي كانت تحت هذه الأتربة لفعل الجو المباشر ، ليحدث لها ما حدث في الطبقة التي كانت فوقها ، وهكذا تتحول هذه المناطق الى صحارى ، وتتكون الرمال حينئذ من التربة المتفتتة لا من تهشم الأحجار الرملية أو الكلسية وحدها[3] .

وتهب مثل هذه الرياح في الشمال الغربي من جزيرة العرب من نهاية شهـر (آذار) مارس حتى نهاية شهـر (أيار) مايس ، وتهب في أغلب الأحيان هبوباً فجائياً ، وتستمر يومين أو ثلاثـة أيام ، وتنتهي في بعض الأحيان برعد

---

١ Moritz, S., 17.

٢ المصـدر نفسـه .

٣ Moritz, S., 17, Arabia Deserta, Vol., 2, P., 656.

وبرق . وعند حدوث هذه الزوابع يغبر الأفق ويكفهر وجــه السماء ، ثم تهب بعد لحظات عواصف شديدة وأعاصير ، تضفي على الجو لوناً قاتماً،وأحياناً مائلاً الى الصفرة أو الحمرة بحسب لون الرمال التي تحملها الرياح ، وتختفي الشمس ، وتؤثر هذه (العجاجة) في النبات والأشجار تأثيراً كبيراً . واذا استمرت مدة طويلة ، سببت تلف قسم كبير من المزروعات في الأماكن المزروعة[1] .

وقد أشار الكتّاب اليونان والرومان الى البادية،كما عرفها العبرانيون . ولكلمة (حويلة Havilah) ، ومن معانيها الأرض الرملية[2] ، أي تخم بني اسماعيــل – وأولادهم وهم البدو – ولهذا المدلول علاقــة كبيرة بمعنى صحراء[3] . وقد ذهب بعض علماء التوراة الى انها تعني النفود[4] .

وتفصل العراق عن بلاد الشام بادية واسعة ، تعرف بـ (بادية الشام) أو (البادية) ، أو (خساف) ، ويقال للقسم الجنوبي منها – وهو القسم الذي بين الكوفة والسماوة من جهة ، وبينها وبين الشام من جهة أخرى – (باديــة السماوة)[5] ، ويسميها العامة (الحماد) أو (حماد)[6] .

الدارات :

وفي بلاد العرب (الدارات) ، والدارة : كل جوبة بين جبــال في حَزن كان ذلك أو سهل أو رمل مستدير ، في وسطه فجوة ، وهي الدورة ، وتجمع الدارة على دارات[7] . فهي أرض سهلة لينة بيض في أكثر الأحيان ، وتنبت فيها

---

١ Moritz, S., 17.

٢ Moritz S., 17, Diodorus, 2, 54, Strabo, XVI, 3.

٣ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١ ، الاصحاح العاشر الاية ٧ ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٨ ،

٤ قامــوس الكتاب المقدس (٣٩٨/١) ،
Hastings, P., 333, Ency. Bibl., P., 1974, Glaser, Skizze, 2, S. 323 E. Meyer, Geschichte des Alterthums, Bd., 1, S., 224 Delitzsch, Wo lag des Paradies? S., 12, 57.

٥ البلــدان (٤٣٦/٣) ، (١٢٠/٥) .

٦ Handbook of Arabia, 1, P., 12, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173.

٧ البلدان (١٤/٤) ، القاموس المحيط (٢١/٢) ، (كتاب الدارات) للاصمعــي بعناية (اوغست هفنر) ، في مجلة المشرق ، السنة الاولى ، الجزء الاول سنــة ١٨٩٨ ص ٢٤ ومــا بعدها .

الأعشاب والصليان والنباتات الصحراوية[1]، ويبلغ عددها زهاء عشر دارات ومئة[2].
ولبعض هذه الدارات شهرة ، اذ وردت أسماؤها في الشعر الجاهلي والإسلامي ، مثل (دارة جلجل) ، التي ورد ذكرهـا في شعر امرىء القيس الكندي[3] . و (دارة الآرام) وكانت مملوءة من شقائق النعمان ، كما جاء ذلك في شعر برج بن خنزير المازني الذي كلفه الحجاج بن يوسف حرب الخوارج[4] .

الجبال :

تكون سلسلة جبال السَّرات العمود الفقري لجزيرة العرب ، وتتصل فقراته بسلسلة جبال بلاد الشام المشرفة على البادية، المتحكمة فيها تحكم الجنود في القلاع. وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي يرتفع (٢,٢٠٠) متر عن سطح البحر[5] ، وجبل وثر وجبل شيبان . وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة ، فتكون القمم في أوطأ ارتفاع ، ثم تعود بعد ذلك الى العلو حيث تصل الى مستوى عال في اليمن حيث تتساقط الثلوج على قمم بعض الجبال[6] .

وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبال اليمن ، ثم تتجه نحو الشرق الى أرض عمان ، حيث ترتفع قمم الجبل الأخضر ارتفاعاً يتراوح من تسعة آلاف قدم الى عشرة آلاف قدم[7] . وتتخلل هذه السلاسل الجنوبية أودية تمثل اتجاه مسايل الأمطار الى البحر .

وتفصل بين البحر والسلاسل الجبلية سهول ساحلية ضيقة في الغالب ، ربما لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً عن سواحل البحر الأحمر[8] . وتكون هذه السواحل

---

١ البلدان (١٤/٤) .
٢ القاموس المحيط (٢١/٢) ، البلدان (١٤/٤) .
٣ البلدان (١٦/٤) ، مجلة المشرق العدد المذكور ص ٢٦ .
٤ فأبرق وارعد لي اذا العيس خلفت ... بنا دارة ارام ذات الشقائق
البلدان (١٥/٤) المشرق ، العدد المذكور (ص ٢٦) .
٥ Moritz, S., 5 f.
٦ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٨٠ ، حتى ٢١ (الترجمة العربية) .
٧ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.
٨ Ency. Brit., Vol., 2, P. 169.

حارة رطبة في الغالب ، يتضايق منها الانسان ، وتكون غير صحيـة في بعض الأماكن . ويطلق على بعض أقسام التهائم (الغور) و (السافلة) ، لانخفاض بقاعها . وقد ذهب بعض العلماء الى اطلاق تهامة على طول الأغوار الساحليـة الممتدة من شبه جزيرة سيناء وبحر القلزم الى الجنوب[1] . وسأتحدث عنها فيما بعد .

وتكون هذه السلاسل مانعـاً — للأبخرة المتصاعدة من البحر الأحمر والبحر العربي — من وقوع الأمطار في أواسط بلاد العرب وفيما وراء السفوح الشرقية للسراة والسفوح الشمالية للسلاسل الجبلية الجنوبية ، لذلك كثرت الأودية القصيرة التي تسيل فيها المياه في هذه المناطق ، وزادت فيها امكانيات الخصب والزراعة عن البقاع التي وراء السَّراة حتى الخليج .

وفي نجد ، وهي هضبة يبلغ ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠ قدم ، منطقة جبلية تتكون من (الغرانيت) ، يقال لها جبل (شمر) ، وهي من مواضع (طيء) التي اشتهر أمرها قبل الإسلام اشتهاراً كبيراً ، وقد عرفت قديماً بجبلَيْ طيء .

وتتألف من سلسلتين ، يقال لإحداهما أجأ ، وللأخرى سلمى[2] . وهناك منابع عديدة للمياه في شعاب هذه السلسلة وفي السهل الكبـير المنبسط بينهما . ويمكن الحصول على المياه فيها بوفرة تحت طبقات الرمال والصخور[3] . وأما جبل (طويق) فهو مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد وفي جنوب شرقي الرياض ، وتتألف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية ، وتدل البحوث على أن من الصخور والمواد البركانية ما قذفته البراكين الى هذه الجهات[4] .

الأنهار والأودية :

ليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر مثل نهـر دجلة أو الفرات أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر . وهي لذلك تعد في جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار والبحيرات، وفي جملة البلاد التي يتغلب

---

١ البلدان (٤٢٦/٢) ، (٣١١/٦) ، صفة (ص ٥٤ ، ١١٩ وما بعدها) ، بلـوغ الارب (١٨٨/١) .

٢ تاريخ نجد ، للالوسي (ص ٢١) . Moritz, S., 6, Handbook, Vol., 1, P., 13.

٣ وهبـة ص ٦٣ .

٤ Moritz, S., 6.

عليها الجفـاف . ويقل فيها سقوط الأمطار ، ولذلك أصبحت أكثر بقاعهـا صحراوية قليلة السكان . غير انها كثيرة الأودية، تطغى عليها السيول عند سقوط الأمطار ، فتصير وكأنها طاغية مزبدة . وهي في الغالب طويلة ، تسير في اتجاه ميل الأرض . أما الأودية التي تصب في البحر الأحمر أو في البحر العربي، فإنها قصيرة بعض الشيء ، وذات مجرى أعمق ، وانحدار أشد ، والميـاه تسيل فيها بسرعة فتجرف ما يعترضها من عوائق ، وتنحدر هذه السيول الى البحر فتضيع فيه ، ومن الممكن الاستفادة منها في الأغراض الزراعية والصناعية . وقد تكون السيول خطراً يهدد القوافل والمدن والأملاك ، ويأتي على الناس بأفدح الخسائر[١].

وفي كتب المؤلفين الإسلاميين إشارات الى سيول عارمة جارفة، أضرت بالمدن والقرى والمزارع وبالقوافل والناس ، إذْ كانت قوية مكنتها من جرف الأبنيـة والناس ، ومن إغراقهم حـتى ذكر أن خراب عاصمة اليمامة القديمة كان بفعل السيل ، وأن كثيراً من المزارع والأموال هلكت وتلفت بفعل لعب السيول بهـا لعباً لم تتحمله ، فهلكت من هذا المزاح الثقيل[٢] .

وليس في استطاعة أحـد التحدث عن ملاحة بالمعنى المفهوم من الملاحـة في نهيرات جزيرة العرب ، وذلك لأن هـذه النهيرات اما قصيرة سريعة الجريان منحدرة انحداراً شديداً ، واما ضحلة تجف مياههـا في بعض المواسم فـلا تصلح في كلتا الحالتين للملاحة . وهي أيضاً شحيحة بالثروة الحيوانية ، وليس فيهـا إلا مقادير قليلة من الأسماك .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية جزيرة العرب كانت أنهاراً في يوم من الأيام . واستدلوا على ذلك بوجود ترسبات في هـذه الأدية ، هي من نوع الترسبات التي تكون في العادة في قيعان الأنهار ، ومن عثـور السياح على عاديات وآثار سكن على حافات الأودية . ومن نص بعض الكتبة (الكلاسيكيين) على وجود أنهار في جزيرة العرب . فقد ذكر (هيرودوتس) نهراً سماه «كورس» زعم انه نهر كبير عظيم ، يصب في (البحر الأريتوي) ، ويقصـد به البحر الأحمر ، وزعم أن العرب يذكرون أن ملكهم كان قد عمل ثلاثة أنابيب صنعها

---

١ فتوح البلدان للبلاذري ، الفصل الذي عقده لاخبار السيول ، الطبرى والازرقي في أخبـار السيول .

٢ Naval, PP., 24.

من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات ، امتدت من هذا النهر الى البادية مسيرة اثني عشر يوماً ، حملت الماء من النهر الى مواضع منقورة ، نقرت لخزن المياه الآتية من ذلك النهر فيها[1] .

وهناك موضع على مقربة من ساحل البحر الأحمر اسمه (قرح)[2] على مسافة ٤٣ كيلومتراً من (الحجر) في مكان يمر به خط الحديد الحجازي في منطقة صحراوية ، وكان في الأزمنة السابقة من المحلات المزروعة ، وبه بساتين عدة تعرف بـ (بساتين قرح) ، وعلى مقربة منها (سقيا يزيد) أو (قصر عنتر) (اسطبل عنتر) ، كما تعرف به في الزمن الحاضر على بعد ٩٨ كيلومتراً من المدينة . والى شماله (وادي الحمض) الذي يرى بعض العلماء أنه المكان الذي أراده (هيرودوتس)[3] .

وذكر (بطلميوس) نهراً عظيماً سماه (لار) Lar ، زعم انه ينبع من منطقة (نجران) ، أي من الجانب الشرقي من السلسلة الجبلية ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حيث يصب في الخليج العربي[4] . ولا يعرف من أمر هذا النهر شيء في الزمن الحاضر ، ولعله كان وادياً من الأودية التي كانت تسيل فيها المياه في بعض المواسم ، أو كان بقايا نهر ، أثرت في مياهه عوامل الجفاف . ويرى (موريتس) ان هذا النهر الذي أشار اليه (بطليموس) ، هو وادي الدواسر ، الذي يمس حافة الربع الخالي عند نقطة تبعد زهاء خمسين ميلاً من جنوب شرقي السليل ، وتمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول[5] ، وتغيض مياهه في الرمال في مواضع عديدة ، فتكون بعض الواحات التي يستقى منها ، ويزرع عليها . ويلاحظ وجود مياه غزيرة في واديه ، في مواضع لا تبعد كثيراً عن القشرة . وهذا مما

---

١ Herodotus, Vol., 1,P., 214, Bertram Thomas, The Arabs, P., 350.

٢ البكري ٧٨٧ ، المقدسي ٨٣ ، ٩٨ ، ١١٢ ، (قرح) بالضم ثم السكون ، البلدان (٤٨/٧) وكانت من اسواق العرب في الجاهلية ، وزعم بعضهم ان بها كان هلاك عاد قوم هود ، مما يدل على انها من المواضع القديمة في بلاد العرب .

٣ (اصطبل عنتر) ، وهبه ص ٢٠ ، والظاهر انها كانت تعرف بـ (سقيا) ، وهي من المواضع الجاهلية القديمة ، البلدان (٩٤/٥) .

٤ Moritz, S. 21.

٥ وهبه ٥٤ ، الالوسي ، تأريخ نجد (ص ٢٩) .

يحمل على الاعتقاد بوجود مجاري أرضية تحت سطح الوادي ، وانه كان في يوم ما نهراً من الأنهار ، غير اننا لا نستطيع أن نتكهن في أمر هـذا الوادي أكان نهراً جارياً في زمن بطلميوس كما أشار الى ذلك ، أو كان وادياً رطب القيعان لم تكن عوامل الجفاف قد أثرت فيه أثرها في الزمن الحاضر. لذلك كانت تمكث فيه السيول والأمطار المتساقطة على السفوح الشرقية لجبال اليمن مدة أطول مما هي عليه الآن[1] . والرأي عندي ان هذه الأنهار وأمثالها التي يشير اليها المؤلفون اليونان والرومان ، لم تكن في الواقع وبالنسبة الى ذلك الزمن الا سيولاً عارمة جارفة سمعوا بأخبارها من تجارهم ومن بعض رجالهم الذين كتب لهم الذهاب الى بلاد العرب أو اتصلوا بالعرب ، فظنوا انها أنهار عظيمة على نحو ما ذكروه . فلا يعقل وجود الأنهار الكبيرة في ذلك الزمن ، اذ كان الجفاف قد أثر تأثيره في إقليم جزيرة العرب قبل ذلك بأمد طويل ، فلا مجال لبقاء أنهار على النحو الذي يذكره أولئك الكتّاب .

وينطبق هذا الاحتمال على الأودية الأخرى ، وهي كما قلت كثيرة ، ومنها وادي الرمة ووادي الحمض ، ويعد هذان الواديان من الأودية الجافة ، إلا في مواسم الأمطار الشديدة حيث تصب السيول فيهما ، غير أن لها مجاري أرضية ، تشير الى تلك الحقيقة ، ويمكن الحصول على المياه فيهما بحفر الآبار على أعماق ليست بعيدة عن السطح . وقد تظهر على سطح الأرض في بعض المحال ، وربما كانا قبل آلاف السنين ، أنهاراً تجري فيها المياه، فتروي ما عليها من أرضين[2] .

يتكون (وادي الرمة) عند (حرة خيبر) أو (حرة فدك)[3] من التقاء بضعة أودية ممتدة من الشمال على ارتفاع ستة آلاف قدم ، ثم تتجه بعد ذلك نحو الشرق ثم تأخذ اتجاهاً جنوبياً شرقياً حيث تتصل بـ (الجرير) أو (الجريب) كما كان يعرف سابقاً[4] ، وهو من أوسع فروع وادي الرمة . ويتجه هذا الوادي

---

١ Moritz, S., 21.

٢ Moritz, S., 21, Philby, in the Geogr. Journ, CXIII, (1949), 86.

٣ ويقال له (بطن الرمة) بضم الراء وتشديد الميم ، وقد يقال بالتخفيف ، البلدان (٢١٩/٢) ، (ومنها وادي القصيم ، المسمى وادي الرمة) تأريخ نجد ، للالوسي (ص ٢٩) .

٤ (الجريب) بالفتح ثم الكسر ، البلدان (٩١/٣) ، Moritz, S., 23

نحو الشرق حيث يصل الى (بريدة) ، ثم ينعطف نحو الشمال الشرقي فالشرق الى (القصيم) حيث يسمى بعد ذلك (الباطن) (البطن) ثم يتفرع الى فرعين يخترقان منطقة صحراوية ، ويسير أحدهما في (النفود) حيث يتصل بالدهناء إلى أن يبلغ موضعاً قرب البصرة[1] . ويبلغ طول هذا الوادي زهاء ٩٥٠ كيلومتراً أو أكثر[2] .

وأما مبدأ وادي الحمض أو وادي إضم كما كان يسمى قديماً ، فمن جنوب حرة خيبر ، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي الى أن يصل الى يثرب حيث تتصل به أودية فرعية أخرى ، منها (وادي العقيق) ، ويتصل به كذلك (وادي القرى) ، ويستمد مياهه من السيول التي تنحدر اليه من الجبال من العيون التي عند خيبر حيث يصب في البحر الأحمر في جنوب قرية الوجه . وعند هذا المصب بقايا قرية يونانية قديمة ، وبقايا معبد يعرف عند الأهلين (كصر كريم)[3] ، وهو من مخلفات المستعمرات اليونانية القديمة التي كان الملاحون والتجار اليونانيون قد أقاموها عند ساحل البحر الأحمر لحماية سفنهم من القرصان ، وللاتجار مع الأعراب ، ولتموين رجال القوافل البحرية بما يحتاجون اليه من ماء وزاد . ويعتقد (موريتس) أن هذا الموضع هو محل مدينة (لويكه كومه) (Leuke Kome) المشهورة التي وصل اليها (أوليوس كالوس) لما همّ بفتح اليمن[4] ، على حين يرى آخرون أن هذه المدينة هي في المحل المعروف باسم (الحوراء) . ويبلغ طول وادي الحمض زهاء ٩٠٠ كيلومتر[5] .

---

١ (البطن) (بطن الرمة) ، البلدان (٢١٩/٢) ، صفة ١٤٤

٢ وهبه ص ٢ ، (القصيم) ، بالفتح ثم الكسر على (فعيل) قال الاصمعي : (واسافل الرمة تنتهي الى القصيم) ، البلدان (١١٦/٧) ، (بطن) الحماسة (فرايتاك) ٦٠٨ ، صفة ١٤٤ ، الدينوري : الاخبار ، ١٦٠ ، ٢٥٨ ، ويرى (موريتس) احتمال كون نهر (بيشون Pischon) الذي هو احد انهار الجنة الاربعة في التوراة هو وادي الرمة ، Moritz, S., 23, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 10.

٣ (اضم) بالكسر ثم الفتح وميم ، قال ابن السكيت : اضم واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر ، البلدان (٢٨١/١) ، وادي (الحمض) ، البلدان (٣٤٢/٣) .

٤ Moritz, S., 24, Pauly-Wissowa, Leuke Kome.

٥ (الحوراء) بالفتح والمد ، كانت بها آثار خرائب قديمة حتى ايام ياقوت الحموى وكانت قد هجرت في ايامه ، وكانت ميناء المصريين الى المدينة ، البلدان (٣٥٩/٣) Moritz, S., 21.

وهناك (وادي حنيفة) ، وهو من الأودية المهمة كذلك ، يبتدىء من غرب (جبل طويق) ثم يتجه نحو الشرق نحو الخليج العربي . وهو مهم ، ويمكن الحصول على المياه فيه بطريقة حفر الآبار ، لأن الماء غير بعيد عن قاعه . وأما عند هطول الأمطار ، فإنّ المياه تجري اليه من السفوح فتسيل فيه[1] .

ولقلة المياه في بلاد العرب ، انحصرت الزراعة فيها في الأماكن التي حبتها الطبيعة بمواسم تتساقط فيها الأمطار مثل العربية الجنوبية ، وفي الأماكن التي ظهرت فيها عيون وينابيع ، مثل وادي القرى في الحجاز ، والأحساء على الخليج العربي . وفي الأودية والأماكن التي تكثر فيها المياه الجوفية ، حيث استنبطت المياه منها بحفر الآبار . والزراعة في هذه الأماكن – باستثناء العربية الجنوبية – هي زراعة محدودة ، حدودها ضيقة ، وآفاقها غير بعيدة ، وناتجها قليل لا يكفي لإعاشة كل السكان .

وقد لزمت سكان الأرضين التي تغيث السماء أرضهم ، بانزال الغيث عليها ، الاستفادةُ من الأمطار المنهمرة، بحصرها وتوجيهها الى مخازن تخزنها لوقت الحاجة، وذلك بانشاء السدود واقامة خزانات ذوات أبواب تفتح وتغلق لتوجيه المياه الوجهة التي يريدها الانسان . وقد أقيمت هذه السدود في مواضع متناثرة من جزيرة العرب، خاصة في الأماكن التي يركبها المطر مثل العربية الجنوبية والعربية الغربية . وتشاهد اليوم آثار سدود جاهلية استعملها الجاهليون للاستفادة من مياه الأمطار .

ولما كانت الأمطار رحمة ونعمة كبرى ، اذا انحبست نفقت إبل العرب ومواشيهم ، صار انحباسها نقمة وهلاكاً ، وعدّوا انحباسها عنهم غضباً من الآلهة ينزل بهم ، ولهذا كان الجاهليون يتضرعون الى آلهتهم ويتقربون اليها ، أن تنزل عليهم الغيث ، ولهم في ذلك صلوات وأدعية للاستسقاء سيأتي الحديث عنها في باب الدين عند الجاهليين .

وعلى خلاف العيون الحارة التي هي من آثار التفاعلات البركانية والتفاعلات الباطنية الكيمياوية ، فان في بلاد العرب عيون وينابيع وواحات ، صارت موطناً للزراع والزرع . وبعض هذه العيون ، تتدفق من الجبال والهضاب وبعد مجرى قصير تعود فتدخل باطن الأرض كما هو الحال في أرض (مَدْيَن) . وهنالك

---

[1] حافظ وهبه ، جزيرة العرب (ص ٤٦) . Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 10.

عيون تتوقف حياتها على المطر . وقد استفاد الجاهليون من بعض العيون والينابيع فربطوها بكهاريز وبقنوات تجري فيها المياه تحت سطح الأرض الى بيوتهم ومزارعهم دون أن تتعرض للتبخر الزائد ، فتفقد كميات كبيرة من المياه تذهب هباء . وقد عثر على شبكات منها في عُمان وفي وادي فاطمة بالحجاز وفي اليمن[1] .

أقسام بلاد العرب :

قسّم اليونان واللاتين جزيرة العرب الى أقسام ثلاثة :

١ — العربية السعيدة Arabia Felix .

٢ — العربية الصخرية ، وترجمت بالعربية الحجرية كذلك (Arabia Petreae) .

٣ — العربية الصحراوية Arabia Deserta .

وهو تقسيم يتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها البلاد العربية في القرن الأول للميلاد . فالقسم الأول مستقل ، والقسم الثاني قريب من الرومان ثم أصبح تحت نفوذهم ، وأما القسم الثالث فهو البادية الى نهر الفرات[2] .

وقد أشير الى العربية السعيدة والعربية الصحراوية في الموارد (الكلاسيكية) القديمة مثل جغرافية (سترابون)[3] . ويرى بعض العلماء ان القسم الآخر وهو (العربية الصخرية) Arabia Petreae هو من اضافة (بطلميوس) العالم الجغرافي الشهير ، وقد قصد به برية شبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من فلسطين الى الأردن[4]. فهو في رأي هؤلاء أحدث عهداً في التسمية من التسميتين الأخريين.

ولم يأخذ الجغرافيون العرب بالتقسيم (الكلاسيكي) ، مع أنهم وقفوا على بعض مؤلفاتهم ، كجغرافية بطليموس[5] . الا ان جزيرة العرب عندهم ، هي (العربية السعيدة) في اصطلاح أكثر الكتبة اليونان واللاتين .

---

١ Naval, PP., 33.

٢ Christina Phelps Grant, The Syrian Desert, London, 1937, P., 10, Ch. Forster, The Historical Geography of Arabia, in 2 Vols., Vol., 2 P., 109.

٣ Strabo, vol., 3, P., 309.

٤ William Smith, A Dictionary of the Bible, Vol., 1, P., 91.

٥ Forster, 2, 109, Edward Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, Vol., 5, P., 209, (Everyman's Library ed. 1931).

العربية السعيدة : Arabia Felix

أما العربية السعيدة ، ويقال لها (Arabia Beata) و (Arabia Eudaimon) في اليونانية ، فهي أكبر الأقسام الثلاثة رقعة ، وتشمل كل المناطق الـتي يقال لها جزيرة العرب في الكتب العربية كما يفهم من بعض المؤلفات ، وليست لهـا حدود شمالية ثابتة ، لأنها كانت تتبدل وتتغير على حسب الأوضـاع السياسية . ولكن يمكن القول إنها تبدأ في رأي أكثر الكتاب اليونان والرومان من مدينـة (هيروبوليس) (Heropolis) على مقربة من مدينة السويس الحالية ، ثم تساير حدود العربية الحجرية الجنوبية ، ثم تخترق الصحراء حتى تتصل بمناطق الأهوار (أهوار كلديا) عند موضع (Thapsacus) . وقد أدخل بعض الكتاب هـذه الأهوار في جملة العربية السعيدة ، وجعلها بعضهم خارجة عنهـا بحيث يمر خط الحدود في جنوبها الى أن تتصل بمصب شط العرب في الخليج[١] .

وعرفت البادية الواسعة التي هي جزء من النفود والتي تمر بهـا حدود العربية السعيدة الشمالية ، باسم (Eremos) عند اليونان ، وهي امتداد لبادية الشام[٢] .

العربية الصحراوية :

ويقال لها في اليونانية (Arabia Eremos) [٣] . أما حدودها ، فلم يعينهـا الكتّاب اليونان واللاتين تعييناً دقيقاً . ويفهم من مؤلفـاتهم أنهم يقصدون بهـا البادية الواسعة الفاصلة بين العراق والشام ، أي البادية المعروفة عندنا بـ (بادية الشام) . ويكون نهر الفرات الحـدود الشرقية لها الى ملتقى الحدود بالعربيـة السعيدة . وأما الحدود الشمالية ، فغير ثابتة ، بل كانت تتبدل بحسب الأوضاع السياسية . وأما الحدود الغربية ، فكانت تتبدل وتتغير كذلك ، ويمكن أن يقال بصورة عامة إن حدودها هي المناطق الصحراوية التي تصاقب الأرضين الزراعيـة لبلاد الشام . فما كان بعيداً عن امكانيات الرومان واليونان ومتنـاول جيوشهم ، عد من العربية الصحراوية[٤] .

---

١ Ptolemy, VI, 7, 2, 27, Strabo, XVI, 4:2, Musil, Arabia Deserta P. 498 The Bible Dictionary, Vol., 1, P., 98, A. Grohmann, Arabian, S., 4.

٢ Musil, Arabia Deserta, P., 499.

٣ Musil, Deserta, P., 497, 511, Hitti, 44.

٤ Forster Vol., 2, P., 110 ff.

ويفهم من العربية الصحراوية أحياناً (بادية السماوة)[١]،وقد يجعلون حدودها على مقربة من بحيرة النجف ، أي في حدود الحيرة القديمة ، حيث تبدأ (بطائح كلدية) التي كانت تشغل اذ ذاك مساحة واسعة من جنوب العراق . وعرفت عند بطليموس باسم (Amardocaea) ، وهي تمتد حتى تتصل ببطائح (Maisanios Kolpos) أو (خليج مسنيوس) (خليج ميسان) ، الذي يكون امتداد الخليج العربي (Persikos Kolpos) . وكل ما وقع جنوب ذلك الخط الوهمي ، عدّ في العربية السعيدة[٢] .

وقد فهم (ديودورس) من (العربية الصحراوية) المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المتبدية ، وتقع في شمالها وفي شمالها الشرقي في نظره أرض مملكة (تدمر) . وأما حدّها الشمالي الغربي والغربي حتى ملتقاها بالعربية الحجرية ، فتدخل في جملة بلاد الشام . وأما حدودها الشرقية ، فتضرب في البادية الى الفرات . فأراد بها البادية اذن . وقد جعل من سكانها الإرميين والنبط[٣] .

وتقابل العربية الصحراوية ، ما يقال له (أربى) عند الأشوريين ، و (ماتو أربى) عند البابليين ، و (أربابة) عند السريان والفرس .

كانت البادية ، بادية الشام ، أو (العربية الصحراوية) ، مأهولة بالقبائل العربية ، سكنتها قبل الميلاد بمئات السنين . وليست لدينا مع الأسف ، نصوص كتابية قديمة أقدم من النصوص الأشورية التي كانت أول نصوص أشارت الى العرب في هذه المنطقة ، وذكرت انه كانت لديهم حكومات يحكمها ملوك . وأقدم هذه النصوص هو النص الذي يعود تأريخه الى سنة ٨٥٤ ق. م[٤]. وقد ورد فيه اسم العرب في جملة من كان يعارض السياسة الأشورية ، ولما كان هذا النص يشير الى وجود مشيخة أو مملكة عربية ، يحكمها ملك فلا يعقل أن يكون العرب قد نزلوا في هذا العهد في هذه البادية ، بل تشير كل الدلائل الى أن وجودهم فيها كان قبل هذا العهد بأمد ، وربما كان قبل الألف الثاني قبل الميلاد . وقد كانت هذه القبائل تهاجم أرض ما بين النهرين وبلاد الشام ، وتكون مصدر

١ Musil, Deserta, P., 235.
٢ Musil, Deserta, P., 500, 503, Stephan of Byzantium, Ethnica, P., 237, (Ed. Meineke).
٣ Musil, Deserta, P., 499, Diodorus, Bibl. Hist., 11, 54.
٤ D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol., 1, 611.

رعب للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وكانت تنتقل في هذه البادية الواسعة ، لا تعترف بفواصل ولا بحدود ، فتقيم حيث الكلأ والماء والمحل الذي يلائم طبعها[1] .

أما الروايات العربية ، وهي لا تستند الى وثائق أو نصوص جاهلية ، فقد رجحت وجود العرب في هذه الأرضين الى ما بعد الميلاد في الغالب ، ولم يتجاوز بعض من تجاوز الميلاد أيام (بخت نصر) وهو بالطبع حديث مغلوط فيه .

العربية الحجرية ، العربية الصخرية :

وأما العربية الحجرية ، فتشمل الأرضين التي كان يسكن فيها الأنباط ، وخضعت لنفوذ الرومان والبيزنطيين . ويطلق ذلك الاسم ، أي العربية الحجرية ، على شبه جزيرة سيناء ، وعلى المملكة النبطية ، وعاصمتها (بطرا) (بترا) (البتراء)[2] . وكانت حدود هذه المنطقة تتوسع وتتقلص بحسب الظروف السياسية وبحسب مقدرة العرب ، ففي عهد الحارث الرابع ملك الأنباط (من سنة ٩ ق.م الى سنة ٤٠ ب. م) اتسعت حدودها حتى بلغت نهايتها الشمالية مدينة دمشق[3] . ولما ضعف أمر النبط ، استولى الامبراطور (تراجان) عام (١٠٦ م) على هذه المقاطعة وضمها الى المقاطعة التي كونها الرومان وأطلقوا عليها اسم (المقاطعة العربية) (Provincia Arabia) . ويظهر من وصف (ديودورس) لهذه المنطقة انها في شرق مصر وفي جنوب البحر الميت ، وجنوبه الغربي وفي شمال العربية السعيدة وغربها[4] . وان الأنباط يقيمون في الأرضين الجبلية وفي المرتفعات المتصلة بها التي في شرق البحر الميت ، وفي شرق وادي العربة ، وفي جنوب اليهودية حتى الخليج العربي ، (خليج العقبة)[5] . وأما الأقسام الباقية، فكانت تسكنها قبائل عربية قيل لها (سبئية) ، وهي تسمية كانت تطلق عند الكتبة

---

١ Forster, Vol., 1, P., 347.

٢ R.E. Brunnow und A. v. Domszewski, Die Provincia Arabia, in 3 Bd.

٣ Hitti, P., 44, 68.

٤ Diodorus, 11, 48, Musil, Hegaz, P. 309.

٥ Musil, Hegaz, P., 309, Deserta, P., 499.

اليونان والرومان على أكثر القبائل المجهولة أسماؤها، التي تقطن وراء مناطق نفوذ الأنباط والرومان ، ويعنون بذلك قبائل جنوبية في الغالب .

التقسيم العربي :

ويؤسفنا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجهة نظر أحد من الجاهليين في أقسام بلاد العرب، لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص أو في الروايات التي يرويها عنهم أهل الأخبار ، وكلهم مسلمون .

أما الإسلاميون ، فقد اكتفوا بجزيرة العرب ، فأخرجوا بذلك البادية الواسعة منها ، وأخرجوا القسم الأكبر مما دعاه الكلاسيكيون بالعربية الحجرية منها كذلك. وجزيرة العرب وحدها ، هي (العربية السعيدة) عند اليونان والرومان ، وما يقال له أيضاً بـ (Arabia Proper) في الانكليزية[١] .

وقد قسموا جزيرة العرب الى خمسة أقسام : الحجاز ، وتهامة ، واليمن ، والعروض ، ونجد[٢] . ويرجع الرواة أقدم رواياتهم في هذا التقسيم الى عبدالله بن عبّاس[٣] .

أما الحجاز ، فتمتد رقعته في رأي أكثر علماء الجغرافية المسلمين ، من تخوم الشام عند العقبة الى (الليث)[٤] ، وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر ، فتبدأ عندئذ أرض تهامة[٥] . وقد عد قسم من العلماء (تبوك) وفلسطين من أرض الحجاز[٦] . ويقال للقسم الشمالي من الحجاز أرض مدين وحسمى ، نسبة الى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، التي تتجه من الشمال نحو الجنوب[٧] ، وتتخللها

---

١ Forster, Vol., 2, PP., 112.

٢ صفة (ص ٤٧ وما بعدها) ، البلدان (٢١٨/٣) ، المفضليات ص ٤١٦ .

٣ صفة ص ٤٦ .

٤ (الليث) بكسر اللام ثم الياء الساكنة والثاء المثلثة ، البلدان (٢١٨/٣) ، (٣٤٦/٧) ، (اذا خلفت عجلزا صعدا فقد انجدت ، فلا تزال منجدا حتى تنحدر من ثنايا ذات عرق ، فاذا فعلت فقد اتهمت الى البحر ، واذا عرضت لك الحرار وانت منجد فتلك الحجاز) ، (حد الحجاز ، الاول بطن نخلة وظهر حرة ليلى ، والحد الثاني مما يلي الشأم شعب وبدا ، والحد الثالث مما يلي تهامة بدر والسقيا ورهاط وعكاظ ، والحد الرابع شابة وودان ، ثم ينحدر الى الحد الاول) ، بلوغ الارب (١٨٧/١ وما بعدها) .

٥ البلدان (٢١٨/٣)

٦ البلدان (٢١٨/٣) .

٧ البلدان (٤١٧/٧) ، Ency., 1, 368, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 96.

أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة ، وأرض بني عذرة من ظهرة حرة نهيل من جهة أخرى[١] . وكانت تسكنها في الجاهلية قبائل جذام[٢] . ويسكنها في الزمن الحاضر عرب الحويطات ، ويعتقد المستشرقون أنهم من بقايا النبط[٣] .

وأرض (حسمى) ، أرض خصبة كثيرة المياه . وكانت من المناطق المعمورة ، وبها آثار كثيرة ومن جبالها جبل يعرف بـ (إرم)[٤] . ويرى بعض المستشرقين أن لهذا الجبل علاقة بموضوع (إرم) الوارد ذكره في القرآن الكريم وفي كتب قصص الأنبياء والتواريخ[٥] . ويرى (موريتس) انه موضع (Aramaua) الذي ذكره (بطليموس) على أنه أول موضع من مواضع العربية السعيدة ، وأنه لا يبعد كثيراً عن البحر[٦] . ويقال له (رم) في الزمن الحاضر[٧] .

وتتخلل الحجاز أودية عديدة ، منها وادي إضم الذي ورد ذكره في أشعار الجاهلية وفي أخبار سرايا الرسول[٨] . ووادي نخال ، ويصب في الصفراء بين مكة والمدينة[٩] . والصفراء واد من ناحية المدينة ، كثير النخل والزرع ، في طريق الحاج ، سلكه الرسول غير مرة ، وعليه قرية الصفراء ، وماؤها عيون تجري الى ينبع ، وهي لجهينة والأنصار ولبني فهر ونهد ورضوى[١٠] . ووادي (بدا) قرب أيلة ، يتصل بوادي القرى[١١] . ووادي القرى واد مهم يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شرياناً من شرايين الحركة

---

١ البلدان (٢٧٦/٣) ، لسان العرب (٢٤/١٥) .
٢ Ency., Vol., I, P. 368, Doughty, Vol. 2, P. 624.
٣ Ency., Vol., 2, P., 349.
٤ البلدان (٢٧٧/٣) .
٥ Mr. Horsfield, in Revue Biblique, XLI, (1932), PP., 581, XLII, (1933), PP., 405, XLIII, (6934), PP., 572, XLIV, (1935) PP., 45.
٦ Ptolemy, VI, 7 : 27, B. Moritz, in MFOB, III, P., 395, "Ausfluege in der Arabia Petraea".
٧ Musil, Hegaz, P., 273.
٨ البلدان (٢٨١/١) ، صفة ١٧١ .
٩ البلدان (٢٧٢/٨) .
١٠ البلدان (٢٧٢/٨)
١١ البلدان (٣٦٧/٥)

التجارية في العالم القديم ، ويقال له (وادي الديدبان)[١] ، ويصب فيه واديان هما : وادي جزل من الشمال ، ووادي الحمض من الجنوب ، ويلتقي به واد آخر هو وادي التبج ، أي وادي السلسلة[٢] . وكان عامراً جداً ، تكثر فيه المياه، وتشاهد فيه اليوم آثار المدن والقرى[٣] . وقد عثر فيه على كتابات كثيرة لحيانية وسبئية ومعينية وغيرها ، سأتحدث عنها .

ومن أهم مواضع وادي القرى (العلا) ، وقد نزله الرسول في طريقه الى تبوك[٤] . ويقع في موضع (ديدان) (ددان) (ددن) القديم . وبه واحة ونهير صغير[٥] . ومدينة (قرح) ، وكانت من أسواق العرب في الجاهلية ، وقد زعم أنها القرية التي كان بها هلاك عاد[٦] . وتبعد عن خرائب (ديدان) بمسافة ثلاثة كيلومترات،وقد سكنتها قبائل (بليّ) من القبائل العربية القديمة[٧] . وهي ملتقى طريق مصر القديم بطريق الشام . ويرى (موسل) أنها هي (العلا) ، دعيت بهذا الاسم فيما بعد[٨] . ولما سأل (دوتي) الأعراب القاطنين في هذه الأماكن عن (قرح) ، لم يعرفوا من أمرها شيئاً[٩] .

ووجد (دوتي) في قرى وادي القرى وخرائبه عدداً كبيراً من الحجارة المكتوبة بحرف المسند،وقد اتخذها السكان أحجاراً من أحجار البناء[١٠] . وعثر في (الخريبة) على كتابات بهذا القلم ، وعلى آثار أبنية ومواطن حضارة وعلى ألواح من الحجر كان يستعملها الصيارفة لصف نقودهم عليها ، أو لذبح القرابين[١١] . كما شاهد موضعاً يقال له (اسطبل عنتر) على قمة جبل شاهق يرنو الى الوادي ولعله معبد أحد الأصنام التي كانت تعبد هناك .

---

١ البلدان (٨٧/٢)

٢ Ency., Vol., 4, P., 1077, Doughty, Travels in Arabia Deserta, London, 1936, Vol., 1, P., 187.

٣ Ency., Vol., 4 P., 1077.

٤ (وكان بين سبأ والشأم قرى متصلة ، فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ الى الشأم الى زاد) ، لسان العرب (٣٨/١٩) .

٥ البلدان (٢٠٧/٦) .

٦ وهبه ٢٠ .

٧ البلدان (٤٩/٧) .

٨ Musil, Hegaz, P., 295, Doughty, 1, P., 203.

٩ Musil, P., 295.

١٠ Doughty, I, P. 87

١١ Doughty, 1, P., 203 f.

تهامة :

وتبدأ حدود تهامة ، في رأي بعض الجغرافيين ، من بحر القلزم[١] ، فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر[٢] . ويقال لتهامة الواقعة في اليمن (تهامة اليمن) ، ويختلف عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبليـة من البحر وبعدها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلاً في بعض الأمكنة . وترتفع أرض تهامة الجنوبية الواقعة على البحر العربي ما اتجهت نحو الشرق ، وتتكون فيها سلاسل من التلال المؤلفة من حجـارة كلسية ترجع الى العهود الجيولوجية الحديثة أو من حجارة بركانية[٣] .

ولانخفاض أرض تهامة قيل لها (الغور) و (السافلة)[٤] . وقد وردت لفظة تهامة على هذا الشكل (تهمت) (تهمتم) في النصوص العربية الجنوبية[٥] .

ويظهر ان لهذه اللفظة علاقة بكلمة (Tiamtu) ، التي تعني البحـر في البابلية . وبكلمة (تيهوم Tehom) العبرانية[٦] . وعندي ان هذه الكلمة ترجع الى أصل سامي قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ، والتي تكون لذلك شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف[٧] . ولهذا فإنها في العربية بلهجة القرآن الكريم وباللهجات الجنوبية السواحل المنخفضة الواقعة بين الجبال والبحـر ، وهي حارة وخمة شديدة الرطوبة كأنها من بقاع جهنم في الصيف .

اليمن :

حدّ اليمن في عرف بعض العلماء من وراء « تثليث » وما سامتها الى صنعاء

---

١ (القلزم) بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة وميم ، البلدان (١٤٥/٧) .

٢ راجع حدود تهامة في : البلدان (٣١١/٦) ، صفة ٥٤ ، ١١٩ ، ١٢١ ، بلـوغ الارب (١٨٨/١) .

٣ Ency., Vol., 4, P., 769.

٤ البلدان (٤٣٧/٢) ، (٣١١/٦) .

٥ Glaser 554, 618, Ency., Vol., 4, P., 764.

٦ Schrader, Die Keilinschriften und das Alte Testament, neu bearbeitet von Zimmern und Winckler, Berlin, 1903, S., 492.

٧ وساشير اليه برمز : KAT

وما قاربها الى حضرموت والشحر وعمان، الى عدن أبين وما يلي ذلك من التهائم والنجود . وقيل : يفصل بين اليمن وباقي جزيرة العرب خط ، يأخذ من حدود عمان ويبرين الى ما بين اليمن واليمامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث وكثبة وجرش ومنحدراً في السراة الى شعف عنز وشعف الجبل أعلاه الى تهامة الى أم جحدم الى البحر الى جبل يقال له كرمل بالقرب من حمضة ، وذلك حد ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة[1] . أما النصوص العربية الجنوبية ، فلم تثبت حدود اليمن. ولكن اليمن فيها وتسمى (يمنت) (يمنات) ، منطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى أيام الملك (شمـــر يهرعش) ، المعروف في الكتب الإسلاميـــة بـ (شمر يرعش)[2] ، بعد (حضرموت) في الترتيب . وعـــلى هذا الترتيب وردت أيضاً في نص (أبرهة) نائب النجاشي على اليمن . ويعود عهـــده الى سنة ٥٤٣ م[3] .

وتخترق السراة اليمنَ من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الأوديـــة التي تنساب فيها مياه الأمطار،وتمتد بين الهضاب والشعاب فلاة تتفرع من الدهناء من ناحية اليمامة والفلج يقال لها (الغائط) ، وتظهر في أواسطها (الصيهد) ، وتقع بين مأرب وحضرموت[4] .

وفي شمال منطقة عدن صحراء تتصل بالربع الخالي ، يخترق الهضاب المهيمنة على عدن عدد من الأودية الجافة يظهر أنها كانت مسايل مياه ، وأنها من بقايا

---

١ KAT, S., 492, anm., 2, P. Jensen, Keilinschr. Bibl., VI, 1, S. 559 Ency. Vol. 4 P. 764

٢ (قال الاصمعي : اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عمان الى نجران ، ثـــم يلتوي على بحر العرب الى عدن الى الشحر حتى يجتاز عمان ، فينقطع مـــن بينونة ، وبينونة بين عمان والبحرين ، فليست بينونـــة مـــن اليمـــن ...) ، البلدان (٥/٨١) ، (٨/٥٢٢ وما بعدها) ، صفة ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، البكري : معجم ما استعجـــم (١/١٦) ، ابن خرداذبـــه ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٨٩ بلوغ الارب (١/٢٠٢ وما بعدها) و Ency., Vol., 4, P. 1155

٣ الاكليل (٨/١٠٨ وما بعدها) ، التيجان ص ٢٢٢ فما بعدها ، اخبار عبيد ص ٤٢٨ ، تاريخ الطبرى (١/٥٤٧ ، ٧٩٣ فما بعدها) ، (الطبعة الاوربية) Glaser, Zwei Inschrifen ueber den Dammbruch von Marib, in Mitheil. der Vorder-Asiat. Ges. 1887.

٤ صفة ٨٤ ، البلدان (٥/٤١٩) .

أنهار جفت ، وتسيل في بعضها المياه عند سقوط الأمطار ، ومنها (وادي تبن)[١]، وهو من بقايا نهر طويل ، له فروع عديدة ، وتمر به الطريق الرئيسية المؤدية الى اليمن[٢] .

ويخترق حضرموت واد ، يوازي الساحل ، يبلغ طوله بضع مئات من الأميال ويتألف سطحه من أرضين متموجة تتخللهـا أودية عميقة تكثر فيها المياه ، في باطن الأرض ، وبعض تلاله مخصبة[٣] .

وفي حضرموت حجارة بركانية ومناطق واسعة ، يظهر أنها كانت تحت تأثير البراكين . والظاهر أن دورها لم ينته إلا منذ عهد ليس ببعيد[٤] . ويزرع الناس في هذه الأودية حيث يحفرون آباراً في قيعانها فتظهر المياه على أبعاد متفاوتة ، وهنالك نهر يقال له نهر حجر[٥] .

ومن شرق سيحوت تبتدىء سواحل (مهرة) ، وتعرف عند الجغرافيين باسم (الشحر) . ومعنى كلمة (مهرة) في العربية الجنوبية القديمـة (ساحل)[٦] . ويطلق اليوم اسم (الشحر) على الميناء الغربي وحده . وفي (قارة)[٧] مدينـة (ظفار) ، وهي غير ظفار اليمن[٨] . وعند خليج ظفار كان موضع (Syagro) المشهور عند اليونان والرومان[٩] .

ويمتد اقليم ظفار من سيحوت الى حدود عمان ، وهو هضبة يبلغ ارتفاعهـا ثلاثة آلاف قدم ، تهب عليها الرياح الموسمية ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكندر التي اشتهرت بها بلاد العرب قبل الإسلام . وتشقها طولاً وعرضاً أودية تكسوها

---

١ Hugh Scott, In the High Yemen, P., 25, f.

٢ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 179 f.

٣ وادي عدم : الهلال ، الجزء السادس عشر ، السنة السادسة ، نيسان ١٨٩٨ ص ٦٠٣ ، Adolf von Wrede, S., 290, Ency., 1, P., 369.

٤ Ency., 1, P., 369, Reise, S., 287. ff.

٥ تأريخ حضرموت السياسي ، تأليف صلاح البكرى (١/٣) ، (القاهرة ١٣٥٤) ، (نهر ميفع) ، الهلال ، العدد المذكور ص ٦٠٤ ، وقد تحدث صاحب المقال عن الاثار التي رآها في وادي عدم .

٦ البكرى (١٤١/٢ فما بعدها) ، Ency., 1, 369

٧ وتنمو في قارة نباتات الطيب والافاويه ، Hugh Scott, PP., 147.

٨ Reise, S., 39.

٩ Reise, S., 33, Forster, Vol., 2, P., 161, 166, 224 234.

الأعشاب وتتخللها الأشجار . وبها جبال (قرا)[1] ، ومنحدراتها أرجوانية ، وقد تفتتت الصخور الحمر فيها ، فأكسبت الأودية والسهول الحمرة ، وتوجد نهيرات وعيــون ، ويمكن الحصول على المياه بحفر الآبار . ولا زال السكان يحتفظون بعاداتهم القديمة الموروثة مما قبل الإسلام[2] .

ويظهر أن هذه المنطقة كانت أماكن (القرين) من الشعوب العربية الجنوبية القديمة ، وهناك قبيلــة لا تزال حتى اليوم يقال لها (بنو قرا)[3] لعل لها صلة بالقرين .

ويتكلم أهل (مهرة) بلهجة خاصة ، يقال لها (المهرية) أو (الأمهرية) ، وهي متأثرة بالجعزية[4] . كما يتكلم أهل قارة (قرا) بلهجه يقال لها (أحكيليلة) ، ويظن انها من اللهجات العربية القديمة .

وتتألف أرض عمان من أماكن جبلية ، وهضاب متموجة ، وسهول ساحلية. وأكثر حجارتها كلسية وغرانيتية ، وفيها أيضاً حجارة بركانية . والظاهر انها كانت من مناطق البراكين[5] . وفي مناطق التلال وفي (جعلان) عيون ومجاري مياه معدنية أكثرها ذات درجات حرارة مرتفعة . وتوجد آبار في (الباطنة) وفي المناطق المجاورة للصحراء وفي الأقسام الشرقية من عمان[6] .

وتتخلل هضاب عمان وجبالها أودية معظمها جاف ، وتكون طرق المواصلات بين الساحل والأرضين الباطنة ، وجوها حار استوائي ، وتتجه الجبال من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وأعلى قمة فيها هي قمة الجبل الأخضر ، ويبلــغ ارتفاعها تسعة آلاف قــدم . والأرضون المحيطة بهذا الجبل ، خصبة ، وقابلة للاستثمار[7] .

---

١ Hugh Scott, P., 147.

٢ اليافعي (٢٠١/٢ فما بعدها) .

٣ اليافعي (٢٠٦/٢ فما بعدها) .

٤ Reise, S., 33, Leo Hirsch, Reisen in Sued-Arabien, Mahra Und Hadramut, Leiden, 1897, S., 19, 34, 51, 52, 53.

٥ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 238, Ency. Brit., Vol., 16, P., 785.

٦ Handbook, Vol., 1, P., 238, Leo Hirsch, S., 183.

٧ S.H. Steinberg, The Statesman's Yearbook, London, 1948, P., 689.

وفي عمان مدن قديمة ، منها (صحار) و (نزوة)[1] و (دبا) أو (دما) ، وكانت من المدن المهمة في أيام الرسول ، وهي عاصمة عمان الشمالية ، كما كانت سوقاً من أسواق الجاهلية ، وسكانها من الأزد . والعمانيون من الشعوب البحرية المحبة لركوب البحار ، ولهم صلات وروابط بسواحل افريقية والهند . ونجد بينهم عدداً كبيراً من الزنوج والهنود والفرس والبلوج[2] .

العروض :

وأما العروض ، فيشمل اليمامة والبحرين وما والاها[3] . وأغلب الأرضين فيه صحارى وسهول ساحلية ، ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر . ويمتد مرتفع الصمان الصخري موازياً لساحل الخليج ، متوسطاً بين الأحساء والدهناء . ومن أودية الأحساء ، وادي فروق في الجنوب ، وهو قسم من وادي المياه[4] .

ومن أقسام العروض ، شبه جزيرة (قطر) التي تمتد من عمان الى حدود الأحساء[5] . يشتغل سكانها بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ ، وقد عرفت بـ (Cataraei) عند (بلينيوس)[6] . ومعظم أراضيها صحارى،وفيها واحات قليلة ، ويزرع السكان في بعض الأماكن على مياه الآبار[7] . وقد عرفت قديماً بأنواع من الثياب والمنسوجات القطرية ، كانت تصدّر الى الخارج ، كما عرفت بتصدير النجائب والنعام[8] .

ويلي شبه جزيرة قطر ، (الأحساء) ، وكان يقال لهذه المنطقة قديماً (هجر)

---

١ البلدان (٣٠/٤) ، (٣٣٩/٥ ، ٢٨١/٨) .

٢ Steinberg, P., 690, O'shen, The Sand Kings of Oman, London, 1947.

٣ البلدان (١٠١/٣) ، (١٦٠/٦) .

٤ وهبة ٦٨ ، (الصمان) ، بالفتح ثم التشديد واخره نون ، البلدان (٣٨٣/٥) .

٥ البلدان (١٢٣/٧) ، Steinberg, P., 692.

٦ Pliny, Natura. Hist., VI, 28, 147, Ency., Vol., 2, P., 817 Sprenger, Geogr. Arab. S., 116, Skizze, BD., 2, S., 75.

٧ Ency., Vol., 2, P., 817, Fr. Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S., 177, Palgrave, Travels in Arabia, London, 1865, Vol., 2, PP., 232.

٨ البلدان (١٢٣/٧) .

والبحرين[1] . والقسم الأكبر من الأحساء ، سهل صحراوي ، يرتفع في الجهة الغربية عن ساحل البحر ، ويتخلله كثير من التلال ، يتجه بعضها باتجاه وادي المياه وجبل الطف[2] . والمنطقة الساحلية ، سبخة في الغالب ، وتكثر فيها الآبار التي لا تبعد مياهها كثيراً عن سطح الأرض . وأغنى مناطق الأحساء ، منطقة الأحساء والقطيف في الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون[3] .

وتظهر المياه الجوفية المنحدرة من الأمطار التي تتساقط بمقدار أربع عقد أو خمس عقد (انج) في السنة على حافات جبل (طويق) في (الهفوف) ، تظهر فيها على شكل عيون ، تبلغ زهاء أربعين عيناً ، جعلت المنطقة من أهم الواحات في المملكة العربية السعودية[4] . وبحذاء هجر في الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع (العقير) ، وهي الآن ميناء صغير[5] . وعلى مقربة منها خرائب عادية ، يعتقد العلماء أنها موضع (Gerrhaei) المدينة التجارية العظيمة التي اشتهر أمرها ، وبلغت شهرتها اليونان والرومان[6] . وكانت محطة من المحطات التجارية العالمية ، وملتقى طرق القوافل التي كانت ترد من جنوب بلاد العرب قاصدة العراق . وقد أغرت الطامعين ، فطمعوا في الاستيلاء عليها ، وأوحت الى الكتبة (الكلاسيكيين) ، فكتبوا فيها قصصاً من نسج الخيال ، وتقع على خليج سمّاه (الكلاسيكيون) (Sinus Gerraicus) ، أي خليج جرهاء[7] .

وتقع القطيف على خليج يشمل جزيرة (تاروت) وتعد المدينة البحرية الرئيسية في الأحساء ، يرتفع سطحها بضع أقدام عن سطح البحر ، وتكثر بها مياه العيون[8] . وتشاهد عندها خرائب عادية ، يستدل منها على أن هذه المدينة كانت

---

١ وهبة ٦٨ . Handbook, Vol., 1, P., 298

٢ الطف ، بالفتح والفاء مشددة ، البلدان (٦/٥١) ، وهبة ٦٨ ،

٣ وهبة ٦٨ ، Handbook, Vol., 1, P., 298

٤ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 58.

٥ وهبة ٧٢ فما بعدها ، البلدان (٦/١٩٨) ، مروج الذهب (١/٩١) ، Handbook, Vol., 1, P., 308, Chesman, PP., 27,
وكانت هجر قصبة بلاد البحرين ، البلدان (٨/٤٤٦)

٦ الجرعاء ، « Gerrael » Forster, Vol., P., 217, "Gerrael", Glaser, Skizze, Bd, 2, S. 75.

٧ Strabo, Vol., 3, P., 186, 187, Forster, Vol., 2 P. 217.

٨ Forster, Vol., I, P., 196, 197, 291, Vol., 2, P. 220. Cornwall in The National Geographical Magazine, April, 1948.

ذات تاريخ قديم ، ربما يعود الى آخر عهد من عهود العصر النحاسي .

وفي هذه المنطقة ، يجب أن يكون موقع مدينـة (بلبانا) (Bilbana) (Bilaena) (Bilana) ، احدى مدن (الجرهائيـين)[1] . ومواطن قبيلتي (Gaulopes) و (Chateni) عـلى سواحل خليج سمـاه (بلينوس) (Sinus Gaulopeus) أي (خليج كيبيوس) . ويرى (شبرنكر) أنـه (خليج القطيف)[2] . ويذكرنا اسم (Chateni) (خطيّ) باسم (الخط)، ويطلق في العربية على سيف البحرين كله[3] . وربمـا كان (كيبيوس) ، الذي سمّي الخليج بـه ، هو تحريف (Cateus) الذي يشير بكل وضوح الى اسم (القطيف) .

وأما جزيرة (تاروت) الصغيرة التي في هذا الخليج ، فالظاهر انها جزيرة (Tahr) أو (Taro) أو (Ithar) في جغرافية (بطليموس)[5] ، وفيهـا مدينة (دارين) . ويظهر انها أقيمت على أنقاض أبنية قديمة ، ولعلها كانت معبداً للإلـه (عشتروت) . اشتهرت به ، ثم حذف المقطـع الأول من اسم الإلـه اختصاراً ، وصارت تعرف بالمقطعين الأخيرين ، وهما (تاروت) .

والقسم الأكبر من أرض الكويت منبسط ، وأكثر السواحل رملي، الا بعض الهضاب أو التلال البارزة . وفي المحالّ التي تتيسر فيها المياه تتوافر الزراعـة ، وأكثر ما يزرع هناك النخيل . وليس في الكويت من الأنهار الجارية غير مجرى واحد أو نهر يقال له (المقطع) ، يصب في البحر . ومشكلة ماء الشرب من أهم المشكلات في هذه الإمارة ، لأن ماء أغلب الآبار ملح أجاج،ولذلك يضطر الأغنياء الى جلب المياه من شط العرب[6] .

ومن أشهر مدن الكويت مدينة (الكويت) ، وهي العاصمة ، وهي على ساحل الخليج ، و (جهرة) ، وهي في منطقة زراعية خصبة ، ذات آبار عـلى مقربة من خليج الكويت[7] . ويظن أن الخندق الذي أمر بحفره (سابور ذو الأكتاف)

---

١ Forster, Vol., 2, P., 216, Glaser, Skizze, 2, S., 74.

٢ Enc., 2, P., 821.

٣ البلدان (٤٤٩/٣) ، المفضليات ص ٢٤٥ .

٤ Forster, Vol., 2, P., 216.

٥ Forster, Vol., 1, P., 298, 301, Vol., 2, P., 216 217 220 Glasser Skizze 2 S. 76.

٦ وهبة ص ٧٦ ، Handbook, Vol., 1, P., 285, Ency., 2, P., 1173.

٧ (الجهرة) ، وهبة ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ومواضع اخرى Handbook, Vol., 1, P., 296.

ليحمي السواد من غزو الأعراب ، كان ينتهي في البحر عند (خليج كاظمة) في شمال الإمارة[1] .

وأرض الكويت ، مثل سائر أرض العروض ، كانت موطن شعوب قديمة ، فيظهر أن (Bukae) أو (Abucaei) أو (Abukae) ، وعاصمتهم مدينة (Coromanis) ، هم أسلاف بني عبـد القيس ، وأن (Coromanis) ، المصدر اللغوي الذي اشتق منه (القرين) ، الاسم القديم للكويت[2] .

ولعلّ (Idicare) هي (قارة) من مواضع الكويت[3] ، وان (Jucara) هي (الجهرة) من أخصب مناطق الكويت في الزمن الحاضر،وكانت من المواضع المأهولة قبل الإسلام[4] .

وقد عرف (ياقوت) البحرين بأنها الأرضون التي على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان ، وذكر أن من الناس من يزعم أن البحرين قصبة هجر ، وأن منهم من يرى العكس ، أي ان هجراً هي قصبة البحرين[5] .

أما (أبو الفداء) فذكر أن البحرين هي ناحية على (شط بحر فارس) ، وهي ديار القرامطة ولها قرى كثيرة ، وبلاد البحرين هي هجر . وذكر أيضاً أن من الناس من يرى أن هجراً اسم يشتمل جميع البحرين كالشام والعراق ، وليس هو مدينة بعينها[6] . ويظهر من دراسة مـا ذكره العلماء عن البحرين أن رأيهم في حدودها كان متبايناً ، وأنهم لم يكونوا على اتفاق في تحديدها، فتارةً يوسعونها ، وتارة يقلصونها .

ومن مواضع البحرين (محلّم) ، وبه نهر اشتهـر بنخله ، واليـه أشار (بشر بن أبـي خازم الأسدي) بقوله :

كأن حد وجهم لمّا استقلوا   نخيل (محلّم) فيها ينوع[7]

---

١ Ency, 2, P., 1173.
٢ تاريخ الكويت ، لعبد العزيز الرشيد (بغداد ١٩٢٦) ، (٢٣/١) ، Forster, Vol., 2, P., 213.
٣ وهبة ص ٧٩ ، Forster, Vol., 2, P., 214.
٤ Forster, Vol., 2, P., 214.
٥ البلدان (٣٤٦/١) (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥) .
٦ تقويـم البلدان (ص ٩٩) .
٧ ديوان بشر (ص ١٣٠) .

اليمامة :

وأما اليمامة ، فكانت تعرف بـ (جو) أيضاً[1] ، وقد عدّها (ياقوت الحموي) من نجد[2] ، وقاعدتها (حجر) . وكانت عامرة ذات قرى ومدن عند ظهور الإسلام ، منها (منفوحة) ، وبها قبر كان ينسب الى الشاعر (الأعشى)[3] . و (سدوس) من المدن القديمة ، وبها الآن آثار كثيرة ، وقد عثر فيها على تمثال يبلغ قطره ثلاث أقدام ، وارتفاعه ٢٢ قدماً[4] . و (القرية) ، وعلى مقربة منها بئر ، قال الهمداني – وهو يتحدث عنها – : « فإن تيامنت شربت ماءً عادياً ، يسمى قرية ، الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر ، ثم ترد نجر »[5] . والظاهر أن هذا الموضع كان من المواضع الكبيرة المعروفة . وذكر ياقوت وغيره ان اليمامة « كانت تسمى جوا والقرية »[6] . ولا يعقل تسمية اليمامة بالقرية لو لم يكن لهذا الموضع شهرة .

وقد نشر (فلبي) وبعض رجال شركة النفط العربية السعودية صوراً فوتوغرافية لكتابات ونقوش عثروا عليهـا في موضع يقال له (قرية الفأو) على الطريق الموصلة الى نجران ويقع على مسافة سبعين كيلومتراً من جنوب ملتقى وادي الدواسر بجبل الطويق ، وعلى مسافة (١٢٠) كيلومتراً من شرقي (نجران)[7] ،

---

١ صفة ١٦١ ، البلدان (٥١٦/٨) ، (واليمامة القرية التي قصبتها حجر ، كان اسمها فيما خلا جوا . وفي الصحاح كان اسمها الجو) ، لسان العرب (١٣٥/١٥)

٢ البلدان (٥١٦/٨)

٣ البلدان (١٨٢/٨) ، صفة ١٦٢ .

٤ وهبة ص ٥١ ، راجع وصف (فلبي) لسدوس في كتابه
Arabia of the Wahabis, P., 77.

٥ صفة ص ١٥٢ .

٦ البلدان (٥١٦/٨) ، وقد نزل بنو سدوس بن شيبان بن ذهل ، ولذلك قيل لها (قرية بني سدوس) ، قال ياقوت : (قرية بني سدوس بن شيبان بن ذهل ، وفيها منبر وقصر يقال أن سليمان بن داوود عليه السلام بناه من حجر واحد من اوله الى اخره ، وهي اخصب قرى اليمامة ، لها رمان موصوف ، وربما قيل لها القرية) ، البلدان (٤٦/٥) (٧٦/٧) .

٧ The Geographical Journal, Vol., CXII, June, 1949, PP., 86, Le Museon, LXII, (1949), 1-2, PP., 87.
راجع ايضا ما كتبه (فلبي) في بعض مؤلفاته عن هذا الموضع .

وعلى ثلاثين ميلاً من جنوب غربي (السليل) في وادي الدواسر[1] .

كما وجدوا آثار أبنية ضخمة ، يظهر انها بقايا قصور كبيرة، ووجدوا كهفاً منحوتاً في الصخر مزداناً بالكتابات والتصاوير واسعاً ، يقول له الناس هناك (سردباً) أو (سرداباً) . وعند هذا الموضع عين ماء وآبار قديمة ، وقد كتب اسم الصنم (ود) بحروف بارزة . وتدل كل الدلائل على ان الموضع الذي تتغلب عليه الطبيعة الصحراوية في الزمن الحاضر ، كان مدينة ذات شأن[2] .

وقد أشار الألوسي في كتابه (تأريخ نجد) الى سدوس وآثارها فقال : (وفي قربها أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة . (نقل لي بعض الأصحاب الثقات من أهل نجد : ان من جملة هذه الأبنية شاخصاً كالمنارة ، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها . فلما رأى أهل قرية سدوس اختلاف بعض السياحين من الإفرنج اليها ، هدموها ملاحظة التدخل معهم)[3] . وفي هذا الوصف دلالة على أن الخرائب التي ذكرها (ياقوت الحموي) بقيت ، وأن المنبر الذي أشار اليه ، قد يكون هذا الشاخص الذي شبه بالمنارة والذي أزيل على نحو ما ذكره الألوسي .

والكتابات التي عثر عليها في (قرية الفأو) ذات أهمية كبيرة ، لأنها أول كتابة باللهجات العربية الجنوبية عثر عليها في هذه المواضع ، وتعود الى ما قبل

---

١ كتاب من الدكتور (جورج ماثيوس) تأريخه ٣٠ اغسطس ١٩٥٠ م في تعيين وضع المكان . (قرية : موضع في جنوب نجد ، في الطريق بينه وبين نجران ، ويبعد عن نجران ٣٤٣ كيلو مترا وعن الافلاج الواقعة في جنوب نجد (٣٨٣) كيلو متر (الافلاج تبعد عن الرياض ٢٧٣ كيلو متر) ، ويقع بينها وبين الافلاج العقيق — الموقع الذي ذكره الهمداني في صفة الجزيرة ، واشار الى وجود جالية اجنبية فيه في العهد القديم تشتغل بالتعدين ، واشار الي معبد منحوت في الصخر في تلك الجهة ، وبلغني ان في الجبال القريبة من (قرية) هذه ـ كتابات ونقوشا وصورا كثيرة . وقد مر بها المستر فلبي ، وتبعد عن العقيق ٩٤ كيلو مترا في جنوبه . ويبعد العقيق عن الافلاج ٢٨٠ كيلو مترا تقريبا) . كتاب من السيد حمد الجاسر تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠
(العقيق مدينة فيها مثتا يهودي ، ونخل كثير ، وسيوح وابار) ، صفة ١٥٢ ، البلدان (١٩٨/٦)

٢ The Geographical Journal, CXIII, June, 1949, P., 90, Philby, Sheba's Daughter's, P. 430

٣ تاريخ نجد (ص ٢٨) .

الميلاد . وعثر فيها على مقابر ، وعلى أدوات وقطع فخاريـــة ظهر من فحصها أنها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد[1] . ويرى من فحص هذه الآثار أنها تعود الى السبئيين . والظـــاهر أن هذا الموضع هو بقايا مدينة قديمة كانت تتحكم في الطريق التجارية التي تخترقها القوافل التي تقصد الخليج الفارسي والعراق من اليمن عن طريق نجران . وفي هذه المنطقة بصورة عامة بقايا مدن تخربت قبل الإسلام .

ورأى (برترام توماس) (Bertram Thomas) أن آبار (العويفرة) القريبة من القرية هي موضع (أوفير) (Ophir) الوارد ذكره في التوراة والذي اشتهر بالذهب ، والطواويس ، وان الاسم العربي القديم هو (عفر) (Ofar) ،وقد تحرف بالنقل الى العبرانية واليونانية ، فصار (Ophir) . وهذا الموضع قريب من مناجم الذهب[2] . وبالجملة إن هذه الأرضين ويبرين ووبار وغيرهـــا ، هي من المناطق التي تستحق الالتفات اليها وتجريد البعثات العلمية للتنقيب فيها ودراسة أحوالها والتطورات التي طرأت عليها .

ويظهر ان هنالك جملة عوامل أثرت في اليمامة وفي أواسط جزيرة العرب ، فحولت أراضيها الى مناطق صحراوية ، على حين أننا نجد في الكتب انها كانت غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومزارع ومراع .

ومن أودية اليمامة (العرض) (العارض) الذي يخترق اليمامة من أعلاها الى أسفلها . ولما كان من الأودية الخصبة ، كثرت فيها القرى والزروع[3] . وهو واد طويل ، لعله من بقايا مجرى ماء قديم ، و (الفقي) ، في طرف عارض اليمامة ، تحيط به قرى عامرة،تسمى (الوشم)[4] . و (وادي حنيفة) و (عرض شمام)[5] . وفي اليمامة مرتفعات مثل (جبل شهوان) ، تخرج منه عيون ومياه[6] ، و (عارض اليمامة) ، ويبلغ طوله مسيرة أيام ، وتكون عند سفوحه الآبار[7] .

---

١ The Geogr. Jour., Vol., CXIII, June, 1949, P., 92, Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139.

٢ The Empty Quarter, P., 177, Bertram Thomas, Arabia Felix, P., 163.

٣ البلدان (١٤٦/٦ فما بعدها) ، (١٢٨/٨) ، صفة ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ويقال له أحيانا عرض حجر .

٤ (الوشم) بالفتح ثم السكون ، البلدان (٤٢٤/٨) ، صفة ١٦٣ .

٥ البلدان (١٤٧/٦) .

٦ البلدان (٣٨٦/٧) .

٧ البلـــدان (٣٨٩/٦) ، (عارض) (عارض اليمامـــة) ، البلـــدان ــ ٩٣/٦ ــ (العارض) ، وهبة ٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ومواضع اخرى ، صفة ص ١٦٣ .

وتعد (الأفلاج) من المناطق التي تكثر فيها المياه ، وتصب فيها أودية العارض، وفيها السيوح الجارية والجداول التي تمدها العيون . وقد ذكر (الهمداني) من سيوحه (الرقادى) و (الأطلس) و (نهر محلّم) . قال : ويقال انه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم[١] . وطبيعي ان يكثر فيها وجود الخرائب العاديــة التي تعود الى ما قبــل الإسلام . وقد وصف الهمداني بعض التحصينات القوية ، فقال عنها : انها من عاديات طسم وجديس ، مثل (حصن مرغم) و (القصر العادي) بالأثل[٢] . ويرجع (فلبي) الخراب الذي حل باليمامة الى العوامل الطبيعية ، ومنها فيضان وادي حنيفة[٣] .

نجد :

نجد في الكتب العربيــة « اسم للأرض العريقة التي أعلاهـا تهامة واليمن ، وأسفلها العراق والشام »[٤] . وحدها ذات عرق من ناحية الحجاز ، ومـا ارتفع عن بطن الرمة ، فهو نجد الى أطراف العراق وبادية السماوة[٥] . وليست لنجد في هذه الكتب حدود واضحة دقيقة ، وهي بصورة عامة الهضبة التي تكون قلب الجزيرة ، وقد قيل لها في الانكليزية : (The Heart of Arabia)[٦] . وتتخلل الهضبة أودية وتلال ترتفع عن سطح هذه الهضبة بضع مئات من الأقدام، وتتألف حجارتها في الغــالب من صخور كلسية ومن صخور رملية غرانيتيــة في بعض المواضع . وأعلى أراضيها هي أرضو نجد الغربية المحاذية للحجاز ، ثم تأخذ في الانحدار كلما اتجهت نحو الشرق حتى تتصل بالعروض .

وتتألف نجد من الوجهة الطبيعية من مناطق ثلاث :

---

١ صفة ص ١٦٠

٢ صفة ص ١٦٠

٣ Ency., Vol., 4, P., 1155, Philby, The Heart of Arabia, Vol., 2, PP. 31.

٤ البلدان (٢٥٨/٨ فما بعدها) ، الالوسي : محمود شكري ، تاريخ نجد (الطبعة الثانية) ، القاهرة (١٣٤٧ هـ) ، (ص ٧ فما بعدها) .

٥ صفــة ص ٤٨

٦ K. S. Twitchell, Saudi Arabia, P., 6, Stamp, P., 137.

١ – منطقة وادي الرمة ، وتتألف أرضوها من طبقات طباشيرية في الشمال وحجارة رملية في الجنوب ، وتغطي وجه الأرض في بعض أقسامها طبقات مختلفة السمك من الرمال ، وتتخللها أرضون خصبة تتوافر فيها المياه على أعماق مختلفة، ولكنها ليست بعيدة في الجملة عن سطح الأرض ، وتتسرب اليها المياه من المرتفعات التي تشرف عليها وخاصة من جبل شمر[١] ، ومن الحرار الغربية التي تجود على الوادي بالمياه . ويختلف عرض وادي الرمة ، فيبلغ زهاء ميلين في بعض المحلات ، وقد يضيق فيبلغ عرضه زهاء (٥٠٠) ياردة ، وتصل مياه السيول الى ارتفاع تسع أقدام في بعض الأوقات[٢] .

٢ – المنطقة الوسطى،وهي هضبة تتألف من تربة طباشيرية، متموجة ، تتخللها أودية تتجه من الشمال الى الجنوب . وبها (جبل طويق)، والأرض عنده مؤلفة من حجارة كلسية،وحجارة رملية ، ويرتفع زهاء (٦٠٠) قدم عن مستوى الهضبة. وتتفرع من جبل طويق عدة أودية تسيل فيها المياه في مواسم الأمطار ، فتصل الى الربع الخالي فتغور في رماله . ويمكن اصلاح قسم كبير من هذه المنطقة ، ولا سيما الأقسام الواقعة عند حافات وادي حنيفة[٣] .

٣ – المنطقة الجنوبية ، وتتكون من المنحدرات الممتدة بالتدريج من جبل طويق ومرتفعات المنطقة الوسطى الى الصحارى في اتجاه الجنوب . وفيها مناطق معشبة ذات عيون وآبار ، مثل (الحريق) و (الخرج) ، ويرى الخبراء ان مصدر مياه هذه المنطقة من جبل طويق ومن وادي حنيفة . ومن مناطقها المشهورة (الأفلاج) و (السليل) و (الدواسر)،وفي جنوب هذه المنطقة تقل المياه ، وتظهر الرمال حيث تتصل عندئذ بالأحقاف .

ويقسم علماء العرب نجداً الى قسمين : نجد العالية ، ونجد السافلة . أما العالية فما ولي الحجاز وتهامة[٤] . وأما السافلة ، فما ولي العراق . وكانت نجد حتى القرن السادس للميلاد ذات أشجار وغابات ، ولا سيما في (الشربة) جنوب (وادي الرمة) وفي (وجرة)[٥] .

---

١ وهبة ص ٦٠
٢ Handbook, Vol., 1, P., 349.
٣ Ency., Vol., 3, P., 894, Handbook, Vol., 1, P., 349.
٤ البلدان (٨/١٠٤) ، تاريخ نجد ص ٨ .
٥ Ency., Vol., 3, P., 895, Philby, The Heart of Arabia, 1, P., 115.

وفي جزيرة العرب وبادية الشام أرضون يمكن أن تكون مورداً عظيماً للماشية بل وللحبوب أيضاً ، لو مسها وابل وهطلت عليها أمطار ، وتوفرت فيها مياه، فإن أرضها الكلسية تساعد كثيراً على تربية الماشية بجميع أنواعها . كما تساعد على الاستيطان فيها ، ولهذا يتحول بعضها الى جنان تخلب الألباب وتسحر النفوس عند هبوط الأمطار عليها ، فتجلب اليها الانسان يسوق معه إبله لتشبع منها . ولكن هذه الجنان لا تعمر ، ويا للأسف ، طويلاً ، فيضطر أصحاب الإبل الى الذهاب الى أرضين أخرى ، والى التنقل من مكان الى مكان ، فصارت حياته حياة تنقل وهي حياة الأعراب .

أما وقد انتهيت من الحديث إجمالاً عن صفة جزيرة العرب وعن حدودها ورسومها العامة ، فلا بد لي من الإشارة الى جزيرة (سقطرى) (سوقطره) من الجزر التي تقابل الساحل العربي الجنوبي ، وهي جزيرة كانت تعادل وزنها ذهباً يوم كان البخور والصبر يعادلان بالذهب[1] . أما اليوم فما زال سكانها يجمعون الصبر والبخور والند ، ولكنهم لا يجدون لحاصلهم السوق القديمة لزوال دولة المعابد والملوك الآلهة ، وحلول عهد الذرة والبترول . وسكانها منذ القديم، خليط من عرب وإفريقيين وهنود ويونان . يتكلمون بلغة خاصة هي من بقايا اختلاط اللغات في هذه الجزيرة ، فيها اللهجات العربية الجنوبية القديمة والمصرية والإفريقية. وهم يعيشون في كهوف ومغاور في الغالب ينالون رزقهم من الطبيعة بغير جهد . وترى في الجزيرة آثار الماضي وقد اختلط بعضه ببعض ، لتداخل الحكم في هذه الجزيرة الثمينة التي هي اليوم في قبضة الانكليز .

والآن وقد وقفت على صفة جزيرة العرب ، وعرفت على سبيل الاجمال معالم وجهها ، وكيف تغلبت الصحراوية ، وظهر الجفاف عليها ، فإن في وسعك أن تكوّن رأياً في سبب قلة نفوس جزيرة العرب في الماضي وفي الحاضر ، وفي سبب عدم نشوء مجتمعات حضرية وحكومات مركزية كبيرة فيها ، وفي سبب تفشي البداوة وغلبة الطبيعة الأعرابية على أهلها وبروز الروح الفردية عند أهلها، وتقاتل القبائل بعضها مع بعض . ونفرة أهلها من الزراعة والحرف واعتدادهم اياها من حرف الوضعاء والرقيق . إن بيئة تحكمت فيها الطبيعة على هذا النحو،

---

١ جان جاك بيربي : جزيرة العرب (ص ١٩٢ فما بعدها) .

لا يمكن أن يشاكل سكانها سكان المناطق الباردة ذات الأمطار الغزيرة والخضرة الطبيعية الدائمة،أو سكان الأرضين التي حباها الله الخصب والأنهار والماء الغزير . من هنا اختلفت حياة العرب عن حياة غيرهم من الشعوب .

وللسبب المتقدم،أي بسبب تحكم الطبيعة في مصير الانسان ، انحصرت الحضارة في جزيرة العرب في الأماكن الممطورة والأماكن التي خرجت فيها المياه الجوفية عيوناً وينابيع ، أو قاربت المياه فيها سطح الأرض ، فأمكن حفر الآبار فيها . في هذه المواضع نبعت الحضارة وأظهر العربي فيها أنه مثل غيره من البشر قادر على الابداع حين تتهيأ له الأحوال المواتية ، وتساعده الطبيعة ، ومن هذه الأماكن نستقي علمنا في العادة عن الجاهليين .

وعلى الرغم من سعة مساحة جزيرة العرب واتساعها ، فإنها لم تتسع لعدد كبير من السكان لأن معظم أرضها صحراوية ، لا تجذب الناس اليها ولا تساعد على ازدياد عدد السكان فيها ازدياداً كبيراً ، غير ان ذلك لا يعني أنها لا يمكن أن تتسع لعدد أكبر من سكانها الحاليين ، وان طاقتها لا يمكنها أن تتحمل هذا العدد أو ضعفه ، بل الواقع هو أن في استطاعة الجزيرة تحمل أضعاف أضعاف هذا العدد ، لو تهيأت لها حكومات حديثة رشيدة ، تأخذ بأساليب العلم الحديث في استنباط مواردها الطبيعية لمصلحة أهلها وفي تحسين الصحة العامة وايجاد موارد رزق للناس ، وضمان الأمن والسلامة لهم ، واسكان الأعراب ، وعمل ما شاكل ذلك من أمور . فإن سكان الجزيرة سيزدادون حتماً،ويبلون أضعاف أضعاف ما هم عليه اليوم .

ونجد بين سكان جزيرة العرب في الوقت الحاضر اختلافاً في الملامح الجسمية. فأهل أعالي نجد هم أقرب في الملامح الى قبائل عرب الأردن وعرب بادية الشام. وأهل الحجاز والسواحل ، يختلفون بصورة عامة عن أهل البواطن ، أي باطن الجزيرة ، في الملامح بسبب اختلاط أهل السواحل بسكان السواحل المقابلة لهم، وامتزاج دمائهم . وقد أجرى بعض الباحثين المحدثين فحوصاً علمية على السكان في مواضع متعددة من جزيرة العرب لمعرفة الملامح البارزة عليهم والأصول التي يرجعون اليها،فوجدوا أن هناك امتزاجاً واضحاً بين السكان يظهر بصورة خاصة في السواحل ، وهو امتزاج يرجع بعضه الى ما قبل الإسلام ويرجع بعض آخر الى الزمن الحاضر[1] .

---

١ Naval, P., 365.

ولم يكن لسان عرب الجاهلية لساناً واحداً ، ولكن كان كما سنرى ألسنة ولهجات . وقد استطعنا بفضل الكتابات الجاهلية أن نقف على بعضها . أما في الزمن الحاضر ، فإن لغة القرآن الكريم هي اللغة المتحكمة الموحدة للألسنة ، وهي لغة العلم والأدب والحكومات ، غير أن بعض القبائل لا تزال تحتفظ بلهجاتها القديمة ، وكذلك بعض أهل القرى والأرياف البعيدة عن الحضارة ، فإنها تتكلم بلهجات وألسنة متفرعة من اللهجات العربية الجاهلية ، كما الحال في مواضع من اليمن وفي العربية الجنوبية . ونجد في العربية الجنوبية قبائل تتكلم لهجات غريبة عن عربيتنا مثل اللغة المهرية واللغة الشحرية ، واللهجات المسماة بألسنة (أهل المدرة) . وهي لهجات لها صلة باللغات العربية الجنوبية الجاهلية وباللغات الإفريقية[١] .

١ Naval, PP., 374.

الفصل الخامس

طبيعة جزيرة العرب وثرواتها وسكانها

لم تدرس طبيعة أرض جزيرة العرب دراسة علمية مستفيضة شاملة ، بالرغم من قيام الشركات الأجنبية بالبحث ، في أنحاء منها ، عن طبيعة تربتها للتوصل بذلك الى اكتشاف ما في باطنها من ثروات . فأرض جزيرة العرب ، أرض واسعة ، تغطي الرمال أكثر مساحاتها ، فليس من السهل البحث فيها بحثاً علمياً عميقاً عن تركيبها وعن تطورها في كل أنحائها ، لهذا كان علمنا بهذه النواحي من البحث ضحلاً مختصراً في الغالب .

يتألف ثلثا الأقسام الشرقية من أرض المملكة العربية السعودية ، من طبقات رسوبية يقال لها في علم طبقات الأرض (Sedimentry Formation) ، تكون نوعاً من الصخور يتأثر ببعض المؤثرات الأرضيــة ، فتكون من أحسن الأماكن الملائمة للبترول والفحم . وتتألف هذه الطبقات الرسوبية في الدرجـة الأولى من الحجارة الكلسية . وتتكون أرض منطقة آبار البترول عند (الظهران) والمناطق الأخرى التي أصابت شركة البترول العربية السعودية الأمريكية فيها البترول ، من هذا النوع من الصخور[١] .

وتوجد آثار طبقات رسوبية في المناطق الغربية من جزيرة العرب المطلة علـى

١ Twitchell, Saudi Arabia, P., 8.

البحر الأحمر عنـــد جزر (فرسان)[1] و (جيزان)[2] و (صبيا)[3] و (أملج)[4] و (المويلح)[5] الواقع على مقربة من رأس خليج العقبة ، و (ضبا)[6] ، وحجارة رملية في العلا في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة بكميات واسعة ، وحجارة بركانية ولا سيما في مناطق الحرار،وصخور تكونت بفعل الترسبات المتأثرة بالضغط والحرارة ، وهي التي يقال لها : (Metamorphic Formation) ، وتساعـــد على تكوين المعـــادن . وقـــد وجدت في هذه المنطقة[7] ، خامات المعادن ولكنها لم تستغل حتى الآن استغلالاً تجارياً ، كما أن هذه الخامات والأرضين لم تفحص فحصاً فنياً لمعرفة النسب المعدنية فيها .

وتوجد الصخور الرملية في عسير وفي وادي الدواسر ، وتشاهد في منطقة هذا الوادي تلال تتجه من الشمال الى الجنوب ، تقع الى جنوب (الحماسين) وعلى ارتفاع (٢٢٠٠) قـــدم ، يظهر أنهـــا تكونت من الصخور (الأيولينية) (Aelian Sandstone) ومن حجارة « الكوارتس » الضخمة ، وقـــد حوت مقداراً من (أكاسيد الحديد) أعطت هذه السلسلة لوناً أحمر غامقـــاً . ويتكون فتات هذه الحجارة على هيأة ألواح صلبة ، وعند قطعها يلاحظ أنها تتكون من طبقات ، ويمكن فصلها على أشكال ألواح ، وقـــد تكونت على حافات هذه السلسلة وجوانبها أشكال طبيعية مدهشة أخاذة بتأثير فعل الرياح والرمال فيها .

وتتكون أرض (قرية) من صخور كلسية ، وهناك آبار قديمة تبلغ أعماقها

---

١ وهبة ص ٤٠ ، البلدان (٣٥٩/٦) ، صفة ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، Twitchell, P., 8, 63.

٢ (ميناء صغير على بعد مئتي ميل من جنوب الجنوب الشرقي للقنفذة ، وهـــي واقعة امام مجموعة جزائر فرسان ، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان)، وهبة ص ٤٠ .

٣ البلدان (٣٣٧/٥) ، صفة ٥٤،٧٣ ١٢٠ (صبيا على بعد عشرين ميلا في الداخل وهي الى الجنوب الشرقي من جيزان ، وكانت عاصمة الادراسة) ، وهبة ٤٠ .

٤ (أملج : قرية بها نحو مئة منزل ، بها قلعة صغيرة ، وامامها تقع جزيرة حسان التي من رملها يصنع الزجاج ، بها مزارع ونخيل ، ومنها تمتد طريق في الداخل الى اصطبل عنتر ، احدى محطات سكة حديد الحجاز) ، وهبة ١٥ ، ٢٠ .

٥ قرية وقلعة على بعد ١٥٠ ميلا الى الجنوب من العقبة ، وهبة ١٩ .

٦ الى جنوب المويلح ، المحل الرئيس لقبيلة الحويطات ، اتخذها الاتراك مركز دفاع عن الشاطىء ، وهبة ص ١٩ .

٧ Twitchell, P., 8.

تسعين قدماً ، حفرت في طبقات أرضيـــة مؤلفة من حجارة الكلس ، تتخللها طبقات من الحجارة الرملية غير أنها ليست ثخينة[1] . أما أرض (بئر حما) التي يبلغ ارتفاعها زهاء أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتقـع على الحافات الغربية للربع الخالي ، فإنها مؤلفة من الحجارة الرملية الأيولينية الحمراء ، وعلى مسافة (٣٥) ميلاً الى الجنوب الغربي من (حما) موضع يقال له (بئر الحسينية) فيه بئر يبلغ عمقها (١٢٩) قدماً ، وقد حفرت في أرض فيها طبقات ثخينة من (الغرانيت) . وتتألف أكثر الأرضين التي تمتد من هذا الموضع الى نجران من حجارة (غرانيتية) . وتظهر الحجارة الرمليـة في القسم الجنوبي والغربـي من هذه المنطقة التي ترتفع زهاء (١٥٠٠) قدم عن مستوى سطح الوادي الموصل الى نجران ، والذي يرتفع هو نفسه زهاء أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. وتتألف مناطق واسعة من اليمن من حجارة رملية ومن الطبقات المترسبة (Sediments)[2].

قلت : إن هنالك مناطق في الحجاز مكونة من طبقات مترسبة تعد من أحسن الصخور والطبقات الأرضية ، ملائمـــة للنفط والفحم ، وإن هنالك مناطق فيها صخور بركانية ونارية ، وقد تكوّن أكثرها بعد تغييرات كبيرة وعمليات طويلة من ضغط هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تكون العمود الفقري لجزيرة العرب . وترتفع زهاء (٩٠٠٠ — ١١٠٠٠) قدم عن مستوى سطح البحر في اليمن على ما تحتها من طبقات .

ونجد مناطق واسعة من (اللابات) مبعثرة على طول هذه السلسلة ، منها ما هو حديث التكوين . ويشاهد في الزمن الحاضر لسان بارز من (اللابة) في شرقي (ابـي عريش)[3] يمتد حتى يتاخم حدود اليمن، كما نشاهد مناطق أخرى مؤلفة من هذه الحجارة في مواضع عديـــدة بين (شقيق)[4] و (خور البرك)[5] مثلاً حيث تصل (اللابة) الى البحر الأحمر فتدخل فيه . وكذلك في شمالي (شقيق) عند (جهمـــة) حيث توجد بقايا بركان يكوّن جزيرة في البحر مقابل هذا

١ Twitchell, P., 9.

٢ Twitchell, P., 9.

٣ ابو عريش في تهامة على بعد سبعين ميلا شمالي اللحية ، وهبة ٤٠ .

٤ في تهامة ، وهبة ٣٨ .

٥ البـــرك ، وهبة ٣٨

الموضع[1] .

وعلى مسافة اثني عشر ميلاً من مكة جبل ، يقال له جبل النورة ، حيث تحرق حجارة الكلس المكونة له ، لاستخراج النورة واستعمالها في البناء[2] . وهذه الحجارة الكلسية هي من الطبقات المترسبة المتحولة . وهناك أماكن أخرى تكونت من هذه الحجارة ، يشاهدها المار من جدّة الى موضع (مهد الذهب) ، الذي تستغل الآن مناجمه ، لاستخراج الذهب ، وتتكون تلال مهد الذهب من الحجارة المترسبة التي تعرضت لتغيرات طبيعية عديدة ، عليها طبقات من حجارة (البازلت) (Basalt) .وفي حجارة المناجم خامات معادن متعددة، وفيها حجارة (الكوارتس) (Quartz)[3] . وتوجد في منطقة الطائف صخور (الغرانيت) ، وفي نهاية هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تنتهي في اليمن تشاهد (لابات) الحرار[4] وبقايا الحرار التي كانت تزعج اليمانيين ،إذ هي قد تقذفهم حممها في يوم من الأيام فتسومهم سوء العذاب .

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحرار ، ذكر السياح بعضها ، مثل حرة (أرحب) ، وتقع شمالي (صنعاء) ولها لابة استخرج منها الناس حجارة سوداً لبناء البيوت[5] . وعلى مقربة من (ذمار) تكون الأرض بركانية[6] . وتوجد الحرار في القسم الشمالي من (وادي أبرد)[7]، وفي الوادي بين (صرواح) و (مأرب)[8]. وقد حمل بعض المستشرقين وجود الحرار في اليمن بهذه الكثرة وعلى مقربة من المدن القديمة ، على تفسير هلاك بعض المدن كخراب (مأرب)[9] و (حقة)[10] و (شبوة)[11] بتأثير هياج البراكين .

---

١ Twitchell, P., 10.

٢ Twitchell, P., 10.

٣ Twitchell, P., 10.

٤ Twitchell, P., 10.

٥ H. Scott, In the High Yemen, London, 1947, P., 8, 114. Scott, P., 113.

٦ Scott, P. 113.

٧ Philby, Sheba's Daughter's, P., 389.

٨ المصدر نفسه ص ٣٩٢

٩ كذلك ص ٣٨٩

١٠ Scott, P., 195.

١١ Philby, in Geogr. Journal, 92, PP., 127, August, 1938, Sheba's, 103.

كذلك توجد مناطق حرار في العربية الجنوبية، في عدن[١] وحضرموت وعُمان[٢] وفي الربع الخالي ، وقد استعمل القدماء حجارة البراكين في البناء ، ولا يزال الناس يستعملونها في البناء حتى اليوم ، وقد وجد بين الحجارة المكتوبة عدد من صخور البراكين . وقد استغل الجاهليون بعض الحرار لاستخراج الكبريت منها، وذكر (نيبور) أن أهل اليمن كانوا يستخرجون الكبريت من جبل يقع في شرقي ذمار ، ويظهر أن هذا الجبل بركان قديم[٣] .

وتتكون بعض هضاب اليمن من الصخور المتبلورة التي مرت في أدوار طويلة. ويرى العلماء أنها كانت في الأصل تحت سطح البحر ، ثم ترسبت عليها طبقات ثخينة من المواد الرسوبية حتى تبلورت وتصخرت[٤] . وقد استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل في النوافذ،لتقوم مقام الزجاج . وهناك طبقة طباشيرية وطبقات من صخور رملية غذت المناطق المنخفضة ، وهي تهائم اليمن ، بالرمال. وكذلك المنطقة التي يقال لها الرمل[٥] . وتتكون التربة في تهامة وفي سهل صنعاء من المواد الصلصالية التي تعود الى الأزمنة (الجيولوجية) ، المتأخرة ، ومن المتكونات (الأيولينية) التي حصلت بتأثير فعل الرياح في الصخور الرملية[٦] . ويكثر وجود الصخور المتبلورة في الحجاز وفي العربية الجنوبية كذلك[٧] . وتوجد الصخور والطبقات الرسوبية في اليمن وفي حضرموت وعمان ، وقد وجدت في هذه المناطق علائم وجود البترول .

والسواحل الشرقية لجزيرة العرب ، أي السواحل الواقعة على الخليج ، هي سهول ، ولكنها سهول من الرمال في الغالب ، ولهذا قلّت فيها الزراعة ، إلا في المواضع التي تتوافر فيها المياه الجوفية،وتتفجر عيوناً،مثل الأحساء والقطيف . وهناك سباخ ومستنقعات ناتجة من انخفاض الأرض، جوّها غير صحي .والبترول في القرن العشرين ، هو الذي أغاث أهل هذه الأرض ،وجلب لهم الثراء والمال

---

١ Stamp, P., 140.

٢ D.G. Hogarth, The Nearer East, P., 97.

٣ Scott, P., 114, 237, Niebuhr, Reisebeschreibung, S., 324.

٤ Scott, PP. 6.

٥ Handbook, Vol., 1, PP., 145.

٦ Scott, P., 8.

٧ In Unknown Arabia, PP., 421, Stamp, P., 109.



Booth, P, 477, . ممالك الشرقين الأوسط والأدنى وشعوبها في نظر الكلاسيكيين

الوافر والسيارات الفارهة وآلات التبريد ووسائل الترف والرفاهية ، وبعث فيها الحياة بعد أن كانت خامدة خاملة .

وقد كانت حال هذه السواحل قبل الإسلام أحسن بكثير من حالها في القرن التاسع عشر الى يوم استنباط البترول في القرن العشرين ، بدليل ما نقرؤه في الموارد التأريخية من أسماء مواضع كانت مأهولة ، زالت واندثرت ، وأسماء قبائل كانت تنزل بها ، اضطرتها أحوال قاهرة متعددة متنوعة الى هجرها ، فقلّ عدد سكانها بالتدريج .

وتعد البحرين من أكثف المناطق في جزيرة العرب . فإن نسبة عدد سكانها بالقياس الى مساحة أرضها عالية نسبياً قبل الإسلام وفي الإسلام . وسبب ذلك هو توافر الماء فيها ، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة . والماء فيها غير عميق عن سطح الأرض وقد كون عيوناً في بعض الأماكن ولهذه المميزات صارت موطناً للحضر قبل الإسلام بزمن طويل .

وفي جزيرة العرب خامات معادن ، ومن الممكن استغلال بعضها استغلالاً اقتصادياً ، ومن هذه المعادن الذهب . وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء ومواضع عرفت بوجود خام الذهب بها ، مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه ، ويستخلصون منه الذهب[1] . و (ضنكان) ، وكان به معدن غزير من التبر[2] ، والمنطقة التي بين القنفذة و (مرسي حلج)[3] .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية أن المنطقة التي بين القنفذة و (عتود) ، كانت معروفة بوجود التبر فيها ، فكان الناس يشتغلون هناك باستخلاص الذهب منه ، ولهذا رأى (موريتس) أن هذه المنطقة هي منطقة (أوفير) (Ophir) التي ورد ذكرها في التوراة على أنها كانت تصدر الذهب[4].

ويشاهد في وادي تثليث على مقربة من (حمضة) وعلى مسافة ١٨٣ ميلاً من

---

١ البلدان (٢/٣٣٣ فما بعدها) ، صفة (١٢٧ ، ٢٥٧) ، المسالك والممالك (١٨٨) فؤاد حمزة ، في بلاد عسير (٦١ فما بعدها) ، Moritz, S., 105.

٢ صفة ١٢٠.

٣ Moritz, S., 110, Glaser, Skizze, S., 29.

٤ Hommel, Grundriss, Vol., 1, S., 13, Moritz, S., 110.

نجران آثار التبر ، ويظهر انه كان من المواضع التي استغلت قديماً لاستخراج الذهب منها[1] . وقد اشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها[2] ، وفي جملتها معدن الذهب ، ويستغل اليوم الموضع الذي يقال له (مهد الذهب) ، ويقع الى الشمال من المدينة باستخراج الذهب منه ، وتقوم بذلك شركة تستعمل الوسائل الحديثة ، تحرّت في مواضع عديدة من الحجاز الذهب والفضة ومعادن أخرى ، فوجدت أماكن عديدة ، استغلت قديماً لاستخراج (التبر) منها،ولكنها تركتها لغدم تمكنها من الحصول على الذهب منها بصورة تجارية ، تأتيها بأرباح حسنة ، واكتفت بتوسيع عملها في (مهد الذهب) ، لأنه من أغزر تلك الأماكن بخام الذهب ، وظلت تنقب به الى أن تركت العمل فيه ، وحلت نفسها ، وتركت كل شغل لها بالتعدين[3] .

وقد ذكر الكتبة اليونان أن الذهب يستخرج في مواضع من جـزيرة العرب خالصاً نقياً ، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . قالوا ولهذا قيل له (ابيرون) (Apyron) . وقد ذهب (شرنكر) الى أن العبرانيين أخذوا لفظة (أوفير) من هذه الكلمة[4] .

وقد عثرت الشركة في أثناء بحثها عن الذهب في (مهد الذهب) على أدوات استعملها الأولون قبل الإسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكوّن الذهب، وأمثال ذلك مما يدل على أن هذا المكان كان منجماً للذهب قبل الإسلام بزمن طويل ، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب الى (سليمان) ، فأضيف الى كنوزه ، على نحو ما هو مذكور في التوراة[5] .

---

١ The Middle East, (Royal Inst. of Inter. Affairs), P., 91, (1950), Twitchell, P., 77.

٢ صفة ١١٣ ، ١٥٣ ، ومواضع اخرى

٣ (شركة التعدين السعودية العربية) ، ويشمل امتيازها كـل أرض الحجـاز ، وتقوم بالبحث عن جمع المعادن ، وقد بحثت في منطقة الطائف ، غير انها لـم توسع اعمالها كثيرا ، تأسست سنة ١٩٣٤ م ، ثم صفت اعمالها وتوقفت عـن العمل ،
(Saudi Arabian Mining Syndicate, Ltd), Twitchell, P., 146, 157, Sheba's, P., 15, The, Middle East, 1948, P., 248.

٤ Montgomery, Arabia, P., 39.

٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 20, 23.

ويظن بعض الباحثين أن منجم (مهد الذهب) هو المنجم الذي كان لبني سُلَيم ، فعرف باسمهم وقيل له : (معدن بني سُلَيم) ، وقد وهبه الرسول الى بلال بن الحارث[١] .

وعرفت (أرض مدين) وما والاها من الأرضين في شمال (وادي الحمض)، بوجود التبر فيهـا . واستخراج الناس له هناك قبل الميلاد بمئات من السنين . وتوجد آثار المناجم التي كانت تستغل مبعثرة في مواضع عديدة حتى اليوم[٢] .

وتوجد خامـات معادن أخرى في الحجاز منها الكبريت والنحاس والقصدير والحديد[٣] ، وتستخرج الأملاح من الصخور الملحية التي في الحجـاز وفي عسير عند جيزان ، ويستخرج الأهلون منها مسحوقاً لاستعماله في عمـل المفرقعات[٤] كما أن هنالك مثل هذه الصخور المحلية في السلف من اليمن . ويمكن الاستفادة من هذه الأملاح فائدة كبيرة من الوجهة الاقتصادية حيث تدخل في كثير من الصناعات.

وفي منطقة (رابغ) توجد رواسب (البارايت) (Barite) ، وتدل البحوث الأولية على أنه من الممكن استخراج عشرة آلاف طن من (البارايت) في كل عام[٥] . وتدل الدلائل على أن هنالك منجماً قديماً في منطقة (رابغ) كان يستغل لاستخراج (الكالينه) (Galena) ، غير أن النماذج التي فحصت فحصاً أولياً دلت على أن هذه المادة قليلة فيها . ويظهر أن هناك كميات كبيرة من تراب الحديد في (العقيق) على مقربة من (مهد الذهب) كما شوهدت خامات المعادن في موضع (برم) جنوب الطائف[٦] وفي موضع (نفى)[٧]،ولا يستبعد العثور على البترول في الحجاز في المواضع المتكونة من الطبقات المترسبة (Sedimentary Formations) ، وتوجد في الحجاز الرمال التي تصلح لصنع الزجاج[٨] .

وتستغل أرض الأحساء في استخراج (البترول)[٩] ، ويكثر وجـود البترول في

---

١ Naval, P., 517.
٢ Richard Burton, The Arabian Peninsula, P., 17.
٣ Twitchell, P., 162.
٤ Twitchell, P., 163.
٥ Twitchell, P., 164.
٦ المصدر نفسه ص ١٦٤ ، (معدن البرم) ، البلدان (٩٤/٨) .
٧ (نفى) البلدان (٣٠٨/٨) ، Twitchell, P., 164
٨ وهبة ٢٠ .
٩ The Middle East, (1950), P., 90.

العروض حيث حفرت الآبار في الكويت والبحرين ، وتدل الدلائل على وجوده في قطر وعمان ، كذلك دلت التحريات على وجوده في حضرموت في منطقة (شبوة)[1] ، وفي المناطق وراء شبوة الى داخل جزيرة العرب ، حيث يحتمل العثور على مناجم للذهب كذلك[2] . ويجري البحث عن البترول في محمية (عدن) وفي اليمن .

ودلت التقارير الأولية على وجود الفحم في حضرموت في منطقة (شبوة) ، وتوجد الصخور الملحية مترسبة في بطن طبقات الأرض يقتطعها الأهلون، وتستغل في الأعمال التجارية ، كذلك توجد هذه الصخور الملحية في اليمن ، وقد تكونت بفعل العوامل (الجيولوجية) والضغط المتواصل ، فتحجرت بمرور آلاف السنين عليها ، وتكمن تحت سطح الأرض في بعض الأماكن حيث تحفر جوانب التلال للوصول الى قلب مناجم الملح المتحجرة ، وقد يفتت باستعمال المواد المتفجرة (الديناميت)[3] ، وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية بيضاء كأنها البلور[4] . مثل الملح المستخرج من (جبل الملح) بمأرب ، فإن ملحه كما يقال صاف كالبلور[5] . وتشتهر (السلف) بوجود مناجم ملح فيها ، تقع على مسافة أربعين ميلاً الى الشمال من الحديدة . وتوجد في جزيرة (قمران) المقابلة لهذا الموضع مناجم ملح ، وكذلك في (اللحية)[6] .

والى وجود مثل هذه الصخور الملحية في كثير من أنحاء جزيرة العرب ، يجب أن يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التأريخ والأدب .

ولما كانت أرض اليمن وأكثر الأنحاء الأخرى من الجزيرة ، لم تفحص حتى الآن فحصاً فنياً ، ولم تطأها أقدام الخبراء ، فمن الصعب التحدث عن مواطن المعادن فيها ، وعن أنواع التربة ، وأثرها في الحضارة الجاهلية .

وقد وجدت مصنوعات حديد في اليمن ، عثر عليها في الخرائب والآثار

---

١ Sheba's, P., 103.
٢ المصدر نفسه ص ١٩٨
٣ كذلك ص ٩٩ ، ١١٤ .
٤ أيضا ، ص ١١٤ ، ١٢٧
٥ صفة ص ٢٠١
٦ Scott, P., 114, 237.

والأماكن العادية ، كما اشتهرت اليمن بسيوفها ، في الجاهلية وفي الاسلام ، غير أننا لا نعرف الآن المواطن التي كانت تستغل لاستخراج الحديد منها ، وقد ذكر الرحالة « نيبور » انه كان في « صعدة » منجم ، يستخرج منه الحديد ، وأن أماكن أخرى كانت تستغل لإنتاج هذه المادة[1] .

وذكر (الهَمْداني) من معادن اليمن الذهب والفضة ، وقال : انه كان يستخرج من (الرضواض) ولا نظير لفضته ، والحديد ، وكان يستخرج من (نقم) و (غمدان) و (فصوص البقران) ، وتستخرج من جبل أنس . و (فصوص السعوانية) وتستخرج من (وادي سعوان) جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد الى جنب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان ، وحجر (العشاري) ، وهو الحجر العشاري من عشار بالقرب من صنعاء ، والبلور ، والمسنى الذي تعمل منه أنصاب السكاكين والعقيق الأحمر ، والعقيق الأصفر من الهان والجزع الموشى والمسير ، والشزب تعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف وأنصاب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك[2] . وعرفت اليمن بعقيقها الذي يقال له (عقيق يماني) و (حجر يماني) وهو (الجزع) (Onyx)[3] .

وقد بقيت بعض المواضع المذكورة تستغل معادنها في الإسلام ، إلاّ أن تغير الوضع في جزيرة العرب في الإسلام وهجرة كثير من القبائل الى البلاد المفتوحة ، ووجود صناعات فيها ومعادن أثمانها أرخص من أثمان معادن الجزيرة ، ثم تقدم العالم بعد ذلك وظهور الثورة الصناعية ، كل هذا وأمثاله أثر في وضع التعدين وفي صناعة المعادن في جزيرة العرب ، فدثرها ، أو تركها مشلولة لا تعمل إلاّ في حدود مرسومة ضيقة وفي مجال محلي .

وليست دولة الحيوان في جزيرة العرب دولة ضخمة عظيمة ، وكيف تكون ضخمة وأكثر أرض الجزيرة عدو للحيوان ولكل ذي روح ؟ والجمل هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وبصلابته على السير بجبروت وبتبختر فوق

---

١ Scott, P., 114, 237.

٢ صفة ص ٢٠٢ فما بعدها .

٣ Scott, P. 237

رمال الصحارى ، غير عابىء بالرياح العاتية التي تذرو الرمال في الأعين ، وتنقل أكواماً منها معها ، تكفي لدفن الجمل ومن عليه أو من معه ومع ذلك فإن هذا الحيوان الصبور العنيد . لم يتوفق أيضاً في تحطيم جبروت البوادي في كل مكان ، فظلّ بعضها أرضاً حراماً عليه وعلى السابلة،تحطم من يريد التجاوز عليها والاعتداء على استقلالها ، بأن تميته عطشاً ، فتفتح ذرات رملها الناعم ، وعندئذ تغوص قوائم الجمل فيها فيبقى في مكانه حتى ينفق .

والجمل ، هو أيضاً من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب ، وأعزّها. وقد صوّر في النصوص الآشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعارك أخرى، وقعت بين العرب والآشوريين . وطبيعي أن يقرن الجمل بالبادية،وأن يجعل رمزاً لها،فليس لحيوان آخر القدرة على اجتياز البوادي واختراقها وتحمل مشقاتها وعطشها مثل الجمل . ثم انه مركب العرب ، يحملهم ، ويحمل تجارتهم وماءهم،وهو يمونهم بالوبر لصنع البيوت حتى قيل للأعراب (أهل الوبر) ومنه يصنعون أكسية عديدة . ولبن الإبل ، هو لبن أهل البادية ، واذا احتاجوا الى لحم ، ذبحوا الجمل ، فأكلوه ، وأفادوا من جلده .

والجمل ثروة ، والثري العربي هو من يملك عدداً كبيراً من الإبل، وتقدر ثروته بقدر ما يملكه منها . وقد كان الجمل مقام (النقد) ، أي مقام الدينار والدرهم في الغالب ، فبعدد من الإبل يقدر مهر الفتاة ، وبعدد من الإبل تفض الديّات والخصومات . وهكذا يتعامل به كما نتعامل اليوم بالنقود .

ويرى العلماء أن الانسان ذلل الجمل حتى صيره أليفاً مطيعاً له في الألف الثانية قبل الميلاد[1] . وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان في الشرق الأدنى ، استدلوا على ذلك باطلاق العراقيين القدماء على الجمل اسم (حمار البحر) ، وقالوا إن قصدهم من (البحر) الخليج ، وأن لفظة (الجمل) (جملو) (كَمَلو) في (الأكادية) إنما وردت من بادية الشأم ، ومعظم سكان البادية هم من العرب ، وقد كانوا يستعملون الجمل استعمال الناس للسيارات ولوسائل الركوب في هذا الزمن . وقد استعملوه في الألف

---

١ W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimore, 1946, PP., 107, 120, Reinhard Waltz, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 101, 1951, S., 29, ff., 1954, S., 47. ff., Discoveries, P. 35.

الثانية قبل الميلاد، فدخوله من البوادي الى العراق هو دليل على أن العرب كانوا قد استخدموه أولاً ومنهم انتقل الى العراق والبلاد الأخرى[1].

ويرى (البريت) أن البداوة الحقيقية على نحو ما نعرفها اليوم من السكنى في البوادي والتنقل فيها من مكان الى مكان ، لم تظهر في جزيرة العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد ، وذلك بتذليل الانسان للجمل وبترويضه له لخدمة أغراضه ، ففتح له بذلك أبواب البوادي، وتمكن من التوغل فيها واجتيازها بفضل جمله خادمه المطيع . أما ما قبل الجمل، فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة الركوب عنده، لا يتحمل ولوج البادية ، ولا يستطيع أن يعيش فيها ، وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل ، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية ، وقبل وقت تذليل الجمل رعاة في الغالب ، وسائط ركوبهم الحمير ، ولم يكونوا قد طرقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد[2] .

فالجمل اذن هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب آفاق البوادي ، ووسع البداوة عندهم ، حتى جعلها عالماً خاصاً يقابل عالم الحضارة في الجزيرة . وهو الذي صار أهم واسطة لنقل الأموال بالطرق البرية الطويلة التي تربط أجزاء الجزيرة بعضها ببعض، وتربط طرق الجزيرة مع الطرق الخارجية . وبفضل الجمل القادر على تحمل العطش والصبر على الجوع ، وعلى تحمل الصعاب صار في امكان العرب التنقل الى مسافات بعيدة من الجزيرة وحمل أثقاله معه . فاستخدام العرب له هو في الواقع ثورة كبيرة في ذلك العهد بالنسبة الى وسائط النقل والحمل وفي عالم التجارة والاقتصاد . ومن حق العربي اذا ما عبّر عن الغنى ان يعبر بكثرة ما عند الانسان من إبل .

وقد عرف الجمل بوجود غريزة الانتقام فيه ، وبعدم نسيانه أذى من يؤذيه، لذلك زعم أنه يبقى حاقداً على المسيء اليه حتى ينتقم منه ولو بعد زمن طويل . ويظن أن لتفسير اشتقاق اسمه دخلاً في ظهور هذه الفكرة ، فقد فسرت لفظة الجمل بأنها من فعل (كَمَلَ) (جَمَلَ) (كامل) (جامـل) ، أي انتقم ، مع أنها تعني (حَمَلَ) أيضاً . وقالوا إن معنى (الجمل) (المنتقم) ،

---

١ BASOR., Num. 160, 1960, P., 42.

٢ Recoveries, P., 87.

وقالوا إنه سمي بذلك لأنه حيوان منتقم.ومن ثم وصف (أرسطو) و (أريان)، الجمل بأنه حيوان لا ينسى الأذى ، سريع الانتقام . وقد يكون لأقوالهما ولأقوال غيرهما في الجمل دخل في تكوّن هذه الفكرة عنه عند الناس حتى اليوم[1] .

الجمل المعروف في جزيرة العرب ، هو الجمل ذو السنام الواحـد . وهناك نوع من الجمال يقال للواحد منها (الهجين) ، وهو الجمل المُضرب ، ويكون أصغر حجماً من الجمل العربي الأصيل ، إلاّ أنه أسرع عدواً منه[2] . وقد عدّ الجمل عند العبرانيين من موارد الثروة والغنى كذلك ، ولذلك عـدّ (أيوب) من أغنياء زمانه لأنه كان يملك ألفي جمل ، وعد (المديانيون) (أهل مدين) وهم من العرب ، أغنياء ، لأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الجمال[3] .

وللجمل في العربية أسماء كثيرة . أما في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى، فلا نجد فيها مثل هذه الكثرة . ويقـال للجمل (كمل) و (بكرة) . ويراد بـ (كمل) الجمل . أما (بكرة) فالجمل الصغير . والجمل من أقدم الحيوانات المذكورة في التوراة ، وذكر أنه كان لإبراهيم عدد كبير من الجمال[4] .

وبالرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها ، وبتربيتهـا لأحسن الخيل ، وبتصديرها لهـا . فإن الخيل في جزيرة العرب إنما هي من الحيوانات الهجينـة الدخيلة الواردة عليها من الخارج ، ولا ترتقي ايام وصولها الى الجزيرة الى مـا قبل الميلاد بكثير . قيل إنها وردت اليها من العراق . ومن بلاد الشام ، أو من مصر[5] ، وإن وطنها الأصلي الأول هو منطقة (بحر قزوين) . ولهذا لا نجد في الكتابات الآشورية ، أو في (العهد القديم) أو في المؤلفات (الكلاسيكية)، اشارات الى تربية الخيل في جزيرة العرب،أو استعمال العرب لها في حلهم وترحالهم وفي حروبهم .

وقد بقي العرب الى مـا بعد الميلاد ، بل الى ظهور الإسلام ، لا يملكون عدداً كبيراً من الخيل . وفي غزوات النبي ومعاركه مع المشركين ، كان عـدد الخيل التي اشتركت في المعارك محدوداً معدوداً ، مع أنها كانت مهمة جداً وعدة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٣٨) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٣٩)
٣ القضاة ، الاصحاح السابع ، الاية ١٢ .
٤ Hastings, 1, P., 344.
٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 77.

حاسمة في احراز النصر . وذلك بسبب قلتها اذ ذاك ، وعدم تمكن كل الناس من اقتنائها ، إلا من كان موسراً منهم،أو في حال حسنة . فقد كانت تكاليف الخيل كثيرة لا يتحملها إلا ذوو الدخل الحسن ، فالخيل في حاجة الى عناية ورعاية،وطعامها للمحافظة على صحتها يكلف باهظاً . فلا بد من تقديم الحشائش والحبوب لها ثم إن مجال استعمالها في البادية محدود لأنهـا لا تستطيع تحمل جوع الصحراء وعطشها تحمل الجمل ، كما أنهـا لا تستطيع السير في رمال البوادي المهلكة المتعبة مسافات بعيدة لهذا لم يقبل الأعرابي العادي على شرائها أو تربيتها في تلك الأيام ، فصارت من نصيب أهل اليسر والحال الحسنة ، يمتلكها ويعتني بها من يملك السيارات في هـذه الأيام . كثرتها عند الرجل علامة عـلى ثرائه ووجاهته بين الناس .

ونظراً لسرعـة الخيل وخفتها في الكر والفر ، صارت أهم سلاح لنجاح الغزو وإلحاق الأذى بالعـدو ، يغير عليها المغير فيباغت خصمه بهجوم سريـع خاطف ، فيربكه ، ولهذا أخذت القبائل ، ولا سيا القبائل الساكنة في مضارب قريبة من الأرياف ومن الحضر ، تشتري الخيل وتعتني بها للمحافظة على حياتها في الدفـاع والهجوم . وعدّت القبائل القوية ، هي التي تملك عدداً كبيراً من الخيل ، وصار للفارس مقام خطير في ذلك الزمن ، لشجاعته وصبره في الدفاع عن مواطنيه ، فهو بمثابة (الكومندو) في هذه الأيام[1] .

واستعملت الخيل للتسلية واللهو واللعب ، فتسابق عـلى ظهورها الفرسان في حلبات السباق ، وتراهن الناس عـلى السابق ، ولعب الفرسان بعض الألعاب : ألعاب الفروسية وخرجوا على ظهورها للصيد ، فالصياد الراكب،أقدر من الصياد الراجل على مطاردة الصيد .

وفي القرآن ذكر للخيـل كمصدر من مصادر القوة ، يرهب بهـا المسلمون أعداءهم ومصدر من مصادر الثروة ، ومصدر من مصادر الزينة وبهجة الحيـاة الدنيا[2] . وفي الحديث ذكر لها كذلك وثناء عليها. وعُدّت الخيول من الحيوانات

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/١ وما بعدها) .

٢ آل عمران ، الاية ١٤ ، الانفال ، الاية ٦٠ ، النحل ، الاية ٨ ، الحشر ، ايـة ٦ اسراء ، اية٦٤ .

الشريفة الرفيعة في التوراة[1] ، وصورت على شكل خيول من نار فيها، تهبط على أعداء الرب لتنزل بهم الهلاك والدمار[2] .

أما البغال ، فإنها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات ، وقدرتها على السير في المناطق الوعرة ، مثل الهضاب والأرضين المتموجة والجبال . وقد استعملت في الحمل وفي الركوب ،وهي تؤدي خدمات في هذه المناطق يعسر على الجمل القيام بها ، وقد يعجز عنها . أما هي ، فإن من الصعب عليها العمل في البوادي ذات الرمال ، كما أنها لا تستطيع الصبر صبر الجمل على تحمل الجوع والعطش أياماً متوالية عديدة ، لذلك لم يقبل عليها أهل البادية ، ولم يعتنوا بها .

وقد حرم قدماء العبرانيين على أنفسهم تربية البغال ، وأول من أباح ذلك وجوز لهم استعمالها هو (داوود) ، ومنذ ذلك الحين،أقبلوا على تربيتها والاستفادة منها في أرض فلسطين[3] . ويظهر ان قدماء العبرانيين لم يكونوا يعرفون البغال ، فلما وجدوها عند أمم وثنية غريبة عنهم ، كرهوا استعمالها فحرموها على أنفسهم ، حتى انتبه (داوود) لفائدتها ومنافعها ، فاستعملها ، ثم قلده في ذلك بقية العبرانيين بالتدريج .

ويظهر أن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال في جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام. فقد ورد في كتب السير ان (دلدلاً) ، بغلة النبي ، (أول بغلة رئيت في الإسلام أهداها له المقوقس،وأهدى معها حماراً يقال له عُفير)[4] . وورد أيضاً : (أهدي لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، بغلة شهباء فهي أول شهباء كانت في الإسلام)[5] . وورد : (أهدى فروة بن عمرو الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بغلة يقال لها فضة)[6] .

---

١ ايوب ٣٩، اية ١٩ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/٢) .
٢ الملوك الثاني ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٦/٢) .
٣ اللاويون ١٩ ، ١٩ ، صموئيل ، ١٣ ، ٢٩ ، ١٨ ، ٩ ، الملوك الاول ، ٣٢١ ، ١٠ ، ٢٥ ، ١٨ ، ٥ ، Hastings, P., 637.
٤ ابن سعد الطبقات (٤٩١/١) (طبعة دار صادر) .
٥ المصدر نفسه
٦ كذلك .

وورد في القرآن الكريم : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... »[1]، مما يدل على أن من الناس من استعمل البغال للركوب وللزينة . وقد كان من الأشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطرق الوعرة . أما من هم دونهم في المنزلة ، فكانوا يتخذون الحمير .

وقد ورد في شعر لـ (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيد أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع ، وأن أبوالها كانت تترك وقيعاً أي أثراً على الأرض[2] . والظاهر أنه قصد بعض الأرضين الوعرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها ، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب ولرفع الأثقال .

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحمل عند الحضر وأهمها ، هي للحضري مثل الجمال للبدوي ، وهي مركب مريح لا يسبب ازعاجاً ، ولا سيما اذا كان أتاناً ، لأنها أهدأ وآمَنُ من العثار . هذا ، الى أنها صبورٌ تتحمل المشقات ، ولعلّ صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها ، قد حمل كل الناس على وسمها بالبلادة . فشبّه البليد بالحمار ، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه (حمار) . ليس ذلك عند العرب وحدهم ، بل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين، والبعيدة عنهم . فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالمية[3] . ويقال للحمار (حامور) (Hamor) في العبرانية . أما الأنثى ، فإنها (أتون) (Athon) أي (أتان) في العربية . وأما الحمار الصغير ، وهو ما يقال له (الكر) أو (الجحش) ، فإنه (عير) (Ayir) في العبرانية[4] .

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار في جزيرة العرب هو أقدم عهداً من الجمل ومن الخيل والبغال ، اذ كان واسطة الركوب والنقل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد . فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله ، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير .

---

١ النحل ، الاية ٨ .

٢ وقد جاوزن من غمدان ارضا لابوال البغال بهـا وقيـع
وفي بعض الكتب (عيـدان) في مكان (غمدان) ديوان بشر (ص ١٣٢) .

٣ Hastings, P., 59.

٤ Hastings, P., 59.

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب ، وهي من الحيوانات الملازمة لأهل الحضر في الغالب،ولا سيما لأهل الريف ، أما الأعراب فإن استفادتهم منها غير ممكنة وتكاليفها كثيرة بالنسبة اليهم ، ثم إنها لا تستطيع تحمل طبيعة البادية، لذلك لم يقبلوا عليها ، ولم يعتنوا بتربيتها ، بل ربما نظروا إلى أصحابها نظرة ازدراء وعدم احترام . ويستفاد من ألبانها ومن لحومها وجلودها ، كما يستفاد منها في حرث الأرض ، وفي سحب الماء من الآبار ، وفي جر العربات . وقد عثر على ألواح مكتوبة بالمسند وعليها صور ثيران تقوم بحراثة التربة لتهيئتها للزرع .

والأغنام ، هي المادة الرئيسية لتموين النـاس باللحوم والصوف . تربى في كل أنحاء جزيرة العرب ، ويستفاد من ألبانها كذلك . أما (المعز) فيربى في المناطق المتموجة ، أي ذات التلال ، وفي الأرضين الجبلية بصورة خاصة . ويستفاد منها مادة للحوم وللحليب وللجلود ، ويستعمل شعرها للخيام السود المصنوعة من شعرها في تلك الأزمنة[1] . ولكن هذه الأنواع من الماشية،لا تستطيع العيش في البادية ، لذلك كانت من نصيب أهل المدن وحدهم . أما أهل الوبر الضاربون في البادية فإن ماشيتهم الوحيدة الإبل .

وعرفت جزيرة العرب الأسد ، الذي قلّ وجوده فيها في الإسلام ، ويظهر من كثرة أسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلي ، أنه كان كثيراً فيها ، وقد اشتهرت أماكن خاصة منها بكثرة أسودها حتى قيل لها (مآسد) والواحدة (مأسدة) . ومن هذه الأماكن (عثّر) ، واليها نسبت (أسود عثّر) ، و (عتود) وهي قرية نسبت اليها الأسود كذلك[2] . وقد عرف الأسد بشدة بطشه وبقوته وبسيادته على سائر مملكة الحيوان في القوة،ولهذا لقبوا الشجاع الذي لا يقهر أسداً .

أما بقية الحيوانات المعروفة باسم الحيوانات الوحشية ، أي التي لم تألف الانسان ، فمنها النمر[3] والفهد والثعلب والذئب والقط الوحشي والضبع والبقر .

---

١ Hastings, P., 906.

٢ المخصص (٨/٥٩ فما بعدها) ، صفة (٥٤) ،
Moritz, S, 40., f., Noldeke, in, Zdmg, 49, 713, f.

٣ صفة (٢٠٢) .

الوحشي[1] ، أو الرئم والحمار الوحشي ، وقد كان الجاهليون يصطادونه ويأكلونه عند الحاجة ، حتى حرمه الإسلام ، والنعامة[2] والغزال والضبّ ، وله ذنب معقد ، ويأكله الأعراب . والورل والوزغ ، واليربوع ، والقنفد . ولا تزال مواضع من اليمن والحجاز وحضرموت تحتضن قردة تتيه وحدها على الجبال والمرتفعات ، فخورة بأنها من نسل تلك القرود التي عاشت قبل الإسلام بأمد طويل .

وعرف العقاب والبازي والنسر والصقر والبوم من بين الكواسر التي تنقض على الطيور الضعيفة والهوام فتعيش عليها ، والغراب بأنواعه معروف في جزيرة العرب وله قصص في الأساطير العربية ، ولهذا الطائر قصص في الآداب الأعجمية كذلك ، لها علاقة كما هي عند العرب بالتفاؤل والتشاؤم بصورة خاصة وكان من الحيوانات التي تركت أثراً في أساطير الشعوب القديمة وما برح الناس يتطيرون من نعيبه .

والهدهد المذكور في القرآن الكريم ، من الطيور الجميلة المحبوبة ، وهناك أنواع عديدة من الحمام والعصافير والقطط والعنادل ، وغيرها من الطيور الجميلة ولبعضها أصوات جميلة أخاذة ساحرة ، كما أن لبعضها ألواناً زاهية .

والجراد ، وان كان طعاماً شهياً لكثير من البدو ، بلاء على أهل الحضر يأكل زرعهم ويأتي على ما غرسوه فتحل بهم المجاعة ، ويزيد في قساوة الطبيعة على الانسان . ولذلك عد نقمة توجهها الآلهة على البشر ، وتعبيراً عن الغضب الإلهي على الخارجين على طاعة الآلهة ، ولما كان يحدثه من أضرار بالزرع والأثمار والأشجار[3] .

والعقارب ذات أحجام وألوان ، وهي تلدغ من تصيبه فتؤذيه وتؤلمه إيلاماً شديداً ، وهي مثال الحقد واللؤم عند العرب ، فيضرب المثل بطبيعتها ، على عكس الأفاعي والحيّات ، مع أنها مؤذية كذلك ، وقد تميت من تلدغه . والسبب في ذلك أنها أكبر حجماً من العقرب ، وفي استطاعة الإنسان رؤيتها وتجنبها ، ثم إنها لا تقدم على الانسان ولا تلدغه إلا إذا شعرت أنها في وضع

---

١ Moritz, S, 42, Wellhausen, lieder der Hudhailiten, no., 175, 176.

٢ Euting, 1, 230, Moritz, S, 42.

٣ الخروج ، الاصحاح العاشر ، الاية ٤ وما بعدها ، مزامير ، المزمور ٧٨ ، الاية ٤٦ ، ١٠٥ ، الاية ٣٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٢٢/١) .

حرج مخيف بالنسبة اليها . ولهذا ورد في الأمثال : « نحو العقرب لا تقرب ، نحو الحية افرش ونم » ،وزعم أن العقرب عمياء مع أنها ترى مثل سائر الحيوانات. ولكن صغر حجمها ولونها الذي يقرب من لون التراب ، وكثرة وجودهـا في البيوت ، هي عوامل تجعل الانسان لا يميزها بسهولة ، ولا يشعر بها إلاّ وقدمه عندها أو فوقها ، فتلدغه عندئذ دفاعاً عن نفسها ، كما يفعل أي حيوان آخر باستعمال ما عنده من وسائل الدفاع عن النفس .

وقد تركت الأفاعي والحيّات أثراً كبيراً في القصص العربي.ولما كان بعضها كبير الحجم ، يقفز على من يهاجمه بسرعة خاطفة ، أفزع الناس في البوادي والأودية ، وترك في مخيلاتهم آثاراً باقية لا تنسى . جعلهم يربطون بين الحيات والأفاعي والعفاريت ، وبين الجن « الجان » ، بأن جعلت فصائل منها .

وتعيش في الرمال وفي الغابات وبين الصخور ، فصائل من الحيّات مختلفة الأحجام ، بعضها صغير ، يقفز قفز بعض السمك فوق سطح البحر ، أو الهوام وبعض الحشرات فوق سطح الأرض . فلا يشعر المار إلاّ وأمامه حية قافزة تفزعه وترعبه . وقد طار صيتها وانتشر خبرها خارج حدود جزيرة العرب ، فوصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة ، حتى زعم أن لبعضها أجنحة ، وأنها ذات ألوان متعددة ، وكوّن وجودها قصصاً في مخيلة الآشوريين واليونان والرومان ، نرى أثره فيما ذكره « هيرودتس » و « سترابو » عن تلك الحيات[1] .

وقد فزع جيش (أسرحدون) في أثناء اختراقه البادية من كثرة الثعابين والحيات التي كانت تثور عليهم وتقفز أمامهم كما يقول نص « أسرحدون » . وذكر أن من بينها ثعابين ذات رأسين ، وأن من بينها ما له جناح فيطير . ولما مرّ الجيش بأرض (بوزو) (بازو) (Bozu) (Bazu) ، وجد الأرض مغطاة بالثعابين والعقارب ، وهي في كثرتها مثل الذباب والبعوض[2] . والظاهر أن البوادي كانت منازل طيبة للثعابين . وقد تذمر الاسرائيليون من « الثعابين الطائرة » وفزعوا منها عندما كانوا يقطعون البوادي والفيافي في طريقهم الى

---

١ Herodotus, III, 107, 113, Strabo, XVI, 4, 19, 25.

٢ Rogers, Cuneiform parallels to the Old Testament, P., 359, Luckenbill, II, 209, 229, Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 8.

فلسطين[١] . وقد أفزعت السياح المحدثين والمستشرقين ، ومنهم « لورنس » الذي هاله ما رأى من كثرة الثعابين في الأماكن التي نزل بها وفي جملتها « وادي السرحان[٢] » .

والسمك هو من أهم موادّ العيش لسكان سواحل الجزيرة ، يعيشون عليه ويبيعونه لحماً جافاً ويصدرونه الى الأماكن البعيدة ويحملون الطري منه الى الأماكن التي لا تبعد كثيراً عن الساحل . ويجفف ويدق ليكون طعاماً عند الحاجة اليه ، كما يكون طعاماً لحيواناتهم كذلك . ولا يزال سكان السواحل يصيدون السمك بالطرق التي تعوّد أهل الجاهلية استعمالها في السمك . ويأتي سمك (السردين) أي السمك الصغير في مواسم الشتاء الى السواحل بكثرة ، فيصاد بسهولة وتغذى به الحيوانات . وطالما تنبعث الروائح الكريهة ويتراكم الذباب بدرجة منفرة من تكدس الأسماك المعرضة للشمس لتجفيفها ، فتكون من شر الأماكن لمن لم يتعود دخولها .

ومن أنواع السمك الكبير الذي يوجد في البحر الأحمر وفي البحر العربي والخليج ، نوع يقال له (القرش) ، يحتاج صيده الى مهارة وبراعة ، ويحمل لبيع لحمه مقطعاً في الأسواق .

وقد اشتهرت اليمن والطائف في الحجاز ومواضع أهل الحضر الأخرى بدباغة الجلود ومعالجتها لتحويلها الى مادة نافعة لصنع الأحذية أو الدلاء أو القُرَب وما شابه ذلك . وقد تصدّر الجلود مدبوغة أو غير مدبوغة ، الى العراق أو إلى بلاد الشام لبيعها هناك .

وليست لدينا في الزمن الحاضر دراسات علمية دقيقة عن أنواع الحيوانات التي عاشت في جزيرة العرب في العصور السحيقة لما قبل الإسلام . فما عثر عليه من بقايا عظام قديم ، أو أصداف ومحّار ، هو قليل لا يكفي لاعطاء أحكام علمية عن حيوانات جزيرة العرب في العصور البرنزية والحديدية والحجرية ، أو ما قبل هذه العصور التأريخية . فليس لنا الا الانتظار ، حتى تأتي الفرص الملائمة التي يقوم فيها العلماء المتخصصون بالتجوال في مختلف المناطق بحثاً عن آثار عظام

---

١ العدد ٢١ الاية ٢٤ وما بعدها ، اشعياء ، ٣٠ ، الاية ٦ .

٢ Colonel Lawrence, Revolt in the Desert, P., 93, G. Jacob, Studien in Arab. Dichtern, Heft, 1, S., 93, Heft, 4, S., 10, Montgomery P. 9.

وهياكل ، تكشف القناع عن ذلك العالم الحي ، الذي عاش في هذه البقاع قبل آلاف السنين .

واذا كان الجمل ، هو رمز جزيرة العرب ، لالتصاقه بها ، فإن النخيل هي رمز آخر لها ، وكناية عن أهم حاصل ومنتوج زراعي تصدره تلك البلاد، ولهذا صارت رمزاً لها . وصار (التمر) ، عند كثير من المسلمين من أهم ما يتناولونه في شهر رمضان ، للافطار به ، لأنه رمز الإسلام ورمز المدينة التي عاش وتوفي فيها الرسول .

وكما أفاد الجمل أهله الفوائد المذكورة المعلومة ، من ناحية حمله ولحمه وجلده ووبره ، كذلك أفادت النخلة سكان جزيرة العرب فوائد عديدة ، حية وميتة ، أفادتهم في تقديم ثمرة صارت إداماً للعرب ، وطبّاً يستطبون بها لمعالجة عدد من الأمراض . ومادة استخرجوا منها دبساً وخمراً وشراباً ، وأفادهم كل جزء من أجزائها ، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً من النخلة يذهب عبثاً . فهي اذن رمز الخير والبركة بكل جدارة وحق لأهل جزيرة العرب ، لا يدانيها في ذلك أي نوع من أنواع النباتات النامية في هذه البلاد .

وكائن له هذه الفوائد والمنفعة ، ينمو ويثمر بسهولة ويسر ، لا بد أن يثمن ويقدر ، ويميز على غيره . ولهذا صارت النخلة سيدة الشجر ، لا عند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم[1]. وزخرفت معابدهم بصورها واستعمل سعفها الأخضر في استقبال الأعياد والأبطال والملوك وكبار الضيوف ، لأنه علامة اليُمن والبركة والسعادة والفرح . ولا يزال السعف زينة تزين بها الشوارع في المناسبات العامة المهمة حتى اليوم . وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة وفي جملتها نقود العبرانيين الذين يحترمون النخلة احتراماً لا يقل عن احترام العرب لها ، ولهذا ورد ذكرها في مواضع عديدة من التوراة والتلمود[2] .

والنخيل ، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال يدر على صاحبه ربحاً وافراً . ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح يهود الحجاز أرباحاً طائلة من

---

١ Hastings, P., 675.

٢ اللاويون ، ٢٣ ، ٤٠ ، نحميا ، ٨، ١٥ ، المكابيون الاول ، ١٣ ، ٥١ ،
Hastings, P., 675.

اشتغالهم بزراعة النخيل هناك . فالتمر هو مادة ضرورية للأعرابي يعيش عليها ويأتدم بها ، واذ هو لم يكن يفلح ولا يزرع ، كان يشتريه مقايضة في الغالب من تجار التمور ، فيكسب أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر تلك الأمكنة . لا يزاحمها نبات آخر من النبات .

والنخلة هي من أقدم الأشجار التي احتضنها الساميون ، ولعل الفوائد التي حصل الساميون عليها من هذه الشجرة ، هي التي حملتهم على تقديسها وعدّها من الأشجار المقدسة ، فنجد النخلة مقدسة عند قدماء الساميين وعدّوا ثمرها وهو التمر من الثمار المقدسة التي تنفع الناس[1] .

أما الكروم ، فقد غرست في مناطق من الجزيرة اشتهرت وعرفت بها مثل الطائف واليمن . وأما الأشجار المثمرة الأخرى مثل الرمان والتفاح والمشمش وأمثالها ، فقد غرست في مناطق عرفت بالخصب ، وبتوافر الماء فيها ، ويميل أهلها الى الزراعة والاستقرار ، مثل مدينة (الطائف) مصيف أهل مكة منذ الجاهلية ، واليمن . وقد ذكر أن الكروم دخلت الى بعض المناطق حديثاً، فورد أنها دخلت الى (مسقط) مثلاً في القرن السادس عشر للميلاد ، على أيدي البرتغاليين[2] ، ودخلت الى الحجاز في القرن الرابع بعد الميلاد غريبة من بلاد الشام . ويرى بعض الباحثين أن النبط واليهود كانوا الوسطاء في نقل الأشجار المثمرة الى الحجاز[3] .

أما أشجار ضخمة تمد الناس بالخشب على نحو ما نجده في الهند أو في إفريقية، فلجفاف الجزيرة لا نجد فيها مثل تلك الأشجار . لذلك استورد العرب خشب سفنهم ومعابدهم وبيوتهم من الخارج في الغالب ، من إفريقية ومن الهند ، خلا الأمكنة القريبة من الجبال والمرتفعات التي يصيبها المطر ، وتصطدم بها الرطوبة، فقد نبتت فيها أشجار كونت غابات وأيكات ، أفادت من في جوارها ، إذ

---

١ Hastings, P., 675.

٢ جان جاك بيربي ، جزيرة العرب (٢٠٥) ، وفي هذه الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٩٦٠ ببيروت ، اغلاط كثيرة في ضبط الاعلام .

٣ حتى (٢٢) .

أمدتهم بما احتاجوا اليه من خشب لاستعماله في مختلف الأغراض . وقد كانت منطقة (حسمى) وأعالي الحجاز ذات غابات ، وقد تعبّد أهلها لإلّه اسمه (ذو غابة) ، إلّه الغابات ، كما كست الأحراج الطبيعية والغابات جبال اليمن وجبال حضرموت وعمان .

وما زال أهل العروض ولا سيما سكان الخط ، يستوردون أخشاب سفنهم من الهند ، لعدم وجود الخشب الصالح لبناء السفن عندهم أو في أماكن قريبة منهم . وهم في ذلك على سنة أجدادهم الذين عاشوا قبل الإسلام بل قبل الميلاد، يذهبون بسفنهم الشراعية الى سواحل الهند وسيلان تحمل اليها التمور وحاصلات جزيرة العرب والعراق وتعود بهم محملة بحاصلات الهند ومنها الخشب الثمين للاستفادة منه في بناء السفن ولاستعماله في المعابد الضخمة المهمة وفي قصور الملوك .

والسدر من الأشجار المعروفة في جزيرة العرب ، وترتفع شجرته أمتاراً عن سطح الأرض،وتكوّن ظلاً يقي من يجلس تحته لهيب الشمس ووهجها المحرق . وتكون له ساق قوية متينة . وهو لا يحتاج الى سقي دائم ، لأن جذوره تمتد عميقة في باطن الأرض ، فتمتص الرطوبة ، ويعطي ثمراً هو (النبق) ، ويستعمل ورقه استعمال الصابون في تنظيف الجسم .

وأشجار مثل السدر ذات ارتفاع وظل ، وهي أشجار ذات نفع كبير لأهل البلاد التي تغلب عليها طبيعة الجفاف ، لا يمكن أن يقدر أهميتها وفائدتها الا من ركب الصحراء في يوم حار ، ثم جاء فجأة فجلس تحت ظل شجرة تقيه وتقي حيوانه من لهب الشمس ، سيرى نفسه في جنة وسط جهنم . فلا عجب اذا ما عبد بعض العرب وبعض الساميين مثل هذه الأشجار ، وتقربوا اليها بالنذور والقرابين ، وتوسلوا اليها ، أو عدّوها من الأشجار المقدسة ، من الأشجار المباركة ، من أشجار طوبى ، الأشجار التي وعد بها المتقون في الجنة .

وقد عبد قدماء العبرانيين بعض الأشجار المثمرة ، وعدّوها إلاهة أنثى ، لا إلهاً ذكراً ، وذلك لخاصية الحمل التي فيها ، وقد تصوروا أن للقمر أثراً في حمل تلك الأشجار ، أي في اعطاء الثمرة[١] .

---

١ A Religious Encyclopaedia, or Dictionary of Biblical, Historical, Dactrinal, and Practical, Theology, by Philip Schaff, Vol., 2, P., 916.

وقد ذكرت أسماء بعض الفواكه والأثمار والأشجار في القرآن الكريم ، ويدل ذلك على وجودها في الحجاز ، واستعمال الناس لها ، ووقوفهم عليها، مثل التين والزيتون والأعناب والطلح والسدر والرمان وعلى وجودها وزرعها في الحجاز ، قبل الإسلام بأمد . ولم يكن الحجاز مثل اليمن وحضرموت في كثرة الأشجار والفواكه ، وذلك لجفافه بالقياس الى جو العربية الجنوبية الذي ساعد على نموّ الأشجار .

والأثل والأراك والغضى الذي يستخرج منه الفحم ، والمعروف بجمره ، و (السنط) ، والسمح ، و (الصعتر) ، وأمثالها ، هي من الأشجار التي لا تزال تنمو وتعيش في مواضع متعددة من الجزيرة، وبعضها في الأقسام الغربية والجنوبية حيث تنمو وتنبت على المرتفعات ، يستخرج منها الناس وقوداً ، أو ثمراً برياً يأكلونه ، وقد يستفيدون من ورقه فيجففونه ويسحقونه فيبيعونه .

وأما الحبوب والخضر والبقول ، فتحتاج كلها الى سقي ، لهذا انحصرت زراعتها في الأماكن التي تتوافر فيها المياه أو تتساقط عليها الأمطار في المواسم المناسبة . لذلك نجدها في الحجاز وفي اليمن وفي العربية الجنوبية وفي مواضع المياه من نجد والعروض . والحبوب هي الحنطة والشعير والذرة والأرز،وسأتحدث عنها وعن بقيتها في باب الزراعة عند الجاهليين . وبعض الخضر ، مستورد من الخارج ، أدخل من العراق أو من بلاد الشام أو من إفريقية والهند ، فالبطيخ مثلاً المعروف بـ (الخربز) عند أهل المدينة مستورد كما يدل عليه اسمه الفارسي من العراق : استورد قبل الإسلام بأمد . ويمكن الاستدلال من أسماء الأثمار والخضر ، ومن دراسة توزيعها وأماكن وجودها،على الأماكن التي جاءت منها ، فدخلت جزيرة العرب قبل الإسلام .

أما (البخور) واللبان — بترول العالم في ذلك الزمان — والصموغ والمرّ والمنتوجات الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وكانت مصدر رخائها ، ومصدر تنافس الدول الكبرى عليها في ذلك الزمان ، فقد زالت أهميتها بالتدريج ، وذهب أثر سحرها بتبدل الأيام . و (ظفار) والمناطق الأخرى ، وان كانت لا تزال ترى أشجار البخور تنبت على الفطرة حتى اليوم ، قد زالت دولتها الآن ، فلا تأتي للسكان بالذهب والفضة ، فقد تغير ذوق العالم، وتبدلت تجارته ، وصار يفتش عن الذهب الأسود ، منتوج الطبيعة في باطن الأرض .

وفي هذه المواضع من العربية الجنوبية وفي الأودية وحافات الهضاب والجبال التي كانت تنبت بها تلك المواد الثمينة ، والتي لا تزال تنبت على الطبيعة، تشاهد كهوف ومغاور غريبة وآبار وكتابات جاهلية بالمسند ، وآثار مقابر تتحدث كلها عن قوم كانوا قد استوطنوا هذه الأماكن قبل الإسلام بزمان طويل[1] . أما الآن، فهي خرائب ، ترجو من الأحياء توجيه نظرهم اليها لإحيائها ولاستنطاق آثارها وكنوزها لتحدثهم عن ماضيها القديم .

وقد حبت الطبيعة اليمن بمزية جعلتها تحتضن كل النباتات المذكورة ، وتنبت أكثر أنواع المزروعات ، وذلك بانعامها عليها بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة رطبة ، هيأت لها ثلاثة جواء ، تنتج محصولات ثلاثة أنواع من المناخ : منتوج المناخ المرتفع البارد ، ومنتوج المناطق المعتدلة ، ومنتوج المناطق الحارة .

وقد عرف أهل اليمن الأذكياء كيف يستغلون تربتهم ، فعملوا مدارج على سفوح جبالهم وعلى المرتفعات ، أصلحوا تربتها ، وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله ، ضماناً لدخوله التربة وإروائها ، وزرعوا تلك المدارج أو السلالم العريضة بمختلف المزروعات وذلك قبل الإسلام بأمد طويل ، فأمنوا بذلك خيراً وافراً لهم، جعل اليمن من أسعد بلاد جزيرة العرب ، فهي العربية السعيدة والعربية الخضراء بكل جدارة ، وهـي موطن الحضارة وأرقى مكـان نعرفه في الجزيرة في أيام ما قبل الإسلام .

ومن النبات ما هو دخيل استورد من الخارج،من العراق أو من بلاد الشام ، وقد احتفظ قسم منه باسمه الأعجمي القديم . ويظهر أن بعضه قد دخـل بعد الميلاد . وقد يكون من المفيد دراسة نبات جزيرة العرب قبل الإسلام ، لمعرفة الدخيل منه وكيفية وصوله الى الجزيرة ، كما يستحسن دراسة الكتابات الجاهلية لاستخراج ما ورد فيها من أسماء النبات .

وأما البوادي فإن ظروف الخصب والنماء فيها محدودة ، تركزت في مواضع المياه وفي الأماكن الرطبة التي تكون المياه الجوفية فيها على حافة القشرة ، وفي أعقاب الأمطار ، حيث تخضر الأرض وتلبس حلة خضراء سندسية جميلة، لكن لبسها لا يدوم طويلاً ، فسرعان ما تمزقها الرياح الجافة والأهوية الحارة،فتقضي

---

١ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126.

عليها وتظهر حقيقة ما تحتها من تربة جافة عبوس،لا مكان للنبات فيها ولا مجال لزرع فيها في مثل هذه الظروف .

والواحات ومواضع الآبار والمياه في البوادي ، هي رحمة للانسان حقاً، ومنظر تقرّ به العين . فالواحة في البادية ، لؤلؤة وكنز وجنة وسط جحيم ، لا يدرك جمالها ولا يعرف قدرها إلا من اضطر إلى ركوب البوادي وتعرض لرياح السموم ووهج الشمس وعواصف الرمال تستقبل الأوجه بذرات الرمل الناعمة ، تهاجم العيون والأنوف والأفواه،وتضطر حتى الجمل الى البطء في سيره والى التوقف ، ثم تأتي على ما لدى الإنسان من ماء حرص على حمل أكبر كمية يستطيع حملها للوصول الى مكانه المقصود لضمان حياته في هذه البادية وحياة حيوانه الذي هو فيها جزء من حياته أيضاً . ولولا الآبار والواحات في هذه البوادي ، لما كان من الممكن طرقها وسلوكها ، وإلا كان الدمار والهلاك .

وفي هذه المواضع التي حبتها الطبيعة بـ (إكسير الحياة) يستعيد المسافر نشاطه ويتجدد أمله ، ويسترد قواه ، يعطيه ماؤها قوة تعيد اليه كبرياءه وعظمته وجبروته ، ثم تنسيه كل ما تعرض له من مصاعب ومشقات ، وما أبداه من عجز وضعف تجاه القوى الخفية القادرة المهيمنة على الصحراء . وعندئذ يتذكر حكمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[1] . ويشعر ببحر الماء والخضراء ، يسحر هذه الأشجار والشجيرات والأعشاب النامية في هذه التربة بفضل (إكسير الحياة) . ومهما كان الانسان في هذا المكان من السذاجة والبلادة والجهل ، فلا بد أن يستولي عليه شعور من حيث لا يشعر بعظمة سحر هذا المكان .

أما الغرباء الذين يعجبون من تقاتل العرب فيما بينهم على موضع صغير فيه بئر أو بركة ماء أو عشب ، فإنهم سيدركون سر هذا التقاتل في حياة أهل البادية لو كلفوا أنفسهم يوماً اجتياز تلك البوادي الواسعة العابسة . عندئذ فقط، يدركون أن ذلك القتال الذي وسم أهل الباديه بسمة حب الغزو والغارات لم يكن سببه فردية وأنانية ، وإنما غريزة انسانية تنبت في كل انسان متى عاش في هذه الظروف القاسية العابسة الفقيرة . إنها غريزة المحافظة على الحياة .

ولا غرابة بعدُ اذا ما تغنى العربي بمواضع المياه والبادية بعد نزول الغيث

---

١ الانبيـــاء ، الاية ٣٠ .

عليها ، واذا ما أظهر الحنين اليها ، وتوجع في شعره وفي غنائه على الليالي المقمرة يقضيها في باديته يناجي سماءه الصافية ونور قمره الساطع يغازله ويوحي اليه ، ويرسل اليه النسمات العليلة ، والى جانبه حبيبته . يذكر حسه هذا في شعره وفي غنائه وفي موسيقاه ، حتى ليبدو للغريب ، وكأن ما يقوله العربي ويحس به نغمة واحدة ساذجة مكررة تعاد وتعاد من غير معنى ولا سبب . ولكن حسه هذا حس الصحراء ، وليس في الصحراء غير نغم واحد ، تترنم به الطبيعة ، فإما هدوء شامل ، وإما نسمة واحدة عليلة مستمرة ، وإما عواصف رملية ، اذا هدأت عاد الى الصحراء هدوؤها المعهود .

ومناخ جزيرة العرب — على العموم — حار شديد الحرارة ، جاف ، إلا على السواحل ، ولا سيما في التهائم ، فإن الرطوبة تكون عالية فيها ، ولهذا يتضايق الناس من أثر الحر فيهم ، مع أن الحرارة ذاتها فيها لا تكون عالية كثيراً ، وانما مبعث هذا التضايق هو من الرطوبة المصحوبة بالحرارة ، ولهذا صار بعض مواضع التهائم من شر الأمكنة على وجه هذه الأرض .

ولهذا الجو الرطب الحار أثر في حالة الناس ، في صحتهم وفي نشاطهم . فانتشرت الأمراض في الأماكن التي تكثر فيها السباخ والمستنقعات ، وفتكت بالناس ، وتكدس فيها الذباب وتجمعت الحشرات لملاءمة مثل هذه الأجواء لمعيشة هذه المخلوقات .

ولهذا السبب المذكور ، عاشت في هذه الأرضين ونمت النباتات التي تألف المناطق الحارة الرطبة ، والأعشاب التي تعيش على المستنقعات وفي الأرض الرطبة ، من حشائش وقصب وأعشاب .

أما في الداخل ، فإن الحرارة فيها تكون جافة ، ولهذا فإنها لا تكون حديدة الطبع ، على نحو حر السواحل . ويتلطف الجو في الليالي في النجساد ، فيكون الليل رحمة للناس ينسيهم قسوة النهار وشدة حرارته ، وفقر الحياة ، لا سيما إذا كمل القمر ، وصار قرصاً يسحر الناظرين . فإن سحره يكون عاماً ، يشمل الغني والفقير ، ويبعث في النفوس الرقة والحنان ، ويثير فيها عواطف الشجن المنبعثة من قسوة الحياة وشحها وفقر الأرض ، فتأخذ النفوس الرقيقة في مناجاته بقيثارة بسيطة ذات ثقوب ، ينفخ فيها لتخرج منها أصواتاً تسمع القمر فعل سحره في نفس الانسان المعذب في النهار المحروم من طيب الحياة التي ينعم بها

أهل الأرضين الآخرون ، أو بآلات بسيطة أخرى صنعوها بأيديهم لتعبر أناملهم وأوتار آلاتهم الساذجة عن إحساسهم الحزين،ثم لا يكتفي أصحاب هذه النفوس الرقيقة في الغالب بإرسال نغمات الحس العميق من آلة ، بل يقرنون تلك النغمات الحزينة بنغمات بشرية تنطق بما في قلب الإنسان من حس وألم دفين ، يوحيه اليه ألم الحرمان ، ودغدغة النسيم العليل ، وسحر القمر وتلألؤ مصابيح السماء . فتخرج نغمات شجية حزينة ، تعاد وتكرر،لتسبح السماء على هذا الجمال الساحر ، ولتفسر للسامع نوع الحياة في هذه البقاع التي وهبتها الطبيعة عاطفة عميقة ، وسحراً فاتناً في الليل ، وحرمتها خيرات الدنيا في أثناء النهار ، ولتخبره بهذه النغمات المعادة أن الحياة هنا بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء وأنها معدودة محدودة، وعودة وتكرار .

وقد يعجب الغريب من تغزل العرب بـ (ريح الصبا) ، ومن مدحهم لها الى حد بلغ الإفراط ، فليس في أشعار العالم ، ولا في نثرهم ، شعر أو نثر فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح . وقد لا يفهم الغريب أي تعليل يقدم اليه ولا يقبله ، وخير جواب يقدم اليه هو حضوره بنفسه الى جزيرة العرب للاستمتاع بلذة (الصبا) في ليلة مقمرة من ليالي الجزيرة ، وسيعرف عندئذ سحر دلال (الصبا) وسحر تغزل العرب بها ، على عكس (السموم) ، التي تشوي الوجوه ، وتعمي العيون ، فتجعل الشعراء يلعنونها ، والناس يتذاكرون ثقلها وشدتها عليهم وما ألحقته بهم من مهالك وأضرار .

والمطر هو غوث ورحمة لسكان جزيرة العرب ، يبعث الحياة للأرض ، فتنبت العشب والكلأ والكمأة والأزهار ، ويحول وجهها العابس الكئيب الى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ويخرج أهل الحضر الى البادية للتمتع برؤية البساط الأخضر المطرز بالأزهار ، وللاستمتاع بالمنظر الساحر الذي كسا الربيع به وجوه البوادي ، ولصيد الغزلان والحيوانات الأخرى التي جاءت هي أيضاً من مآويها لتشارك الطبيعة في فرحتها ، ولتشبع نفسها بعد جوع وعطش. وتفرح الإبل ، ويدر لبنها ، ويكثر نسلها ، وتتضاعف بذلك ثروة أصحابها ، ويسير الجمل متبختراً فخوراً بنفسه معتزاً ، بطراً لا يقضم منها إلا ما يعتقد أنه طعام لذيذ له ، يقضم من موضع ثم يتركه بطراً الى موضع آخر ، وقد كان قبل ذلك من جوعه يأكل كل ما يقع بصره عليه ويراه . أفليس من حق العرب

اذن أن تسمي المطر (غيثاً) ؟ وأن تفزع وتتوجع من انحباسه ، وأن تفزع الى آلهتها تتوسل اليها لإرسال سحب المطر اليها ، وتتقرب اليها بالدعاء وبصلوات (الاستسقاء) و (الاستمطار) ، لترسل اليها غيثاً يغيثها ويفرج كربتها يدرأ عنها مصيبة تنزل بها إن انحبس المطر ؟ لذلك كان انحباس (الغيث) عند العرب كارثة يتألم منها الناس ، ويكابد من فداحتها الحيوان .

والجفاف هو الصفة الغالبة على جوّ جزيرة العرب ، فالأمطار قليلة والرطوبة منخفضة في الداخل إلا التهائم والسواحل ، فإنها ترتفع فيها كما ذكرنا . ولكن الطبيعة رأفت بحال بعض المناطق ، فجعلت لها مواسم تنزل فيها الغيث ، لإغاثة كل حي ، وأهمهـا اليمن . أما عمان ، فينزل فيها مقدار منه ، ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم . وأما باقي الأقسام ، فإن أكثرها حظوة ونصيباً من المطر ، هي النفود الشمالي ، وجبل شمر ، فتنزل بها الأمطار في الشتاء ، فتنبت أعشاب الربيع . وأما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها من المطر إلا رذاذ ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ[1] .

وينهمر المطر أحياناً من السماء وكأنه أفواه قرب قد تفتحت ، فيكوّن سيولاً عارمة جارفة تكتسح كل ما تراه أمامها ، وتسيل إلى الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان . وقـد لاقت (مكة) من السيول مصاعب كثيرة ، وكذلك المدينة والمواضع الأخرى[2] وقد يهلك فيها خلق من الناس ، وتسيل مياه السيول الى مسافات حتى تصب في البحر ، وقد تبتلعها الرمال فتغوص فيها وتجري في باطن الأرض مكونة مجاري جوفية ، تقترب وتبتعد عن قشرة الأرض على حسب قربها أو بعدها منها ، وعلى حسب قرارة المكان الذي تسيل عليه . وقـد تبلغ البحر فتتدفق عيوناً في قاعه ، كالذي نشاهده في الخليج بين الساحل والبحرين .

وقد استفاد أهل اليمن بصورة خاصة وأهل حضرموت والحجـاز من السيول بأن بنوا سدوداً للسيطرة عليهـا ، ولحبسها الى حين الحاجة . وسد (مأرب) الشهير هو خير تلك السدود شهرة وصيتاً ، وقد غذى بإكسير الحيـاة مساحات واسعة من أرض سبأ . وقد وجد السياح آثار سدود قديمة في نواحي من الحجاز ونجد والعربية الجنوبية تعود الى ما قبل الإسلام ، بنيت في مواضع ممتازة تصلح

---

١ حافظ وهبة : جزيرة العرب (٦) .
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٥٣ فما بعدها) ، الازرقي ، تأريخ مكة .

جيداً لمنع مياه السيول من الذهاب عبثاً ، حتى إن المهندسين المحدثين رأوا انشاء سدود جديدة في هذه الأمكنة للاستفادة من مياه السيول لإحياء أرضين موات في الزمان الحاضر ، يمكن قلبها الى مزارع وجنان خضر .

إن أرض اليمن التي صادقتها الطبيعة فأحسنت اليها ووهبتها هبات تحسدهـا المناطق الأخرى عليها ، وهبتها أمطاراً موسمية ووهبتها جواً حاراً رطباً في تهامة



منظر يمثل المدرجات المقامة على الجبال والتلال لزراعتها

من كتاب « Jemen, das VerboteneLand » لمؤلفه Guenther Pawelke (الصفحة ٥٦)

اليمن ، وجواً معتدلاً في المرتفعات ، وجواً لطيفاً في الجبال ، ووهبتها نباتات كثـيرة تناسب تنوع هوائها وحيوانات عديدة كثيرة ، ومعادن متنوعة ، هي

أرض ذات حظ كذلك بعدد سكانها ، فإنها حتى اليوم من أكثف مناطق جزيرة العرب وأكثرها سكاناً . وسكانها ثروة مهمة ومصنع غذى بلاد العرب والبلاد الإسلامية بموجات من القبائل ، نشرت الإسلام والثقافة العربية في البلاد المفتوحة ، كما أنه موّن العراق وبلاد الشام في الجاهلية بقبائل ، استوطنت هناك ، فكوّنت حكومات مثل حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة ، ونسب المناذرة ونسب الغساسنة يرجع الى اليمن . ولا تزال اليمن تقذف بالألوف من أبنائها كل عام ، تقذف بهم في شتى الأنحاء إلى سواحل إفريقية المقابلة ، حتى بلغ بعضهم الولايات المتحدة وانكلترة ، فكوّنوا فيها جاليات يمانية . ويعيش اليوم زُهاء مليون يماني خارج اليمن ، هاجروا من بلادهم لظروف مختلفة لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد سبقهم أجدادهم قبل الإسلام ، فطفروا حدود جزيرة العرب وذهبوا الى مصر والى بعض جزر اليونان .

ويعد سكان « الجبل الأخضر » سعداء حقاً بالقياس الى سكان جزيرة العرب الساكنين في العربية الشرقية أو في البوادي الواقعة في جنوب المملكة العربية السعودية ، فإن الغيوم المثقلة بالأبخرة تصطدم بمرتفعات هذا الجبل فتضطر الى تفريغ شحنتها عليه . ولهذا توافرت المياه فيها ، فاستغلها السكان وزرعوا عليها . وصارت الأودية من مواطن الحضارة القديمة التي تعود الى ما قبل الإسلام بزمان طويل ، كما صارت سفوح الجبال والمرتفعات موارد رزق للزرّاع ، يستهلكون من الحاصل ما يحتاجون اليه ، ويصدرون الباقي لمن يحتاج اليه من أهل بقية جزيرة العرب . وما زال أهل البلاد يزرعون على سنة آبائهم وأجدادهم الأقدمين . وقد شاهد السياح آثار سدود في هذه المناطق شيدها الأقدمون للتحكم في الأمطار التي تسقط بغزارة وتجري سيولاً .

وفي مثل هذه الأمكنة نجد كتابات دونها أصحابها شكراً لآلهتهم على إنعامها عليهم بالغلة الوافرة وبالحصاد الغزير ، أو لانعامها عليهم بأرض مخصبة ولمساعدتها إيّاهم على حفر بئر زودتهم بماء للسقي وللزرع ، ووجود هذه الكتابات دليل ناطق على وجود الحضارة فيها في تلك الأيام .

أما مواطن الحضارة ، فقد وزعتها الطبيعة بيدها ، وما برح هذا التوزيع معترفاً به . وزعتها عليها توزيعها للنبات والمعادن والماء . ففي المحلات ذوات الحظ التي أحبها الماء ، فظهر فيها واحات وعيوناً واحساءً أو رطوبات أو

نهيرات أو مطراً موسمياً ، ظهر الاستقرار ، وتولدت الحضارة على قدر إسعاف الماء ومقدار إستعداده لوضع نفسه في خدمة الأهلين وفي خدمة حيواناتهم وزراعتهم لا فرق بين أن يكون الماء في باطن الجزيرة أو في الأدية أو في السواحل ، ولو أن لموقعه دخلاً في ازدياد ثروة أصحابه وفي تمكينهم من الاتصال بالخارج ، فتنفتح عندئذ لهم أبواب العالم ، كأن يكون الموضع على طريق ، أو على مفترق طرق ، أو على ساحل أو مرفأ بحري ، أو على مقربة من بلد متحضر مثل العراق أو بلاد الشام . أما إذا كان واحة منعزلة ومحلاً نائياً ، فإن الحضارة لا يمكن أن تظهر بالطبع فيه ظهورها في الأماكن المذكورة .

ومن هنا نرى الحضارة والإستقرار والميل الى الاستقرار في بلاد اليمن وحضرموت أظهر وأبرز من أي مكان آخر ، نرى فيها حكومات بالمعنى المفهوم من الحكومة قبل الميلاد بأمد طويل ، ونرى فيها مدناً عامرة مسوّرة لها حصون وقلاع وتنظيمات وتشكيلات حكومية ، ونرى فيها مؤسسات دينية ترعى المسائل الروحية والروابط التي تربط بين البشر وخالقهم ، ونرى أنظمة وقوانين مكتوبة وسدوداً وأبنية عالية مرتفعة وفناً ما زالت جذوره ومظاهره خالدة باقية في دم الناس . ثم نرى مثل ذلك أو قريباً منه في أعالي الحجاز وفي الأرضين الداخلة في هذا اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية . أما الواحات والعيون والآبار ، فقد صارت مستوطنات لتموين المستقر والقادم بالماء والتمر وبشيء من الحبوب والخضر ، واذا كانت على طريق صارت مأوى للقوافل ، ولهذا لم يكن من الممكن قيام حكومات كبيرة بها ، لعدم توفر الشروط اللازمة لإنشاء الحكومات الكبيرة بها ، واضطرت إلى توثيق علاقاتها بأهل البادية ، وإلى الارتباط بهم بروابط العهود والمواثيق ودفع الإتاوة لمنعهم من التعرض لهم بسوء .

فالحياة في جزيرة العرب ، هي هبة الماء ، ولهذا انحصرت في هذه الأماكن المذكورة ، وصار فرضاً على رجال القوافل وأصحاب التجارات المرور بها ، وهو أي الماء الذي رسم لأصحاب الجمال خطوط سيرهم إلى المواضع التي يريدون السير اليها ، وحدد لهم معالم الطرق . وأقام لهم أماكن الراحة ، وما زال الأعراب والتجار يسلكون تلك الطرق ، للوصول إلى الأماكن النائية بالوسائل القديمة التي استعملها سكان الجزيرة قبل الإسلام ، وبالمركب القديم ، بطوله وبعرضه وهو الجمل . ولكن وسائط النقل الحديثة التي نافسته وأحالته مكرهاً على التقاعد

واضطرته الى الانسحاب من بعض الطرق ، لا تزال تطارده وتنافسه في الطرق الأخرى ، وعندئذ لا بد من حدوث مشكلات بالنسبة الى تربية هذا الحيوان الصحراوي القديم الذي أخلص للبادية ، وبقي على اخلاصه لها ، ولكن الأمر ليس بيد البادية ، وانما هو بأيدي قاهر البوادي والأرضين والجواء ، السيد الإنسان .

أما السواحل ، فخلقت من سكانها رجال بحر، يحبّون ركوب البحر واستخراج ما فيه للتعيش به ولبيعه وتصريفه في الأسواق ، كما جعلتهم أصحاب ضيافة ، يقدمون الماء وما عندهم من طعام الى السفن القادمة اليهم ، ويعرضون ما عندهم من سلع فائضة لبيعها لهم ، ويشترون من أصحاب تلك السفن ما عندهم من بضاعة نافعة ، فتحولت الى أسواق للبيع والشراء، المتعاملون بها مزيج من القادمين اليها من أنحاء الجزيرة ومن الوافدين الأجانب القادمين اليها من الخارج ، وقد اجتذبت هذه الأمكنة اليها الغرباء ، فسكنوا بها ، واختلطوا بسكانها ، وتولدت بها أجيال مختلطة ممتزجة الدماء ، كلما كانت قريبة من ساحل مقابل، كان مظهر الإختلاط والامتزاج أظهر وأكثر ، ولهذا احتضنت تهامة والسواحل العربية الجنوبية عدداً كبيراً من الإفريقيين ، هاجروا اليها من السواحل الإفريقية المقابلة واستقروا فيها بكثرة ، واختلطوا بأصحاب البلاد الأصليين . أما سواحل عمان والخليج ، فقد اجتذبت اليها الهنود والفرس ، وقد عُثر في مواضع من سواحل عمان على بقايا عظام بشرية اتضح انها من بقايا الهنود (الدراوديين) ، سكان الهند القدماء . ولم ينس البحارة وأصحاب السفن اليونان سواحل جزيرة العرب، فأقاموا مستعمرات يونانية في مواضع متعددة منها سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

وقذفت الطبيعة بالأعراب في كل مكان من أمكنة الجزيرة، حتى زاد عددهم على الحضر . والصفة الغالبة عليهم ، أنهم لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه ، ولا يستقرون في مكان إلا إذا وجدوا فيه الكلأ والماء، فإذا جفّ الكلأ وقلّ الماء ، ارتحلوا إلى مواضع جديدة . وهكذا حياتهم حياة تنقل وعدم استقرار ، لا يحترفون الحرف على شاكلة أهل الحضر ، ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية، يتمثل مجتمعهم في القبيلة . فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي :

وإن حياة على هذا الشكل والطراز ، حياة لا تعرف الراحة والاستقرار ، ولا تعترف إلا بمنطق القوة . حياة جلبت المشقة لأصحابها ، والمشقة لمن يقيم على

مقربة منهم من الحضر . فهم في نزاع دائم فيما بينهم ، ثم هم في نزاع مع الحضر ، ولهذا كان خطر البداوة على العرب، يوازي خطر الغرباء البعداء عليهم، وصارت البداوة مشكلة عويصة لكل حكومة ، ولا تزال مشكلة حتى اليوم. ولن تحل إلا باقناع الأعراب بأن حياة الإستقرار خير لهم وأفضل من حياتهم التي يحيونها ، وذلك بوسائل لا يدخل الكلام عليها في حيز هذا الكتاب .

الطرق البرية :

من نتائج غلبة الطبيعة الصحراوية على أرض جزيرة العرب ، أن انحصر امتداد شرايين المواصلات فيها في أماكن خططتها الطبيعة نفسها للإنسان ، فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواضع المياه والآبار ، وهي السبل الوحيدة التي يستطيع المسافر ورجال القوافل أن يستريحوا في مواضع منها ويحملوا منها الماء . وتنتهي رؤوس هذه الطرق بالعراق وببلاد الشام في الشمال وبالعربية الجنوبية وبموانئها في الجنوب، وهناك طرق أخرى امتدت من العربية الشرقية الى العربية الغربية ، ولها مراكز اتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال الى الجنوب في الغالب . وقد أقيمت في مواضع من هذه الطرق مواضع سكنى ذات مياه من عيون أو آبار ، عاشت ونمت بفضل منة مائها عليها ، فصارت منازل مريحة لرجال القوافل يحمدون آلهتهم عليها ، ويحمد أصحاب ذلك الماء آلهتهم على منتها عليهم باعطائهم ذلك الكنز العظيم الذي أعانهم على العيش وجلب لهم كرم التجار .

وفي العقد الحساسة من هذه الطرق نشأت المستوطنات، ومواطن السكنى القديمة انتشرت في أماكن متباعد بعضها عن بعض في الغالب ، فكان لهذا التوزيع أثر كبير في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والعسكرية ، ولا شك . وما الطرق الحالية التي يسلكها الناس اليوم إلا بقية من بقايا تلك الطرق القديمة التي ربطت أجزاء الجزيرة بعضها ببعض ، كما ربطت الجزيرة بالعالم الخارجي . ونجد في مخلفات تلك المستوطنات مواد مستوردة من مواضع بعيدة ، هي دليل بالطبع على أن الانسان كان يقطع الطرق قبل الميلاد بمئات من السنين ليتاجر ويبيع ويشتري دون أن يبالي ببعد المسافة وطول الشقة وصعوبة الحصول على وسائل النقل وما يتعرض له ، وهو في طريقه الى هدفه ، من مخاطر وأهوال .

وتعد (نجران) من أهم المواضع المهمة الحساسة في شبكة المواصلات البرية قبل الإسلام ، ففيها تلتقي طرق المواصلات الممتدة في الجنوب ، وفيهـا يتصل الطريق البري التجاري المهم الممتد الى بلاد الشام ، فيلتقي بطريق العربية الجنوبية ومنها يسير الطريق المار الى (الدواسر) فالأفلاج فاليمامة أو ساحل الخليج ومنه الى العراق .

ولم تموّن الطرق البرية المارة بالعربية الشرقية أي (ساحل الخليج) العراق بتجارة جزيرة العرب وبالمواد المستوردة اليها من الهند ، بل موّنتها بموجات من البشر منذ آلاف السنين قبل الميلاد . فقد كانت القبائل العربية النازحة من الجنوب لأسباب متعددة تحطّ رحالها على هذا الساحل ، انتهازاً لفرصة ملائمة ترحـل خلالها الى العراق لتستقر فيه . وقد سلكت أكثر القبائل العربيـة التي استوطنت العراق هذا السبيل حينما هاجرت اليه قبل الميلاد وبعده أيضاً .

الفصل السادس

صلات العرب بالساميين

لاحظ المعنيون بلغات (الشرق الأدنى) وجود أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والأرمية والعربية واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وأمثالها ، فهي تشترك أو تتقارب في أمور أصلية وأساسية من جوهـــر اللغة ، وذلك في مثل جذور الأفعال ، وأصول التصريف ، تصريف الأفعال ، وفي زمني الفعل الرئيسيين ، وهما : التام والناقص ، أو الماضي والمستقبل ، وفي أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد ، وبعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسية[١] ، وفي تغير الحركات في وسط الكلمات الذي يحدث تغيراً في المعنى ، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين[٢] ، وفي أمور مشابهة أخرى ، فقالوا بوجوب وجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الشعوب ، وأطلقوا على ذلك الأصل ، أو الوحـــدة (الرس السامي) أو (الجنس السامي) ، أو (الأصل السامي) ، أو (السامية ، (Semites) (shemites) [٣] (Semitic Race) وعلى اللغات التي تكلمت وتتكلم بها هذه الشعوب

---

١ Hastings, Encylopaedia of Religion and Ethics, Vol., II, PP, 378 (1934), Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin 1898, P., 82, ff.

٢ Ency. Brita., 20, PP., 315.

٣ Leland. W. Parr, An Introduction to the Anthropology of the Near East,X Amesterdam, 1934, P., 43.

(اللغات السامية) ، (Semitic Languages)[1] .

وقد أخذ من أطلق هذه التسمية ، تسميته هذه من التوراة[2] . أخـذها من اسم « سام بن نوح » ، جدّ هـذه الشعوب الأكبر ، كما هو وارد فيها . وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء علماً على هذه الشعوب ، عالم نمساوي اسمه (أوغست لودويك شلوتسر) August Ludwig schloetzer أطلقها عام (١٧٨١م) فشاعت منذ ذلك الحين ، وأصبحت عنـد العلماء والباحثين في موضوع لغات الشرق الأدنى علماً للمجموعة المذكورة من الشعوب[3] وقـد أخذ (آيشهورن) (Joh. Cotte. Eichhorn) هذه التسمية ، وسعى لتعميمها بين العلماء علماً عـلى الشعوب المذكورة[4] .

وفي عام (١٨٦٩ م) قسم العلماء اللغات السامية الى مجموعتين : المجموعـة السامية الشماليـة ، والمجموعة السامية الجنوبية[5] وتتألف المجموعة الشمالية مـن العبرانية والفينيقية والأرمية والآشورية والبابلية والكنعانية . وأما المجموعة الجنوبية، فتتألف من العربية بلهجاتها والحبشية . وعم استعمال هذا الاصطلاح بينهم وأصبح موضوع (الساميات) من الدراسات الخاصـة عند المستشرقين ، تقوم على مقارنات وفحوص (أنتولوجية) و (بيولوجية) وفحوص علمية أخرى، فضلاً عن الدراسات التأريخية واللغوية والدينية[6] .

وهذه القرابة الواردة في التوراة ، وذلك التقسيم المذكور فيها للبشر، لايستندان إلى أسس علمية أو عنصرية صحيحة ، بل بُنيت تلك القرابـة ، ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب

---

١ Hommel, Grundriss, Bd., I, S., 17, Ency. Brita., Vol., 20, PP. 314. Eichhorns, Geschichte der Neuern Sprachenkunde, I, abt., Gottingen, 1807.

٢ التكوين ، الاصحـاح العاشر ، الايـة ، ١ ، ٢١ ، قـاموس الكتاب المقـدس (١ / ٥٣١) .

٣ Hommel, Grundriss, I, S, 76, Ency. Brita., 20, PP., 314, The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 4, P., 473, Hastings, P., 845, S. Moscati, The Semites in ancient History, Cardiff, 1959.

٤ Eishhorn, Geshichte der Neueren Sprachenkunde, I abt., Gottingen, 1807, Sprachen, der Semiten in Westasien, S., 403-672,

٥ Hommel, Grundriss, 1, S., 76, Eichhorn, S., 405, Eberhard Schrader, S., 76.

٦ S.H. Hooke, The Origins of early Semitic ritual, London, 1938, Hommel, Grundriss, I, PP., 84.

العالم في ذلك الزمان عن النسب والأنساب وتوزع البشر[1] . فحشرت التوراة في السامية شعوباً لا يمكن عدّها من الشعوب السامية، مثل (العيلاميين) (Elam) و (اللوديين) (Ludim) (Lud) ، وأقصت منها جماعة من الواجب عدّها من الساميين ، مثل (الفينيقيين) و (الكنعانيين)[2] .

ويرى (بروكلمن) أن العبرانيين كانوا قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام ، لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية[3] .

وقد رجّع الإصحاح العاشر من التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى حام، جد الكوشيين ، ذوي البشرة السوداء ، مع أنهم لم يكونوا من الحاميين ، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في افريقية ، فعدّ كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين[4] .

وقد عرف المسلمون اسم (سام بن نوح) ، وقد كان لا بد لهم من البحث عن أولاد (نوح) لما للذلك من علاقة بما جاء عن (نوح) وعن الطوفان في القرآن الكريم . وقد روي أن رسول الله قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش)[5] ، وقد روى (الطبري) جملة أحاديث عنه في هذا المعنى . وقد لاحظت أنها كلها وردت من طريق (سعيد بن أبي عروبة) عن (قتادة) عن (الحسن) عن (سمرة بن جندب) ، وهي في الواقع حديث واحد ، ولا يختلف إلا اختلافاً يسيراً في ترتيب الأسماء أو في لفظ أو لفظين[6]. ومن هنا يجب أن يدرس هذا الحديث وكل الأحاديث المنسوبة الى الرسول في هذا الباب دراسة وافية ، لنرى مدى صحة نسبتها الى الرسول ، كما يجب دراسة ما نسب الى عبدالله بن عبّاس أو غيره في هذا الشأن ، فإن مثل هذه الدراسات تحيطنا علماً برأي المسلمين ايام الرسول وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى في نسبتهم الى سام بن نوح[7] .

١ George Aaron Barton, Semitic, and Hamitic Origins, London, 1934, P., 1,

٢ (التكوين ، الاصحاح العاشر) الاية ١ ، فما بعدها ،
Hastings, P., 945, Ency. of Relig. and Ethic., Vol., II, PP., 37 378, Barton, P. I.

٣ Brockelman, Sprachwissenschaft, S., 15,

٤ Reynold, A. Nicholson A Literary History of the Arabs, P., XV.

٥ الطبرى (٢٠٩/١) « دار المعارف » .

٦ الطبرى (١ /٢٠٩) « دار المعارف » .

٧ الاكليل (٦٤/١) .

وقد قسم بعض علماء الساميّات المحدثين اللغات السامية الى أربع مجموعات هي : المجموعة السامية الشرقية ومنها البابلية والآشورية، والمجموعة الشمالية ومنها الأمورية والأرمية ، والمجموعة الغربية ومنها الكنعانية والعبرانية والموابية والفينيقية، والمجموعة الجنوبية ومنها المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والأمهرية[1] . ويلاحظ أن واضعي هذا التقسيم لم يراعوا في وضعه التطورات التأريخية التي مرت بها هذه اللغات بل وضعوا تقسيمهم هذا على أسس المواقع الجغرافية لتلك الشعوب .

والسامية بعد، ليست رساً (Race) بالمعنى المفهوم من الرس عند علماء الأحياء، أي جنس له خصائص جسمية وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى. فبين الساميين تمايز وتباين في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل اطلاق (الرس) عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من (علم الأجناس) ، أو الفروع العلمية الأخرى نوعاً من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تبايناً في داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية في الملامح والمظاهر الجسمية ، وفي هذا التمايز والتباين دلالة على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء ، سأتحدث عنه في الفصل الخاص بالأنساب وبانقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين .

ولقد وجد بعض علماء (الانثروبولوجي) مثلاً أن بين اليهود تبايناً في الصفات وفي الخصائص التي وضعها هذا العلم للجنس ، مع ما عرف عن اليهود من التقيد بالزواج وبالابتعاد عن الزواج من غير اليهود[2] . وكذلك وجد العلماء الذين درسوا العرب دراسة (انثروبولوجية) أن بين العرب تبايناً في الملامح الجسمية . وقد اتضح وجود هذا التباين عند الجاهليين أيضاً ، كما دلت على ذلك الفحوص التي أجريت على بقايا العظام التي عثر عليها في مقابر جاهلية[3] . كذلك وجد علماء (الأنثروبولوجي) من فحص العظام التي عثر عليها في الآثار الآشورية والبابلية أن أصحابها يختلفون أيضاً فيما بينهم في الملامح التي تعد أساساً في تكوين جنس من الأجناس .

---

١ Ency. Brita., 20, P., 316, Gesenius, Geschichte, der Hebraeischen Sprache und Schrift, Graf Arthur, Gobineau, Die Ungleichheit der Menschenrassen, Berlin, S., 180, (German translation).

٢ Buxton, The People of Asia, P., 96. ff.

٣ Buxton, P., 99. ff.

ولهذا ، فإني حين أتحدث عن السامية لا أتحدث عنها على أنها جنس ، أي رس صاف بالمعنى (الأنثروبولوجي) ، بل أتحدث عنها على أنها مجموعة ثقافية وعلى أنها مصطلح أطلقه العلماء على هذه المجموعة لتمييزها عن بقيـــة الأجناس البشرية ، فأنا أجاريهم لذلك في هذه التسمية ، ليس غير .

إن بحوث العلماء في موضوع السلالات البشرية وفي الأجناس البشرية وفي توزع الشعوب وخصائص ومميزات الأجناس لا تزال بحوثاً قلقة غير مستقرة . ولهـــذا تجد نتائج بحوثهم في تعريف الجنس وفي صفات الأجناس وفي المسائـل الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع مختلفـــة ، ولا سيما أن هنالك عدة أمور تؤثر في حيـــاة الإنسان وفي خصائصه الروحية والجسمية . والنواحـــي اللغوية وبعض الخصائص الروحية الأخرى ، وان كانت مهمة وضرورية لدراسة الناحية العقلية للانسان ، إلا انها ليست الأسس الوحيدة لتكوين رأي في الأجناس البشرية[1] .

فالسامية اذن ، بهذا المعنى هي مجرد اصطلاح ، قصد به التعبيـــر عن هذه الروابط أو الظواهر التي نراها بين الشعوب المذكورة،أما البحث على أن الساميين جنس من الأجناس بالتعبير الذي يعنيه أهل العلوم من لفظة جنس، فإن ذلك في نظري موضوع لا يسع علماء الساميّات أو علماء التاريخ أن يبتّوا فيـه ويصدروا حكماً في شأنه ، لأنه بحث يجب أن يستند الى تجارب وبحوث مختبريـة ، والى دراسات للشعوب الباقية من السامية ، بأن ندرس جماجم قدماء الساميين وعظامهم في جزيرة العرب وفي المواطن الأخرى التي انتشر فيها الساميون ، وعند اكتمال مثل هذه الدراسات ووصولها الى درجات كافية ناضجة يمكن العلـــماء حينئذ أن يتحدثوا عن السامية من حيث انها جنس بالمعنى العلمي ، أو جنس بالمعنى الاصطلاحي .

هذا وقد عني بعض الباحثين المحدثين بدراسة ما عثر عليـه في بعض القبور العادية من عظام ، لتعيين أوصافها وخصائصها والجنس الذي تعود اليـــه ، كما قام بعضهم بدراسة أجسام الأحياء واجراء فحوص عليها وتسجيل قياسات الرؤوس

---

١ Ralph Linton, The Study of Man, L. H. Dudley Buxton, The Peoples of Asia, London, 1925, Sonia Cole, Races of Man, British Museum, (Natural History), London, 1965.

وملامح الأجسام وما الى ذلك مما يتعلق بموضوع (الأجناس البشرية) ، واذا ما استمر العلماء على هذه الدراسة وتوسعوا فيها ، فسيكون لهـا شأن خطير في وضع نظريات علمية عن تأريخ أجناس الشرق الأدنى وفي جملتهم الساميين .

وممن بحث في (أنثروبولوجية) الشرق الأدنى (كبرس Ariens Kappers) ، وقد وضع مؤلفاً قيّماً في دراسة شعوب الشرق الأدنى[١] . و (الدكتور سلكمن Dr. Seligman) [٢]، و (شنكلن W. Shanklin) الذي عني بدراسة (أنثروبولوجية) سكـان شرقي الأردن وتقسيماتهم وحالات أعصابهم[٣] ، و (A. Mochi) [٤] ، و (برترام توماس) الذي قام بدراسات علمية عديدة من هذه الناحية لنماذج من أفراد القبائل العربية الجنوبية[٥] ، والبعثة الأمريكية التي أرسلها متحف (فيلد) بشيكاغو لدراسة (أنثروبولوجية) القبائل العراقية النازلة على مقربة من (كيش) ، عدا دراسات أخرى عديدة قام بها علماء آخرون[٦] .

وقد أجريت أكثر هذه البحوث في مناطق عرفت باتصالها منـذ القديم بالعالم الخارجي ، وفي أرضين استضافت الغرباء ، فهي لذلك لا يمكن أن تعطينا فكرة علمية عن (أنثروبولوجية) داخل جزيرة العرب ، فلا بد من القيـام بدراسات دقيقة في قلب الجزيرة لتكوين رأي علمي عن عرب هذه الأماكن .

وقد لاحظ الفاحصون للعظام التي عثر عليها في الأقسام الجنوبية الشرقيـة من جزيرة العرب وجود تشابه كبير بين جماجم أهل عمان وجماجم سكـان السواحل الهندية المقابلة لهذه البقاع ، كما لاحظوا تشابهاً كبيراً في الملامح الجسمية بين العرب الجنوبيين أهل عدن وبقية العربية الجنوبية الغربية وتهامة وسكان إفريقية الشرقية .

---

١ C.U. Ariens Kappers, An Introduction to the Anthropology of the Near East in ancient and recent Times, Amesterdam, 1934, P., 73.

٢ Dr. Seligman, The Physical Characters of the Arabs, in Journal of the Royal Anthrop. Inst., Vol., 47, 1917, P., 217, The Races of Africa, 1930.

٣ W. Shanklin, The Anthropology of the Transjordan Arabs, Psychiatrische en Neurologische bladen, 1934, Anniversary Book for the central Institute of Brainreserch Amesterdam.

٤ A. Mochi, Sulla Anthropologia Giuffrida Ruggeri, in Crani Egiziani antichi, ed., Arabo — Egiziani, Atti della Soc. Romana d'Anthrop., T., 15, 1915.

٥ راجع الفصل الذي كتبه «Dr. Wilton Marion Krogman» في كتاب «Arabia Felix» (صفحة ٣٠١)

٦ Henry Field, The Anthropology of Iraq, Field Museum of Natural History, Chicago. 1940.

وقد اتخـــذ القائلون إن أصل العرب الجنوبيين من إفريقية هذا التشابه حجة ، تذرعوا بها في اثبات نظرياتهم هذه[1] .

غير أن هذه الفحوص أشارت من جهة أخرى الى حقيقة تخـــالف النظرية الإفريقية ، إذْ بينت أن أشكال جماجم العرب الجنوبيين ورؤوسهم هي من النوع الذي يقال له : (Brachycephaly)[2] . أما أشكال جماجم سكان إفريقية الشرقية ورؤوسهم ، فمن النـــوع الذي يعرف باسم (Dolichocephaly) في الغالب[3] . وهذا التباين لا يشير الى وحدة الأصل . وقد تبين من هذه الفحوص أن أشكال جماجم العرب الشماليين ورؤوسهم ، هي من نوع (Dolichocephaly) كذلك، أي أنها نوع مشابه لأشكال جماجم الإفريقيين الشرقيين ورؤوسهم[4] .

وقد حملت هذه النتائج بعض الباحثين عـــلى التفكير في أن العرب الجنوبيين كانوا في الأصل في المواطن التي تكثر فيها الرؤوس المستديرة ، وأن هذه المواطن هي من آسية الصغرى الى الأفغان ، فزعموا أنهم كانوا هناك ثم هاجروا منهـــا الى مواطنهم الجديدة في العربية الجنوبية[5] ، كما زعموا أن سكان (عمان) قـــد تأثروا تأثراً كبيراً بالدماء (الدراويدينية) (Dravidian) الهندية ، لهـــذا نجد أنهم يختلفون بعض الاختلاف عن بقية العرب الجنوبيين[6] .

وإذا قامت بعثات علمية بالبحوث (الأنثروبولوجية) في مواضع أخرى من جزيرة العرب ولا سيما في باطن الجزيرة،واذا ما استمر العلماء والسياح في البحث عن العظـــام والأحداث ، وفي دراستهـــا دراسة مختبرية ، واستمروا في إجراء فحوصهم على الأحياء ، وقورنت نتائج فحوصها بنتائج فحوص العلماء في بقيـــة أنحاء الشرق الأدنى ، فإن البحث في الساميات وفي علاقات الشعوب القديمة بعضها

---

١ Arabia Felix, P., 302.

٢ اصطلاح يطلق في علم « النتروبولوجي » على الجماجم التي يبلغ عرضهـــا حوالي « ٨٠٪ » او اكثر من مقدار طول الجمجمة من الامام الى الخلف . ويقال لهذه الرؤوس قصيرة . راجع : Enc. Britanica., Vol., 3, P., 1003, 18, P., 865.

٣ ويعنى اصحاب الرؤوس الطويلة ، وهي الجماجم التي تكون ابعادها من جانـــب الى جانب تساوى « ٧٥٪ » او اقل من طـــول المسافـــة بين جبهة الجمجمـــة والمؤخرة . راجع : Enc. Britanica, Vol., 7, P., 506.

٤ Seligman, The Races of Africa, 1930, Arabia Felix, P., 304, P., 308.

٥ Arabia Felix, P., 304, 322.

٦ Dr. Wilton Marion Krogman, in Arabia Felix, P., 316.

ببعض ، سيتقدم كثيراً،وسيأتي ولا شك بنتائج علمية مقبولة في موضوع السامية والجنس السامي .

وطن الساميين :

وتساءل العلماء الباحثون في الأجناس البشرية : من أين جاء الساميون الأول، آباء الشعوب السامية ؟ وأين كان موطنهم الأول وبيتهم القديم ، الذي ضاق بهم في الدهر الأول ، فغادروه الى بيوت أخرى ؟ أما أجوبتهم ، فجاءت متباينة غير متفقة لعدم اهتدائهم حتّى الآن الى دليل مادي يشير الى ذلك الوطن ، أو يؤيد نظرية وجود مثل هذا الوطن ، فقامت آراؤهم على نظريات وفرضيات ، وبحوث لغوية وعلى آراء مستمدة من الروايات الواردة في التوراة عن أصل البشر، وعن أبناء نوح ، والأماكن التي حلّ بها هؤلاء الأبناء وأحفادهم ثم أحفاد أحفادهم ، وهكذا على نحو ما تصورته مخيلة العبرانيين . فرأى نفر منهم ان أرض بابل ، كانت المهد الأول للساميين ، ورأى آخرون أن جزيرة العرب هي المهد الأول لأبناء سام ، وخصص فريق آخر موطناً معيناً من جزيرة العرب ، ليكون وطن سام وأبنائه الأول ، وذهب قسم الى إفريقية فاختارها لتكون ذلك الوطن ، لما لاحظه من وجود صلة بين اللغات السامية والحامية ، ورأى قوم في أرض (الأموريين) الوطن الصالح لأن يكون أرض أبي الساميين ، على حين ذهب قوم آخرون الى تفضيل أرض (أرمينية) على تلك الأوطان المذكورة . وهكذا انقسموا وتشعبوا في موضوع اختيار الوطن السامي ، ولكل حجج وبراهين .

وحتّى القائلون بنظرية من هذه النظريات وبرأي من هذه الآراء، هم قلقون غير مستقرين في نظرياتهم هذه ، فتراهم يُغيّرون فيها ويبدلون . يفترضون وطناً أصلياً لجد الساميين ، ثم يفترضون وطناً ثانياً يزعمون ان قدماء الساميين كانوا قد تحولوا من الوطن الأول اليه ، فصار الموطن الأقدم لهم . فقد ذهب (فون كريمر) مثلاً ، وهو عالم ألماني الى أن اقليم (بابل) هو موطن الساميين الأول ، وذلك لوجود ألفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة ، وهي مسميات لأمور هي من صميم

حياة هذا الاقليم ، الا أنه عاد فذكر أنه وجد أن لفظة (الجمل) لهذا الحيوان المعروف هي لفظة واردة في جميع اللغات السامية وفي ورود هـذه التسمية في جميع هذه اللغات دلالة على أنها من بقايا اللغة (السامية) الأولى . ولكن الجمل حيوان أصله وموطنه الأول الهضبة المركزيـة التي في آسية على مقربة من نهـر سيحون ونهر جيحون ، ولما كان قد لازم الساميـين من فجر تأريخهم واقترن اسمه باسمهم ، وجب أن يكون موطن الساميين الأقدم اذن هو تلك الهضبة ، إلا أن أجداد الساميين غادروها في الدهر الأول ، وارتحلوا عنها فانحازوا الى الغرب مجتازين ايران والأرضين المأهولة بالشعوب (الهنـد أوروبية) حتى وصلوا الى اقليم (بابل) ، فنزلوا فيه ، فصار هذا الإقليم الوطن الأقدم أو الأول للساميين .

وطريقة (فون كريمر) في هذه النظرية ، دراسة أسماء النبات والحيوان في اللغات السامية وتصنيفها وتبويبها للتمكن بذلك من معرفة المسميات المشتركة والمسميات التي ترد بكثرة في أغلب تلك اللغات . والتوصل بهذه الطريقة الى الوقوف على أقدم الحيوان والنبات عند تلك الشعوب ، فإذا اهتدينا اليها صار من السهل على رأيه التوصل الى معرفة الوطن الأصل الذي جمع في يوم ما شمل أجداد الساميين[1] .

أما (كويدي) ، وهو من القائلين أيضاً ان اقليم بابـل هو الموطن الأول للساميين ، فقد سار على نفس أسلوب (فون كريمر) نفسه وطريقته ، ولكن بصورة مستقلة عنه . درس الكلمات المألوفة في جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات ونواحي الحياة الأخرى ، وقارن بينهـا وتتبع أصولها ثم قال قوله المذكور ، إلا انه اختلف عن (فون كريمر) في الوطن الأول ، حيث رأى أن مواطن الساميين الأول كانت الأرضين في جنوب بحر قزوين وفي جنوب شرقيه إلا انهم غادروها بعد ذلك وارتحلوا عنها الى اقليم بابل[2] .

وأما (هومل) ، وهو من العلماء الألمان الحاذقين في الدراسات اللغوية ، فقد

---

١ Von Kremer, Semitische Culturen Entlehnungen aus Pflantzen-und Thierreiche, in das Ausland, Bd., IV, note, 1, und 2.

٢ Guidi, Della sede primitiva dei Popoli Semitici, Roma, 1879, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 5 Barton, P., 3, Hommel, Grundriss, 1. S., 80, A. Grohmann, Kulturgeschichte, S., 14.

ذهب أولاً الى أن موطن الساميين هو شمال العراق ، ثم عاد فقرر أن اقليم بابل هو الوطن الأصل،وذهب أيضاً إلى أن قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية ، وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر نقلوها من البابليين[١] .

وقد ناقش (نولدكه) آراء هؤلاء العلماء المذكورين القائمة على المقابلات والموازنات اللغوية ، وعارضها معارضة شديدة ، مبيناً أن من الخطأ الاعتماد في وضع نظريات مهمة كهذه على مجرد دراسة كلمات واجراء موازنات بين ألفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق ، وأورد جملة أمثلة اختلف فيها الساميون ، مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في جميع اللغات السامية[٢] .

ومن أوجه النقد التي وجهت الى نظرية القائلين إن العراق ، أو اقليم بابل منه بصورة خاصة ، هو موطن الساميين ، هو أن القول بذلك يستدعي تصور انتقال الساميين من أرض زراعية خصبة ذات مياه الى بواد قفرة جرد ، وابدال حياة زراعية بحياة خشنة بدوية ، ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية .

وأما القائلون إن الموطن الأصلي لجميع الساميين هو جزيرة العرب ، فكان من أولهم (شبرنكر) . فقد رأى أن أواسط جزيرة العرب ، ولا سيما نجد ، هو المكان الذي يجب أن يكون الوطن الأول للساميين،وذلك لأسباب وعوامل شرحها وذكرها . ومن هذا الوطن خرج الساميون في رأيه الى الهلال الخصيب فطبعوه بالطابع السامي ، ومن هذا الهلال انتشروا الى أماكن أخرى[٣] .

وقد أيد هذه النظرية جماعة من المستشرقين الباحثين في هذا الموضوع من

---

١ Hommel, Die Namen der Saeugethiere bei den Suedsemitischen Volkern, Leipzig, 1879. S., 406, Die Semitischen Voelker und Sprachen, 1881, Bd., I, S., 20, 63, Barton, P., 3 Hommel, Grundriss, I, S., 10. f.

٢ Noeldeke, Semitischen Sprachen, Leipzig, 1887, S., 3, 2ed., 1899, Enc. Brit., 9th. ed., Article, Semitic Language.

٣ A. Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861, Bd., I, S., 241, Alte Geographie Arabiens, 1875, S., 293, Barton, P., 4.

أمثال (سايس)[١] و (أبرهرد شرادر)[٢]، و (دي كويه)[٣] و(هوبرت كرمه)[٤] و (كارل بروكلمن)[٥] و (كينغ)[٦] و (جول ماير)[٧] و (كوك)،وآخرين[٨] .

وقد مال الى تأييدهـــا وترجيحها (دتف نلسن) ، وهو من الباحثين في التأريخ العربي قبل الإسلام[٩] . وكذلك (هوكو ونكلر) . و (هومـل) الذي يرى أن موطن جميع الساميين الغربيين هو جزيرة العرب[١٠] .

وقد ذهب نفر من القائلين بهذه النظرية الى أن العروض ولا سيما البحـــرين والسواحل المقابلة لها ، هي الوطن السامي القديم . ويستشهد هذا النفر على صحة نظريته ببعض الروايات والدراسات التي قام بها العلماء فكشفت عن هجرة بعض الأقوام كالفينيقين وغيرهم من هذه الأماكن .

أما (فلبي) ، فذهب في دراساته المسهبـــة لأحوال جزيرة العرب الى أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين. وفي هذه الأرضين نبتت السامية ، ومنها هاجرت بعد اضطرارها الى ترك مواطنها القديمـــة لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منـــذ عصر (الباليوليتيك) (Palaeolithic) هاجرت في رأيه ، في موجات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت الى المناطق التي استقرت فيها . هاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة ، حملت معها آلهتها ، وأولها الإلـه (القمر) ، وحملت معها ثقافتها وخطها

---

١ Sayce, Assyrian Grammer, 1872, P., 13, Barton, P., 4.

٢ Eberhard Schrader, in ZDMG., XXVII, (1873), S., 397. ff., "Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten".

٣ De Goeje, Het Vaterland der Semitische Volken, Barton, P., 5, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 8.

٤ Hubert Grimme, Mohammed, Weltgeschichte in Karakterbildern, 1904, S., 6. f., Barton, P., 5.

٥ Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, Berlin, 1908, 1, 2.

٦ L.W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, P., 119.

٧ John L. Meyers, in Cambridge ancient History, Cambridge 1923, 1, 38, Barton, P. 6.

٨ S.A. Cook, in Cambridge ancient History, I, P., 192. f.

٩ Ditef Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I, Kopenhagen, Paris, Leipzig, 1927, 47, 55.

١٠ A. Grohmann, S., 14, Hommel, Ethnologie und Geographie des alten Orient, Muenchen, 1926, S., 10.

الذي اشتقت منه سائر الأقلام ، ومنه القلم الفينيقـي ، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السامي الذي ما زال باقياً حتى اليوم . وقد أخذ (فلبي) رأيه هذا من دراسات العلماء لأحوال جزيرة العرب ومن الحوادث التأريخية التي تشير إلى هجرة القبائل من اليمن نحو الشمال[1] .

فاليمن في رأي (فلبي) وجماعة آخرين من المستشرقين ، هي (مهد العرب) ومهد الساميين ، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الأنحاء . وهي في نظر بعض المستشرقين أيضاً (مصنع العرب) ، وذلك لأن بقعتها أمدّت الجزيرة بعدد كبير من القبائل ، قبل الإسلام بأمد طويل وفي الإسلام[2] . ومن اليمن كان (نمرود) وكذلك جميع الساميين[3] .

والذين يقولون إن نجداً هي موطن الساميين الأول ، يفترضون أن موجـات هجرة الساميين اتجهت نحو الشمال كما اتجهت نحـو الجنوب والشرق والغرب[4] ، فكأن نجداً معين ماء يفيض فيسيل ماؤه الى أطرافه .

غير أن هنالك جماعـة من الباحثين ترى أن نجداً لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين ، وذلك لأن شروط الحياة اللازمة لم تكن تتوفر بها ، اللهم إلاّ في المواضع التي توجد بها آبار أو واحات ، وهي قليلة متناثرة ، وذلك حتى في العصور (الباليوثية) (Palaeolithic Ages) . أما المراعي التي كانت بهـا في تلك الأوقات فلم تكن دائمة الخضرة ، بل كانت مع المواسم ولهذا فان السكن فيهـا لا يمكن أن يكون سكناً دائمياً مستمراً ، ثم ان السكن في نجد يقتضي وجود الجمل فيها ولم يكن الجمل موجوداً عند الساميين في العهود القديمة بل كان الحمار هو واسطـة الركوب والنقل عندهم . ولما كان الحمار لا يتحمل العيش في البوادي الواسعة الفسيحـة ، لذلك لم يتمكن الساميون اذ ذاك من التوغـل في

---

١ Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1949, P., 9, ff.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P., 126, Background, P. 9.

٣ Eberhard Schrader, Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten, in ZDMG, S., 14.

٤ James Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 74. f. W. Warrell, A Study of Races in ancient Near East, Cambridge, 1927, 7, 45, 94. B. Thomas, Anthropological observation in South Arabia, 93-94, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

الصحراء والسكن بعيداً عن مواضع الماء ، فانحصر سكنهم في أسياف البوادي أي في مناطق قريبة من الحضر ، ولهذا السبب رفض العلماء رأي من يقول إن نجداً هي الموطن الأول للساميين[1] .

ويمكن تلخيص الحجج والبينات التي استند اليها هؤلاء العلماء لاثبات نظريتهم في الأمور الآتية :

١ ــ لا يعقل أن ينتقل سكان الجبال والمزارعون من حياة الحضارة والاستقرار الى البداوة ، بل يحدث العكس . ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية ، فلا بد أن يكون وطنها الأول وطناً صحراوياً ، وجزيرة العرب تصلح أن تكون ذلك الوطن أكثر من أي مكان آخر .

٢ ــ ثبت أن معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق أو الشام إنما كونتها عناصر بدوية استقرت في مواضعها ، واشتغلت باصلاح أراضيها وعمرانها ، واشتغلت بالتجارة ، فنشأت من ذلك تلك المدن والقرى . ولما كانت أكثر هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب ، فتكون الجزيرة قياساً على ذلك الموطن الذي غذّى العراق وبادية الشام وبلاد الشام بالساميين ، وأرسل عليها موجات متوالية منها .

٣ ــ هناك أدلة دينية ولغوية ، وتأريخية وجغرافية ، تشير بوضوح الى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين[2] .

٤ ــ إننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدّت العراق وبلاد الشام بالسكان ، وأن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب ، فليس بمستبعد إذن أن يكون الساميون قد هاجروا منها الى الهلال الخصيب .

وقد عارض هذه النظرية طائفة من علماء الساميات ، وحجتهم : أن كل ما قيل وذكر من حجج وبينات ، لا يدل يقيناً على أن جزيرة العرب كانت هي المهد الأصلي للأمم السامية ، ونظرت الى إفريقية على انها المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين . ومن هذه الطائفة من علماء الساميات (بلكريف) ،

---

١ Ancient Iraq, P., 125.

٢ ومن القائلين ان جزيرة العرب هي مهد الساميين (روبرتسن سمث Robertson Smith) الهلال ، نيسان ١٩٠٦ ، ج ٧ سنة ١٤ ، ص ٣٩٩ ،
Kinship and Marriage in Early Arabia, P., 178, Barton, P., 5.

وقد كوّن رأيه من وجود تشابه في الملامح ، وفي الخصائص الجنسية ، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب دفعته الى القول بأن الوطن الأول للساميين هو إفريقية[١] .

وذهب الى هذا الرأي (جيرلند Gerland) ، مستنداً الى الدراسات (الفيزيولوجية) مثل تكوين الجماجم ، والبحوث اللغوية . وقد زعم ان شمال إفريقية هو الموطن الأصلي للساميين ، وادعى ان الساميين والحاميين من سلالة واحدة ودوحة تفرعت منها جملة فروع ،منها هذا الفرع السامي الذي اختار الشرق الأدنى موطناً له[٢] .

وهناك نفر من العلماء أيدوا هذه النظرية ودافعوا عنها أو استحسنوها ، مثل (برتن Bertin)[٣] و (نولدكه)[٤] و (موريس جسترو)[٥] و (كين) و (ربلي) وغيرهم[٦] . ولكنهم اختلفوا أيضاً في تعيين المكان الذي نبت فيه الساميون أول مرة في القارة الإفريقية ، واختلفوا كذلك في الطريق الذي أوصل الساميين الى جزيرة العرب[٧] ، فاختار (برنتن) Brinton شمال غربي إفريقية ، ولا سيما منطقة جبال (الأطلس) فجعلها الموطن الأصلي للساميين[٨] .

واختار نفر آخر إفريقية الشرقية موطناً أول للساميين ،للعلاقات (الأثنولوجية) الظاهرة التي تلاحظ على سكان هذه المنطقة والساميين[٩] . وزعم أن الساميين سلكوا في عبورهم الى آسية أحد طريقين : إما طريق سيناء حيث هبطوا في العربية

---

١ Enc. Brit., 9Th. Ed., "Arabia", Barton, P., 6, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٢ Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380, Barton, P., 6, Iconographic Enc., Art., "Ethnography".

٣ Bertin, Journal of the Anthropological Institute, XI, 431, (1882), Barton, P., 6.

٤ Noeldeke, Die Semit. Sprachen, S., 9, Ency. Brita., (1911), "Semtic Languages", Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٥ Barton, P., 7, Brinton, The Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132.

٦ Barton, P., 7, A Sketch of Semitic Origin Social and Religious, Ch. I, New 1901.

٧ Barton, P., 6, C.U. Ariens Kapper and Leland W. Paar, An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam, 1934, P., 47.

٨ Barton, P., 7, Brinton, Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٩ حتي (ص ١٠) .

الحجريــة وأناخوا فيها مدة ثم انتشروا منهــا[1] ، وإما طريق المندب حيث دخلوا العربية السعيدة من مواضع مختلفة من الحبشة ومن أرض (فنط Punt)[2] . وهي الصومال الحديثة[3] . وقد اكسبتهم اقامتهم في بلاد العرب خصائص جديدة، ووسمتهم بسمات اقتضتها طبيعة الوطن الثاني ، ولكنها لم تتمكن من القضاء على الخصائص الأولى التي تشير الى الوطن الأول قضاءً تاماً ، ولا عــلى الصلة بين اللغات الحامية والسامية التي تشير الى الأصل المشترك كذلك[4] .

وهذه النظرية ، بالرغم من دفاع بعض كبار علماء اللغات والأجناس عنهــا لا تخلو من ضعف ، ومن مواطن ضعفها أنهــا غضت الطرف عن الاعتبارات التأريخية،واستسلمت لدراسات لم تنضج بعد ، فمن الممكن مثلاً ارجاع ما لاحظه علماء اللغات السامية واللغة المصرية القديمة الى عوامل الهجرات الساميــة من جزيرة العرب وعن طريق سيناء الى إفريقية ، مثل هجرة (الهكسوس) وهم من أصل سامي جاؤوا مصر من بلاد العرب . وقد ثبت أيضاً من تحقيقات العلماء أن كثيراً من الأسماء المصرية القديمة التي كانت تطلق على الأقسام الشرقية من الديار المصرية هي أسماء سامية . وإذا سوّغ علماء النظرية الإفريقية لأنفسهم الاستدلال عــلى إفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية واللغات السامية مثلاً، فإن من الممكن ارجاع هذه القرابة الى أثر الهجرات السامية في اللغــة المصرية .

---

١ Barton, P., 6, Journal of the Anthrop. Inst, XI, 431.

٢ يجب تعريب Punt بـ « فنط » ، قياسا على طريقة تعريب الاسماء الاعجمية الى العربية . وقد عربها بعضهم بـ « فوط » وتقابل كلمة « فوط » كلمة Put او Phut الواردة في التوراة انها مسكن ابن حــام الثالث ، غير ان علماء التوراة لم يتفقوا حتى الان على موضع « فوط » ، فذهب بعضهم الى انها في نواحي طرابلس الغرب « ليبيا » ، وراى اخرون انها بين مصر و « كوش » ، اي السودان او الحبشة ، وربما كانت نوبيا الجنوبية ، وهنــاك اراء اخرى . فلا ارى من الصحيح تسمية Punt بفوط لمكان هــذا الاختلاف . راجع عن « فوط » ، ارميا ، اصحاح ٤٦ ، اية ٦ ، وحزقيال ، اصحاح ٢٧ ، اية ١٠ و ٣٠ ، اية ٥ ، و ٣٨ ، اية ٥ ، ناحوم ، اصحاح ٣ اية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٨ ١) ، عربت في ترجمة « تأريخ العرب المطــول » للدكتور حتي بـ « فوط » ص ٤٢ Hastings, P., 777, Enc. Bibl., P., 3984.

٣ حتى (ص ١٣) ،

٤ Barton, P., 8.

وأما تقارب الحبشية من اللهجات العربية الجنوبية وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند ، فلا يكون دليلاً قاطعاً على هجرة الساميين من إفريقية عن طريق الحبشة الى جزيرة العرب ، إذ يجوز العكس ، وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة . والساميون هم الذين كوّنوا دولة (أكسوم) التي كانت تتكلم باللغة (الجعزية) ، وهي لغة سامية ، كما أن قلمها الذي يشبه قلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي . وكتابات (يها) (يحا) المكتوبة بالمسند ، في حد ذاتها دليل على أثر العرب الجنوبيين في الإفريقيين (الكوشيين) ، وهذه الكتابات حديثة عهد بالنسبة إلى كتابات السبئيين[1] ، كما يمكن اعتبار تشابه أسماء بعض الأماكن القديمة في الحبشة مع نظائر لها في اليمن ووجود معبد في الحبشة خص بالإله (المقة) إله سبأ العظيم[2] ، وأمور أخرى دينية ولغوية وأثرية ، واعتراف الأحباش بأنهم من نسل ملكة سبأ (بلقيس) (ماقدة)[3]، من (سليمان الحكيم) ، وأن (حبشت) التي أخذ الأحباش منها اسمهم في اللغة العربية هي مقاطعة تقع في العربية الجنوبية في رأي أكثر العلماء[4] ، وأن (الأجاعز) أصحاب اللغة الجعزية هم أقدم من هاجر من اليمن الى الحبشة ، ووجود صلات قديمة بين الساحلين الإفريقي والعربي ، إذا نظرنا إلى كل هذه الأمور نظرة علمية دقيقة ، نجد أنها تجعل أمام القائلين إن أصل الساميين من إفريقية صعوبات ليس من السهل التغلب عليها ، ولا سيما إذا أضفنا اليها الأثر الذي تركته اليهودية والنصرانية في الأحباش وفي الشعوب الكوشية الأخرى ، فقرب ثقافتها من الثقافة السامية وأثر في لغتها ، وهو أثر يجب أن يقام له وزن عند بحث هذا الموضوع .

ثم ان كثيراً من علماء (الأنثروبولوجي) يرون أن إفريقية تأثرت بالدماء الآسيوية . أما تأثيرها في دماء أهل الشرق الأدنى وفي دماء سكان جزيرة العرب ،

---

١ Mueller, Epigraphische Denkmaeler aus Abessinien, Glaser, Die Abessiner in Arabien und Africa, Muenchen, 1895.

٢ Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S., I, D. H. Mueller, Epigraphische Denkmaeler, S., 57.

٣ Enc., Vol., I, P. 720, B. Littman, The Legend of Queen of Sheba in Tradition of Axum, in Bibliotheca Abessinca.

٤ Enc., Vol., I, P., 119, Conti Rossini, Note sugli Habshat, Roma, 1905.

فقد كان قليلاً لقد دخلت اليها دماء شعوب الشرق الأدنى من البحر المتوسط ومن طور سيناء ومن مضيق باب المندب . ويظهر أثر هذا الاختلاط واضحاً في إفريقية الشرقية وإفريقية الشمالية ، وما زال هذا التأثر واضحاً حتى اليوم[1] . ولهذا فإن من الصعب تصور هجرة الساميين من افريقية الى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق على وفق نظرية هؤلاء العلماء .

ومن القائلين إن المهد الأصلي للساميين هو أرض إرمينية (جون بيترس) ، وحجته في ذلك أن هذا المحل هو أنسب مكان يتفق مع رواية التوراة في الطوفان، وهو المحل الأصلي للأمم السامية والآرية[2] . ثم إن الأنف الحثي يشبه كل الشبه الأنف العبراني ، وفي هذه التسمية دلالة على المكان ، وقد نسي أن العرب وهم من الساميين لم يرزقوا هذا الأنف[3] .

وقد ذهب (أنكناد) (Ungnad) الى أن أصل الساميين من أوروبة ، وقد تركوها وهاجروا منها إلى آسية الصغرى ، ثم هاجروا منها الى أرض (أمورو) (Amurru) ، وذهب قسم منهم في الألف الرابعة قبل الميلاد الى بابل وبقية أنحاء العراق[4] .

وذهب (كلي) الى أن الوطن الأصلي للساميين هو أرض (أمورو) (Amurru) (الأموريين) وتشمل هذه الأرض ، في رأيه ، بلاد الشام ومنطقة الفرات[5] . من هذه المنطقة هاجر الساميون ، وهو قد توصل الى نظريته هذه من الدراسات اللغوية[6] ، ولكنها لا تستند في الواقع إلى أدلة قوية . والأموريون من الشعوب السامية القديمة التي سكنت في فلسطين والشام واقليم بابل[7] .

---

١ L. H. D. Buxton, The People of Asia, London, 1925, P., 34.

٢ السامية (ص ٤)
Journal of the American Oriental Society, XXXIX, 243, ff, Barton, P., 8.

٣ Barton, P., 8.

٤ A. Ungnad, Die Aeltesten Voelkerwanderungen Vorderasiens, Kulturfragen, I, (Breslau), 1923, 5, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

٥ Barton, P., 8, A. T. Clay, Amurru, The Home of the Northern Semites, Philadelphia, 1909, The Empire of the Amorites, New Haven, 1919, Enc. of Rel. and Ethics, II, 380.

٦ Barton, P., 9.

٧ Hastings, P., 27, Enc. Bibl., P., 146, Meissner, Altar. Privatrecht, No. 42, Schrader, K. A. T., S., 178. ff.

وذهب آخرون إلى أن الوطن الأول الأصل للساميين هو أرض (قفقاسية) ، إذ كان البشر من ثلاثة أجناس أساسية،هي : الجنس القفقاسي (Caucassids) والجنس المنغولي (Mongoloids) (الآسيويين) ، والجنس الزنجي Negroids . وقد قصدوا بالجنس القفقاسي أصحاب البشرتين البيضاء والسمراء ، أي الآريين والساميين . فوطن هذين الجنسين الأول هو (قفقاسية) على هذا الرأي . منه انتقل الساميون الى أوطانهم الجديدة ، بهجرتهم الى الجنوب واستقرارهم فيما يقال له (الهلال الخصيب) ، ثم فيما وراءه الى السواحل الجنوبية لجزيرة العرب ، ومنه انتقل الآريون الى الجنوب الشرقي لقفقاسية والى الغرب والشمال ، أي الى آسية وأوروبة ثم الى أماكن أخرى فيما بعد[1] .

وهجرات على هذا النحو ، لا بد أن تكون لها أسباب ومسببات،اذ لا يعقل ترك انسان لوطنه من غير سبب . وقد بحث القائلون بهذا الرأي عن الأسباب التي أدت الى وقوع تلك الهجرات ، فوضعوا لهم جملة فرضيات .

ظهر الساميون على مسرح الوجود في الألف الثالثة قبل الميلاد ، واستقروا في هذه الأرضين التي اصطبغت بالصبغة السامية ، وهي الهلال الخصيب وشبه جزيرة سيناء وجزيرة العرب ، حيث تعد اليوم المواطن الرئيسية للساميين[2] .

وقد توسط بعض الباحثين بين الآراء المتباينة ، عن الوطن الأول للجنس السامي،فذهب الى أن الهلال الخصيب وأطراف جزيرة العرب هي الموطن الأول للساميين والميدان الذي وجدوا فيه منذ أقدم أيامهم،وقد كان هذا الميدان موضع صراع بين البداوة والحضارة ، فقد كان البدو يهاجمون الحضر سكان القرى والمدن ، والبدو هم من الساميين ، وكثير من الحضر كانوا من الساميين أيضاً، ومن هذا التنازع على الحياة تكوّن تأريخ الساميين في هذه المنطقة الواسعة من الهلال الخصيب التي تحدها من الشرق والشمال والغرب الجبال والتي تمتد فتشمل كل جزيرة العرب[3] .

---

١ Sonia Cole, Races of man, British Museum (Natural History). PP. 9.

٢ Simon Dubnow, Weltgeschichte des Juedischen Volkes, Bd., I, S., 3.

٣ Ancient Iraq, PP., 125.

الهجرات السامية :

تقول كل النظريات التي رأيناها عن أصل الوطن السامي ، بهجرات الساميين من ذلك الوطن الأم الى أوطان أخرى في أزمان مختلفة متباينة ، وذلك لأسباب عديدة منها : ضيق أرض الوطن من تحمل عدد كبير من الناس،وتزاحم الناس على الرزق ، مما دعاهم الى التحاسد والتباغض والتفتيش عن وطن جديد،وظهور تغيرات في طبيعة ذلك الاقليم ، الى عوامل أخرى .

وقد تصور القائلون ان جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، بلاد العرب كخزان هائل يفيض في حقب متعاقبة ، تبلغ الحقبة منها زهاء ألف عام ، بما يزيد على طاقته من البشر الى الخارج،يقذف بهم موجات أطلقوا عليها (الموجات السامية)[1] .

وقد علل القائلون بنظرية أن جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، سبب هذه الهجرات بعدم استطاعة جزيرة العرب قبول عدد كبير من السكان يزيد على طاقتها ، فلا يبقى أمامهم غير سلوك طريق الهجـرات الى الأماكن الخصبة في الشمال . وقد كانت الطرق الساحلية من أهم المسالك التي أوصلت المهاجرين الى أهدافهم .

وفي جملة أسباب ضيق جزيرة العرب عن استيعاب العـدد الكبير من السكان تغير مستمر طرأ عليها ، أدى الى انحباس الأمطار عنها وشيوع الجفاف فيها مما أثر على قشرتها وعلى أحيائها ، فهلك من هلك وهاجر من هاجـر من جزيرة العرب ، وقد استمر هذا التغير آلافاً من السنين حتى حوّل بلاد العرب أرضين غلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، وقلّت فيها الرطوبة ، وغلب على أكثر بقاعها الجفاف[2] .

وقد رأى بعض العلماء أن جزيرة العـرب كانت في عصر (البلايستوسين) (Pleistocene) خصبة جداً كثيرة المياه ، تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة ، وذات غابات كبيرة وأشجار ضخمة،كالأشجار التي نجدها في الزمان

---

١ حتي (ص ١٣) . Montgomery, Arabia and the Bible, P., 21.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, PP., 90, « The Problem of the Physical change in Arabia ».

الحاضر في الهند وإفريقية ، وأن جوها كان خيراً من جو أوروبة في العصور الجليدية التي كانت تغطي الثلوج معظم تلك القارة ، ثم أخذ الجو يتغير في العالم، فذابت الثلوج بالتدريج ، وتغير جو بلاد العرب بالطبع ، حدث هذا التغير في عصر الـ (نيوليتك Neolithic) أو في عصر الـ (كالكوليتك) (Chalcolithic) ، ولم يكن هذا التغير في مصلحة جزيرة العرب ، لأنه صار يقلل من الرطوبة ويزيد في الجفاف ، ويحول رطوبة التربة إلى يبوسة فيميت الزرع بالتدريج ، ويهيج سطح القشرة فيحولها رمالاً وتراباً ثم صحارى لا تصلح للانبات ولا لحياة الأحياء[1] .

فاضطر سكان الجزيرة الذين كانوا من الصيادين إلى أن يكيفوا أنفسهم بحسب الوضع الجديد ، فأخذ ناس منهم يهاجرون إلى مناطق أخرى ملائمة توائم حياتهم ومزاجهم ، وأخذ ناس آخرون يعتمدون على الزرع وتدجين الحيوانات، وعلى الاكتفاء بصيد ما يرونه من حيوانات تحملت الجو الجديد متنقلين من مكان إلى مكان حيث الكلأ والماء . وهكذا تعرضت حياة الأجسام الحية من نبات وحيوان لتغيرات تدريجية مستمرة ، فرضها عليها تغير الجو .

وقد أدى انحباس المطر وازدياد الجفاف ويبوسة الجو الى انخفاض الرطوبة من سطح الأرض ، وهبوط مستوى الماء بالتدريج عن قشرة الأرض،وظهور الأملاح في الآبار ، وجفاف بعض الآبار ، فأدى ذلك إلى ترك الناس هذه الأماكن ، إذ صعب عليهم استغلالها بالزراعة ، واصلاحها بحفر آبار لا تساعد مياهها الملحة على نمو النبات ، ومعيشة الحيوان . حدث ذلك حتى في العصور الإسلامية حيث نسمع شكاوى مريرة من هذه العوارض الطبيعية[2] .

---

١ BOASOR, Suppl., No. 7-9, P, 41, (1950), Discoveries, P. 82, A. Grohmann., Arabien, S. 5, B. Thomas, Anthropological Observations in South Arabia, Proceedings of the Royal Anthropological Institute.

٢ تجد امثلة كثيرة وبحثا قيما في هذا الموضوع كتبه (موريتس B. Moritz) في كتابه : Arabien, Studien Zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes.

وقد تحدث (فلبي) عن هبوط مستوى مياه بعض الآبار الـتي زارها عام ١٩١٧م في الخرج[١] ، كما تحدث غيره من السياح عن حوادث مشابهـة حدثت في تهامة والحجاز وأماكن أخرى[٢] .

ويعزو علماء طبقات الأرض انخفاض مستوى سطح الماء في جزيرة العرب إلى عوامل أخرى،إضافة إلى الجفاف مثل هبوط درجات الضغط على قشرة الأرض . وقد رأى الخبير الأمريكي (تويجل) (Twitchell) ، أن الماء قد انخفض زهاء سبع وعشرين قدماً عن مستواه الذي كان عليه قبل ألفي عام[٣] . ومن العلماء من يرى أن مستوى سطح الماء في البحر الأحمر وفي الخليج العربي قد انخفض كذلك ، فذهب بعض علماء دراسة التوراة إلى أن مستوى سطح الماء في خليج السويس قد انخفض (٢٥) قدماً عما كان عليه في (أيام الخروج – Exodus)[٤] . وذهبت جماعة منهم إلى أن هذا الهبوط لم يكن كبيراً ، وانما بلغ زهاء ست أقدام أو أقل من ذلك في خلال ثلاثة آلاف سنة[٥] . أما مستوى سطح الخليج العربي ، فقد هبط على رأي بعضهم زهاء عشر أقدام أو خمس أقدام خلال ألفي عام ، وان ماء البحر قد تراجع في هذه المدة ، ويستدلون على ذلك بوجود السباخ في الأحساء والقطيف ، وهي ، في رأيهم ، من بقايا تأثر البحر في الأرض وبما ذهب اليه بعضهم من أن الربع الخالي ، وقد عثر فيه على بقايا بحر واسع في السهل المنخفض الذي يقال له أبو بحر ، كان متصلاً بالبحـر العربـي[٦] . ومهما يكن من شيء ، فإن هبوط مستوى سطح الماء مهما كان مقداره قد أثر في سطح الأرض .

وقد وجد السياح محاراً من النوع الذي يكون في المياه العذبة ، وأدوات من الصوان ترجع إلى ما قبل التأريخ والعصور الحجرية ، وبقايا عظام ترجع إلى هذه العصور في مناطق صحراوية ، ويدل وجودها فيها على أنها كانت مأهولة،وأنها لم تهمل إلا لعوارض طبيعية قاهـرة لم يكن من الممكـن التغلب عليها ، حولت

---

١ Philby, The Heart of Arabia, P., 37, 38, BOASOR, Suppl., Nos, 7-9, P., 41.

٢ راجع كتاب « موريتس » المذكور Discoveries, P., 83.

٣ Twitchell, Saudi Arabia, P., 44, 51.

٤ BOASOR, Suppl., Stud., Nos, 7-9, P. 42.

٥ المصـــدر نفسـه

٦ Dougherty, The Sealand, P., 160. Philby, The Heart of Arabia, P., 31,

تلك المناطق الخصبة في ألوف من السنين إلى مناطق لا تتوفر فيها شروط الحياة ، فهجرت[1] .

كما أننا نجد في الكتب العربية ذكر أشجار ضخمة كانت تنمو في مناطق لا تنبت شيئاً ما في الزمان الحاضر ، وذكر مناطق كانت تحمي ، يقال لها (الحمى) وقد جفّ معظمها ، وعاد أرضين قفرة جرداء، فهلاك هذه النباتات وجفاف هذه الأرضين ، لا يمكن أن يعزى إلى سوء الأوضاع السياسية وهجرة القبائل والمزارعين إلى أماكن أخرى لفساد الادارة في الأماكن البعيدة حسب ، بل لا بد أن يكون للطبيعة يد في هذا التحول ونصيب . إن هذا التغير الذي حدث في جو جزيرة العرب ، فساعد على ازدياد الجفاف وانحباس الأمطار ، قد أباد النباتات ، وقاوم نمو المزروعات ، وعفى على الأشجار الضخمة التي كانت تعيش من امتصاص جذورها العميقة للرطوبة من أعماق الأرض ، كما أثر في حياة الحيوان كالأسد الذي قلّ وجوده ، وقد كان كثير الوجود ، ويدل على كثرة وجوده هذه الأسماء الكثيرة التي وضعت له وحفظت في كتب اللغة[2] . وحمار الوحش وقد كان من الحيوانات التي يخرج الناس لصيدها في الحجاز وفي نجد ، والنعامة[3] . والرئم أو بقر الوحش ، والفهد ، والنسر[4] .

ومن العلماء الذين نسبوا هجرة الساميين من جزيرة العرب إلى خارجها ، إلى عامل الجفاف والتغير الذي وقع في جو جزيرة العرب ، العالم الايطالي (كيتاني) (L. Caetani) . لقد تصور (كيتاني) بلاد العرب في الدورة الجليدية جنة، بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة وكانت سبباً في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتّاب التوراة عن (جنة عدن) . وجنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر (كيتاني) في جزيرة العرب ،

---

١ المراجع نفسها ، مجلة سومر ١٩٤٩ ، المجلد الخامس ، ٢/١٢٧ فما بعدها .

٢ المخصص (٥٩/٨ فما بعدها) وقد اشتهرت بعض الاماكن باسودها ، مثل (عثر) قال الهمداني : « والى حارة عثر تنسب الاسود التي يقال لها اسود عثر ، واسود عتود وهي قرية من بواديها وقد ذكرها ابن مقبل : »

جلوسا بها الشم اللجان كأنهم   اسود بثرج او اسود بعتودا

Moritz, S., 35. ff., 40, Noeldeke, In ZDMG., 49, 713. f.

٣ Moritz, S., 42, Wellhausen, Lieder der Hudhailiten, No., 175, 176, Euting. I, 230.

٤ صفة ص ٢٠٢

غير أن الطبيعة قست عليها ، فأبدلتها صحارى ورمالاً ، حتى اضطر أصحابها إلى الارتحال عنها إلى أماكن تتوافر فيها ضروريات الحياة على الأقل فكانت الهجرات إلى العراق وبلاد الشام ومصر والمواطن السامية الأخرى . وكانت هذه الهجرات كما يقول قوية وعنيفة بين سنة ٢٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، فدخل الهكسوس أرض مصر ، وهاجر العبرانيون إلى فلسطين ، ثم ولي ذلك عدد من الهجرات[١] .

ويرى (كيتاني) أن هذا التغير الذي طرأ على جو جزيرة العرب ، انما ظهر قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة آلاف سنة ، غير أن أثره لم يبرز ولم يؤثر تأثيراً محسوساً ملموساً إلا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة . وعندئذ صار سكان بلاد العرب ، وهم الساميون ، ينزحون عنها أمواجاً ، للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الخصب والخير ، وحياة أفضل من هذه الحياة التي أخذت تضيق منذ هذا الزمن[٢] .

وقد تصور (كيتاني) أودية جزيرة العرب ، مثل وادي الحمض ووادي السرحان ووادي الرمة ووادي الدواسر ، أنهاراً كانت ذات مياه غزيرة تنساب اليها من المرتفعات والجبال في الدهور الغابرة ، أثرت فيها التغيرات الطبيعية المذكورة ، فقللت من مياهها حتى جفت، فصارت أودية ، لا تجري فيها المياه إلا أحياناً ، إذ تسيل فيها السيول بعد هطول الأمطار[٣] .

وقد ذهب إلى هذا الرأي المستشرق الألماني (فرتز هومل) أيضاً ، فرأى أن الأنهر المذكورة في التوراة على أنها أنهر جنة (عدن) ، هي أنهر تقع في بلاد العرب ، وأن الأنهر المشار اليها ، هي وادي الدواسر ، ووادي الرمة ، ووادي السِّرحان ، ووادي حَوْران[٤] . وأما (كلاسر) ، فذهب إلى أن نهري

---

١ المقتطف ، جزء يوليو ١٩٤٤ ، ص ١٢٣ فما بعدها ، الجزء الثاني من المجلد الخامس بعد المئة ، مجلة سومر ، الجزء الثاني ، المجلد الخامس ١٩٤٩ ، ص١٢٣ فما بعدها ،

Caetani, Studi della Historia Orientale, Vol., I, P., 64, 185, 186, 188, 192. 277. Musil, Negd, P., 311, 305, Caetani, Studi, Vol. 2, PP. 53, 65.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, P., 95.

٣ Caetani, Studi, Vol., I, P., 64, 80, 243, Vol. 2, PP. 53. 65. Musil. Negd. P., 305, Caetani, Annali Dell'Islam, II, Part II, (1907), 831. ff.

٤ Montgomery, Arabia, PP., 9, F. Hommel, Opus Magnum Ethnologie und Geographie des Alten Orients, II, 508, 547, 1926.

(جيحون) و (فيشون) ، وهما من أنهر (جنة عدن) الأربعة في رواية التوراة[1] ، هما في جزيرة العرب[2] .

ويعتقد (كيتاني) أن الفيلة والحيوانات الضخمة التي يندر وجودها اليوم في بلاد العرب ، كانت موجودة فيها بكثرة ، ولا سيما في أرض (مدين) . وكان الصيادون يخرجون لاصطيادها لأكل لحومها[3] . وقد جاء بأمثلة لتأييد رأيه من كتب (الكلاسيكيين)[4] .

وقد قسّم (كيتاني) جزيرة العرب إلى قسمين : غربي وشرقي . أما القسم الغربي،فهو الذي على ساحل البحر الأحمر الشرقي،وفيه سلاسل جبلية ومرتفعات . وأما القسم الشرقي ، فالأرضون التي تأخذ في الانحدار والميل . وهي عند السفوح الشرقية للجبال ، وتمتد نحو الخليج . وقد كان سكان المناطق الغربية – في رأيه – في مستوى راق من المدنية ، وكان لهم سلطان كبير على المناطق الشرقية ، وعلى سكانها الذين كان يغلب عليهم الفقر . وقد كان فعل الجفاف أشد وأسرع في الأرضين الشرقية منه في الأقسام الغربية ، لذلك بدأت الهجرات من هذه المناطق قبل المناطق الغربية،وظهرت فيها البداوة بصورة أوضح من ظهورها في الأرضين التي على ساحل البحر الأحمر والمتصلة باليمن وبلاد الشام . ولما توسعت منطقة الجفاف وأخذت الرطوبة تقلّ في جو بلاد العرب الغربي ، ظهرت أعراض الصحراوية في تلك الأرضين كذلك ، واضطر السكان إلى الهجرة منها إلى مناطق أخرى[5] .

وقد لاقت نظرية (كيتاني) هذه رواجاً بين عدد كبير من المستشرقين ، واعتدها (السير توماس أرنولد) من أهم النظريات التي اكتشفها المؤرخون الحديثون بالنسبة إلى التأريخ العربي[6] . غير أن المستشرق (الويس موسل) ، يرى أنها لا تستند إلى أسس تأريخية ، ولا إلى أدلة علمية ، وأن القائلين بها قد بالغوا

---

١ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٠ فما بعدها .

٢ Glaser, Skizze, S., 314, Montgomery, P., 94.

٣ Musil, Negd, P., 308.

٤ Strabo, Geography, XVI, 4, 18, Periplus, PP., 177, (Mueller Ed.), Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 43. f.

٥ Musil, Negd, P., 311, Caetani, Studi., P., 210.

٦ Musil, Negd, P., 304, Arnold, The Caliphate, (1924), PP. 23.

فيها مبالغة كبيرة ، ويرى أنه ما دامت البحوث (الجيولوجية) التي قام بها العلماء في مراحلها الأولى ، وقد جرت في مناطق محدودة فلم تفحص أكثر مناطق جزيرة العرب فحصاً علمياً فنياً ، حتى الآن ، فلا يصح الاعتماد على فرضيات ، تبنى عليها آراء ثابتة . ولهذا فهو يرى أن الأدلة (الجيولوجية) التي استشهد بها (كيتاني) ضعيفة وغير كافية ، فهي لا تستحق مناقشة ، واكتفى بمناقشة الأدلة التأريخية[١] .

يرجع (موسل) سبب الهجرات ، وتحول الأرضين الخصبة صحارى ، إلى عاملين هما : ضعف الحكومات ، وتحول الطرق التجارية[٢] . فضعف الحكومات ينشأ عنه تزعم سادات القبائل والرؤساء ، وانشقاقهم على الحكومات المركزية ، ونشوب الفتن والاضطرابات واشتعال نيران الحروب، وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانية ، وتلف المزارع والمدن، وتوقف الأعمال التجارية وحصول الكساد ، وانتشار الأمراض والمجاعة ، والهجرة إلى مواطن أخرى يأمن فيها الانسان على نفسه وأهله وماله . فخراب سدّ (مأرب) مثلاً لا يعود إلى فعل الجفاف الذي أثر على السدّ كما تصور ذلك (كيتاني)[٣] ، بل يعود إلى عامل آخر لا صلة له بالجفاف ، هو ضعف الحكومة في اليمن ، وتزعم (الأقيال) و (الأذواء) فيها ، وتدخل الحكومات الأخرى في شؤون العربية الجنوبية كالحبشة والفرس ، مما أدى إلى اضطراب الأمن في اليمن ، وظهور ثورات داخلية وحروب ، كالذي يظهر من الكتابات التي تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس للميلاد[٤] ، فألهى ذلك الحكومة عن القيام بإصلاح السد، فتصدعت جوانبه ، فحدث الانفجار ، فخسرت منطقة واسعة من أرض اليمن مورد عيشها الأول ، وهو الماء ، ويبست المزارع التي كانت ترتوي منه ، واضطرت القبائل وأهل القرى والمدن الواقعة فيها إلى الهجرة إلى مواطن جديدة . وتصدع السد بسبب ضغط الماء على جوانبه، هو في حد ذاته دليل على فساد نظرية الجفاف[٥] .

---

١ Musil Negd, P., 304.

٢ Musil, Negd, PP., 317.

٣ Musil, Negd, P., 309, Caetani, Studi., 267, 296.

٤ Corpus Inscriptionum Semiticarum, (1911), Part, 4, Vol., 2, Nos. 384, 540, 541.

٥ Musil, Negd, P., 310, Corpus Inscript. Semit, No. 540, II, 54-64.

ويرى (موسل) أن التقدم الذي حدث في البلاد العربية بعد القرن التاسع عشر دليل آخر على فساد نظرية (كيتاني) ، فقد ظهرت مدن حديثة، وعمرت قرى ، وشقت ترع ، وحفرت آبار ، وعاش الانسان والحيوان والنبات في مناطق من العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن كانت تعد من الأرضين الصحراوية[١] . فليس الجفاف هو المانع من عمارة هذه المناطق ، والسبب في تكون هذه الصحارى ، بل السبب شيء آخر ، هو ضعف الحكومات وانصرافها عن العمارة وعن المحافظة على الثروة الطبيعية وضبط الأمن ، ووقوفها موقف المتفرج تجاه قطع الناس للأشجار واستئصالها لاستخراج الفحم منها ، أو لاستعمال خشبها في أغراض أخرى ، وقتال القبائل بعضها ببعض ، هذا وان من الممكن إعادة قسم من الأرضين الجرد إلى ما كانت عليه ، إذا ما تهيأت لها حكومة قوية رشيدة تنصرف إلى حفر الآبار ، واقامة السدود ، وغرس الجبال ، وانشاء الغابات ، والاستفادة من مياه العيون[٣] .

ويرى (موسل) أيضاً أن ما ذكره (كيتاني) عن الأنهار في جزيرة العرب مسألة لا يمكن البت فيه الآن،لقلة الدراسات العلمية[٢] ، كما ان ما ذكره عن انعدام أجناس من الحيوانات ، ليس مرده إلى الجفاف وعدم احتمال تلك الحيوانات الجو الجديد ، فهلكت ، أو هاجرت إلى مواطن جديدة ، بل مرده في نظره إلى اعتداء الانسان عليها ، وقتله اياها . ودليله على ذلك أن الحيوانات التي ورد ذكرها في كتب (الكلاسيكين) لا تزال تعيش في المناطق التي عيّنها أولئك الكتّاب ، ولكنها بقلة . كذلك نجد الهمداني وغيره ينكر وجود الأسد وحيوانات أخرى في مواضع قلّ فيها وجودها الآن ، وهذا مما يشير إلى أن هذه الحيوانات لم تنقرض أو تقل بفعل تبدل الجو ، بل بفعل اعتداء البشر عليها ، وان اعتداء البشر على الحيوان شر من اعتداء الطبيعة عليه[٤] .

ولا يوافق (موسل) على نظرية (كيتاني) في هجرة القبائل العربية من الجنوب إلى الشمال ، أو من الشرق إلى الشمال . وقد رأى (كيتاني) كما سبق

---

١ Musil, Negd, P., 310.

٢ Musil, Negd, P., 318.

٣ Musil, Negd, P., 305, Caetani, Studi., P., 60, 87. ff.

٤ Musil, Negd, P., 309.

أن ذكرنا تقسيم جزيرة العرب إلى قسمين : قسم غربي وهو الممتد من فلسطين إلى اليمن ، وينتهي بالبحر العربي ، وتكون حدوده الشرقية (السراة) والغربية البحر الأحمر ومضيق باب المندب . وقسم شرقي ، وهو ما وقع شرقي (السراة) إلى الخليج والبحر العربي[1] .

وقد ظهر الجفاف في رأي (كيتاني) في القسم الشرقي قبل الغربي ، ولهذا صار سكانه يهاجرون منه بالتدريج إلى مواطن جديدة صالحة للاستيطان مثل العراق والشام ، كما صار سبباً لظهور الصحارى الشاسعة في هذا القسم بصورة لا نعهدها في القسم الغربي[2] .

ويرى (موسل) أن هذا تقسيم لا يستند إلى أسس طبيعيه وجغرافية ، ولا إلى آراء (الكلاسيكيين) ، أو علماء الجغرافية العرب ، أو غيرهم ، وانه مجرد رأي لا يمكن أن يكون حجة لاثبات مثل هذا الرأي[3] .

ولموسل رأي في الهجرات ، يرى أن ما قاله (كيتاني) وغيره عن الهجرات من جزيرة العرب ، من اليمن أو من نجد إلى الشمال ، قول لا يستند إلى دليل تأريخي قوي . فليست لدينا حتى الآن براهين كافية تثبت — على حد قول موسل — أن أصل (الهكسوس) أو (العبرانيين) مثلاً من جزيرة العرب[4] . كما أن ما ادعاه (كيتاني) عن استمرار الهجرات من الألف الثالث أو قبل ذلك قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد قول لا ينطبق مع المنطق . فلِمَ ظلت هذه الهجرات مستمرة إلى أن توقفت بعد القرن السابع للميلاد ؟ أزادت الرطوبة وتحسن الجو ؟ أم أن القبائل الكبيرة كانت قد تجزأت إلى قبائل صغيرة وعشائر وأفخاذ ، فأصبح في امكانها العيش بعض الشيء في محالّ صغيرة ، لا تحتاج إلى مراعي شاسعة ، ولا إلى مياه غزيرة ؟ فلم تدفعها الحاجة منذ هذا العهد إلى الهجرة في شكل موجات كبيرة . وهل كان الجفاف هو المانع من مهاجمة حدود الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية اللتين كانتا قد سدتا أبواب جزيرة العرب على أهلها ، فلم تسمحا للقبائل بتخطي هذه الحدود ؟ ويرى ان

١ Musil, Negd, P., 311.

٢ Caetani, P., 210, Musil, Negd, P., 311.

٣ Musil, Negd, P., 311.

٤ Musil, Negd, P., 311.

ما ادعاه (كيتاني) من أن الجفاف والجوع حملا قبائل اليمن على الهجرة إلى الهلال الخصيب حيث نزلت في أرضين كانت خالية مهجورة على أطراف الفرات والشام ، فألفت حكومتي (المناذرة) و (الغساسنة) ، قول لا يؤيده ما جاء في الكتب (الكلاسيكية) وفي المصادر (السريانية) من أن تلك الأرضين كانت عامرة ، آهلة بالسكان ، تمر بها الطرق التجارية العالمية . ويرى (موسل) أن الحكومتين (اللخمية) و (الغسانية) إنما ظهرتا بعد سقوط (تدمر) وقد أسس الدولتين (مشايخ) من أهل الهلال الخصيب،ولم يكونوا مهاجرين وردوا من الجنوب ، أو من العروض على نحو ما تزعمه بعض الروايات[1] .

ويأخذ (موسل) على (كيتاني) تصديقه الرواية العربية عن هجرة القبائل ونظريتها في الأنساب ، واعتدادها من جملة الأدلة التي تثبت نظرية الجفاف . ويرى أنها – مع التسليم بصحتها – تنطبق على الوضع الذي كان في القرن السابع للميلاد وفي الجاهلية القريبة من الإسلام ، وأنها رواية تستند إلى خبر مسوغ لا يصح أن يكون سنداً في اثبات الهجرات لما قبل الميلاد[2] .

ويمكن تفسير انتساب القبائل – على حد قول موسل – بصورة أخرى ، هو أن العرب الجنوبيين كانوا قد هيمنوا في الجاهلية وقبل الإسلام بقرون على الطريق التجارية التي تصل الشام باليمن وعلى الطرق التجارية الأخرى ، وكانت لهم حاميات فيها لحماية القوافل من غارات الأعراب ، فلما ضعف أمر حكومات اليمن ، استقلت هذه الحاميات ، وكان كثيراً من أفرادها قد تزاوجوا مع من كان يجاورهم من القبائل ، واتصلوا بهم . ولما كان لليمن مقام عظيم وشرف بين القبائل ، انتسب هؤلاء إلى اليمن ، وصاروا يعدون أنفسهم مهاجرين ، يتصل نسبهم بنسب اليمن . ومن هنا نشأت ، في رأي (موسل) أسطورة الأنساب ! ثم جاء علماء الأنساب في (المدينة) و (الكوفة) فسجلوها على أنها حقيقة واقعة ، ومنهم انتقلت إلى كتب التأريخ ، فتوسعت وتضخمت في الإسلام[3] .

ويدّعي (موسل) أنه لو كانت هنالك هجرات حقاً ، لرأينا أثرها في لغة

---

١ Musil, Negd, P., 312, Kuseir 'Amra, PP., 131.

٢ Caetani, PP., 268, Musil, Negd, P., 311.

٣ Musil, Negd, P., 312.

القبائل النازحة إلى الشمال وفي عقيدتها الدينية وفي ثقافتها وفي أساطيرها وفي قصصها الشعبي ، ولوجدنا في أقل الأحوال إشارة في الكتابات العربية الجنوبية التي تعود إلى ما قبل الإسلام . ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك ، وهذا مما يفند رأي القائلين بالهجرات،وبأن أصل كثير من القبائل التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، ومن هؤلاء الغساسنة والمناذرة ، هم من اليمن[1] .

ويعترض (موسل) أيضاً على دعوى (كيتاني) وغيره من المستشرقين ممن زعموا أن الفتح الإسلامي هو آخر هجرة سامية قذفت بها جزيرة العرب إلى الخارج ، وأنها كانت بسبب الجفاف والجوع ، ويرى أن ما جاء في هذه الدعوى لا يتفق مع الحقيقة ، وأن ما ذكره (كيتاني) عن عدد نفوس الحجاز مبالغ فيه ، وأن الجيوش التي اشتركت في فتح العراق والشام وفلسطين لم تكن حجازية أو نجدية حسب ، بل كانت فيها قبائل عراقية وشامية نصرانية،ساعدت أبناء جنسها العرب مع اختلافها مع المسلمين في الدين،وحاربت الروم والفرس ، ولذلك فليست الفتوحات الإسلامية هجرة من جزيرة العرب إلى الخارج على نحو ما تصوره (كيتاني) بدافع الفقر والجوع[2] .

والرأي عندي أن ما يسمى بموضوع تغير الجو في جزيرة العرب وبالهجرات السامية والاستشهاد بآثار السكنى عند حافات الأودية وفي أماكن مهجورة نائية ، لاتخاذ ذلك دليلاً على الوطن السامي وعلى هجرة الساميين ، هو موضوع لم ينضج بعد ، وهو لا يزال بعدُ يحتاج إلى دراسات علمية وإلى نتائج أبحاث علماء (الجيولوجيا) والعلوم الأخرى ، ليقولوا كلمتهم في هذا الموضوع . فعلى بحث هؤلاء يتوقف الحكم في موضوع تطور الجو وتغير الإقليم . أما الحدس والتخمين، وأما الاعتماد على حوادث وعلى بحوث لغوية ومقابلات ومطابقات في أمور دينية وثقافية أخرى ، فإنها لا تكفي في نظري للبت في قضايا يجب أن يكون فيها الحكم والكلمة للعلوم لا للحدس والتصور والتخمين . هذا هو رأيي الآن في هذا الموضوع ، وفي كل الآراء الواردة عن مواطن الساميين .

فقد رأينا أن بعض تلك الآراء إنما قيلت لاعتقاد أصحابها بما ورد في التوراة،

---

١ Musil, Negd, P., 313.

٢ Musil, Negd, P., 313, Caetani, Studi., P., 307.

فجاءت بكل ما عندها من حجج وأدلة لإثبات رأيها هذا ، ورأينا أن في بعض الأدلة متناقضات واستشهادات ضعيفة ، ورأينا أن الاستشهاد باشتراك اللغات في الألفاظ لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً على الأصل المشترك ، ثم إننا لا نملك سجلاً تاريخياً للنبات والحيوان ولظهور الألفاظ حتى نستشهد به في اثبات نظرية من النظريات ، وكل ما لدينا من هذا النوع إنما هو مجرد رأي وحدس. والرأي لا يكون رأياً علمياً إلا بحجة قاطعة وبدليل علمي دامغ وبحوث مختبرية وآثار تثبت ذلك للعيان ، فمن حقي إذن أن ألتزم التريث والانتظار وأستعجل العلماء المتخصصين في دراسة طبقات الأرض ، لنرى نتائج بحوثهم لنستنير بها في اعطاء أحكام في هذه الآراء .

أما بعض الأمثلة التي استشهد بها لاثبات تغير جو جزيرة العرب ، فهي أمثلة لا يمكن أن تكون دليلاً للتغير ، وإنما ترجع إلى عوامل أخرى مثل تغير طريق القوافل ، وتغير اتجاهات السفن البحرية ، وإلى الفتن والحروب وغارات القبائل المتوالية التي هي من شر الأوبئة التي فتكت بالمجتمع العربي ، فسببت هرب الحضر من أماكن اقامتهم إلى أماكن أخرى ، لعدم وجود قوات نظامية وحكومة ترد اعتداءات الأعراب عليهم ، ثم الحروب الأهلية التي وقعت في اليمن بين الحبش وأهل اليمن وأمثال ذلك مما وقع بين الفرس والعرب . أما في الإسلام ،فقد كان للفتوحات دخل كبير في هجرة القبائل لنشر الإسلام وللاستمتاع بخيرات بقاع جديدة في العراق وفي بلاد الشام وفي أمكنة أخرى لا يوجد لها مثيل في جزيرة العرب ، فتخربت لذلك بعض القرى والسدود القديمة التي كانت في الإسلام ، وهي اليوم خراب . أضف إلى ذلك الحروب والفتن التي وقعت في اليمن وفي باقي العربية الجنوبية والعروض في أيام الأمويين والعباسيين وفي الأيام التي تلتهم ، فنشرت في تلك الديار الخراب ، ثم اهمال الأمويين ومن جاء بعدهم من خلفاء وملوك وحكام شأن جزيرة العرب ، لفقرها وعدم وجود موارد غنية فيها ، وانتقال أصحابها أصحاب الجاه والنفوذ إلى البلاد الغنية ، فلم يبق من يدافع عنها ويتحدث بلسانها باعتبارها مهد العرب الأول ومهد الإسلام، فتقوى الخراب بذلك على العمار ، وأخذ يبتلع ما يجده أمامه من مستوطنات حتى وصلت إلى ما وصلت اليه اليوم .

والدليل على ذلك ، ورود أسماء مواضع عديدة في اليمامة وفي الحجاز وفي

نجد واليمن وفي كل أنحاء جزيرة العرب الأخرى في الموارد العربية الإسلامية ، كانت مأهولة مزروعة في صدر الإسلام ، خربت وهجرت وصارت أثراً ، وقد ذهب عن أكثرها حتى الاسم . فلما كتب عنها الجغرافيون لم يجدوا من عمرانها شيئاً . بل نجد في كتب الجغرافيين أسماء مواضع نزلوا بها وأقاموا فيها، وكانت معمورة مسكونة . أما اليوم فلم يبق من أكثرها شيئاً ، فهل نرجع فعل هلاكها إلى الجفاف وتغير الجو وإلى اندثار الواحات والبحيرات والأنهار ؟ إن الجغرافيين المذكورين لم يشيروا إلى وجود واحات وبحيرات وأنهار حتى نقول بفعل الجو فيها ، بل هنالك عوامل أخرى عديدة اضطرت الناس إلى ترك مواطنهم تلك التي ذكرتها ، وفي مقدمتها الفتن والغزو وتغير الطريق وعدم قيام حكومة قوية تحمي الأمن .

وأما موضوع الاستشهاد بالهجرات ، فإنه موضوع غامض يحتاج إلى دراسة علمية عميقة ، فالذين يرون أن جزيرة العرب كانت مهد الجنس السامي، وضعوا نظريتهم هذه قياساً على روايات أهل الأخبار من أمر هجرة العرب إلى تلك الأرضين ، ومن الفتح الإسلامي الذي جرف قبائل عدنانية وقحطانية فساقها إلى بلاد العراق وبلاد الشام وإلى ما وراء هذه الأرضين ، ومن هجرة قبائل من جزيرة العرب إلى تلك البلاد حتى الزمن القريب، ومن أخبار عن هجرة الفينيقيين من البحرين إلى بلاد الشام . ولكننا نجد من ناحية أخرى ان التوراة تذكر أن الاسماعيليين هم سكان أرضين تقع في الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب وفي شرق فلسطين في البادية وفي طور سيناء ، والأخباريون يذكرون أن العدنانيين هم من سلالة اسماعيل أي أنهم اسماعيليون ، ويذكرون أنهم جاؤوا من الشمال فسكنوا الحجاز ، وأن جدهم رفع قواعد البيت الحرام . ونرى أن اليهود زحفوا من فلسطين نحو الحجاز ، وأن أقواماً من سكان العراق زحفوا نحو الجنوب فسكنوها في العروض . وأن قبائل عراقية كالقبائل العبرانية هاجرت من العراق إلى بلاد الشام ثم إلى مصر ثم عادت إلى بلاد الشام ، فمثل هذه الهجرات تلفت النظر وتجعل الباحث يبحث عن أمثلة أخرى من هذا القبيل ، لعله يجد غيرها أيضاً . وهي تجعله يشعر أن الهجرات لم تكن دائماً في اتجاه واحد ، بل كانت حركة دائمة تتجه مختلف الاتجاهات ، لعوامل سياسية واقتصادية وحربية ساحتها من شمال بادية الشام إلى سواحل البحر العربي في الجنوب ، ومن سواحل البحر

الأحمر إلى سواحل الخليج العربي ، فهي ليست هجرات بالمعنى الذي نفهمه من الهجرات في لغة علماء الساميات ، ذات أزمان معينة لها أمد محدود كألف عام أو أكثر من ذلك أو أقل ، وبمقياس ضخم كبير ، بل هي حركة دائمة لقبائل أو لجماعات تتنقل من مكان إلى مكان طلباً للمعاش أو لأحوال سياسية وحربية ، فهي هجرة بهذا المعنى إذن ليس غير . فهذه الأرضون التي تشمل كل جزيرة العرب والعراق إلى حدود الجبال وكل البادية الواسعة حتى سواحل البحر الأبيض فطور سيناء إلى نهر النيل ، هي مواطن الساميين ،ومسارحهم التي كانوا وما زالوا يدرجون عليها . وقد درجت عليها أقوام أخرى أيضاً ليست بأقوام سامية ، قبل الميلاد وبعده ، بل حتى في زمن الإسلام ، ولكنها غلبت على أمرها، وصهرت في بوتقة الساميين ، أمثال الفرس واليونان والرومان والصليبيين . فقد بقي من هؤلاء خلق اندمجوا بهم وتخلقوا بأخلاقهم وتكلموا بألسنتهم بمرّ السنين ، حتى صاروا مثلهم ومنهم ، وبذلك امتزجت دماء الساميين بدماء غريبة عنهم فدمهم من هنا ليس بدم صاف نقي ، وليس في الأجناس البشرية جنس يستطيع أن يفخر فخراً مطلقاً بكونه الجنس النقي الخالص الذي لم يختلط قط بأي دم غريب .

أضف إلى ما تقدم أن العلماء القائلين بتبدل الجو وبتغيره ، هم على خلاف بينهم في الأزمنة وفي الأسباب . فنهم من بالغ ، ومنهم من أفرط حتى قال إن الجو في جزيرة العرب كان يختلف في أيام اليونان والرومان عنه في الأيام الحديثة[١] . ومنهم من قال إن الجو لم يتبدل تبدلاً محسوساً مؤثراً فيها منذ حوالي ألفي عام ، ومنهم من عزا أسباب انخفاض مستوى الماء الأرضي في جزيرة العرب إلى عوامل ليست لها صلة بتبدل الجو، وعزا خراب القرى والمدن واندثار السدود الى عوامل أخرى لا علاقة لها بتبدل الجو[٢] . ومع كل ذلك ، فإن هذه الدراسات لم تنضج بعد ، ودراسة أرض جزيرة العرب وجوّها لم تتم بصورة علمية مختبرية بعد ، وأكثر ما ذكرته هو ملاحظات مؤرخين أو باحثين علميين، على نحو من الحدس والتخمين ، ولا يمكن بناء نظريات معقولة مقبولة على مثل هذه الآراء .

---

١ Discoveries, P., 82, E. Huntington, Palestine and its Transformation, Cambridge, 1911.

٢ Discoveries, P., 84.

إن هذه الملاحظات تدفعني إلى التريث في البت في وطن الجنس السامي، حتى تتهيأ دراسات أخرى علمية دقيقة عنه ، لأن الأخذ بالقياس، وبمجرد الملاحظات والمشاهدات ، لا يمكن أن يكون دليلاً علمياً مقنعاً في تثبيت الوطن الأول الذي ظهر فيه هذا النسل الذي نسميه بالنسل السامي . وان كنت أجد أن جزيرة العرب قد أمدّت الأقسام العليا منها ، وهي بلاد العراق والباديـة وبلاد الشام بفيض من الناس ، بصورة دائمة مستمرة ، وذلك لأسباب عديدة عسكريـة واقتصادية ، وأنها لم تأخذ من تلك الأرضين مثل هذا الفيض .

إن نظرية موطن الجنس السامي ، هي في نظري جزء من مسألة كـبرى معقدة ، هي مسألة موطن الجنس البشري بكامله ، هل هو موطن واحـد في الأصل ، أو جملة مواطن ، وإذا كان ذلك الموطن موطناً واحداً ، فأين كان؟ وكيف ظهرت هذه الأجناس البشرية بألوانها المتعددة وبسحنها المختلفة ؟ إن هذه بحوث ، على البشرية أن تضني نفسها في البحث عنها ! وكل بحوثنا الآن حدس وتخمين ، حتى يترقى العلم البشري إلى درجات فدرجات .

اللغة السامية الأم :

تدفعنا هذه النظريات التي قالها العلماء عن السامية وعن القرابة اللغوية التي نراها في مجموعة اللغات السامية ، وعن اشتراكها في كثير من أسس النحو والصرف، إلى التفكير في أن جميع هذه اللغات تفرعت من لغة واحدة هي أم اللغات السامية، (Ursemitisch) كما يعبر عنها بالألمانية . ويدفعنا ذلك إلى البحث عن أقـدم النصوص المدونة في اللغات السامية ، وعن الخصائص الأساسية المشتركة بين كل هذه اللغات ، للوقوف على اللغة السامية الأولى التي انقرضت ، وبقيت آثارها في هذه الجذور التي غذت اللغات السامية القديمة منها والحديثة بالخصائص السامية، وعن أقرب الفروع التي انفصلت من الأم .

لقد بحث المستشرقون في هذا الموضوع ولا يزالون يبحثون فيـه ، فمنهم من وجد أن العبرانية أقدم اللغات السامية ، وأقربها عهداً بالأم ، ومنهـم من رأى أن العربية على حداثة عهدها جديرة بالدراسة والعناية ، لأنها تحمل جرثومـة السامية ، ومنهم من رأى القـدم للآشورية أو البابلية ، وهناك من رأى غير

ذلك[1] . وبالجملة ، لم يدّع أحد من العلماء أنه توصل إلى تشخيص لغة (سام) ، وتمكن من معرفة اللغة التي تحدث بها مع أبيه (نوح) أو مع أبنائه الذين نسلوا هذه السلالات السامية .

وكان من جملة العوامل التي ألهبت نار الحماسة في نفوس علماء التوراة والساميات للبحث عن اللغة السامية الأولى أو أقرب لغة سامية إليها ، القصص الوارد في التوراة عن سام وعن لغات البشر ، وبابل ولغاتها والطوفان وما شاكل ذلك ، ثم وجد المستشرقون المعاصرون أن البحث في هذا الموضوع ضرب من العبث ، لأن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هي محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لا تحصى ، مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة ، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة . واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود ، دون أن تترك أثراً . ومن الجائز أن يهتدي العلماء في المستقبل إلى لغات أخرى ، كانت عقداً بين اللغات السامية القديمة التي لا نعرف من أمرها شيئاً وبين اللغات السامية المعروفة . والأفضل أن ننصرف الآن إلى دراسة اللغات السامية والموازنة بينها ، لنستخلص المشتركات والأصول . ومتى تتكون هذه الثروة اللغوية ، يسهل البحث في اللغة السامية الأم ، كما تستحسن الموازنة بين هذه اللغات واللغات التي ظهرت في القارة الإفريقية ، مثل المصرية القديمة والبربرية والهررية وبقية اللهجات الحبشية ، لتكوين فكرة علمية عن الصلات التي تربط بين الحاميين والساميين وكانت من جملة العوامل التي دفعت بعض العلماء إلى القول بأن أصل الجنسين واحد ، كان يقيم في قارة إفريقية .

وبالجملة إن هناك جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللغات السامية الأخرى ، هي أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وأكثرها ملاءمة للبحث ، لأنها لغة لم تختلط كثيراً باللغات الأخرى ، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام ، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية ، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال ، ثم انها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الإعراب على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللغات ،

---

1 Carl Brocklemann, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen Berlin, 1908
Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, 1898.

ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيراً في الوقوف على خصائص السامية القديمة ومزاياها[1] .

وقد شغل علماء العرب أنفسهم بموضوع اللغة السامية أو لغة سام بن نوح بتعبير أصح ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، ذهبوا إلى البحث في لغة آدم أبي البشر وفي لغة أهل الجنة . وقد سبق لليهود والنصارى أن بحثوا في هذا الموضوع أيضاً ، في موضوع لغة آدم أي لغة البشر الأولى ، التي تفرعت منها كل لغات البشر حتى اليوم . وقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن العربية هي اللسان الأول، هي لسان آدم ، إلا أنها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها ، فظهرت منها السريانية ، ثم سائر اللغات . قالوا : « كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً ، إلى أن بعد العهد وطال ، فحرّف وصار سريانياً . وهو يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف »[2] . وقد أدركوا ما أدركه غيرهم من وجود قرابة وصلة بين العربية وبين السريانية ، فقال المسعودي : « وإنما تختلف لغات هذه الشعوب (أي شعوب جزيرة العرب) من السريانيين اختلافاً يسيراً »[3] .

وقد أخذ علماء العربية نظريتهم هذه من أهل الكتاب . ولما كانت السريانية هي لغة الثقافة والمثقفين، ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب في جزيرة العرب في ذلك العهد ، فلا يستغرب إذن قول من قال إن السريانية هي أصل اللغات وانها لسان آدم ولسان سام بن نوح .

العقلية السامية :

وتحدث المشتغلون بالتأريخ الثقافي و (علم الأجناس) عن عقلية خاصة بالشعوب السامية ، دعوها (العقلية السامية) ، كما تحدثوا عن عقلية (آرية) وعن عقليات أخرى ، وحاولوا وضع حدود لأوصاف العقلية السامية ، ورسم صورة خاصة بها تميزها عن صور العقليات البشرية الأخرى .

---

١ Nicholson, A Literary History of the Arabs, P., XVI.

٢ المزهر (٢٠/١) .

٣ التنبيه (ص ٦٨) .

وقد شاعت هذه النظرية نظرية خصائص العقلية السامية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ووجدت لها رواجاً كبيراً ، لظهور بعض الآراء والمذاهب التي مجدت العقلية الأوروبية ، وسبّحت بحمدها ، وقالت بتفوق العقل الغربي الخلاق المبدع على العقل الشرقي الساذج البسيط ! ورمز العقل الشرقي هو العقل السامي ،فهو لذلك عقل ساذج بسيط . ومن أشهر مروّجي هذه النظرية الفيلسوف الفرنسي (رينان) (Ernest Renan) (١٨٢٣ — ١٨٩٢م) ، و (كراف كوبينو) (Graf Arthur Gobineau) (١٨١٦ — ١٨٨٢ م) ، وهو من القائلين بتمايز العنصريات البشرية وبتفوق بعضها على بعض وبسيادة العقلية الآرية على سائر العقليات[١] ، و (هوستن ستيوارت شامبرلن Housten Stewart Chamberlain) (١٨٥٥ — ١٩٢٧ م) صاحب كتاب (أسس القرن التاسع عشر)[٢] .

ومن هذه الموارد أخذت (النازية) نظريتها في تفوق العرق الآري على سائر أعراق البشر ، وتفوق الجنس (الجرماني) خاصة من العرق الآري على سائر الأجناس والأعراق البشرية . ومن هنا وضع (هتلر) (قوانين نورنبرك) لحماية الدم الآري من الاختلاط بالدماء الأخرى ، ولصيانته ولبقائه دماً نقياً صافياً . ولترسيخ هذه النظرية في نفوس الناس ولترويجها بين الألمان والأوروبيين ، شجع البحث في موضوع (الأجناس البشرية) ، وحشد عدداً كبيراً من الأساتذة لإجراء بحوث ودراسات فيه ، وأوحى إلى أساتذة التأريخ كتابة التأريخ بطريقة تظهر دائماً أن الحضارة البشرية هي حاصل عمل الشعوب الآرية وحدها ، وناتج من نتاجها ، بتلك الشعوب بدأت وبها تستمر . وقرر أن ما يقال عن حضارات الشرق الأدنى القديمة هو لغو وهراء ، ولهذا أوجب كتابة تأريخ هذه الشعوب على نحو جديد ، وعلى أساس هذه الفلسفة .

وبحوث مثل هذه تقوم في ظروف كهذه أو في ظروف مشابهة لها ، لا يمكن أن تكون الا دراسات فجة مغرضة ، مبعثها عاطفة وقصد مبيت ، لذلك لا يمكن الاطمئنان اليها ولا الاعتماد عليها . والبحث في خصائص جنس من

١ Essai sur L'Inégalité des Races Humaines.

٢ Housten Stewart Chamberlain, Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts, in 2 Vols.

الأجناس وفي مميزاته وسماته الظاهرة والباطنة ، يقتضي تقصي ملامح الجنس في الحاضر والماضي ، وذلك بدراسة ملامح الباقين وبفحص أجسامهم وخصائصهم بطرق علمية حديثة ، وبدراسة عظام الماضين وما تخلف من أجسامهم في باطن الأرض بالأساليب العلمية الحديثة أيضاً ، ليكون بحثنا شاملاً للماضي والحاضر ، ومثل هذه البحوث لم تجرِ حتى الآن ، لا على العرب ، ولا على غير العرب من هذه الشعوب التي نسميها (الشعوب السامية) .

ثم إن البحوث العلمية على قلتها وضآلتها تدل على وجود فروق بارزة بين الساميين في الملامح الجسمية ، في مثل شكل الجمجمة والأنف . ووجود مثل هذه الفروق ، لا يمكن أن يكون علاقة على وجود (جنس) بالمعنى العلمي المفهوم من (الجنس) يضم شمل الساميين . وعلى وجود عقلية خاصة بالساميين ذات حدود ورسوم تختلف عن عقليات الأجناس البشرية الأخرى .

والصفة العامة التي يراها علماء الساميات في الساميين ، أن الساميين يحبون الحركة والتنقل والهجرة من مكان الى مكان على طريقة الأعراب ، وأنهم ميالون الى الغزو والأخذ بالثأر ، وعاطفيون تتحكم العواطف في حياتهم ، ويغضبون لتافه الأمور ويرضون بسرعة ، يحبون فيسرفون في حبّهم ، ويظهرون الوجد فيه ، ويبغضون فيبالغون في بغضهم حتى ليصلوا الى حد القساوة والعنف لأسباب تافهة لا تستوجب كراهية ولا بغضاً ، فرديون في طباعهم ، تتغلب عليهم الفردية ، لذلك تراهم في الأصل قبائل ، اذا اتحدت وكوّنت حكومة قوية كبيرة ، لا تلبث أن تتعرض للانفصال والتفتت ، الحياة عندهم على وتيرة واحدة . موسيقاهم وشعورهم العام بما في ذلك الشعر والغناء وكل وسائل التعبير عنه ، حزن ونغم معدود مكرر[1] . قضاؤهم قضاء قبلي ، يقوم على القصاص بالمثل ، على أساس السن بالسن والعين بالعين والقتل بالقتل ، ونظام الحكم عندهم نظام ، أسسه الفكرة القبلية ، وديانتهم متشابهة ، تتجلى عندهم الغريزة الدينية واتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة[2] . وتتغلب عليهم السطحية في التفكير ، فلا يميلون الى التعمق في درس الأشياء للوصول الى كنهها وجوهرها ، كما فعل اليونان .

---

١ Hastings, Extra Volume, P., 85.

٢ Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, Including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 90.

وليست لهم قابلية في فهم الأمور المعقدة، ولهذا صارت أحكامهم عامة شاملة ساذجة لا تعقيد فيها ، لأن تفكيرهم تفكير ساذج غير معقد . وتفكيرهم هذا هو الذي جعلهم يبشرون بالتوحيد على حين كانت الأديان الآرية — على حد قولهم — أدياناً معقدة تعتقد بوجود أكثر من إله[١] !!

ويرى هؤلاء العلماء أن البدوي هو خير ممثل للعقلية السامية، فقد عاش الساميون بدواً أمداً طويلاً ، ومرّوا في حياتهم بحياة البداوة ولهذا صارت عقليتهم عقلية بداوة ، تجمع بينهم صفات مشتركة نتجت من اشتراكهم في تلك الحياة[٢] .

وقد وضع المتعصبون للنظرية العنصرية كتباً في موضوعات متعددة ، تعالج الجسم والروح عند الساميين والآريين ، وعنوا عناية خاصة بدراسة الحياة الروحية ومظاهرها عند الجنسين ، فبحثوا في الناحية القانونية والتشريعات المختلفة عند الساميين والآريين ، وقارنوا بين التشريع عند الجماعتين[٣] . كذلك عالجوا مختلف النواحي الأخرى من الحياة ، حتى إن بعضهم ألّف كتاباً في موضوع حرمة أكل لحم الخنزير عند الساميين . مع انه من اللحوم الشهية عند الآريين ، وعدّ ذلك من مميزات الجنس[٤] .

وهناك جماعة من العلماء ، ردّت على هذه النظرية التي تحدد العقليات ، وترسم لها حدوداً وتضع لها معالم ، رأت أن ما يذهب إليه أصحابها من وجود عقليات صافية خالصة للأجناس البشرية المذكورة ، يستوجب وجود أجناس بشرية صافية خالصة ذات دماء نقية ، لم تمتزج بها دماء غريبة ، ويقتضي ذلك افتراضنا اعتزال الأجناس بعضها عن بعض عزلة تامة، وهو افتراض محال ، لأن البشرية لم تعرف العزلة منذ القدم ، ولم تبن حولها أسواراً مرتفعة لتحول بينها وبين الاختلاط ببقية الأجناس ، والشواهد التأريخية والبحوث العلمية المختبرية تشير الى العكس، تشير الى الاختلاط والامتزاج ، كما ذكرنا آنفاً ، فما يقال عن اختلاف العقليات ، هو حديث أوحته العواطف والنزوات . أما ما نشاهده من اختلاف في أساليب

---

١ Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 126, A. Guillaume, Prophecy and Divination among the Hebrews and other Semites, London, 1938.

٢ Hastings, P., 85, ff. (Extra Volume).

٣ Gerd. Ruehle, Rasse und Sozialismus im Recht, Berlin, 1935.

٤ R. Walter Darré, Das Schwein als Kriterium fuer Nordische Voelker und Semiten, Muenchen, 1933.

الفكر وفي فهم الأمور،فليس مرجعه ومردّه الى الدم ، بل الى البيئات الطبيعة والاجتماعية والثقافية ، فهي التي أثرّت وكونت هذه الفروق . وعلى الباحث دراسة كل ما يؤثر على الانسان من محيط ومن مؤثرات طبيعية مثل الضغوط الجوية والحرارة والبرودة والرطوبة ، ومن تركيب الأجسام وأشكالها . وألوان الشعر والبشرة والعين وبنية الجسم بصورة عامة ، ومن أنواع الأغذية التي يتناولها والمحيطات الثقافية التي يعيش فيها الى غير ذلك من مؤثرات يدرسها علماء الأجناس اليوم ، وذلك لاصدار أحكام معقولة عن أجناس البشر .

الفصل السابع

طبيعة العقلية العربية

لكل أمة عقلية خاصة بها ، تظهر في تعامل أفرادها بعضهم مع بعض وفي تعامل تلك الأمة مع الأمم الأخرى ، كما أن لكل أمة نفسية تميزها عن نفسيات الأمم الأخرى ، وشخصية تمثل تلك الأمة ،وملامح تكون غالبة على أكثر أفرادها، تجعلها سمة لتلك الأمة تميزها عن سمات الأمم الأخرى[1] .

والعرب مثل غيرهم من الناس لهم ملامح امتازوا بها عن غيرهم ، وعقلية خاصة بهم . ولهم شمائل عرفوا واشتهروا بها بين أمم العالم ، ونحن هنا نحاول التعرف على عقلية العربي وعلى ملامحه قبل الإسلام ، أي قبل اندماجه واختلاطه اختلاطاً شديداً بالأمم الأخرى ، وهو ما وقع وحدث في الإسلام .

وقد بحث بعض العلماء والكتاب المحدثين في العقلية العربية ، فتكلموا عليها بصورة عامة ، بدوية وحضرية ، جاهلية وإسلامية . فجاء تعميمهم هذا مغلوطاً وجاءت أحكامهم في الغالب خاطئة . وقد كان عليهم التمييز بين العرب الجاهليين والعرب الإسلاميين ، وبين الأعراب والعرب ، والتفريق بين سكان البواطن أي بواطن البوادي وسكان الأرياف وسكان أسياف بلاد الحضارة . ثم كان عليهم البحث عن العوامل والأسباب التي جبلت العرب من النوعين : أهل الوبر وأهل الحضر ، تلك الجبلة ، من عوامل اقليمية وعوامل طبيعية أثرت فيهم ، فطبعتهم بطابع خاص ، ميزهم عن غيرهم من الناس .

١ فجر الاسلام ، احمد امين ١٩٢٨ (١/٣٥)

بل إن الحديث عن العقلية العربية ، حديث قديم ، ففي التوراة شيء عن صفاتهم وأوصافهم، كوّن من علاقات الإسرائيليين بهم ، ومن تعاملهم واختلاطهم بالعرب النازلين في فلسطين وطور سيناء أو في البوادي المتصلة بفلسطين . ومن أوصافهم فيها : أنهم متنابذون يغزون بعضهم بعضاً ، مقاتلون يقاتلون غيرهم كما يقاتلون بعضهم بعضاً (يده على الكل ، ويد الكل عليه)[1] . يغيرون على القوافل فيسلبونها ويأخذون أصحابها أسرى ، يبيعونهم في أسواق النخاسة ، أو يسترقونهم فيتخذونهم خدماً ورقيقاً يقومون بما يؤمرون به من أعمال ، الى غير ذلك من نعوت وصفات .

والعرب في التوراة ، هم الأعراب ، أي سكان البوادي ، لذلك فإنّ النعوت الواردة فيها عنهم ، هي نعوت لعرب البادية، أي للأعراب ، ولم تكن صلاتهم حسنة بالعبرانيين .

وفي كتب اليونان والرومان والأناجيل،نعوت أيضاً نعت بها العرب وأوصاف وصفوا بها ، ولكننا اذا درسناها وقرأنا المواضع التي وردت فيها ، نرى أنها مثل التوراة ، قصدت بها الأعراب، وقد كانوا يغيرون على حدود امبراطوريتي الرومان واليونان ، ويسلبون القوافل ، ويأخذون الإتاوات من التجار والمسافرين وأصحاب القوافل للسماح لهم بالمرور .

وقد وصف (ديودورس الصقلي) العرب بأنهم يعشقون الحرية ، فيلتحفون السماء . وقد اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء،فلا يستطيع العدو المغامر الذي يريد الايقاع بهم أن يجد له فيهما مأوى . انهم لا يزرعون حبّاً ، ولا يغرسون شجراً ، ولا يشربون خمراً ، ولا يبنون بيوتاً . ومن يخالف العرف يقتل . وهم يعتقدون بالارادة الحرة ، وبالحرية[2] . وهو يشارك في ذلك رأي (هيرودوتس) الذي أشاد بحب العرب للحرية ، وحفاظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستذلالهم[3] . فالحرية عند العرب هي من أهم الصفات التي يتصف بها العرب في نظر الكتبة اليونان واللاتين .

وفي كتب الأدب وصف مناظرة ، قيل انها وقعت بين (النعمان بن المنذر)

---

١ التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ١٢

٢ Diodorus, 19, 94, 95, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 31.

٣ Herodotus, Vol., I, P., 254.

ملك الحيرة وبين (كسرى) ملك الفرس في شأن العرب : صفاتهم وأخلاقهم وعقولهم ، ثم وصف مناظرة أخرى جرت بين (كسرى) هذا وبين وفد أرسله (النعمان) لمناظرته ومحاجته فيما جرى الحديث عليه سابقاً بين الملكين[1] . وفي هذه الكتب أيضاً رأى (الشعوبيين) في العرب ، وحججهم في تصغير شأن العرب وازدرائهم لهم ، ورد الكتاب عليهم[2] . وهي حجج لا تزال تقرن بالعرب في بعض الكتب .

ومجمل ما نسب الى (كسرى) من مآخذ زُعم انه أخذها على العرب ، هو أنه نظر فوجد أن لكل أمة من الأمم ميزة وصفة ، فوجد للروم حظاً في اجتماع الألفة وعظم السلطان وكثرة المدائن ووثيق البنيان ، وأن لهم ديناً يبين حلالهم وحرامهم ويرد سفيههم ويقيم جاهلهم ، ورأى للهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ودقيق حسابها وكثرة عددها . ووجد للصين كثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها ، وأن للترك والخزر ، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم يرَ للعرب ديناً ولا حزماً ولا قوة . همتهم ضعيفة بدليل سكنهم في بوادي قفراء ، ورضائهم بالعيش البسيط ، والقوت الشحيح ، يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . أفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . « وإن قرّى أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة . وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم »[3] . ثم إنهم مع قلتهم وفاقتهم وبؤس حالهم ، يفتخرون بأنفسهم ، ويتطاولون على غيرهم وينزلون أنفسهم فوق مراتب الناس[4] . « حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين » ، وأبوا الإنقياد لرجل واحد منهم يسوسهم ويجمعهم .

١ بلوغ الارب (١٤٧/١ وما بعدها) .
٢ البيان والتبيين (١٥/٣ فما بعدها) ، العقد الفريد (٨٦/٢) ، فجر الاسلام (١ / ٣٥) بلوغ الارب (١٥٨/١ فما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١٤٧/١ وما بعدها)
٤ بلوغ الارب (١٤٨/١) .

اذا عاهدوا فغير وافين[1] . سلاحهم كلامهم ، به يتفننون ، وبكلامهم يتلاعبون . ليس لهم ميل الى صنعة أو عمل ولا فن ، لا صبر لهم ، اذا حاربوا ووجدوا قوة أمامهم ، حاولوا جهدهم التغلب عليها ، أمـا اذا وجدوها قـوة منظمة هربوا مشتتين متبعثرين شراذم ، يخضعون لحكم الغريب ويهابونه ويأخذون برأيه فيهم ، ما دام قوياً ، ويقبلون بمن ينصبه عليهم ، ولا يقبلون بحكم واحد منهم، اذا أراد أن يفرض سلطانه عليهم[2] .

وقد ذُكر أن أحد ملوك الهند كتب كتاباً الى « عمر بن عبد العزيز » ، جاء فيه « لم تزل الأمم كلهـا من الأعاجم في كلّ شق من الأرض لها ملوك تجمعها ومدائن تضمّها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ، ورمّانة القبّان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاصطرلاب الذي يعدل به النجوم ويدرك بـه الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف وغير ذلك من الآثار المتقنـة ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلاّ ما كان من الشعر . وقـد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذي تفتخر به العرب على العجم فإنما هي كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون في حلَق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل،فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشي ، وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع[3] » . الى آخر ذلك من كلام .

وقد تعرض « السيد محمود شكري الألوسي » في كتابه « بلوغ الأرب » ، لهذا الموضوع،فجاء بما اقتبسته منه ، ثم جاء برأي « ابن قتيبة » على الشعوبية ، في كتابه : « كتـاب تفضيل العرب » ، ثم أنهاه ببيان رأيه في هـذه الآراء وفي رد « ابن قتيبة » عليها[4] .

---

١ بلوغ الارب (١/١٥٦) .
٢ راجع اصل المناظرة وحجج الشعوبيين في تفضيل الاعاجم عـلى العـرب ، ورد العرب عليهم ، بلوغ الارب (١/١٤٧ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/١٦٥ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (١/١٤٧ فما بعدها) .

ولابن خلــدون رأي معروف في العرب ، خلاصته « أن العربي متوحش نهّاب سلاّب اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب انقيــاده لرئيس ، لا يجيد صناعة ولا يحسن علماً ولا عنده استعداد للاجادة فيها ، سليم الطباع ، مستعد للخير شجاع »[١] . وتجد آراءه هذه مدوّنة في مقدمته الشهيرة لكتابه العام في التأريخ .

وقد رمى بعض المستشرقين العربَ بالمادية وبصفات أخرى ، فقال «أوليري» : « إن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً ، ماديّ ، ينظر الى الأشياء نظرة مادية وضيعة ، ولا يقوّمهــا إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يتملك الطمع مشاعره ، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، لا يميل كثيراً الى دين ، ولا يكترث بشيء إلاّ بقدر ما ينتجه من فائدة عملية ، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتّى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتّى ليتوقع منه سيد قبيلتــه وقائده في الحروب الحسدّ والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليــه ولو كان صديقاً حميماً له من قبل ، مَنْ أحسن اليه كان موضع نقمته ، لأن الاحسان يثير فيــه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة وأن عليه واجباً لمن أحسن . يقول لامانس « إن العربي نموذج الديمقراطية » ، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيهــا الى حد بعيد ، وإن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحدد من حريته ولو كانت في مصلحته هي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء في تأريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذي قاد الأوروبيين في أيامنا هذه الى كثير من الأخطاء ، وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغنــاء عنها ، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم في سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ حب العربي لحريتــه مبلغاً كبيراً ، حتّى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص ، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة الى حريته . ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص ، مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم يؤدي واجبات الضيافة والمحالفة في الحروب كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها بحسب ما رسمه العرف ... وعلى العموم، فالذي

---

١ هذا تلخيص المرحوم احمد امين لراى ابن خلدون ، تجده في كتابه : فجر الاسلام (٤١/١) .

يظهر لي أن هذه الصفات والخصائص أقرب أن تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعي عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين ، حتى اذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلاً ، تعدلت هذه العقلية »[1] . ويوافق المستشرق (براون أوليري) في رمي العرب بالمادية المفرطة[2] . ورماهم (أوليري) أيضاً بضعف الخيال وجمود العواطف[3] .

أما (دوزي) فقد رأى أن بين العرب اختلافاً في العقلية وفي النفسية، وأن القحطانيين يختلفون في النفسية عن نفسية العدنانيين[4] .

وقد تعرض (أحمد أمين) في الجزء الأول من (فجر الإسلام) للعقلية العربية ، وأورد رأي الشعوبيين في العرب ، ثم رأي (ابن خلدون) فيهم ، وتكلم على وصف المستشرق (أوليري) لتلك العقلية ، ثم ناقش تلك الآراء ، وأبان رأيه فيها وذلك في الفصل الثالث من هذا الجزء ، وتحدث في الفصل الرابع عن (الحياة العقلية للعرب في الجاهلية) . وخصص الفصل الخامس بـ (مظاهر الحياة العقلية) ، وتتجلى عنده في : اللغة والشعر والمثل والقصص.

أوجز (أحمد أمين) في بداية الفصل الثالث آراء المذكورين في العرب، وبعد أن انتهى من عرضها وتلخيصها ناقشها بقوله : « لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا النوع من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي ، انما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتأريخه ككل أمة أخرى ، فالقول الذي يمثله الرأي الخاص لا يستحق مناقشة ولا جدلاً ، كذلك يخطىء الشعوبية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان ، وقانوناً كقانون الرومان ، أو أن يمهروا في الصناعات كصناعة الديباج ، أو في المخترعات كالاصطرلاب ، فإنه إن كان يقارن هذه الأمم بالعرب في جاهليتها كانت مقارنة خطأ ، لأن المقارنة انما تصح بين أمم في طور واحد من الحضارة ، لا بين أمة

---

١ اقتباسا من فجر الاسلام (٣٩/١ فما بعدها) .

٢ فجر الاسلام (٤١/١) .

٣ فجر الاسلام (٤٣/١) .

٤ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Vol., I, S., 73, Muh. Stud., I, S. 89, Nallino. Raccolta, Vol., 3, P., 73.

متبدية وأخرى متحضرة ، ومثل هذه المقارنة كمقارنة بين عقل في طفولته وعقل في كهولته ، وكل أمة من هذه الأمم كالفرس والروم مرت بدور بداوة لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات . أما إن كان يقارن العرب بعد حضارتها ، فقد كان لها قانون وكان لها علم وان كان قليلاً .. »[1] ثم استمر يناقش تلك الآراء الى أن قال : فلنقتصر الآن على وصف العربي الجاهلي[2] ، فوصفه بهذا الوصف :

« العربي عصبي المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء التافه ، ثم لا يقف في هياجه عند حد ، وهو أشد هياجاً اذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته . واذا اهتاج ، أسرع الى السيف ، واحتكم اليه ، حتى أفنتهم الحروب ، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة .

« والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء ، وفي الحق أن العربي ذكي ، يظهر ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والاشارة البعيدة ، كما يظهر في حضور بديهته ، فما هو الا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة ، فيبهرك تفننه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وان شئت فقل ان لسانه أمهر من عقله .

« خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف (المثل الأعلى) ، لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم بشر اليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد يستقي منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب .

« أما ناحيتهم الخلقية ، فميل الى حرية قل أن يحدها حد ، ولكن الذي فهموه من الحرية هي الحرية الشخصية لا الإجتماعية ، فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم ، تأريخهم في الجاهلية – حتى وفي الإسلام – سلسلة حروب داخلية ، وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبي ، لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية ، ولأنه ، رضي الله عنه ، منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب .

---

١ فجر الاسلام (١/٤٠ فما بعدها) .
٢ فجر الاسلام (١/٤٣) .

« والعربي يحب المساواة ، ولكنها مساواة في حدود القبيلة، وهو مع حبه للمساواة كبير الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز ، لم يؤمن بعظمة الفرس والروم مع ما له ولهم من جدب وخصب وفقر وغنى وبداوة وحضارة ، حتى اذا فتح بلادهم نظر اليهم نظرة السيد الى المسود »[1] .

ثم خلص الى أن العرب في جاهليتهم كان أكثرهم بدواً ، وان طور البداوة طور اجتماعي طبيعي تمر به الأمم في اثناء سيرها الى الحضارة ، وان لهذا الطور مظاهر عقلية طبيعية ، تتجلى في ضعف التعليل ، وعنى بذلك عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، « يمرض أحدهم ويألم من مرضه، فيصفون له علاجاً، فيفهم نوعاً ما من الارتباط بين الدواء والداء، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف، يفهم ان عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شيء في نظره ، لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد ان دم الرئيس يشفي من الكَلَب ، أو ان سبب المرض روح شرير حل فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أو انه اذا خيف على الرجل المجنون نجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى الى كثير من أمثال ذلك، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله ، لأن منشأ الإستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه ، وما يزيل هذه العوارض، وهذه درجة لا يصل اليها العقل في طوره الأول »[2] .

ثم أورد أمثلة للاستدلال بها على ضعف التعليل ، مثل قولهم بخراب سدّ مأرب بسبب جرذان حُمْر ، ومثل قصة قتل النعمان لسِنمّار بسبب آجُرّة وضعها سِنِمار في أساس قصر الخورنق ، لو زالت سقط القصر .

ثم تحدث عن مظهر آخر من مظاهر العقلية العربية ، لاحظه بعض المستشرقين ووافقهم هو عليه ، هو : ان طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك . فالعربي لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني ، بل كان يطوف فيما حوله ؛ فإذا رأى منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاس صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو

١ فجر الاسلام (٤٤/١ فما بعدها) .
٢ فجر الاسلام (٤٦/١) .

المثل . « فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربي . وفوق هذا هو اذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه ، فهو اذا وقف أمام شجرة ، لا ينظر اليها ككل ، انما يستوقف نظره شيء خاص فيها، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، واذا كان أمام بستان، لا يحيطه بنظره، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، انما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة الى زهرة ، فيرتشف من كل رشفة » . الى ان قال : « هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص وما ترى فيه من جمال » .

وقد خلص من بحثه ، الى أن هذا النوع من النظر الذي نجده عند العربي، هو طور طبيعي تمر به الأمم جميعاً في أثناء سيرها الى الكمال ، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب ، وهو ليس إلا وراثة لنتائج هذه البيئات ، « ولو كانت هنالك أية أمة أخرى في مثل بيآتهم ، لكان لها مثل عقليتهم ، وأكبر دليل على ذلك ما يقرره الباحثون من الشبه القوي في الأخلاق والعقليات بين الأمم التي تعيش في بيئات متشابهة أو متقاربة ، واذ كان العرب سكان صحارى ، كان لهم شبه كبير بسكان الصحارى في البقاع الأخرى من حيث العقل والخلق »[1] .

أما العوامل التي عملت في تكوين العقلية العربية وفي تكييفها بالشكل الذي ذكره ، فهي عاملان قويان . هما : البيئة الطبيعية ، وعنى بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وأنهار وصحراء وغير ذلك ، والبيئة الاجتماعية ، وأراد بها ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك . وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية .

وحصر أحمد أمين مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية في الأمور التالية : اللغة والشعر والأمثال والقصص . وتكلم على كل مظهر من هذه المظاهر وجاء بأمثلة استدل بها ما ذهب اليه .

والحدود التي وضعها أحمد أمين للعقلية العربية الجاهلية ، هي حدود عامة ،

---

١ فجر الاسلام (٤٦ وما بعدها) .

جعلها تنطبق على عقلية أهل الوبر وعقلية أهل المدر ، لم يفرق فيها بين عقلية من عقلية الجماعتين . وقد كونها ورسمها من دراساته لما ورد في المؤلفات الإسلامية من أمور لها صلة بالحياة العقلية ومن مطالعاته لما أورده (أوليري) (وبراون) وأمثالها عن العقلية العربية ، ومن آرائه وملاحظاته لمشكلات العالم العربي ولوضع العرب في الزمن الحاضر . والحدود المذكورة هي صورة متقاربة مع الصورة التي يرسمها العلماء المشتغلون بالساميّة عادة عن العقلية الساميّة، وهي مثلها أيضاً مستمدة من آراء وملاحظات وأوصاف عامة شاملة، ولم تستند الى بحوث علمية ودراسات مختبرية ، لذا فانني لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلته بالنسبة الى تحديد العقلية الساميّة ، من وجوب التريث والاستمرار في البحث ومن ضرورة تجنب التعميم والاستعجال في اعطاء الأحكام .

وتقوم نظرية أحمد أمين في العقلية العربية على أساس أنها حاصل شيئين وخلاصة عاملين ، أثرا مجتمعين في العرب وكوّنا فيها هذه العقلية التي حددها ورسم معالمها في النعوت المذكورة . والعاملان في رأيه هما: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية. وعنى بالبيئة الطبيعية ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وأنهار وصحراء ونحو ذلك ، وبالبيئة الاجتماعية ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك . وهما معاً مجتمعين غير منفصلين ، أثّرا في تلك العقلية . ولهذا رفض أن تكون تلك العقلية حاصل البيئة الطبيعية وحدها ، أو حاصل البيئة الاجتماعية وحدها . وخطأ من أنكر أثر البيئة الطبيعية في تكوين العقلية ومن هنا انتقد (هيكل) (Hegel) ، لأنه أنكر ما للبيئة الطبيعية من أثر في تكوين العقلي اليوناني ، وحجة (هيكل) أنه لو كان للبيئة الطبيعية أثر في تكوين العقليات ، لبان ذلك في عقلية الأتراك الذين احتلوا أرض اليونان وعاشوا في بلادهم ، ولكنهم لم يكتسبوا مع ذلك عقلهم ولم تكن لهم قابلياتهم ولا ثقافتهم. وردّ (أحمد أمين) عليه هو أن « ذلك يكون صحيحاً لو كانت البيئة الطبيعية هي المؤثر الوحيد ، إذن لكان مثل العقل اليوناني يوجد حيث يوجد اقليمه ، وينعدم حيث ينعدم ، أما والعقل اليوناني نتيجة عاملين ، فوجود جزء العلة لا يستلزم وجود المعلول »[١] .

---

١ فجر الاسلام (٥٢ فما بعدها) .

وأثر البيئة الطبيعية في العرب ، أنها جعلت بلادهم بقعة صحراوية تصهرها الشمس،ويقل فيها الماء ، ويجف الهواء ، وهي أمور لم تسمح للنبات أن يكثر ، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا كَلَأً مبعثراً هنا وهناك ، وأنواعاً من الأشجار والنبات مفرقة استطاعت أن تتحمل الصيف القائظ ، والجوّ الجاف ، فهزلت حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، وهي كذلك أضعفت فيها حركة المرور ، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل ، فصعب على المدنيات المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتفيض عليها من ثقافتها ، اللهم إلا ما تسرب منها في مجار ضيقة معوجة عن طرق مختلفة » .

وأثر آخر كان لهذه البيئة الطبيعية في العرب،هو أنها أثرت في النفوس فجعلتها تشعر أنها وحدها تجاه طبيعة قاسية ، تقابلها وجهاً لوجه، لا حول لها ولا قوة ، لا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة ، تطلع الشمس فلا ظلّ ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهر لبّه ، وتتألق النجوم في السماء فتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أتت عليه . أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة الى رحمن رحيم ، والى بارىء مصور والى حفيظ مغيث – الى الله – . ولعل هذا هو السر في أن الديانات الثلاث التي يدين بها أكثر العالم ، وهي اليهودية والنصرانية والإسلام نبعت من صحراء سيناء وفلسطين وصحراء العرب[1] .

والبيئة الطبيعية أيضاً ، هي التي أثرت – على رأيه – في طبع العربي ، فجعلته كئيباً صارماً يغلب عليه الوجد ، موسيقاه ذات نغمة واحدة متكررة عابسة حزينة ، ولغته غنية بالألفاظ ، إذا كانت تلك الألفاظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية ، وشعره ذو حدود معينة مرسومة ، وقوانينه تقاليد القبيلة وعرف الناس ، وهي التي جعلته كريماً على فقره ، يبذل نفسه في سبيل الدفاع عن حمى قبيلته . كل هذه وأمثالها من صفات ذكرها وشرحها هي في رأيه من خلق هذه البيئة الطبيعية التي جعلت لجزيرة العرب وضعاً خاصاً ومن أهلها جماعة امتازت عن بقية الناس بالمميزات المذكورة .

---

١ فجر الاسلام (٥٤ فما بعدها) .

وقد استمر (أحمد أمين) ، في شرح أثر البيئة الطبيعية في عقلية العرب وفي مظاهر تلك العقلية التي حصرها كما ذكرت في اللغة والشعر والأمثال والقصص ، حتى انتهى من الفصول التي خصصها في تلك العقلية . أما أثر البيئة الإجتماعية التي هي في نظره شريكة للبيئة الطبيعية في عملها وفعلها في العقلية الجاهلية وفي كل عقلية من العقليات ، فلم يتحدث عنه ولم يشر الى فعله ، ولم يتكلم على أنواع تلك البيئة ومقوماتها التي ذكرها في أثناء تعريفه لها ، وهي : « ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك » ، ثم خلص من بحثه عن العقلية العربية وعن مظاهرها وكأنه نسي ما نسبه الى العامل الثاني من فعل ، بل الذي رأيته وفهمته من خلال ما كتبه انه أرجع ما يجب ارجاعه الى عامل البيئة الاجتماعية — على حد قوله — الى فعل عامل البيئة الطبيعية وأثرها في عقلية العرب الجاهليين . وهكذا صارت البيئة الطبيعية هي العامل الأول الفعال في تكوين تلك العقلية ، وحرمنا بذلك من الوقوف على أمثلته لتأثير عامل البيئة الإجتماعية في تكوين عقلية الجاهليين .

وأعتقد ان (أحمد أمين) لو كان قد وقف على ما كتب في الألمانية أو الفرنسية أو الانكليزية عن تأريخ اليمن القديم المستمد من المسند ، ولو كان قد وقف على ترجمات كتابات المسند أو الكتابات الثمودية والصفوية واللحيانية ، لما كان قد أهمل الإشارة الى أصحاب تلك الكتابات ، ولعدّل حتماً في حدود تعريفه للعقلية العربية ، ولأفرز صفحة أو أكثر الى أثر طبيعة أرض اليمن وحضرموت في عقلية أهل اليمن وفي تكوين حضارتهم وثقافتهم ، فإن فيما ذكره في فصوله عن العقلية العربية الجاهلية ما يجب رفعه وحذفه بالنسبة الى أهل اليمن وأعالي الحجاز .

ونجد في كتاب (جزيرة العرب في القرن العشرين) لحافظ وهبة فصلاً بعنوان (السكان) ، وردت فيه ملاحظات كيسة عن عقلية الحضر وعقلية البدو في المملكة العربية السعودية وفي بعض المناطق المجاورة لها في الزمان الحاضر. وهذه الملاحظات وان كانت تتعلق بعرب هذا اليوم ، الا أنها مع ذلك ذات فائدة ومنفعة لفهم العقلية الجاهلية، فالزمان وان تباعد بين عرب الجاهلية وعرب القرن العشرين،الا ان الخصائص العقلية لأكثر أهل البادية المنعزلين عن عالمهم الخارجي لا تزال هي هي ، لم تتغير في كثير من الأمور ، بل خذ من نسميهم (الحضر)

أو العرب المستقرين في جزيرة العرب ، فإن البعيدين منهم عن الأماكن التي لها اتصال بالعالم الخارجي وبالأجانب لا يزالون يحتفظون بكثير من خصائص عقلية حضر اليمن أو الحجاز عند ظهور الإسلام . ومن هنا تفيدنا ملاحظات (حافظ وهبة) هذه وملاحظات غيره من أذكياء العرب والسياح والخبراء الأجانب ، فائدة كبيرة في التعرف على أسس تفكير العرب قبل الإسلام .

وفي حديث (حافظ وهبة) عن طباع الحضر أشار الى اختلاف طباعهم باختلاف أماكنهم ، فقال : « والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التي يعيشون فيها ، وظروف الحياة التي تحيط بهم فأهل حايل أقرب مظهراً الى البداوة. وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهراً عن البداوة من البلاد الأخرى العربية، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض ، لأنهم كثيرو الإختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى كالشام وفلسطين ومصر ، ولذا فترى موظفي ديوان الملك المكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حايل .

وأهل الرياض أرقى بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم ، ولم يعرفوا شيئاً عن أحوال العالم الخارجي[1] .

وأشار إلى تنافس الحضر والى تفاخرهم وتفضيل أنفسهم بعضهم على بعض في الشمائل والعادات وحتى في اللهجات .

ومن طباع الحضري ، كما يقول « حافظ وهبة » « الخلق التجاري » ، وهم يتباينون في ذلك أيضاً بتباين أماكنهم ، « فأهل القصيم والزلفى وشقرا ، أنشط من أهل نجد في التجارة . فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية ، وتجارهم كثيراً ما يسافرون الى الهند ومصر في سبيل التجارة ، والتجار النجديون المعروفون في الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد » . « أما أهل الكويت ، فنشاطهم في التجارة البحرية ... ويغلب على حضر الجزيرة – وعلى الأخص أهل خليج فارس – التعاون التجاري سواء بين الأهالي بعضهم مع بعض أو بين الأمراء والأهالي »[2] .

أما طباع البداوة،وهي طباع تختلف عن طباع أهل المدن فقد وصفها بقوله:

---

١ حافظ وهبة (ص٧) .

٢ المصدر نفسه (ص ٨ فما بعدها)

« أما البدو ، فهم القبائل الرحل المتنقلون من جهة الى أخرى طلباً للمرعى أو للماء ، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة ، وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ، ولكنه وهو متمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية أخرى . هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدوي ينظر الى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى .

« إن البدوي في الصحراء لا يهمه إلا المطر والمرعى ، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة ، وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً .

« اما إذا نما السكان وضاقت بهم الأرض او لم تجد اراضيهم بالمرعى ، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال ، أو الهجرة إن كان هناك سبيل اليها ، وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحرمت من مراعيها وأراضيها ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة .

« لقد كان البدو قبل ثلاثين سنة في غارات وحروب مستمرة ، كل قبيلة تنتهز الفرص للإغارة على جارتها لنهب مالها ، وتعدد الإمارات وتشاحن الأمراء وتخاصمهم مما يشجع البدوي .

« ولهذا كان للقبيلة قيمتها في بلاد العرب ، فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين ، واذا كانت العصبية ضعيفة أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان ويأمنا شر غيرهما من القبائل القوية .

« وقد جرى العرف ان القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها ، والمياه التي اعتادت أن تردها ملكاً لها ، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها الا بإذنها ورضاها ، وكثيراً ما تأنس احدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق انذار على قبيلة أخرى ، وتنتزع منها مراعيها ومياهها .

« إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل ، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا ، كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في أيدي الناس .

« ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ، ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضر ، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه ـ وكثيراً ما كان البدو

شراً على الأمير المصاحبين له ، فإن ذلك الأمير اذا ما بدت الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين »[1] .

« والبدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ، ويخضع غيره بها . على أن لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها ، فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب ، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بأرضها ويسمون هذا رفيقاً .

والبدوي يحتقر الحضري مهما أكرمه ، كما ان الحضري يحقر البدوي ، فإذا وصف البدوي الحضري ، فانه في الغالب يقول حُضيري تصغيراً لشأنه .

ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء ، وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه أو لعادته بكل صراحة ، فإذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم ؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام ؟ وعن المياه التي مررت بها؟ وعن أخبار الأمطار والمراعي ؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة ؟ وعمن في البلد من القبائل ؟ وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

ومع أن البدو قد اعتادوا النهب والسلب ، فإنهم كثيراً ما يعفون عن أهل العلم خوفاً من غضب الله عليهم ،وبعض البدو لا يحلف كاذباً مهما كانت النتيجة. والبدوي ينكر إذا وجد مجالاً للإنكار ، ويفلت بمهارة من الاجابة عما يسأل ، ولكن إذا وجه له اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ، ولا يحلف كاذباً » .

« وليس أعدل من البدوي في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحرياً للعدل ، ويقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص أو السروال ، كل هذا إرضاءً لضمائرهم ودفعاً للظلم ، إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها ، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاةً للعدل ، أما الإبل والغنم فإنهم يقسمونها اذا أمكن القسمة أو يقومونها بثمن اذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة » .

« والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضري ، لا يفهمون

---

١ وهبة (ص ١١ فما بعدها) .

البيوت وهندستها ، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية ، حتى ان البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين في الثورة العربية كان عملهم بعد الإستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً اما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة ، وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً ، فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جَرْوَلْ ، اكتشفت الحكومة ان النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج، وانها استعملت للطبخ وتحضير القهوة ، فأخرجهم جلالة الملك توآ من الثكنة ، وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه جهلة البدو عن النوافذ والأبواب .

« وللبدو مهارة فائقة في اقتفاء الأثر ، وكثيراً ما كانت هذه المعرفة سبباً في اكتشاف كثير من الجرائم ولا تكاد تخلو قبيلة من طائفة منهم .

« والقبائل العريقة المشهورة من حضر وبادية تحافظ على أنسابها تمام المحافظة وتحرص عليها كل الحرص ، فلا تصاهر الا من يساويها في النسب ، والقبائل المشكوك في نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة .

« أما حكام العرب، فيترفعون عن سائر الناس حضرهم وبدوهم، لا يزوجون بناتهم الا لقرباهم . أما هم فيتزوجون من يشاءون ، وطبقات الحكام يترفع بعضها على بعض : الأشراف يرون أنفسهم أرفع الخلق بنسبهم ، وآل سعود يرون أنفسهم أرفع من الأشراف ، وأرفع من سواهم من حكام العرب الآخرين »[1] .

« وهنا ترى الروح الصحيحة البدوية التي لا تملك شروى نقير ترفض الزواج من غني ، لأنه ابن صانع ، أو انه من سلالة العبيد ، أو لأن نسبه القبلي يحيط به شيء من الشك ، فسلطان المال لا قيمة له عند العرب . ومع وجود هذه الروح الأرستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى » .

ومن عادة القسم الأكبر من سكان الجزيرة ، ولا سيما البدو ، مخاطبة رؤسائهم بأسمائهم أو بألقابهم ، لأنهم لا يعرفون الألقاب وألفاظ التعظيم والتفخيم، فيقولون يا فلان ويا أبا فلان ويا طويل العمر .

---

١ وهبة (ص ١٣ فما بعدها) .

ولا يزال العربي الصريح ينظر الى الحِرَف والمِهَن نظـــرة ازدراء ، والى المشتغل بها نظرة احتقار وعدم تقدير .

والبدوي ، لا ينسى المعروف ، ولكنه لا ينسى الإساءة كذلك ، فإذا أسيء اليه ، ولم يتمكن من رد الإساءة في الحال ، كظم حقده في نفسه ، وتربص بالمسيء حتى يجد فرصته فينتقم منه . فذاكرة البدوي ، ذاكرة قويـــة حافظة لا تنسى الأشياء .

فنرى من هذه الملاحظات أن كثيراً من الطباع التي تطبع بها عرب الجاهلية ما زالت باقية ، وبينها طباع نهى عنها الإسلام وحرّمها ، لأنها من خـــلال الجاهلية ، ومع ذلك احتفظ بها البدوي وحافظ عليها حتى اليوم ، وسبب ذلك أن من الصعب عليه نبذ ما كان عليه آباؤه وأجداده من عادات وتقاليد . فالتقاليد والعرف وما تعارفت عليه القبيلة هي عنده قانون البداوة . وقانون البداوة دستور لا يمكن تخطيه ولا مخالفته ، ومن هنا يخطىء من يظن أن البداوة حرية لا حد لها ، وفوضى لا يردعها رادع ، وان الأعراب فرديون لا يخضعون لنظام ولا لقانون على نحو ما يتراءى ذلك للحضري أو للغريب . انهم في الواقع خاضعون لعرفهم القبلي خضوعاً صارماً شديداً ، وكل من يخرج على ذلك العرف يطـرد من أهله ويتبرأ قومه منه ، ويضطر أن يعيش (طريداً) أو (صعلوكاً) مع بقية (صعاليك) .

العرب والعربي رجل جاد صارم ، لا يميل الى هزل ولا دعابـة ، فليس من طبع الرجل أن يكون صاحب هزل ودعابة ، لأنهما من مظاهر الخفة والحمق ، ولا يليق بالرجل أن يكون خفيفاً . ولهذا حذر في كلامه وتشدد في مجلسه ، وقلّ في مجتمعه الإسفاف . واذا كان مجلس عام ، أو مجلس سيد قبيلة ، روعي فيه الإحتشام ، والابتعاد عن قول السخف ، والإستهزاء بالآخرين ، وإلقاء النكات والمضحكات ، حرمة لآداب المجالس ومكانة الرجال .

واذا وجدوا في رجل دعابة أو ميلاً الى ضحك أو اضحاك ، عابوا ذلك الرجل وانتقصوا من شأنه كائناً من كان ، وعبارة مثل « لا عيب فيه غير أن فيه دعابة » أو « لا عيب فيه الا أن فيه دعابة » ، هي من العبـــارات التي تعبّر عن الانتقاص والهمز واللمز .

والبدوي محافظ متمسك بحياته وبما قدر له ، معتز بما كتب له وان كانت

حياته خشونة وصعوبة ومشقة . ومن هذه الروح المسيطرة عليه ، بقي هو هو ، لا يريد تجديداً وتطويراً ، الا اذا أكره على التجديد والتغيير والتبديـل ، فهنا فقط يخضع لقانون (القوة) ، وهو لا يسلم له الا بعد مقاومة ،والا بعد شعوره بضعفه وبعدم قابليته على المقاومة ، فيتقبل الأمر الواقع مستسلماً، ومع ذلك يبقى متعلقاً بما فيه ، يحاول جهد امكانه التمسك به ، ولو بإلباسه ثوباً جديداً . وفي القرآن الكريم آيات بينات فيها تقريع وتعنيف للأعراب ، ووصف لحياتهم النفسية. فيها أن الأعرابي محافظ لا يقبل تجديداً ، ولا يرضى بأي تغيير كان لا يتفق وسنّة الآباء والأجداد ، ومنطقه في ذلك : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »[١]، « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون »[٢] .

ولهذا لا نجد البدو يؤمنون بسنة التقدم والنشوء والارتقـاء . فالبدوي يعيش أبداً كما عاش آباؤه وأجداده ، مساكنه بيوت الشعر ، وهي لا تحميه ولا تقيه من أثر أشعة الشمس المحرقة ولا من العواصف والأمطار ، ومع ذلك لا يستبدلها بيتاً آخر ، ولا يفكر في تحسين وضعه وتغيير حاله : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . وليس من الممكن أن تقوم في هذه البادية ثقافة غير هذه الثقافة الصحراوية الساذجة ، ما دام البدوي مستسلماً مسلماً نفسه للطبيعة ولحكم القدر ، وهو استسلام اضطر الى الخضوع له والإيمان بحكمه ، بحكم عمل الطبيعة القاسية فيه منذ آلاف السنين .

وكيف يغير حاله ، وليس في البادية مـا يساعده على تغيير الحال ، ليس فيها ماء كاف ولا شجر نام ولا أمطار وخضرة ، فهو يعيش على كرم الطبيعة ورحمتها . أما اذا تكاثر عدده ، وزاد عدد خيام القبيلة ، اضطرت الى التنقل الى مكان آخر ، أحسن وأنسب من المكان القديم . وهكذا صار دائماً في تنقل من مكان الى مكان .

وتحمس الأعراب وأشباه الحضر في دفاعهم عن العرف ، ليس عن بـلادة وغباء وشعور بضعف في الكفايات ، كلا فللبدوي ذكاء وقّاد وفطنة وكفايـة وموهبة ، وهو إذ يقاوم التغير والتبدل والتجدد ، لا يقاومـه عن غباء وبلادة

---

١ المائدة ، الاية ١٠٤ .
٢ الزخرف ، الاية ٢٣ .

وعن شعور بضعف تجاه تقبل الحياة الجديدة ، وإنما يقاومه لأنه يشعر عن غريزة فيه أن حياته أفضل وأن البداوة حرية وانطلاق وعدم تقيد ، وأن التطور إن لم يأتِ منه ، فهو شر وبلاء ، وأن كيانه مرتبط بتقاليده ، وأن وجوده من وجود آبائه وأجداده ، فهو إن انحرف عن عرفه عرض نفسه وأهله وقبيلته وكل وجود قومه للهلاك ، فهو لذلك يرفض كل تجديد وتغيير وإن بدا لنا أو له أنه لمصلحته ، لغريزة طبيعية فيه وفي كل انسان ، هي غريزة المحافظة على البقاء، فخوفه من تعرض تقاليده وكيانه للخطر ، هو الذي جعله محافظاً شديد التمسك بالعرف والعادة . أما إذا شعر هو أو أشعر من طريق غير مباشر بفائدة التطور والتغيير وبما سيأتيه من نفع وربح ، ولا سيما إذا لم يكن في التغيير ما يعارض عرفه ولا يناقض تقاليده ، فإنه يتقبله ويأخذه ، ويظهر مقدرة ومهارة فيه ، حتى في الأمور الفنية الحديثة الغريبة عنه . ويروي خبراء شركات البترول كثيراً من القصص عن مقدار براعة البدو وحذقهم في إدارة الآلات والأعمال التي وكلت اليهم . وهناك شهادات أخرى مماثلة وردت من جهات فنية أخرى . ولو تهيأ لهؤلاء البدو مرشدون وخبراء عقلاء كيسون لهم علم بنفسياتهم ، ولو عرفت الحكومات العربية عقلياتهم ومشكلاتهم ، لكان في الامكان تحويلهم الى ثروة نافعة لا تقدر بثمن ، ولتجنبت بذلك المشكلات التي تواجهها منهم[1] .

حتى الطب ، هو في البادية طب بدوي متوارث لا يتغير ولا يتبدل ، يقوم على المداواة بتجارب (العارفة) في الطب . ولا يطمئن الاعرابي الى طب أهل الحضر ، مهما فتكت به الأمراض وأنزلت به من آلام ، ذلك لأن طب أهل الحضر هو طب غريب عليه بعيد عنه ، فهو لذلك لا يطمئن اليه . اللهم إلا اذا أقبل عليه رؤساؤه وساداته ، أو أقنع بمنطقه وبطريقة إدراكه هو للأمور أن في الدواء الذي يداوى به شفاءً لمرضه ، وعندئذ يقبل عليه ثم يزيد اقباله عليه، حتى يكون مألوفاً عنده ، بل يقوم في مثل هذه الحالات باختزان ما يمكن اختزانه من الدواء للمستقبل من غير أن يفكر في كيفية خزنه ، أو في المدة المقدرة لعمر ذلك الدواء ، وتلفه بعد انقضائها .

ووصف الأعراب في القرآن الكريم بالغلظة والجفاوة وبعدم الادراك وبالنفاق

---

١ جان جاك بيرلي : جزيرة العرب (ص ١٠٢) .

وبالتظاهر في اللسان بما يخالف ما في الجنان : « قالت الأعراب : آمنا ، قل، لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخُل الإيمانُ في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله ، لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم »[1] .

« وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مرَدُوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردّون الى عذاب عظيم »[2].

فالأعرابي « البدوي » إنسان لا يعتمد عليه، مسلم ومع ذلك يتربص بالمسلمين الدوائر ، فإذا خذل المسلمون في معركة ، أو شعر بضعف موقفهم خذلهم وانقلب عليهم ، أو اشترط شروطاً ثقيلة عليهم ، بحيث يجد فيها مخرجاً له ليخلص نفسه من الوضع الحرج الذي أصاب المسلمين . فلا يكلف نفسه ، ولا يخشى من مصير سيء ينتظره إن غلب المسلمون . « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم »[3] ، والأعرابي لم يُسلِمْ في الغالب عن عقيدة وعن فهم ، إنما أسلم لأن رئيسه قد أسلم فسيّد القبيلة إذا آمن وأسلم ، أسلمت قبيلته معه . وقد دخلت قبائل برمتها في النصرانية لدخول سيّدها فيها . وقد وردت في سورة الحجرات هذه الآيات في وصف بعض الأعراب : « قالت الأعراب آمنا، قل: لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً . إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون ، الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل أتعلّمون الله بدينكم ؛ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض . والله بكل شي عليم . يمنّون عليك أن أسلموا . قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم ، أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين»[4] .

وقد استثنى القرآن الكريم بعض الأعراب مما وصمهم به من الكفر والنفاق والتربص وانتهاز الفرص فنزل الوحي فيهم : « ومن الأعراب من يؤمن بالله

---

١ سورة الحجرات الاية ١٤ .
٢ سورة التوبة ، الاية ١٠١ .
٣ سورة التوبة الاية ٩٧ وما بعدها .
٤ سورة الحجرات الاية ١٤ وما بعدها

واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم »[1] .

وقد وصف الأعراب بالغلظة والخشونة ، فقيل : أعرابي قُحّ ، وأعرابي جلف ، وما شاكل ذلك . وفي الحديث (من بدا جفا) ، أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب[2] .

وذكر أن الرسول وصفه (سراقة) وهو من أعراب (بني مدلج) بقوله : « وان كان أعرابياً بوّالاً على عقبيه »[3] . وأنه نعت (عُيَيْنَة بن حصن) قائد (غطفان) يوم الأحزاب بـ (الأحمق المطاع)[4] . « وكان دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، بغير اذن، فلما قال له أين الاذن ؟ قال ما استأذنت على مضربي قبلك . وقال: ما هذه الحميراء معك يا محمد ؟ فقال : هي عائشة بنت أبي بكر . فقال : طلقها وانزل لك عن أم البنين . في أمور كثيرة تذكر من جفائه . أسلم ثم ارتد وآمن بطليحة حين تنبأ وأخذ أسيراً فأتي به أبو بكر ، رضي الله عنه ، أسيراً فمنّ عليه ولم يزل مظهراً للإسلام على جفوته وعنجهيته ولوثة أعرابيته حتى مات » .

وذُكر ان « الأعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهشّ ، والعربي اذا قيل له يا أعرابي غضب »[5] . وذلك لإزدراء العربُ الأعرابَ، ولارتفاعهم عنهم في العقل وفي الثقافة والمنزلة الإجتماعية .

وهذه الصفات التي لا تلائم الحضارة ولا توائم سنن التقدم في هذه الحياة ، هي التي حملت الإسلام على اعتبار (التبدي) أي (التعرب) بعد الهجرة ردّة على بعض الأقوال وعلى النهي عن الرجوع الى البادية والعيش بها عيشة أعرابية. فلما خرج (أبو ذر) الى الربذة قال له عثمان بن عفان : « تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً » . فكان « يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الأعرابية »[6] . ولما وصل

---

١ سورة التوبة الاية ٩٩
٢ الفاخر (ص ٦٥) ، بلوغ الارب (٣/٤٢٥) .
٣ الروض الانف (٢/٦) .
٤ الروض الانف (٢/١٨٨) .
٥ تاج العروس (٣/٣٣٤) ، « الكويت » .
٦ الطبري (٤/٢٨٤) .

(عبدالله بن مسعود) الربذة ، ورأى ابنة أبي ذر وهي حائرة وكان والدها قد فارق الحياة لتوّه ، سألها : « ما دعاه الى الإعراب »[1] . وفي الحديث : « ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة » . وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه من غير عذر يعدّونه كالمرتد[2] . وذلك بسبب جفاء الأعراب والجهالة ، ومن هنا كرهت شهادة البدوي على الحضري فورد في الحديث « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » . لأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ولِمَا في البدوي من جفاء وجهالة بأحكام الشرع[3] .

وقد عُرِفَ العربي الحضري بـ (القراري) ، أي الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار ، وقيل ان كل صانع عند العرب قراري[4] . وهذه النظرية هي نظرة أهل البداوة بالنسبة لأهل الحاضرة ، فالصانع عندهم انسان مزدرى لاشتغاله بصنعة من هذه الصنائع التي يأنف منها العربي الحرّ .

والحق ان النعوت المذكورة لا تلازم جميع الأعراب ولا تنطبق عليهم كلهم. فهم يختلفون مثل أهل الحضر ، باختلاف مواضعهم ، من قرب عن حضارة ومن بعد عنها ، ومن وجود ماء وخصب ، أو جدب أو فقر، وما شاكل ذلك. كما ان بعض النعوت المذكورة تنطبق على بعض أهل المدر أيضاً . ولهذا نجد القرآن الكريم يطلقها عليهم، ولكن لا على سبيل التعميم بل على سبيل التخصيص، فهي نتائج ظروف خاصة وأحوال معينة ، لا بد وأن تؤثر في أصحابها فتكسبهم تلك الصفات والمؤثرات . كما ان العرب ، أي الحضر ، لم يكونوا كلهم في التحضير على درجة واحدة سواء ، فبينهم اختلاف وتباين ، وبهذا التباين تباينت خصائصهم النفسية بعضهم عن بعض .

والبدوي الذي تمكن « ابن سعود » أو غيره من الحكام من ضبطه بعض الضبط ومن الحد من غاراته على الحضر أو على البدو الآخرين ، هو البدوي نفسه الذي عاش قبل الميلاد وفي عهد إسماعيل ، والذي قالت في حقه التوراة :

---

١ الطبرى (٣٠٨/٤) .
٢ تاج العروس (٣٥٤/٣) ، « الكويت » .
٣ اللسان (٦٧/١٤) .
٤ اللسان (٩٠/٥) .

« يده على الكل ويد الكل عليه »[1] . وهو سيبقى كذلك ما دام بدوياً ترتبط حياته بالصحراء ، ينتهز الفرص كلما وجد وهناً في الحكومات وقوة في نفسه على أخذ ما يجده عند الآخرين . وهو إن هدأ وسكن ، فلأنه يجد نفسه ضعيفاً تجاه سلطة الحكومة ، ليس في استطاعته مقاومتها لضعف سلاحه ، فإذا شعر بقوته لم يخش عندئذ أحداً .

وقد تأصلت الفردية في أنفس الأعراب وفي أنفس أشباه الحضر وفي أكثر الحضر ، حتى صارت أنانية مفرطة ، عاقت المجتمع العربي في الجاهلية وفي الإسلام عن التقدم وعن التوثق والاتحاد . وفي الأدبين الجاهلي والإسلامي أمثلة عديدة سارت بين الناس تمثل هذه النظرية الضيقة الى الحياة . ورد في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: « قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الصلاة، وقمنا معه ، فقال أعرابي في الصلاة : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا »[2] . فقدّم نفسه على الرسول ، مع أنه مسلم يحمله دينه وأدبه : أدب الإسلام على تقديم الرسول عليه ، ثم إنه لم يخصص أحداً بالرحمة غير الرسول وغير نفسه مدفوعاً بهذه الأنانية القبيحة . وكثيراً ما تسمع الناس يتمثلون بقول أبي فراس : « اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر » .

يتمثل به الحضر تعبيراً عن فلسفة ووجهة نظر قديمة الى هذه الحياة ، مبعثها الوضع السيء العام القلق الذي عمّ المجتمع وما زال يعمه ، والذي جعل الفرد يشعر بعدم وجود من يحميه ويساعده ، فتحول غضبه الى عقيدة مؤذية مضرة ويا للأسف .

والبداوة عالم خاص قائم بذاته ، تكونت طباعها وخصائصها من الظروف التي نشأت فيها ، لها مقاييسها وموازينها الخاصة ، وهي مقاييس وموازين تختلف عن مقاييس الحضر وموازينهم،الحضر البعيدين عن البادية وعن أحوال البداوة ولذلك اختلفت افهام الجماعتين وتباعدت عقلياتهما ، ومن هنا يظهر خطأ من يحكم على البداوة بمقاييس أهل الحضارة ويفسر ما يقع من الأعراب تفسيره لما يقع من أهل المدر من أعمال ، ومن هنا أيضاً نجد أن البداوة لا تستطيع فهم منطق الحضر

---

١ التكوين ، الاصحاح ١٦ ، الاية ١٢

٢ سنن ابي داوود (٨٩/١) .

ولا تستسيغ أسلوب حياتهم ، ولا تأمنهم ، لأن عالمها يختلف عن عالم الحضر ، ولأنها تجد من قيود الريف والمدن ما يصعب عليها تحمله ، ولأنها ترى في الحضر جماعة حيل وشرّ ومكر فلا تأمنهم ، ولا تستطيع أن تطمئن اليهم ، مهما أظهر الحضر نحوها من عطف واحسان. وقد كابدت البداوة كثيراً كما كابدت الحضارة كثيراً أيضاً من جراء سوء الفهم هذا الناجم من اختلاف العقليتين .

ويظهر البدوي في عين الحضري الحديث ، وكأنه انسان مزدوج الشخصية جامع للنقيضين ، له وجهان . فهو محارب يحارب معك وفي صفوفك ، أما اذا شعر أن الهزيمة ستحل بك ، فإنه أول من ينقلب عليك ، فيمعن عندئذ في سلبك ما معك ونهبه ، لا فرق عنده أن يكون الذي يحارب معه وفي صفوفه عربياً أو أعجمياً ، شريفاً من أسرة عريقة أم قائداً محترفاً . وهو كريم جواد يقدم لضيفه آخر شيء عنده ليأكله ويحبيه بكل وسائل الاكرام ، ولكنه لا يمتنع من سلب غريب يجده في طريقه ، ومن أخذ ما عنده . وهو رجل متدين لا يحلف كاذباً مهما رأى النتيجة ،ولكن تدينه تدين بدويّ سطحي الى غير ذلك من متناقضات .

أما الأعرابي ، فيسخر من اتهام الحضري له بهذه التهم ، ويعجب من سذاجة منطقه وحكمه ، فمنطقه في نظره منطق رجل ساذج مريض معلول ، وحكمه حكم إنسان ضعيف ذليل . وإلا فكيف يسمح عقل إنسان سليم لإنسان مثلاً أن يترك أموال صاحبه أو أصحابه تقع في أيدي غيره أو أعدائه، يأخذونها لينعموا بها وليفتخروا بحصولهم عليها ، ثم لا يمد هو يده اليها يأخذ منها ما يحتاج اليه ويريد ؟ ألا يدل هذا العمل على السخف والضعف وفساد الرأي ؟ إن المحارب في نظر الأعرابي أولى من غيرة بأموال زميله المحارب ، وهو أحق بها من أي إنسان آخر للحصول عليها إن داهمه خطر ، وشعر أن تلك الأموال ستقع في أيدي عدوه ، فهو زميله وصديقه ، وهو فوق ذلك به حاجة اليها ، فمن حقه الطبيعي إذن أن يأخذها ولو عنوة ويولي بها ليحرم عدوه الحصول عليها والحصول على أي مكسب كان من هذه الحرب . ثم إنه إن لم يباشر أخذ ما يجده أمامه في الوقت الملائم ، فإن غيره سيأخذه حتماً ، وقد يكون غيره هو خصمه وعدوه : ولما كانت النفس مقدمة على غيرها ، كان من العقل والحكمة أن يأخذ حقه بنفسه ، وإلا ضاع حقه عليه وأفلت منه . ومن هنا اختلف منطقه عن منطق الحضري وباين حكمه على الأمور حكم الحضري .

وحكم الأعراب على الأمور،حكم صادر عن عقلية خاصة بهم ، كونتها عندهم الأحوال التي يعيشون فيها والمحيط الذي يتحكم فيهم من جفاف وحرارة وضوء ساطع واختلاف في درجات الضغط الجوي وانحباس الأمطار وفقر محالف لأغلب الأرضين ومن فقر وتقتير وبساطة في المأكل وأمثال ذلك من مؤثرات كونت عندهم عقلية خاصة وثقافة خاصة ، فهمت الأمور بمنطقها لا بمنطق الآخرين . ومن هنا اختلفت أيضاً عقليات الأعراب وتباينت بعض التباين باختلاف الأحوال التي تحيط بالأمكنة التي ينزلون بها وبقرب تلك الأمكنة وبعدها من الحضر ومن الحضارة . وبمقدار تأثرها بالمؤثرات الخارجية وبالثقافات الواردة من الخارج ، كالذي نلحظه من وجود شيء من التباين بين عقليات القبائل المتنصرة وأعمالها وعقليات القبائل الوثنية وأعمالها ، بالرغم من أن نصرانية تلك القبائل لم تكن نصرانية عميقة صميمة ، ولم تكن صافية خالصة،وذلك لأن هذه القبائل المتنصرة، على سطحية تنصرها ، كانت مواطنها ملاصقة للحضر وللحضارة وذات اتصال بالحضر وبالأعاجم وبالثقافات الأجنبية وبالبيئات الثقافية الغريبة ، وعاش بينها رجال دين غرفوا من ثقافات غريبة وبشّروا بين العرب المتنصرة بآراء غريبة عنهم ، كما تأثر رؤساء تلك القبائل بمؤثرات الحضر الذين احتكوا بهم وبرجال السياسة والدين الذين كانوا على اتصال بهم ، وقد تزوج بعضهم من نساء نصرانيات ، أثرن في بيئة ذلك الزوج .

وقد نص الأقدمون على اختلاف طباع القبائل،فعرف بعضها باللين والسهولة، وعرف بعضها بالشدة والخشونة والغلظة ، وعرف آخرون بالشجاعة والصبر على المكاره والميل الى الغزو والحروب ، وعرف غيرهم بالميل الى الاستقرار وبقابليتها على الاستيطان واستغلال الأرض والإلتئام مع الجيران . ولوجود هذه الصفات في القبائل كان الحكام في الجاهلية وفي الإسلام اذا أرادوا أمراً وكلوه الى القبيلة التي تتناسب صفتها التي اشتهرت بها مع العمل الذي يراد القيام به ، وصار اعتماد الحكام على هذه الفراسة في الغالب . وما زال هذا التباين في كنايات القبائل معروفاً حتى اليوم ، فقد اشتهرت بعض قبائل نجد بأمور لم تشتهر بها القبائل الأخرى ، أو انها فاقت بها سائر قبائل نجد، فاشتهرت بعضها بالقتال،واشتهرت بعضها بالصرامة والصبر ، وما الى ذلك ، ويراعي حكام جزيرة العرب اليوم هذه الصفات في ضبط الأمور في حكوماتهم وفي حفظ التوازن في حكم البوادي

والأعراب وفي السياسة العامة للحكومة . وفي تقارير السياسيين الوطنيين والأجانب وفي كتب السياح والبعثات الأجنبية على اختلاف أنواعها كلام عـلى تباين طباع الأعراب في جزيرة العرب وطباع الحضر في هذا اليوم .

فنرى اذن أن للأعراب رأياً في الحضر يشبه رأي الحضر فيهم ، أي رأي فيه ازدراء وحط من شأن الحضر ومن مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، ومن قيمهم في هذه الحياة ، وهو رأي تكوّن عندهم من بيئاتهم التي يعيشون فيها ومن ثقافتهم الخاصة بهم ، التي تفسر الأمور بمقاييسها وأوزانها ، وهي مقاييس وأوزان بعيدة عن مقاييس الحضر والحضارة . ولا أقصد بالحضر هنا حضر الأعاجم وحدهم ، بل ادخل فيهم حتى الحضر العرب ، كالذي يتبين من استهجان الأعراب لشأن أهل المدر في كـل مكان من أمكنة جزيرة العـرب ومن ازدرائهم لأحلامهم ومثلهم في الحياة . فالبداوة ثقافة خاصة بهذا العـالم ، عالم البداوة ، والحضارة ثقافة أخرى خاصة بالحضر ، وبين الثقافتين بَوْنٌ وخلاف .

وليست هذه الطباع وراثة تنتقل من الآباء الى الأبناء أبداً في الدم، فلا تتبدل ولا تتغير ، بل هي حاصل أحوال وبيئة ، اذا تغيرت الأحوال والبيئة وقع تغير يتوقف على مقدار فعل البيئة الجديدة في الإنسان وعـلى الزمان الذي يقضيه فيه وعلى مقدار استعداد ذلك الإنسان لتقبل البيئة الجديدة والثقافة الجديدة التي دخل فيها ، ولهذا يكون فعل التغير في الجيل القديم أقل من الجيل الجديد. وعلى ذلك يخطىء من يصف العرب بصفات يلصقها بهم يجعلها عامة فيهم أبديـة . ودليلنا على ذلك أن من عاش من الأعاجم بين العرب وفي بيئة عربية ، تطبع بطباع العرب وصار مثلهم ، حتى اذا انقرض الجيل القديم ونبع الجيـل الجديد تحول الى جيل عربي في كل شيء ، لا نستثني من ذلك حتى الإنتساب الى العرب الى عدنان وقحطان وحتى التعصب والعصبيات . والإسلام الذي صهـر الأعاجم في بوتقته ، وجعلهم جنوداً يحاربون في الصفوف الأمامية لنشره وإعلاء كلمته ، لم يلبث أن أنساهم أصولهم ولغاتهم ، فحوّلهم بذلك الى عرب من حيث لم يشعر العرب ولا الأعاجم أنفسهم به .

والأعرابي واقعي ، تتأثر أحكامه بالواقع الذي يراه ، وبمقياس المادية التي تتمثل عنده ، يؤمن بالروح ، ولكنه يحوّلها الى ما يشبه المادة الملموسة . يؤمن بإلـه أو بآلهة ، كما كان في الجاهلية ولكنه حوّل تلك الآلهة الى أوثان وأصنام،

يلمسها ويحسها بيديه ، فيتقرب اليها ويتوسل بها ، وخاف من الأرواح مثل الجن والأرواح الخبيثة التي صوّرها عقله ، أكثر من خوفه من آلهته، فإذا نزل مكاناً قفراً ، أو محلاً موحشاً ، أو دخل مكاناً مظلماً أو كهفاً ، تعوذ من الأرواح، واحتال عليها بمختلف الحيل التي ابتكرها عقله ، ليتغلب عليها وليتخلص منها . فهو يخافها أكثر من خوفه من الآلهة ، لأنه جعلها تعيش معه في كل مكان ، فهي تحيط به . أما الآلهة ، فإنها بعيدة عنه ، ثم انها لا تؤذي ، ومن طبع الإنسان التخوف من المؤذين .

وهو لا يحفل بما بعد الموت ، لأن هذا العالم الثاني عالم غير محسوس بالقياس اليه . ولهذا لم يتصوره كتصور غيره من الأمم الأخرى ، بل هو لم يتعب نفسه بالتفكير فيه ، ولهذا كانت مراسيم دفن الميت بسيطة جداً ، لا تكلف فيها ولا تعقيد، على نحو ما نجده عند الحضري أو العجم،متى دفن في قبره وهيل التراب عليه ، انتهى كل شيء . ولهذا كان عجبهم شديداً اذ سمعوا بالبعث وبالقيامة والحشر والنشر.« أإذا أمتنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون،أو آباؤنا الأولون »[1] . وكان قائلهم يقول :

حياة ، ثم موت ، ثم نشر : حديثُ خُرافة ، يا أم عمرو ![2]

وقال شدّاد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك،يرثي قتلى قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ[3]

وقد ورد البيت المذكور في صورة أخرى في كتاب (الصبح المنير في شعر أبي بصير) ، في باب شعر (أعشى نهشل) ، ورد في هذا الشكل :

وكائن بالقليب قليب بدرٍ من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداءٍ وهامِ ؟
أيعجز أن يرد الموت عني وينشرني إذا بليت عظامي
ألا مَن مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي[4]

---

١ سورة الواقعة ، الاية ٤٧ ، « ااذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد » سورة ق ، الاية ٣

٢ بلوغ الارب (١٩٨/٢) .

٣ الصبح المنير (ص ٣٠٨) « طبعة اوربة ١٩٢٧ » .

والحضر الذين نظروا الى الأعراب ، نظرة استصغار وازدراء ، لما بينهم وبين الأعراب من تفاوت في الثقافة وفي العقلية ، هم أنفسهم وفي الواقع أشباه حضر ، وأخص من هؤلاء الحضر حضر الحجاز ، فخصائص التعرب غالبة عليهم ، غلبة تزيد على خصائص الحياة الحضرية . فقد قامت قراهم مثلاً وأعظمها مكة ويثرب على الفكرة الأعرابية القائمة على أساس النسب ، فكل من مكة ويثرب شعاب ، كل شعب لفخذ أو عائلة أو ما أشبه ذلك من أسماء تدخل في أسماء أجزاء القبيلة ، تتعصب وتتحزب وتتقاتل فيما بينها وتتحالف ، كما يتقاتل أو يتحالف الأعراب . ثم إنهم كانوا يأنفون من الاشتغال بالحرف ، تماماً كما يفعل البدو ، ويعافون الزراعة في الغالب ، لا استثني منها زراعة النخيل ، لأن الزراعة في نظرهم من أعمال النبط والرقيق ، والروح الفردية سائدة بينهم ، موجودة عندهم ، إلا في أوقات الشدة والضيق ، والفردية الجامحة من طبائع البادية ومن خصائصها ، الى أمور أخرى عديدة تعد من صميم الحياة الأعرابية . وسبب ذلك أن هذه المستوطنات التي سموها قرى كانت وسطاً بين البداوة والحضارة ، وكانت كالجزر الصغيرة وسط المحيطات الواسعة ، محيطات من الأعراب ، تستمد غذاءها الروحي والمادي من البداوة أكثر مما تستمده من الحضارة . أضف الى ذلك عامل الطبيعة الذي يلعب دوراً خطيراً في تكون المجتمعات وفي تكييفها بالشكل الملائم . ولذلك لم تتكون في يثرب أو في مكة أو في غيرها حياة مشابهة لحياة الحضر العجم في الأماكن الأخرى مثل مدن وقرى العراق وبلاد الشام ومصر ، بل وحتى حضر مدن اليمن وهم من العرب بالطبع .

ومن هنا نجد حضر اليمن ، بل وأعراب اليمن أيضاً يختلفون عن حضر وأعراب الحجاز ونجد والعربية الشرقية ، في كثير من الخصائص والصفات . مع أنهم كلهم عرب ومن أصل واحد . فحضر اليمن ، حضر لا يأنفون من العمل ولا يستصغرون شأن الحرف . ولا يأنفون من الزراعة . بينهم الحائك والنساج والمشتغل بالأرض ، والصانع والحداد والنجار وعامل البناء ، وقالع الحجر ومربي الماعز والغنم والبقر ، وزارع الخضر والبقول ، ودابغ الجلود ، مع أنها حرف يراها العربي في بقية مواضع جزيرة العرب من حرف العبيد والطبقات الدنيا من الناس .

وأعراب اليمن ، الذين ميزهم حضر اليمن عن أنفسهم في الجاهلية باطلاق

لفظة (اعرب) عليهم ، لأنهم لم يكونوا في مستواهم وفي درجتهم في الحضارة. هم مع ذلك وبوجه عام أرقى مستوى وأكثر ادراكاً من أعراب الحجاز ونجد. لقد وطنوا أنفسهم في أطراف الحواضر وعند مواضع الماء والخصب ، وزرعوا ورعوا ماشية وأنعاماً ، واستقروا في بيوت من مدر أو حجارة . وهي حياة لا يألفها البدوي القح . ولا يراها من مقوّمات البداوة . ثم انهم لم يكونوا رحلاً على شاكلة أعراب الحجاز أو نجد أو بادية الشام . واذا كنا نرى بعض قبائل اليمن ، وهي ترحل من مواضعها ، فرحيلها هذا هو عن سبب قاهر ، مثل حروب أو كوارث طبيعية تجعل من الصعب عليها البقاء في منازلها ، فلا يكون أمامها للمحافظة على حياتها غير الرحيل الى مكان آخر . انهم بالقياس الى عرب الحجاز أو نجد رعاة أو شبه أعراب[1] .

ومرجع هذه الفروق هو في التباين في الطبيعة . فطبيعة أرض اليمن مثلاً طبيعة لطيفة خفيفة ، الحرارة فيها معتدلة بوجه عام ، والفروق في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء،أو بين الليل والنهار ليست كبيرة متناقضة متعاكسة. والضغوط الجوية فيها معتدلة غير قلقة متغيرة بكثرة في اليوم أو في الشهر أو في السنة ، والأمطار متوفرة بوجه عام ، تزور اليمن في مواسم معينة ، وجبال اليمن العالية جبال تقف شامخة عنيدة وفي وضع مناسب أمام الأبخرة المتصاعدة من البحار ، حتى تضطرها على الهبوط غيثاً على اليمن يغيث الناس . ثم ان اليمن هضاب وأودية وتهائم ، ومسايل طبيعية تقود السيول الى أحواض حفرتها الطبيعة ، وعلمت هذه الطبيعة الإنسان على رفع حافاتها لتحبس الماء في الأحواض ، وعلى عمل فتحات فيها لخروج الماء منها وقت الحاجة . وهي غنية بالمعادن وبالحجر الصالح للبناء وبالأشجار التي غرزتها الطبيعة بيدها ، وأرض على هذا النحو وعلى هذه الشاكلة لا بد وأن تؤثر على أجسام وعلى عقول أصحابها ، فجعلتهم من ثمّ من أنشط شعوب جزيرة العرب في ميدان العمل والحيلة في كسب العيش وفي اقامة المجتمعات وانشاء حضارة ، وفوّقتهم بذلك بوجه عام على سائر عرب جزيرة العرب ، وصيّرتهم قوماً لا يرون الاشتغال بالحِرَف عيباً ، ولا امتهان المهن العملية نقصاً . ولو كانت أرضهم على شاكلة أرض الحجاز أو نجد ، ولو

---

١ Naval, P., 402.

كانت طبيعتها ذات طبيعة صحراوية قاسية ، لما صار أهل اليمن بالشكل الذي ذكرته . ولهذا السبب ، اختلفت طبائع من يسميهم أهل الأخبار بالقحطانيين الساكنين خارج اليمن في نجد أو في بادية الشام عن طبائع أهل اليمن ، فصاروا أعراباً أقحاحاً يأنفون من الاشتغال بالحِرَف ، ولا يعيشون الا على تربية الإبل، الى غير ذلك من سمات وسم بها البدو مع انهم يمانيون كما يذكر أهل الأخبار. ولو كانت طبيعة أرض البادية على نحو آخر ، على نحو يؤمن العيش والراحة لمن يقيم بها ، لما وجدنا ما وصفناه من أوصاف عند الأعراب، فإن الطبيعة تصقلهم اذ ذاك صقلاً آخر ، قد تجعلهم مستقرين مقيمين على الأقل ، ودليل ذلك أثر الأمطار والربيع فيهم ، عندما تغيثهم السماء ، سنين متوالية ، اذ يبقون في أماكنهم ، ويقيمون فيها،ولا يخطر ببالهم عندئذ خاطر الارتحال والتنقل من هذه الأرض .

ولأثر الطبيعة المذكور في طباع الناس ، اختلفت طبائع أهل « الطائف » عن طبائع أهل مكة مع أنها أقرب الى مكة من اليمن،وسبب ذلك ان الطائف أرض مرتفعة ذات جو معتدل ، بها مياه وفيرة ، وبها أشجار وهبتها الطبيعة لأرضها منذ القدم ، أرضها خصبة فرحة ، لا تسودها كآبة البادية ولا يخيم عليها عبوس البيداء ، فصارت أخلاق أهلها من ثم أقرب الى أخلاق أهل اليمن ، وصاروا أذكياء ، عقولهم متفتحة نيرة ، استغلوا أيديهم ، فزاولوا الحرف مثل الدباغة، واستغلوا الأرض ، إذ زرعوها حباً وأشجاراً مثمرة ، وربّوا الماشية ، وصارت مدينتهم حتى اليوم مصيف أهل مكة . مع أنهم عرب ما في أصلهم العربي أدنى شك ، وهم وعرب مكة أو يثرب أو نجد من طينة واحدة ، لا شك في ذلك ولا شبهة .

فللطبيعة إذن من حرّ وبرد ومن اختلاف في الضغوط الجوية ومن أشعة شمس محرقة منهكة ومن اشعاع أرضي ومن أمطار وأهوية ورياح ومن طبيعة أرض وموقع ، ومن هبة الطبيعة الى السكان من طعام غني أو فقير ، من حبوب وأثمار وخضر وحيوان ، أثر بالغ في تكوّن الطباع وفي خلق التمايز بين الأجناس البشرية ، تضاف الى ذلك الظروف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تحيط بالناس ثم التكوّن الجسماني ومظهره . ومن هنا نجد العربي الأصيل الذي لا شك ولا شبهة في أصله العربي ، إذا أقام وحده مدة في مجتمع غربي مثل انكلترة

أو اسكانديناڤية أو أميركا الشمالية ، حيث الطبيعة مختلفة عن طبيعة بلاده وحيث الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية متباينة عن الظروف المذكورة في بلاده ، تغير وتبدل واضطر مختاراً أو كرهاً عن غريزة تطور كامنة فيه الى التأقلم والانسجام مع القوم الذين صار يعيش بينهم . ويتوقف هذا التحول بالطبع على عمر الشخص وعلى قابلياته وعلى مدة اقامته في المكان . ولو أقام ذلك العربي طيلة حياته كلها في ذلك الوطن الجديد ، وصار له نسل من زوجته العربية التي قدمت معه أيضاً ، فإن النسل الجديد سيكتسب صفات الموطن الذي نشأ فيه ، ويتخلق بأخلاقه ، أما نسل نسله ، فإنه سيتحول الى شخص آخر غريب عن جده ، غريب عنه حتى في لغته . ومن هنا نجد الجيل الثالث من أجيال المهاجرين العرب الذين هاجروا الى أميركا ، وتجنسوا بها ، جيلاً اميركياً في كل شيء ، حتى في لغته وثقافته وشعوره وهواه ، يشعر أن حنجرته لا تطاوعه على تعلم العربية وأن أوتارها لا تساعد على النطق بها . مع أنه من أصل عربي أباً وأماً . وقد برز من هذا الجيل الجديد اليوم قوم في ميادين العلم والتجارة والمال والصناعة والسياسة والعمل ، ودخل نفر منهم مجلس النواب في واشنطن ، وسيزيد هذا العدد ولا شك ، لم يعقهم عن ذلك عائق الرس والعنصر والجنس وخصائص الدم ولو كان الدم عائقاً الى الأبد ، لما حدث في المذكورين ما نراه عملياً في هذا اليوم .

والعربي بعد ، إن وصف في الجاهلية أو في الإسلام بالخمول والكسل ، وبـ « الرومانطيقية » ، أي بالخيال ، وبعدم الصبر وبالأنانية والفردية وبما شاكل ذلك من صفات ، فصفاته هذه ليست حاصل خصائص دم ونتيجة سمات عرق ، وإنما هي ظروف وأحوال وأوضاع أجبرته على ذلك ، ولو أطعم ذلك العربي طعاماً صحياً فيه المواد الغذائية الضرورية لنمو الجسم والعقل، ولو تغيرت ظروفه ، فهو كما ذكرت سيتغير حتماً . وما كان الأوروبي ليتفوق على الشرقي لو أن طبيعة اقليمه وأرضه كانت كطبيعة جزيرة العرب، ولو سكن الألماني أو السويدي أو الانكليزي بلاد العرب ، وصار له نسل ، فإن نسله لا ينشأ كما لو نشأ في وطن والده أو جدّه ، لاختلاف الظروف والأجواء . وما كانت أوروبا خضراء هذه الخضرة ونشطة هذا النشاط بسبب دم أهلها وحده، بل لأن طبيعتها ساعدت الناس وعاونتهم، فأنبتت الرطوبة والأمطار الأشجار بنفسها وكونت لأهلها الغابات،

ودفع البرد الناس على العمل دفعاً ، ولهذا نجد الناس عندنا في الشتاء يندفعون الى العمل اندفاعاً بعامل البرد الذي يدفع الجسم إلى الحركة .

أضف الى كل ذلك عوامل أخرى تؤثر في جسم الإنسان وفي تصرفاته واتجاهاته من تركيب جسم ومن ملامح ، مثل لون شعر وتركيبه ولون بشرة أو لون عين وشكل جمجمة وأمور أخرى يدرسها ويبحث فيها علماء الأجناس البشرية ، تؤثر أيضاً في خصائص الإنسان وفي أجناسه وفصائله ، مما لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

والبحث في موضوع نفسيات الشعوب وأصول تفكيرها وميزات عقلها ، بحث يجب أن يستند الى أسس علمية حديثة ، والى تجارب دقيقة عامة، لذلك لا يمكن التعميم ما دمنا لا نملك بحوثاً ودراسات علمية منسقة ، قام بها علماء متخصصون في البوادي وفي الحواضر وفي كل مكان من جزيرة العرب ، روعي عند اجرائها الظروف الطبيعية المؤثرة في ذلك المكان ، والظروف الثقافية السائدة عليه، ودرجة تأثر ذلك المكان بالمؤثرات الخارجية ، أي بمؤثرات المناطق المجاورة له . فبين أهل جزيرة العرب بون كبير في العقليات ، وبين أهل البوادي في الجاهلية وفي هذا اليوم فروق في النفسيات وفي التعامل ، حتى وسمت القبائل بسمات ، فوسمت (معد) مثلاً بالحيلة والكيد والذكاء وبالغلظة والخشونة ، ووسمت (ثقيف) بسمات ، ووسمت (كندة) بسمات . وقد رأينا ما ذكره (حافظ وهبة) عن أهل نجد من حضر وبدو .

بل اننا نرى ان الأعاجم المتعربين أي الذين ينزلون بين العرب وينسلون بينهم ويتخذون العربية لساناً لهم ، سرعان ما يتعربون كل التعرب ، ويتحول أبناؤهم الى جيل عربي خالص ، حتى ليصعب عليك التفريق بينهم وبين العرب في الرسوم والعادات والتفكير ، وذلك بتأثير المحيط الذي حلوا به، والظروف الطبيعية المؤثرة بالمكان . وقد تعرب آراميون في العراق وفي بلاد الشام ، وصاروا عرباً في كل شيء حتى في الصفات التي ذكرناها ، وقد وجدت البعثة الأمريكية التي جاءت الى العراق للبحث عن السلالات البشرية ان في دماء القبائل العربية التي ترى نفسها انها قبائل عربية خالصة نسباً مختلفة من الدماء الغريبة ، واذا أدركنا هذه الملاحظة وقيمة أمثال هذه الدراسات في موضوع تكوّن العقلية وفي حدودها ورسم معالمها ، علمنا انه ليس من السهل في الواقع البحث عن عقلية عربية خالصة

تعبّر عن عقلية جميع العرب وفي كل مكان .

إن الذين بحثوا في العقلية العربية بصورة عامة ، تصوروا العرب وكأنهم جنس واحد انحدر من عرق واحد . وبهذا الاعتقاد وضعوا حدود تلك العقلية. أما اذا نظرنا الى نتائج فحوص بعض علماء (الأنثروبولوجي) وعلماء الآثار وعلماء الحياة لبقايا الجماجم والعظام التي عثروا عليها من عهود ما قبل الإسلام،والى فحوصهم لملامح العرب الأحياء وأجسامهم،فإنها على قلتها ، تشير الى وجود أعراق متعددة بين سكان جزيرة العرب ، الأموات منهم والأحياء ، الجاهليين والإسلاميين ، والى وجود اختلاف في نفسياتهم وفي قابلياتهم العقلية ، وقد تحدثت قبل قليل عن ملاحظات (حافظ وهبة) عن عقليات عرب المملكة العربية السعودية ، وتحدثت عن رأي علماء الحياة والأجناس في تعدد الأعراق وتسرب دماء غريبة الى جزيرة العرب يجعل من الصعب على الباحث الحذر أن يعتقد بإمكان وضع صورة دقيقة تمثل وجود عقلية واحدة لجميع أولئك الناس وفي كل العصور والعهود.

الفصل الثامن

طبقات العرب

اتفق الرواة وأهل الأخبار ، أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم الى طبقات : عرب بائدة،وعرب عاربة ، وعرب مستعربة . أو عرب عاربة ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة. أو عرب عاربة وعرباء وهم الخلص، والمتعربة. واتفقوا أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث النسب الى قسمين: قحطانية ، منازلهم الأولى في اليمن . وعدنانية ، منازلهم الأولى في الحجاز[١] .

واتفقوا ، أو كادوا يتفقون على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله ، وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هـذه الكلمة . فهم الأصل ، والعدنانية الفرع ، منهم أخذوا العربية ، وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم الى الحجاز ، شرح الله صدر جدهم إسماعيل ، فتكلم بالعربية ، بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الإرمية ، أو الكلدانية ، أو العبرانية على بعض الأقوال[٢] .

وتجد الأخباريين والمؤرخين يقسمون العرب أحياناً إلى طبقتين : عرب عاربة، وعرب مستعربة . ويدخلون في العرب العاربة عاداً وعبيل ابني (عوص بن إرم)،

---

١ ابن خلدون (١٦/٢) « طبعة بولاق » ، الهلال : الجزء العشرون ، السنة الخامسة حزيران ، ١٨٩٧ (ص ٧٦٨ فما بعدها) ، تاج العروس (٣٣٣/٣) ، « الكويت»

٢ مرج الذهب (٢٦٢/١) ، نهاية الارب ، للنويري (٢٩٢/٢)

وثمود وجديس ابني (جاثر بن إرم) ، وعمليق وطسم وأميم بني (لوذان بن إرم) ، و (بني يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام) ، وهم : جرهم،وحضرموت، والسلف ، وجاسم بن عمان بن سبأ بن يقشان بن ابراهيم[١].
أما (الهمداني) ، فقد عدّ كل القبائل التي أولها (جاسم) وآخرها (عبس الأولى) من العرب العاربة[٢] . والقبائل المذكورة هي (جاسم) الذين نزلوا بعمان والبحرين ، وبنو هيف ، وسعد ، وهزان الأولى ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق، وبنو بديل ، وراجل ، وغفار ، وتيماء ، وبنو أثابر ، وبنو عبد ضخم[٣] .

وظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تأريخ العرب قبل الإسلام ، وفي موضوع الأنساب . ولا حاجة بنا الى أن نعود ، فنقول : إن كل ما روي من هذا التقسيم وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات،لم يرد الينا من النصوص الجاهلية ، وإنما ورد الينا متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام ، لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول : إن هذا التقسيم وضعه الجاهليون ، وتوارثوه كابراً عن كابر، حتى وصل إلى صدر الإسلام ، ثم منه وصل الينا :

وتقسيم العرب الى طبقات — وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية — هو تقسيم لا نجد له ذكراً لا في التوراة أو الموارد اليهودية الأخرى ولا في الموارد اليونانية أو اللاتينية ، أو السريانية . ويظهر أنه تقسيم عربي خالص ، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنهم بادوا قبل الإسلام،فلم تبق منهم غير ذكريات، وبين العرب الباقين ، وهم إما من عدنان ، وإما من قحطان .

وجماع العرب البائدة في عرف أكثر أهل الأخبار ، هم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، وجاسم ، وعبيل ، وعبد ضخم ، وجرهم الأولى، والعمالقة ، وحضورا[٤] . هؤلاء هم مادة العرب البائدة وخامها،وهم أقدم طبقات العرب على الإطلاق في نظر أهل الأخبار .

---

١ المحبر (ص ٣٩٥) .
٢ الاكليل (١/٧٥) .
٣ الاكليل (٢/٧٢ فما بعدها) .
٤ الطبرى (١/١٠٣ فما بعدها) ، (١/٢٠٣ فما بعدها) ، طبعة « دار المعارف » ، وتجد اختلافا في الانساب ، التنبيه والاشراف (١٥٧) ، « طبعة الصاوى » ، « العرب العاربة سبع قبائل » « وهم تسع قبائل » تاج العروس (٣/٣٣٣) ، « الكويت » ،

أما عاد ، فإنهم من نسل (عاد بن عوص بن إرم) . وأما ثمود فمن نسل (ثمود بن غاثر بن إرم) . وأما (طسم) ، فمن نسل (طسم بن لاوذ) . وأما (جديس) ، فمن نسل (جديس بن غاثر بن إرم) ، في رواية أو من نسل (جديس بن لاوذ بن سام) على رواية أخرى[١] . وأما (أميم) ، فإنهم من نسل (أميم بن لاوذ بن سام)[٢] . وأما (جاسم) ، فمن نسل (جاسم) ، وهو من العماليق أبناء (عمليق) ، فهم اذن من نسل (لاوذ بن سام) . وأما (عبيل) ، فإنهم من نسل (عبيل بن عوص بن إرم)[٣]،وأما (عبد ضخم) ، فمن نسل (عبد ضخم) من نسل (لاوذ) ، وقد جعلوا من صُلْب (أبناء إرم) في رواية أخرى . وأما (جرهم الأولى) ، فمن نسل (عابر) ، وهم غير جرهم الثانيــة ، الذين هم من القحطانيين[٤] . وأما العمالقــة ، فإنهم أبناء (عمليق بن لاوذ) ، وأما (حضورا) ، فإنهم كانوا بالرس ، وهلكوا .

نرى مما تقدم ان أهل الأخبار قد رجعوا نسب العرب البائدة إما الى (إرم) ، وإما الى (لاوذ) ، باستثناء (جرهم الأولى) الذين ألحق بعض النسابين نسبهم بـ (عابر) . وهذه الأسماء هي أسماء توراتية ، وردت في التوراة ، وأخذها أهل الأخبار من منابع ترجع الى أهل الكتــاب ، وربطوا بينها وبين القبائــل المذكورة ، وكونوا منها الطبقة الأولى من طبقات العرب .

و (إرم) ، هو شقيق (لاوذ) في التوراة ، وأبوهما هو (سام بن نوح) ، وقــد ترك (سام) هــذا من الأولاد (آشور) Asshur و (أرفكشاد) و (لود) و (إرم) و (عيلام) . كما ورد في التوراة[٥]. وقد أجرى أصحاب الأخبار بعض التحوير والتغيير في هذه الأسماء ، بأن صيّروا (آشور) (أشوذ) و (انشور) و (أرفكشاد) (أرفخشذ) ، و (لود) (لاوذ)،و (عيلام) (عويلم) . أما (إرم) ، فقد أبقوه ولم يغيروا في شكله[٦] .

---

١ « وولد للاوذ بن سام : طسم وجديس » ، الطبــري (٢٠٤/١ ، ٢٠٦) ، « دار المعارف » .
٢ الطبرى (٢٠٣/١) ، « دار المعارف » .
٣ الطبرى (٢٠٣/١ وما بعدها) ، « عوض » ، الكامل (٣١/١) ، مروج (٢٤/١).
٤ ابن خلدون (٣٠٧/٢) ، صبح الاعشى (٣١٤/١) .
٥ « آشور » « اشور » Asshur أرفكشاد ، ارفخشن ، Arpachshad لود ، Lud لوديم ، Ludim ارم Aram « عيلام » ، Elam
٦ الطبري (٢٠٣/١) ، « دار المعارف » .

ولا نجد لـ (لود) أي (لاوذ) ولداً في التوراة . فأولاده المذكورون هم هدية من أهل الأخبار قدمت اليه . أما (إرم)،وهو (آرام) في التوراة، فإن له من الأولاد (عوص) و (حول) و (ماش) و (كيثر)[١] . ولم تذكر التوراة ولداً لهؤلاء الأبناء الأربعة ، فالأولاد الذين ذكرهم أهل الأخبار ، على انهم ولد (عوص) و (كيثر) (غاثر) (كاثر)،هم هبة من الأخباريين قدموها الى هذين الأخوين .

وأما (لود) الذي صار (لاوذ) ، عند أهل الأخبار ، فإن آراء الباحثين في التوراة مختلفة في المراد منه . وقد ظن بعضهم أنه جد (اللوديين)، وذكر هؤلاء (اللوديين) مع (كوش) و (فوط) ، وبين (فارس) و (فوط). وأما (لود) أبوهم ، فإنه ابن (مصرايم) أي مصر[٢] . ويحملنا هذا على التفكير في أنهم شعب من شعوب إفريقية . ولكن هذا الرأي يخالف ما جاء عن (لود) من انه ابن (سام)،وانه شقيق لإخوته المذكورين الذين تقع أملاكهم في الهلال الخصيب ، ومقياساً على هذه المواضع يجب أن يكون ملكه في هذه الأرضين أيضاً . ومهما يكن من شيء ، فإن آراء العلماء متباينة في مواضع نسله، ولم ينوه أحد منهم أنها في جزيرة العرب[٣] .

وأما عوص ، فإن آراء العلماء متباينة كذلك في المكان المنسوب اليه ، فذهب بعضهم الى أن أرض (عوص) يجب أن تكون على تخوم (ايدوم)[٤] أو تخوم العربية الشمالية ، وذهب بعض آخر الى أنها المناطق التي على نهر الفرات،وذهب بعضهم الى أنها في منطقة (حوران) وذهب بعض آخر الى أنها أرض (دمشق) و (اللجاة) (اللجاء)[٥] ، وذهب آخرون الى أنها في الحجاز أو في نجد[٦] . ورأى بعض أهل الأخبار أن منزل (عوص) هو (الأحقاف)[٧] .

---

١ « عوص » Uz « حول » Hul ماش Mash كيثر
ـ كاثر ـ جاثر ـ غاثر ـ Gether التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٣ .

٢ « مصرايم » ، Mizraim

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٩٩) ، Hastings, P., 557.

٤ « ايدوم » ، (Idumaea) (Edom)

٥ Trachonitis

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦) ، Hastings, P., 956.

٧ الطبرى (١/٢٠٦) ، « دار المعارف » .

وأرض (عوص) هي موطن (أيوب) الشهير صاحب السفر المعروف باسمه ، والذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وضرب به المثل في الصبر .

وأكاثر (جاثر) (Gether) ، فلا يعلم من أمره شيء[1] ، ويجب أن تكون مواطن (الكاثريين) في الهلال الخصيب ، أو في باديـة الشام ، أو في التخوم الشمالية لجزيرة العرب ، وذلك نظراً لوروده مع (عوص) و (ماش) .

وقد جعل أهل الأخبار (النبط) من نسل (نبيط بن ماش) ، وجعلوا أهل الجزيرة والعال من ولد (ماش) كذلك[2] . أما النبط في التوراة ، فانهم (نبيوت)[3] نسبة الى الابن الأكبر لأبناء (اسماعيل) المسمى بـ (نابت) عند أهل الأخبار[4] وليس لـ (ماش) علاقة به وبالنبط . وأما (ماش) ، فانـه كناية عن موضع سكنه جماعة عرفوا بهذا الاسم ، لعله (بادية ماش) (صحراء ماش) المذكورة في الكتابات الآشورية ، وهي في البادية الكبيرة المسماة (بادية الشام)[5] .

العرب البائدة :

ونحن جرياً مع عادة أهل الأخبار في تقسيم العرب الى الطبقات الثلاث المذكورة ، نبدأ بذكر الطبقة الأولى من طبقات العرب ، وهي طبقة العرب البائدة .

وقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الأقوام المؤلفة لهـذه الطبقة ، فعدّها بعضهم من الأقوام الخُرافية التي ابتدعتها مخيلة الرواة ، وخاصة حين عجزوا عن العثور على أسماء مشابهة لها أو قريبة منها في اللغات القديمة أو في الكتب الكلاسيكية ، وقد اتضح الآن أن في هذه الأحكام شيئاً من التسرع ، إذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الأقوام ، ومن الحصول على بعض

---

١ Hastings, P., 292.

٢ الطبري (٢٠٧/١) .

٣ « نبيوت » ، Nebaloth

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرين ، الآية ١٣ ، اخبار الايام الاول ، الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٩ ، Hastings, P., 648.

٥ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآيـة ٢٣ ، اخبـار الايام الاول ، الاصحـاح الاول ، الاية ١٧ ، Hastings, P., 590.

المعلومات عنها ، ومن حلّ رموز بعض كتاباتهم مثل الكتابات الثمودية . وقد اتضح أن بعض هذه الأقوام أو أكثرها قد عاشوا بعد المسيح ولم يكونوا ممعنين في القدم على نحو ما تصور الرواة . ولعلّ هذا كان السبب في رسوخ أسمائهم في مخيلة الأخباريين .

وأبدأ الآن بالتحدث عن (عاد) :

عـاد : وإذا جارينا الأخباريين ، وسرنا على طريقتهم في ترتيب الشعوب العربية ، وجب علينا تقديم طسم وعمليق وأميم وأمثالهم على عاد وثمود ؛ لأنهم من أبناء (لاوذ بن سام) شقيق (إرم) ، وعاد وثمود من حَفَدة (إرم بن سام) . ولكن الأخباريين يقدمون عاداً على غيرهم ، ويبدأون بهم ،وهم عندهم أقدم هذه الأقوام ، ويضربون بهم المثل في القـدم[1] . ومثلهم في ذلك مثـل أخباريي العبرانيين الذين عدّوا العمالقة أول الشعوب[2] . ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد ، أو من ورود اسم عاد في القرآن الكريم في سورة الفجر[3] ثم مجيء اسم (ثمود) بعد ذلك . ولهذا صاروا إذا ذكروا (عاداً) ذكروا (ثموداً) بعدها في الترتيب . فلورودهما في القرآن الكريم قدما على بقية الأقوام .

وقد أورد (الطبري) ملاحظة مهمة عن قوم (عاد) وعن رأي أهل الكتاب فيهم ،إذْ قال : « فأما أهل التوراة ، فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهـود وصالح في التوراة ، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية ، والإسلام كشهرة ابراهيم وقومه[4] » . ويظهر من ذلك أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم علمهم عن عاد وأمثالهم ، أخبروهم بعدم وجـود ذكرهم في التوراة . والواقع أن التوراة لا علم لها فيهم . فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية ، تحدث بها الجاهليون ، وليس لها ذكر في كتب يهود، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة ، وأوجدوا لها صلة ونسباً

١ ومنهم من رأى انهم ابناء « ارم » اللسان (١٤/ ٢٨٠)

٢ التكوين ، الاصحاح الرابع والعشرون، آية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/ ١١٣)
Hastings, P., 24.

٣ سورة الفجر ، رقم ٨٩ ، الآية ٦ فما بعدها .

٤ الطبري (١/ ٢٣٢) .

بأسماء أعيان وردت في التوراة . ولكن عملهم هذا لا يخفى بالطبع على من له وقوف على التوراة .

وأكثر هذه الأقوام أقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة ، عاشت بعد الميلاد في الغالب ، ولعل منها من عاش الى عهد غير بعيد عن الإسلام . ثم إن التوراة والكتب اليهودية الأخرى لم تهتم إلا بالشؤون التي لها علاقه بالعبرانيين ، وهي ليست كتباً في التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن أمثالهم من قبائل . أما بقاء أخبار قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة في ذاكرة أهل الأخبار ، فلأنهم عاشوا بعد الميلاد ، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام ، ومع ذلك،فقد أخذت أخبارهم طابع القصص والأساطير.

وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى أن عاداً هي (هدورام) في التوراة[1] . ودليلهم على ذلك اقتران عاد بإرم في الكتب العربية ، وبعض القراءات التي قرأت (بعاد إرم) في الآية : « ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد »[2] على الإضافة ، أو مفتوحتين ، أو بسكون الراء على التخفيف ، أو بإضافة إرم الى ذات العماد . وبين (عاد إرم) و (هدورام) تشابه كبير في النطق[3] .

ولكن التوراة تشير الى أن (هدورام) من نسل (يقطان) ، أي قحطان في الكتب العربية ، وهذا لا يستقيم مع الروايات . ويرد (جرجي زيدان) على هذا الاعتراض بقوله : « ولعل كاتب سفر الخليقة رأى مقر تلك القبيلة في بلاد اليمن ، فقال انها من نسل قحطان ، لأن مقام عاد في الأحقاف بين حضرموت واليمن . وكثيراً ما التبس علماء التوراة في هدورام أو هادرام ومقر نسله ، ولم يهتدوا الى شيء عنه ، مع انهم اهتدوا الى أماكن أكثر أبناء قحطان ، وكلها بجوار الأحقاف ، فعاد هي (هدورام) في التوراة . وإما أن يكون كاتب سفر الخليقة أراد بيان القبائل التي سكنت اليمن ، وكلها ينسب الى قحطان ، فرأى عاد إرم في جملتها ، فجعله من أولاد قحطان وبعبارة أخرى : من القبائل

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٧ ، اخبار الايام الاول ، الأصحاح الاول ، الآية ٢١ ، الاكليل (١٦٢/٨) .

٢ سورة الفجر ، الاية ٦ فما بعدها .

٣ الهلال : الجزء الثالث والعشرون ، السنة السادسة ، آب ١٨٩ م (ص ٨٩٠)

المتفرعة عن قبيلة قحطان . وإما أن يكون بالحقيقة من نسل قحطان.وهم العرب في نسبته الى آرام »[1].

ورأى (فورستر) وجود صلة بين (عادة) ، وهو اسم زوجة (لامك) ، وبين (عاد) ، وهي والدة (يابال) الذي كان أبا لسكان الخيام ورعاة المواشي[2] ، ونسلها من الأعراب . وقوم عاد من الأعراب كذلك . وذهب أيضاً الى أن هؤلاء هم Oaditae وهو اسم (قوم ذكرهم (بطليموس)[3]) على انهم كانوا يقيمون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب[4] ، ولعلهم كانوا يقيمون عند موضع (بئر إرم)،وهي من الآبار القديمة في منطقة (حسمى) على مقربة من جبل يعرف بهذا الاسم في ديار جُذام بين أيلة وتيه بني اسرائيل[5] . ولا يبعد هذا الموضع عن أماكن ثمود الذين ارتبط اسمهم باسم عاد . وقد أيد هذا الرأي (شبرنكر) وجماعة من المستشرقين ، وهو أقرب الآراء الى الصواب .

وذهب الأخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد هما : عاد الأولى ، وعاد الثانية ، وكانت عاد الأولى ، في زعم أهل الأخبار ، من أعظم الأمم بطشاً وقوة ، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الألف ، منهم : رفد،ورمل ، وصد،والعبود[6] . والظاهر أن فكرة وجود طبقتين لعاد قد نشأت عند الأخباريين من الآية : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمودَ فما أبقى »[7] ، فتصوروا وجود عاد ثانية ، قالوا انها ظهرت بعد هلاك عاد الأولى[8] .

وقد ذهب بعض العلماء الى أن (عاداً الأولى) ، هو (عاد بن عاديا ابن سام بن نوح) ، الذين أهلكهم الله ، وأوردوا في ذلك بيت شعر ينسب

---

١ المصدر نفسه .
٢ التكوين ، الاصحاح الرابع ، الآية ٢٠ .
٣ Forster, Vol., 2, P., 32 ff.
٤ Forster, Vol., 2, P., 32, Enc., Vol., I, P., 121, Sprenger Geogra. S. 207.
٥ البلدان (١٩٦/١) ، صفة (ص ١٢٩)
Enc., Vol., I, P., 121, Sprenger, S., 207, Wensink und J H Kramers, Handworterbuch des Islam, Leiden, 1941, S. 13,
وسأرمز اليه بـ : Wensink
٦ الهلال : الجزء نفسه ، (ص ٨٩١) .
٧ سورة النجم ، سورة رقم ٥٣ ، الاية ٥٠ فما بعدها .
٨ ابن خلدون (٢٠/٢) .

الى (زهير)[1] . وأما عاد الأخيرة ، فهم (بنو تميم) وينزلون برمال عالج[2].

وذهب الطبري الى أن عاداً الأولى ، هـم نسل بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح[3] ، وأن عاداً الأخـيرة هم رهط قيل بن عـتر ، ولقيم بن هزّال ابن هزيل بن عُتَيل بن صد بن عاد الأكبر ، ومرشد بن سعد بن عفـير ، وعمرو بن لقيم بن هزّال ، وعامر بن لقـيم ، وعمـرو بن لقيم بن هزّال ، وكانوا في أيام (بكر بن معاوية)[4] صاحب (الجرادتـين) ، وهما قينتان له تغنّيان[5] . وقد هلكوا جميعاً الا (بني اللوذية) ، وهم (بنو لقيم بن هزّال ابن هزيل بن هزيلة ابنة بكر) ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم (آل بكر ابن معاوية) ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الأخيرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد[6] .

وجعل بعض أهل الأخبار عدد قبائل عاد ثلاث عشرة قبيلة[7] ، ذكروا منها : (رفد) و (زمل) و (صد) و (العبود)[8] .

وجعلها (الهمداني) أحد عشر قبيلة وهي : العبود ، والخلود ، وهم رهط هود النبي المرسل ، وفيهم بيت عـاد وشرفهم ، وهم بنـو خالد . وقيل : بنو مخلد ، وبنو معبد ، ورفد ، وزمر وزمل ، وضد وضمود[9] ، وجاهد ، ومناف ، وسود ، وهوجد[10] .

وقد ذهب العلماء مذاهب في تفسير المراد من (إرم ذات العماد) في الآية : (ألم ترَ كيف فعل ربك بعادٍ ، إرَمَ ذات العماد)[11] فذهب بعضهم الى أن

---

١ « واهلك لقمان بن عاد وعاديا » ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، اللسان (٣١٧/٤) .
٢ اللسان (٣١٧/٤) .
٣ الطبري (٢١٦/١) « طبعة دار المعارف » .
٤ الطبري (٢١٩/١) « دار المعارف » ، وورد «معاوية بن بكر » في رواية اخرى.
٥ الطبري (٢٢١/١ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه .
٧ المعارف (١٤) .
٨ اتأمرنا لنترك ال رفد وزمل وال صد والعبود
الطبري (٢٢١/١) « دار المعارف » .
٩ « ضد » و « ضمود » ، هكذا ضبط محقق الاكليل (٨٧/١) ، اللفظتين ، وقد ضبطتا بحرف « الصاد » « صد » و (صمود) ، أكثر المؤلفات الاخرى .
١٠ الاكليل (٨٧/١) .
١١ سورة الفجر ، سورة رقم ٨٩ ، الاية ٦ فما بعدها ، اللسان (٢٨٠/١٤) .

(إرم ذات العماد) مدينة في (تيه أبْيَنَ) بين عدن وحضرموت ، وذهب آخرون الى أنها دمشق[1] أو الإسكندرية[2] . والذي دعاهم الى هذا الرأي — على ما أرى — هو كثرة وجود المباني ذوات العماد في هاتين المدينتين وما عرف عنها من القدم ، فوجد الأخباريون فيها وصفاً ينطبق على وصف إرم ذات العماد[3] . وقد خلقت (باب جيرون) من أبواب دمشق قصة (جيرون بن سعد ابن عاد) الذي قالوا فيه إنه كان ملكاً من ملوكهم ، وإنه الذي اختط مدينة دمشق ، وجمع عمد الرخام والمرمر اليها ، وسماها (إرم)[4] .

وهناك مناسبة أخرى جعلت بعض العلماء يذهبون الى أن دمشق هي (إرم) أو (إرم ذات العماد) ، فقد كانت دمشق — كما هو معروف — من أهم مراكز الإرميين (الآراميين) ، وكانت عاصمة من عواصمهم . ولهذا السبب أيضاً قال نفر من الباحثين إن (إرم) تعني (أرام) ، وأن عاداً من (الآراميين) ، وأن (عاد إرم) انما تعني (عاد أرام) ، فالتبس الأمر على المؤرخين وظنوا أن ذات العماد صفة ، فزعموا أنها مدينة بناها عاد[5] . غير أنه قول لا يؤيده دليل يثبت أن (إرم) في هذا الموضع تعني (ارام)[6] . ومن الجائز أن تكون (إرم ذات العماد) هي التي أوحت الى النسابين فكرة جعل (عاد) من نسل (عوص بن ارم) ،لتشابه اسم (ارام) و (ارم) عند العرب التي هي (آرآم) فأصبحت عاد من الإرميين .

---

١ الاكليل (٣٣/٨) ، « طبعة نبيه » ، صفة (٨٠) ، البكرى (١٤٠/١) « طبعة السقا » ، منتخبات (٢) سبائك الذهب ، للسويدي (١٥) .

٢ البلدان (١٩٧/١) ، منتخبات (٢) ، مروج (٤٢٠/٢ فما بعدها) ، « طبعة مينارد » ، Meynard
BOASOR, Number 73, February, 1939, p., 13, Koranic Iram, Legendary and Historical, by, Harold W. Glidden.

٣ « والعجم تذكر ان ارم ذات العماد بدمشق ، وان جيرون بن سعد بن عاد بنى مدينتها ، وسماها جيرون ذات العماد ، لكبر اعمدة حجارتها » ، الاكليل (٣٣/٨) « طبعة نبيه » .

٤ ابن خلدون (١٩/٢) ، المسعودي ، مروج (٤٢٠/٢) الاكليل (٣٣) « طبعة نبيه»
BOASOR, Number 73, P., 13, (1939).

٥ « وكان يقال لعاد في دهرهم عاد ارم » ، الطبقات (١/١ ص ١٩) ، البكري ، معجم (٤٨/١) .

٦ Enc., Vol., I, P., 121.

ويرى بعض المستشرقين أن الذي حمل الأخباريين على القول إن (الإسكندرية) هي (ارم ذات العماد) ، هو أثر قصص الإسكندر في الأساطير العربية الجنوبية ذلك الأثر الذي نجده في كتب القصاص اليمانيين ، في مثـل كتاب (التيجان) المنسوب الى وهب بن منبه ، وفي الرواية اليمانية . وقد حاول الإسكندر كما نعرف احتلال اليمن ، فغدا (شداد بن عاد) بانياً للإسكندرية ، وأصبح (الإسكندر) مكتشفاً لها [1] .

وقد فسر العلماء لفظة (إرمي) الواردة في بيت الحارث بن حازة اليشكري :

إرَمّيّ بمثله جالت الجن   فآبت لخصمها الأجـلاء

بأنها نسبة الى (إرم عاد) في قدم ملكه ، وقيل في حلمه[2] .

ونسب بعض أهل الأخبار لـ (عاد) ولداً ، دعوه (شداداً) قالوا : إنه كان قوياً جباراً ، سمع بوصف الجنة ، فأراد بناء مدينة تفوقها حسناً وجمالاً ، فأرسل عماله ، وهم : (غـانم بن علوان) ، و (الضحاك بن علوان) ، و (الوليد بن الريان) ، الى الآفاق ، ليجمعوا له جميع مـا في أرضهم من ذهب وفضة ودرّ وياقوت ، فابتنى بها مدينته ، مدينة (إرم) باليمن ، بين حضرموت وصنعاء ، ولكنه لم ينعم بها إذ كفر بالله ، ولم يصدق بنبوة (هود)، فهلك . وتولى من بعده ابنه (شديد)[3] .

وزعم بعض النسابين أن نسب (شداد) هو على هـذه الصورة : (شدّاد ابن عمليق بن عويج بن عامر بن إرم) ، فأبعدوه بذلك عن (عاد) . وقيل في نسبه غير ذلك[4] .

ويفهم من القرآن الكريم أن مساكن (عـاد) بالأحقاف ، (واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف)[5] . والأحقاف : الرمل بين اليمن وعُمان الى

---

١ BOASOR, Number, 73, P., 13., (1939).

٢ المعاني الكبير (٨٢٦/٢) .

٣ وقيل اخوه ، البلدان (١٩٨/١) ، « يقول اليمانية واكثر العلماء في البلاد : ان ارم ذات العماد في تيه ابين ، وهو غائط بين حضرموت وبين ابين » ، الاكليـل (٣٣/٨) .

٤ « عويج » ، البلدان (١٩٩/١) .

٥ سورة الاحقاف ، سورة رقم ٤٦ ، الآية ٢١ ، اللسان (٣٩٨/١٠)

حضرموت والشحر[1] . وديارهم بالدو والدهناء وعالج ويبرين ووبار الى عمان الى حضرموت الى اليمن . وقد اندفع أكثر الأخباريين يلتمسون مواضعهم في الصحارى ، لأنها أنسب المواضع التي تلائم مفهوم الأحقاف ، فوضعوا من أجل ذلك قصصاً كثيراً في البحث عن مواطن عاد وقبور عاد، ورووا في ذلك كثيراً من قصص المغامرات التي تشبه قصص مغامرات لصوص البحر[2] .

وفي بعض الأخبار : أن (عاداً) لحقت بالشحر ، فسكنت به، وعليه هلكوا بواد يقال له (مغيث) . فلحقتهم بعد (مهرة) بالشحر[3] . وقد سبق أن قلت : إن Oaditae الذين ذكرهم (بطلميوس) هم قوم (عاد) ، وإنهم كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة (حسمى) ، أي في أعالي الحجاز ، وعلى مقربة من مناطق ثمود . وهو أقرب الى الصواب، اذ اقترن ذكر عاد في القرآن بذكر (ثمود الذين جابوا الصخر بالواد)[4] . (حسمى) أقرب الى هذا الوصف من الرمال . ولم يعين القرآن موضع الأحقاف ، وانما عينه المفسرون ، ولا يحتم تفسيرهم تخصيص الأحقاف بهذا المكان ، حيث جعلوا رمال (وبار) في جملة المناطق التي كانت لعاد[5] .

وقد ذهب (موريتس) الى أن موضع (Aramaua) الذي ورد عند (بطلميوس) ، وهو (إرم) ، أو (إرم ذات العماد) . ويقال له الآن (رم)[6] . وقد أيد (موسل) رأي (موريتس) غير أنه لم يذهب الى ما ذهب اليه من أنه (إرم)[7] . وقد أظهرت الحفريات التي قام بها (المعهد الفرنسي) في القدس ، صحة هذا الرأي ، اذ ورد في الكتابات (النبطية) التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في (رم) أن اسم الموضع هو (إرم)[8] . فيتضح من

١ ابن خلدون (١٩/٢) ، « والحقف وجمعه احقاف ،وهي الرمال . وكانت الاحقاف رمالا قبل عمان الى حضرموت . قال : وكانت منازل عاد » ، المفضليات (١٥) « والاحقاف : رمال بأعبانها في اسفل حضرموت » ، منتخبات (٢)

٢ المعارف (١٤) .

٣ الطبري (٢٠٨/١) « دار المعارف » .

٤ الفجر ، سورة رقم ٨٩ ، آية ٩ .

٥ ديوان الطرماح ، « طبعة كرنكو » ، (١٤٨) .

٦ B. Moritz, Ausfluege in der Arabia Petraea, in MFOB, III, S., 395.

٧ Musil, The Northern Hegaz, P. 273, BOASOR, Number, 73, P. 15 (1939).

٨ BOASOR, Number, 73, P. 15, (1939).

ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم،غير أنه صار يعرف أخيراً بـ (رم) بدلاً من (إرم) .

وفي سنة ١٩٣٢ قام (هورسفيلد) Horsfield من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل (رم) ، ويقع على مسافة (٢٥) ميلاً الى الشرق من العقبة ، ويقع المكان الذي بحث فيه عند واد ، وعلى مقربة منه (عين ماء)،ووجد في جانب الجبل آثاراً جاهلية قديمة[١] . وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات (سافينياك) Savignac واكتشافات (كليدن) H. W. Glidden على القول : إن هذا المكان هو موضع (إرم) الوارد ذكره في القرآن،والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام ، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام — مصر — الحجاز[٢] .

وذكر (ياقوت الحموي) اسم مكان سمّاه (جش إرم)،قال عنه : إنه اسم جبل عند (أجأ) أحد جبلَيْ طيء ، أملس الأعلى ، سهل ترعاه الإبل، وفي ذروته مساكن لعاد وإرم ، فيه صور منحوتة من الصخر[٣] . ففرق (ياقوت) هنا بين عاد وإرم ، وجعلها قومين : قوم عاد وقوم إرم ، وقد تكون الواو بين الكلمتين زيادة من الناسخ، فيبطل حينئذ الاستدلال على تفريق ياقوت بينهما . وفي الكتب العربية أسماء محلات أخرى قديمة عثر فيها على نقوش وتماثيل،وصفت أنها من مساكن قوم عاد .

وبالإضافة الى المواضع التي أشير فيها الى (عاد) في القرآن الكريم[٤] ، فقد أشير اليهم في الشعر الجاهلي كذلك في شعر طرفة[٥] وفي شعر النابغة[٦] وفي شعر

---

١ BOASOR, Number 73, P 14, (1939), Revue Biblique, XLI, (1932), PP. 581, XLII, (1933), PP., 405, XLIII, (1934), PP., 572, XLIV, (1935), PP. 245.

٢ BOASOR, Number 73, P. 15, (1939).

٣ بالفتح والضم ثم التشديد ، النجفة وفيه ارتفاع ، البلدان (١٠٧/٣) .

٤ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، اية ٤٢ ، سورة الحاقة ، ٦٩ ، اية ٤،٦ ، سورة الفرقان ، ٢٥ ، اية ٣٨ ، سورة فصلت ، ٤١ ، اية ١٣ ، سورة الاعراف ، ٧ ، اية ٦٥ ، سورة هود ، اية ٥٠ .

٥ طرفة ١ ، ٨ ، Enc., Vol., I, P. 121.

٦ احلام عاد واجساد مطهرة من المعفة والافات والاثم
ديوان النابغة مع شرحه للبطليوسي (٧٤) ،
للبطليوسي (٧٤) ، Enc., Vol., I, P. 121.

زهير[1] وفي شعر الهُذَليين[2] ، وفي شعر طفيل بن عوف الغنوي[3] ، وفي شعر (متمم بن نُوَيْرَة) شقيق (مالك بن نويرة) ، وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام[4] ، وفي شعر (أمية بن أبي الصلت) ، وهو ممن عاش في أيام الرسول كذلك[5] ، وفي شعر غيرهم من الشعراء الجاهلين المخضرمين[6] .

وورد في شعر لزهير بن أبي سُلمى (أحمر عاد)[7] ، وضرب المثل بشؤم أحمر عاد ، فقيل : أشأم من أحمر عاد[8] . وجعل الشاعر (أبو خداش الهذلي) (كليب وائل) كأحمر عاد في الشؤم ، وذلك بسبب الحرب التي هاجت بين

---

١ فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
معلقة زهير ، البيت ٣٢ ، Enc., I, P., 121.

٢ ديوان الهذليين ، IXXX, 6 ، ٣١ ، ديوان هذيل ، ٣١، ٥

٣ شعر طفيل بن عوف الغنوي ، رواية ابي حاتم السجستاني عن الاصمعي (طبعة لوزاك ١٩٢٧) ، سلسلة « كب » بعناية « ف . كرنكو » ، (ص ١٣٥ ، ١٤٨) .
« لنا الجبلان من ارمان عاد » .

٤ افنين عادا ثم ال محرق فتركنهم بلدا وما قد جمعوا
شرح المفضليات (ص ٧٨) ، (٢٤/٢) ، ملحوظة ٤٠ ، المفضليات (ص ١٤) « طبعة السندوبى » .

٥ فقال : الا لا تجزعي وتكذبي ملائكة من رب عاد وجرهم
ديوان « امية بن ابي الصلت » ، « طبعة بشير يموت » (ص ٥٨) ، بيروت ١٩٣٨
Friedrich Schulthess, Uman Ibn Abi-Salt, Leipzig, 1911, S. 48.

٦ سويد بن ابى كاهل :
غلبت عادا ومن بعدهم فابت بعد فليست تتضع
المفضليات (٤٠٤) ، قول « صريم بن معشر بن ذهل » الملقب بأفنون من شعراء الجاهلية :
لو انني كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ولقمان ومن جدن
المفضليات (ص ٥٢٥) ، وقال الطرماح بن حكيم :
لنا الجبلان من ارمان عاد ومجتمع الالاءة والغضاة
ديوان الطرماح (ص ١٣٥) ، (سلسلة كب) ، لندن ١٩٢٧ ، بعناية « كرنكو » .

٧ فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
معلقة زهير ، بيت ٣٢ .

٨ الامثال (ص ١١) ، « طبعة حيدر اباد الدكن » ، ابن قتيبة الدينوري ، المعاني الكبير (٨٧٩/٢ ، ١٠٢٣) .

بكر وتغلب[1] . وقد نص (ابن قتيبة الدينوري) على أن المراد من (أحمر عاد) (أحمر ثمود) الذي عقر الناقة[2] .

ويدل ورود خبر (عاد) في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي على أن القصة كانت شائعة بين عرب الجاهلية معروفة عندهم ، وأنهم كانوا يتصورون أن قوم (عاد) كانوا من أقدم الأقوام ، ولذلك ضُرب بقدمهم المثل حتى إنهم كانوا ينسبون الشيء الذي يريدون أن يبالغوا بقدمه ، الى عاد ، فيقولون إنه (عادي). وإذا رأوا أثراً قديماً أو أطلالاً قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها ، قالوا إنها عادية ، أي من أيام عاد[3] . وإذا رأوا بناءً قديماً لا يعرفون صاحبه ، قالوا إنه بناء عادي[4] . وقد تحدث (المسعودي) عن أشجار عادية ، أي قديمة جداً[5] . ولهذا السبب رأى (ولهوزن)[6] أن كلمة (عاد) لم تكن اسم علم في الأصل ، بل كان يراد بها القدم ، وأن كلمة (عادي) تعني منذ عهد قديم جداً ، وكذلك كلمة (من عاد) أو (من العاد) ، أو من (عهد عاد) . وان المعنى هو الذي حمل الناس على وضع تلك الأساطير عن أيام (عاد)[7] .

وقد جعل بعض الشعراء أيام (عاد) من أوليات الزمان ، التي جاءت بعد (نوح)[8] وجعل بعض آخر لفظة (إرمي) ؛ بمعنى (عادي) ، أي قديم

---

١ المعاني الكبير (١٠٢٣/٢) .

٢ المعاني الكبير (٨٧٩/٢ ، ١٠٢٣) .

٣ لعادية من السلاح استعرتها ... وكان بكم فقر الى الغدر او عدم
المفضليات (ص ٦١٣) ، « والعادي الشيء القديم » ، اللسان (٣١٧/٤) ، الحماسة « طبعة فرايتاغ » Freytag (١٩٥/١ ، ٣٤١) ، Causin de Perceval, Essai, Vol. I, P. 259, Blochet, Le Culte D'Aphrodite.

٤ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S., 512.

٥ المصدر نفسه .

٦ قال أبو دواد الايادي :

الا ابلغ خزاعة اهل مر ... واخوتهم كنانة عن اياد
تركنا دارهم لما ثرونا ... وكنا اهلها من عهد عاد

التنبيه والاشراف (ص ١٧٥) ، « طبعة الصاوي » .

٧ Wensick, P., 13.

٨ وقال بعض طيء :

وبالجبلين معقل ... صعدنا اليه بسمر الصعاد
ملكناه في اوليات الزمان ... من بعد نوح ومن قبل عاد

الاكليل (٩٠/١) .

كأنه من عهد إرم وعاد ، أو كأنه في الحكم من عاد[1] .

وقد ضرب المثل في القرآن الكريم بقدم (قوم نوح) وقوم (عاد وثمود) حتى إن أخبارهم خفيت عن الناس فلا يعلمها إلاّ الله : (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) ، وفي ذلك دلالة على أن الناس في أيام الرسول كانوا يرون أن الأقوام المذكورة هي من أقدم الأقوام ، ولهذا ذكروا بهم للاتعاظ[2] .

وقد ورد ذكر عاد في الكتاب الذي وجهه (يزيد بن معاوية) الى أهل المدينة يهددهم فيه بمصير يشبه مصير (عاد وثمود) ، حيث ينزل بهم عقاباً شديداً ويصيرهم حديثاً للناس ، (واتركم أحاديث تنسخ بها أخباركم مع أخبار عاد وثمود)[3] . وقال (سبيع) لأهل اليمامة : « يا بني حنيفة بعداً كما بعدت عاد وثمود »[4] .

وضرب المثل برجل من (عاد) اسمه (ابن بيض) ، زعموا أنه كان من عاد ، وكان تاجراً مكثراً عقر ناقة له على ثنية ، فسد بها الطريق على السابلة ، فضرب به المثل[5] .

وزعم أهل الأخبار أن رجلاً غنياً من بقية (عاد) اسمه (حمار) كان متمسكاً بالتوحيد ، فسافر بنوه ، فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم ، فأشرك بالله وكفر بعد التوحيد ، فأحرق الله أمواله وواديه الذي كان يسكن فيه فلم ينبت بعده شيء . ويزعمون أن (امرأ القيس) الشاعر ذكر ذلك الوادي في شعر له[6] .

ويذكر أهل الأخبار أن المكان الذي كان فيه (حمار) المذكور هو(جوف)، وهو موضع في ديار عاد ، وقد نسب اليه ، فقيل (جوف حمار) ، نسبة الى

---

١ الاكليل (٨٩/١ وما بعدها) .
٢ التنبيه والاشراف (ص ٨٢) .
٣ عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٢٠٢/١) .
٤ المصدر نفسه (٢٣٣/١) .
٥ ورد في شعر بشامة بن عمرو :

كثوب ابن بيض وقاهم به ... فسد على السالكين السبيلا

المفضليات (ص ١٦) « طبعة السندوبي » .

٦ ووداد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوي كالخليع المعيل

سرح المعلقات السبع ، للزوزني ، (ص ٢٨) « طبعة دار صادر » .

(حمار بن مويلع) ، فلما أشرك بالله وكفــر ، أرسل الله ناراً عليه فأحرقته وأحرقت الجوف أيضاً ، فصار ملعباً للجن لا يستجرىء أحد أن يمر به،والعرب تضرب به المثل ، فتقول : (أخلى من جوف حمار)[1] .

هود :

ويرد مع قوم (عاد) ذكر نبي منهــم ، هو (هود) ، وقد نعت في القرآن الكريم بـ (أخي عاد) : « والى عادٍ أخوهم هوداً ، قال : يا قوم، اعبدوا الله »[2] . كما نعت القرآن عاداً بقوم هود : « ألا ، إن عاداً كفــروا ربهم،ألا بُعْداً لعادٍ قوم هود »[3] . « قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح»[4]. وقد نسبه الناسبون الى (الخلود بن معيد بن عاد)[5] ، والى (عبدالله بن رباح ابن جاوب بن عاد بن عوص بن إرم)[6] ، والى (عبدالله بن رباح بن الخلود ابن عاد بن عوص بن إرم)[7]،ومن أهل الأنساب من زعم انه (عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح) ، الى غير ذلك من روايات[8] .

وقد وردت قصته مع قومه ونهيه لهم عن عبادة الأصنام في القرآن الكريم[9] . وقد ضرب المثل بكفر رجل من عاد ، اسمه (حمار) ، فقيـل :(أكفر من حمار) ، قالوا : «هو رجل من عاد ، مات له أولاد ، فكفر كفراً عظيماً ، فلا يمر بأرضه أحد الا دعاه الى الكفر ، فإن أجابه ، والا قتله »[10] . وذلك على نحو ما ذكرته عنه قبل قليل . وهي قصة واحدة ، رويت بطرق متعددة ،

---

١ البكري ، معجم (٤٠٥/١) .
٢ الأعراف ٧ ، اية ٦٥ ، سورة هود ، ١١ ، اية ٥٠ ، الشعراء ، ٢٦ ، اية ١٢٤ .
٣ هود ، ١١ ، اية ٦٥ .
٤ هود ، ١١ ، آية ٨٩ .
٥ نهاية الارب (٥٢/١٣) ، الاكليل (٩٣/١) .
٦ المعارف (١٤) .
٧ الطبري (٢١٦/١) « دار المعارف » .
٨ الطبري (٢١٦/١) ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (١٢٠/١)
٩ سورة هود ، ١١ ، اية ٦٥ ، ٧٩ ، الشعراء ، ٢٦ ، اية ١٢٤ ، الاعراف ٧ ، ايــة ٦٥ .
١٠ اللسان (٢٩٥/٥) .

تختلف في التفاصيل ، لكنها متفقة من حيث الفكرة والجوهر ، وعليها طابع قصص الوعّاظ وأهل الأخبار . وقد ذكر أصحاب الأخبار أن غالبية (عاد) كفرت بنبوة (هود) ، ولم تؤمن به ، لهذا أصابها العذاب والهلاك . ولم ينج منهم الا من آمن بـ (هود) واتبعه وسار معه حين ترك قومه : قوم عاد .

وقد نبه المستشرقون الى وجود شبه بين هود و (هود) الواردة في القرآن أيضاً بمعنى (يهود)[1] : « وقالوا كونوا هوداً ، أو نصارى ، تهتدوا »[2] . وأشاروا الى أن (هوداً) تعني التهود ، أي الدخول في اليهودية ، كما لاحظوا ان بعض النسّابين قالوا ان هوداً هو (عابر بن شالح بن أرفكشاد) جد اليهود ، فذهبوا الى أن هوداً لم يكن اسم رجل ، وانما هو اسم جماعة من اليهود هاجرت الى بلاد العرب ، وأقامت في الأحقاف ، وحاولت تهويد الوثنيين ، وعرفوا بيهوذا ، ومنها جاءت كلمة (هود)[3] ، وانها استعملت من باب التجوز علماً لشخص[4] .

وزعم الرواة ان هوداً ارتحل هو ومن معه من المؤمنين بعد النكبة التي حلت بقومه الكافرين من أرض عاد الى الشحر . فلما مات دفن بأرض حضرموت[5] . ويدعي الرواة انه قبر في وادٍ يقال له (وادي برهوت) غير بعيد عن (بئر برهوت) التي تقع في الوادي الرئيسي للسبعة الأودية[6] . وهي من الآبار القديمة

---

١ اللسان (٤٥١/٤) ، القاموس (٣٤٩/١) ،
Enc., Vol. 2, P. 327. f., Hirschfeld, Beitraege zu Erklaerung des Koran, Leipzig, 1886, S., 17, Note, 4.

٢ البقرة ، ٢ ، اية ١١١ ، ١٣٥ ، ١٤٠

٣ الهلال ، ٢٣ ، سنة ٦ ، جزء اب ، ١٨٩٨ (ص ٨٩٤) .

٤ « والهود : جمع هائد ، وهو التائب ، والهود : اليهود ، قال الله تعالى : « كونوا هودا أو نصارى » . التهويد : المشي الرويد ، وفي حديث عمران بن حصين : اذا مت فخرجتم بي فأسرعوا المشي ولا تهودوا كما تهود اليهود والنصارى » ، « وهود الانسان ولده : أي جعله على دين اليهود » ، منتخبات (ص ١١١ وما بعدها) ، Enc. Vol., 2, P., 328.

٥ « قال الواقدي : « ما يعلم موضع قبر نبي من الانبياء ، الا ثلاثة : قبر اسماعيل فانه تحت الميزاب بين الركن والبيت ، وقبر هود ، فانه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندى وموضعه اشد الارض حرا ، وقبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فان هذه قبورهم بحق » ، الطبقات ، القسم الاول من الجزء الاول (ص ٢٥) ، « تحقيق سخو » ، نهاية الارب (٦٠/١٣) ، Forster, Vol., 2, PP., 374.

٦ البكري ، تأريخ حضرموت السياسي (٦٥/١ فما بعدها) .

التي اشتهرت في الجاهلية بكونها شر بئر في الأرض ، ماؤها أسود منتن، تتصاعد من جوفها صيحات مزعجة ، وتخرج منها روائح كريهة ، ولذلك تصور الناس انها موضع تتعذب أرواح الكفار فيه[1] .

ويذهب السياح الذين زاروا هذا المكان ودرسوه الى انه موضع بركان قديم ، يظهر أنه انفجر ، فأهلك من كان حوله . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في الكتب العربية من أنه كان يسمع لهذا المكان أصوات كالرعد من مسافات ، وانه كان يقذف ألواناً من الحمم يسمع لها أزيز راعب[2] . ومن هنا نشأت قصة قبر هود، وعذاب عاد في هذا الموضع ، على رأي المستشرق (فون كريمر)[3] .

ولا يزال هذا الموضع الذي يقال له (قبر هود) ، يزار حتى الآن، يقصده الناس من أماكن بعيدة في اليوم الحادي عشر من شعبان للزيارة ، وربما كان من الأماكن التي كان يقدسها الجاهليون[4] .

وفي هذه المناطق آثار مدن بائدة ، وقرى جاهلية ، وتشاهد كهوف ومغاور على حافتي الوادي ، وكتابات وصور منقوشة على الصخور تدل كلها على أنها كانت من المناطق المأهولة ، وأنها تركت لسبب آفات وكوارث طبيعية نزلت بهذه الديار[5] .

ورأى نفر من المستشرقين أن هذا المكان الذي فيه قبر (هود) هو الموضع الذي سماه الكتّاب اليونان Styx أو Stygis ، والذي زعم الرومان أن قبيلتين من قبائل جزيرة (اقريطش) (كريت) وهما قبيلة Minos و (رودومانتس)

---

١ البلدان (١٥٧/٢) ، « خير بئر في الارض زمزم ، وشر بئر في الارض برهوت »، منتخبات (ص ٧) ، « برهوت واد معروف قيل هو بحضرموت ، وفي حديث علي عليه السلام : شر بئر في الارض برهوت . هي بفتح الباء والراء ، بئر عميقة بحضرموت لا يستطاع النزول الى قعرها . ويقال : برهوت بضم الباء وسكون الراء » ، اللسان (١٤٣/١) ، (٣١٤/٢) .

٢ تأريخ حضرموت السياسي (٦٧/١) .

٣ « ويفيض وادي ثوبة الى بلد مهرة ، وحيث قبر هود النبي ، صلى الله عليه ، وقبره في الكثيب الاحمر ، ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الاحقاف ، وهو واد يأخذ من بلد حضرموت الى بلد مهرة مسيرة ايام ، واهل حضرموت يزورونه هم واهل مهرة في كل وقت » ، صفة (ص ٧) ،
von Kremer, Uber die Suedarabische Sage, S., 21.

٤ تأريخ حضرموت السياسي (٦٢/١) ، Enc., Vol., I, P., 634.

٥ تأريخ حضرموت السياسي (٦٢/١) ، الهلال : الجزء السادس عشر ، السنة السادسة ، نيسان ١٨٩٨ (ص ٦٠٥) .

Rhodomantys تركتا موطنهما الأصلي، وارتحلتا الى هذا المكان الذي ضم مئات من القبائل العربية ، فكانتا من أقواها . وقد سكنتا في رأيهم ، على مقربة من موضع سماه (بلينيوس) Stygis Aguniae Fossa [1] .

أما الأخباريون الذين زعموا أن (هوداً) اعتزل قومه بعد يأسه من قبول دعوته ، وأنه ذهب مع من آمن به الى مكة ، فقد ذهبوا الى أنه عاش فيها أمداً ، ثم مات هناك ، فقبره بمكة مع قبور ثمانية وتسعين نبياً من الأنبياء[2] . وذكر جماعة أنه بدمشق في المسجد الأموي[3] . ولعل القصص الوارد عن (دمشق) ، وأنها (إرم ذات العماد) هو الذي أوحى الى هؤلاء فكرة جعل قبر (هود) بدمشق . ومهما يكن من شيء فإن هناك جماعة من أهل الأخبار قبرت بعض الأنبياء في هذه المدينة ، واختارت المسجد الأموي نفسه مقبرة لهم . ولعل ذلك بسبب أن هذا المسجد كان كنيسة معظمة قديمة عند أهل دمشق قبل دخولهم في الإسلام ، وكان قد قبر فيها جماعة من قدّيسيهم ورجال دينهم ، فلما تحولت الكنيسة الى جامع تحولت قبور هؤلاء بعواطف الناس القديمة الى قبور أنبياء . وقد ظهر مثل هذه الروايات التي تمجد الجامع الأموي في الوقت الذي تحصن فيه (ابن الزبير) بمكة ، وتحزب أهل الحجاز على الأمويين .

وقد اتخذ القحطانيون هوداً جداً من أجدادهم ، وألحقوا نسبهم به ، وتفاخروا به[4] . فعلوا ذلك بدافع العصبية والمفاخرة على العدنانيين الذين كانوا يقولون إن فيهم الأنبياء ، ولم يكن في قحطان نبي ، فأوجد نسّابوهم نسباً يوصلهم الى الأنبياء ، كما أوجدوا لهم نسباً احتكر لهم العروبة ، وجعلهم الأصل والعدنانيون من الطارئين عليهم ، كما سيأتي الحديث عن ذلك .

---

١ Enc. Vol. I, P. 654, Wensinck, P. 175.

٢ اخبار مكة ، للازرقي (٣٠/١ وما بعدها) ، Enc., Vol. 2, P. 327.

٣ رحلة ابن بطوطة (٢٠٥/١) ، (٢٠٣/٢) « طبعة باريس » .

٤ « هود النبي ، عليه السلام ، المرسل الى عاد المذكور في القرآن ، هو أبو قحطان قحطان بن هود . قال حسان :

ابونا نبي الله هود بن عابر

وهو هود بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح النبي » ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، نهاية الارب (٥١/١٣) ، ديوان النابغة مع شرحه للبطليوسي (ص ٦٣ فما بعدها) التنبيه والاشراف (ص ٧١) « طبعة الصاوي » .

وإذا صح أن الشعر المنسوب إلى حسّان بن ثابت الذي افتخر فيه بانتسابه الى (هود بن عابر) ، وبأن قومه وهم من (قحطان) منهم ، هو لهذا الشاعر حقاً ، يكون لدينا أول دليل يثبت أن هذا الانتساب كان معروفاً عند ظهور الإسلام[١] . وأن أهل (يثرب) ، وهم من الأوس والخزرج ، وهم من قحطان في عرف النسّابين ، كانوا قد انتسبوا اليه قبل الإسلام . أخذوا ذلك من اليهود النازلين بينهم ، الذين كانوا يحاولون التقرب الى أهل يثرب، للعيش معهم عيشة طيبة . فأشاعوا بين الناس أن (عابراً) ، وهو جد العبرانيين ، ووالد ولدين هما (فالغ) و (يقطان) كان جدّهم وجد أهل يثرب ، لأن أصلهم من يقطان ، وأن علاقتهم لذلك بهم هي علاقة أبناء عمّ بأبناء عم . ولما نزل الوحي بخبر (هود) ، وتفاخر المكّيون على أهل يثرب بالإسلام ، استعار أهل يثرب (هوداً) ، وصيروه (قحطاناً) ، أو ابناً له ، وانتسبوا اليه، ليظهروا بذلك انهم كانوا أيضاً من نسل نبي ، وان نبوءة قديمة كانت فيهم ، وقد كان (حسّان بن ثابت) من المتعصبين للأزد قوم أهل يثرب، والأزد من قحطان ، وكان من المتباهين بيمن وقحطان .

لقمان :

ومن قبائل عاد قبيلة كان فيها (لقمان) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي وفي القصص[٢] . وقد ضرب به المثل بطول العمر ، فعدّ في طليعة المعمرين[٣] ، وعدّه (أبو حاتم السجستاني) ثاني المُعَمَّرين في العالم بعد

---

١ « ابونا نبي الله هود بن عابر » ، وسأتكلم عن ذلك في موضع اخر من هذا الكتاب وعندي انه متحول ، وانه حمل عليه .

٢ سورة لقمان ، تفسير الطبري (٢١/٣٩) « القاهرة ١٣٢١ هـ » ، قال صريم بن معشر بن ذهل المعروف بـ « افنون » :
لو انني كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ولقمان ومن جدن
المفضليات (ص ٥٢٥) ، ديوان النابغة مع شرحه للبطليوسي (ص ٧٥) .
نمين فلا لـه في سوق راس الى لقمان في سوق مقام
البيان والتبيين (١/٢٣)

٣ Enc., Vol., 3, P. 35, Goldziher, Abhandlungen zur arabischen Philologie, S. 2, Leiden, 1899, Rene Basset, Loqman Berbere, Paris, 1890, Wensinck, P. 365.

الخضر[1] . وقد كان عرب الجاهلية يعرفون قصص (لقمان) ، وكانوا يصفونه بالحكمة . وقد وُصف في القرآن الكريم بهذه الصفة : « ولقد آتينا لقمان الحكمة »[2] . ولهذا السبب عرف بين الناس وفي الكتب بـ (لقمان الحكيم) . وذكر عنه انه كان (حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان)[3] وانه طلب من الله أن يُعمّر طويلاً فأعطاه طلبه : وعُمّر عمر سبعة أنسر ، وذكر الأخباريون أن آخر نسر أدركه ، وهلك بهلاكه اسمه (لبد) . قالوا واليه يشير (النابغة) بقوله :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد[4]

وقد أكثرت العرب في صفة طول عمر النسر ، وضربت به الأمثال . وبلبد ، وبصحة بدن الغراب . وذكروا في ذلك شعراً ، منه ما نسب الى (الخارجي) في طول عمر (معاذ بن مسلم بن رجاء) ، مولى القعقاع بن حكيم :

يا نسر لقمان ، كم تعيش ، كم تلبس ثوب الحياة يا لُبَدُ ؟
قد أصبحت دار حِمْيَر خربت وأنت فيها كأنك الوتدُ
تسأل غِرْبانها اذا حَجَلَتْ كيف يكون الصداع والرَّمدُ[5] ؟

ويذكر أهل الأخبار ان (لقمان) قد عرف لذلك بـ (لقمان النسور)، لأنه عمّر عمر سبعة نسور[6] . وذكر بعض أهل الأخبار انه عمّر مائة وخمسين سنة ، وانه لما مات قبر بحضرموت ، أو بالحجر من مكة[7] . وهو عمر لا يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار من طوله ، ومن انه يعادل عمر سبعة نسور . أما

---

١ ابو حاتم السجستاني : كتاب المعمرين « طبعة كولدتزيهر » ، (ص ٢) ، Goldziher, Abhandlungen, 2, S. 2, Enc., Vol., 3, P. 35.
٢ سورة لقمان ٣١ ، اية ١٢ .
٣ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) .
٤ الفاخر (ص ٦٨) ، الطبري (٢٢٣/١) ، « دار المعارف » ، عيون الاخبار (٥٩/٤) ، نهاية الارب (٦٠/١٣ وما بعدها) ، ابو الفداء ، المختصر (٢١/١ وما بعدها) ، « دار الكتب اللبنانية » ، الكامل ، لابن الاثير ، (٤٩/١ وما بعدها) .
٥ مروج الذهب (٩٢/٢ وما بعدها) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .
٦ نهاية الارب (٦٠/١٣ وما بعدها) .
٧ الكامل ، لابن الاثير (٤٩/١ وما بعدها) .

(السجستاني) ، فجعل عمره خمسمائة سنة وستين . وهو عدد أخذه من عمر النسور المذكورة ، اذ عاش كل نسر ثمانين عاماً ، والعدد المذكور هو مجموع عمر تلك النسور السبعة . غير ان من الأخباريين من أعطاه عمراً قدره بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة[1] . وهو عمر يؤهله ولا شك لأن يكون في عداد المعمرين .

وقد ورد اسم لقمان على انه اسم خمّار في شعر منسوب للنابغة حيث يقول :

كأن مشعشعاً من خمر بصرى نمته البخت مشدود الخيام
حملن قلاله من بين رأس الى لقمان في سوق مقام[2]

وجعلوا للقمان نسباً هو (لقمان بن عاد)[3] ، وصيروه (لقمان بن ناحور بن تارخ) ، وهو (آزر) أبو (ابراهيم)[4] . وقال بعضهم : بل هو ابن أخت (أيوب) ، أو ابن خالته ، وجعله آخرون من حمير ، فقالوا له : (لقمان الحميري)[5] ، وصيره آخرون قاضياً من قضاة (بني اسرائيل)[6] . وقد اشتهر عند المسلمين بالقضاء ، ويظهر أن هذا السبب هو الذي جعل الواقدي يقول : إنه كان قاضياً في بني اسرائيل . ولم يفطن الأخباريون الى هذه الأخبار المتناقضة التي تخالف رواياتهم في عاد ، وأنها من أمم العرب البائدة ، إلا اذا جعلناه من الطارئين على قوم عاد الداخلين فيهم ، فهو غريب بين قوم عاد .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن الأخباريين كانوا يرون وجود لقمان آخر ، هو غير لقمان عاد . فقد زعموا أنه كان في عهد (داوود) لقمان ، عرف بـ (لقمان الحكيم) . وقد نسبه بعضهم على هذا النحو : (لقمان بن عنقاد) ، وقد زعم (المسعودي) ، أنه كان نوبياً ، وأنه كان مولى للقين ابن جسر ، وولد على عشر سنين من ملك داوود ، وكان عبداً صالحاً ، منّ اللهُ عليه بالحكمة ، ولم يزل باقياً في الأرض مظهراً للحكمة في هذا العالم الى

---

١ المعمرون (ص ٤) » طبعة عبد المنعم عامر » .
٢ البكري ، معجم (١١٦١/٣) .
٣ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) ، نهاية الارب (٦٠/١٣) ، البيان والتبيين (١٧٤/٣) .
٤ قصص الانبياء ، للثعالبي ، (ص ٢٠٥)
٥ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) .
٦ قصص الانبياء (ص ٢٠٥) .

أيام يونس بن متى حين أرسل الى أرض نينوى في بلاد الموصل[1] .

وهنالك من فرّق بين (لقمان بن عاد) وبين (لقمان) المذكور في القرآن، قال الجاحظ : (وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر ، ولقيم بن لقمان في النباهة والقدر وفي العلم والحكم ، في اللسان وفي الحلم، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون)[2] . وقد أورد الجاحظ جملة أبيات للنمر بن تولب في لقمان ولقيم[3] .

وقد ذكر الجاحظ أنه كانت للقمان أخت محمقة ؛ تلد أولاداً حمقى ، فذهبت الى زوجة لقمان ، وطلبت منها أن تنام في فراشها حتى يتصل بها لقمان ، فتلد منه ولداً كيساً على شاكلته ، فوقع عليها فأحبلها بـ « لقيم » الذي أشرت اليه ، فهو ابن لقمان اذن من أخته . وقد أورد الجاحظ في ذلك شعراً جاء به على لسان الشاعر المذكور ، أي : (النمر بن تولب) ، زعم أنه نظمه في هذه القصة[4] وزعم الجاحظ أيضاً أن لقمان قتل ابنته (صُحرا) أخت (لقيم) ، وذلك أنه كان قد تزوج عدة نساء كلّهن خنّه في أنفسهن ، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه (صحرا) ابنته فوثب عليها فقتلها ، وقال : (وأنت أيضاً امرأة) . وكان قد ابتلي بأخته على نحو ما ذكرت ، فاستاء من النساء . وضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان ابنته صحرا ، وقد أشير الى ذلك في شعر لـ (خفاف بن ندبة)[5] .

وقد أشير الى (حي لقمان) في شعر لأبي الطحان القيني[6] ، كما أشير اليه

---

١ ابو الفداء : المختصر (٢١/١ وما بعدها) ، مروج الذهب (٥٧/١ وما بعدها) ، منتخبات (ص ٩٥ وما بعدها) ، ابن كثير ، البداية (٢٦/٢) ، « مطبعة السعادة » ، تفسير ابن كثير (٤٤٣/٣ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (١٣٤/٧ وما بعدها) ، البلدان (٣ / ٦٠٩) ، تفسير الفخر الرازي (٧١/٧) ، تفسير الطبري (٦٧/٢١) ، الحيوان ، للجاحظ (٢١/١) .

٢ البيان والتبيين (١٣٦/١) .

٣ البيان والتبيين (١٣٦/١) ، (١٦١/١) « القاهرة ١٩٣٤ م » ، نهاية الارب (٦١/١٣) .

٤ البيان والتبيين (١٦١/١) .

٥ الحيوان (٢١/١) « طبعة الحلبي » .

٦ امست بنو القين افراقا موزعة كانهم من بقايا حي لقمان
البيان والتبيين (١٦٤/١) .

في شعر ينسب الى (لبيد بن ربيعة الجعفري)[١] . وفي شعر للفرزدق[٢] ، وفي شعر لبنت وثيمة بن عثمان ترثي به أباها[٣] .

وأضافوا الى (لقمان) أمثالاً كثيرة نسبت اليه في الإسلام ، ولم تكن معروفة في الجاهلية[٤] . ونسب اليه بعض الأخباريين الميل الى انشاء المدن والبناء ، وضربوا به أيضاً المثل في كثرة الأكل ، فقالوا : (آكل من لقمان)[٥] .

وزعم (وهبه بن منبّه) انه قرأ من حكمة (لقمان) نحواً من عشرة آلاف باب[٦] ، وزعم الرواة ان عرب الجاهلية كانت عندهم (مجلة لقمان) ، وفيها الحكمة والعلم والأمثلة[٧] ، وان جماعة منهم كانوا قد قرأوها وامتلكوها ، ذكروا من جملتهم (سُوَيْد بن الصامت) . وقد رووا انه كان يقرأها ، وانه أخبر الرسول بها لما قدم عليه[٨] . وقد جمع الناس ، فيما بعد، حكمته وأمثاله والقصص المروي عنه ، ويشبه ما نسب اليه المنسوب الى (ايسوب) Aesop صاحب الأساطير والحِكَم والأمثال الموضوعة على لسان الحيوانات عند اليونان[٩] .

وبالغوا في حكمته وفي علمه حتى زعم انه كان يدرك من الأشياء ما يعجز عن ادراكه الانسان السوي[١٠] . وضرب المثل في أيساره ، وعظم أمره ، حتى قيل (أيسار لقمان) ، كالذي ورد في شعر (طرفة) .

وورد في الأخبار : « اذا شرف الأيسار ، وعظم أمرهم قيل : هم أيسار لقمان . يعنون لقمان بن عاد » . واستشهدوا على ذلك ببيت طرفة :

وهُم أيسارُ لقمانٍ ، اذا   أغلت الشتوةُ أبْداء الجُزُرْ[١١]

---

١ واخلف قساليتني ولعلني   واعى على لقمان حكم التدبر
البيان والتبيين (١/١٦١) .
٢ البيان والتبيين (١/١٦١)
٣ البيان والتبيين (١/١٦١) .
٤ اللسان (١٦/٢٠ وما بعدها) ، Enc., Vol., 3, P., 35.
٥ مجمع الامثال ، للميداني (١/٩٨) .
٦ المعارف (ص ٢٥)
٧ Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Bd. I, S. 93.
٨ امثال لقمان الحكيم ، « طبعة ديرنبورغ » ، لندن (١٨٥٠)
٩ Sprenger, Das Leben. I, S. 93.
١٠ المعاني الكبير (٣/١١٩٣)
١١ المعاني الكبير (٣/١١٥٢) .

وقد زعم أن (زرقاء اليمامة) ، التي اشتهرت بحدة بصرها وقوة رؤيتها حتى انها كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام ، كانت امرأة من بنات لقمان بن عاد ، وكانت ملكة اليمامة واليمامة اسمها ، فسميت الأرض باسمها . وقد زعم ان النابغة الذبياني أشار اليها في شعره[1] .

وقد ورد في بعض الأشعار (لقمان بن عاد) . اذ جاء :

تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

وهناك أمثلة عديدة ينسبها الرواة الى (احدى حظيات لقمان) ، ووردت على لسانها وعلى لسان لقمان وعلى لسان فتى اسمه عمرو[2] .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان لقمان بن عاد ، هو الذي بنى سدّ مأرب ، وأن مأرب اسم قبيلة من عاد ، وقد سمي باسمها هذا الموضع[3] .

لم يبق بعد هلاك عاد الأولى ، على رأي أهل الأخبار إلا هود ونفر ممن آمن به والوفد الذي سار الى مكة للاستسقاء ، وفيهم لقمان وكان من أكابر العاديين. فأنشأ هؤلاء عاداً الثانية ، وخالف لقمان (الخلجان) ملك عاد الأولى ، الذي خالف هوداً ، فهلك . وخاف العاديون انحباس المطر والجفاف ، فارتحلوا الى أرض سبأ ، وبنى لقمان سد (العرم) قرب مأرب ، وبقيت عاد الثانية قائمة ، الى أن تغلبت عليها قبائل قحطان ، ثم انقرضت وبادت[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان عاداً لما رأوا انحباس المطر عنهم ، أرسلوا وفداً ، بلغ سبعين رجلاً في قول بعض الرواة ، الى مكة يستسقون ، وكان أصحابها هم العمالقة يومئذ ، ورئيسهم (معاوية بن بكر) ، فأكرمهم وأضافهم، وأقاموا عنده شهراً : يشربون الخمر وتغنيهم (الجرادتان) وهما قينتان لمعاوية بن بكر، وفي الوفد المذكور لقمان . ونسوا أنفسهم هناك ، ولم يفطنوا لما جاؤوا اليه ،

---

١ واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام سراع وارد الثمد
قالت : الا ليتما هذا الحمام لنا الى حمامتنا أو نصفها فقد
شرح ابن عقيل لالفية ابن مالك ، (٢٩٠/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، القاهرة ١٩٦٢ م .

٢ الامثال ، للميداني (٣٧/١) ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٣ البكري ، معجم (١١٧١/٣) « لجنة التاليف والترجمة والنشر » .

٤ الطبري (٢٢١/١ وما بعدها) .

إلا بعد أن ذكرتهم (الجرادتان) بما جاؤوا به اليها ، فاستسقوا ، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية ، أهلكت عاداً في ديارها[1] ، ودمرت كل شيء ، فهلكت ، ولم يبق من عـــاد إلا من كان خارج أرضهم بمكة ، وهم من (آل لقيم بن هزال بن هزيل بن هزيلة ابنة بكر) ، فهم عاد الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد[2] .

وقد ذكر المؤرخون وأصحاب الأخبار أن (عاداً) تعبدوا لأصنام ثلاثة ، يقال لأحدها : صداء ، وللآخر صمود ، وللثالث الهباء[3] . ولم نعثر على أسماء هذه الأصنام حتى الآن في الكتابات .

وكان هلاك (عاد) واندثارهم بسبب انحباس المطر عنهم سنين ثلاثاً، أعقبه هبوب رياح عاتية شديدة استمرت (سبع ليال وثمانية أيام حسوماً)[4] فهلك الناس واقتلعتهم الرياح وصارت ترميهم من شدتها ، (كأنهم أعجاز نخـــل منقعر)[5] . (فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية[6]) وخلت ديارهم منهم ، وصارت أماكنهم أثراً .

ويجمع أهل الأخبار على أن هلاك عاد ، إنما كان بفعل عوارض طبيعيـــة نزلت بهم فأهلكتهم ، وهي عـــلى اختلاف رواياتهم في وصفها وفي شرحها ، انحباس الأمطار عنهم ، وهبوب رياح شديدة عاتية عليهم . وقد تحدث المفسرون عنها لورود ذكرهـــا في القرآن الكريم[7] . وروي أن النبي أشار الى أن هلاكهم وهلاك ثمود كان بالصواعق ، والصواعق من العوارض الطبيعية بالطبع[8] .

ويرجع قسط من أخبار (عـــاد) الى الجاهليين ، فهو من القصص الشعبي القديم الموروث عنهم ، ويعود قسط آخر منه الى الإسلاميين ، وهو القسط الذي

---

١ سورة الاحقاف ٢٤ ، اية ٢٥ .
٢ الطبري (٢١٨/١ فما بعدها) ، الفاخر (ص ٦٨) .
٣ الطبري (٢١٦/١) « دار المعارف » ، قصص الانبياء (ص ٣٩) ، نهايـــة الارب (٥١/١٣) ، الاصنام (١١٠ وما بعدها) ، « تحقيق احمد زكي باشا » ، مروج الذهب (٦١/٢) « طبعة دار الرجاء » .
٤ سورة الحاقة ، اية ٧ ، الطبري (٢٢٥/١ فما بعدها) .
٥ سورة القمر ، اية ٢٠ .
٦ الحاقة ، اية ٧ .
٧ ابن كثير ، البداية (١٢٠/١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤٣/٢٩) ، (القاهرة ١٩٣٨ م) ، (٩/٨) ، تاريخ ابن عساكر (١٤/١)
٨ القـــد الفريد (٣٦/٢) .

جاء شرحاً لما جاء موجزاً في القرآن الكريم ، ويرجع بعضه الى (الحارث بن حسان البكري) و (الحارث بن يزيد البكري) ، وتزعم رواية وردت في تأريخ الطبري أنه قص على الرسول قصصاً عن أمر (عاد)[1] ، ويرجع بعض آخر الى (كعب الأحبار) والى (وهب بن منبه) ، وهما من مسلمة يهود[2] ، والى (السدّى)[3]، والى أشخاص آخرين تجد ذكرهم في سند الروايات المذكورة عند (محمد بن اسحاق) صاحب السيرة ، وعند الطبري وعند آخرين من أهل الأخبار والتواريخ ممن ساروا على طريقة ذكر المسند مع الروايات .

ويظهر أن كثيراً من أخبار (عاد) وضعت في أيام (معاوية) الذي كان له ولع خاص بأخبار الماضين ، فجمع في قصره جماعة اشتهرت برواياتها هذا النوع من القصص ، وفي مقدمة هؤلاء (عُبَيْد بن شَرْيـة الجُرْهمي) و (كعب الأحبار)[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن رجلاً قصّ في أيام معاوية ، أن إبلاً له ظلت في تيه أبين ، وهو غائط بين حضرموت وأبين ، فالتقطها من هناك ، ووجد فيه موضع (إرم ذات العماد) ، ووصف أبنيته العجيبة ، وهذا الرجل هو في جملة من موّن العاشقين للأساطير بأخبار عاد . وقد ذكر الطبري أن (وهب بن منبه) ، قصّ أنه سمع من رجل اسمه (عبد الله بن قلابة) أن إبلاً له كانت قد شردت ، فأخذ يتعقبها ، فبينما هو في صحارى (عدن) ، وقف على موضع (إرم ذات العماد) ، وقد وصف ذلك الموضع على النحو المألوف عن (وهب) ، من اغراقه في الأساطير وفي القصص الخيالي البعيد عن العقل[5].

ثمود :

ويرد اسم ثمود في الكتب العربية مقروناً باسم (عاد) ، وبعد هذا الاسم

---

١ الطبري (٢١٧/١ فما بعدها) ، شمس العلوم (حـ ١ ، القسم الاول ، ص ٢٦٢)
٢ الطبري (٢٢٦/١) .
٣ الطبري (٢٢٥/١) .
٤ نهاية الارب (٦٢/١٣ فما بعدها) راجع قصة « ابن بيض » مع لقمان ، ويظهر انها من قصص الجاهلية ، المفضليات (ص ٩١) ، ديوان المفضليات (ص ٩١) « طبعة بيروت ١٩٢٠ م » .
٥ تفسير الطبرسي (٤٨٦/٩)

في الغالب ، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تأريخهم شيئاً ، انما روت عنهم قصصاً أوردتها لمناسبة ما ذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير . وقد وردت اشارات عنهم في الشعر الجاهلي[1] .

وجاء اسم (ثمود) في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، جاء منفرداً ، وجاء مقروناً باسم شعوب أخرى مثل قوم (نوح) وقوم (عاد) ، فبدأ بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود[2] . وجاء مع ثمود في موضعين (أصحاب الرس) ، جاءوا بعد (ثمود)[3] كما جاء اسمهم قبل (ثمود)[4] . وورد أيضاً ذكر قوم (لوط) و (أصحاب الأيكة) ، وقد تقدم في هذا الموضع اسم (ثمود) ، ودعت الآية أولئك : (الأحزاب)[5] ، كما ورد ذكر (ثمود) مع (عاد)[6] . وقد تقدم اسم (عاد) على ثمود الا في آية واحدة تقدم فيها اسم ثمود على اسم (عاد) : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة »[7] ، وورد اسم (ثمود) في آيات

---

١ ورد في الشعر المنسوب لامية بن ابي الصلت :

كثمود التـي تفتكت الدين عتيـا وام سقب عقيـرا

وذكر قصة الناقة ، رجع ديوانه (ص ٤٤) ، « طبعة فر . شلتيز » Fr. Schulthess « لايبزك ١٩١١ م » .
وورد في شعر لسلمة بن الحرث ، وهو من معاصري عمرو بن كلثوم :

حتـى تزور السبـاع ملحمة كانها من ثمود او ارما

راجع المفضليات (ص ٤٢٨) .
وورد اسم ثمود ايضا في شعر لجرير بن خرقاء العجلي :

ويـوم الحنو قد علمت معـد حصدناكم كمـا حصدت ثمـود

المفضليات (ص ٤٣٩) ، وورد في شعر لبيد اسم ارم وعاد وثمود ، ديوان لبيد ، (ص ٢٥) ، سبائك الذهب ، للسويدي (ص ١٥) .

٢ سورة التوبة ٩ ، الاية ٧٠ ، سورة ابراهيم ١٤ ، الاية ٩ ، سورة الحج ٢٢ ، الاية ٤٢ ، سورة غافر ٤٠ ، الاية ٣١ .

٣ « وعادا وثمودا وأصحاب الرس » ، سورة الفرقان ٢٥ ، الاية ٣٨ .

٤ سورة ق ، ٥٠ ، الاية ١٢ .

٥ سورة ص ، ٣٨ ، الاية ١٣ .

٦ سورة العنكبوت ٢٩ ، الاية ٣٨ ، سورة فصلت ٤١ ، الاية ١٣ ، سورة النجم ٥٣ ، الاية ٥١ .

٧ سورة الحاقة ، ٦٩ ، الاية ٤ .

أخرى من القرآن الكريم[1] .

وقد ذكر الطبري ان شعراء الجاهلية ذكرت في شعرها عاداً وثمود ، وان أمرهما كان معروفاً عند العرب في الشهرة قبل الإسلام،وأن من يظن أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون عاداً أو ثموداً فإنه على وهم وخطأ[2] .

ويظهر من ورود ذكر (ثمود) في مواضع متعددة من القرآن ، لترهيب (الكفّار) من العاقبة التي آلت اليها حالة (ثمود) بعد أن استحبّوا العمى على الهدى ، واستمروا بطغواهم كما استمر طغيان (فرعون)[3] وقوم (مدين)[4] وغيرهم ممن ذكرناهم ، أن الجاهليين كانوا يعلمون مصير ثمود ومصير عاد الذي كان من نوع مصير ثمود[5] ، وأنهم كانوا يعرفون منازلهم كالذي يظهر بجلاء من الآية : (وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم)[6] معرفة جيدة، ولم يعين القرآن الكريم موضع منازل (ثمود) ، وإنما يظهر من آية : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد[7]) ، أن مواضعهم كانت في مناطق جبلية ، أو في هضاب ذات صخور . وقد ذكر المفسرون أن معنى (جابوا الصخر) قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً[8] ، وأن (الواد) هو وادي القرى . فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن . وقد عين أكثر الرواة (الحجر) على أنه ديار ثمود ، وهو قرية بوادي القرى . وقد زارها بعض الجغرافيين وعلماء البلدان

---

١ سورة الاعراف ٧ ، الاية ٧٣ ، سورة هود ١١ ، الاية ٦١ ، ٦٨ ، ٩٥ ، سورة الاسراء ، ١٧ ، الاية ٥٩ ، سورة الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٤١ ، سورة النمل ، ٢٧ الاية ٤٥ ، سورة الذاريات ٥١ ، الاية ٤٣ ، سورة القمر ، ٥٤ ، الاية ٢٣ ، سورة البروج ، ٨٥ ، الاية ١٨ ، سور الفجر ٨٩ ، الاية ٩ ، سورة الشمس ٩١ ، الاية ١١ .

٢ الطبري (٢٣٢/١) ، « طبعة دار المعارف » ، الكامل ، لابن الاثير (٥٠/١) ، نهاية الارب (٢٩٢/٢) .

٣ سورة البروج ٨٥ ، الاية ١٨ .

٤ سورة هود ١١ ، الاية ٩٥ .

٥ سورة فصلت ٤١ ، الاية ١٣ .

٦ سورة العنكبوت ٢٩ ، الاية ٣٨ .

٧ سورة الفجر ٨٩ ، الاية ٩ .

٨ الكشاف ، للزمخشري (٢٠٩/٤) ، تفسير الطبري (١١٣/٣٠) ، روح المعاني ، للالوسي (١٢٤/٣٠) .

والسيّاح ، وذكروا أن بها بئراً تسمى بئر (ثمود)[1] ، وقد نزل بها الرسول مع أصحابه في غزوة (تبوك)[2] . وقد ذكر المسعودي أن منازلهم كانت بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الحبشي ، وديارهم بفج الناقة ، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال ، وأن رممهم كانت في أيامه باقية ، وآثارهم بادية ، وذلك في طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادي القرى[3] .

وينسب النسابون ثمود الى (ثمود بن جاثر أو كاثر بن ارم بن سام بن نوح)[4]، ويكتفي بعضهم بارجاع نسبهم الى عاد ، فيقولون عنهم انهم من بقية عاد[5] . وينسبهم بعض آخر الى (عابر بن ارم بن سام بن نوح) ، وزعموا أن ثمود هو أخو جديس[6] .

وقد استطاع المستشرقون التعرف على الثموديين من الكتابات والمؤلفات (الكلاسيكية) ، فوجدوا اسم ثمود في النصوص الآشورية : وجدوه في نص من نصوص (سرجون الثاني) ، مع أسماء شعوب أخرى سوف أتحدث عنها . وقد دعوا بـ (Tamudi) (Thamudi)[7] ، وذلك بمناسبة معركة جرت بين الآشوريين وبين هذه الشعوب ، انتصر فيها الآشوريون، كما وجدوه في النصوص والكتابات الثمودية ، وقد عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وفي النصوص (الكلاسيكية) حيث عرفوا باسم (Thamudeni) (Thamudenoi) (Thamydenoi) (Thamyditai)[8] .

---

١ البلدان (٢٢١/٣) ، الطبري (١١٨/١) ، اللسان (٢٤٢/٥) ، سبائك الذهب (ص ١٥) ، صبح الاعشى (٣١٣/١) ، تقويم البلدان (٨٩) .

٢ البكري ، معجم (٤٢٦/٢) ، « طبعة السقا » الاغاني (٢٨/٦) ، ابن كثير ، البداية (١٣١/١ وما بعدها) .

٣ مروج الذهب (٢٥٩/١) ، « قال كعب : لما اهلك الله عز وجل عادا ، جاءت ثمود وعمرت الارض ، وكانوا بضع عشر قبيلة .... وكانت منازلهم ما بين الحجاز الى الشام ، وهي ديار الحجر من وادي القرى » ، نهاية الارب (٧١/١٣) .

٤ صبح الاعشى (٣١٣/١) .

٥ « وثمود ، كصبور ابن عابر بن ارم بن سام . قبيلة من العرب الاول ، ويقال انهم من بقية عاد » ، تاج العروس (٣١٢/٢) ، اللسان (١٠٥/٣) « صادر » .

٦ ابن كثير ، البداية (١٣٠/١ وما بعدها) .

٧ Rawlinson, Cunai Form Inscriptions, Vol., I, Pl., 36, Lyon, Sargon, P., 4, Musil, Deserta, P., 291.

٨ Musil, Deserta, P., 291, Ptolemy, Geography, VI, 7 ; 4, VI, 7;21, Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 44, Forster, Vol., I, P., 323, Vol., 2, P., 30, 117, 274, 284.

ولقد وصف مؤلف كتـــاب : (الطواف حول البحر الأريتري) مواضع الثموديين (Thamudeni) مستنداً إلى مورد آخر ، أخذ منه ، أقدم عهداً منه . فذكر أن (Thamudeni) ، كانوا يقيمون على ساحل صخري طويل ، لا يصلح لسير السفن ، وليست فيه خلجان تستطيع أن تأوي اليه القوارب فتحتمي بها من الرياح ، ولا ميناء تتمكن من الرسو فيه ، ولا موضع أو جزر عنده تقبل اليه القوارب الهاربة من الأخطار[١] . فيظهر من وصف هذا المؤلف أن مـواطن ثمود كانت في الحجاز على ساحل البحر الأحمر .

وقد ذكر هذا الوصف ، ولكن بشيء من التحوير (ديودورس)[٢] . وأمـا (بلينيوس) ، فذكر (Tamudaei) بين (Domata) و (Haegra) ومدينة دعاها (Badanatha) (Baclanaza) . وأما (بطلميوس) ، فقد جعل قوم ثمود (Thamuditae) (Thamudeni) بين الـ (Sarakenoi) وبين (Apatae)[٤] ويظهر من كل ذلك أن ديارهم في شمال غربي (العربية السعيدة)[٥] ، أي في المواضع التي عينتها المصادر العربية .

يظهر من جغرافية (بطلميوس) اذن ، أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار (عاد) ، ليس بينها وبين ديار عاد (Oaditae) الا ديار (سره كيني) (Sarakeni) وكلها في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن . وفي هذا تأييد للروايات العربية القائلة ان ديار ثمود كانت على مقربة من ديار عاد . فإذا كانت (الحجـر) وما والاها هي مواطن ثمود : وجب أن تكون ديار (عاد) على مقربة من هذه المواضع .

وأما تأريخ قوم (ثمود) ، فيعود الى ما قبل الميلاد بزمان . وقد ذكرتُ قبل قليل أنهم كانوا في جملة الشعوب التي حاربت الآشوريين في عهد (سرجون

---

١ Musil, Deserta, p., 302, The Periples of the Erythrean Sea, by William Vincent, London, 1800, Part the Second, P., 262.

٢ Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 44, Musil, Deserta, P., 291.

٣ Pliny, Natur. History, (translated by H. Rackham), Vol., 2, P., 456 457, VI, 32.

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 108, Ptolemy, VI, 7:4 VI, 7:21, V, 19 7 Hastings. A Dictionary of the Bible, Vol., I, P., 630.

٥ Musil, Hegaz, P., 291, Glaser, Skizze, 2, S., 108, 256.

الثاني) ، وقد ذكر هذا الملك في النصوص التأريخية التي سجلها ، أنـه تغلب عليهم ، وانه أجلاهم من مواطنهم الى (السامرة) (Samaria)[١] . ولم يكن أولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة ، بل لا بد أن يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم عدة قرون .

وقد عرفت المنطقة التي حارب بها قوم ثمود والشعوب الأخرى الآشوريين باسم (بري) (Bari) ، ويظهر أنها تعني لفظة (بر) و (برية) العربية ، أي (البادية) فحرّفت الى (بري) على وفق الآشوري[٢] .

ويرى بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم (ثمود) كان في القرن الخامس للميلاد ، حيث ورد أن قوماً منهم كانوا فرساناً في جيش الروم[٣] .

وقد كان الثموديون يقطنون بعد الميلاد في مواطنهم المذكورة في أعالي الحجاز في (دومة الجندل) و (الحجر) وفي غرب (تيماء) . وقد ذكر أنهم كانوا يمتلكون في منتصف القرن الثاني للميلاد حَرّتَيْ (العوارض) و (الأرحاء)[٤] . ويرى (دوتي) أن (الحجر) التي سكن بها قوم ثمود ، هي موضع (الخريبة) في الزمن الحاضر ، لا (مدائن صالح) التي هي في نظره (حجر) النبط . وتقع (مدائن صالح) ، وهي عاصمة النبط ،على مسافة عشرة أميال من موضع (الخريبة)[٥] .

ولم يرد في الموارد العربية الإسلامية،ما يفيد وجود قبائل ثمودية قبيل الإسلام، أو في الإسلام ، غير ما ذكره بعضهم من نسب (ثقيف) الذي رجعوه الى ثمود،ولكن ذلك لم يرض الثقفيين . فقد كان الحجاج بن يوسف يكذب ذلك[٦]، والظاهر أن أعداء ثقيف ولا سيما معارضي الحجاج وضعوا ذلك على ثقيف بغضاً

---

١ Lyon, Keilschrifttexte Sargons, S., 4, (1883), Winckler, Keilschrifttexte Sargons, (1889), Bd., 2, PL., 2, No., I, Linie 20, Schrader, Keilinschriftliche Bibliothek, (1889-1900), Bd., 2, S., 42, Musil, Deserta, P., 479, Musil, Hegaz, P., 289.

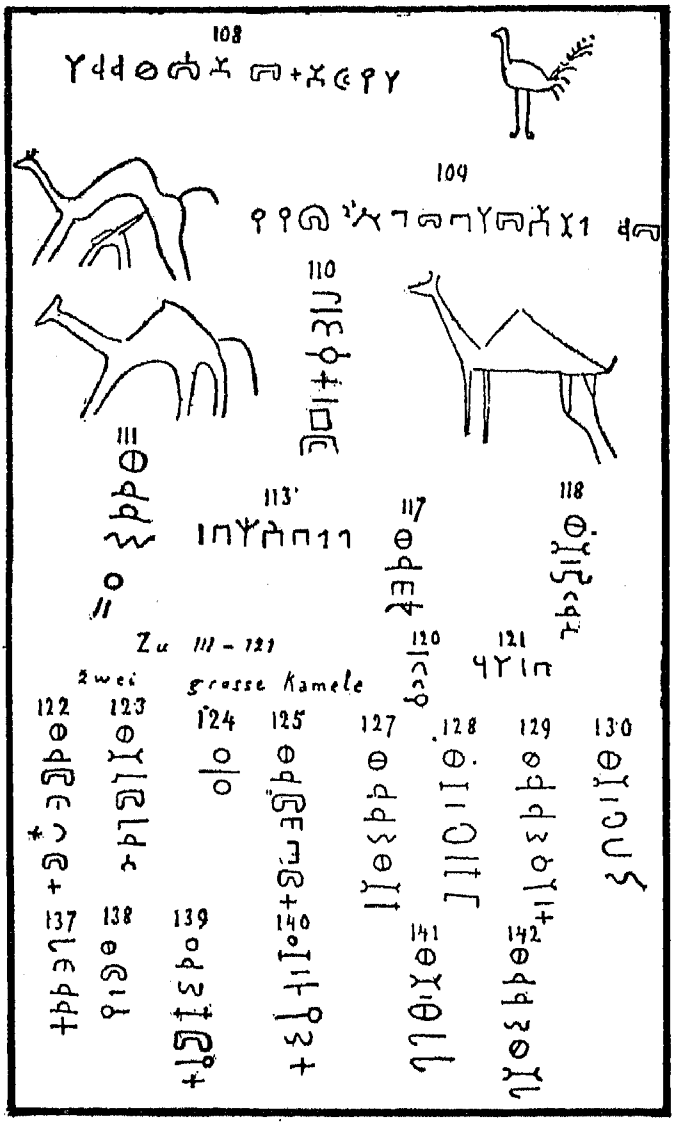
٢ Sprenger, Geography, S., 28.

٣ Doughty, Vol., I, P., 229, Sprenger, S., 28.

٤ Musil, Hegaz, P., 291.

٥ Doughty, Vol., I, P., 229.

٦ ابن خلدون (٢/٢٤) ، الكامل (١/٢٧٦) .



كتابات ثمودية من أعالي الحجاز من كتاب : « آنو ليتمن » :

Zur Entzifferung : Taf . 3.

للحجاج ، الذي كان قاسياً عاتياً شديداً . وقد روى (دوتي) أن بدو نجد يذكرون ان قبيلة (بني هلال) هي من نسل عاد وثمود[1] .

ونجد في كتاب : (Mission archéologique en Arabie) لمؤلفيه (Jaussen) و (Savignac) ، عدداً من الكتابات الثمودية ، عثرا عليها في (العلا) وفي مواضع أخرى من الأرضين التي هي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية وفي أعالي الحجاز من المملكة العربية السعودية ، كما عثر غيرهما قبلهما وبعدهما على عدد آخر ، أغلبه من هذه الكتابات القصيرة ، التي كتبت على مختلف الأحجار ، بالمناسبات ، مثل تذكّر شخص،أو تسجيل اسم لمناسبة وجود صاحبه في هذا المكان ، كما يفعل كثير من الناس في أيامنا[2] .

وتمكن (لانكستر هاردنك) محافظ مديرية الآثار العتيقة في المملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يزيد على خمسمائة كتابة ثمودية أرسلها الى المستشرق (أنوليتمان) ، يعود بعضها الى ما قبل الميلاد ، ويعود قسم منها الى ما بعد الميلاد ، ومن بينها نص أرخ بسنة (٢٦٧) للميلاد ، ونص آخر رسمت فيه دائرة في داخلها صورة تشبه الصليب ، وكتابة قرأها المستشرق (أنوليتمان) : (يشوعة) أو (ليشوعة) ، أي (ليسوع) ،وهو النص الذي رُقّم بـ (٤٧٦). والظاهر ان صاحبه كتبه تيمناً باسم المسيح ، ولا يعرف تأريخه بالضبط . ويعتقد (ليتمان) انه أقدم شاهد عرف حتى الآن عن انتشار النصرانية في شمال جزيرة العرب[3] . وقد قرأها المستشرق (فان دين برندن) : (بوايوب) أي (لأيوب) ، أو (بأيوب)،أو (أيوب).وبالجملة فان العلماء لم يتمكنوا من ترجمة تلك الكتابات ترجمة صحيحة حتى الآن[4] .

وفي المتاحف الأوروبية وفي مكتبات بعض الجامعات وفي أوراق المستشرقين مجموعة من النصوص الثمودية ، جميعها في أمور شخصية وفي موضوعات دينية وأدعية لآلهة ثمود . وأما المناطق التي وجدت فيها هذه النصوص ، أو أخذت

---

١ Die Offenbarung Arabiens, (Arabia Deserta), Leipzig, 1937, S., 63.

٢ Van den Branden, Les Inscriptions Thamoudéennes, Louvain-Heverbe, 1950.

٣ The Muslim World, Vol., XI, No., I, January, 1950, Jesus in Pre-Islamic Arabic Inscription, by Enno Littmann.

٤ A. Van den Branden, in Le Museon, LXIII, (1950) 1-2, P., 47-51, "Une Inscription Thamoudeenne".

صورها ، فهي مناطق (حائل) بنجد ، وأرض (تبوك) وتيماء ومدائن صالح والسلاسل الجبلية الممتدة بين هذه المنطقة والحجاز ، وعثر في الطائف على بعض النصوص الثمودية أيضاً وفي السواحل الحجازية الشمالية للبحر الأحمر عند (الوجه) وفي (طور سيناء) وفي (الصفا) شرقي دمشق وفي مصر[1] . وفي (الحرة) و (الرحبة) وفي شمال غربي تدمر[2] .

وقد عثر على نقوش ثمودية في اليمن ، ويدل وجود هذه الكتابات هنالك على وجود صلات بين اليمن وثمود ، ولعلهم كانوا يقيمون في اليمن كذلك . وقد عثرت البعثة المصرية التي زارت اليمن على مخربشات ثمودية في (حجر المعقاب) عند جبل (حليل) على مسافة ليست بعيدة من (بيت حميد) بوادي شرع بالخارد[3] .

ويشك المستشرق (هوبرت كريمه) (Hubert Grimme) في صحة نسبة كثير من هذه النصوص الى ثمود ، ويرى أنها لأناس غيرهم ، إذ لا دليل علمياً هناك يثبت كون هذه النصوص تعود الى هؤلاء .

وهناك عدد غير قليل من النصوص الثمودية يعود عهدها الى العهد النبطي ، ويشغل حيزاً من الزمن يقع بين حوالي مئتي سنة قبل المسيح وثلاث مئة سنة بعده ، وتمتزج في مثل هذه النصوص الثمودية بالنبطية . وقد عثر على بعض نصوص نبطية في الحجاز ظن أنها نصوص ثمودية، مثل نص: Hu. 418 = Eu. 772 ، ونص آخر يعود الى سنة ٢٦٧ للميلاد[4] .

إلاّ أن هناك نصوصاً ثمودية يظهر عليها أثر عبادة (صلم) (Salm) . وقد كانت (تيماء) من أهم الأماكن التي كانت تقدس هذا الإلَه حوالي سنة (٦٠٠) ق. م. ، ويرمز أهل تيماء الى (صلم) برأس ثور ، وقد وجد هذا الرمز

---

١ Ency., Vol., 4, P., 736, Musil, Negd, P., 104, 140, Huber in Journal D'un Voyage en Arabie, 1883-1884, Grimme, Entzifferung Thamudenischer Inschriften, 1904, Jausen-Savignac, Mission Archéologique en Arabie, 1-2 19911, 1914.

٢ E. Littmann, Thamud und Safa, S., 6. f, 95. f, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 164.

٣ نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحهما ، للدكتور خليل يحيى نامي ، القاهرة ١٩٤٣ (ص ١٠٩) ، وقد عثر الرحالة « فلبي » على بعض الكتابات التي يظهر انها ثمودية لحيانية ، Philby, Sheba's Daughters, P., 441.

٤ Ch. Doughty, Documents Epigraphiques Recueillis dans le Nord de L'arabie, 1884.

على النقوش الثمودية ، كما وجدت أسماء بعض الآلهة التي كان يتعبد لها أهل تيماء منقوشة في النصوص الثمودية ، مما يدل على أن قوم ثمود كانوا يتعبدون لها كذلك ، وأن هنالك صلات ثقافية ودينية بين تيماء وثمود .

ويرجح بعض الباحثين تأريخ عدد من الكتابات الثمودية الى القرن السابع قبل الميلاد . وهناك كتابات يرون أنها أقدم عهداً من القرن السابع . غير أن أكثر ما عثر عليه يعود تأريخه الى ما بعد الميلاد . وهي بالجملة في أمور شخصية ، لا تفيد المؤرخ الذي يريد تدوين تأريخ (ثمود) فائدة كبيرة . ولكنها نافعة على كل حال من نواح أخرى ، فهي تفيد اللغوي الذي يريد الوقوف على لغة الثموديين ومعرفة أسمائهم ولهجاتهم ، وتفيد الباحثين في اللهجات العربية الجاهلية وفي الساميات .

والكتابات الثمودية في نظر الباحثين نوعان : كتابات قديمة وقد دونت بالقلم الثمودي القديم ، وكتابات حديثة وقد كتبت بقلم ثمودي متطور تختلف أشكال حروفه ورسومها بعض الاختلاف عن القلم القديم . وللقلم الثمودي صلة بقلم (طور سيناء) ، كما أن له علاقة بالقلم المسند . وتفيد دراسته من هذه الناحية في الوقوف على تأريخ تطور الكتابة في جزيرة العرب قبل الميلاد ، وفي تطور الأقلام بوجه عام[1] .

ويلاحظ وجود بعض الخواص في الكتابات الثمودية التي عثر عليها في الحجاز ، لا نجدها ، أو قلما نجدها في كتابات ثمودية أخرى ، عثر عليها في نجد وفي اليمن . ويعود سبب ذلك الى تأثير البيئات ، ولا شك ، في هؤلاء الثموديين الذين تأثروا بلهجات جيرانهم وبثقافاتهم ، فظهر ذلك الأثر في هذه الكتابات[2] .

ويظهر من الكتابات الثمودية أن قوم ثمود كانوا زُرّاعاً وأصحاب ماشية ، وأنهم كانوا أقرب الى الحضر ، منهم الى أهل الوبر ، فقد كانت لهم مستوطنات ثابتة استقروا فيها ، وكانت لهم معابد ثابتة أيضاً ، أي مبنية ، وبينهم قوم اشتغلوا بالتجارة . ولعل الأيام ستجود علينا بكتابات ثمودية تتحدث عن أمور عامة ، وعندئذ نستطيع أن نستنبط منها شيئاً عن أحوالهم من مختلف الوجوه .

---

١ Hubert Grimme, Die Loesung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische schrift, S., 24.

٢ Grimme, Die Loesung, S., 25.

ومن أصنام ثمود التي ورد ذكرها في كتاباتهم ، الصنم (ودّ) ، وهو من الآلهة القديمة عند العرب[1] . والصنم (جد – هد) أو (جد – هدد) ، وله عندهم معابد وسدنة يخدمونه ، ويعرف سادن الأصنام عندهم بـ (قسو) أي (قس) . عرفنا أسماء بعضهم ، ومنهم السادن (ايليا) (ايليية)[2] . ويظهر أنه كان من الآلهة العربية العتيقة ، غير أن سعده أخذ في الأفول ، فأخذت مكانه آلهة أخرى ، ثم عفى أثره من الذاكرة ، فلم يرد اسمه بين الأصنام التي كان يعبدها الجاهليون قبيل الإسلام . وقد بقيت مع ذلك أسماء مثل: (عبد جد) تشير الى اسم الإلـه العربي القديم[3] .

و (شمس) و (مناف) و (مناة) و (كاهل) و (بعلة) (بعلت) و(بعل) و (يهو) و (رضو) أو (رضى) ، هي أيضاً من أصنام ثمود ، سأتحدث عنها كلها في أثناء بحثي في الديانة العربية قبل الإسلام . ومن بقية آلهة ثمود (عثيرت) (عثيرة) ، و (وتسن) (وت) ، و (يثع) (سمع) و (سميع) و (هبل) و (سحر) ، و (سين) و (عم) و (قين) و (يغوث) و(إلـه) و (ألى) و (إلهي) و (الت) و (اللآت) و (حول) (حويل) و (ذو شري) و (سمين) و (هلال) و (صلم) و (نهى) و (عثتر سمين) و (كاهل) (كهل) ، و (ملك) و (مالك) ، و (هادي) (هدى) ، و (بحل) ، و (رتل) ، و (هيّج) ، و (شوع) ، و (ستار) ، و (طنفت) ، و (سعى) ، و (غم) ، و (عس) ، و (عسحرد) ، و (عشير) ، و (عطير) ، و (تجر) ، و (دبر)[4] .

وبعض هذه الأسماء ليست في الواقع أسماء آلهة ، وإنما هي من قبيل ما يقال له (الأسماء الحسنى) عندنا أو صفات الله ، فلفظة (سمع) مثلاً ، وهي بمعنى (سميع) أو (السميع) في عربيتنا ليست اسم إلـه معين ، إنما هي صفة للإلـه، بمعنى أن الإلـه هو سميع يسمع دعوات الداعين . ولذلك يخاطبه المؤمنون ويقولون له (سمع) (يا سميع) ، ليسمع دعاءهم وليجيب طلباتهم ، وهناك ألفاظ

---

١ J. Wellhausen, Reste, S., 14.

٢ Grimme, S., 39, Note 9.

٣ Wellhausen, S., 146.

٤ Van den Brandeen, Les Inscriptions, PP., 10.

أخرى هي من هذا القبيل .

ووصلت الينا أسماء ثمودية كثيرة ، مثل : (أوس) و (سعد) و (عفير) و (وائل) و (بارح) و (كربال) (كرب إيل) و (عش) (عائش) و (مالك) (ملك) و (عذرال) (عذرايل) ، و (عوذ)،و (أسعد)، و (عياش) ، و (إياس) ، و (قيس بن وائل) (قس بن وال) وغيرها، مما يخرجنا ذكرها عما نحن فيه . وهي أسماء لا يزال بعضها مستعملاً[1] .

ويلاحظ أن بعض هذه الأسماء مثل (كرب ال) و (عذرال)،وما شاكله ، قلّ استعمالها عند العرب قبيل الإسلام ، بينما كانت من الأسماء الشائعة في الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا سيما بين الجاهليين في العربية الجنوبية،حيث ترد بكثرة في كتابات المسند .

ويرى (برو) Brau أن ثموداً أصيبوا بكارثة عظيمة ، من ثوران براكين أو هزات أرضية ، بدليل ورود كلمة (رجفة)[2] وكلمة (صيحة) في القرآن الكريم ، وذلك محتمل جداً ، لأن البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرار[3] .

ويشبه مصير (عاد) و (ثمود) مصير (سدوم) (Sodom) وعمورة (جمورة) (كمورة) (Gomorrah) وبقية مدن الدائرة في عمق السديم[4] التي تقع — على رأي كثير من علماء التوراة — في جنوب البحر الميت ، فقد لاقت هذه المدن ، وهي خمس على سهل (دائرة الأردن) المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود ، حيث أرسل الله عليهم عذاباً (فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض)[5]. وأصحاب هذه المدن هم : قوم (Lot) (لوط).

---

١ E. Littmann, Thamud und Safa, (Abhand. f. d. Kunde d. Morgenlandes 25, I), 1940, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 163. ff., M. Hofner, Die Beduinen in L'Antica Societa Beduina (Studi Semitici), 1959, 53. f.

٢ Ency., Vol., 4, P., 736.

٣ James A. Montgomery, Arabia and the Bible, P., 91, Hastings, P., 734.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٥١/١) ، (١١٩/٢ ، ٣٠٠) ، Hastings, P., 734, Ency. Bibl., P., 3790.

٥ التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، الاية ٢٣ وما بعدها .

و (لوت) هو (لوط) المذكور في القرآن الكريم . وقد رأيت ان القــرآن الكريم قد أشار الى مصير (قوم لوط)، وأطلق على ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة (الأحزاب) . « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب»[1].

وقد تعرض المفسرون لقوم (لوط) وما حل بهم من العذاب، وبحث عنهم أهل الأخبار والتأريخ ، باعتبار ان أخبارهم هي صفحة من صفحات التأريــخ القديم العام قبل الإسلام . وفي الرواية التي ذكرها (الطبري) في تأريخه عنهم ، وسندها مرفوع الى (محمد بن كعب القَرَظَمي) ذكر للقرى الخمس الواقعة حول (سهل دائرة الأردن) ، وقــد دعاها بـ (المؤتفكات) المأخوذة من القرآن الكريم من « والمؤتفكة أهوى »[2] ، وهي : صبعة ، وصعرة ، وعمرة ، ودوما ، وسدوم ، بحسب رواية الطبري هذه[3] . وفي هذه الأسماء تحريف وتغيير في الترتيب الذي وردت به في التوراة ، اذ هي فيها على هذا الشكل : سدوم (Sodom) و (عمورة) (Gomorrah) و (ادمة) (Admah) و (صبوبيم) (Zeboim) و (بالع) (Bela) وتسمى أيضاً بـ (صوغر) (Zoar)[4] .

وقد نبه القرآن قريشاً الى مصير يشبه مصير (ثمود) ، اذ كفــروا بنبوة نبيهم (صالح) ، وعقروا (الناقة) التي أرسلت لهم آية تحذرهم من عاقبة كفرهم ومن استمرارهم في تكذيبهم نبوة نبيهم . فلما استمروا في غيهم وضلالهم، أرسل الله عليهم (الصيحة) ، فأهلكتهم ، ورجفت الأرض بهم ، فلم يبق من كفارهم على الأرض إلا رجل واحد ، هو (أبو رغال) كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله[5] .

ويذكر أهل الأخبار أنّ رسول الله لما غزا غزاة تبوك ، نزل (الحجر) ، ونهى الناس من دخول القرية ، ومن شرب مائها ، وأراهم مرتقى الفصيل .

---

١ سورة ص رقم ٢٨ ، الاية ١٣ ، وتجد قصة لوط وقومه مفصلة في تأريخ الطبري (١/٥٠آ) وما بعدها ، نهاية الارب (١٣/١٢٣ ، ٢٤٨) .

٢ سورة النجم ، الاية ٥٣ .

٣ الطبري (١/٣٠٧) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٠٠) ، Hastings, P. 734

٥ الطبري (١/٢٣١ فما بعدها) « طبعة دار المعارف » .

والقرية المذكورة هي (الحجر) ، وهي (قرية ثمود)[1] .

وقد ورد في شعر (حسّان بن ثابت) : (أشقى ثمود) ، وقد ذكر الشرّاح أنه (قدار بن سالف أحيمر ثمود) ، وهو عاقر ناقة صالح[2] . وهكذا نجد لثمود (أحيمراً) على نحو ما وجدنا عند عاد .

ويرجع سند روايات (الطبري) عن ثمود الى (الحسن بن يحيي) ، ويتصل سنده بـ (أبي الطفيل) ، والى (القاسم) ، وينتهي سنده الى (عمرو بن خارجة)،و (ابن جريج) عن جابر بن عبدالله و (اسماعيل بن المتوكل الأشجعي) وينتهي سنده بـ (عبدالله بن عثمان بن خثيم) عن (أبي الطفيل)[3] .

وتفيدنا دراسة هذه الأسانيد وأمثالها فائدة كبيرة في الوصول الى معرفة الموارد التي أمدّت الأخباريين بأمثال هذه الأخبار .

طسم وجديس :

وساق الأخباريون نسب (طَسْم) على هذه الصورة : (طسم بن لاوذ بن إرم) أو (طسم بن لاوذ بن سام) ، أو (طسم بن كاثر) ، أو ما شابه ذلك من نسب[4] . ونحن لا نعرف الآن من أمرهم غير ما ورد من القصص المدون في الكتب ، ، ولم يرد لهم ذكر في القرآن الكريم . وقد جعلهم بعض أهل الأخبار من أهل الزمان الأول ، أو من عاد[5] .

وقد شكّ حتى الأخباريون في الأخبار المنسوبة الى (طسم) ، إذ اعتبروها أخباراً موضوعة ، فقال بعضهم : (وأحاديث طسم : يقال لما لا أصل له . تقول لمن يخبرك بما لا أصل له : أحاديث طسم وأحلامها ، وطسم احدى قبائل

---

١ الطبري (٢٣١/١ فما بعدها) .
٢ كأشقى ثمود ، اذ تعاطى لحينه عضيلة ام السقب والسقب وارد
ديوان حسان (ص ١٢٠) « للبرقوقي » .
٣ الطبري (٢٣١/١) .
٤ الطبري (٧٧١/١) « طبعة أوربة » ، ابن خلدون (٢٤/٢) ، الاغاني (٤٨/١٠) ، ابن الاثير (١٣٩/١) ، الطبري (٢٠٣/١ وما بعدها) « دار المعارف »
٥ اللسان (٣٦٣/١٢) .

العرب البائدة)[1] .

أما مواطن طسم ، فكانت اليمامة ، وعند بعضهم الأحقاف والبحرين[2] . وقد زعم الأخباريون أن طسماً وجديساً سكنتا اليمامة معاً ، وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها ، ثم انتهى الملك الى رجل ظالم غشوم من (طسم) يقال له (عمليق) أو (عماوق) إستذّل جديساً ، وأهانها ، فثارت جديس وقتلت عمليقاً ومن كان معه من حاشيته ، واستعانت طسم بـ (حسّان بن تبع) من تبابعة اليمن ، فوقعت حرب أهلكت طسماً وجديساً ، وبقيت اليمامة خالية ، فحل بها (بنو حنيفة) الذين كانوا بها عند ظهور الإسلام[3] .

وذهب نفر من المستشرقين الى أن طسماً من الشعوب الخرافية التي ابتدعها الأخباريون ، غير أنه لا يستبعد أن يأتي يوم قد يعثّر فيه على أخبار هؤلاء القوم وعلى اسمهم في الكتابات . وقد وردت في نص يوناني عثّر عليه في (صلخد) ، ويعود تأريخه الى سنة (٣٢٢م) جملة (أنعم طسم) ، فلا يستبعد أن يأتي اليوم الذي نقرأ فيه نصوصاً تعود الى طسم[4] .

ويروي أهل الأخبار ان (الأسود بن رباح) ، وهو قاتل عمليق ، هرب بعد ذلك من اليمامة الى جبلي طيء ، فأقام بهما الى أن جاءت طيء ، وأمر سيدهم (سامة بن لؤي) ابنه الغوث أن يقتل الأسود ، بعد أن رأوا ضخامة جسمه بالنسبة الى أجسامهم ، وخافوا منه ، فجاء اليه الغوث ، ثم أخذ يكلمه ، ثم باغته بأن رماه بسهم قتله ، واستقرت طيء بالجبلين[5] .

وذهب (جرجي زيدان) الى أن (طسماً) هي (لطوشيم)[6] ، وهي قبيلة من العرب ورد اسمها في التوراة على انهـا من نسل (ددان بن يقشان) وورد

---

١ الاغاني (١٠٣/١١) ، اللسان (٢٥٦/١٥) ، الاغاني (٤٥/١٠) ، الطبري (٢٠٦/١) ، دار المعارف .

٢ ابن خلدون (٢٤/٢) ، الطبري (٢٠٦/١) المعارف لابن قتيبة (١٣)
Enc., Vol., I, P., 992.

٣ وعند الطبري انه « تبان اسعد كرب ملكي كرب » ابن خلدون (٢٥/٢) المعارف (٣٠٨) ، الامثال للميداني (١٩٢/١) ، (٦٩٠/٢) الاغاني (٤٥/١٠) (٨٩/١٠) « بيروت »

٤ D. H. Mueller, Suedarabische Studien, S., 67.

٥ ابن خلدون (٢٥/٢) ، الاغاني (٤٧/١٠) ، (٩٢/١٠) « طبعة بيروت » .

٦ الهلال ، الجزء العشرون ، السنة الخامسة ، حزيران « ١٨٩٧ م » ، (ص ٧٧٦)

معها اسم قبيلة أخرى من قبائل (ددان) دعيت بـ (Leummim) (لاميم) ، يرى زيدان أنها (أميم)[1] .

ونسب الأخباريون الى طسم صنماً سموه (كثرى) ، لعله الصنم (كثرى) الذي أدرك الإسلام ، فحُطم مع الأصنام الأخرى التي أمـر الرسول بتحطيمها تخلصاً من عبادة الأصنام ، فحطمت أينما وجدت ، وقد حطم الصنم (كثرى) (نهشل بن الربيس بن عرعرة) ، ولحق بالنبي[2] .

وقد ضرب أهل الأخبار المثل بـ (كلب طسم) . وذكروا قصته على هذا النحو : كان لرجل من طسم كلب ، وكان يسقيه اللبن ويطعمه اللحم ويسمنه، يرجو أن يصيب به خيراً ويحرسه ، فجاع يوماً فهجم على صاحبـه وأكله ، فضرب به المثل فقيل : سمّن كلبك يأكلك[3] .

وقد جاء ذكر طسم في شعر للحارث بن حلزّة ، هو :

أم علينا جرى إياد كما قيل لطسم أخوكم الأبّاء

وقد قال الأصمعي في شرحه : « كان طسم وجديس أخوين،فكسرت جديس على الملك خراجه ، فأخذت طسم بذنب جديس »[4] . فضرب لذلك بها المثل ، لمن يؤخذ بجريرة غيره .

جديس :

وقالوا عن (جديس) انهم حي من عاد ، وهم اخوة طسم ، أو انهـم

---

١ التكوين ، اصحاح ٢٥ ، اية ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩٣/٢) .

٢ قال عمرو بن صخر بن أشنع :

حلفت بكثـرى حلفة غيـر بـرة لتستلبني اثواب قيس بن عـازب

الاصنام (ص ١١٠) ، تاج العروس (١٢٥/٢) .

٣ قـال بعض الشعراء :

ككلـب طسم وقـد تربيـه يعلـه بالحليب في الغلس

ظـل عليـه يوما يفرفـره ان لا يلغ في الـدماء ينتهس

الفاخر (ص ٥٧) .

٤ المعاني الكبير ، (١٠١١/٢) ، « طبعة حيدر اباد دكن » .

حي من العرب كانوا يناسبون عاداً الأولى[1] . وقالوا انهم أبناء (جديس بن لاوذ ابن إرم بن سام بن نوح)[2] ، أو أبنـاء (جديس) شقيق (ثمود بن غاثر ابن إرم بن سام بن نوح) ، أو ما شابه ذلك من نسب[3] . وقد كانوا أتباعاً لطسم ، ويسكنون معهم في اليمامة ، ثاروا على (عمليق) (عملوق) ملك طسم ، فكانت نهاية طسم كما كانت نهاية (جديس) ، ولذلك قيل « بوار طسم بيدَيْ جديس »[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن جديساً لما قتلت (عملوقاً) ومن كان معه من قومه طسم ، هرب رجل من طسم اسمه (رباح بن مُرّة) ، حتى أتى (حسان بن تُبّع) ، فاستغاث به ، فخرج (حسان) في حِمْيَر ، فأباد جديساً، وأخرب بلادهم ، وهدم قصورهم وحصونهم[5] . ويرى (كوسين دي برسفال) أن اغارة حمير المذكورة كانت حوالي سنة (٢٥٠) بعد الميلاد[6] .

ويرتبط بخبر هذه الابادة قصة امرأة زعم انهـا كانت أقوى الناس بصراً ، ترى من مسافات بعيدة جداً ، عرفت بـ (زرقاء اليمامة) . وقد ورد قصص عنها ذكره أهل الأخبار[7] .

وورد في بعض الأخبار أن (جذيمة الأبرش) كان قد حارب (طسماً)

١ اللسان (٣٥/٦) .

٢ الطبري (٧٧١/١) « طبعة اوربة » ، (٦٢٩/١) « دار المعارف » ، ابن خلدون (٢٤/٢) ، الاغاني (٤٨/١٠) ، المعارف (ص ١٤) ، « جديس بن عامر بن ازهر ابن سام بن نوح ، ابن الاثير الكامل (١٣٩/١) ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٦٧/١) ، « وجديس : حي من عاد ، وهم اخوة طسم . وفي التهذيب جديس: حي من العرب ، كانوا يناسبون عادا الاولى » ، اللسان (٣٣٣/٧)

٣ المصادر نفسهـا . Ency., Vol., I, P., 992.

٤ اللسان (٣٣٤/٧) ، الامثال ، للميداني (١٩٢/١) ، (٦٩٠/٢) ، الاغانـي (١٦٤/١١) ، « دار الكتب المصرية » .

٥ الطبري (٦٢٩/١ فما بعدها) ، « حسان بن اسعد تبع » ، شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الثاني) (ص ٣٠٧) .

٦ Caussin de Perceval, Essai, 2, P., 26, Ency., Vol., I, P., 992.

٧ وهناك قصة عن زرقاء اخرى ، كانت ترى من مسافة بعيدة ذكروها في تفرق ولد معد ، الاغاني (٣٦/١١ ، ١٥٥) ، « دار الكتب المصرية » ، مجمع الامثـال ، للميداني (١٢٠/١) ، الكامل ، لابـن الاثير (٢٠٧/١) .

و (جديساً)[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن (حسّان بن تُبّع) الذي أوقع بجديس ، هو (ذو معاهر) ، وهو (تبع بن تبع تبان أسعد أبي كرب بن ملكيكرب بن تبع بن أقرن) ، وهو أبو (تبّع بن حسان) ، الذي يزعم أهل اليمن أنه قدم مكة ويثربَ ، وأنه وجّه ابنه (حسان) الى (السند) وابنه (شمرد الجناح) (سمر)، إلى آخر ذلك من قصص سأتحدث عنه في أثناء الكلام على مملكة (حمير وذي ريدان)[2] .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن التي أبصرت جند (حسان) اسمها (اليمامة) ، وكانت أول من اكتحلت بالإثمد ، ولهذا تكوّنت في عينيها عروق سود منه ، كانت هي السبب في نشوء حدة البصر عندها ، وأن (حسان) أمر ففقئت عيناها لإدراك سبب حدة بصرها ، فاكتشف وجود الإثمد بهما،ويزعمون أنه أمر بابدال اسم (جوّ) مساكن طسم وجديس الى (اليمامـــة) ، فعرفت بهذه التسمية مذ ذلك الحين[3] .

وإذا كان ما جاء في شعر الأعشى عن (اليمامة) وعن حسان صحيحاً، فإنّ ذلك يدلّ على أن القصة المذكورة كانت شائعة معروفة في أيامه بل وربما قبل أيامه ، والظاهر أن أهل الأخبار قد أخذوا اسم اليمامة من اسم المكان ، فصيروه إمرأة ذات بصر حديد . ونجد قصة (اليمامة) ومجيء التبع في شعر للنمر بن تولب العُكلي[4] . ونجد اتفاقاً بين القول المنسوب الى اليمامة في سياق القصة وبين قولها في الشعر المنسوب الى الأعشى وإلى النمر .

وقد ذكر (ابن دريـــد) أن (تبع) أرسل على مقدمته (عبد كلال بن مثوب بن ذي حرث بن الحارث بن مالك بن غيدان) الى اليمامة ، فقتل طسماً وجديساً . ولم يذكر اسم ذلك التبع[5] .

---

١ Enc., Vol., I, P., 992.

٢ « سمى ذا الجناح » في طبعة « دار المعارف » ، (٦٣٢/١) ، (شمر) في الطبعات الاخرى ، وفي الموارد الأخرى . وهو الصحيح .

٣ الطبري (٦٣٠/١) « دار المعارف » .

٤ ديوان الاعشى (٧٢ — ٧٤) ، الطبري (٦٣٠/١ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (٤٥١/١) .

٥ الاشتقاق (ص ٣٠٧ وما بعدها) .

ويعتقد بعض المستشرقين أن اسم (Jolisitae) أو (Jodisitae) الوارد في (جغرافيا بطلميوس) إنما يقصد به قوم (جديس) ، وأنهم كانوا معروفين في حوالي سنة (١٢٠) بعد الميلاد[١] .

وقد نسب أهل الأخبار أماكن عديدة الى طسم وجديس ، وهي قرى ومدن ذكر أنها كانت عامرة آهلة بالسكان ذات مزارع ، وقد بقي بعضها في الإسلام، ووصفه أهل الأخبار . وإذا صح أنها كانت لطسم وجديس حقاً ، وأنها كانت من أعمالهم ونتاجهم ، فإن ذلك يدل على ان القوم كانوا حضراً وعلى مستوى من الرقي ، ولم يكونوا بدواً على شاكلة الأعراب . وربما يعثر على كتابات في هذه المواضع تكشف اللثام عن حقيقة أصحاب هذه المواضع وهوية الأقوام التي عاشت فيها .

ومن الأماكن المذكورة (المشقر) ، وهو حصن بين نجران والبحرين على تل عال ، يقابله حصن سدوس ، وهو من أمكنة (طسم) . وقد نسب بعض الرواة بناءه — كعادتهم عند جهلهم أسماء الأماكن — الى سليمان ، وقد سكنته عبد القيس أهل البحرين[٢] . و (معنق) من قصور اليمامة على أكمة مرتفعة[٣] . و (الشموس) قيل : انه من بناء (جديس)[٤] .

ومن قرى اليمامة الشهيرة (حجر) ، وكانت لطسم وجديس ، والظاهر انها كانت عامرة ذات قصور عالية كثيرة ، وانها كانت محاطة بالمزارع ، وانهـا بقيت مدة طويلة مهملة في وسط الرمال التي تكونت في تلك البقاع المنبتة الخصبة التي تحولت الى صحراء[٥] . و (القرية) (قرية بني سَدُوس) ، وكان بها قصر عظيم من الصخر ، وقد زعموا انه كان من حجر واحد بناه جنّ سليمان[٦] . و (جعدة) وهي حصن ، وبها قصر قديم (عادي) ينسبونه الى طسم وجديس، ويظهر انه ظلّ باقياً الى أيام (الهمداني) ، بدليل وصفه له في كتابه (صفة

---

١ Ptolemy, Geogr., I, 29, Libr., VIII, (Ed. Wilberg), Ency., Vol., I, P., 992.

٢ البلدان (٦٥/٨) ، اللسان (٩١/٦) .

٣ البلدان (٦٥/٨) .

٤ البلدان (١٠٠/٨) .

٥ البلدان (٢٢١/٣) .

٦ البلدان (٧٦/٧ فما بعدها) ، الهمداني ، صفة (ص ١٤١) .

جزيرة العرب) والظاهر من وصفه أن الحصن كان عظيماً ، وانـه كان يحيط بالقرية ، وأن أساسه من اللبن وحوله منازل الحاشية للرئيس الذي يكون فيه ، وكان فيه الأثل والنخيل ، وحوله منازل الناس والسوق،ويحيط بالقرية خندق ، وفي السوق آبار . قال الهمداني : انها مئتان وستون بئراً ماؤها عذب فرات[١] . و (خضراء حجر) ، وهي حضور (طسم) و (جديس) ، وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم ، الواحد بتيل ، وهو مربع مثل الصومعة مستطيـل في السماء من طين . وقد بولغ في وصف ارتفاع هذه (البتل) وطولها ، حتى زعم ان ارتفاع ما تبقى منها الى أيام الهمداني كان قد بلـغ مئتي ذراع في السماء[٢] . و (الخضرمة) ، وكانت لجديس ، وبها آثار قديمة كثيرة[٣] ، و (الهدار)[٤] و (ريمان)[٥] .

أميم :

وجعل الأخباريون (أميماً) في طبقة طسم وجديس ، وقالوا انهم من نسل (لاوذ بن عمليق)[٦] ، أو (لوذ بن نوح) ، أو ما شابه ذلك من شجرات نسب[٧] . وكان من شعوبهم على زعم أهل الأخبار (وبار بن أميم) ، نزلوا برمل (عالج) بين اليمامة والشحر ، وانهارت عليهم الرمال فأهلكتهم[٨] . ويزعم أهل الأخبار أن ديار (أميم) كانت بأرض فارس ، ولذلك زعم بعض نسابة الفرس انهم من (أميم) ، وان (كيومرت) الذي يُنسَبون اليه هو ابن أميم ابن لاوذ[٩] .

---

١ الهمداني : صفة (ص ١٤١) .
٢ صفة (١٤١) .
٣ صفـة (١٤١) .
٤ صفة (١٤١) .
٥ صفة (١٤١) .
٦ الطبري (٢١٤/١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، (٢٠٣/١ وما بعدها) ، « دار المعـارف » .
٧ طبقات ابن سعد (١/١ ص ١٩) .
٨ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .
٩ ابـن خلدون (٢٨/٢) .

ولا نعرف من أمر أميم شيئاً غير هذه النتف ، ولم يذكر الأخباريون كيف عدوهم من طبقة العرب الأولى اذا كانت ديارهم بأرض فارس ، ولم يشرحوا لنا كذلك كيف وصلوا نسب (وبار) بأميم ، وما العلاقة بينهما .

وقد ذكر الهمداني أن وبار هو شقيق (كيومرت) ويقال (جيومرت) ، وقد أولدهما (أميم) . وبوبار عرفت أرض (وبار) ، وهي أرض أميم[١] .

وجاء في جغرافيا (بطلميوس) اسم شعب عربي دعي (Iobaritai) (Jobaritae) (Jobabitae) ، على انه من شعوب العربية الجنوبية ، ويسكن على مقربة من أرض قبيلة أخرى دعاها Sachalitae ، وتقطن عند خليج يدعى باسمها (Sinus Sachalits)[٢] . وهذا الاسم قريب جداً من اسم (وبار) ، لذلك ذهب المستشرقون الى أن (Jobaritae) ،هو شعب وبار[٣] أو (بنو وبار)[٤]. غير أن هنالك عدداً من العلماء يرون أن الاسم الأصلي الذي ورد في جغرافيا بطلميوس هو (يوباب) ، غير أن النساخ قد أخطأوا في النسخ فحرفوا حرف الباء (B) الثاني في هذا الاسم وصيّروه راء (R) ، فصار الاسم بعد هذا التحريف (Jobabitae)[٥] . فالشعب الذي قصده بطلميوس — على حد قول هؤلاء — هو (يوباب) أو (يباب) ، الا انه لا يوجد هنالك دليل قوي يثبت حدوث هذا التحريف[٦] .

وفي موضع ليس ببعيد عن هذا المكان الذي ذكره بطلميوس تقع أرض وبار الشهيرة ، وهي بين رمال يبرين واليمن « ما بين نجران وحضرموت وما بين مهرة والشحر » ، أو ما بين الشحر الى تخوم صنعاء . وقيل : « قرية وبار كانت لبني وبار ، وبين رمال بني سعد وبين الشحر ومهرة » ، والنسبة اليها

---

١ الاكليل (١/٧٧) ، « ولحقت اميم بارض اباد فهلكوا بها ، وهي بين اليمامه والشحر ، ولا يصل اليها اليوم أحد ، غلبت عليها الجن . وانما سميت ابار بابار بن أميم » ، الطبري (١ / ٢٠٨) « دار المعارف » .

٢ Forster, Vol., I, P., 173. f., Vol., 2, P., 270. Ptolemy, VI, 7, Glaser, Skizze, 2, S., 256.

٣ Ritter, Erdkunde, Berlin, 1896, Bd., XIII, S., 315, Sprenger, Geographie, S. 296.

٤ الطبري (١/٧٥٠) « طبعة أوربة » .

٥ Forster, Vol., I, P., 177.

٦ Forster, Vol., I, P., 173, Vol., 2, P., 270.

(أباري)[1] . ونرى ان هذه النسبة قريبة من الاسم الذي ذكره بطلميوس .. ويدعي (ياقوت الحموي) انها مسماة بـ (وبار بن إرم بن سام بن نوح)[2] .

وقد روت الكتب العربية قصصاً كثيرة عن (وبار) ، ومن جملة الأساطير التي تروى عنها أسطورة (النسناس) . وتتلخص في أنهم (من ولد النسناس بن أميم بن عمليق بن يلمع بن لاوذ بن سام) ، وأنهم كانوا في الأصل بشراً ، فجعلهم الله نسناساً ، للرجل منهم نصف رأس ونصف وجه وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة ، وأنهم صاروا يرعون كما ترعى البهائم ، وأنهم يقفزون قفزاً شديداً ويعدون عدواً منكراً[3] . والظاهر أن هذه القصص والأساطير أصولاً جاهلية ، وقد وضع منها في الإسلام شيء كثير ، ووضع معها شعر كثير على لسان ذلك (الإنسان الحيوان) ، ولا يزال الناس يروونها حتى الآن .

وقد أنكر بعض المستشرقين ، وجود وبار ، وزعموا أنهم من الشعوب التي ابتكر وجودها القصاص قائلين إن تلك الرمال الواسعة المخيفة هي التي أوحت إلى القصاص والأخباريين إختراع شعب (وبار) وقصص النسناس[4] . والذي أراه أن هذا لا يمنع من وجود شعب بهذا الاسم ، وإن كنا لا نعرف من أمره شيئاً إلا هذه القصص والأساطير . وقديماً أنكروا وجود عاد وثمود ، ثم اتضح بعد ذلك من الكتابات وجود عاد وثمود . وهكذا قد يعثر في المستقبل على كتابات وبارية لعلها تلقي ضوءاً على حالة ذلك الشعب .

ونجد في رواية أهل الأخبار عن عمار (وبار) وكثرة زروعها ومراعيها ومياهها في الجاهلية شيئاً من الأساس . فقد أيد السياح ذلك ، وأثبتوا وجود أثر من آثار عمران قديم[5] . وهو سند يتخذه القائلون بتطور جو بلاد العرب ، وسطحها لإثبات رأيهم في هذا التغيير .

---

١ البلدان (٣٩٢/٨ فما بعدها) ، منتخبات (ص ١١٣) ، « ولحقت أميم بأرض وبار فهلكوا بها ، وهي بين اليمامة والشحر . ولا يصل اليوم اليها احد ، غلبت عليها الجن . وانما سميت ابار بأبار بن أميم » ، طبقات ابن سعد (حـ ١ ، قسم ١ ص ٢٠) .

٢ البلدان (٣٩٢/٨) .

٣ البلدان (٣٩٢/٨ فما بعدها) ، القزويني ، عجائب المخلوقات (٤١/٢) ، « طبعة وستنفلد » ، المسعودي ، التنبيه (ص ١٨٤) ، صفة (١٥٤ ، ٢٢٣) .

٤ Sprenger Geogr., S.. 206.

٥ Enc., Vol., 4, P., 1077, Philby, The Heart of Arabia, Vol., 2, P., 353.

ولم يذهب اسم (وبار) من ذاكرة سكان العرب حتى هـذا اليوم . فهم يروون أن في الربع الخالي موضعاً منكوباً هو الآن خراب ، هو مكان (وبار) . وقد قاد بعض الأعراب (فلبي) الى موضع في الربع الخالي ، قال لـه عنه إنه مكان (وبار) المدينة التي غضب الله عليها ، فأنزل بها العقاب،وصارت خراباً . وقد تبين لـ (فلبي) أن ذلك الموضع هو فوهة بركان ، قـذف حمماً ، فبانت الأرض المحيطة به وكأنها خرائب تولدت من حريق[1] . وتحدث أعراب آخرون للسائح (برترام توماس) عن مكان آخر يقـع في جنوب شرقي هذا الموضع بمسافة (٢٠٠) ميل ، قالوا له إنه مكان (وبار) المدينة المفقودة المنكوبة كما عثر رجال شركة (أرامكو) على موضع في البادية وذلك في سنة ١٩٤٤ ؛ زعم لهم الأعراب انه مكان وبار،مما يدل على أن الأعراب يطلقون اسم وبار على مواضع عديدة تقع في البوادي . والبوادي أنسب مكان يليق في نظرهم بأن يكون موطن وبار[2] .

عبيل :

و (عبيل) مثل أميم لا نعرف من أمرهم غـير نتف ذكرها الأخباريون الذين زعموا انهـم اخوان عاد بن عوص ، أو اخـوان عوص بن إرم ، وانهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا يثرب . وكان الذي اختطها منهم رجل يقال له (يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل)[3] . ثم ان قسمـاً من العماليق انحدروا الى يثرب ، فأخرجوا منها عبيلاً ، فنزلوا موضع (الجحفة) ، فأقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت (الجحفة)[4] .

وقد ورد في التوراة اسم ولد من أولاد (يقطان) ، هو (Obal) (عوبال)

---

١ Philby, The Empty Quarter, P., 165, R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126, 132.

٢ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 132.

٣ ابن خلدون (٢/ ٢١) ، « وعاد وعبيل ابنا عوص بن ارم بن سام بـن نـوح » ، طبقات ابـن سعد (حـ ١ ، قسم ١ ص ١٩) .

٤ ابـن سعد ، طبقات (حـ ١ قسم ١ ص ٢٠) ، البلدان (٣/ ٦٢) .

أو (Ebal)[١] . وهذا الاسم قريب من (عبيل) ، لذلك رأى بعض علماء التوراة أن من الممكن أن يكون (عبيل) هو (عوبال)[٢] . ونجد في جغرافيا بطلميوس اسم موضع يقال له Avalitae على خليج يدعى بهذا الاسم (Avalites Sinus) وعليه مدينة تسمى (Avalites Emporium) ، وسكانها يعرفون باسم (Avalites) . وقد ورد هذا الاسم عند (بلينيوس) على صورة (Abalitae) و (Abalites) ، ويرى (فورستر) أن من المحتمل أن يكون هؤلاء هم (عوبال)[٣] وقد يكون أبناء عوبال هم عبيل .

وذكر أن في اليمن مكاناً يقال له عبيل[٤] ، وقرية تقع على طريق صنعاء تعرف بـ (عبال)[٥] . وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل . غير أني لا أريد أن أقول الآن شيئاً فيما يخص (عبيلا) ، فلا يجوز الحكم في مثل هذه الأمور لمجرد تشابه الأسماء ، وانما ذكرت ذلك للمناسبة العارضة وللتنبيه .

وأما عبد ضخم ، فكانت تسكن على قول الأخباريين الطائف ، وهلكوا فيمن هلك من الشعوب البائدة ، وكانوا أول من كتب بالخط العربي[٦] . وذكر الطبري انهم حي من عبس الأول[٧] .

ويذكر أهل الأخبار ان (أمية بن أبي الصلت) ذكر (بني عبد ضخم) في شعره ، اذ قال فيهم :

كما أفني بني عبد بن ضخم ... فما يذكو لصاليها شهاب
بني بيض ورهط بني معاذ ... وفيهم عزة وهم غلاب[٨]

---

١ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، اية ٢٢ ، التكوين ، الاصحاح العاشر ، اية ٢٨ .

٢ Hastings, P., 201, Ency., Bibli., P., 2462, M. Gottfried Buchner's Biblische Real und Verbal Hand., S., 276

٣ Forster, Vol., I, P., 148, 149.

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 426.

٥ Scott The High Yemen, P., 185.

٦ ابن خلدون (٢/٢١) ، « عبد ضخم بن ارم » .

٧ « وكان ساكني الطائف بنو عبد ضخم ، حي من عبس الاول » ، الطبري (١/٢٠٣) « دار المعارف » .

٨ الاكليل (١/٧٥) .

وقد ذكر الهمداني أن (ابن الكلبي) يرى أن (عبد ضخم) و (بيض)، وهما حيّان ، هما اللذان وضعا الكتاب العربي ، وذكر الهمداني أن الشاعر (حاجز الأزدي) ضمن هذا الرأي بقوله :

عبد بن ضخم اذا نسبتهم   وبيض أهل العلوّ في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطهم   فبين الخط لهجة العرب[1]

جرهم الأولى :

وجرهم هؤلاء ، هم غير (جرهم) القحطانية على رأي النسابين والأخباريين، ولذلك يقولون لجرهم هذه (جرهم الأولى) ، ولجرهم القحطانية (جرهم الثانية) ، ويقولون عن الأولى انهم من طبقة العرب البائدة ، وأنهم كانوا على عهد عاد وثمود والعمالقة[1] . ويظهر من روايات الأخباريين أنهم كانوا يقيمون بمكة ، ويرجعون أنسابهم الى (عابر) ، وأنهم أبيدوا : أبادهم القحطانيون[2] .

أما جرهم الثانية ، أي جرهم القحطانيين فينسبهم بعض أهل الأخبار الى (جرهم بن قحطان بن هود) وهم أصهار اسماعيل[3] .

وقد ورد اسم (جرهم) عند (اصطيفان البيزنطي) من الكتبة اليونان[4] .

العمالقة :

وحشر الأخباريون العمالقة (العماليق) في هذه الطبقة أيضاً ، فنسبوهم الى (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح)[5] . ولم تذكر التوراة أصلهم ونسبهم ،

---

١ الاكليل (٧٨/١) .
٢ Enc., Vol., I, P., 1066.
٣ ابن خلدون (٣٠/٢) ، صبح الاعشى (٣١٤/١) ، Enc., Vol., I, P., 1066.
٤ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٢٢) .
٥ Enc., Vol., I, P., 1066.
٦ الطبري (٢١٣/١ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، « طبعة أوربة » .

وهي لا تشير الى أبناء (لود) أو (لاوذ) كما يقول له الأخباريون[١] .

(وعمليق) جد العمالقة ، هو شقيق طسم . ويذكرون أنهم كانوا أمماً كثيرة، تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر. ويعرف أهل عمان والبحرين بـ (جاسم) ، وجاسم هم من نسل عمليق على زعم أهل الأخبار . وكان من العمالقة أهل المدينة ، ومنهم (بنو هف) و (سعد ابن هزان) و (بنو مطر) و (بنو الأزرق) . وكذلك سكان نجد ، ومنهم بديل وراحل وغفار ، وكذلك أهل تيماء[١] .

وكان ملكهم (الأرقم) ، وهو من العمالقة[٢] . وهو من معاصري (موسى) على رواية الهمداني . وقد أرسل (موسى) عليه جنداً لمقاتلته ففتك بأتباعه أهل تيماء وببقية عمالقة الحجاز[٣] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن (العماليق) لحقت بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء، ثم انحدر بعضهم الى يثرب ، فأخرجوا منها (عبيلاً) ، وسكنوا في ديارهم ، وذهبت (عبيل) الى موضع (الجُحْفَة) ، فأقبل السيل فاجتحفهم ، فذهب بهم ، فسميت الجحفة[٤] . وذكروا أن (موسى) أرسل جيشاً لحرب عماليق يثرب[٥] ، ولم نجد في التوراة ذكراً لمثل هذا الجيش ، أو الحرب .

والعمالقة الذين نتحدث عنهم ، هم عرب صُرحاء ، من أقدم العرب زماناً، لسانهم اللسان المُضَري الذي هو لسان كل العرب البائدة على حد قول أهل الأخبار[٦] . بل زعم بعضهم أن عمليقاً،وهو أبو العمالقة ، أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم (العرب العاربة)[٨] .

ويظهر من فحص هذا المروي في كتب الأخباريين عن العمالقة ونقده أنه مأخوذ من منابع يهودية ، فقد ذكر العمالقة في التوراة ، وقد كانوا اول شعب

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١١٢/٢ فما بعدها) ،
Hastings, P., 24, The Uni. Jew. Enc., Vol., I,, P., 218.
٢ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف »
٣ الطبري (٢٠٣/١)
٤ الاكليل (٧٤/١ وما بعدها) .
٥ الطبري (١/ ٢٠) .
٦ Enc., Vol., I, P., 325.
٧ الطبري (٢٠٣/١ فما بعدها) .
٨ الطبري (٢٠٧/١ فما بعدها) .

صدم العبرانيين حينما خرجوا من مصر متجهين الى فلسطين[1] . وظلوا يحاربونهم، ويكيدونهم خسائر فادحة ، وأوقعوا الرعب في نفوسهم ، ولهذا ثار الحقد بينهم على العماليق . ويتجلى هذا الحقد في الآيات التي قالها النبي (صموئيل) لشاؤول (Saul) أول ملك ظهر عند العبرانيين ، قالها لهم باسم اسرائيل : « إياي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه اسرائيل . والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود . اني افتقدت ما عمل عمليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرموا كل ماله ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً »[2] . وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين .

وقد كانت منازل العمالقة من حدود مصر فطور سيناء الى فلسطين . وعدم ذكر العبرانيين لهم في جملة قبائل العرب لا يدل على أنهم لم يكونوا عرباً، فقد ذكرت أن العبرانيين لم يطلقوا لفظة (عرب) الا على الأعراب،أعراب البادية، ولا سيما بادية الشام[3] . ثم ان العمالقة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها العبرانيون، وحملوا حقداً عليها، وهم عندهم وفي نظرهم أقدم من القحطانيين والإسماعليين .

حضورا :

وأورد أهل الأخبار قصصاً عن (حضورا) ، فذكروا أن (حضورا) كانوا يقيمون بالرسّ ، وكانوا يعبدون الأوثان ، وبعث اليهم منهم نبي منهم اسمه (شعيب بن ذي مهرع) ، فكذبوه ، وهلكوا[4] .

وهنالك عدة مواضع يقال لها (الرس) منها موضع باليمامة ، وموضع كان فيه ديار نفر من ثمود[5] .

---

١ Musil, Hegaz, P., 460, The Uni. Jew. Enc., Vol., I, P., 218.

٢ صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١ فما بعدها .

٣ Hastings, A. Dictionary of the Bible Vol., I, P., 77.

٤ ابن خلدون (٢٠/٢) ، نهاية الارب (٨٦/١٣ فما بعدها) ، « قال كعب : ان اصحاب الرس كانوا بحضرموت » ، نهاية الارب (٨٨/١٣) .

٥ البلدان (٢٥٠/٤) .

وورد في القرآن الكريم (أصحاب الرسّ)[1] ، مع عاد وثمود ، وذهب المفسرون الى أنهم كانوا جماعة (حنظلة) ، وهو نبي ، فكفروا به ورسّوه في البئر[2] ، الى غير ذلك من الأقوال .

ويظهر من القرآن الكريم أن (أصحاب الرس) كانوا مثل جماعة عاد وثمود في الطبقة ، أي في زمانهم ، وأنهم هلكوا أيضاً . وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن نبي (أصحاب الرس) هو (خالد بن سنان) ، وقد ذكروا أن الرسول ذكره ، فقال فيه : « ذاك نبي ضيّعة قومه »[3] .

وذكر (الهمداني) أن (حنظلة بن صفوان) كان نبياً في اليمن ، وقد أرسل الى سبأ ، وكان من (الأقيون) ، وهم بطن دخل في (حمير) ، وذكر أنه وجدت عند قبره هذه الكتابة : « أنا حنظلة بن صفوان . أنا رسول الله . بعثني الله الى حمير وهمدان والعريب من أهل اليمن ، فكذبوني وقتلوني » . وأنه أنذر قومه (سبأ) برسالته فكذبوه ، فلما كذبوه،أرسل الله عليهم سيل العرم[4] .

وذكر (الهمداني) أيضاً نقلاً عن (ابن هشام) أن (حنظلة بن صفوان ابن الأقيون) ، هو ، نبي الرّسّ ، والرس بناحية صيهد ، وهي بلدة منحرفة ما بين بيحان ومأرب والجوف،فنجران فالعقيق فالدهناء ، فراجعاً الى حضرموت. وذكر أيضاً أن الرس ، بمعنى البئر القليلة الماء ، وأن أهل الرس قبائل من نسل أسلم ويامن أبو زرع ورعويل وقدمان ، وهم من نسل قحطان . وقد كذبوا نبيهم (حنظلة) وقتلوه وطرحوه في بئر رس ماؤها[5] .

وروى أهل الأخبار أن (بختنصر) (نبوخذ نصر) غزا أهل (حضور) (حضوراء) وأعمل فيهم السيف وأجلى خلقاً منهم إلى أماكن أخرى ، لأنهم كفروا وجحدوا نبوة نبي منهم أرسله الله اليهم ، وهو (شعيب بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور) ، ولم يصدقوه ، وكانوا أصحاب بطش وشدة

---

١ « وعادا وثمودا واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا » ، الفرقان ، ٢٥ ، اية ٣٨ ، « كذبت قبلهم قوم نوح ، واصحاب الرس وثمود » ، ق ، ٥٠ ، اية ١٢ .
٢ البلدان (٤/٢٥٠) ، قصص الانبياء (١٤١) ، حياة الحيوان ، للدميري ، مادة عنقاء نهاية الارب (١٣/ ٨) ، Enc., Vol., I, P., 479.
٣ الاصابة (١/٤٦٨) .
٤ الاكليل (١/١٢٠ وما بعدها) .
٥ الاكليل (١/١٢١ وما بعدها) .

وغلظة . فلما قتلوه،أوحى الله الى نبي في عصره هو (برخيا بن أخبيا بن رزنائيل ابن شالتــان) ، وكان من سبط (يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل)،أن يأتي (بختنصر) ، فيأمره بغزو (العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب) ، ويطــأ بلادهم بالجنود ، فيقتل مقاتلهم ، ويستبيح أموالهم . فأقبل (برخيا) من نجران ، حتى قــدم على (بختنصر) ، وذلك في زمان (معد بن عدنان) ، فوثب (بختنصر) على من كان في بـلاده من العرب ، وجمع مَنْ ظفر به منهم ، فبنى لهم حيراً على النجف وحصنــه ، ثم ضمهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظة ، ثم سار في بلاد العرب فالتقى بعـدنان بذات عرق ، فهزم (بختنصر) عدنان ، وسار الى (حضور) ، فانهزم الناس وفروا فرقتين : فرقة أخذت الى (ريسوب) وعليهم (عك) ، وفرقة قصدت وبار. أما الذين بقوا في (حضور) ، وحـاربوا (بختنصر) فقد احتصدتهم السيوف . ثم رجع ملك بابل بما جمع من السبايا ، فألقاهم بالأنبار ، وخالطهم بعد ذلك النبط ، ومات عدنان . فلما مات (بختنصر) ، خرج (معدّ بن عدنان) حتى أتى مكة ، ثم ذهب الى (ريسوب) فاستخرج أهلها ، وسأل عـن بقي من ولد (الحارث بن مضاض الجرهمي) وهو الذي قاتل دوس العتق ، فأفنى أكثر جرهم على يديه — فقيل : بقي (جرشم بن جلهمة) ، فتزوج معـــد ابنته (معانة) ، فولدت له (نزاراً)[1] .

وأهــل حضور الذين قتلوا نبيهم ، وقتلهم (بختنصر) هم شعب من أهل اليمن على رأي الأخباريين ، كانوا يقيمون الحضور أو (حضوراء) . وفي اليمن موضع يسمى (حضور) ، ينسبه أصحاب الأخبار الى (حضور بـن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير بن سبأ)[2] ، وذكروا أنه المكــان الذي قصده (بختنصر) ، فقتل أهله[3] . وعلى هذا المكان مسجد يزار حتى اليوم ، يقال له مسجد شعيب نبي أصحاب الرس[4] . وهو جبل من جبال اليمـن المقدسة ،

---

١ الطبري(٢٩١/١ وما بعدها) ، (٥٥٩/١) « دار المعارف » .
٢ « حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعــة » ، البكري ، معجــم (٤٥٦/٢) « طبعة السقا » ، اللسان (٢٧٨/٥) .
٣ البلدان (٢٩٦/٣) .
٤ الاكليل (١٢١/٨) « طبعة نبيه » ، Enc., Vol., 2, P., 210.

قال الهمداني : (وأما الجبال المقدسة عند أهل اليمن ، فجبل حضور وصنّين ورأس بيت فائش من رأس جبل تخلى ورأس هنوم ورأس تعكر ورأس صبر . وفي رؤوس هذه الجبال مساجد مباركة مأثورة)[1] .

وأرى أن قداسة هذه الجبال وردت اليها من الأيام التي سبقت الإسلام، من أيام الوثنية ، وأن المساجد التي أنشئت في رؤوسها ، إنما أنشئت فوق معابد قديمة ، لعبادة الأصنام ، وذلك كما حدث في أماكن أخرى من جزيرة العرب حيث اكتسبت بعض المعابد الوثنية القديمة قدسية خاصة . فلما جاء الإسلام ، ألبست ثوباً إسلامياً ، فبقيت حية ، وتحولت بمرور الزمن الى مزارات ومساجد تقام فيها الصلوات .

وقد اعتمد رواة خبر غزو (بختنصر) لأهل (حضور) على ما جاء عن (ابن الكلبي) و (ابن اسحاق) ونفر آخر ممن عرفوا برواياتهم هذا النوع من الروايات التي تعرف من معين الإسرائيليات . وما بنا حاجة أبداً الى البحث في أسماء رواته لمعرفة صلته بالتوراة . فالمسألة جد واضحة . خذ التوراة واقرأ ما جاء في أسفار (أرميا) ونبوءته، تجد القصة مكتوبة في السفر التاسع والأربعين: (عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ راصر[2] ملك بابل . هكذا قال الرب : قوموا اصعدوا الى قيدار ، اخربوا بني المشرق . يأخذون خيامهم وغنمهم ، ويأخذون لأنفسهم شققهم وكل آنيتهم وجمالهم ، وينادون اليهم الخوف من كل جانب .

« اهربوا ، انهزموا جداً ، تعمقوا في السكن يا سكان حاصور، يقول الرب، لأنّ نبوخذ راصر ملك بابل قد أشار عليكم مشورة ، وفكر عليكم فكراً . قوموا الى أمة مطمئنة ساكنة آمنة . يقول الرب لا مصاريع ولا عوارض لها . تسكن وحدها وتكون جمالهم نهباً ، وكثرة ماشيتهم غنيمة ، وأذرى لكل ريح مقصوص الشعر مستديراً ، وآتي بهلاكهم من كل جهاته يقول الرب . وتكون حاصور مسكن بنات آوى، إلى الأبد، لا يسكن هناك انسان، ولا يتغرب فيها ابن آدم[3] » .

---

١ الاكليل (١٢١/٨) « طبعة نبيه » .

٢ « نبوخذ راصر » «بختنصر » (نبوخذ نصر) .

٣ ارميا ، اصحاح ٤٩ ، اية ٢٨ وما بعدها .

أما النبي (برخيا) الذي زعم الأخباريون أنه هو الذي أشار على (بختنصر) بغـزو (حضور) ، فهـو « باروخ بن نيريا (نريا) بن محسيا » شقيق (سرايا) (Seraiah) [1] . وقد كان كاتباً ، محباً مخلصاً للنبي (أرميا)[2] ، وكان يكتب لأرميا ، وهو الذي كلفه النبي (أرميا) بالذهاب الى (بختنصر) حاملاً رسالة الى الملك[3] . وهي الرسالة المدونة في أسفار (أرميا). وقد ذهب الى بابل وقابل الملك ، ثم عاد الى القدس حيث هاجم (بختنصر) القدس واستولى عليها بتحريض من هذا النبي نبي العبرانيين !

ترى أن الأخباريين أخذوا قصة غزو (بختنصر) لحاصور ، القصة الواردة في أسفار (أرميا) ، وجعلوها غزواً لشعب (حضور) في اليمن،وهو موضع بعيد لا يعقل وصول (بختنصر) اليه ، وأضافوا اليه شيئاً من الزخارف التي وضعها (ابن الكلبي) أو غيره ، كإقحام اسم عدنان ومعد بن عدنان واسم نبي عربي جنوبي في القصة ، ولم يكفهم ذلك ، فجعلوا (برخيا) من أهل (نجران) ، وجعلوه يقطع المسافة ما بين نجران وبابل ، ليكلف (بختنصر) غزو العرب . وصيروا (حاصور) (حصور) الواردة في (أرميا) (حضور) و (حضوراء) ، وجعلوه في اليمـن ، ولم ينسوا البحث عن سبب ، فجعلوه اعتداء أهل (حضور) على نبيهم .

أما (حاصور) التوراة ، فإنها أرضون تقع في (العربية) ، كانت فيها ممالك صغيرة ، أو مشيخات ، كما يفهم ذلك من عبارة (أرميا) « وعن ممالك حاصور »[4] . وكانت تتاخم (قيدار) ولعلها كانت في البادية[5] . ويرى علماء التوراة أن سكانها كانوا من أهل المدر ، ويقيمون في بيوت ثابتة ، وقد أطلقت كلمة (حاصور) (Hazor) عليهم تمييزاً لهم عن أهـل الوبر ، وكانت ديارهم في جنوب فلسطين أو شرقها[6] .

---

١ ارميا ، اصحاح ٢٥ ، الاية ٥٩ .
٢ ارميا ، اصحاح ٣٢ ، الاية ١٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٠٤/١) ، وقد سجن مع ارميا في القدس وكانا يعارضان الملك « يهو ياقيم » « ٦٠٤ ق.م » ، Hastings, P., 85, Enc., Bibli., P., 491.
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٤/١) .
٤ ارميا ، اصحاح ٤٩ ، الاية ٢٨ .
٥ Hastings, P., 334.
٦ Enc., Bibli., P., 1978.

وتعني كلمة (حاصور) (Hazor) (Hasor) وجمعها (Hazerim) (Haserim) ما تعنيه لفظة (حيرتا) (Herta) في الإرمية و (الحيرة) في العربية ، من معنى (محاط) أي (محصور) (محاصر)، بمعنى الحصن أو الأمكنة المحاطة المحصورة أو (المضرب) و (الحمى) . وقد كان مشايخهم يقيمون في أسياف البادية في مخيمات ومضارب مع أتباعهم ، فهي في معنى (حيرتا) عند بني إرم و (Paremboles) عند اليونان[1] . وكانوا يرعـون الماشية من ماعز وأغنام وجمال في مناطقهم التي اعتادوا الإقامة بها ، ويظهر أنهم تعرضوا لجيوش (بختنصر) ، أو أنهم لم يساعدوه في حملتـه على فلسطين ، فاغتاظ منهم ، وجرد عليهم حملة،وكان من عادتهم الالتجاء الى الكهوف والمغاور حين مهاجمة عدو لهم ، حيث يذهبون الى مناطق بعيـدة يصعب عـلى الجيوش مطاردتهم ، فيتخذون منها مواطن آمنة ويعيشون فيها ما دام الخطر[2] .

ولم يكن للأخباريين علم دقيق بما يرد في التوراة من أمور ، فـلم يفطنوا أن من غير الممكن أن يكون أهل (حاصور) من أهـل اليمن ، لأن ذكر التوراة لهم مع (قيدار) يجعل مواضعهم في شمال جزيرة العرب ، ثم إن اليمن بعيـدة جداً عن (بختنصر) ، ولا يعقل أن يكون في امكان جيوشه الوصول بسهولة الى هناك . ثم إن الكتب اليهودية تصور (حاصور) في مكان في العربية الشمالية في جوار أرض (قيدار) ، ولم يكن لها علم واسع عن اليمن ، كما أن (باروخ) من القدس ولم يكن من أهل نجران .

ويظهر أن حرباً قديمة ماحقة ، أو كارثة طبيعية مثل زلزال أو هياج حرة، وقعت في (حضور) اليمن ، سبب تلفها وانزال خسائر كبيرة بها وبأهلها ، فترك ذلك أثراً عميقاً في ذاكرة الناس ، رواه كابر عن كابر،فوجد الأخباريون الذين وقفوا على أخبار التوراة ، أو كانوا يجالسون أهل الكتاب ويسائلونهم ، شبهاً بين (حاصور) و (حضور) ، وظنوا جهلاً بالطبع بما ورد في(أرميا) عن (حاصور) ، أن (حاصور) التوراة (حضور) اليمن ، ثم أضافوا الى ذلك ما شاءوا على طريقتهم في أمثال هذه المناسبات .

---

١ Musil, Deserta, P., 490.

٢ Musil, Deserta, P., 490, Montgomery, Arabia and the Bible, P., 64.

هلاك العرب البائدة :

هذا ويلاحظ أن هلاك العرب البائدة كان بسبب كوارث طبيعية نزلت بهم مثل انحباس المطر جملة سنين مما يؤدي الى هلاك الحيوان وجوع الإنسان ، واضطراره الى ترك المكان والارتحال عنه الى موضع آخر ، قد يجد فيه زرعاً وماءً وقوماً يسمحون له بالنزول معهم كرهاً لقوته ولتغلبه عليهم ، أو صلحاً بأن يسمح الأقدمون له بالنزول في جوارهم لاتساع الأرض وللفائدة المرجوة للطرفين . وقد يتفرق ويتشتت بين القبائل ، فيندمج فيها بمرور الزمن ويلتحق بها في النسب والعصبية ، فيكون نسبه النسب الجديد . وبذلك ينطمر ذكر القبيلة القديم والأصل الذي كان منه . وقد لا يبقى منه غير الذكريات ، كالذي رأيناه من أمر القبائل البائدة .

وقد تكون الكارثة هيجان حرّات وهبوب عواصف رملية شديدة عاتية تستمر أياماً واهتزازات أرضية في الأرضين غير المستقرة ، مما يلحق الأذى بالناس . ومن هنا نجد ذكر هذه الكوارث في القرآن الكريم وفي الأخبار الواردة عن هلاك القبائل المذكورة فيه ، أو التي لم ترد فيه ، وانما يذكر أسماءها أهل الأخبار .

هذا وقد ألّف بعض أهل الأخبار كتباً في بعض العرب البائدة ومن هؤلاء (عُبيد بن شريةَ الجُرْهُميُّ) ، و (ابن الكلبي) ، فقد ذكر ان لهذا مؤلفاً دعاه (كتاب عاد الأولى والآخرة) و (كتاب تفرق عاد)[١]،ومنهم (أبو البختري) و(وهب بن وهب بن كثير) فله (كتاب طسم وجديس)[٢] وغير ذلك . والغالب على هذه المؤلفات كما يظهر من الاقتباسات منها والمبثوثة في الكتب الباقية ، أنها ذات طابع أسطوري .

---

١ الفهرست (ص ١٤٧) .
٢ الفهرست (ص ١٥٢) .

الفَصلُ التَاسِع

العرب العاربة والعرب المستعربة

تحدثت في الفصل السابق عن العرب البائدة،وهم العرب الذين هلكوا واندثروا قبل الإسلام ، ولم يبق منهم غير آثـار وذكريات . أما العرب العاربة والعرب المستعربة (المتعربة) ، أو العرب القحطانيون والعرب العدنانيون ، فإنهم العرب الباقون الذين كانوا يؤلفون جمهرة العرب بعد هلاك الطبقة الأولى ، فهم العرب الذين كتب لهم البقاء ، وكان ينتمي اليهم كل العرب الصرحاء عند ظهور الإسلام[١] .

العرب العاربة :

أما الطبقة الثانية من طبقات العرب بعد البائدة ، فهي (العرب العاربة) على أقوال النسابين ، وهم من أبناء قحطان وأسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين ، الذين هم العرب المستعربة في عرف النسابين .

وقحطان الذي يرد في الكتب العربية ، هو (يقطان) الذي يرد اسمه في سفر التكوين ، وهو (قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)

---

١ الطبري (٢٠٤/١) « دار المعارف » .

في رأي أكثر النسابين[١] . وهو (يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام ابن نوح) في التوراة[٢] .

فنرى من ذلك مطابقة تامة بين النسب الوارد في الكتب العربية والنسب الوارد في التوراة ، مما يدل دلالة واضحة على أن الأخباريين أخذوا علمهم بنسبه من روايات أهل الكتاب ، وهم يؤيدون ذلك ولا ينكرونه[٣] .

وقد سرد بعض الأخباريين نسب قحطان في شكل آخر : مثل (قحطان بن هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[٤] . على أن هوداً هو عابر ، أو (قحطان بن هود بن عبد الله بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح) ، أو (قحطان بن يمن بن قدار) ، أو (قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن اسماعيل بن ابراهيم)[٥] . فنرى من ذلك أن بعض شجرات النسب أدخلت أسماءً عربية بين الأسماء المأخوذة من التوراة .

وقد ألح بعض نسّابي اليمن على جعل (هود) عابراً ، وعلى جعله والد قحطان ، وأصروا على ورود ذلك في الشعر ، ولم يكن من العسير عليهم بالطبع ايجاد ذلك الشعر ووضعه ، فكانوا إذا نوقشوا في ذلك ، احتجوا بقول الشاعر :

وأبو قحطان هو ذو الحقف[٦]

واحتجوا بأمثال ذلك من كلام منظوم أو منثور . وجاءوا بأكثر من ذلك لإفحام الخصوم .

---

١ مروج (٢٧٦/١ فما بعدها) ، ابن هشام (٤/١) « طبعة وستنفلد » ، (٥/١) ، « طبعة الابياري وجماعته » ، القاهرة (١٩٣٦ م) ، نهاية الارب (٢٧٥/٢) ، الاخبار الطوال (ص ٩) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) ، الاكليل (٨٧/١ فما بعدها) الطبري (٢٠٥/١) ، « دار المعارف » ابن خلدون (٩/١)

٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٥ فما بعدها .

٣ « ويقطن ، هو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح » ، الطبقات : لابن سعد ، الجزء الاول ، القسم الاول ، (ص ١٨ فما بعدها) ، ابن خلدون (٩/١) ، النويري ، نهاية الارب (٢٨٩/٢) .

٤ التنبيه (ص ٧٠) .
Wuestenfeld, Genealogische Tabellen der Arabischen Staemme und Familien, Goettingen, 1852-1853.

٥ التنبيه (ص ٧١) ، ابن خلدون (٤٦/٢) .

٦ التنبيه (ص ٧١) ، منتخبات (ص ٨٣) ، اخبار عبيد (ص ٣١٣) .

والقائلون إنّ (قحطان) هو (قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل) هم نسّابو ولد (نزار بن معدّ) ، أي النزارية ، الذين كانوا يقابلون (اليمانية) في صدر الإسلام وفي الدولة الأموية والعباسية ، يؤيدهم في ذلك بعض اليمانية ، مثل (هشام بن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) و (نصر بن زروع الكلبي) و (الهيثم بن عدي)[1] . ويظهر أن غايتهم من ذلك وصل نسب قحطان بشجرة نسب أولاد إسماعيل . أما سائر اليمانية ، فتأبى ذلك ، وتذهب إلى أنه (قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[2] .

وتستهدف هذه الروايات غاية عاطفية بعيدة على ما يظهر ، كانت ذات أهمية في نظر القحطانيين ، هي وصل نسبهم بالأنبياء . فبعد أن ذكروا ما ذكروا من أخبار مُلكهم ودولهم قبل الإسلام ، وجدوا أن العدنانيين يفخرون عليهم مع ذلك بأن فيهم النبوة والأنبياء ، منهم الرسول ، وفيهم اسماعيل جدهم . فأرادوا أن يكون لهم أجداد أنبياء : أنبياء خلص قحطانيون ، أو أن يكون لهم نسب يتصل بنسب إسماعيل على الأقل ، أو أن يصل نسب إسماعيل بأسباب نسبهم ، فقالوا : إنهم من نسل هود ، وهود نبي من أنبياء الله ، وقالوا : ان قحطان من نسل اسماعيل ، وقالوا : إن هوداً هو عابر ، وعابر من نسل الأنبياء ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل ترمي الى ترجيح كفتهم على كفة منافسيهم العدنانيين في الفخر بالأنساب على الأقل .

ولم يعجب اليمانية المعنى الوارد في التوراة للفظة (يقطان) (يقطن) ، ولعلهم عرفوا معناها من أهل الكتاب ، فعكسوا المعنى بأن صيروه على الضد تماماً . جعلوه (الجبار) ، وقالوا : (واسمه في التوراة الجبار)[3] ، مؤكدين جازمين . أما في التوراة وعند أهل الكتاب وفي العبرانية ، فهو العكس ، ف (يقطان) في التوراة لفظة تعني (صائر صغير)[4] ، فهي في معنى : (صغير). وبين صغير وجبار فرق كبير . وهكذا صار الصغير جباراً . وبهذا التفسير أعاد النسّابون أو أحد المتحدثين اليهم من أهل الكتاب الهيبة والمكانة الى (قحطان) . وشاء بعض أهل الأخبار أن يكون دقيقاً في حكمه ، عارفاً بمدة حكم

---

١ التنبيه (ص ٧١) ، الاكليل (١٠٣/١ وما بعدها) .
٣ التنبيه (ص ٧١) .
٣ التنبيه (ص ٧٠) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٢٤/٢) .

(قحطان) ، لئلا يترك الناس في جهل من أمرها ، فجعلها مئتي سنة، لم يزد عليها ولم ينقص منها . وكان صاحب هذا الخـبر (هشام بن الكلبي) رأس الأخباريين في مثل هذه الأمور[1] .

وقد ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم قريب من اسم (قحطان) ، هو (كتنيتة) (كتانيتة) (Katanitae) [2] . غير أن هذا لا يدل حتماً على ان المراد منه (قحطان) ، اذ يجوز أن يكون اسم موضع لا علاقة له بقحطان ، أو اسم قبيلة من القبائل اسمها قريب منه . وقد ورد اسم قبيلة تدعى (قطن) أو (بنو قطن) ، كما ورد اسم موضع عرف بـ (جوّ قطن)[3] ، وذكر اسم مدينة بين (زبيد) و (صنعاء)،يقال لها (قحطان)[4] . وأشار (المسعودي) الى (جزائر قطن)[5] ، لهذا أرى أن من الخير ألا يتخذ الآن أي موقف كان لا سلباً ولا ايجاباً ، قبل اكتمال العدة والظفر بمواد مساعدة تكفي لاصدار الأحكام .

وقد عثر على اسم قبيلة عربية عرفت بقبيلة (قحطن) ، أي قحطان ، في نصوص المسند ، لا أستبعد أن يكون لاسمها علاقة بقحطان الذي صيّره أهـل الأخبار جداً لكل العرب الجنوبيين . فقد ذكـر بعد اسم (كدت) الذي هو كندة في النص: (Jamme 635) [6] وكان على قبيلة قحطان وعـلى كندة ملك واحد اسمه (ربيعت) (ربيعة)،وهو من (ثورم) (ال ثورم) (الثورم) أي (آل ثور) . وثور هو جد قبيلة كندة في عرف النسابـين من أيام الملك (شعر أوتر) ، وسأتحدث عنه وعن الملك فيما بعد .

ونحن لا نعرف من أمـر (قحطان) شيئاً غـير هذا النسب الـذي يردده الأخباريون ، وليس لدى العبرانيين من أمره غير ما ورد من انه أحـد أولاد

---

١ المحبـر (٣٦٤) .

٢ Ptolemy, Geogr., VI, 7,20,23, Glaser, Skizze, Bd., 2, S. 283 Knobel, Die Voekerstafel der Gensis, S., 185, Forster, The Historical Geography, Vol., I, 80, O'leary, P., 18.

٣ Glaser, Skizze, S., 288, 422, Enc., Vol., 2, P., 629.

٤ احسن التقاسيم ، (٨٧/٣ ، ٩٤) « الطبعة الثانية » .

٥ مروج (٩١/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

٦ Jamme 635, MaMb270, Mahram, P., 136.

(عابر) وآخرهم ، وانه جد قبائل عديدة قديمة . وسكوت أهل الأخبار عنه واكتفاؤهم بسرد نسبه،دليل على أخذهم له من التوراة .

أما أولاده ، فلم يبخل عليه أهل الأخبار بالأولاد ، فوهب بعضهم له امرأة سمّوها (حنى بنت روق بن فزارة بن سعد بن سويد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح)[1] ، ووهبوا له من الولد ما تراوح عدده من عشرة ذكور الى واحد وثلاثين على حسب كرم الراوي أو بخله على قحطان،من بينهم يعرب وحضرموت وعمان وجرهم[2] .

وقد ذكر (الهمداني) أولاد (قحطان) على هذا النحو : يعرب ابن قحطان ، ودعاه بـ (المزدغف) ، ومعنى (المزدغف) المحتوي للأشياء، وجرهم بن قحطان،ولؤي،وخابر،والمتلمس ، والعاض (العاصي) (القاضي)، وغاشم ، والمعتصم ، وغاصب ، ومغرز ، ومبتع ، والقطامي ، وظالم ، و (الحارث) (الحرث) ، ونباتة ، وقاحط ، وقحيط،ويعفر جد المعافر ، والمود ، والمودد ، والسلف ، والسالف ، ويكلأ ، وغوث ، والمرتاد،وطسم، وجديس ، وحضرموت ، وسماك ، وظالم ، وخيار ، والمتمنع ، وذو هوزن ، ويأمن ، ويغوث ، وهدرم . وقد أخذ هذه الأسماء من روايات أشار الى أسماء رواتها . وقد جمعتها ليكون في إمكان القارىء الاحاطة بها[3] .

وذكر (الهمداني) في موضع آخر انه قرأ « في السجل الأول : أولد قحطان بن هود أربعة وعشرين رجلاً ، وهم : يعرب ، والسلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال ، وهو الذي بنى صنعاء ، ويكلى الصغرى، وخولان ــ خولان رداع في الفقاعة ــ والحارث ، وغوث ، والمرتاد ، وجرهم ، وجديس ، والمتمنع ، والمتلمس ، والمتغشمر ، وعباد وذو هوزن ، ويمن ، وبه سميت اليمن ، والقطامي ، ونباتة ، وحضرموت ، وسماك،وظالم ، وخيار،والمشفتر »[4]. وقصد بـ (السجل الأول) سجل خولان الذي تحدثت عنه آنفاً .

أما الذي تولى الملك بعد قحطان ــ على رأي الأخباريين ــ فكان يعرب ،

---

١ مروج (٢٧٧/١) .
٢ مروج (٢٧٧/١) ، ابن خلدون (٤٧/١) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) .
٣ الاكليل (١١٦/١ وما بعدها) .
٤ الاكليل (١٣١/١ وما بعدها) .

وكان ملكه باليمن ، وقد غلب بقايا عاد ، ووزع اخوته في الأقطـار ، فأقر أخاه حضرموت على الأرضين التي عرفت باسمه فقيل لها حضرموت، وعين عمان على أرض عمان ، وولى جرهماً على الحجاز[1] .

ولا نعرف من أمر يعرب شيئاً غير ما ذكره بعض الأخباريين من ان أم يعرب هي من عاد أو من العماليق ، ومن أن له اخوة من أمه ، هم : جرهم والمعتمر والمتلمس وعاصم ومنيع والقطامي وعامي وحمير وغيرهم[2] .

وقد حكم (يعرب) على رأي بعض أهل الأخبار مدة تساوي المـدة التي حكم فيها أبوه ، أي مئتي سنة[3] . واذا كانت هذه المدة هـي مدة حكمه ، فلا بد أن تكون أيام حياته أطول من أيام حكمه . فعمره اذن عمر لا بد أن يحسده عليه كل أحياء هذا القرن ومن سيأتي بعدهم من الناس .

ولم ينسب أهل الأخبار والنسب الى يعرب ولداً كثيراً . فقـد نسب بعضهم اليه يشجب ، قالوا وبه كان يكنى ، وشجبان ، وبه سميت (شجبان) باليمن ، وهي أعلا رَمَع[4] .

ويلاحظ أن بين (يشجب) و (شجبان) تقارباً كبيراً ، ولعل أحد الاسمين خلق الاسم الثاني . وجعـل بعضهم ليعرب من الولد : يشجب ، وحيدان ، وحيادة[5] ، وجنادة ، وواثلاً ، وكعباً[6] .

ولم يرد اسم (يعرب) في الشعر الجاهلي . وإنما ورد اسمه في شعر ينسب الى (حسّان بن ثابت)[7] ، وفي شعر ينسب الى (مضاض بن عمرو الجرهمي) ، وهو من جرهم ، قيل : إنه قاله لما أخرجتهم الأزد من مكة[8] . والشعران من النوع المصنوع المحمول على حسّان وعلى (مضاض) الذي لا أدري أكان يتكلم

---

١ صبح الاعشى (١٩/٥) ، ابن خلدون (٤٧/٢) ، القاموس (١٠٣/١)
٢ الاخبار الطوال (ص ١١) .
٣ المحبر (ص ٣٦٥)
٤ الاكليـل (١٢٤/١) .
٥ الاكليل (١٢٥/١) .
٦ الاكليل (١٣٢/١) .
٧ تعلمتم من منطق الشيـخ يعرب ابينا فصرتم معربين ذوي نفـر
الاكليل (١١٦/١) .
٨ الاكليل (١١٧/١) .

بهذا اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، أم بلسان أهل اليمن الذي يختلف عن هذا اللسان .

ولا نعرف لـ (يعرب) اسماً في التوراة ، لا في أبناء يقطان ولا في غير أبنائه . إنما نعرف أن في التوراة اسم ملك سمته (يرب Jareb) يظن بعض علماء العهد القديم أنه اسم ملك عربي كان يحكم مقاطعة عربية ، ومن الجائز في نظرهم أن يكون قد حكم (يثرب) ، أو مكاناً آخر في جزيرة العرب[١] . ولا يستبعد أن يكون أهل الأخبار قد سمعوا باسمه من يهود (يثرب) ، فصيّروه (يعرب بن قحطان) .

ويقصد الأخباريون بجرهم جرهماً الثانية،التي جاءت بعد هلاك جرهم الأولى . وقد أقامت بمكة ، وكان منها أرباب البيت[٢] . ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يتصورون أن قبيلة جرهم كانت ترعى البيت الحرام[٣] . وقد ذكر الأخباريون أن إسماعيل نشأ بينها وتزوج منها ، وأن أباه ابراهيم بعد أن قام ببناء الكعبة ورفع قواعدها ، ترك ابنه بينهم ، فصارت له صلة بهم[٤] . ثم تغلبت على جرهم خزاعة ، فانتزعت منهم السدانة ، واحتفظت بها إلى أن انتقلت إلى قريش .

وكان سبب تغلب خزُاعة على جرهم وخروجها من مكة ان جرهماً بغت على (قطوراء) وتنافست معها ، وكان (قطوراء) أبناء عم لجرهم،وكانوا يقيمون أسفل مكة بأجياد،وجرُهم في أعلاها بـ (قُعَيْقعان) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً،

١ Hastings, P., 427, Enc. Biblica., P., 331, KAT, 2, 414, 439, 3 ed. P. 150.

٢ « جرهم ، كقنفذ : حي من اليمن ، وهو ابن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ ابن سام بن نوح ، نزلوا مكة ، وتزوج فيهم اسماعيل عليه السلام ، وهم اصهاره ثم الحدوا واباده الله تعالى .. » ، تاج العروس (٨/٢٢٧) ، « جرهم : حي من العرب من ولد جرهم بن قحطان بن هود » شمس العلوم (حـ ١ ق ٢ ص ٣٢٢) ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ في بيت ينسب لزهير بن ابي سلمى :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال ، بنوه ، من قريش وجرهم

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : صنعة الامام ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٤ م (ص ١٤) .

٤ ابن خلدون (٢/٣٩) ، اللسان (١٤/٣٩٤) .

وقتل (السميدع) صاحب (قطوراء) ، وتصالح الطرفان ، واستقر الأمر لجُرْهم . ثم إن جرهماً بغت بمكة، وظلمت من دخلها من غير أهلها ، وأكلت مال الكعبة الذي يهدى لهـا . فلما رأت (بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة) و (غبشان) من خزاعة ذلك ، أجمعوا على حربها واخراجها من مكة، فاقتتلوا، فغلبتهم (بنو بكر) و (غبشان) فنفوهم من مكة[1] .

وذكر النسابون أن (قطوراء) (قطورا) كانوا أبناء عم جرهم ، وكانوا ظعناً من اليمن، فأقبلوا سيارة ، وعلى جرهم مُضاض بن عمرو ، وعلى (قطوراء) السميدع ، فاستقروا بمكة[2] . وعاشوا مع جرهم والعدنانيين أبناء اسماعيل بمكة بعد هجرتهم هـذه من اليمن ، ولم يتعمق النسابون في البحث عن أصل قبيلة (قطوراء) .

وقد نص (الطبري) ، على أن اسم جرهم هو (هذرم) ، ونص على أن والده هو (عابر بن سبأ بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح)[3].وهو نسب أخذ من التوراة إلا أن من أخذه ونقل الطبري روايته منه لم يروه صافياً نقياً ، بل غير فيه وبدّل ، جهلاً أو لسبب آخر . فإن (هذرم) هـو (هدورام) (Hadoram) في التوراة ، وهو الابن الخامس من أبناء (يقطان) أي قحطان[4] . وبذلك تكون (جرهم) من القبائل القحطانية بحسب رواية التوراة .

ولم يختف ذكر جرهم حتى في صدر الإسلام ، فكان القاصّ (عبيد بن شرية الجرهمي) ينسب الى جرهم ، ويظهر من شعر (حسان بن ثابت) أن

---

١ ابن هشام (١٢٣/١ فما بعدها) ، وجعل ابن اسحاق « قطوراء » اخا لجرهم ، تاج العروس (٢٢٧/٨) .

٢ ابن هشام (١٢٣/١) ، « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « قال ابن اسحاق : وكان اخوه قطوراء ، اول من تكلم بالعربية عند تبلبل الالسنة » تاج العروس (٢٢٧/٨) .

٣ الطبري (٢٠٧/١) ، « دار المعارف » .

٤ التكوين : الاصحاح العاشر ، الاية ٢٧ ، واخبار الايام آلاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٤٥٠/٢) ، Hastings, P., 324.

بقية منها بقيت باقية[1] ، وظلت جماعة منها تعيش على ساحل البحر الأحمر المقابل لمكة الى أواخر القرن الثاني للهجرة[2] . ومن بقـايا جرهم ، (العبيديون) في اليمن ، على زعم بعض الأخباريين[3] . هذا ، وما ذكره (الطبري) من وجود علاقة بين (جرهم) و (لحيان) يستند الى حقيقة[4] .

وقد ذكر (بلينيوس) اسم شعب دعـاه : (Charmaei) ، وذكـره (أسطيفان البيزنطي) كذلك ، ويرى (فورستر) انه (جرهم)[5] . ويشك بعض الباحثين في صحة هذا الرأي ، وذلك لأن الشعب المذكور كان يعيش على مقربة من المعينيين ، أي في أرض بعيدة عن مكة . ويدل ذكر (بلينيوس) و (أسطيفان البيزنطي) لهم ، على انهم كانوا من الشعوب العربية المعروفة في حوالي الميلاد وبعده ، ولهذا ورد ذكره عند هذين الكاتبين[6] .

وقد ذكر (الهمداني) ان موضعاً كان بمكة يقال له : (دوحة الزيتون) ، كان مقبرة من مقابر جرهم ، وان نفراً دخلوا المقابر ، فوجدوا أشياء ثمينة من مصوغات وكتابات[7] .

والى يعرب ينسب أهل الأخبار نشوء العربية ، فيزعمون انـه كان أول من أعرب في لسانه ، ولهذا قيل للسانه (العربية)[8] . وهذه رواية قحطانية تعارض الروايات العدنانية بالطبع ، ويظهر من بعض روايات أهل الأخبار ان (يعرب) هو الذي جاء بولده الى اليمن ، فأسكنهم بها ، الا انها لم تذكر الموطن الذي

---

١ فلو سئلت عنـه معد بأسرها وقحطان او باقي بقية جرهمـا
ديوان حسان بن ثابت ، رواية ابي سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي « طبعة سلسلة جب » ، بعناية « هرشفلد » ، ليدن ١٩١٠ م ، (ص ٤٤) .
Enc., Vol., I, P., 1066.

٢ Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ الهمداني : صفة (ص ١٨٨)

٤ الطبري (١/٧٤٩) « طبعة اوربة » ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٥ Forster, Vol., I, P., 123.

٦ Enc., Vol., I, 1066.

٧ الاكليل (٨/١٦١ فما بعدها) ، « طبعة نبيه » ، (١٨٣ فما بعدها) « طبعـة الكرملـي » .

٨ مروج (١/٢٧٧) .

جاء منه[1] . وتذكر هذه الروايات ان ولده كانوا أول من حيّا بتحية الملك ، فقالوا له : (أبيت اللعن) و (أنعم صباحاً)[2] ، وهي تحايا ينسبها بقية الأخباريين الى غيره من الملوك المتأخرين . وسأتحدث عنها فيما بعد .

وانتقل الملك — على رأي الأخباريين — من يعرب الى ابنه يشجب ، ويقال له (يمن) ، ومن ولده عبد شمس ، ويقال له عامر ويلقب بـ (سبأ) على زعم بعض الأخباريين . زعموا انه هو الذي بنى قصر سبأ ومدينة (مأرب) ، وانه فتح مصر وبنى بها مدينة عين شمس ، وانه أول من سنّ السَّبْيَ ، ولذلك عرف بـ (سبأ) ، وغير ذلك مما يقصه علينا أهل الأخبار[3] .

ويلاحظ ان النسابين قد بخلوا على (يشجب) كثيراً ، فلم يهبوا له أولاداً كثيرين ، وكل ما أعطوه هو : (سبأ الأكبر) ، واسمه كما رأينا (عبد شمس) ، وأعطاه بعضهم بالاضافة اليه : (جرهم بن يشجب) ، و (شجبان بن يشجب) ، فأولد (شجبان) صيفياً ، وأولد صيفي مالكاً ، وأولد مالك الحارث ، وقد ملك[4] .

ويذكر (الهمداني) نقلاً عن بعض الرواة ان لقب (سبأ) ، هو (الأعقف) ، قال : « وكان أول من استعمل لتدمير الحكم في ملكه ، وأول من نصّب ولي العهد في حياته .. وأول من سبى السبي ممن ختر به وحاربه وناصبه » . وروى في ذلك شعراً نسبه الى (علقمة بن ذي جدن)[5] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) نقلاً عن (عيسى بن داب) ان ملك (عبد شمس) ، أي (سبأ) ، كان في زمن (كيقباد) ، فسار (سبأ) في مدن اليمن ومخابثها ، وكانت اذ ذاك في بقايا عاد ، فلم يدع بأرض اليمن أحداً منهم الا سباه واستعبده فسمي (سبأ) ، ووطد بذلك حكم القحطانيين في اليمن[6] .

---

١ « صار يعرب بن قحطان الى ارض اليمن في ولده فاستوطنها ، وهو اول من نطق بالعربيــة » ، حمزة (ص ٨١) .
٢ حمزة (ص ٨١) ، الاكليل (١١٦/١ وما بعدها) .
٣ ابــن خلدون (٤٧/٢) ، التيجان (ص ٤٩) ، المحبر (ص ٣٦٤) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) ، حمزة (ص ٨١) ،
Enc., Vol., 4, P., 1160, Wuestenfeld, Register, S., 388.
٤ الاكليل (١٢٥/١ وما بعدها) .
٥ الاكليل (١٢٥/١) .
٦ حمزة (ص ٨٢) .

وقد عثر العلماء على نص" وسموه بـ (Rep. Epigr. 4304) ، هـذا نصه : (عبد شمس ، سبأ بن يشجب ، يعرب بن قحطان) . وهـو نص أشك في صحته ، وأرى أنه وضع بعد الجاهلية بزمن، قد يكون غير بعيد . صنعه بعض من تعلّم حروف المسند ، أو ممن يتقنون صناعة تزييف العاديات اليمانية ، لأن أسلوب المسند معروف ، ولا نجد في نصوصه نصاً واحداً دوّن على هذا النسق في تدوين النسب . ثم إن هـذا النسب هو نسب متأخر وضع على أثر احتدام النزاع بين القحطانيين والعدنانيين في العصر الأموي كما سنرى فيما بعد . والظاهر أن ناقش النص ، وهو من اليمن ، أراد اثبات ورود هذا النسب عند السبئيين واقناع الناس بأنه كان معروفاً فدوّنه ، على كل حال إن في استطاعة الباحثين تقدير زمن تدوين هذا النص ، ودراسة طبيعة اللوح الذي دوّن عليـه بالطرق الفنية ، وعندئذ يمكن اثبات صحة تلك الكتابة أو عدم صحتها بطريقة علميـة لا تقبل جدلاً .

وجعل (المسعودي) لسبأ عشرة أولاد ، تشاءم منهم أربعـة ، وتيامن منهم ستة . فالذين تشاءموا : لخم وجُذام وعاملة وغسان ، والذين تيامنوا حمير والازد ومذحج وكنانة والأشعريون وأنمار الذين هم بَجيلة وخَثْعَم[1] . وذلك على رواية من جعل أنماراً من سبـأ ، وجعلهم في كتابه (التنبيه والأشراف) : حمـير وكهلان وعمرو والأشعر وأنمار وعاملة ومُر[2]. وجاء في كتاب (شمس العلوم): (سئل النبي عن سبأ ، فقال : رجل من العرب أولد عشرة : تيامن منهم ستة : حمير وهمدان وكندة ومذحج والأشاعر وأنمار ، وتشاءم منهم أربعة : جُذام ولخم وعاملة والأزد[3]) .

وأما (الهمداني) ، فأولد لسبأ العرنجج ، وهو حمير ، وكهلان ، وأضاف اليهما استناداً الى رواية (ابن الكلبي) : نصراً ، وأفلح ، وزيدان ، وعبدالله ، ونعمان ، والمود ، وهوذة أو أهود ، ويشجب ، ودرهماً ، وشداد ، وربيعة[4]. وأضاف الى هؤلاء استناداً الى رواية أخرى : أبا ملك عميكرب بن سبأ، وأهون

١ مروج (٢٧٨/١) .
٢ التنبيه (ص ٤٦) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) .
٣ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٢) .
٤ الاكليل (١٢٦/١ وما بعدها) .

ابن سبأ (الهون) ، وجعلهم : حميراً ، وكهلان ، وبشراً ، وريدان ، وعبدالله ، وأفلح ، والنعمان ، والمود ويشجب ، ورهماً ، وشداداً ، وربيعة ، في مكان آخر[١] .

ويذكر المسعودي أن حمير هو الذي تولى الملك بعد أبيه : وكان كما يقول : أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن ، ولذلك عرف بـ(المتوّج) . وحكم خمسين سنة[٢] . وقد عرف حمير بـ (العرنج) (العرنجج) . وذكر (ابن الكلبي) أنه كان يلبس حللاً حمراً ، وصرح بعض أهل الأخبار أنه كان هناك ثلاثة رجال عرفوا بـ (حمير) ، هم : الأكبر والأصغر ، والأدنى . فالأدنى هو حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة ، وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد بن عمرو ابن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حذار بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهيسع بن العرنجج ، وهو حمير الأكبر ابن سبأ الأكبر بن يشجب[٣] .

وأولاد حمير هم : مالك ، وعامر ، وعمرو ، وسعد ، وواثلة في رواية . والهميسع بن حمير ، ومالك بن حمير ، ولهيعة بن حمير ، ومُرة بن حمير على رواية (أبي نصر) في قول (الهمداني) ، والهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل ، ومشروح (مسروح) ، ومعديكرب ، وأوس ، ومُرّة على رواية أخرى ، وجعلهم بعض الرواة أكثر من ذلك عدداً[٤] . وقد ورد في الجزء الأول من الإكليل (عميكرب) في موضع (معديكرب) و (واسا) في موضع (أوس)[٥] .

---

١ الاكليل (١٣٣/١)

٢ مروج (٢٧٨/١) ، وجعل بعض النسابين لحمير تسعة اولاد ، هم : الهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل ، ومشروح (مسروح) ومعديكرب ، واوس ، ومرة ، وجعلهم بعض اخر اكثر عددا ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٠٦) ابن خلدون (٢٤٢/٢) .

٣ تاج العروس (١٥٨/٣) ، « وزرعة ، هو حمير الاصغر » ، الاشتقاق (ص ٢١٧ ، ٣٠٦) ، اللسان (١٤٧/٣) ، تاج العروس (٧٣/٢) .

٤ الاكليل (١٢٩/١) ، مروج (٢٧٨/١) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٠٦) ، ابن خلدون (٢٤٢/٢) .

٥ الاكليل (١٣٣)

وولد مالك بن حمير ، قضاعة بن مالك بن حمير ، جدّ قبائـل قضاعة في زعم من يجعل قبائل قضاعة من اليمن . أما نسّابو العدنانيين ، فيدخلونهـا في عدنان ، ولا يوافقون على إلحاق نسبها باليمن ، ويرون ان ذلك وقع متأخراً لدوافع سياسية وعصبية . وجعل (الهمداني) لقضاعة أولاداً هم : الحاف ، والحاذي ، ووديعة ، وعبادة[1] . أما صاحب (الاشتقاق) ، فقد اكتفى بذكر ولدين هما : الحاف والحاذي ، ثم قال : ومنهما تفرعت قضاعة[2] .

وولد الحاف بن قضاعة على رأي (الهمداني) هم : عمران بن الحاف ، وعمرو بن الحاف ، وأسلم بن الحاف ، وعُمَرايْد بن الحاف، وزيد بن الحاف ، وعبيد بن الحاف ، وعشم بن الحاف ، وسقام بن الحاف ، وليلى بنت الحاف، وسلمان بن الحاف على ما ورد في سجل خولان[3] .

فولد عمران بن الحاف ، حلوان بن عمران بن الحاف ، وتزيد بن عمران ابن الحاف ، وسليح بن عمـران بن الحاف[4] . فولد حلوان بن عمـران تغلب الغلباء، وربّان وهو علاف[5] . وقد عدهم (ابن حبيب) من (قبائل الحُمْسي من العرب)[6] . وقد جعل بعض النسابين (سليحاً) ابناً لعمـرو بن الحاف ابن قضاعة[7] . وذكر بعضهم ان اسم سليح هو (عمرو) . ونسبوا الى حلوان أبناء آخرين ، هم : مزاح ، وعابد ، وعائد ، وتزيد . وقد دخل بعض هذه القبائل في قبائل أخرى ، فدخلت (عابد) و (عائد) في غسان ، ودخلت تزيد في تنوخ .

وولد تغلب وبرة ، فولد وبرة كلباً والنمر والأسد والذئب والثعلب والفهد والضبع والدبّ والسيد والسرحان والبرك وتغلب والخشند وعبساً وضنـة . فولد الأسد بن وبرة تيم الله فهماً[8] وقهماً[9] في همدان ، وهو تنوخ ، وقد دخل في

---

١ الاكليل (١٦٦/١ ، ١٨٠) .
٢ الاشتقاق (ص ١٣٣) .
٣ الاكليل (١٨٠/١ وما بعدها) .
٤ الاكليل (١٨١/١ وما بعدها) .
٥ الاكليل (١٨٠/١) .
٦ المحبر (١٧٩) .
٧ المحبر (ص ٢٥٠) .
٨ بالفـاء
٩ بالقـاف .

تنوخ المتتخين ، وهم : جرم ، ونهد ، والأزد ، وإياد ، وشيع الله بن أسد. فأولد شيع الله جسراً ، فولد الجسر القين بن جسر . وولد تغلب بن وبرة عامراً ، وهو طابخة ، وولد النمر بن وبرة التيم وخشيناً وفتية بن النمر[1] .

وولد (ربّان) جرماً ، وعوفاً ، وأولد أسلم بن الحاف سوداً وحوتكة ابني أسلم . فولد سود ليثاً ، فولد ليث زيداً ، فولد زيد نهداً،وسعداً وجهينة . فولد سعد – ويعرف بسعد هذيم – عذرة والحارث وصعباً ومعاوية ووائلا بطون كلها . وولد عمرو بن الحاف[2] بهراء وبلياً وحيدان وخَوْلان ولوذة . وخولان تقول : لوذ. فأولد لوذ (هوذة) . وولد حيدان بن عمرو ، مهرة ، ومجيداً، وتزيد الذين تنسب اليهم (الثياب التزيدية)[3] .

وأولد مهرة بن حيدان : اضطمرى بن مهرة ، فولد اضطمرى ثلاثة نفر : الآمري ، ويقال آمري ، ونادغم ، والدين ، فولد الآمري : القمر ، والقرا، والمصلا ، والمسكا . ومن قبائل القمر : بنو ريام ، وبلدهم قرية يقال لها رضاع على ساحل بحر عُمان . ولهم جبل حصين بناحية عمان يمتنعون فيه يعرف بجبل بني ريام ، وبنو خنزريت ، وبنو تبرح . ومن قبائل الديل حسريت ، فأولد حسريت : الشوجم ، ويحنن ، وأولد يحنن : كرشان ، والثعين ، فمن الثعين بنو تبلة بن شاسة[4] .

ويختلف ما في (سجل خولان وحمير بصعدة) عن نسب مهرة بعض الاختلاف في رواية (أبي راشد) المتقدمة التي ذكرها الهمداني . ففي السجل المذكور : أولد مهرة : الآمري ، والدين ، ونادغم وبيدع بطن . فولد الآمري:اضطمري ومهرى. فولد اضطمري : القمر ، ويبرح . فولد يبرح : القرا ، وبني رثام . وولد مهرى : المذاذ والمسكا ، والمصلا . فولد المصلا ، المزافر . وولد الدين: الوجد ، والغيث ، فمن الغيث : بنو باغت ، وبنو داهر . وولد نادغم : العيد

---

١ الاكليل (١٨٢/١ وما بعدها) .
٢ في الاكليل (١٨٨/١) ، « وولد عمر بن الحاف بهرا » ، والصحيح « عمرو » والخطأ ، هو خطأ مطبعي ، اردت التنبيه عليه لاصلاحه .
٣ الثياب التزيدية ، هي التي بها خطوط حمر ، الاكليل (١٨٩/١) ، « التزيديات » « برود بني تزيد » ، معاهد التنصيص (ص ٨٥ ، ٢٥٧) ، الاكليل (١٨٩/١ وما بعدها) ، شمس العلوم (حـ ١ ، ق ١ ، ص ١٩٦)
٤ الاكليل (١٩٢/١ وما بعدها) .

وحسريت ، والعقار . فولد حسريت : الشوجم ، ويحنن ، فولد يحنن : الثعين ، والثغراء ، والكرشان . وقــال بعض الحضارمة : من نادغم : بنــو حديد ، وبنو بخ[1] .

وأولد مجيد بن عمرو بن حيدان بن عمرو و يحنناً ، وحياً ، وحبيباً ، وعندلاً ووداعة ، والأقارع[2] .

فأولد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة سبعة نفر : حيّ بن خــولان وهو الأكبر من ولده ، وسعد بن خولان ، وهو الذي ملك بصرواح ، ورشوان ابن خولان ، وهانيء بن خولان ، ورازح بن خولان ، والأزمع بن خولان ، وصُحار بن خولان[3] . ويضيف بعض النســاب اليهم أولاداً آخرين ، وجعلهم بعضهم ثلاثة عشر ابناً[4] .

وأولد حيّ بن خولان: عدي بن حيّ ، وزيد بن حيّ ، وشعب بن حيّ ، ومرثد بن حيّ ، وغنم بن حيّ ، والمقدام بن حيّ ، ونوف بن حيّ[5] . وتجد بعض الاختلاف في هذه الأسماء ، بحسب اختلاف روايات النسابين[6] .

ومن ولد حيّ بن خولان (جيهم) ، وهو الذي قال فيه امرؤ القيس :

فمن يأمن الأيام من بعد جيهم   فعلن بــه كما فعلن بحزفرا

وقد زعم أهل الأخبار أن (جيهماً) المذكور كان ملكاً من ملوك حمير[7] .

وأولد سعد بن خولان : ربيعة بن سعد ، وسعد بن سعد ، وعمرو بن سعد[8] . فأولد ربيعة : حجر بن ربيعة ، وسعد بن ربيعة ، وكامل بن ربيعة ، وفروذ ابن ربيعة ، ويغنم بن ربيعة ، ورشوان الأصغر بن ربيعة ، وداهكة بن ربيعة في بعض الروايات[9] .

---

١ الاكليل (١/١٩٣ وما بعدها) .
٢ الاكليل (١/١٩٨) .
٣ الاكليل (١/٢٠١ وما بعدها ، ٣٤٨) .
٤ الاكليل (١/٢٠٣) .
٥ الاكليل (١/٢٠٥ وما بعدها) .
٦ الاكليل (١/٣٤٨) .
٧ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٨) .
٨ الاكليل (١/٢١٧ ، ٣٤٨) .
٩ الاكليل (١/٢١٨) .

وأولد سعد بن سعد بن خولان : الحارث بن سعد ، وحرب بن سعد ، وغالب بن سعد ، وسهمك بن سعد ، وقثم بن سعد[1] . وأولد غالب بن سعد ابن سعد بن خولان : يعلى بن غالب، فأولد يعلى بن غالب : جبراً ، ومعيشاً، وشبلاً ، ثلاثة أبطن[2] .

وولد هانيء بن خولان : هلالاً ، وعلياً . فولد هلال شرحبيلَ وجابراً ، فولد شرحبيل هلالاً ، فولد هلال شرحبيل الأصغر ، وجابراً . وأولد شرحبيل الأصغر (جماعة) ، وهي قبيلة عزيزة . وهم أهل بوصان من أرض خولان. وجعل بعض النسابين ولد هانيء خمسة نفر : هلالاً ، ويعلى ، وعلياً ، وسعداً، وجامعاً[3] .

وأولد بن خولان مرتداً ، وعويضاً ، ورائماً ، ويعلى ، ويغنماً ، وبزيّاً ، بطون كلها . وذكر بعضهم قائمة تختلف عن هذه في أسماء هؤلاء الأولاد[4] .

وأولد رشوان بن خولان : لاحقاً ، ومخلفاً ، وخليفة ، وسعداً ، ومنبراً، وحرباً ، وخولياً . وهناك رواية أخرى تختلف عن هذه في ذكر الأسماء[5] .

وولد الأزمع بن خولان ثابتاً ، والأجبول ، وأخيل ، ومخيلا ، والأسووق، والجعل ، ومرّان[6] . وجعل بعض الأخباريين عدة ولده عشرة ، هم : مرّان، والكرب ، والأسووق ، وحفنى ، وعبدالله ، ويعلى ، وثابت ، وعمرو ، وعمير ، والناسك[7] .

وأولد صحار بن خولان ستة نفر : عامراً ، وبشراً ، وطارقاً ، وعلقمة ، وشبلا ، وحاذراً . وكل هذه بطون كبار[8] .

هذا واننا لنجد اختلافاً بين النسابين في تثبيت هذه الأنساب ، مما يدل على ان أهل النسب مع دعواهم بحفظ النسب ووجود مشجرات للأنساب عندهم ،

---

١ الافليل (١/٢٩٨) .
٢ الاكليل (١/٣١٤)
٣ الاكليل (١/٣٢١ وما بعدها ، ٣٤٨)
٤ الاكليل (١/٣٢٣ وما بعدها ، ٣٤٨) .
٥ الاكليل (١/٣٢٤ ، ٣٤٨) .
٦ الاكليل (١ / ٣٢٥) .
٧ الاكليل (١/٣٤٨) .
٨ الاكليل (١/٣٢٦) .

كانوا يختلفون فيما بينهم في النسب ، حتى اننا نستطيع أن نقول ان سجل خولان وحمير الذي بصعدة ، لم يكن يتفق مع الروايات الأخرى الواردة في النسب ، ويتجلى ذلك في الروايات المتناقضة التي نراها في الإكليل وفي غيره من كتب الأنساب ، ويظهر ان نسابي أهل اليمن، كانوا يعتمدون على علمائهم في النسب، وعلى ما كان مدوناً عندهم منه ، ولهذا تجدهم يختلفون في كثير من أنساب أهل اليمن عن النسابين الشماليين الساكنين في العراق أو في بلاد الشام .

وجعل (الهمداني) ولد (مالك بن حمير) على هذا النحو : (زيد بن مالك) ، و (زهران بن مالك) ، وهم حيّ عظيم ، ولهم كانت اليمامة ، و (هوازن الأولى بن مالك) و (الغمور بن مالك) و (الأخطور بن مالك) ، وقيل (هزان الأولى بن مالك) . وقد ولد زيد بن مالك (مرة بن زيد) ، فولد مرّة بن زيد عمرو بن مُرّة ، فولد عمرو بن مرة مالك بن عمرو ، فولد مالك بن عمرو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرّة بن زيد بن مالك بن حمير[1] .

وولد عامر بن حمير دهمان ، وولد دهمان (يحصب) كلها ، وولد سعد ابن حمير السلف وأسلم ، وولد عمرو بن حمير الحارث ، وولد (الحارث) (آل ذي رعين)[2] .

ويذكر ابن (قتيبة) ان الذي حكم بعد (حمير) هو أخوه (كهلان) ، وكان ملكه ثلاثمئة سنة ، أي أنه أضعاف أضعاف مدة حكم أخيه حمير . واذا كانت هذه هي مدة حكمه ، فلا بد أن يكون عمره يوم مات أكثر من ذلك بالطبع[3] . وقد ولد (كهلان) زيداً ، وولد (زيد) مالكاً ، وأدَداً ، فولد أدد طيئاً وهو جلهمة ، و (الأشعر) وهو (نبت) ، و (مالكاً) ، وهو (مذحج) ، و (مُرّة)[4] .

ومن طيء (بنوفطرة) ، و (الغوث) ، و(الحارث) . ومن (فطرة) : (سعد) ، ومنهم : (الأسعد) ، و (خارجة) ، و (تيم الله) . ومن

---

١ الاكليل (١/١٣٦) .
٢ المعارف (ص ٤٧) .
٣ المعارف (ص ٤٧) .
٤ المبرد ، نسب عدنان (ص ١٨) ، وفي المعارف : « طيء بن أدد ومالك بن زيد » (٣٥) ، وفي الاشتقاق : هما ابنا « زيد بن كهلان » ، (٢٢٨) .

(خارجة) ، (جديلة) ، ومن (جديلة) : (بنو رومان) ، ومنهم (ذهل) ، و (ثعلبة) ومن (ذُهْل) : ثعلبة ، و (جدعاء) ، ومن (جدعاء): ثعلبة ، ومن ثعلبة : تيم[1] .

ومن الغوث بن طيء : عمرو ، ومن عمرو : أشنع ، وثعل ، وبولان ، وهنيء ، ونبهان ، وجرم[2] . ومن (ثعل) : معاوية ، وسلامان ، وجرول. ومن معاوية : سنبس. ومن سلامان : بحتر ، ومعن . ومن جرول : ربيعة ، ولوذان . ومن ربيعة : أخزم[3] .

ومن ولد (مالك بن أدد) المعروف بمذحج : سعد العشيرة ، وعنس ، وجلد ، ومراد ، وهو يحابر[4] . ومن سعد العشيرة: جزء ، وزيد الله ، والحكم[5] ، وأوس الله ، وصعب ، وجعفى . ومن جزء : الحمد والعدل . ومن الحكم : جشم ، وسلهم . ومن صعب : زبيد ، وأود . ومن جعفى : مرّان وحريم[6].

ومن جلد : عُلّة . ومن عُلّة : حرب ، وعمرو ، . ومن حرب : يزيد ابن حرب ، ومنبّه بن حرب . ومن منبّه : رهاء ، ومن يزيد المعروف بصداء: الحارث ، والغلي ، وسيحان ، وشمران ، وهفّان ، ومنبه ، هؤلاء الستة يقال لهم : جَنْب[7] .

ومن (عمرو بن عُلّة) : عـــامر ، وكعب ، والنخع ، وهو جسر[8] . ومن عامر : مُسلية . ومن كعب : الحارث . ومن الحارث : معقل ، والحماس،

---

١ نسب عدنان (ص ١٩) ، الاشتقاق (٢٣٣) ، الاغاني (١٦ / ٩٣) ، سبائك الذهب (٥٦) .
٢ نسب عدنان (١٩)
٣ نسب عدنان (١٩) ، سبائك الذهب (٥٦) ، الاغاني (١٦/٩٣) ، الاشتقاق (٢٢٣) ، شمس العلوم (حـ ١ ق١ ، ص ٢٥٠)
٤ نسب عدنان (١٩) .
٥ نسب عدنان (١٩) .
٦ وفيها يقول لبيد :

ولقد بلت يوم النخيل وقبله   مران من ايامنا وحريم

نسب عدنان (١٩) .
٧ ويختلف النسابون في هذه الانساب ، نسب عدنان (٢٠) .
٨ نسب عدنان (١٩) ، « فمن بنى علة : النخع ، قبيلة ، واخوه جسر » ، الاشتقاق (٢/٢٣٧) .

وعبد المدان . ومن النخع : عوف ، ومالك[1] . ومن النخع : صلاءة ، ورزام. ومنهم الحماس ، والحارث ، وكعب ، وهو الأرتّ[2] .

ومن مراد وهو يحابر : زاهر ، وناجية . ومن ناجية : غطيف ، وقرن ، وبنو ردمان . ومنهم من جعل قرناً ابناً لردمان . ومن زاهر : الربض ، وبنو زوف ، والصنابح[3] .

ومن الأشعر : الجماهر، والأتغم ، والأدغم ، والأرغم، وجدة ، وعبد شمس، وعبد الثريا[4] .

ومن ولد (أدد) : (مرّة) . وولد (مُرة) : (الحارث) . وولد (الحارث) : (عدياً) ، و (مالكاً) . وولد (عدي) : (جذاماً) ، واسمه عمرو ، ومنهم بنو حرام ، وبنو حشم[5] ، و (لخماً) ، وهو (لخم بن عدي). ومنهم : (بنو جزيلة) ، و (بنو نمارة)[6] ، و (عفيراً) . ومنهم (ثور ابن عفير بن عدي) ، وهو (كندة) . و (الحارث) ، وهو (الحارث بن عدي) . وهو (عاملة)[7] .

وقد هجا (الكميت) جذاماً لأنها تحولت الى اليمن ، وهي معروفة بأنها من (بني أسد بن خزيمة)[8]. وهذا مما يدل على ان جذاماً كانت قد اختلط نسبها بسبب اختلاطها بالقبائل المتجمعة، وان نسبها اختلط لذلك بالقحطانيين وبالعدنانيين.

ومن كندة : (بنو معاوية) و (أشرس) . ومن (بني معاوية) : (الحارث)[9] ، ومنهم (الرائش)[10] . ومن (أشرس) : (السكون)[11]،

---

١ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .
٢ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .
٣ الاشتقاق (٢٤٧/٢ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (٢٤٨/٢) .
٥ الاشتقاق (٢٢٥/٢) .
٦ الاشتقاق (٢٢٥/٢ وما بعدها) .
٧ نسب عدنان (ص ٢٠) .
٨ المعاني الكبير (٥٢٤/١ وما بعدها) .
٩ نسب عدنان (ص ٢٠) ، نهاية الارب (٣٤١/١٣) ، وفيهم يقول الاعشى :
وان معاويـه الاكرميـن　　　حسان الوجوه طوال الامم
نسب عدنان (ص ٢١) .
١٠ نسب عدنان (٢١) ، المعارف (١٥٠) ، الاشتقاق (٢١٨)
١١ نسب عدنان (٢١) ، الاشتقاق (٢٢١) .

و (السكاسك) ، و (بنو حجر)[1] ، و (بنو الجون)،و(بنو الحارث)، وأولاده ، وقبائل أخرى[2] .

ومن (بني حرام) : (غطفان) ، و (أفصى) . ومن (جزيلة) : راشدة ، وحدس ، ومن نمارة : الدار ، وبنو نصر .

أما (مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد) ، فولد : (عَمْراً)، و (يعفر) : ومن (عمرو) خولان وهو فكل[3] ، ومن يعفر ولده : المعافر[4] .

وولد (خيار بن مالك) ربيعة ، وولد (ربيعة) أوسلة،وهو : همدان[5] ، وألهان . وولد همدان نوفاً وخيران ، فنهم بنو حاشد وبنو بكيل . منهم تفرقت همدان ، وعريب[6] . ومن بطون همدان : السّبيع ، ووادعة[7] .

وأما (خارجة) فنهم جديلة ، وهي من طيء[8] . وأما عمرو بن سعد ، فهو أبو خولان بن عمرو[9] . وولد (مراد بن مذجح) : أنعم بن مراد ، ويحابر ، وكان لهم يغوث بجرش . وولد خالد بن مذجح : علّة بن خالد . فولد علة عمراً . فولد عمرو : جسراً وكعباً . ومن كعب (بنو النار) ، و (بنو الحماص) ، و (بنو قنان)[10] .

وأما (سيدعان) ، فنهم سلامان[11] . وأما (زهران) ، فنهم (دوس ابن عدنان) ، ومنهم جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس ، وجهضم ابن مالك رهط الجهاضم[12] . وسليمة بن مالك ، وبنو هناءة ، ومعن بن مالك.

---

١ نسب عدنان (٢١) .
٢ نسب عدنان (٢١) .
٣ الاشتقاق (٢/٢٢٧) .
٤ الاشتقاق (٢/٢٢٧) .
٥ المعارف (٤٨) ، نسب عدنان (٢٠) ، « ولد مالك بن زيد بن كهلان : الخيار ، فولد الخيار اوسلة ، وهو همدان ، والهان » ، الاشتقاق (٢/٢٥٠)
٦ الاشتقاق (٢/٢٥٠)
٧ الاشتقاق (٢/٢٥٣) ، العقد الفريد (٢/٢٤٦) ، نسب عدنان (٢١) .
٨ طيء بن ادد ، واسمه جلهمة ، الاشتقاق (٢٢٨) .
٩ خولان واسمه فكل بن عمرو ... ولد يعفر المعافر باليمن ، تنسب اليهم الثياب المعافرية ، الاشتقاق (٢٢٧ وما بعدها) .
١٠ المعارف (٤٨) .
١١ المعارف (٤٩) ، الاشتقاق (٢٨٧) .
١٢ بنو جهضم بن جذيمة الابرش بن مالك ، الاشتقاق (٢٩٢)

ومنهم بطن يقال له يحمد ، والفراهيد . ومن زهران بنو يشكر والجدرة[1] .

وأما نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، فقد أولد (الغوث) . ومن (الغوث) عمرو والأزد . ومن (عمرو) : أراش ، ومن أراش : أنمار ، ومن أنمار : خثعم ، وبجيلة ، وعبقر[2] . ومن بجيلة : بنو قسر . ومن بطونهم : بنو نذير ، وبنو أفرك ، وعرينة[3] . ومن (خثعم) : شهران ناهس ، وشهران ، ويقال لهما بنو عفرس[4] .

وأما الأزد ، فمن ولده : مازن ، وعمرو ، ودوس ، ونصر ، ومالك ، وقدار ، والهنو ، وميدعان ، وزهران ، وعامر ، وعبد الله ، وغيرهم . وأما مازن فمنهم : ثعلبة ، ومنهم عامر ، وامرؤ القيس ، وكُرز . ومن امرئ القيس : حارثة الغطريف . ومنهم عديّ ، وعامر ماء السماء ، والتوأم ، ومن عامر ماء السماء ثعلبة العنقاء ، ومالك ، والحارث ، وجفنة ، وكعب ، وهم غسان . نزلوا على ماء يسمى غسان فنسبوا اليه . ومن ثعلبة العنقاء حارثة ، ومنهم الأوس والخزرج[5] .

وقد عرف (الأوس) و (الخزرج) بابني قَيْلَة[6] ، وذكر أنهم لم يؤدوا إتاوة قط في الجاهلية الى أحد من الملوك ، وكتب اليهم تبع يدعوهم الى طاعته. فغزاهم ، (تبع أبو كرب) ؛ فكانوا يقاتلونه نهاراً ، ويخرجون اليه العشاء ليلاً ، فلما طال مكوثه ، ورأى كرمهم ، رحل عنهم[7] .

ومن (نصر بن الأزد) : (حمار بن نصر بن الأزد) . قالوا : وكان له بنون فماتوا ، فحلف لأميتن من أحيا من أهل الجوف ، فقتل ثمود ، فقيل: أخلى من جوف حمار[8] .

---

١ المعارف (٤٩)
٢ الاشتقاق (٣٠٢/٢)
٣ الاشتقاق (٣٠٢/٢)
٤ الاشتقاق (٣٠٤/٢) .
٥ شمس العلوم (ح ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٢) ، نسب عدنان (٢١) ، الاشتقاق (٢٥٨ ، ٢٨٧) ، المعارف (٤٩) .
٦ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) .
٧ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) .
٨ شمس العلوم (ح١ ، ق١ ، ص ٢٦٢ وما بعدها) .

العرب المستعربة :

والطبقة الثالثة من طبقات العرب – على رأي أهل الأخبار – هم (العرب المستعربة) (المتعربة) ، ويقال لهم العدنانيون أو النزاريون أو المعديون . وهم من صلب (إسماعيل بن ابراهيم) وامرأته (رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي)[1] . قيل لهم (العرب المستعربة) ، لأنهم انضموا الى العرب العاربة، وأخذوا العربية منهم . ومنهم تعلم (إسماعيل) الجد الأكبر للعرب المستعربة العربية ، فصار نسلهم من ثَمّ من العرب واندمجوا فيهم . وموطنهم الأول مكة على ما يستنبط من كلام الأخباريين ، فيها تعلم (اسماعيل) العربية ، وفيها ولد أولاده ، فهي إذن المهد الأول للإسماعيليين[2] .

ويذكر أهل الأخبار أن (إسماعيل) ولد من زوجه (رعلة) ، اثني عشر رجلاً هم : (نابت) وكان أكبرهم ، و (قيذر) و (أذبل) ، وميشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور ، ونبش ، وقيذما[3] . وأكثر هذه الأسماء وروداً في الكتب العربية ، نابت،وقيذر . وقد أخذ النسّابون هذه الأسماء من التوراة ، فقد جاء فيها : (هذه أسماء بني اسماعيل بأسمائهم ، على حسب مواليدهم : نبايوث بكر إسماعيل ، وقيدار ، وأدبئيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة[4]) .

ولم تذكر التوراة اسم المرأة التي تزوجها إسماعيل ، فأولدها هؤلاء الأولاد الذين انتشروا ، فسكنوا في منطقة تمتد من (حويلة) الى (شور)[5] .

وعدنان في نظر العدنانيين هو جدّهم الأعلى،كما أن قحطان هو الجد الأعلى للقحطانيين[6] . ولما كانت الطبقة الأولى من العرب قد بادت وذهبت ، تكون

---

١ ابن هشام (٣/١) ، السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، ابن خلدون (٣٧/٢) ، الطبري (١٦١/١) ، ابن الاثير (٤٩/١) ، الطبقات – ١ ، ١ ، ص ٢٥ تاج العروس (٣٧٥/١) ، ونابت بن اسماعيل عليه السلام ، ولي بعد ابيه ،امه السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، تاج العروس (٥٩٠/١)

٢ المصادر المذكورة ، نهاية الارب (٣٩٢/٢) طبقات ، لابن سلام (ص ٤)

٣ ابن هشام (٣/١) ، ابن خلدون (٣٩/٢) ، الطبري (١٦١/١) ، ابن الاثير الكامل (٤٩/١) ، مع اختلاف في ضبط الاسماء .

٤ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٢ فما بعدها .

٥ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٨

٦ تاج العروس (٢٧٥/٩)

العرب الباقية وكلها من ولد قحطان وعدنان ، استوعبت شعوب العرب كلها .

وقد رأينا أن (قحطان) هو (يقطن) أو (يقطان) في التوراة . أما (عدنان) ، فلا نجد له اسماً فيها ، وقد رأينا أن بين (يقطان) و(سام) ثلاثة آباء أو أربعة . أما بين عدنان وسام ، فعدد كبير من الآباء .

وقد اختلف النسّابون في عدد من كان بين إسماعيل وعدنان من الآباء، فرأى بعضهم أنهم أربعون ، وروى غيرهم انهم عشرون ، وقال آخرون انهم خمسة عشر شخصاً[١] ، وقالت جماعة ان المدة طويلة بين عدنان واسماعيل بحيث يستحيل في العادة أن يكون بينهما هذا العدد من الآباء[٢] .

وقد اختلف الأخباريون وأصحاب الأنساب في نسب عدنان اختلافاً كبيراً ، واختلفوا بينهم حتّى في كيفية النطق بتلك الأسماء، على حين اننا لا نرى اختلافاً بينهم في نسب قحطان ، ولا في كيفية النطق بتلك الأسماء[٣] . وقد علل محمد ابن سعد الواقدي ذلك بقوله : « وكان رجل من أهل تدمر يكنى أبا يعقوب من مسلمة بني اسرائيل قد قرأ من كتبهم ، وعلم علمهم ، فذكر ان بورخ ابن ناريا ، كاتب أرميا أثبت نسب معد بن عدنان عنده ، ووضعه في كتبه ، وأنه معروف عند أحبار أهل الكتاب وعلمائهم ، مثبت في أسفارهم، وهو مقارب لهذه الأسماء . ولعل خلاف ما بينهم من قبل اللغة ، لأن هذه الأسماء ترجمت من العبرانية »[٤] .

ويقول الواقدي في موضع آخر : « وهذا الاختلاف في نسبته يدل على انه

---

١ النويري ، نهاية (٣٢٤/٢) ، ابن عبد البر ، القصد (٢٢)

٢ الطبري (١٩١/٢) ، ابن هشام (٣/١ فما بعدها) مروج (٣٩٤/١) ، طبقات ابن سعد (١ ، ١ ، ص ٢٨ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢) نسب عدنان (٢) ، صبح الاعشى (٣٠٧/١) ، نسب قريش ، لابي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (تحقيق ليفي بروفنسال ، (ص ٣ فما بعدها) .
Enc., Vol., I, P., 142, Wuestenfeld, Register zu den General.
Tabellen der Arab. Stamme, S., 47, Caussin de Perceval, Essai, I, 8, 175, J.D. Bate, An Examination of the claims of Ischmael, 1884, P., 109, Sprenger, Life of Mohammad, 57, Note 3, and 4, Mills, History of Mohammadanism, 7, Pocock, Specimen, 40.

٣ نهاية الارب (٣٠٦/٢)

٤ الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩)

لم يحفظ ، وانما أخذ من أهل الكتاب ، وترجموه لهم ، فاختلفوا فيه . ولو صح ذلك ، لكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أعلم الناس به . فالأمر عندنا على الانتهاء الى معدّ بن عدنان ، ثم الإمساك عما وراء ذلك الى اسماعيل ابن ابراهيم »[١] ، وقال أيضاً : « ما وجدنا في علم عالم ولا شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان بثبت »[٢] .

ونقل ابن خلدون رأي من تقدمه في هذا الاختلاف ، فقال : « ونقل القرطبي عن هشام بن محمد فيما بين عدنان وقيدار نحواً من أربعين أباً ، وقال: «سمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلمة يهود وممن قرأ كتبهم يذكر نسب معدّ ابن عدنان الى اسماعيل من كتاب أرمياء النبي ، عليه السلام ، وهو يقرب من هذا النسب في العدد والأسماء الا قليلاً ، ولعل الخلاف انما جاء من قبل اللغة ، لأن الأسماء ترجمت من العبرانية »[٣] .

ويرجع بعض أهل الأخبار اختلاف الناس في عدد الآباء والأجداد فيما بين عدنان واسماعيل الى أيام النبي ،فهم يذكرون ان الناس كانوا في خلاف فيما بينهم في عددهم ، وان الرسول لما رأى خلافهم هذا ، نهاهم عن تجاوز نسب (معد بن عدنان) ، وأمرهم بالتوقف عنده . وانتسب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الى عدنان ، وقال : « كذب النسابون ، فما بعد عدنان ، فهي أسماء سريانية لا يوضحها الاشتقاق »[٤] .

وقد جعل بعض الأخباريين اسم والد (عدنان) (أُدَداً) ، وساقوا نسبه على هذا الشكل : (عدنان بن أدد بن يرى بن أعراق الثرى)[٥] ، وساقه آخرون على هذا الوجه : (عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن عوص ابن يوز بن قموال بن أبي بن العوام بن ناشد بن بلداس بن تدلاف بن طابخ ابن جاحم بن ناحس بن ماخي بن عيقي بن عبيد بن الدعا ...) الى آخر ذلك

---

١ الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩)
٢ الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠) .
٣ ابن خلدون (٢ / ٢٩٨) ، ابن سلام ، طبقات (١١) ، ابن حزم ، جمهرة (٦) .
٤ الاشتقاق (٢٠) ، ابن خلدون (٣/١) ، البلاذري ، انساب (١٢/١) .
٥ الطبقات (حـ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) .

من سلسلة مفتعلة ولا شك ، رواها (ابن الكلبي)[1] . وقد سبق النسب على هذه الصورة أيضاً : (عدنان بن أدد بن الهميسع)[2] . وروي بصور أخرى في كتاب نسب قريش (للزبيري)[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن (أد) أو (أدد) ، ولا عن كيفية توصلهم الى أحدهما ، أو كليهما . وقد زعم بعض علماء اللغة ان (أد) من (أدّ)، والكلمة فعل من المودّة ، (قلبت الواو ألفاً لانضمامها)[4] .

وذكر الأخباريون أن (وُدّاً) ، وهو الصنم الشهير الذي تغلب على دومة الجندل وتعبدت له (كلب) و (قريش) وقبائل أخرى عديدة ، كان يهمز أيضاً ، فيقال (أدّ) ، وبه سمي (عبد وُدّ) ، كما سمي (أدّ بن طابخة) ، و (أدد جد معدّ بن عدنان)[5] .

ونجد بين آلهة الشعوب السامية اسم صنم يقال له : (أدد) (Adad) و (أدو) (Addu)[6] ، أرى أن لاسم هذا الصنم علاقة باسم (أدد) .

وقد ساق (محمد بن إسحاق) نسب عدنان على هذه الصورة أيضاً : (عدنان ابن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل)[7] ، فجمع بين نسب (عدنان) ونسب (يعرب) ، ورجعهما كما ترى الى (إسماعيل)، وساقه في مكان آخر بصورة أخرى .

والغريب أن الرواة الذين رووا هذه الأنساب وشجرات النسب التي يتصل سند روايتها بهم ، كابن الكلبي ومحمد بن اسحاق وأمثالهما ، هم أنفسهم يروون هذا النسب بأشكال مختلفة ومتضاربة ، وطالما حرفوا الأسماء العبرانية ، ورووها بصور متعددة ، وقد يحشون بينها أسماء عربية . وقد روى رواياتهم هذه أناس متعددون ، ولكنهم متفقون على أنهم سمعوها منهم ، أو نقلوها من مؤلفاتهم ،

---

١ الموارد المتقدمة وتاج العروس (٢٧٥/٩) .
٢ تاج العروس (٢٧٥/٩)
٣ نسب قريش (ص ٣ فما بعدها) .
٤ اللسان (٤٩٦/٤) .
٥ اللسان (٤٩٦/٤) .
٦ Schrader, KAT, S., 443. ff.
٧ الطبقات (حـ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) .

كما يتبين ذلك من السند . ولما كان أكثر هذه الأسماء الواردة في عمود نسب (عدنان) محرفة ، وكانت غير موجودة في التوراة ، وإنما هي أسماء عبرانية ممسوخة أحياناً ، فإنّ هذا يدل على أن الرواة اليهود الذين كانوا يتحدثون بمثل هذه الأمور الى ابن الكلبي ومحمد بن إسحاق وغيرهما ممن مال الى الأخذ منهم، كانوا إما جهلة بما يتحدثون به ، وإما كذّابين أو ممن كانوا يحاولون التقرب الى المسلمين بهذه التلفيقات لمآرب خاصة ، أو ادعاءً للعلم . غير أننا لا نستطيع أن نبرىء هؤلاء الرواة أنفسهم من وصمة الجهل أو الكذب ، ولا سيما ابن الكلبي الذي تفرد برواية معظم هذه الأخبار . الجائز أنه كان يلجأ الى أهل الكتاب ليأخذ منهم ما عندهم، ومن الجائز أنه كان يضيف اليها ، أو يخترع من عنده، ليتحدث به الى الناس . وإلا فان من الصعب صدور هذا الخلط من رجل ثقة يعي ما يقول .

وقد استغل نفر من أهل الكتاب مثل اليهودي التدمري المذكور ، الذي أسلم كما يقول الرواة، هذا الجشع الذي ظهر بين أهل الأخبار في البحث عن الأنساب القديمة ، أنساب أجداد العرب القدامى ، فصنعوا ما صنعوا من أسماء عليها مسحة توازنية ، قدموها اليهم على أنها مذكورة في التوراة . وقد أخذها الرواة على عادتهم من غير بحث ولا مراجعة للتوراة . وما الذي يدفعهم الى البحث والمراجعة، فإن كل ما يطمعون به ويريدونه هو الحصول على مادة يظهرون بها على أقرانهم من أهل الرواية والأخبار .

ولم يرد اسم (عدنان) في النصوص الجاهلية ، ولا في المؤلفات (الكلاسيكية). أما في الشعر الجاهلي ، فقد ورد في شعر ينسب الى (لَبيد) ، وفي شعر آخر ينسب الى (عباس بن مرداس) . « ولم يجاوز أبناء نزار في أنسابها وأشعارها عدنان . اقتصروا على معد ، ولم يذكر عدنان جاهلي قط غير لبيد .. وقد يروى لعباس بن مرداس بيت في عدنان »[1] . وهذا يدل على أن (عدنان) لم يكن

١ ممن ذكر عدنان من شعراء الجاهلية ، لبيد . قال :
فان لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد ، فلتزعك العواذل
وفي ديوان « لبيد » ، تحقيق احسان عباس الكويت ١٩٦٢ م ، ـ باقيا ـ في موضع والدا (ص ٢٥٥) .
وعباس بن مرداس ، قال :
وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطرد
وفي رواية « بغسان » ، مكان « بمذحج » ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (ص ٥) ابن هشام (٦/١) .

مناطق واسعة من جزيرة العرب حتى وصلوا الى العراق والشام، واختلطوا بالقبائل الأخرى ، وتفرقوا في كل مكان .

ويظهر من تلك الروايات أيضاً ، أن القبائل العدنانية ، كانت قبائل متشاحنة يحارب بعضها بعضاً ، دفعها الى تشاحنها هذا طبيعة البداوة وفقر البادية، والتقاتل على الكلأ والماء ، حتى ضرب بها المثل في التفرق والتشتت[1] .

ونجد اسم (نزار) على انه اسم قبيلة مذكوراً في نص (امرىء القيس) مع أنه ابن (معد) ، أي حفيد عدنان ، ولا نجد اسم جده في هذا النص . وهذا مما قد يبعث الظن في نفوسنا أن فكرة (عدنان) لم تظهر إلا في الجاهلية القريبة من الإسلام وفي الإسلام .

وأولد الأخباريون عدنان عدداً من الأولاد ، أشهرهم وأعرفهم في نظرهم : معدّ ، وعك[2] . وقد زعم الأخباريون أن معداً عاش في أيام (بختنصر) ، وأن معداً خلص الى (حرّان) حينما هاجم ملك بابل أهل (حضورا) في اليمن . أما (عدنان) والده ، فلقى (بختنصر) فيمن اجتمع اليه من (حضورا) وغيرهم في (ذات عرق) ، فهزمهم (بختنصر) ، ومات (عدنان) في أيامه. فلما هلك (بختنصر) خرج (معدّ) من (حران) الى مكة ، فوجد أخوته وعمومته قد لحقوا بطوائف اليمن ، وتزوجوا فيهم ، فرجع بهم الى بلادهم[3] .

ورجع (الزبيدي) أيام (معدّ) إلى أيام (موسى) إذ قال : « وكان معد بن عدنان في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، كما يعرفه من مارس علم التواريخ والأنساب » .

وقد جعل بعض أهل الأخبار أم معدّ بنتاً من بنات يشجب ، قالوا إن اسمها (تيمة) وإنها (تيمة بنت يشجب بن يعرب بن قحطان)[4] . فربطوا بذلك

---

١ قال البجلي في تفرق بجيلة :
لقد فرقتم في كل اوب ... كتفريق الاله بنى معد
البكري ، معجم (٥٧/١) .
٢ ابن خلدون (٢٩٩/٢) ، المعارف (ص ٢٩) ، نسب قريش (ص ٥) ابن حزم ، جمهرة (٨) ، نهاية الارب (٣٥٢/٢) ، الطبري (٢٩/٢) .
٣ ابن خلدون (٢٩٩/٢) .
٤ الاشتقاق (ص ٢٧) .

جداً كبيراً في الجاهلية ، كما صوره أهل الأخبار والأنساب ، فلو كان جـداً كبيراً ، لوجب عقلاً تردد اسمه ، وورود شيء عنه . والغريب اننا نجد اسم (معد) مذكوراً عند (بروكوبيوس) وفي القديم من الشعر الجاهلي ، مع انه ابن (عدنان) .

وقد وردت في الكتابات النبطية والثمودية أسماء قريبة من اسم (عدنان) ، مثل (عبد عدنون) و (عدنون)[1] . أما الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في اليمن ، فلم يرد فيها هذا الاسم ، أو اسم آخر قريب منه .

لقد كان من السهل علينا الوقوف على المنبع الذي أمدّ أهل الأخبار بأصل كلمة (قحطان) . أما بالنسبة الى (عدنان) ، فإن من العسير علينا أن نتحدث عن المنبع الذي أمد أهل الأخبار باسمه . فليس في التوراة اسم يشابهه بين أسماء أبناء اسماعيل ، أو غير أبناء اسماعيل ، وليس فيها اسم ملك عربي أو سيد قبيلة عربية اسمه يشابه اسم (عدنان) . ثم اننا لا ندري كيف عثر عليه أهل الأخبار ، وكيف صيّروه على الوزن الذي صيغ به اسم (قحطان): هل ابتدعوه ابتداعاً ، أو أخذوه من أفواه أناس أدركوا الجاهلية وكانوا قد وقفوا على اسمه بين أهل مكة أو بين القبائل التي تنسب الى اسماعيل ؟ وهل كان اسم قبيلة أو اسم حلف من الأحلاف ، ثم صيّر اسم رجل فيما بعد . هذه أسئلة يجب أن نعترف بأن من غير الممكن الاجابة عنها في الزمن الحاضر، لعدم وجود مادة لدينا تساعدنا في استنباط أجوبة منها ، لذلك نترك أمرها الى المستقبل ، فلعل الأيام المقبلة تأتي بمادة جديدة ، تزيح النقاب عن هذا الجهل المطبق باسم عدنان ، وبفكرة عدنان .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان (تهامة) هي موطن العدنانيين ، ومكة من تهامة . ولكن أحوالاً قاهرة أحاطت بالقبائل العدنانية فاضطرتها الى التفرق والهجرة . وكانت (قضاعة) أول من تشتت وتفرق بسبب قتال وقع بينها وبين نزار[2] . ثم أعقب هجرة قضاعة هجرات أخرى من العدنانيين ، فانتشروا في

---

١ Savignac, Mission, Nos., 38, 328, Hardings, Some Thamudic Inscriptions, Leiden, 1952, G. Strenzisk, Die Genealogie der Nordaraber nach Ibn Al-Kalbi, Koln, 1953, Enc., Vol., I, P., 210.

٢ الاغاني (١٥٤/١١ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢٤٠/٢) .

نسب معدّ بنسب قحطان من جهة الأم . بل ذهب هؤلاء الى أبعد من ذلك بأن جعلوا أم (عدنان) ، بنتاً من بنات (يعرب) ، وقد قالوا لها (بلهاء)[١]. فصار (يعرب بن قحطان) بهذا الزواج ، خالاً لعدنان ولذريته العدنانيين .

وجعلها بعض آخر من جديس أو من طسم ، وقالوا إن اسمها (مهدد بنت اللّهم) . ويقال (اللّهم بن جلحب بن جديس) ، وقيل ابن طسم ، وقيل ابن الطوسم ، ومن ولد يقشان بن ابراهيم[٢] .

ومن بقية ولد عدنان على رأي أهل الأخبار : عدن بن عدنان ، وزعم أنه صاحب عدن ، وأبين بن عدنان ، وهو صاحب (أبين) على بعض الآراء ، وأد بن عدنان ، وقد درج ، والضحّاك ، والعيّ ، وأم جميعهم أم معد على بعض الروايات[٣] .

ونجد لمعد ذكراً في الشعر الجاهلي ، فقد ورد في شعر (امرىء القيس)[٤] ، وفي شعر (النابغة الذبياني)[٥] ، وفي شعر (زهير بن أبي سُلمى)[٦] ، وفي شعر (قيس بن الخطيم)[٧] ، وفي شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي)[٨] ،

---

١ الاشتقاق (ص ٢٧)

٢ الطبري (٢٧/٢) القاهرة ١٩٣٩ م ، (٢٧٠/٢) « دار المعارف » .

٣ الطبري (٢٧٠/٢) « دار المعارف » .

٤ فابلغ معدا والعباد وطيئا ... وكندة : اني شاكر لبنى ثعل

شرح ديوان امرىء القيس : للسندوبي (ص ١٦٠) ، Enc., Vol 3, P. 58.

٥ علوت معدا نائلا ونكاية ... فأنت لغيث الحمد اول رائد

ديوان النابغة ، شرح البطليوسي (ص ٣٤ ، ٧٨) .

وان الغدر قد علمت معد ... بناه في بنى ذبيان باني

٦ عظيمين في عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

ابى الشهداء عندك من معد ... فليس لما تدب به خفاء

* * *

بلاد بها عزوا معدا وغيرها ... مشاربها عذب واعلامها ثمل

هم خير حي في معد علمتهم ... لهم نائل في قومهم وفعنائل

شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ، للامام ابي العباس ثعلب ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٤٤ م ، (ص ١٧ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٠٩) ، الزوزني ، شرح (ص ٧٩) ، « صادر » .

٧ ورثنا المجد قد علمت معد ... فلم نغلب ولم نسبق بوتر

شعر قيس (ص ٣٣) .

٨ هم فضلوا بخلات كرام ... معدا حيثما حلوا وساروا

ديوان بشر بن ابى خازم الاسدي ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٠م (ص ٧٢) .

وفي شعر (عمرو بن كلثوم التغلبي)[1] ، وفي شعر (عبد المسيح بن عمرو الغساني)[2] ، وفي شعر (المثقب العبدي)[3] ، وفي شعر (سلامة بن جندال السعدي)[4] ، وفي شعر ينسب الى (الحاجب بن زرارة)[5] . يقولون انه قاله يردّ فيه على (الحارث) ، وفي شعر ينسب الى الشاعر (ابن دارة) ، زعموا انه قاله في مدح (حاتم الطائي)[6] ، وفي شعر ينسب الى (زهير بن جناب الكلبي)[7] ، وغيرهم ، كما ورد اسم معد في شعر المخضرمين[8] .

وقد استعملت كلمة (الحي المعدّي) في شعر لـ (حاجب بن زرارة)[9] ، كما ورد (حي في معد)[10] ، مما ينبيء ان معداً كانت مؤلفة من أحياء ، لا من حي واحد ، وجاء في شعر عمرو بن كلثوم : « وقد علم القبائل من معد »[11] ، ويدل ذلك على ان معداً كانت مؤلفة من قبائل ، وانها لم تكن قبيلة واحدة . ونلاحظ أن شعراء الجاهلية القدامى كانوا يستعملون : « قد

---

١ ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا
معلقة عمرو بن كلثوم ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٢٥) ، « دار صادر » .

٢ تقسمنا القبائل من معد علانية كأيسار الجزور
الاغاني (٥٨/١١) ، السجستاني ، المعمرون (٣٧) .

٣ المفضليات (٢٩٣) ، ديوان زهير (١٠٦)

٤ همت معد بنا هما فنهنها عنا طعان فضرب غير تعذيب
المفضليات (ص ٤٧) ، « سندوبي » .

٥ وقد علم الحي المعدي اننا على ذاك كنا في الخطوب الاوائل
الاغاني (١١ / ١٥٠) .

٦ تحن قلوصي في معد وانما تلاقي الربيع في ديار بني ثعل
العقد الفريد (٣٠٩/١)

٧ البلاذرى ، انساب (١٩/١) .

٨ قال ابو ذؤيب :
فان تك انثى في معد كريمة علينا فقد اعطيت نافلة الفضل
ديوان الهذليين ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، (٣٧/١) ، شرح اشعارالهذليين للسكري (٨٨/١) .

٩ وقد علم الحي المعدي اننا على ذاك كنا في الخطوب الاوائل
الاغاني ، (١٠٠/١١) ، « دار الكتب المصرية »

١٠ قال زهير بن ابي سلمى :
هم خير حي في معد علمتهم لهم نائل في قومهم وفضائل
ديوان زهير بن ابي سلمى ، لثعلب (ص ١٠٦) .

١١ بيت ٩٤ من معلقة عمرو بن كلثوم ، Goldziher, Muh. Stud., I, S., 91.

علمت معد »[1] . ويقول علماء اللغة : ان معداً « غلب عليه التذكير ، وهو مما لا يقال فيه من بني فلان . وما كان على هذه الصورة ، فالتذكير فيه أغلب . وقد يكون اسماً للقبيلة »[2] . ويستنتج من هذا ان معداً لم تكن في الأصل اسم علم لرجل تنتمي اليه قبيلة معينة ، وانما كانت كلمة عامة تشمل قبائل تشترك في طراز الحياة وان كانت تعتقد انها ترتبط بعضها ببعض برباط النسب .

وقد استعمل حسّان بن ثابت كلمة (معد) في مقابل (الأنصار)، وذكر أن الأنصار (لها في كل يوم من معدّ قتال أو سباب أو هجاء[3])، وأن الأنصار نصروا رسول الله على رغم أنف معد[4] ، وأورد اسم معد في أحد الأبيات مع قحطان[5] ، كما قال عن (بني أسد) إنها (تذبذب في معدّ)[6] ، فاستعمل كلمة معدّ في شعره للدلالة على خصوم الأنصار ، كما استعملها في مقابل قبائل معينة . وخصوم الأنصار هم قريش والمهاجرون . ولما كان الشاعر يعد نفسه من اليمن ، وأهل مدينته من أصل يماني ، فإن من الجائز أن نقول إنه عبر عن فكرة معد وقحطان في هذا الزمان وعن رأي أهل مدينته خاصة في النسب عند ظهور الإسلام .

وبينما يصرف حسّان بن ثابت كل فنّه الى هجاء خصوم الأنصار ، أي أهل مكة والدفاع عن أهل يثرب ، والافتخار بقومه على قوم معد ونزار[7] ، نرى أنه لا يسمي من يهجوهم عدنانيين ، ولم يستعمل في شعره الواصل الينا المطبوع اسم عدنان ، فلِمَ أغفل حسّان اسم عدنان ؟ أليس عدنان والد معدّ ؟ ألم يكن

---

١ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 91.

٢ تاج العروس (٥٠٣/٢) ، اللسان (٤٠٧/١٦) ، « دار صادر » .

٣ وقال الله قد يسرت جندا … هم الانصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد … سباب أو قتال او هجاء
شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ٦) ، ديوان حسان ، (ص ١) . « طبعة هرشفلد »

٤ ديوان حسان (ص ٥ ، ٦ ، ٢٥) .

٥ فلو سئلت عنه معد بأسرها … وقحطان او باقي بقية جرهما
ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي ، شرح (ص ٣٩٨)

٦ ديوان حسان (ص ٤٧) .

٧ وكل محارب وبنى نزار … تبين في مشافره الرضاع
ديوان حسان (ص ٣٦) .

من الأجدر به ذكر عدنان وتقديمه على معدّ ؟ ألم يقسم علماء النسب العربَ الى أصلين : أصل قحطاني وأصل عدناني ؟ ألسنا نجد في كتب الأنساب والتأريخ اسم عدنان مقدماً على معدّ ، وأن قبائل معدّ تعد نفسها عدنانية ، كما أن قبائل قحطان تعد نفسها قحطانية ؟ لا يعقل بالطبع أن يكون حسّان قد ترك عدنان والعدنانية ولجأ الى استعمال (معد) لو لم تكن لفظة (معد) أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً في أيامه من عدنان . وهذا هو ما نلاحظه أيضاً في سائر الآثار التي تعود الى الجاهلية وصدر الإسلام .

ويلاحظ أن حظ مصطلح (عدنان) و (عدنانية) و (قبائل عدنانية) قد برز في الإسلام بروزاً لا نلحظه في الجاهلية بل حتّى في الجاهلية الملاصقة للإسلام ولهذا غلب على مصطلح (معد) و (معدية) و (قبائل معدية) ، فصار (عدنان) في مقابل (قحطان) ومن هنا صار العرب قحطانيين أو عدنانيين، واختفت بالتدريج المصطلحات الانتسابية الأخرى التي شاعت في الجاهلية أو في صدر الإسلام .

ويستنتج من أقوال علماء اللغة أن لفظة (معدّ) تعني الشظف في العيش ، والغلظ في المعاش والتقشف[1] ، وأنها تعني حياة بدوية شاقة بعيدة عن كل وسائل الحضر وترف أهل المدر ، وهذا بالنظر لأهل المدن وأهل المدر نوع من الخشونة لا يحمد الانسان عليه . وقد وصفت ملابسهم بالخشونة كذلك فميزت عن غيرها، جاء « عليكم باللبسة المعدّية » أي خشونة اللباس ، وروي : « اخشوشنوا وتمعددوا »[2] . وبهذا المعنى ورد : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه »[3] . فالظاهر ان كلمة معد كانت تعني ما تعنيه (اريبي) (عريبي) عند الآشوريين، أي البدو والأعراب . غير انها خصصت بعد ذلك بقبائل خاصة هي القبائل التي نسبت نفسها الى عدنان واسماعيل ، وأكثرها من مكة وحولها ، ثم تغلبت عليها (العدنانية) في العصر الأموي فما بعده .

والمثل : « تسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه) ، من الأمثال المشهورة

---

١ اللسان (٤/٤١٤) ، الاشتقاق (١/٢٠) ، تاج العروس (٢/٥٠٣) .

٢ اللسان (٤/٤١٤ فما بعدها) ، ديوان النابغة مع شرحه ، للبطليوسي ، (ص ١٠) ، اللسان (١٦/٤٠٧) ، « دار صادر » .

٣ تاج العروس (٢/٥٠٣) ، الميداني ، مجمع الامثال (١/١٢٩) ، المثل رقم ٦٥٥

المعروفة حتى الآن . ويرتفع أهل الأخبار بزمنه الى أيام الجاهلية ، ويقولون ان النعمان بن المنذر تمثل به يوماً[1] . ولفظـــة (معيدي) ، تصغير (معدي) ، ويراد بها رجل من معد . وفي اطلاق هذا المثل بهذا المعنى دلالة على المعانـــي المتقدمة . وفي رواية أن قائل هذا المثل هو (المنـــذر بن ماء السماء)[2] . وقد استخف النابغة الذبياني بمعد أيضاً اذ قال :

ضلت حلومهم عنهم وغرّهمُ سن المعيدي في رعي وتغريب[3]

ولا أستبعد أن يكون بين لفظة (معيدي) و (مِعْـــدان) التي تطلق في العراق اليوم على الغـلاظ السود من بعض الأعراب ، وبين (معد) صلة، فقد كانت مواطن (معد) في العراق أيضاً ، والصفات المذكورة تنطبق على المِعدان كذلك .

وقد اتهمت (معد) بالمكر والحيلة والكيد ، فورد في الأخبار « وان هذه المعدية لا تخلو من مكر وحيلة »، وورد « كنت أخبرك ان معداً لا ينام كيدها ومكرها »، وورد « ان عدي بن زيد فيه مكر وخديعة ، والمعدي لا يصلح الا هكذا »[4] مما يدل على أن ملوك الحيرة كانوا لا يأمنون من القبائـــل المعدية ولا يعتمدون عليها ، ولذلك كانوا يحذرونها .

كما اتهم ولد نزار بالحيل ، قال (المسعودي) : « ورأيت ببـلاد مأرب من أرض اليمن أناساً من عقيل محالفة لمذحج ، لا فرق بينهم وبين أحلافهم ، لاستقامة كلمتهم ، فيهم حيل كثيرة ومنعة ، وليس في اليمن كلها أحيل من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل ، الا ما ذكـــر من ولد أنمار بن نزار ابن معد ، ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر »[5] .

وورد في كتاب (تأريخ الحروب) لـ (بروكوبيوس Procopius) المتوفى

---

1 فقال النعمان : تسمع بالمعيدي لا ان تراه ، البيان (١٧٣/١ ، ٢٣٧) ، « لان تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » ، الميداني ، مجمع الامثال (٢٢٨/١) ، الاشتقـــاق (٢٤٤)
2 تاج العروس (٢ / ٥٠٧) ، مجمع الامثال ، للميداني (١١٣) .
3 ديوان النابغة الذبياني (١٧) .
4 الاغاني (٢٢/٢) .
5 مروج (١٧٣/١) ، « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

سنة (٥٦٥ م) ، أي في زمن لا يبعد كثيراً عن ميلاد الرسول ، ذكر قبيلة من قبائل (السركينوى) Sarakenoi سماها (Maddeni) (Maddenoi)، وقال انها كانت خاضعة لحكم Homeritae ، وان (يوسطنيانوس) (جستنيانس) (٥٢٧ – ٥٦٥ م)[1] ، قيصر الروم ، أرسل رسولاً الى ملك الـ Homeritae لينضم الى الروم ويوافق على تعيين شيخ اسمه (Caisus) (Kaisus) على Maddeni ، وتأليف جيش مشترك من (هومبريته) و (مديني) (معديني) لمهاجمة الفرس وشن الغارات على حدودهم . وقد نصب ملكاً على (مديني) ، ورجع الرسول ليخبر القيصر ، غير أن الملكين لم يغزوا أرض الفرس[2] .

وقصد (بروكوبيوس) بـ (مديني) Maddeni (معداً) وبـ (هومبريته) Homeritae (حميراً) ، وعنى بذلك اليمن . وكانت معد خاضعة يومئذ لحمير ، وكان هذا الزمن زمن استيلاء الحبشة على اليمن . و Caisus الذي نصب ملكاً على (معد) هو (قيس) ، وكان صاحب كفايات ، شجاعاً محارباً ، وكان قد قتل أحد اقرباء ملك Homeritae ، وكان هذا الملك هو Esimiphaeus ، أي (السميذع أشوع) ، الذي نصبه النجاشي نائباً عنه على اليمن ، فتلقب بلقب (ملك) . والظاهر أن وساطة القيصر لدى (السميذع) إنما كانت لإصلاح ذات البين ، ولتسوية ذلك الحادث . وقد تم على ما يظهر ونجحت الوساطة ، وتلقب (قيس) وهو رئيس (معد) بلقب ملك . ولا أستبعد أن يكون (قيس) هذا أحد رؤساء القيسيين .

وقد ذكر (بروكوبيوس) أن معداً هم جماعة من (السركينوى) ، أي جماعة من القبائل التي عرفت عند اليونان باسم (السرسين) أيضاً ، كما ذكرت ذلك في السابق . وهذا يعني أن معداً لم تكن في أيام ذلك المؤرخ الذي لم يبعد عهده عن الإسلام كثيراً ، على النحو الذي يصوّره الأخباريون . وكل ما في الأمر أنها قبيلة أو مجموعة قبائل تسمى بـ (معد) ، وأنها كلها أو قبيلة منها كانت خاضعة لحمير ، أي للسلطة الحاكمة على اليمن يومئذ ، وهي الحبشة ، ثم استقلت عنها . أما بقية معد ، فلم يتحدث المؤرخ عنهم ، لذلك لا ندري

---

١ « يوسطنيانوس » ، الطبري (٧٤٣/١) ، « طبعة اوربة » ،
Procopius, History of the Wars, P., 181, (H.B. Dewing).

٢ Procopius, History of the Wars, P., 181.

أكان (معد) (بروكوبيوس) هم كل معد أو جماعة منها .

وإذا كان الشعر المنسوب الى (ابن بقيلة) ، وهو من نقباء الحيرة وساداتها صحيحاً ، تكون كلمة (معد) معروفة في ذلك العهد ، على نحو يفهم منه أنها كانت تعني قبائل عديدة أعرابية تنضوي كلها تحت هذه التسمية . فقد جاء في شعره ألم وتوجع لما حل بأهل الحيرة بعد الفتح ، فقد رأى سواماً تروح بالخورنق والسدير بعد ما كانا مكانين مختارين للمنذرين ، وبعد فرسان النعمان، يرى الناس قلوصاً بين (مرة والحفير) ، وصاروا بعد هلاك (أبي قبيس) كجُرب المعز في اليوم المطير ، وقد تقاسمتهم القبائل من معد ، علانية كأيسار الجزور ، بعد أن كانوا أناساً لا يرام لهم حريم،وصاروا كضرة الضرع الفخور، يؤدون الخراج بعد خراج كسرى ، وخراج من قريظة والنضير ، ثم خلص الى نتيجة يخلص اليها من ييأس ويقنع ، فقال :

كذاك الدهر دولتُه سجالٌ فيوم من مساءة أو سرور[1]

وقد ذكر (الطبري) ان خالداً لما أمره (أبو بكر) بفتح العراق ، وقصد الأُبلّة ، حشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر الى ألفين كانا معه[2] ، وربما قصد (ابن بقيلة) من (معد) هذه القبائل التي انضافت الى خالد . ولكن القبائل التي انضافت الى خالد في العراق أو التي حاربته هي من مضر وربيعة في الغالب، وبين سكان الحيرة قوم يرجعون أنسابهم الى تميم والى قبائل معدية،فكيف يتألف (ابن بقيلة) من إدبار الدنيا ومن اعراضها عنه وعن أمثاله حتى صاروا في حكم (معد) ، وقد اقتسمتهم قبائل معد . فالظاهر انه كان يتأفف لأن الأمر أدبر منه ومن سادة أهل الحيرة والقرى ، وهم حضر مستقرون ، لهم نعيم وملك وقصور وبيوت وعيش رغيد . ولكن الدنيا أدبرت عنهم ، وسلمت الأمر الى قبائل من معد ، وهم أعراب ، وصار أمرهم اليهم ، فتأفف من ذلك الزمان .

وقد عرف (حذيفة بن بدر) سيد غطَفان بـ (رب معد)[3] ، وكان من

---

١ الطبري (٣٦٢/٣) .
٢ الطبري (٣٤٧/٣)
٣ المعارف (ص ٣٨) .

أشرف بيوتات هذه القبيلة،التي كانت محالفة لـ (أسد) . وقد عرفتا بـ (الحليفتين)[1] مما يدل على انهما كانتا متحالفتين . ويدل هذا النعت الذي نعت به (حذيفة) ، وهو (رب معد) ، على ان معداً كانت قبائل ، وكل منهـــا تنتسب اليها ، وانها لم تكن قبيلة معينة ، أي انها كانت قبائل ترى نفسها انها من نسب واحد، وان قبيلة واحدة منها اذا برزت وظهرت جاز لها أن تمثل قبائل معد، وأن ينعت رئيسها نفسه ببعض النعوت التي تدل على ترأسه لها ، ومنها (رب معد) .

فيتبين من كل ما تقدم ان (معداً) كلمة أريد بها أعراب كانوا يتنقلون في البوادي ، يهاجمون الحضر والأرياف بصورة خاصة ، لأنها كانت أسهـــل صيد للأعراب بسبب بُعد أهلها عن سيطرة الحكومة المركزية ، وعـــدم وجود قوات دفاعية رادعة لتدافع عنهم . وكانوا يباغتون الناس ويفاجئونهم ، وكانت حياتهم حياة قاسية صعبة . ولم يكونوا قبيلة واحدة،ولكن قبائل عديدة ، تتشابه في المعيشة ، وتشترك في فقرها وفي تعيشها على الغزو والتنقل ، وقد كانت تقيم في البوادي وعلى أطراف الحضارة ، كانت مواطنها باديـــة الشام ونجد والحجاز والعربية الشرقية . ثم صارت اللفظة علماً لرجـــل صير جداً للقبائل التي عاشت هذه المعيشة ، وعرفت بهذه التسمية على الطريقـــة المعروفة عند العرب وعند غيرهم من الساميين من تحويل أسماء الأماكن أو الأصنام أو المحالفات الى أسماء أجداد وآباء .

وقد كانت (تهامة) موطن أبناء معد على حسب رأي أهل الأخبار . سكنت قضاعة من ساحل البحر حيث أنشأت (جدة) فيما بعد الى حيز الحرم ، وسكن أبناء جنادة بن معد منطقة الغمر : غمر ذي كندة ، وكانت كندة قد أقامت بها أيضاً فعرفت بها . وسكن أبناء قنص بن معد وسنام بن معد ، وبقية ولد معد أرض مكة ، حيث أقاموا مع بقايا جرهم . ظلوا على ذلك متساندين متآلفـين تضمهم المجامع ، وتجمعهم المواسم ، حتى وقع الشر بينهم ، فتفرقوا وتخاذلوا

---

[1] وسمع عيينة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : غفار واسلم ومزينة وجهينة خير من الحليفتين اسد وغطفان ، الاشتقاق (١٧٣/٢) .

وقاتل بعضهم بعضاً ، يقتل العزيز منهم الذليل[1] .

علكّ :

وقبائل علكّ ،هي القسم الآخر الشهير من أقسام قبائل عدنان ، وتقع أرضها في جنوب أرض معدّ ، شقيق علكّ . وقد زعم أهل الأخبار أن (بختنصر) لما هاجم (حضورا) انطلق (علكّ) الى أرض اليمن ، فاستقر بها ، فاختلط من ثم نسب علك باليمانيين[2] . وقد سكن العكيون تهامة اليمن الى جُدّة . ومن معاني لفظة (علكّ) في اللغة الحر الشديد[3] .

وقد تصور جماعة من النسابين وجود صلة بين (علكّ) و (الأزد)[4]. والظاهر أن ذلك إنما وقع لهم من اختلاط منازل القبيلتين . وزعم بعض الأخباريين أن نسب علك كان في اليمن في الأصل ، ثم انتقل الى معد ، بعد قتال وقع بين علك وغسان في تهامة ، تغلبت فيه غسان على علك ، فأجلتها عن أوطانها ، فمن ثم انتفت علك من اليمن ، وانتسبت في معد[5] .

---

١ قال مهلهل :

غنيت دارنا تهامة في الدهر ... وفيها بنو معد حلولا
فتساقوا كأسا أمرت عليهم ... بينهم يقتل العزيز الذليلا

البكري ، معجم (١ / ١٨) ، « طبعة السقا » .

٢ تركنا الأيث أخوتنا وعكا ... الى سمران فانعلقوا سراعا
وكانوا من بني عدنان حتى ... اضاعوا الامر بينهم فضاعا

الطبري (٢/١٩١) ، البكري : معجم ، (١/٥٣ فما بعدها) ، البلاذري ، انساب (١/١٣) .

٣ يوم علك اك ، اي شديد الحرارة ، مجالس ثعلب (ص ٢٤٨) ، اللسان (٢/٢٥٣) تاج العروس (٧/١٦٣) .

٤ ابن خلدون (٢/٢٩٩) ، ابن حزم (٣٠٩) ، تاج العروس (٧/١٦٣) ، اللسان (١٢ / ٣٥٧) .

٥ وهذه الرواية اليمانية تتمثل في شعر « نشوان بن سعيد الحميري » الذي قال :

الم تر عكا هامة الازد اصبحت ... مذبذبة الانساب بين القبائل
وعقت اباها الازد واستبدلت به ... ابا لم يلدها في القرون الاوائل

منتخبات في اخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري ، ليدن ١٩١٦ (ص ٧٤) قارن ذلك برواية الطبري (٢/١٩١) .

وقد سيق نسب (عك) على هذه الصورة : (عك بن الديث بن عدنان) في بعض الروايات، وسيق على صور أخرى مثل : (عك بن عدنان بن عبدالله) من بطون الأزد[1] .

وهناك بيت شعر للشاعر (العباس بن مرداس) يتكثّر بعك على اليمن ، حيث يقول :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بغسّان حتى طردوا كل مطرد[2]

ومضمون هذا البيت يخالف ما جاء في الرواية الأخرى التي تدعي تغلّب غسان على عك .

وقد ذكر (ابن دريد) أن (عدنان) والد (عك) ، هو (عدنان بن عبدالله بن الازد)، وأن من نسب (عكاً) الى الازد ، نسبه الى هذه الصورة[3] فجعل (عدنان) حفيداً من حفدة الأزد .

وقد ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم شعب من الشعوب العربية ، دعي بـ Akkitai Akkitae Achitae Anchitae[4] ، مواطنه هي المواطن التي نسبها النسابون الى (عك) ، لهذا ذهب الباحثون المحدثون الى أن هذا الشعب هو (عك)[5] . وعلى ذلك تكون إشارة (بطلميوس) اليهم أقدم إشارة الى هذه القبيلة في التأريخ . وتكون (عك) بذلك من القبائل المعروفة قبل الإسلام بزمان . وهي لا بد أن تكون قد عرفت قبل (بطلميوس) وإلا لم يذكرها هذا الجغرافي في جغرافيته .

غير أن (بطلميوس) لم يشر الى أصلها ونسبها ، ولا الى صلتها بغيرها من القبائل . وكل ما ذكره عنها أنها قبيلة من قبائل العرب، تسكن في المواضع التي عينها في كتابه المذكور .

---

١ ابن خلدون (٢ / ٢٩٩) ، ابن حزم (٣٠٩) ، تاج العروس (١٦٣/٧) ، اللسان (١٢ / ٣٥٧) .

٢ نسب قريش (ص ٥) .

٣ اشتقاق (٢٨٧) .

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 256, Forster, Vol., I, P., 89.

٥ Enc., Vol., I, P., 241.

اولاد معد :

وولد معد بن عدنان عدداً من الأولاد ، جعلهم بعض الأخباريين أربعة ، هم : نزار بن معد ، وقضاعة بن معد ، وقنص بن معد ، وإياد بن معد[1] . وجعلهم بعض آخر أكثر من ذلك ، اذ أضافوا الى المذكورين عبيد «الرماح» ابن معد ، وقد دخل أبناؤه في (بني مالك بن كنانة) ، والضحّاك بن معد ، قالوا : أغار على بني اسرائيل[2] ، وقناصة بن معد ، وسناماً ، وحيدان ، وحيدة ، وحيادة ، وجنيداً ، وجنادة ، والقحم ، والعرف ، وعوفاً ، وشكاً ، وأمثال ذلك[3] .

وزعموا ان الإمارة كانت لقنص بعد أبيه على العرب . وأراد اخراج أخيه نزار من الحرم ، فأخرجه أهل مكة ، وقدموا عليه نزاراً[4] .

ويُخرج بعض أهل الأخبار (قضاعة) من صُلب معد ، فيضيفها الى القحطانيين ، على حين نرى فريقاً آخر من النسابين ومن ورائهم القضاعيون يعدّون أنفسهم من أقدم أبناء معد ، فيقولون : قضاعة ابن معد ، وبه كان يكنى معد[5] ، أي انهم أقدم أبناء معد . ويروون في ذلك شعراً من أشعار قضاعة في الجاهلية وبعد الجاهلية[6] . وفي كل ذلك أثر التعصب القبلي الذي كان يتحكم في النفوس ، ويظهر في النسب . ويذكر النسابون الذين يرجعون نسب قضاعة الى حمير انها من نسل قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ كما رأيت[7] .

ونرى (الكُميت) يعير قضاعة ويهجوها بانتمائها الى اليمن وادعائها انها من (قضاعة بن مالك بن حمير) ، وانما هو (قضاعة بن معد بن عدنان)[8] .

---

١ ابن هشام (١/٧) ، واكثر النسابين على ان ايادا من نسل نزار بن معد ، التنبيه (ص ٢٩) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) ، البلاذري ، انساب ، (١/١٣)
٢ ابن حزم ، جمهرة (ص ٨) ، اللسان (٨/٣٥٢) ، ابن خلدون (٢/٣٠٠)
٣ الطبري (١/٦٧١) (٢/١٩٠) ، « طبعة اوربة » الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠) (١/٥٨) « طبعة بيروت » ، ابن حزم ، جمهرة (٩) البلاذري ، انساب (١/١٣)
٤ ابن خلدون (٢/٣٠٠) .
٥ الطبقات (حـ١ ، ق١ ، ص ٣٠) ، (١/٥٨) « طبعة بيروت » .
٦ نسب قريش (ص ٥) .
٧ المعارف (ص ٢٩) ، نسب قريش (ص ٥) .
٨ رايتكم من مالك وادعائه ... كرائمة الاوتاد من عدم النسل
وحظك من قحطان ان كنت منهم ... ومن مالك حظ البغي من الحمل
المعاني الكبير (١/٥٢٤)

وقد شبهها بالرئال لمفارقتها نزاراً ، وانتقالها الى اليمن[1] .

ويشير اختلاف النسابين هذا في نسب قضاعة الى اختلاط قبائل قضاعة بقبائل معد وبقبائل اليمن ، فانتمى قسم منهم الى معد ، وقسم منهم الى اليمن ، ومن هنا وقع هذا الاختلاف . وأرى ان لاختلاط قبائل قضاعة في بلاد الشام وفي أماكن أخرى بقبائل ترجع نسبها الى قحطان دخلاً في إدخال نسبها في اليمن . وقد يكون ذلك في العصر الأموي بصورة خاصة،حيث صار نزاع قيس وكلب ، أي نزاع عدنان واليمن نزاعاً سياسياً عنيفاً قسّم عرب بلاد الشام الى جماعتين متباغضتين ، تسعى كل جماعة لضم أكثر ما يمكن من القبائل اليها ، ولا سيما القبائل القوية المهمة مثل قضاعة . فأدخلها اليمانيون لذلك فيهم وألحقوا نسبها باليمن . أما قضاعة الباقون الذين كانوا في أرضين أخرى ، فلم يقع عليهم مثل هذا التأثير ، وقد كانوا أكثر استقلالاً ، وعلى اتصال متين بالعدنانيين ، ولهذا أبوا إلحاق نسبهم بقحطان .

وإذا غربلنا أخبار الأيام ، وبعض الروايات التي يرويها أهل الأخبار ، فإننا نتوصل منها الى أن قضاعة كانت قد اشتركت مع ربيعة ومعدّ في محاربة (يمن). فقد ذكر مثلاً : أن (عامر بن الظرب العدواني) قاد ربيعة ومضر وقضاعة كلها (يوم البيداء) ، لليمن حين تمذحجت على بني معد[2] . وذكر أن (ربيعة ابن الحارث بن زهير التغلبي) قاد مضر وربيعة وقضاعة يوم السلان الى أهل اليمن ، وأن ابنه (كليب بن ربيعة) ، وهو (كليب وائل) ، قاد ربيعة ومضر وقضاعة يوم (خزازى) الى اليمن[3] . ولعل في هذه الأمثلة وفي غيرها تأييداً لرأي غالب قضاعة وبقية النسابين الذين يرجعون نسب قضاعة الى بني معد، أي أنها كانت في حلف مع ربيعة ومضر ، وهما من بني معد . ولما كانت ربيعة ومضر في نزاع مع اليمن ، كانت قضاعة معها في هذا النزاع .

وتذكر (قضاعة) في الأخبار مع (مضر) و (ربيعة) و (اليمن)[4] وهذا

---

١ فلما استرالت حسبت سواء مفارقة الرعيل الى الرعيل
المعاني الكبير (١/٣٥٣) .

٢ المحبر (ص ٢٤٦)

٣ المحبر (ص ٢٤٩)

٤ المحبر (ص ١٤٤) .

يدل على أنها كانت في منزلة المذكورين في الكثرة والمكانة . وقد عدت في قبائل (الحلة) من العرب ما خلا علافاً وجناباً[1] . وأهميتها هذه وكثرة عددها ، دفعت العدنانيين والقحطانيين الى ضم نسب قضاعة اليهم ، لما كان في هذا الضم من أثر كبير في تقوية مركز أحد الطرفين .

ويذكر (ابن سعد) أن ولد (معد) تفرقوا في غير بني معد سوى (نزار)[2] وقد أدرك (ابن سعد) وأمثاله ذلك من اختلاطهم باليمانيين ، الأمر الذي أدى الى تداخل النسب ، فصارت أنسابهم لذلك مترجحة بين قحطان وعدنان .

نزار :

وهو جد القبائل (النزارية) المنحدرة على رأي النسّابين من نزار بن معدّ من زوجه (معانة بنت جوشم بن جلهمة)،أو (معانة بنت جهلة) من جرهم[3]. وهو على زعم الأخباريين والد أربعة أولاد ، هم : ربيعة ، ومضر ، وأنمار وإياد[4] . وهم أجداد قبائل كثيرة في الوقت نفسه . وقد انتشرت هذه القبائل في أواسط بلاد العرب وشماليها ، وهناك أسطورة رواها المؤرخون والنسابون عن اختصاص كل ولد من أولاد نزار وعن المناطق التي نزلت بها قبائلهم واحتكامهم الى (الأفعى الجُرهمي[5]) أو (أفعى نجران[6]) .

وقد زعم بعض أصحاب الأخبار أن أم ربيعة وأنمار : (حدالة) «جدالة» بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو) من جرهم ، وأن أم (مضر)

---

١ المحبر (ص ١٧٩)

٢ الطبقات (١/٥٩)

٣ تاج العروس (٣/٥٦٣) ، السهيلي ، روض الانف (١/٨) ، الطبري (٢/١٩٠) الطبقات (حـ١ ،ق ١ ، ص ٣٠) ، المحبر (ص ١٣٢)

٤ --- Enc., Vol., 3, P., 939, Wuestenfeld, Geneal. Tab., A. 3.

٥ الفاخر (ص ١٥٥ فما بعدها) ، حكم الافعى ، الطبري (١/١١٠٨) مروج (٢/٣٥) ، طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، لقد تأثر بهذه القصة الفيلسوف الفرنسي « فولتير » في « Zadig » , Enc., Vol., 3, P., 940.

٦ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، البلاذري ، انساب (١/٢٩)

(سودة بنت عك)[1] ، كما زعم بعض المؤرخين أن إياداً وأنماراً هما من أبناء معدّ . وأما نزار ، فقد كان من عقبه البطنان : ربيعة ، ومضر[2] .

وقد نعتت مضر بـ (الحمراء) ، فقيل : (مضر الحمراء)[3] ، ونعتت إياد بـ (الشمطاء) و (البلقاء) ، وقيل لربيعة (الفرس) ، ولأنمار (الحمار)[4] .

ويقال للنزاريين : (نزارية) و (بنو نزار) و (أبناء نزار) . أما التنزر ، فالانتساب الى نزار ، ويقال : تنزر الرجل ، اذا تشبّه بالنزارية ، أو أدخل نفسه فيهم[5] . واستعملت (النزارية) في مقابل (اليمانية) في أيام الأمويين[6] .

ويرى (ليفي ديلافيدا) ان (النزارية) فكرة سياسية نجمت في العصر الأموي ، في وسط ذلك الصراع الحزبي المعروف ، وعلى الأخص بعد معركة (مرج راهط) ، وانها لا تمثل حقيقة تأريخية،فهي لا تعني رابطة قبائل بالمعنى المفهوم . ومن رأيه ان هذا الموضوع لم يدرس دراسة كافية بعد ، وان المواد اللازمة لدراسته غير متوافرة[7] .

وقد ذهب أيضاً الى أن أقدم من ذكر اسم (نزار) من الشعراء الجاهليين هو (بشر بن أبي خازم)[8] ، و (كعب بن زهير) من الشعراء المخضرمين[9] ويرى ان (بني نزار) الواردة في شعر (حسان بن ثابت) لا تعني النزارية، أي أبناء نزار بن معد بن عدنان على نحو ما يذهب اليه أهل الأنساب ، بل

---

١ الطبري (١٩٨/٢) ، خبية بنت عك بن عدنان ، نسب قريش (ص ٦)

٢ ابن خلدون (٣٠٠/٢)

٣ قال بشر بن ابي خازم الاسدي :
دعوا منبت السيفين انهما لنا ... اذا مضر الحمراء شبت حروبها

٤ اللسان (٥٩/٧) .

٥ ديوان حسان (ص ٣٦) ، الجمحي ، طبقات الشعراء (ص ٥) ، اللسان (٥٩/٧)
Enc., Vol., 3, P., 940.

٦ التنبيه (ص ٧٠)

٧ Enc., Vol., 3, P., 940. f.

٨ المفضليات (ص ٦٦٧) ، قال بشر بن ابي خازم :
مضى سلافنا حتى حللنا ... بارض قد تحامتها نزار
ديوان بشر (ص ٦٧) ، المفضليات (ص ١٦٢) « السندوبي » ،
Enc., Vol., 3, P., 940.

٩ صدموا علينا يوم بدر صدمة ... ذلت لوقعتها جميع نزار
الجمحي ، طبقات (ص ٢١) ، الطبري (١١٠٦/١) ، « طبعة اوربة » .

جماعة أخرى هي من نسل (نزار بن معيص بن عامر بن لؤي) من قريش[1] .

ويرى (ليفي ديلافيدا) أيضاً ان ما ورد في شعر (أمية بن أبي الصلت) من شعر ، نسب فيه ثقيفاً الى نزار[2] ، وما ورد في قصة (الأقرع بن حابس التميمي) من ذكر (نزار) ، لا يمكن أن يبعث الثقة الى النفوس ولا الاطمئنان الى القلوب ، بل يظهر ان ما ورد انما وضع لأغراض واضحة هي على زعمه إلحاق نسب ثقيف بنزار ، وقد كان ذلك موضع جدل في ذلك العهد ، وإثبات نسب (بجيلة) وهو نسب كان موضع جدل أيضاً[3] .

أما أنا ، فأرى ان (نزاراً) من القبائل التي كانت معروفة في القرن الرابع بعد الميلاد ، بدليل ورود اسمها في النص المعروف بـ (نص النمارة) الذي وضع على قبر (امرىء القيس) ، ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . فقد ذكرت في جملة القبائل التي خضعت لحكمه . ولكن النص لم يتحدث عن نسب نزار ومواضعها في ذلك الزمن . وفي الجملة انها ذكرت مع قبيلة (أسد) .

وتتألف القبائل النزارية من ربيعة ومضر وإياد وأنمار[4] ، على رأي من جعل أنماراً ابناً من أبناء نزار . فأما إياد ، فقبيلة كانت مواطنها تهامة الى حدود نجران ، ثم انتشرت بسبب حروب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر ، فارتحل قسم منها الى العراق ، وانضم قسم آخر الى قضاعة وأقام بالبحرين ، وسكن قسم منها في (وادي بيشة) ، وهاجر آخرون الى بلاد الشام[5] .

وقد كانت رئاسة مضر الى ربيعة في أيام (كليب بن ربيعة) ، المعروف أيضاً بـ (كليب وائل)[6] . وقد كانت مضر وربيعة متجاورتين ومتحالفتين ، ودليل ذلك اقتران اسم أحدهما بالآخر ، وجعل أهل الأنساب مضر شقيقاً لربيعة غير أن تحاسداً شديداً كان يقع بين سادات مضر وسادات ربيعة ، وطالما كانت

---

١ وكل محارب وبني نزار تبين في مشافره الرضاع
ديوان حسان (ص ٣٦) ، البرقوقي ، شرح ديوان حسان (ص ٢٦٦) .
Enc., Vol., 3, P., 940, Wuestenfeld, Genea., S., 15.

٢ ديوان أمية (ص ٦٩) ، وهو من الشعر المنسوب اليه ، Enc., Vol., 3, P., 940.

٣ النقائض (طبعة بيفان) ، (ص ١٤١ فما بعدها) ، ابن هشام (٥٠/١) ، «طبعة وستنفلد » Enc., Vol., 3, P., 940.

٤ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٩) .

٥ Enc., Vol., 2, P., 565, Wuestenfeld, Register.

٦ الفاخر (ص ٧٥ وما بعدها) .

إحداهما تفتخر على الأخرى ، وترى أنها أعز مكانة ونفراً من شقيقتها ، كالذي يحدث بين القبائل .

ويظهر أن الأمر قد اختلط على بعض أهل النسب في قضية (إياد) ، فجعلوا إياداً ابناً من أبناء معد ، أي شقيقاً لنزار ، وجعلوه إبناً لنزار ، فصيروه شقيقاً لربيعة ومضر وأنمار . وقد ذكر المسعودي أن إياداً ينتسبون الى القبيل الأكبر ، وليست لهم قبائل مشهورة . ويذكر قوم أن ثقيفاً من إياد ، ويرى فريق أنهم من قيس عيلان[1] .

وأما (قنص بن معد) ، فيزعم قوم أن (آل المنذر) ملوك الحيرة منهم[2]. ويظهر من عدم ذكر أسماء قبائل تنسب الى قنص أن قنصاً لم تكن من القبائل الكبرى ، وأنها دخلت في القبائل الأخرى قبل الإسلام ، فنسيت ، فلما دوّن أهل الأخبار الأنساب ، لم يكن لها شأن يذكر عندئذ غير الاسم .

ويلاحظ أن النسابين الذين جعلوا (آل نصر) من (قنص بن معد) ، أي من العدنانيين ، يذكرون أنفسهم ويروون في كتبهم أن نسبهم هو من اليمن ، وأنهم من أصل قحطاني .

ويذكر أهل الأخبار أن ربيعة ومضر حاربوا أبناء قنص بن معد وتغلبوا عليهم ، حتى أخرجوهم من ديارهم فتفرقوا في البلاد ، وذهب جمع منهم الى سواد العراق ، ولكنهم اصطدموا بالنبط الارمانيين من ملوك النبط ،فتراجعوا واستقر قسم منهم في الأنبار والحيرة[3] .

وأما (مضر بن الياس) فولد (الياس بن مضر) ، والياس ، وهو قيس عيلان . وعرف أبناء (الياس) بـ (خندف) نسبة الى أمهم (خندف) ، وهم : مدركة ، وطابخة ، وقمعة[4] . وذكر المسعودي أن مضر ترجع الى حين،

---

١ المعارف (ص ٢٩)
٢ المعارف (ص ٢٩) ، الطبري (٦١١/١) ، « دار المعارف » ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٨) ، البكري معجم (٥٢/١) ابن هشام (٥/١)
٣ البكري ، معجم (٥٢/١ وما بعدها) « طبعة السقا » .
٤ المعارف (ص ٣٠) « وكانت امهم ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهي خندف ، فغلب على من ذكرنا الالقاب ، ونسب ولد الياس الى امهم خندف » ، مروج (٣٩٦/١) ، نسب عدنان (ص ١) ، ابن حزم ، جمهرة (٩) البلاذري ، انساب (٣١/١) .

هما : خندف ، وقيس[1] .

ومن النسابين من يزعم أن (قمعة) ، واسمه (عمير) ، هو والد خزاعة . أما خزاعة ، فتأبى ذلك ، وترجع نسبها الى غسان[2] .

وورد في شعر الشعراء المعاصرين لبني أمية : (ابنا نزار) ، وقد قصدوا بذلك (ربيعة) و (مضر)[3] ، كما ورد (بحرا نزار) في المعنى نفسه[4] . وجعل (ابن جني) ، اللغة العربية التي نزل بها القرآن (لغة ابني نزار)[5] .

وقد سمى (الفرزدق) (قيس علان) و (خِندفاً) بـ (الحيين) المكونين لمعد[6] . وورد في شعر للعجاج (َحييَّ ْ مُضَر)[7] . وجاء في شعر لجرير :

اذا أخذت قيس عليك وخندف   بأقطارها ، لم تدر من حيث تسرح[8]

مما يدل على ان قيساً وخندفاً ، كانا من القبائل القوية في هذه الأيام .

ويظهر من تقسيم النسابين قبائل مضر الى حيين : خندف وقيس عيلان ، ان تلك القبائل كانت حلفاً في الأصل ، ثم انفصمت عراه ، أو ان خندفاً تحالفت مع قبائل قيس عيلان ، وربطت نسبها بنسب مضر . وتتألف خندف من

---

١ مروج (١/٣٩٦) .

٢ نسب قريش (٨)

٣ قال جرير :

وابنا نزار احلاني بمنزلة   في راس أرعن عادي القداميس

الجمحي ، طبقات (ص ٨٩) .

وقال الراعي :

تابى قضاعة أن تعرف لكم نسبا   وابنا نزار فانتم بيضة البلد

الجمحي ، طبقات (ص ١١٨)

٤ قال الكميت :

اضحت عداوتهم اياي اذ ركبوا   بحري نزار بهم منفشة القرب

المعاني الكبير (٢/٨٥٥) ، (٣/١١٣٤) .

٥ « وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار » ، الخصائص (١/٣٩٢)

٦ اذا اجتمع الحيان قيس وخندف   فثم معد هامها وعديدها

ديوان الفرزدق (١٨٩) .

٧ نسب عدنان (ص ٢) .

٨ نسب عدنان (ص ٢) .

قبائل مهمة ، منها ضبة ، وتميم ، وخزيمة ، وهذيل ، وكنانة ، وقريش ، وأسد وغيرها . وأما قيس عيلان ، فمن قبائلها : فهم ، وعدوان ، وغطفان ، وعبس ، وذبيان ، وسُليم ، وهوازن ، وباهلة ، وغنى ، وغيرها من قبائل سيأتي ذكرها بعد قليل .

وأما مدركة بن الياس ، فولد : خزيمة ، وهذيلاً ، وأسداً ، وكنانة . فأما هذيل ، فأولد ثلاثة : سعداً ، ولحياناً ، وعميراً ،والعدد في سعد بن هذيل : تميم وحريث ، ومنعة ، وخزاعة ، وجهامة ، وغنم ، وولد تميم معاوية والحارث[1].

وجعل « مصعب بن عبدالله بن مصعب الزبيري » أولاد مدركة ولدين ، هما خزيمة وهذيل . أما أسد وكنانة ، فهما عنده ولدان من أولاد خزيمة[2] .

وأما خزيمة ، فله من الولد كنانة ، وأسد ، وأسدة ، والهون[3] . وولد أسد دودان ، وكاهلاً ، وعمراً وحلمة . فهؤلاء (بنو أسد) ، ومنهم تفرقت أسد كلها . ومن بطونهم المشهورة : (بنو فقعس) ، وبنو الصيداء ، وبنو نصر ابن قعين ، وبنو الزينة ، وبنو غاضرة ، وبنو نعامة . أما ولد الهون ، فهم: القارة ، ومن القارة : عضل ، والديش ، وهما قبيلا الهون . وقد اشتهرت القارة بالرماية[4] . وجعل (الزبيري) ولد الهون ثلاثة : هم عضل ، والديش، والقارة[5] .

ويذكر (الزبيري) ، الذي أدخل أسدة في أولاد خزيمة ، ان أسدة يزعمون انه جذام ، ولخم ، وعاملة ، وقد انتسبوا في اليمن . ويظهر ان قبائل (أسد ابن خزيمة) ادعت ، حين مجيء لخم وجذام مع خالد بن عبدالله القسري الى العراق ، انها والقبائل القادمة من دم واحد ، هو دم خزيمة بن مدركة ، وانها أرادت إلحاق نسبها بهذا النسب[6] .

---

١ المعارف (ص ٣٠) ، وقد جعل « ابن قتيبة » قريشا ضمن ابناء مدركة ، ونسي خزيمة .
٢ نسب قريش (ص ٨) .
٣ المعارف (ص ٣٠) ، ولم يذكر صاحب كتاب « المعارف » : اسدة في اولاد خزيمة والذي ادخلهم هو « الزبيري » نسب قريش (ص ٨) .
٤ المعارف (ص ٣٠)
٥ نسب قريش (ص ٩) .
٦ نسب قريش (ص ٨ فما بعدها) .

وأما كنانة[1] ، فولد النضر ، ومالكاً ، وملكان ، وعبد مناة . وهو علي ، وربما قالوا مسعوداً[2] ، وآخرين ذكرهم (الزبيري)[3] . فأما بنو ملكان ، فلهم بقية ، وليس لهم شرف بارع ، مما يدل على انهم لم يكونوا كثيري العـدد . وأما بنو مالك ، فمن قبائلهم بنو فقيم وبنو فراس . ومن بني فقيم (القلامس) نَسَأة الشهور . وأما عبد مناة ، فمنهم (بنو مُدلج) القافة، ومنهم بنو جذيمة، ومنهم بنو ليث ، ومنهم الدئل ، ومنهم بنو ضمرة . ومن بني ضمرة : غفار . ومنهم بنو عريج[4] .

وأما (النضر) ، فولده مالك والصلت[5] . فأما (الصلت) ، فصاروا في اليمن ، ويقول قوم انه أبو خزاعة[6] . ورجعت قريش الى مالك كلهـا ، فهو أبوها كلها . وولد مالك بن النضر فهراً والحارث[7] . فأما (الحرث) الحارث ابن مالك ، فهو من المطيّبين ، ويقال ان الخلج منهم . ويقال كانوا من عدوان، فألحقهم عمر بن الخطاب بالحارث ، وسمّوا خلجاً لأنهم اختلجوا من عدوان ، وهم بالمدينة كثير[8] .

وأما فهر بن مالك ، فمنهم تفرقت قبائل قريش ، فقيل لهم (بنو فهر) . وولده : غالب بن فهر ، ومحارب بن فهر[9] . فأما (محارب) ، فمنهم ضرار ابن الخطّاب شاعر قريش في الجاهلية . وأما غالب بن فهـر ، فولده لؤي وتيم. فأما تيم ، فهم بنو الأدرم من أعراب قريش[10] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن قريشاً كانوا متفرقين في (بني كنانة)، فجمع (قصي) الى مكة (بني فهر بن مالك) فجذم قريش كلها (فهر بن مالك)

---

١ ممن ذكر « كنانة » من الجاهلين « بشر بن ابي خازم الاسدي » ، قال :
فابلغ ان عرضـت بهـم رسولا كنانة قومنا في حيـث صاروا
ديوان بشر (ص ٧٣) .
٢ المعارف (ص ٣٠ فما بعدها) .
٣ نسب قريش (ص ١٠)
٤ المعارف (ص ٣٠)
٥ نسب قريش (ص ١١) ، المعارف (ص ٣١)
٦ نسب قريش (ص ١١) ، الانباه (ص ٩٤)
٧ المعارف (ص ٣١) ، نسب قريش (ص ١٢) .
٨ المعارف (ض ٣١) .
٩ واضاف « الزبيري » اليهما « الحادث » ، نسب قريش (ص ١٢)
١٠ المعارف (ص ٣١ فما بعدها) .

فما دونه (قريش) وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر، فانما قريش الى (فهر بن مالك) لا تجاوزه[1] . ثم يفسرون معنى (قريش)، بالتقرش أي التجمع ، أو جمع المال والتجارة ، أو غير ذلك مما سأتحدث عنه فيما بعد[2] . مما يدل على أن تلك التسمية لم تكن قديمة ، وإنما هي لقب في الأصل أطلق على جماعة من بني فهر كانوا يسكنون مكة ، فعرفوا به حتى غلب على اسمهم ، وصار اللقب اسماً ، ومن هنا اشتهر بين النسابين انه اسم إنسان وجدّ قبيلة .

وأما لؤي ، فإليه ينتهي عدد قريش وشرفها . وولده : كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، وسامة بن لؤي ، وسعد بن لؤي ، وخزيمة بن لؤي ، والحارث بن لؤي وعوف بن لؤي[3]. فأما عامر، فولده حسل ومعيص، ومن حسل سهل وسهيل والسكران بنو عمرو . وأما سامة ، فوقع بعمان ، وهلك بها فولده هناك. وأما سعد بن لؤي ، فهو أبو ولد بنانة ، وأما خزيمة بن لؤي ، فنهم عائذة، وهم في بني شيبان . وأما كعب بن لؤي ، فولده: مرة ، وهصيص ، وعدي[4]. فأما هصيص ، فنهم بنو سهم، وبنو جمع . وأما عدي ، فنهم عمر بن الخطاب. وأما مرة ، فنهم تيم بن مرة رهط أبي بكر ، وآل المكندر ، ومنهم مخزوم ابن يقظة بن مرة ، ومنهم كلاب بن مرة وولد زهرة بن كلاب وقصي ابن كلاب[5] .

وأما قصي بن كلاب ، فإنه أول من جمع قبائل قريش ، وأنزلها بمكة ، وبنى دار الندوة ، وأخذ مفتاح الكعبة من خُزاعة . وكان له من الولد : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العُزّى ، وعبد[6] . فأما عبد ، فبادوا . وأما عبد العزى ، فنهم خويلد بن أسد أبو خديجة . وأما عبد الدار ، فنهم آل أبي طلحة ، ومنهم شيبة بن عثمان ، وقد أعطاه النبي مفتاح الكعبة ، وصار في

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣) ، ابن حزم ، جمهرة (١١) الانباه (٦٦) ، البلاذري انساب (١/٣٩)
٢ الميداني ، مجمع الامثال (٢/٧٢) .
٣ المعارف (ص ٣٢) ، «والحارث، وهم جشم وهم في همدان»، نسب قريش(ص١٣)
٤ نسب قريش (ص ١٣) ، المعارف (ص ٣٢)
٥ المعارف (ص ٣٢) نسب قريش (ص ١٣)
٦ نسب قريش (ص ١٤) ، المعارف (ص ٣٢ فما بعدها)

ولده . وأما عبد مناف ، فولده هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل وأبو عمرو[١] .

وأما طابخة بن الياس ، فولد أدّاً ، وولد (أدّ) مرّاً وعبد مناة وضبّة ومزينة وحميساً والرباب . فأما عبد منـاة ، فمنهم تيم بن عبد مناة وبطونها ، وعدي بن عبد مناة ، وعُطل بن عبد مناة ، وهؤلاء الثلاثة من الرباب ، وثور ابن عبد مناة[٢] . وجعل (الزبيري) ولد أدّ بن طابخة : مزينة ، ومراً وتميماً[٣] .

وأما ضبة بن أد ، فولده سعد وسعيد وباسل . فأما باسل ، فهو أبو الديلم ، وقتل سعيد ولا عقب له ، وضبة كلها ترجع الى (سعد بن ضبـة) ، وهي جمرة من جمرات العرب ، وهي من الرباب . وولد سعد الذين تنسب اليهم ضبة بكراً ، وثعلبة وصريماً . ومن بطونهم نصر ، ومـازن ، والسيل ، وذهل ، وعائذة ، وتيم اللات ، وزبان ، وعوف ، وشييم . ومن ذهل بجالة ، وتيم ، وصبيح ، وضبة ، وكعب . ومن كعب ضرار بن عمرو ، وهو بيت ضبة ، وبنو صباح ، وهم معروفون بالصيد ، وشقرة وهلال[٤] .

وأما مزينة بن أد ، فهم مزينة مضر ، ومنهم الشاعر زهـير . وأما حميس بن أد ، فهم قليلون ، يكونون في البصرة في بني عبد الله بن دارم وبالكوفـة في بني مجاشع . وأما مرّ بن أد ، فولده ثعلبة بن مرّ . وهم بنو ضاعنـة ، ونسبوا الى أمهم . وبكر بن مرّ ، وهم الشعيراء وأراشة بن مرّ ولحقوا باليمن ، فصاروا في جذام ، ويقال لهم جديس ، والغوث بن مر ، وصاروا باليمن ، ويقال لهم بنو صوفة ، وكانوا يفيضون بالناس قبل بني صفوان وتميم بن مر[٥] .

وأمـا تميم بن مر ، وقبره بـ (مران) ، فولده زيد مناة ، وعمرو ، والحارث . فأما الحـارث ، فمنهم شقرة ، وأما عمرو ، فولده العنبر والهجيم وأسيد والقليب والحارث بن عمرو المعروف بـ (الحبط) ، ويقال لولده (الحبطات) ، ومالك بن عمرو . وأما زيد مناة ، فولد سعداً وفيهم العدد ، وعامراً ، وانتسب ولده الى عامر بن مجاشع والحارث ، وهم قليل ، وامرؤ القيس ، منهم عدي

---

١ نسب قريش (ص ١٤) ، المعارف (ص ٣٢ وما بعدها)
٢ المعارف (ص ٣٤)
٣ نسب قريش (ص ٨) .
٤ المعارف (ص ٣٤) .
٥ المعارف (ص ٣٤) .

ابن زيد الشاعر ، وقبائلهم بنو عصية . ومالك بن زيد مناة ومنهم ربيعة الجوع ، ومنهم البراجم ، وهم عمرو وقيس وكلفة وظليم وغالب بنو حنظلة بن مالك : ومنهم بنو يربوع بن حنظلة ، وهم بنو كليب بن يربوع ، ورياح بن يربوع ، وثعلبة بن يربوع ، وعُدانة بن يربوع ، وحزام بن يربوع[١] .

ومن تميم بن مرّ بنو دارم بن مالك بن حنظلة ، ومجاشع بن دارم ، ونهشل ابن دارم ، ومنهم بنو العدوية ، نسبوا الى أمهم ، وهم : زيد بن مالك بن حنظلة ، وصدى بن مالك بن حنظلة ، ويربوع بن مالك بن حنظلة ، وعوف ابن مالك بن حنظلة ، وجشش بن مالك بن حنظلة[٢] .

وأما سعد بن زيد مناة بن تميم فهو الفزر . وولده كعب بن سعد ، وعمرو ابن سعد ، والحارث بن سعد ، وهم : عوافة ، وعبشمى بن سعد ، واسمه مقروع ، وجشم بن سعد ، ومالك بن سعد ، وهبيرة بن سعد . فأما كعب ابن سعد ، ففيهم العدد . منهم مقاعس ، ومنهم حمان ، ومنهم بنو منقر ، ومنهم بنو مرة ، ومنهم ربيعة . ومن (عوف بن كعب) بهدلة رهط الزبرقان ابن بدر ، وقريع رهط بني أنف الناقة ، ومنهم آل عطارد وآل صفوان بن شجنة الذين كانت فيهم الإفاضة بالناس من عرفة ، ومن عطارد بنو عوف[٣] .

وأما قيس بن عيلان ، وهو قعة بن الياس بن مضر ، فولد سعداً ، وعكرمة ، وأعصراً ، وعمراً ، وخصفة . وبعض النساب يزعم أن عكرمة هو ابن حفصة ، وأعصر هو ابن سعد[٤] . وأما عمرو بن قيس ، فولده فهم وعدوان . فمن فهم تأبط شراً . وأما عدوان ، فمن بطونهم بنو خارجة وبنو وابش وبنو يشكر وبنو عوف والفرعا وبنو رهم وبنو رباح . ومن عدوان عامر بن الظرب حاكم العرب ، وأبو سيارة الذي كان يفيض بالناس ، وعدوان أنزلوا ثقيفاً بالطائف ، وكانت كثيرة السادة ، فتفرقوا يبغي بعضهم على بعض[٥] .

---

١ المعارف (ص ٣٥)
٢ المعارف (ص ٣٥)
٣ المعارف (ص ٣٦)
٤ المعارف (ص ٣٦)
٥ المعارف (ص ٣٦)

وأما بنو سعد بن قيس عيلان ، فهم غطفان[1] وأعصر بن سعد : فولد أعصر غنياً ومَعْناً وهو أبو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان نسب بنو معن اليهـا ، ومنبه بن أعصر وهم الطّفاوة . فأما غني ، فنهم بنو ضبينة وبنو بهثة وبنو عبيد. وهم حلفاء في بني كلاب . وأما الطفاوة ، فنهم بنو جسر وبنو سنان ، وكانوا في بني شيبان حلفاء . ومن الطفاوة الحبال ، وكانوا في الهجيم، وأما معن ابن أعصر ، فولده قتيبة ووائل ، وامهما من فزارة ، وأود ، وجاءت امهـا باهلة امرأة من همدان ، وفراص وأبو عليم[2] .

وأما قتيبة بن معن ، فن ولده غُنْم ، وولد غنم سهم بن غنم ، ومن بني قتيبة بنو صحب ، وهم ينزلون اليمامـة . ومنهـم عمـرو بن عبـد واعبد وقعنب وسعد بن عبد وعامر بن عبد ، ومن بني سعد بنو أصمع . وأما وائل بن معن ، فنهم بنو سلمة وبنو هلال بن عمرو وبنو زيد وبنو عامر ابن عوف وبنو عصية[3] .

وأما غطفان بن سعد ، فولده ريث وعبدالله ، فولد ريث بغيضاً وأشجع ، فولد بغيض ذبيان وعَبْساً وأنماراً . وأما عبدالله بن غطفان، فهم في بني عبس : وأما أشجـع ، فنهم بنو دهمان . وأما أنمار بن بغيض ، فهم قليـل . وأما عبس بن بغيض ، فولده قطيعة ، وورقة ، ومعتم ، والشرف والعدد في قطيعة. وأما ورقة ومعتم ابنا عبس ، فلا يعرف منهما أحد[4] .

وأما ذبيان بن بغيض ، فولده فزارة ، وسعد ، وهاربة البقعاء ، وقد بادت هاربة الا بقيةً يسيرة في بني ثعلبة بن سعد ، وأما فـزارة بن ذبيان ، فولده عدي ، وظالم ، ومازن ، وشمـخ . فأما ظالم ، فقد بادوا الا قليـلاً ، وأما شمخ بن فزارة ، فولده لؤي وهلال ، وأما مازن بن فزارة ، فنهم بنو العشراء، وأما عدي بن فزارة ، فولده ثعلبة وسعد[5] .

وأما سعد بن ذبيان ، فولده ثعلبة وعوف . فن ثعلبة بنو جحاش ، وبنو سبيع ، وبنو حشور . وفي بني سبيع البيت والشرف . وولد عوف بن سعـد

---

١ التنبيه (ص ٢٠٩ ، وما بعدها ، ٢١٦)
٢ المعارف (ص ٣٦)
٣ المعارف (ص ٣٧)
٤ المعارف (ص ٣٧)
٥ المعارف (ص ٣٨)

مرّة وعيداً . فأما عيد ، فقليل ، وفي مرّة بن عوف الشرف والسؤدد . فولد مرّة بن عوف غيظاً ، ومالكاً ، وحرمة ، وسهما ، وبني صارد وغيرهم. فولد غيظ نشبة ويربوعاً[1] .

وأما خصفة بن قيس عيلان ، فولده عكرمة ومحارب . وبعضهم ذكر ان عكرمة هو ابن قيس . وأما محارب ، فنهم جسر والخضر . وبنو جسر حلفاء بني عامر بن صعصعة . وأما عكرمة ، فولده عامر ومنصور ، وأبو مالك . فأما بنو أبي مالك ، فهم في بني تيم الله . وأما عامر ، فهم حشوة في بني سُليم ولهم بقية بالبادية . وأما منصور بن عكرمه ، فولده سليم ، وسلامان، وهوازن ، ومازن . وأما سُليم فولده بهثة . وولد بهثة امرأ القيس وعوفاً . ومن قبائل سُليم ، بنو حرام ، وبنو خفاف ، وسماك ، ورعل ، وذكوان ، ومطرود ، وبهز ، وقنفذ ، ورفاعة ، وعصبة ، وظفر ، وبجلة ، وحبيب ابن مالك ، وبنو الشريد ، وبنو قتيبة[2] .

وأما هوازن بن منصور ، فولده بكر ، وسبيع ، وحرب ، ومنبه ، ولا عقب لسبيع وحرب . وأما منبه ، فهو أبو ثقيف في قول بعض النسابين . وولد بكر بن هوازن سعداً ومعاوية وزيداً . ومن ولد معاوية بن بكر ، جشم ، ونصر ، وصعصعة ، والسباق ، وجسر ، وجحش ، وجحاش ، وعوف ، ودحوة ، ودحية . فأما دعوة ، ودحية ، وجحش ، وجحاش، فلا عقب لهم . وأما عوف ، فيقال لهم الوقعة[3] .

وأما صعصعة بن معاوية ، فولده عامر ومرّة وغاضرة ومازن وواثلة . فأما بنو مرّة ، فيعرفون بـ (بني سلول) . وأما عامر بن صعصعة ، فولده هلال ابن عامر ، وسواءة بن عامر ونمير بن عامر ، وهي جمرة من جمرات العرب. وربيعة بن عامر ، وولده بنو مجد وينسبون الى أمهم . وهم عامر بن ربيعة ، وكلاب بن ربيعة ، وكعب بن ربيعة . فأما عامر بن ربيعة ، فمن ولده عمرو ابن عامر فارس الضحياء ، وبنو البكا بن عامر . وأما كلاب بن ربيعة ، فمن ولده جعفر ، ومعاوية ، وربيعة ، وأبو بكر ، وعمرو ، والوحيد ، ورواس ،

---

١ المعارف (ص ٣٨)
٢ المعارف (ص ٣٨)
٣ المعارف (ص ٣٩) .

والأضبط ، وعبدالله . وأما معاوية بن كلاب ، فنهم الضباب ، وهم حسل وحسيل وضب[1] :

وأما عمرو بن كلاب ، فنهم بنو دودان . وأما أبو بكر بن كلاب ، فمن ولده القرطات : قـرط وقريط ومقرط . وأما كعب بن ربيعة ، فمن ولده عقيل وقشير والحريش وجعدة وعبدالله وحبيب . وأما عبدالله ، فمن ولده بنو العجلان . وأما قشير بن كعب ، فنهم غطيف وغطفان ، ومنهم مالك ذو الرقيبة ، ومنهم بنو ضمرة . وأما عقيل بن كعب ، فنهم خفاجة ، ومنهم الحلفاء ، ومنهم الأخيل[2] .

وأما منبه بن هوازن بن منصور ، فولده قسي ، وهو ثقيف . فولد ثقيف جشم وعوفاً والمسك ، فتزوج قاسطُ المسك ، فولدت وائلاً أبا بكر بن وائل : وأما جشم ، فولد حطيطاً ، فولد حطيط مالكاً وغاضرة . وأما عوف ، فهم الأحلاف ، وذلك أنهم تحالفوا على بني مالك وصارت غاضرة مع الأحلاف ، فثقيف فرقتان : بنو مالك والأحلاف[3] .

هذا وإننا لنجد بعض النسابين ينسبون ثقيفاً الى (ثمود) ، فيقولون إنهم من بقاياهم ، وهو نسب لا يرضى عنه الثقفيون بالطبع ، ويزعجهم أن يكونوا من قوم هلكوا بسبب غضب الله عليهم[4] . ومنهم من جعل نسبهم في إياد : ومنهم من جعل نسبهم من (أبي رغال) الى غير ذلك من أقوال ، يظهر أنها ظهرت في الإسلام كرهاً للحجاج بن يوسف ، أحد بني ثقيف ، المشهور بتعسفه وبظلمه . وقد قيل إن قيساً ، وهـو اسم (ثقيف) هو من القسوة ، وكان غليظاً قاسياً[5] ولا أظن أن هذا التفسير هو مما يرضي الثقفيين .

وأما ربيعة بن نزار بن معد ، فولد أسد بن ربيعة وضبيلة بن ربيعة وأكلب ابن ربيعة . فأما أكلب بن ربيعة ، فهم في خثعم . وهم بطون كثيرة تنسب الى خثعم . وأما ضبيعة بن ربيعة ، فولد أحمس ، والحارث ، والقلادة ، وأما

---

١ المعارف (ص ٣٩)
٢ المعارف (ص ٤٠)
٣ المعارف (ص ٤١)
٤ ابن خلدون (٢٤/٢) .
٥ الاشتقاق (١٨٣/٢) ، الاغاني (٢٢٠/١٤) ، المبرد ، الكامل (٢٧٦/١) ، الانباه (٨٩) ، البلاذري ، انساب (٢٥/١)

أسد بن ربيعة ، فولد جديلة وعنزة وعميرة . فأما عميرة ، فهم في عبد القيس . أما عنزة ، فاسمه عامر . وأما جديلة ، فولد دعمي وولد دعمي أفصى ، فولد أفصى هنباً وعبد القيس . فولد عبد القيس اللبو وأفصى . وولد أفصى شناً ولكيزاً . فمن شنّ الديل بن شنّ . وولده سعد وجذيمة وعامر وحبيب. ومنهم بنو بهثة بن جذيمة بن الديل بن شنّ . وأما لكيز،فولد نكرة وصباحاً ووديعة : فأما نكرة ، فهم حلفاء جذيمة ، ومنهم هنبة بن نكرة ، وهم أهل البحرين[1]. وفيهم العدد والشرف ، ومنهم المثقب العبدي الشاعر والممزّق الشاعر والمفضل ابن عامر الشاعر وصاحب القصيدة المنصفة . وبعمان قوم من نكرة ، وباليمن قوم منهم .

وأما وديعة ، فولده عمرو وغنم ودهن . فأما دهن ، فهم واثلة ، نسبوا الى أمهم . وأما غنم،فولد عمرو بن غنم وعوف بن غنم . وأما عمرو بن وديعة فولده أنمار وعجل ومحارب والديل والعوق وامرؤ القيس . فمن ولد الديل أهل عمان . وأما العوق ، فمنهم العوقة ، وهم عمانيون قليل . وأما أنمار ، فمنهم عصر ، ومنهم ظفر . وأما محارب ، فولد حطمة وظفر أبي محارب[2] .

وأما هنب بن أفصى ، فولد قاسط بن هنب وعمرو بن هنب وخندف بن هنب . وأما عمرو فمنهم عتيب ، وهم بنو شيبان . وأما قاسط ، فولد عمرو بن قاسط والنمربن قاسط ووائل بن قاسط . أمهم المسك بنت ثقيف .

وأما النمر بن قاسط ، فولد تيم الله وأوس الله وعائذ الله وأمهم هند بنت تيم بن مر وإخوتهم لأمهم بكر وتغلب ، وأخوهم لأمهم أيضاً اللبو بن عبد القيس . فأما تيم الله ، فولد الخزرج والحريث . وولد الخزرج سعداً . وأما وائل بن قاسط ، فولد بكر بن وائل وتغلب بن وائل وعنز بن وائل . أمهم هند بنت تميم بن مر . فأما عنز بن وائل ، فأولد أراشة ورفيدة . فمن أراشة أشجع وغضاضة[3] .

وأما تغلب بن وائل ، فولد غنم بن تغلب والأوس بن تغلب وعمران بن تغلب . فأما غنم بن تغلب ، فمنهم معاوية بن عمرو بن غنم . ومنهم الأراقم ،

---

١ المعارف (ص ٤١ فما بعدها)
٢ المعارف (ص ٤٢)
٣ المعارف (ص ٤٢)

وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو ، وثعلبة ، والحث ، ومعاويــة بنو بكر بن حبيب بن عمرو . ومن بني تغلب عكب . ومنهم بنو عدي بن أسامة ، ومنهم بنو كنانة يقال لهم قريش تغلب . وهم بنو عكب . ومنهم جشم بن بكر ، ومن بني جشم بنو الحــارث بن زهير ، رهط كليب بن ربيعة ، ومنهم بني زهير بنو عتاب .

وولد بكر بن وائل علي بن بكر ، ويشكر بن بكر ، وبـــدن بن بكر ، أمهم هند بنت تميم بن مر . ويقال لها أم القبائل . فأما يشكر ، فولد كعبــاً وكنانة وحرباً . وفي كعب العدد والشرف . فمن ولد كعب حبيب والعتيك ، ومنهم بنو غنم بن حبيب وثعلبة وجشم وعدي بن جشم[1] .

وأما علي بن بكر ، فولده صعب .. وولد صعب لجيماً وعُكابـة ومالكاً . فأما مالك ، فمنهم بنو زمان وعددهم في بني حنيفة . وأما لُجيم ، فولد عجلاً وحنيفة . فأما عجل ، فولده ربيعة وضبيعة وسعد وكعب . فأما كعب وضبيعة فقليل .

وأما حنيفة بن لُجيم ، فولده الدول وعدي وعامر وعبد مناة . فأما عبد مناة فهم قليل . وأما الدول ، فنهم بنو هفان .

وولد عكابة بن صعب قيساً وثعلبة . فأما قيس ، فقليـــل ، وعددهم في بني ذهل . وأما ثعلبة بن عكابة ، فيقال له الحصن . وولد ثعلبة ذهلاً وشيبان وقيس وتيم الله وأتيـــداً وضنة . فأما ضنـــة ، فلحقت باليمن فصارت في بني عذرة . وأما أتيد ، فهي في بني شيبان . وأما تيم الله بن ثعلبة، فهم اللهازم، وهم حلفاء بني عجل . فولد تيم الله مالكاً والحارث وعامراً وهلالاً وذهلاً وزماناً وحاطمة ، فهؤلاء يقال لهم الأحلاف ، الا الحارث وعامراً ومالكاً، وسمي أولئك أحلافاً لأنهم تحالفوا على هؤلاء[2] .

وأما قيس بن ثعلبة ، فولد ضبيعة وتيماً وسعداً . وفي ضبيعة العـدد . وأما تيم بن قيس وسعد بن قيس ، فهما الحرقتان . وأما ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، فولد شيبان وعامراً . فأما عامر ، فيقال لها الوخم . وأما شيبان ، فولده سدوس وفيه العدد ، وعمرو ومازن وعلباء وعامر وزيد مناة .

---

١ المعارف (ص ٤٣)
٢ المعارف (ص ٤٤)

فأما علباء ، فهم قليل . وأما شيبان بن ثعلبة بن عكابة ، فولده : ذهل ، وتيم ، وثعلبة ، وعوف . فأما عوف ، فلا عقب له . وأما ذهل بن شيبان ، فولد مرّة بن ذهل ، وربيعة ، ومحلم ، والحارث ، وعبد غنم ، وعوفاً ، وصبحاً وشيبان ، وعمرو وأمه جذرة ، وهم يدعون بني الجذرة ، وهم قليل[1] .

والأنساب التي دونتها ورتبتها ، لا تعني انها أنساب كاملة ، كل شجرة منها بأغصانها وأوراقها ، لم أترك نسباً ، ولم أهمل اسماً . بل هي خلاصة الأنساب ، أخذتها كما رويت في كتاب (الإكليل) للهمداني وفي كتاب (المعارف) لابن قتيبة . وقد ترك ابن قتيبة أسماء قبائل وبطون وأفخاذ ، لأنها لم تكن مثل المذكورين في الشهرة . وبين (ابن قتيبة) وغيره من النسابين اختلاف كبير في عرض الأنساب وترتيبها . ولما كان عملي هو وضع مخطط عام في النسب لا غير ، فقد رأيت الاكتفاء بهذا الرسم الأولي ، وترك التفصيلات ومواطن الخلاف الى الراغبين في دراسة النسب المتعشقين له ، ليراجعوا الكتب الخاصة بها. وغايتي من هذا المخطط،هو تقديم جريدة صغيرة الى القارىء بأسماء قبائل عدنان وقحطان ، ليقف عليها ، فعلى هذه المعرفة يتوقف فهم كثير من الأحداث .

---

١ المعارف (ص٤٥)

الفصل العاشر

أثر التوراة

لهذا المدون في التوراة عن الإسماعيليين والقحطانيين ، وعن نوح وأولاده ، وعن الأنساب الأخرى ، أثر ظاهر على عمل أهل الأخبار والأنساب الذين اشتغلوا بموضوع النسب في الإسلام ، بل يظهر ان أثره كان فعالاً ومؤثراً حتى في الجاهليين ، وذلك لاتصالهم واختلاطهم بأهل الكتاب .

وكان لما جاء في القرآن الكريم مجملاً من أمر آدم ونوح والطوفان وابراهيم واسحاق ويعقوب واسماعيل وغيرهم ، وما جاء فيه من أمر عاد وثمود وقوم صالح وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع ، أثر كبير أيضاً في أهل الأخبار والتفسير حملهم على البحث عنهم . والتفتيش عن أخبارهم من الأحياء المسنين الذين كانوا يقصون على جيلهم قصص الماضين وأخبار العرب المتقدمين ، ومن أهل الكتاب الذين كان لهم إلمام بما جاء في التوراة من الرسل والأنبياء والأمم القديمة والأنساب .

ويمكن حصر الروايات الواردة في الأنساب ، والمأخوذة من أهل الكتاب ورجعها الى الطرق الأصلية التي وردت منها وإلى الأماكن التي ظهرت فيها ، وسنجد بعد البحث أن أكثر رواة هذا النوع من الأخبار كانوا قد استقوا من معين واحد . هم مسلمة أهل الكتاب ، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجل من أهل تدمر عرف

بـ (أبي يعقوب) كان يهودياً فأسلم . وقد زود (ابن الكلبي) وغير ابن الكلبي بقسط من هذه الأسماء التي يستعملها النسابون في الأنساب : وكان (محمد ابن اسحاق) صاحب السيرة يعتمد على أهل الكتاب ، ويكثر الرواية عنهم ويسميهم أهل العلم الأول[1] .

وقد استغل نفر من أهل الكتاب حاجة المسلمين هذه الى الوقوف على (البدء)[2] أي مبدأ الخلق والتكوين ، وقصص الرسل والأنبياء ، وكيفية توزع البشر ، فأخذوا يفتعلون ويضعون ويصنعون على التوراة والكتب اليهودية المقدسة ، يبيعونه لهم أو يتقربون به اليهم ، إدعاءً للعلم والفهم . قال الطبري (كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً)[3].

أما ما ذكروه من أن (أبا يعقوب) التدمري وجد في كتاب (بورخ بن ناريا) (كاتب أرميا) ، نسب (معد بن عدنان) فإنه كذب وتلفيق ، فليس في كتاب (بورخ) شيء من هذا النسب . وكتابه من جملة أسفار (الأبوكريفا) في نظر (البروتستانت)[4] ، وهو مترجم الى العربية ومطبوع مع أسفار التوراة الأخرى ، في الترجمة (الكاثوليكية) ، وقد قرأناه فلم نجد فيه شيئاً من هذا الذي يذكره اليهودي الذي دخل في الإسلام. وليس لـ(بورخ) كتاب آخر فنقول

---

١ الفهرست (ص ١٣٦) ، « عن محمد بن اسحاق . قال حدثني بعض اهل العلم من اهل الكتاب » ، الاكليل (٣١/١)

٢ « وفي كتاب البدء ، ونقله ابن سعيد » ، قيل للكتب التي تبحث في الخلق وبدء التكوين والانبياء « كتب البدء » ، قال المسعودي : « وما ذكره اهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء ، كوهب بن منبه وابن اسحاق وغيرهما .. » مروج (٣٢٠/١) ابن خلدون (١٨/٢ ، ٣٤)

٣ «وكان رجل من اهل تدمر يكنى ابا يعقوب من مسلمة بنى اسرائيل قد قرأ من كتبهم وعلم علمهم ، فذكر ان بورخ بن ناديا كاتب ارميا اثبت نسب معد بن عدنان عنده ووضعه في كتبه ، وانه معروف عند احباء اهل الكتاب وعلمائهم مثبت في اسفارهم ، وهو مقارب لهذه الاسماء ، ولعل خلاف ما بينهم من قبل اللغة ، لان هذه الاسماء ترجمت من العبرانية » ، الطبقات (ح ١ ، ق ١ ، ص ٢٩) ، تفسير الطبري (٣٠٠/١) ، (٢٣١/٣)
Nallino, Raccolta, Vol. 3, P. 120, Sprenger, Mohammad, Vol. 3, P. CXXXIII, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 178, Muir, Life of Muhamet, CVII, Bate, P. 117.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٥/١)

إنه وجده فيه ، ولا يعقل أن يكون كتاب (بورخ) الذي قرأه نسخة خاصة لم توجد عند غيره من الناس ، حتى نحسن الظن به . وكل ما نجـده في سفر (بورخ) مما قد يكون له علاقة بالعرب هو هذه الكلمات : (لم يسمع به في كنعان ولا تروى في تيمان ، وبنو هاجر أيضاً المبتغون للتعقل على الأرض وتجار مران وتيمان وقائلو الأمثال ومبتغو التعقل ، لم يعرفوا طريق الحكمة ولم يذكروا سبلها)[1] . وليس في هـذه الكلمات كما نرى شيء ما له صلة بنسب (معد بن عدنان) .

فكنعان ، كناية عن الكنعانيين ، وليست لهم صلة بمعـد أو بعدنان . وأما (تيمان) فكناية عن أرض كانت في الجنوب الشرقي من (أدوم) ، وهـي أرض (أبناء الشرق) ، وقد نسبت التوراة التيمانيين الى (اليفاز بن عيسو)[2] ، ونسبت اليهم الحكمة[3] . وليست لهم علاقة أيضاً بأبناء معد ولا بعدنان .

وأما (بنو هاجر) (الهاجريون) (Hagrites) فانهـم شعب سكن شرق أرض (جلعاد) ، وقد اختلف علماء التوراة في أصله ، فمنهم من عدّه قبيلة عربية ، ومنهم من عدّه من الآراميين ، ومنهم من رأى انهم (الإسماعيليون) . وقد ذكر الهاجريون مع أقوام من الآراميين في كتابـة أخبار انتصارات (تغلاتبليسر الثالث) (Tiglath-Pileser III) . وهكذا وجدنا أنفسنا عاجـزين حتى في هذا الموضع من سفر (باروخ) من العثور عن أية صلة للكلمات المذكورة بنسب (معد بن عدنان) .

ويروي رواة الشعر وأهل الأخبار شعراً لعدي بن زيد العبادي ولأمية بن أبي الصلت ولنفر آخر من الشعراء في أحداث وأمور توراتيـة . وهذه الأشعار إن صح انها لهم حقاً ، دلت على وقوف أولئك الشعراء على التوراة ، أو على بعض أسفارها ، أو على قصص منهـا . أما عدي بن زيد ، فلا أستبعد وقوفه على التوراة ، فقد كان نصرانياً قارئاً كاتبـاً بالفارسية والعربية ، وربما كان كاتباً بلغة بني إرم كذلك ، لغة المثقفين في العراق يومئذ . وقد كان هو نفسه من

---

١ نبوءة باروك ، الاصحاح الثالث ، الاية ٢٢ وما بعدها .
٢ التكوين ، الاصحاح ٣٦ ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٢٩٦ وما بعدها)
٣ ارميا الاصحاح ٤٩ ، الاية ٧ وما بعدها .

المثقفين ثقافة عالية بالقياس الى زمانه ، وفي شعره زهد وتصوف وتدين وتأمل وتفكر ، فلا يستبعد إذن أخذه من التوراة ومن الأناجيل . وقد أورد (الهمداني) له أبياتاً في قصة آدم وحواء والجنة والحيّة[1] . وهي أبيات فيها ركة وضعف ، ولكنها منتزعة من (سفر التكوين) من التوراة أخذت منه[2] . وهي إن كانت من شعره ومن نظمه حقاً ، كانت أقدم شعر يصل الينا في نظم بعض قصص التوراة بلغة عربية .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فقد كان واقفاً على كتب اليهود والنصارى كما يذكر أهل الأخبار ، قارئاً لكتب الديانتين ، مطلعاً على العبرانية أو السريانية أو على اللغتين معاً ، إن كان واقفاً أي حائراً بين الديانتين ، فلم يدخل في أمية ديانة منهما ، وإنما كان من الأحناف على حد تعبير أهل الأخبار ، لذلك لا يستبعد وقوفه على قصص توراتي وإنجيلي ، وعلى الاستفادة منه في الشعر . ونجد في شعره ألفاظاً غريبة ، يذكر أهل الأخبار أنه أخذها من لغات أهل الكتاب ، فوضعها في شعره ، وشعره كما قلت في مواضع من هذا الكتاب يستحق من هذه الناحية الدرس والنقد ، لنرى الى أية درجة من الحق والصدق تصل دعاوى أهل الأخبار في شعر أمية ، وفي نسبته اليه . وهو إن ثبت انه له ، كان أيضاً دليلاً على وقوف المثقفين من الجاهليين على كتب أهل الكتاب ، وشيوعه في الحجاز ، وكان أيضاً دليلاً على نظم بعض الشعراء لحوادث التوراة والإنجيل في شعرهم في ذلك العهد :

ونجد في شعر (أميّة بن أبي الصلت) وأمثاله من المتصلين بأهل الكتاب القارئين لكتبهم كما يذكر أهل الأخبار ، فائدة كبيرة لنا في تكوين رأي عام عن وقوف العرب على الآراء التوراتية في الجاهلية ، وفي جملة ذلك أنساب التوراة . وفي الشعر المنسوب الى (أمية) آراء مستمدة من التوراة ، مثل شعره في (نوح) وفي قصة (الطوفان) والغراب والحمامة وبقية حكاية الطوفان الى زواله ، فإنه إن صح دل على وقوف (أمية) على خبر قصة (الطوفان) الواردة في السفر السادس فما بعده من التكوين . فإن ما جاء في هذا الشعر هو اقتباس

---

١ الاكليل (٢٩/١ وما بعدها)
٢ الاصحاح الثاني وما بعده

لما ورد في تلك الأسفار[1] . ونجـد له أشعاراً أخرى إن صحت نسبتها اليه ، دلّت على أنه كان على اتصال بأهل الكتاب ، وعلى أخـذٍ منهم . ولعله كان يغرف من قصصهم الذي كان يشرح للناس ما جاء في التوراة ، أو أنـه كان يراجع ترجمات للتوراة كانت بعربيـة أهل الكتاب في ذلك العهد ، أو يسمع منهم ترجمة التوراة سماعاً فوقف على بعض ما جاء فيها ، وفي جملة ذلك هذا القصص ، وربما الأنساب المتعلقة بالعرب كذلك .

وحكاية (أمية) عن الطوفان أقرب الى التوراة من حكاية (الأعشى) أبي بصير ميمون بن قيس ، عن الطوفان . وذلك إن صح أن ذلك الشعر من نظمه حقاً . فإن العناصر التوراتية فيه ليست بارزة واضحة وضوحهـا في شعر أمية : ويظهر من بعض الجمل الواردة في شعر الأعشى عن الطوفان مثل :

ونادى ابنه نوح وكان بمعزل   ألا اركب معي واترك مصاحبة الكبر

فقال :

سآوي نحو أعيط مشرف   بطول شنان السماء ذي مسلك وعر[2]

ومثل :

ونجا لنوح في السفينة أهله   ملاحكة الألواح معطوفة الدسر
فلما استوت من أربعين تجرمت   تناهت على الجودي أرست فما تجري[3]

ومن مضمون القصة نفسها ، ان المنبع الذي استقى منه الشاعر (الطوفان) هو القرآن الكريم ، ومن يراجع الآيات المنزلة عن (نوح) وعن الطوفان وعن ابنه ، وكيف امتنع عن الركوب معه بالرغم من إلحاح نوح عليـه ، يجزم أن الشاعر المذكور قد أخذ الطوفان من القرآن الكريم ومن موارد اسلامية، واستعمل ألفاظاً وتراكيب وردت في كتاب الله ، ولم ترد في التوراة :

---

١ راجع التكوين ، الاصحاح السادس فما بعده ، الاكليل (١٨/١ وما بعدها)
٢ « الكبر » هكذا ضبطت في الاكليل (٥٢/١) ، وارى ان لفظة الكفر انسب الى المعنى من هذه اللفظة .
٣ الاكليل (٥٢/١)

واني أشك في كون هذا الشعر من شعر (الأعشى) . فالأعشى رجل لم يسلم وان أدرك أيام الرسول ، كان قد قصد الرسول ، ونظم قصيدة في مدحه ، ولكن قريشاً أثّرت عليه ، وحالت بينه وبين الوصول الى الرسول ، وعاد الى (منفوحة) بلدته ، فمات بها دون أن يسلم . والرأي عندي ان تلك الأبيات ، هي من صنع مسلم ، وضعها على لسانه .

ولا يعني شكّي في صحة نسبة هذه الأبيات الى الأعشى ، ان الأعشى كان بعيداً عن آراء ومعتقدات أهل الكتاب ، غير واقف على أخبارهم وعقائدهم . فقد كان الأعشى جوّالاً جوّاباً زار العراق وبلاد الشام، اتصل بقبائل نصرانية ، وجالس اليهود والفرس والروم ، ووردت في أشعاره ألفاظ من ألفاظ الحضارة الأعجمية ، كما وردت فيها أفكار تدل على وقوف على آراء وأفكار دينية وخواطر فلسفية ، فرجل مثل هذا لا يستبعد وقوفه على قصص يهودي ونصراني وعلى آراء دينية لأهل الكتاب . وللحكم على مقدار فهمه لها ، يمكن بالطبع دراسة ما ورد في الشعر على لسانه ، ومطابقته بما نعرفه من آراء القوم لنقف على درجة صلة ما جاء في شعر الأعشى من آراء ومعتقدات بآراء أهل الكتاب ومعتقداتهم .

أما الأماكن التي ظهرت فيها هذه الروايات الاسرائيلية ، فهي : اليمن ، والمدينة ، والعراق . ومن العراق الكوفة بصورة خاصة . وقد كان في كل هذه المواضع رجال من أهل الكتاب موّنوا أهل الأخبار بما كانوا يرغبون في معرفته، ولم يكن هؤلاء على قدر واحد في المعرفة والفهم ، والظاهر ان منهم من لم يكن له إلمام بالتوراة ولا بالتلمود وغيرهما من الكتب ، وانما أخذ ذلك من أهل النظر منهم ، أو كما وصل اليه من أهله وحاشيته ، ولذلك اضطرب الأخباريون في بعض الأحيان في رواية خبر واحد ، كما اختلفوا في ضبط الأسماء . وقد علل ابن خلدون اختلافهم في ضبط الأسماء بقوله : « واعلم ان الخلاف الذي في ضبط الأسماء انما عرض في مخارج الحروف ، فان هذه الأسماء انما أخذها العرب من أهل التوراة ، ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب . فاذا وقع الحرف متوسطاً بين حرفين من لغة العرب ، فترده العرب تارة الى هذا وتارة الى هذا . وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب اذا نقلت كلام العجم ، فمن ها هنا اختلف الضبط في هذه الأسماء »[١] .

١ ابن خلدون (٢/٥)

والحق هو ان هذا الخطأ لم يقع في ضبط الأسماء فقط ، بل وقع في أمور جوهرية أخرى ترينا جهل بعض الرواة بجدول الأنساب ، وتريننا الخلط أحياناً بين الروايات الاسرائيلية والروايات الايرانية حتى تكوّن من هذا المجموع المدون في الكتب الإسلامية عن الأنساب خليط من روايات اسرائيلية وروايات فارسية وقصص شعبي عربي ، يجوز أن نضيف اليه عنصراً آخر هو الوضع ،فقد وضع الرواة شيئاً من عندهم حين عجزوا عن الحصول عليه من الموارد الثلاثة المذكورة، وكان لا بد لهم من سد تلك الثُغر ، فسدّوها بما جادت به قرائحهم من شعر ونثر . ومن هذا القبيل ، ما أدخلوه على التوراة أيضاً من أنسابٍ زعموا أنهـا وردت في التوراة ، وليس لها في الواقع وجود فيها .

خذ آدم ، فقد صيّره الأخباريون (كيومرث)[1] وهو من الفرس ، وخذ نوحاً ترّ انه صار (افريدون) عند أهل الأخبار وهو من الفـرس أيضاً[2] ، وجعلوا (لاوذ) ابناً من أبناء إرم من سام أخي عوص وكاثر[3] ، مع انه (لود) في التوراة ، وهو شقيق إرم بن سام ووالد عوص وجاثر[4] ، وقالوا أشياء أخرى لا وجود لها في التوراة .

أما متى دخلت أنساب التوراة الى العرب ، ومتى ظهرت وشاعت بينهم ، فنحن لا نستطيع أن نحدد ذلك على وجه مضبوط بالقيـاس الى أيام الجاهلية . ولكننا نستطيع أن نقول انها كانت قد تسربت الى الجاهليين من اليهود ، وذلك بوجودهم في الجزيرة العربية واتصالهم بالعرب ، وقد يكون من النصارى أيضاً، وقد تفشت في أماكن من جزيرة العرب وبين بعض القبائـل ، وان هؤلاء أي أهل الكتاب هم الذين أشاعوا بين الجاهليين هـذه الأنساب . وقد تكون لليهود يدٌ في اشاعة خبر رابطة النسب وأواصر القربى التي تربط بينهم وبين العرب ، وذلك للتأثير عليهم وللتقرب منهم ، وللسكن بينهم بهدوء وسلام .

ونستطيع أن نقول جازمين ان هذا القصص الإسرائيلي ، وهذه الأنساب التي يرويها أهل الأخبار ، لم تكن كثيرة الشيوع بين الجاهليين ، وانما هي شاعت

---

١ ابـن خلدون (٢/٥)
٢ ابن خلدون (٢/٦)
٣ ابن خلدون (٢/٧) .
٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الايـة ١٧ ، Hastings, P. 557.

وراجت في الإسلام ، وذلك للأسباب المذكورة ، ومروجوها وناشروها هم زمرة تحدثت عنهم في مواضع متعددة من هذا الكتاب .

ونحن لا يهمنا هنا من الأنساب الواردة في التوراة الا الأنساب المتعلقة بالعرب وبالشعوب العربية ، ومعنى هذه الأنساب الخاصة بذرية (سام) و (كوش) : ويهمنا من ذرية (سام) ذرية (إرم) و (لود) و (أرفخشذ) ، حيث ألحق النسابون بهؤلاء قبائل العرب . أما أشور و (عيلام) ، وهما بقية أبناء (سام) ، فليس لذريتهم علاقة بالعرب ، فليس لنا كلام عنهم في هذا المكان .

وأولاد سام في التوراة ، هم خمسة : (عيلام) ، و (أشور) ، و(أرفكشاد) ، و (لود) ، و (أرام)[1] . وقد ضبط الأخباريون الأسماء على هذه الصورة : (أشوذ) ، و (أرفخشذ) ، و (عليم) (عويلم) (عيلم) ، و (لاوذ) و (ارم)[2] . وأضافوا اليهم (عابراً) ، فصيّروه أخاً للمذكورين وابناً من أبناء (سام) . أما في التوراة فإن عابراً هو حفيدُ حفيد (سام) ، وليس بابن له ، وقد سيق نسبه فيهــا على هذه الصورة : (عابر بن شالح بن أرفكشاد ابن سام) . وكان ابراهيم هو السابع من أعقابه[3] .

ونجد الطبري يروي في مكان من تأريخـه أن أولاد سام ، هم : (أرفخشذ ابن سام ، وأشوذ بن سام ، ولاوذ بن سام ، وعــويلم بن سام)[4] ، فهم أربعة . وقال بعد اسم (عويلم بن سام) مباشرة : (وكان لسام إرم بن سام)[5] مما يدل على أن المورد الذي نقل منه الطبري روايتــه لم يكن على علم تام بخبر أم (إرم) ، ويؤيد هذا الاستنتاج قوله : (قال : ولا أدري إرم لأم ارفخشذ واخوته أم لا ؟[6]) . وقد قال هذا المورد إن أم أبناء سام المذكورين هي :

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ١٧

٢ ويرد ارم في بعض الكتب ارام وارم ، الطبري (١٠٣/١) ، ابن خلدون (٧/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٣١/١) ، التيجان (٢٥) .

٣ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢١ ، ٢٥ ، والاصحاح الحادي عشر ، الاية ١٤ فما بعدها ، واخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ١٩

٤ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .

٥ المصــدر نفسه

٦ كــذلــك

(صليب ابنـــة بتاويل بن محويل بن خنوخ بن قيس بن آدم[١]) فيكون عدد أولاد (سام) خمسة أيضاً وهو العدد المذكور في التوراة إلا أننا نرى تبايناً بين روايتي الطبري والتوراة في الترتيب وفي الضبط : ضبط الأسماء .

ونجد الطبري يروي في مكان آخر أن أولاد سام ، هم : عابر ، وعليم ، وأشوذ ، وأرفخشذ ، ولاوذ ، وإرم . وذكر أن من ولد (أرفخشذ) الأنبياء والرسل وخيار الناس والعرب كلها والفراعنة بمصر[٢] . ويظهر من هذه الرواية أن ولد سام هم ستة ، وقد نتج ذلك عن ضم (عابر) الى ولد سام . وهو ضم مخالف لما جاء في التوراة . ولو رفعنا اسم (عابر) من الأسماء المذكورة، لصارت بقية الأسماء خمسة ، وقد رتبت على وفق ما ورد في (سفر التكوين) : فـ (عليم) هو (عيلام) ، و (أشوذ) ، هو (أشور) ، و (أرفخشذ) ، هو (ارفكشاد) ، و (لاوذ) ، هو (لود) ، و (إرم) هو (أرام) .

وليس في التوراة ذكر لأبناء (اود) ، أي (لاوذ) أهل الأخبار والأنساب. وكل ما فيها أن لـــه نسلاً ، وقد عرفوا بـ (اللوديين) . وقـــد ذكروا مع (كوش) و (فوط) مما يبعث على الظن أنهم إفريقيون[٣] . ولورود اسم جدهم (لود) مع (أشور) و (ارام) و (عيلام) ، يرى علماء التـوراة أن اللوديين الذين هم من نسل (لود بن سام) هم شعب من شعوب الشرق الأدنى ، لا تبعد مواطنهم عن البابليين والآشوريين ، وأنهم غير (اللوديين) الإفريقيين، اللوديين المنحدرين من صلب (مصرايم) ، أي (مصر) المذكورين أيضاً في التوراة[٤].

ولهذا فإن الأولاد الذين نسبهم أهل الأخبار الى (لود) ، (لاوذ) ، وهم: طسم وعمليق ، وجرجـــان ، وفارس على رواية ، وجديس ، وأميم ، وعبد ضخم على رواية أخرى[٥] ، وأمثالهم ممن لم نذكر من الأولاد ، هم هبة منحها

---

١ الطبري (٢٠٢/١ وما بعدها)
٢ الطبري (٢٠٥/١) ، التيجان (٢٥) ، الكامل (٣١/١)
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٩/٢ فما بعدها) ، ارميا ، الاصحـــاح السادس والاربعيـــن ، الايـــة ٩ .
٤ التكوين الاصحاح العاشر ، الاية ١٣ ، حزقيال ، الاصحاح ٢٧ الاية ١٠ ، الاصحاح ٣٠ ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٢٩٩/٢) Hastings, P. 557
٥ الطبري (١٠٣/١) ، ابن خلدون (٧/٢) Sprenger, in ZDMG., 17 (1863), S. 373.

أهل الأخبار والأنساب لـ (لاوذ) لا نجد لها ذكراً في التوراة :

إنّ (عمليقاً) ، الذي هو جد العمالقة على رأي أهل الأخبار ، وليس من نسل (لود) في التوراة ، بل هو جد (أول الشعوب)[1] ، لذلك يبدو تجاسر أهل الأخبار بمنح (لود) أولاداً عملاً غريباً ، والظاهر أن (ابن الكلبي) واليه ترجع أكثر هذه الروايات ، أو أحد من سألهم عنهم ، اختاروا (لوداً) من بين أبناء (سام) فمنحوه أولئك الأولاد . وكان لا بد لهم من نسبتهم الى أحد الأجـــداد المتقدمين القحطانيين ، لأنهم أقدم منهم في نظرهم ، فاختاروا لهم ذلك الأب .

أما (أرام) ، وهو (إرم) عند أهل الأخبار ، فقد أولد أولاداً على ما جاء في التوراة ، وهم : (عوص) (UZ) ، و (جاثر) (كاثر) (غاثر) (Gether) ، و (حويل) ، (حول) (Hul) ، و (ماش) (Mash)[2] . وقد ذكروا في موضع من التوراة أنهم أبناء (سام)[3] ، وذلك جرياً على طريقة العبرانيـــين في حذف اسم الأب أحياناً ، وإلحاق الحفدة بالجد مباشرة[4] .

وقد عرف أهل الأخبار هذه الأسماء[5] ، إلا أنهم قدّموا وأخروا فيهـــا كما حرفوا فيها بعض التحريف ، وقد اختار أهل الأخبار (عوصاً) ، فجعلوا لـه أولاداً هم : عاد ، وعبيل[6] ، وغاثر بن عوص ، واختاروا (جاثر) فجعلوا له (ثموداً)[7] و (جديساً)[8] . وقالوا عنهم : (وكانوا قوماً عرباً يتكلمون بهذا

---

١ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، الاية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس ، (١١٢/٢) .
٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٣
٣ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ١٧
٤ « ولا يستغرب ذلك ، لان من عوائد العبرانيين في جدول انسابهم انه كثيرا مـــا ينزلون الحفدة واولادهم منزلة الاولاد من الجيل الاول » ، قاموس الكتـــاب المقـــدس (١٢٦/٢) ،
٥ سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٣
٦ الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٧) ، الكامل (٣١/١) ، مروج (٢٤/١) (٣١/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد »
٧ الطبري (١٠٣/١) ، (٢٠٧/١) « دار المعارف » ، مرو محيي الدين عبد الحميد » .
٨ الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٧) « دار المعارف » .

اللسان المصري)[1] . ولا نجد في التوراة ولا في اليهوديات ذكراً لهـؤلاء الأولاد الذين منحهم أهل الأخبار (عوص) أو (غاثر) (جـاثر) . إذن فالنسب المذكور هو من صنع الأخباريين .

و (أرام) هو جد (بني إرم) أي (الآراميين) . وهم قوم معروفون فلا حاجة الى التحدث عنهم . وأما (عوص) فهو جد (العوصيين) ، سكان أرض (عوص) موطن (أيوب) (Job) ، إلا أن العلماء لم يتفقوا في تعيين مكانه[2] . فذهب بعضهم الى أنه (دمشق) و (اللجاء) (اللجـاة) مستندين في ذلك الى رواية (يوسيفوس) ، وذهب آخرون الى أنه (أورفا) على الفرات[3] ورأى بعض أنه في (نجد)[4] ، وذهب بعض آخر الى أنه (أدوم) أو العربيـة الشمالية[5] ، ورأى (كلاسر) أنه في شمال غرب (المدينة)[6] ، ورأى غيره أنـه في مكان ما من جزيرة العرب أو من بادية الشام[7] .

وقد استدل بعض الباحثين من سفر (أيوب) ومما ورد عنه : ومن اسمه على أنه كان عربياً ، عاش بين العبرانيين ، أو ان بعضهم اختلط به ، فدوّن أخباره وقصصه[8] . وقد أمدت كتب (الهكادة) (Haggadah) و (التلمود) و (المدارش) اليهـود وأهل الأخبار بقصص عنه وعن أصدقائه الخلص الذين لازموه[9] .

نرى مما تقدم أن الاخباريين قد ربطوا نسب العرب البائدة أي العرب الأولى بالإرميين (الآراميين) وباللوديين (اللاوذيين) وبالعوصيين وبالجاثريين (الغاثريين) . ولا نجد في كتبهم الأسباب التي حملتهم على رجع أنساب هؤلاء العرب الى هؤلاء الآباء . ويظهر أن فكرة وجود عرب أولى عاشت قبل القحطانيين والعدنانيين ،

---

١ الطبري (١/٢٠٤)
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦)
Enc. Bibli. P. 5238, Hastings, P. 956, Musil, Hegaz, P. 248.
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦) Josephus, Ant. I, VI, 4.
٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦)
٥ Hastings, P. 956.
٦ Hastings, P. 956.
٧ Hastings, P. 956, Enc. Bibli. P. 5238.
٨ Margoliouth, The Relations, P. 31. f.
٩ Enc., I, P. 795. « الطبعة الجديدة »

جعلت أهل الأخبار يبحثون عن آباء لهم ، يكونون أقدم عهداً من (قحطان) ومن (عدنان) ، فنسبوا أولئك العرب الى (لود) و (أرام) ابني سام ، والى (عوص) و (جاثر) ابني (أرام) ، وهم أقدم عهداً من جدي القحطانيين والعدنانيين .

أما أثر التوراة على النسابين وأهل الأخبار بالنسبة الى الطبقة الثانية من العرب، الطبقة التي دعاها العرب العاربة ، والعرب القحطانيين ، فقد ذكرت في الفصل الخاص بهؤلاء العرب ان (قحطان) جد القحطانيين ، هو (يقطان) في التوراة . وقد نسبه أكثر أهل الأخبار الى (عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[1] . وصيّره بعضهم ابناً من أبناء سام . وقد ذكرت ان النسب الثاني نسب مغلوط ، وان نسبه المذكور في التوراة بجعله الابن الثاني الأصغر لـ (عابر) . أما الولد البكر فهو (فالج) ، فيكون العبرانيون واليقطانيون أبناء عم وفق هذا النسب.

وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى ان (يقطان) لا وجود له ، وانما ابتدع ابتداعاً لايجاد صلة بين العرب والعبرانيين[2] .

وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى ان عابراً ، جدّ قبيلة كبيرة ، انقسمت على نفسها الى قسمين : قسم بقي فيما بين النهرين ، وهو القسم الذي عرف بذرية (فالج) ، ومن هذه الذرية انحدر (العبرانيون) ، وقسم ترك (ما بين النهرين) وارتحل الى جزيرة العرب ، وهو القسم الذي عرف بـ (يقطان) ، ودليلهم على ذلك ان معنى (فالج) هو (الانشقاق) و (الانقسام) ، وان في أيامه (قسمت الأرض) على رواية التوراة[3] . ومعنى ذلك انقسام ذرية (عابر) ، وانشطارهم الى شطرين .

وقد ذكر (الطبري) ان (بني يقطن) لحقت باليمن ، فسميت اليمن حيث تيامنوا[4] ، ومصدر خبره هذا (ابن هشام) ، وقد أخذ (ابن هشام) خبره هذا من أهل الكتاب ولا شك .

---

١ « ويقطن : هو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح » ابن سعد الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ١٨ وما بعدها) ، الطبري (٢٠٧/١) دار المعارف

٢ Hastings, P. 491.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١٤٩/٢) ، التكوين ، الاصحاح العاشر الاية ٢٥ Hastings, P. 490, 697.

٤ الطبري (٢٠٩/١) « طبعة دار المعارف »

ويشك بعض دارسي التوراة في كون (يقطان) المذكور هو (قحطان) الذي يذكره علماء الأنساب ، ويرون ان نظرية من يجعل قحطاناً هو (يقطان) ، نظرية لا تستند الى أساس ، وانما وضعت على التشابه الموجود بين اللفظين،وهذا التشابه هو الذي دفع علماء الأنساب الى اعتبار (قحطان) (يقطاناً) ، فمن ثم صار (يقطان) جدّاً للعرب القحطانيين[1] . ولكنهم لا ينكرون مع ذلك أن (يقطان) التوراة ، هو جدّ قبائل ذكرت التوراة أسماءها،وبعضها قبائل عربية معروفة ، فلا يستبعد أن يكون (يقطان) على رأيهم كناية عن قبائل عربية لم يكن العبرانيون على علم بها تمام العلم[2] .

ولم ترد في القرآن الكريم لفظة (قحطان) أو (يقطان) . ولم ترد كذلك في الكتابات الجاهلية . أما الشعر الجاهلي ، فقد وردت فيه في مواضع الفخر والحماسة . واذا وافقنا على انها وردت في الجاهلية القريبة من الإسلام،فان موافقتنا هذه لا تعني أن قدماء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام كانوا على علم بـ (قحطان) ، أو ان قوماً منهم كانوا ينتمون اليه وينتسبون بنسبه ، فحكم مثل هذا لا بد أن يستند الى كتابات وأدلة مقبولة. ولهذا رأى نفر من المستشرقين ان الأخباريين جاؤوا بقحطانهم هذا من التوراة ، من تأثرهم بأهل الكتاب ، ومن مطالعتهم للتوراة ، فحولوا النزاع الذي كان بين أهل اليمن وفيهم (سبأ) ، والنزاع الذي كان بين أهل مكة وبين أهل مكة ويثرب التي ينتمي أهلها الى اليمن الى نزاع بين جدّين ، وصار (قحطان) وليد (يقطان) (يقطن) جدّاً حقيقياً ليمن ولمن نسب نفسه اليهم من الأفراد والقبائل[3] .

وقد ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم قريب من (قحطان) هو (كتنيته) (كتانيته) (Katanitae)[4] ، قد يكون دليلاً على وجود أسماء عند الجاهليين قريبة من (قحطان) . أما هذه التسمية ، فاننا لا نستطيع أن نقول ان لها علاقة بقحطان . فالتشابه في التسميات ، لا يكون دليلاً قاطعاً على وحدة تلك

---

١ Hastings, P. 491.

٢ Hastings, P., 490.

٣ Enc. Vol. 2, P., 629.

٤ Ptolemy, Geogr. VI, 7, 20, Glaser, Skizze, Bd., 2, S., 283, Knobel Die Voelkerstafel der Genesis, S. 185, The Historical Geography, Vol. I, P. 80, O'Leary, P. 18.

التسميات . وقد ورد في الموارد العربية اسم قبيلة عرفت بـ (قطن) و بـ (بني قطن) ، كما ورد اسم مكان عرف بـ (جوّ قطن) ، واسم مدينــة تدعى (قحطان) ، تقع بين (زبيد) و (صنعاء)[1] . لهذا أرى ان من الخير لنا ألا نتخذ موقفاً خاصاً لا سلباً ولا ايجاباً تجاه هذا الموضوع انتظاراً لاستكمال العدة والحصول على مواد جديدة تكفي لاصدار حكم فيه .

أما بلاد (اليقطانيين) ، على رأي التوراة ، فتمتد من (ميشا) (Mesha) الى (سفار) (Sephar)[2] . ولم تذكر التوراة حدوداً جغرافية لها غير هذين الحدين . ولا يعــرف العلماء عن موضوع (ميشا) شيئــاً . فذهبوا في تعيينه مذاهب . ذهب بعضهم الى انه (مسينة) أو (ميسان) (Mesene) عــلى رأس الخليج العربي[3] ، وذهب آخرون الى انه (موزح) أو (موسج) في نجد[4] ، ورأى آخرون انه (ماشو) (Mashu) أو (ماش) (Mash) ، أي بادية الشام في الكتابات الآشورية[5] .

وذهب (ديلمن) (Dillmann) الى ان (ميشا) ، تحــريف (مسا) (Massa) ، وهو اسم أحد أبناء اسماعيل ، فتكون حدود (اليقطانيين) على رأيه بعد حدود أرض (مسا) ، من قبائل الإسماعيليين مباشرة ، غــير اننا لا نستطيع مع ذلك من تعيين الموضع[6] ، لأننا لا نعلم أيضاً أين كانت مواطن (مسا) من قبائل الإسماعيليين ، فكيف نثبت هذه الحدود ؟

وأما الحد الآخر ، وهو (سفار) ، فهو الحد الجنوبي للبلاد (اليقطانيين) ، وذلك باجماع آراء علماء التوراة . ولكنهم يختلفون في تعيين الوضع فقط ، فمنهم من رأى أنه (ظفار) عاصمة الحميريين ، ومنهم من يرى أنه (ظفار) حضرموت التي اشتهرت شهرة واسعة في العالم القديم ، وورد ذكرها في الكتب (الكلاسيكية)[7] .

١ احسن التقاسيم (٣/٨٣ ، ٩٤) ، « الطبعة الثانية »
Enc. Vol. 2, P. 629, Glaser, Skizze, 2 S. 288.

٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٣٠

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٩) ، Hastings, P. 606.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٩)

٥ Hastings, P., 607, Delitzch, Wo Lag ?, S. 242.

٦ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٤ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ٣٠
Enc. Bibli. P. 3040.

٧ Enc. Bibli., P., 4370, Ritter, Erdkunde, 14, 372, Sprenger, Alte Geogr. S. 185, Skizze, 2, S. 437, Hastings P. 836.

ومن المرجح أن تكون هي الموضع المقصود ، وذلك لشهرتها هذه ولقدمها .

وقد جعلت التوراة لـ (يقطان) أولاداً ، عدّتهم فيها ثلاثة عشر ولداً ، هم : الموداد ، وشالف ، وحضرموت ، وريـاح ، وهدورام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوبال ، وابيمايل ، وشبا ، وأوفير ، وحويلة ، ويوباب[1] . وهذه الأسماء ، هي أسماء قبائل ، وأمكنة ، اعتدّها كتبة التوراة على عادة ذلك العهد أسماء أعيان ، وصيروها أسماء أولاد (يقطان) .

ولا يعني هذا العدد ، في نظري ، أنه جميع القبائل العربية التي كانت تقيم في مواطن (اليقطانيين) ، وإنما هو حاصل ما بلغ اليه علم كتبة تلك الأسفار في ذلك اليوم من أمر هذه القبائل ، ولم تكن معارف أولئك الكتبة يومئذ أكثر من هذا الذي ذكروه ودونوه . على نحو ما وصل الى علمهم ومسامعهم ، فهو لهذا لا يمثل أيضاً ترتيباً جغرافيـاً للأماكن المذكورة ولا سرداً على نسق معين مضبوط[2] .

ونحن اذا أنعمنا النظر في هذه الأسماء نجد أنها قد كدّست في منطقة ضيقة ، هي اليمن وحضرموت . أما ما فوقها الى (ميشا) نهايـة الأرض اليقطانية في الشمال ، فلم يذكر الكتبة من أسماء قبائلها شيئاً ما . وهو يدل على أنهم لم يكونوا يعرفون عن باطن جزيرة العرب شيئاً ، أو أن موضع (ميشا) في مكان آخر في غير هـذا الموضع الذي تصوره علماء التوراة ، كأن يكون في شمال اليمن مثلاً ، وبذلك يستقيم التحديد كل الاستقامة مع ما هو شائع معروف من أن أرض اليمن وبقية العربية الجنوبية هي أصل موطن القحطانيين .

ويظهر أن كتبة النسب في التوراة لم يراعوا في عدهم أسماء أبناء يقطان الترتيب الجغرافي ، أو قرب اليقطانيين وبعدهم عن العبرانيين . فهذا الترتيب ، لا يشير – في الحقيقة – الى أن الأسماء وضعت على أساس جغرافي . والظاهر أنها جمعت كما وصلت الى مسامع العبرانيين من غير فحص أو تدقيق ، كما أننا لا نستطيع أن نؤكد أنها وصلت صحيحة سالمة من غير تصحيف أو تحريف .

و (الموداد) (مودد) (المودد) (Al-Modad) ، هو الابـن البكر

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٦ فما بعدها

٢ Enc. Bibli. P. 2564, Hasings, P., 490.

ليقطان على ما يفهم من التوراة . وهو رمز عن شعب من الشعوب اليقطانية ، يرى نفر من علماء التوراة أن مواطنه في العربية الجنوبية . قد يكون في جنوب غربي جزيرة العرب[1] . وقد وردت في النصوص العربية الجنوبية وفي نصوص غير عربية كلمات قريبة من هذه الكلمة، مثل (موددى) في البابلية ، و(مودادو) (موددو) في البابلية أيضاً وفي (الأمودية)[2] . ووردت لفظة (مودد) في كتابات (جبانية) (كبانية) (Gebanitae) ، في نصوص تدل على تقرب ملوك (حبان) (جبن) (كبن) (جبان) من ملوك معين ، والى سيادة (معين) على (الجبأنيين) في ذلك الحين . فورد (مودد ملك معين) بمعنى (المتودد لملك معين) و (المحب لملك معين) . ويرى (كلاسر) أن هذه الجملة لا تعني (أحباء ملوك معين) وأصفياءهم ، وانما تحكي وظيفة لها علاقة بالإله (ود) ، مثل كهانة الإله (ود) وسدانته . ومسكن هؤلاء (الجبأنيين) في الزاوية الجنوبية الغربية لجزيرة العرب[3] ، كما ورد اسم (مودد) في الكتابات السبئية[4] ، وفي كتاب الإكليل للهمداني . وقد ذكره قبل (السلف) ، مما يدل على أنه اسم مكان مجاور للسلف[5] .

وأورد (بطلميوس) في الجغرافيا اسم شعب عربي دعاه (Allumaeotae) يرى (فورستر) أنه شعب (الموداد) الذي نتحدث عنه . ويقع مكان هذا الشعب في جغرافيا (بطلميوس) جنوب (الجرعاء) (Gerraea) (Vicus Jerachaeorum) ، ويتصور أنه على ساحل الخليج العربي عند (قطن)[6].

وأما (شالف) (Sheleph) الذي ورد في التوراة بعد (الموداد) ، فلم يتمكن العلماء من تشخيصه أيضاً[7]. ويرى بعضهم انه شعب (Salepeni) المذكور في جغرافيا (بطلميوس)[8] ؛ ويرى آخرون انه (السلف) ، وهم بطن من

---

١ Hastings, P. 22, Dictionary of the Bible, I, P., 50, By W. Smith.

٢ Enc. Bbli. P. 116, Hommel, A. H. T., S., 113, Early Babylonian Personal Names, P. 30, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 40.

٣ Glaser, Skizze, 2, S. 425.

٤ Ency, Bibli. P. 116, ZDMG. 37, 13, 18.

٥ الاكليل (١١٦/١ وما بعدها)

٦ Forster, Vol. I, P. 107, F.

٧ Hastings, P., 845, Enc. Bibli. P. 4448, Montgomery, Arabia, P. 40.

٨ Forster, Vol. I, P. 109. f.

ذي الكلاع من حمير ، وهو (السلف بن يقطن)[1] ، أو (السلاف) ، أو (بنو سلفان)[2] . و (السلف) أقرب هذه الأسماء الى (شالف) ، وخاصة اذا أخذنا بما قاله النسابون من انتساب هذه القبيلة الى جد أعلى هو (السلف ابن يقطن) ، وذكر (نيبور) في رحلته اسم موضع في اليمن يقال له (سلفية)، قد تكون لاسمه علاقة بـ (شالف)[3] . وفي منطقة (يريم) ممر يقال له (نجد الأسلاف)[4] ، وقد رأى (كلاسر) احتمال وجود صلة بينه وبين (شالف)[5] .

وأما (حزرماوث) ، (Hazarmaveth) ، فهو (حضرموت). ومعلوماتنا عن هذا الشعب حسنة بفضل الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية، والتي ترجم عدداً منها المستشرقون . وسأتحدث عنهم في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب .

وأما (يارح) (Yerah) ، فان معناه (قمر) و (شهر) ، ولهذا ذهب بعض الباحثين الى انه اسم قبيلة عربية . وبين العرب قبيلة تعرف بـ (بني هلال)، فلا يبعد أن يكون (يارح) اسم قبيلة[6] . وقد عثر في كتابات تدمر على اسم (يارح) ، وقد ورد اسم علم[7] ، كما ان اسم (شهر) من الأسماء المعروفة عند الجاهليين ، وقد سمّي به عدد من الملوك الذين عاشوا قبل الميلاد وبعده .

ويرى (كلاسر) ان الشعب كان يقيم في (مهرة) ، أو في جنوب عمان في موضع قد يكون المكان الـذي سماه (بطلميوس) (Jerakon Kome)[8] .

و (يارح) هو (يرخ) و (ورخ) في اللهجات العربية الجنوبية ، وتعني (شهراً) (قمراً) . وهناك مواضع متعددة في العربية الجنوبية تسمى بأسماء قريبة من هذه الكلمة ، مثل (وراخ) و (يراخ) . وقد ذكر الهمداني

---

١ تاج العروس (٦/١٤٣) ، « السلف » ، البلدان (٥/١٠٩) ، نهاية الارب (٢/٢٧٨) ، القاموس (٣/١٥٣) ، الاكليل (١/١١٦)

٢ الهلال ، ج١٣ ، سنة ١٠ ، نيسان ، ١٩٠٢ م (ص ٤٠١)

٣ Enc. Bibli. P. 4448, Niebuhr, Arabien, S. 247, Osiander, in ZDMG., II, 153. ff. Glaser, Skizze, S. 425.

٤ صفة (ص ٧١ ، ١٠١)

٥ Glaser, Skizze, 2 S. 425.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٨٧) .

٧ Enc. Bibli. P. 2362, Montgomery, Arabia, P. 40.

٨ Glaser, Skizze, 2, S., 425.

اسم موضع دعاه (وراخ) في مخلاف (العود)[1] ، لذلك رأى بعض العلماء وجود صلة بين هذه المواضع و (يارح) . كما ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم مكان دعاه (Insula Jerachaeorum) ، وهو جزيرة تقع في البحر الأحمر جنوب جُدّة . وورد اسم محل آخر سمي (Vicus Jerachaeorum) ، ويقع في مقابل النهر الذي دعاه نهر (الآر) (Lar) الذي يصب على زعم (بطلميوس) في الخليج العربي (الخليج الفارسي) (Sinus Persicus)[2] .

وأما (هدورام) (Hadoram) ، فيرى (ملر) (Muller) ، و(كلاسر) احتمال أنه (دورم) ، وهو موضع على مقربة من (صنعاء) . ويؤيدان رأيهما هذا بما ورد في المؤلفات العربية من أن اسم (صنعاء) القديم هو (أزال) . و (أزال) هو شقيق (هدورام) ، وقد ذكر بعده في ترتيب أسماء أولاد (يقطان)[3] .

وقد ذكرت الكتب العربية اسم موضعين يقال لهما (الهدار) . قال الهمداني عن أحدهما : إنه (حصون ونخول وقصور عادية)[4] ، وقال عن الثاني : إنه (هدار بني الحريض)،وذكر أن فيه (القطنية)[5] ، وهذا الموضع الأخير قريب من (هدورام) ، وللفظة (القطنية) أهمية كبيرة لقربها من لفظة (يقطان) .

وقد ذكر (الطبري) في تأريخه أن جرهماً (اسمه هذرم بن عابر بن يقطن ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[6] . وهذا النسب الذي ذكره (الطبري) هو النسب الوارد في التوراة بزيادة (عابر) بين (هذرم) وهو (هدورام) وبين (يقطن) . وهو خطأ ، يرد كثيراً في الأنساب المنقولة من

---

١ صفة (ص ١٠١) ، « وراخ : ناحية باليمن » البلدان (٤١١/٨)

٢ Forster, Vol. I, P. 116. ff.

٣ Enc. Bibli. P. 1932, Muller, Burgen und Schlosser, I, S. 360

٤ صفة Glaser, Skizze, 2, 426, Hastings, P. 324, Forster, 2, P. 137.

٥ صفة

٦ الطبري (٢٠٧/١) « دار المعارف »

التوراة الى الكتب العربية . ومورد (الطبري) هو (ابن الكلبي)[١] ، ومورد (ابن الكلبي) هو من أهل الكتاب ، شأنه في ذلك شأن كل الأنساب حيث أخذها من أهل الكتاب .

أما (أزال) ، فهو مثل سائر الأسماء المتقدمة ، غير معروف . ولم يتفق علماء التوراة على تعيينه حتى الآن . وقد ذكر أهل الأخبار أن (صنعاء) عاصمة اليمن ، كانت تعرف في الجاهلية بـ (أزال)[٢] . وترجع هذه الرواية الى (وهب بن منبه) ، الذي زعم (أنه وجد في الكتب القديمة المنزلة التي قرأها : أزال كل عليك ، وأنا أتحنن عليك)[٣] وزعم أن (أزال) هي (صنعاء) ولم يرد في النصوص الجاهلية ما يفيد أن صنعاء كانت تعرف بـ (أزال) ، بل لدينا نص من أيام الملك (يشرح يحضب) (ملك سبأ وذي ريدان) ويعود الى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول لما قبل الميلاد ، أي القرن المتصل بالقرن الأول للميلاد ورد فيه (صنعو) وهو (صنعاء)[٤] .

ويرى (كلاسر) ان اسم (أزال) انما وضع لـ (صنعاء) بعد دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك ، وضعه اليهود[٥] . وذكر (البكري) ان صنعاء كلمة حبشية ، ومعناها وثيق وحصين[٦] .

وهناك مواضع أخرى عرفت بـ (أزال) ، منها موضع يعرف بـ (يأزل) ، عند جبل (حضور) ، وموضع آخر في الحجاز ، غير أن من غير الممكن في الزمان الحاضر البت في أي مكان من هذه الأمكنة بأنه هو (أزال) التوراة[٧] .

ولم يتمكن علماء التوراة من البت في موضع (دقلة) (Diklah) أيضاً . ويرى بعض المستشرقين ان هذا الاسم يشير الى مكان يجب أن يكون كثير

---

١ المصدر نفسه

٢ البلدان (٢١٤/١) ، (٣٨٧/٥) ، صفة (ص ٢٥٥)
Montgomery, Arabia, P. 40, Caussin de Perceval, Histoire des Arabes, Vol. I, P. 40.

٣ تاج العروس (٤٢١/٥)

٤ Enc. Bibl. P. 5239, Hastings, P., 956, Enc. Vol. 4, P. 143, Glaser, Skizze 2, S. 427
Sprenger, Geogr. S. 181, Glaser, 424.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 427.

٦ تاج العروس (٤٢١/٥)

٧ Glaser, Skizze, 2, S., 427.

التمر[1] . وقد رأى (هومل) انه موضع (حدّدقل)[2] . وذكر (ياقوت الحموي) موضعاً في اليمامة سماه (دقلة)[3] ، ولكن الباحثين في هـذا الموضوع لم يقطعوا برأي فيه .

ورأى بعض الباحثين ان (عوبال) (Obal) (Ebal) ، شعب (عبيل)، ورأى آخرون انهم (عيبال) في تهامة الحجاز ، أو (عبال) أو (عبيل) ، وهما موضعان في اليمن[4] .

ورأى (فورستر) احتمال وجود صلة بين (عوبال) و (Avalitae) ، وهو اسم شعب عربي ذكر (بلينيوس) ، أو (Abalitae) ، وقد ذكره بعض الكتبة (الكلاسيكيين)[5] .

وذهب (كلاسر) الى احتمال كون وادي (أئمـة) ، هو موضع شعب (أبيمائيل) (Abimael) ، غير ان ذلك مجرد ظن ، ليس غير[6] .

والولد العاشر من ولد (يقطان) ، هو (شبا) . وقد وردت بعض أخبار (شبا) في أسفار التوراة ، وذكرت قصة (ملك شبا) وزيارتها لسليمان[7] . فسبأ هنا ، شعب من شعوب اليقطانيين . ولكننا نرى التوراة تجعل (شبا) في موضع آخر ابناً لـ (يقشان) ، و (يقشان) هو ابن (ابراهيم) من زوجته (قطورة) (Keterah) ، وهو شقيق (اسماعيل) من أبيه[8] . فسبأ هنا من نسل شعب آخر يختلف عن (سبأ) اليقطانيين . ونراها تذكر (سبأ) بالسين المهملة في جملة أبناء (كوش)[9] . والمعروف ان المراد من (كوش) عنـد العبرانيين ، الحاميون ، أي الشعوب الإفريقية ، فيكون (سبأ) هنا اسم شعب

---

١ Enc. Bibli. P. 1101, Forster, I, P., 147, Montgomery, Arabia, P. 40.
٢ Enc. Bibli. P. 1101.
٣ البلدان (٦٥/٤)
٤ Enc. Bibli. P. 1151, Glaser, Skizze, 2, S. 426, Hastings, P. 201, Halevy, Melanges D'epigraphie et D'archéologie Semitigues, 86.
٥ Forster, I, 148. f.
٦ Glaser, Skizze, 2, S. 426, Enc. Bibli. P. 17, Hastings, P. 4.
٧ الملوك الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ١ فما بعدها
٨ قاموس الكتاب المقدس (٥٢٤/٢) ، التكوين ، الاصحاح الخامس والعشريـن ، الاية ٢ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٣٢ .Hastings, P. 490
٩ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٧

من الشعوب الإفريقية[١] .

ومعنى هذا التعدد في النسب انتشار السبئيين وسكناهم في مواضع متعددة ، وهذا ما حمل كتبة التوراة على ادخال نسب السبئيين الساكنين في إفريقية في نسب (الكوشيين) ، وادخال السبئيين الساكنين عند (ددان) في نسل (رعمة) .

ويرد اسم (أوفير) (Ophir) بين (شبا) و (حويلة) ، وهو كناية عن أرض اشتهرت عند العبرانيين بكثرة ذهبها وبوجود الفضة وخشب الصندل وبعض الأحجار الكريمة فيها[٢] . وقد اختلف في تعيين مكانها ، فذهب كثير من علماء التوراة الى انها في جزيرة العرب ، ولكنهم اختلفوا في تعيين المكان ، فذهب بعضهم الى انها في اليمن ، وذهب آخرون الى انها في عسير ، وآخرون الى انها في اليمامة[٣] أو موضع (العويفرة) الذي لا يبعد كثيراً عن حافات جبل طويق[٤] ، ومنهم من رأى انه (مهد الذهب) في الحجاز ، وهو موضع عرف باستخراج الذهب منه قبل الإسلام بزمن طويل ، وقد نقبت فيه شركة تعدين حديثة ، أغلقت أبوابها من عهد ليس ببعيد ، كما ذكرت ذلك في كلامي على معادن جزيرة العرب .

غير أن هنالك جماعة من الباحثين في التوراة ترى أن الوصف الوارد في التوراة لأرض (أوفير) يجعلها أرضاً في الهند ، وذلك لأن الحاصلات المذكورة فيها هي حاصلات هندية ، ومن الصعب تصور وجودها في بلاد العرب في ذلك الزمان[٥]. وذهب فريق آخر الى أنها في إفريقية[٦] .

والابن الثاني عشر من أبناء (يقطان) ، هو (حويلة) . وقد ذكرته التوراة في موضع آخر في جملة أبناء (كوش) مع (سبأ) ، مما يدل على توطن قبيلة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢٧٨/٢) ، Hastings, P. 171.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٧٩/١)

٣ Sprenger, Geogr. S. 49. ff. Glaser, Skizze, 2, S. 357, Hommel, AHT. 236, Montgomery, Arabia, P. 38. ff.

٤ Philby, Sheba's Daughters, P. 430.

٥ Lassen, Indische Alterthumskunde, I, 538, Soetbeer, Das Goldland Ophir, 1880 A.K. Keane. The Gold of Ophir, 1901, Moritz, Arabien, S. 7, Forster, Vol. I P. 161, 2, P. 237.

٦ Peters, Das Goldene Ophir Salamons, 1895, Enc. Bibli. P. 3514, Enc. Brita. Vol. 16, P. 807.

أخرى تسمى بهذا الاسم في (إفريقية) لعلّها فرع من فروع (حويلة) بلاد العرب[1] . وقد ذهب بعض العلماء الى أن (حويلة) بلاد العرب ، هي في بادية الشام ، أو على مقربة من خليج العقبة ، وذهب آخرون الى أنها في أواسط جزيرة العرب ، أو في منطقة (جبل شمر) ، ورأى كلاسر أنها في اليمامة[2] .

وقد ذكر (الهمداني) جماعة دعاهم (الحوليين)[3] ، يظهر أنهم سكان موضع (حوالة) وهناك بطن من بطون اليمن يقال له (بنو حوالة) ، كما ورد في اسم (حويل)[4] .

وفي التوراة : (وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ، ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس . اسم أحدهما فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض حويلة حيث الذهب . وذهب تلك الأرض جيد . هنالك المقل وحجر الجزع)[5] . فيفهم منه أن نهر (فيشون) (Pishon) يحيط بأرض (حويلة) وهو من أنهر الجنة الأربعة . وأحد الأنهار الأربعة على رأي علماء التوراة هو نهر النيل ، وأما الثاني فهو الفرات ، وأما الثالث فهو نهر دجلة ، وأما النهر الآخر الذي نتحدث عنه ، فذهبوا الى أنه نهر (كارون) أو شط العرب ، أو أحد الأنهر الأخرى فتكون أرض حويلة عندئذ في منطقة تقع على رأس الخليج[6] .

وآخر أبناء (يقطان) هو (يوباب) (Jobab) ، ويرى (كلاسر) انه اسم قبيلة (يهيبب) ، الذي ورد في النصوص السبئية[7] . وذهب بعض آخر الى انه اسم شعب (وبار) ، وانه تصحيف لاسم (Jobarital) الوارد في جغرافيا (بطلميوس)[8] .

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٩ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ١٩ ، ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١)

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١)
Enc. Bibli. P. 1974, Musil, Hegaz, P. 261, Hastings, P. 333, Glaser, 2 S. 302

٣ الاكليل (٨٥/٨) « طبعة نبيه »

٤ تاج العروس (٢٩٧/٧) ، القاموس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٢٠٧/١٣)

٥ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٠ وما بعدها

٦ Hastings, P. 203.

٧ Hastings, P., 472, Glaser, Skizze, 2, S. 303, Enc. Bibli. P. 2491.

٨ الهلال : الجزء الثالث عشر من السنة العاشرة ، نيسان ١٩٠٢ ، ص ٣٠٤

وقد أضاف (ابن الكلبي) الى سلسلة أبناء (يقطن) (يقطان) ولداً آخر لم يرد له ذكر في التوراة ، دعاه (توقير) ، زعم انه والد الهند والسند[1]، فربط بذلك بين نسب (اليقطانيين) والهنود . ولا ندري : أعبّر عن ذلك جهلاً واعتباطاً ، أم كنّى بذلك عن الروابط القديمة التي ربطت بين العربية الجنوبية والهند ، حيث سكن عدد كبير من قدماء الهنود (الدراويديين) (Dravidians) في سواحل عمان وحضرموت ؟ وقد عثّرت البعثات العلمية التي نقبت في هذه الأماكن على بقايا هياكل عظمية ترجع الى هؤلاء ، كما يتحدث السياح والباحثون في أثر دماء الهند على سكان هذه المناطق .

ولم ينل هؤلاء الأولاد الثلاثة عشر عناية الأخباري (ابن الكلبي) ، ولا عناية (محمد بن اسحاق) ، أو غيرهما من أهل الأخبار المعروفين بأخذهم عن أهل الكتاب ، اذ لم يشيروا اليهم في أثناء كلامهم على أولاد (يقطن) (يقطان)، ولم يتحدثوا عنهم . بل نسبوا اليه أولاداً آخرين تراوح عددهم من عشرة ذكور الى واحد وثلاثين[2] ، أسماؤهم أسماء عربية ، لا وجود لها في التوراة ، ما عدا اسماً أو اسمين . وهذا الإهمال يثير في نفوسنا الدهشة والاستغراب : لِمَ أهمل يا ترى هؤلاء الأخباريون أبناء (قحطان) المذكورين في التوراة ، مع انهم أخذوا (يقطان) من التوراة ، وجعلوا نسبه نسباً لقحطان ! ولِمَ تكرموا عليه فأعطوه عدداً من الأولاد لم يأت لهم ذكر في التوراة ؟ ولِمَ لم يضم أهل الأخبار أولاد (يقطان) المذكورين الى أولاد قحطان ؟ ألا يدل ذلك على جهل أهل الأخبار بهم وعدم وقوفهم عليهم ؟ إن كان جهلهم بهم هو السبب ، فان ذلك يدل على ان أهل الأخبار لم يكونوا يرجعون الى التوراة رأساً ، يقرأون أسفارها ويأخذون منها ، بل كانوا — وهذا هو ما أذهب اليه — يراجعون أهل الكتاب ويأخذون منهم ما يريدون . ولهذا لم يقفوا على أولاد (يقطان) ، لأنهم لم يسألوا أهل الكتاب عنهم ، أو لأن أهل الكتاب لم يتحدثوا اليهم عنهم . على اننا لا نستطيع أن نقبل هذا العذر ، ذلك لأن أهل الأخبار كانوا قد ذكروا أسماء أبناء (اسماعيل) ، نقلوها من التوراة وعلى حسب الترتيب الوارد في

---

١ الطبري (٢٠٧/١) Hastings P. 472.

٢ مروج (٧٧/١) ، ابن خلدون (٤٧/١) .

(التكوين) . وهذا ما يجعلنا نتساءل : لِمَ ذكر أهل الأخبار أبناء (اسماعيل)، وأهملوا أبناء (يقطان) ؟ هل هناك تعمد وغرض ؟ إن الاجابة عن مثل هذه الأسئلة،ليست سهلة في الواقع ، لأن أهل الأخبار لم يكونوا يسيرون على قواعد ثابتة وأنظمة معينة في أخذ الأنساب ، ولهذا نراهم يقعون في الغلط ، وذلك يدل على ان علمهم بالأمور الواردة في التوراة لم يكن علماً راسخاً، وان علم محدثيهم من أهل الكتاب لم يكن راسخاً أيضاً ولم يكن مستمداً من التوراة رأساً، بل من السماع والرواية في بعض الأحايين ، والا لما وقعوا في أغلاط شنيعة،وما احتاجوا الى الوضع والكذب ، كالذي نراه من كعب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالهما من مسلمة يهود .

الاسماعيليون :

و (اسماعيل) هو الجد الأكبر للعرب المستعربة ، أي العرب العدنانيين . وهو (يشمئيل) (Ishmael) في التوراة ومعنى الاسم (إلهي يسمع) ، أو (يسمع إلهي) . وهو ابن (ابراهيم) من زوجه (هاجر) . وتقول التوراة إنه (ختن) وهو في الثالثة عشرة من عمره ، ورحل الى بَرِّيَّة (فاران) فتزوج فيها من امرأة مصرية ، وعاش فيها رامياً بالسهام حيث اشتهر بالرماية . ولم تذكر التوراة بعد ذلك شيئاً عنه،إلا ما ورد من أنه حضر دفن أبيه (ابراهيم)، وأنه عاش (١٣٧) سنة[1] .

هذا مجمل ما ورد في التوراة عنه . أما ما أورده أهل الأخبار عنه ، فانه يستند الى هذا الوارد في التوراة عنه ، إلا ما ذكروه عن امرأته ، فقد جعلوها امرأة من (جرهم) ، وما أوردوه عنه من أنه هاجر الى مكة ، وأنه عاش هناك ، وتعلم العربية فيها ، وقبر في (الحجر) عند قبر أمه (هاجر)[2] ، وأمور أخرى صغيرة تختلف باختلاف الروايات .

---

١ التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ٤ فما بعدها ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ١٨ فما بعدها ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٧ فما بعدها .
Hastings, P. 392.

٢ الطبري (١/٣١٤ فما بعدها) .

وقد جعلت التوراة لـ (اسماعيل) ولداً ، عدتهم اثنا عشر ولـــداً ، هم : نبايوت بكر اسماعيل ، وقيدار ، وأدبئيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة . ذكرتهم على حسب مواليدهم، كما نص على ذلك فيها [1] . وهو عدد يظهر أنه من وضع كتاب الأسفار وترتيبهم[2]. أمهم امرأة مصرية[3] ، وهي كناية عن اتصال الاسماعيليين بالمصريين ، وقد أخذ أهل الأخبار هذه الأسماء ، وغيّروا في نطقها بعض التغيير ، فصيّروها : نابت وقيـــذر ، واذبل ، ومبشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور ، ونبش ، وقيذما ، وما شاكل ذلك . وقد نص الطبري على اختلاف أهل الأخبار في ضبط هذه الأسماء[4] . ويعود هـــذا الاختلاف على ما يظهر الى اختلاف المورد الذي أخذ منه أهل الأخبار .

وقد زعم أهل الأخبار أن اسماعيل تزوّج من جرهم ، وأن اسم زوجـــه (رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي)[5] ، أو ما شاكـل ذلك من أسمـــاء ، وأنها ولدت له اثني عشر رجلاً ، هم : نابت وكان أكبرهم ، وقيـــذر ، وأذبل ، ومبشا ، ومسمعا ، ومـــاشي ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور ، ونبش ، وقيذما[6] . وأكثر هذه الأسمـــاء وروداً وتكراراً في الكتب العربية ، نابت وقيذر .

ونرى من عدد هؤلاء الأولاد ومن أسمائهم ، أن رواتها أخذوا أولئك الأولاد من التوراة . أخذوا العـــدد وأخذوا الأسماء ، ولكنهم حرفوا وصحفوا فيها ، ولا ندري أكان هذا التحريف قد وقع من الأخباريين أنفسهم ، أجروه تعمداً ليسهل النطق بها في العربية ، أم وقع من الرواة الاسرائيليين أو النصارى الذين

---

١ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٢ فما بعدها .
٢ Hastings, P. 392.
٣ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ٢١ .
٤ الطبري (٣١٤/١) « طبعة دار المعارف » .
٥ ابن هشام (٣/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « السيدة بنـت مضاض بن عمرو الجرهمي » ، ابن خلدون (٣٧/٢) ، الطبري (١٦/١) ، ابـن الاثير ، الكامل (٤٩/١) ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥) ، تـاج العـروس (١ / ٣٧٥) ، (٥٩٠/١)
٦ ابن هشام (٣/١) ، ابن خلدون (٣٩/٢) ، مع اختلاف في ضبط الاسمـــاء ، الطبري (١/ ١٦١) ، ابن الاثير ، الكامل (٤٩/١)

رَجَعَ أهل الأخبار اليهم ، فأخذوا منهم تلك الأسماء ، أو أنه مجرد تحريف وتصحيف ، وقع من الجانبين ، فظهر على هذا الشكل .

أما امرأة (اسماعيل) ام أولاده ، فإنها ليست جرهمية عربية في التوراة ، وانما هي امرأة مصرية كما ذكرت . لم تذكر التوراة اسمها . ويذكر أهل الأخبار ان اسماعيل كان قد تزوج بامرأة أخرى من جرهم قبل (رعلة بن مضاض ابن عمرو الجرهمي) ، أو (السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي) ، كما تعرف في روايات أخرى ، الا انه طلقها بأمر أبيه ، لما جاء الى مكة زائراً ، فلما جاء للمرة الثانية ورأى زوجته الثانية رضي عنها ،وأمر ابنه اسماعيل بإبقائها ، فبقيت ، ومنها كان نسله المذكورين[1] .

وقد نص (الطبري) على أن العرب هم من نابت وقيدر[2] ، ولم يذكر شيئاً عن بقية الأولاد . والظاهر ان اهمالهم هذا الإهمال يعود الى عدم وقوف الموارد التي أمدّت الأخباريين على شيء عنها ، وعدم تمكنهم من تعيينها وتثبيت مواضعها ، فإن ذلك يحتاج الى علم والى وقوف على ما جاء في كتب التفاسير والشروح والموارد اليهودية الأخرى عن هذه القبائل . والموارد المذكورة نفسها لا تعرف عن تلك القبائل وعن تلك البلاد شيئاً كثيراً يزيد على ما جاء في التوراة. فإن كتبة الأسفار لم يهتموا الا بما يتعلق بإسرائيل . أما ما وراء اسرائيل من شعوب وأرضين ،ولا سيما الشعوب التي لا تخام الأرضين التي وجد فيها العبرانيون، فإنها لم تكن تُعنى بها الا بمقدار ما لها من صلة بإسرائيل .

وقد حددت التوراة المنازل التي أقام بها (الإسماعيليون) ، فجعلتها من (حويلة) الى (شور)[3] . فكل ما وقع بين المكانين ، هو في أرض القبائل الإسماعيلية . وقد ذكرتُ قبل قليل أن آراء العلماء مختلفة في تعيين موقع أرض (حويلة) ، وعندي ان هذا الموضع يجب ألا يكون بعيداً عن فلسطين ، لأن (شاؤول) ضرب العماليق من (حويلة) الى شور[4] . ولا يعقل أن تكون هذه

---

١ الطبري (١/٢٥٦ ، ٣١٤)

٢ الطبري (١/٣١٤) .

٣ التكوين ، اصحاح ٢٥ ، الاية ١٨ .

٤ صموئيل الاول ، اصحاح ١٥ ، الاية ٨ .

الأرضون بعيدة عن فلسطين ، لأن (شاؤول) لم يكن قوياً ذا جيوش جرارة حتى تضرب العماليق في منطقة نائية ، بعيدة عن فلسطين .

وأما (شور) ، فموضع يقع على الحدود الشمالية الشرقية لأرض مصر ، في البرية المسماة بـ (برية تيه بني اسرائيل) وبـ (برية ايتام)[1] . ويرى بعض علماء التوراة ان (الطور) الحالية هي أرض (شور)[2] .

ويلاحظ ان الأرض التي زعم ان (شاؤول) قد ضرب بها العماليق ، «وضرب شاؤول عماليق من حويلة حتى مجيئك الى شور التي مقابل مصر »[3] ،هي الأرض ذاتها التي جعلتها التوراة أرضاً للذرية (يشمعئيل) (اسماعيل) . فيظهر من ذلك أن العماليق كانوا قد سكنوها أيضاً . ولما كان العمالقة قد سكنوا أرضاً ، تقع بين كنعان ومصر في برية سيناء وتيه بني اسرائيل[4] ، وجب أن تكون تلك الأرض هي موطن الإسماعيليين .

ويعترف العبرانيون بوجود صلات قربى لهم بالإسماعيليين . ويظهر أن القبائل الإسماعيلية عاشت زمناً طويلاً في (طور سيناء) . وفي جنوب فلسطين. عاشت عيشة أعرابية[5].ولهذا كان الإسماعيليون أهل وبر بالقياس الى اليقطانيين المستقرين. وقد نظر العبرانيون نظرة عداء الى الإسماعيليين ، لأنهم كانوا يتحرشون بهم ويغيرون عليهم ويتعرضون بتجاراتهم . وقد ذكروا في أيام (داوود)[6] . وقد ورد في التوراة أن الله أوحى الى (هاجر) يبشرها بأن نسل ابنها سيكثر وينمو حتى يكون أمة عظيمة[7] ، وهو كناية عن كثرة عدد أولئك الأعراب في أيام العبرانيين .

هذا ونحن لا نعرف شيئاً يذكر عن (الاشماعيليين) (الإسماعيليين) ، ولا

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٦٤١/١) . Musil, Hegaz, P. 261, 265.
٢ Hastings, P. 852, Enc. Bibli. P. 4498.
٣ قاموس الكتاب المقدس (٦٤١/١) ، Hastings, P. 852, Enc. Bibli. P. 4498, Musil, Hegaz, P. 261, 265. ff.
٤ صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٧ ، قاموس الكتاب المقدس (١١٣/٢) .
٥ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٩٨/١)
٦ Enc. Bibli. P. 2211, Hastings, P. 392.
٧ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها .

عن لهجاتهم . ويرى بعض العلماء أن لهجاتهم يجب أن تكون من اللهجات العربية الشمالية المتأثرة بلغة بني إرم[1] . ولعدم وصول نص مدوّن بلهجة من لهجات هذه القبائل ، لا نستطيع أن نبدي في الزمان الحاضر رأياً علمياً في شكل هذه اللهجات .

و (نبايوت) هو بكر اسماعيل وأهم القبائل الإسماعيلية في التوراة ، وقد أعطاه هذه المنزلة أهل الأخبار أيضاً لأخذهم منها . ونحن لا نعرف الأسباب التي جعلت التوراة تعدّه أحسن أولاد (إسماعيل) أراعت في ذلك بعد القبيلة ، أم راعت قربها من العبرانين ، أم ضخامتها وكثرة عددها بالقياس الى القبائل الإسماعيلية الأخرى ، أم أموراً أخرى جعلت العبرانيين ينظرون اليهم على أنهم أقدم تلك القبائل ؟ فليس في التوراة قواعد ثابتة تمشي عليها كتبة العهد القديم في تدوين الأنساب .

ويعرف (نبايوت) بـ (نابت) و (نبت) عند الأخباريين . ومنه ومن قيدر، نشر الله العرب ، على رأي أهل الأخبار[2] . وقد جعل بعض الأخباريين نابتاً والداً لـ (يشجب)[3] ، مع أن (يشجب) هو ابن (يعرب) عند الأكثرين .

وقد ورد اسم (نبايوت) مع اسم (قيدار) في النصوص الآشورية ؛ ويظهر أنهم كانوا أقوياء كثيري العدد . ويدل ورود اسمهم مع (قيدار) في التوراة في النصوص الآشورية على أنهم كانوا متجاورين . ولم تعين التوراة مواضع سكناهم ، ولكن ورود اسمهم في رأس قائمة الإسماعيليين واقترانه بالأدوميين عن طريق المصاهرة ووقوف العبرانيين على أخبارهم ، يدل كله على أنهم كانوا يقيمون في المناطق الواقعة في جنوب شرقي فلسطين وفي الأقسام الجنوبية الشرقية من بادية الشام[4] .

وقد ذهب (كلاسر) إلى أن (نبايوت) (مشيخة) أو مملكة حكمت في (القصيم) ، وقد كانت معاصرة لمملكة (عربي) ، وكانت لا تزال مستقلة في أيام الفرس[5] .

---

١ Enc. Brit. Vol. 12, P. 706.

٢ الطبري (٣١٤/١) .

٣ ابن هشام (٥/١) .

٤ التكوين ، الاصحاح ٢٨ ، الاية ٩ .

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 266. ff. Schrader, KAT, S. 151, Hommel, AHT, 275.

وقد ظن بعض العلماء انهم (النبط)[1] ، ذهبوا الى ذلك من تشابه (نبايوت) (Nabaiot) و (نبط) (Nabat) ، غير ان هذا رأي يعارضه كثير من علماء التوراة[2] .

وقد كان بين الأوس قوم يقال لهم (النبيت) ، افتخر بهم الشاعر (قيس ابن الخطيم) من شعراء الجاهلية ، وقد قتل قبل الهجرة ، ومدحهم ، ووصفهم بالشدة والبأس[3] ، كما كان في (إياد) قوم يقال لهم (النبيت)[4] .

وكان نبيت الأوس يتألفون من (ظفر) رهط الشاعر قيس بن الخطيم، ومن عبد الأشهل ، وحارثة[5] . وقد وقعت بينها حروب ومعارك، فانضمت حارثة الى الخزرج ، وتحالفت معها ، ودخلت فيها . وأما ظفر وبنو عبد الأشهل ، فقد اضطروا أخيراً الى ترك ديارهم الى مكة للتحالف معهم ، أو مع اليمن ، أو الغساسنة أو المناذرة ، لمساعدتهم على الخزرج ، ولاسترداد ملكهم[6] . والظاهر انهم كانوا قديماً من القبائل القوية ، وكانت في الحرار الشرقية ، ثم أفل نجمها، وتشتت شملها بسبب الحروب التي وقعت بين بطونها. ولعلها من القبائل التي كانت تقيم في الشمال ، في العربية الحجرية أو العربية الصحراوية، ثم اضطرت الى الهجرة الى الجنوب والاستيطان في مناطق الحرار. والظاهر انها كانت على اتصال باليهود، وقد تحالف معها يهود خيبر .

وقد ورد اسم (قيدار) في النصوص الآشورية ، ورد على هذه الصورة : (قِدرو) (Kidru) و (قَـدرو) (Kadru) [7] ، كما ورد في المؤلفات

---

١ النبط ـ النبيط ـ الانباط ـ نبطي ـ نبط ـ قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط ـ ، تاج العروس (٢٣٩/٥) .

٢ Enc. Bibli. P. 2213, Hastings, P. 648, f.

٣ ويثرب تعلم ان النبيت ... راس بيثرب ميزانها
وقد علموا ان مافلهم ... حديد النبيت واعيانها
فلا اعرفنكم بعد عز وثروة ... يقال الا تلك النبيت عساكر
شعر قيس (ص ٩ ، ١٠ ، ٣٨) .

٤ شعر قيس (ص ٩) ، « والنبيت أبو حي ، وفي الصحاح حي من اليمن » ، اللسان (٤٠٢/٢) ، تاج العروس (٥٨٩/١) .

٥ شعر قيس (ص XX) ، القسم الالماني

٦ شعر قيس (ص XX II) ، القسم الالماني .

٧ Schrader, KGF. 101, Kat. 147, Delitzch, Wo lag das Paradies? S. 299.

(الكلاسيكية) ، فقال لهم (بلينيوس) (Pliny) (قدراي) (Cedrei) ، وذكر انهم قبيلة عربية تقيم على مقربة من النبط[1] . وقد حاربهم (آشور بنبال) ، وكان ملك (قيدار) في ذلك العهد، ملك عرف باسم (أو أيطع) (U Aite') ابن (خزاعيل) (Hazael) [2] ، وقد ذكرهم (آشور بنبال) مع (عربي) (أربي) ، كما ذكرهم (حزقيال) مع العرب (العرب وكل رؤساء قيدار)[3] ، مما يدل على ان مواطن (قيدار) كانت تجاور العرب ، ويراد بالعرب هنا ، الأعراب . وهو ما يتفق مع ما جاء في نص (آشور بنبال) كل الاتفاق . وذكروا بعد (نبايوت) في التوراة ، مما يدل على انهم كانوا يقطنون في جوارهم، كما ذكروا مع (ممالك حاصور) التي ضربها (نبوخذ نصر)(بختنصر)[4]. وقد نكّل (بختنصر) بالقيداريين كذلك ، وخرب بلادهم وأخذ غنائم كثيرة منهم، واستولى على ما وقع في أيدي جيشه من أموالهم وخيامهم وغنمهم وجمالهم وقد ورد وصف ذلك في سفر (أرمياء)[5] .

ويظهر من التوراة أن القيداريين كانوا أعراباً يعيشون في الخيام ، عيشة أهل البداوة[6] ، وقد وصفت خيامهم بأنها خيام سود (أنا سوداء وجميلة يا بنات اورشليم ، كخيام قيدار، كشقق سليمان)[7] . والخيام السود هي بيوت أهل الوبر . وكانوا يعتنون بتربية المواشي ، وقد اشتهروا بأن فيهم رعاة يملكون ماشية كثيرة[8] . إلا أن منهم من كان متحضراً سكن القرى والمدن[9] . ونجد (أشعياء) يتنبأ بإفناء (مجد قيدار . وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار)[10] مما يدل على ان القيداريين كانوا قوة وعدداً ضخماً ، فيهم جماعة مهرت برمي السهام . ويتبين من (المزامير) انهم غزاة ، وحياتهم حياة غزو ، لا يعرفون السلام

١ Pliny, 5, 21, 65, Enc. Bibli. P. 2213, Forster Vol. I, 238 ff.
٢ Musil Deserta P. 485.
٣ حزقيال ، اصحاح ٢٧ ، الاية ٢١
٤ ارمياء ، الاصحاح ٤٩ ، الاية ٢٨
٥ ارمياء ، الاصحاح ٤٩ ، الاية ٢٨ وما بعدها
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣٠) .
٧ نشيد الاناشيد ، الاصحاح الاول ، الاية ٥ .
٨ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣٠) .
٩ اشعياء ، الاصحاح ٤٢ ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣٠)
١٠ اشعياء ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٦ وما بعدها ، Hastings, P. 512.

ولا الاستقرار[1] .

وقد ذكروا مع العرب في جملة من تاجر مع العبرانيين . تاجروا معهم (بالخرفان والكباش والأعتدة[2]) . وكانوا مثل قبائل العرب الأخرى على احتكاك بالعبرانيين ، يتاجرون معهم تارة ، ويخاصمونهم تارة أخرى ، ويظهر أنهم كانوا على عداء شديد معهم ، وخصومة منكرة في أيام (أشعياء) و (أرمياء) ، كما يتبين ذلك من الهجوم العنيف الموجه اليهم في سفريهما ومن فرح العبرانيين من النكبات التي حلت بهم ، ولا سيما انتقام (بختنصر) منهم . ويظهر أنه غزاهم ، لأنهم كانوا يتحرشون بالبابليين في أثناء مرورهم بالبادية الى فلسطين ، مما حمل (بختنصر) على الانتقام منهم ومن قبائل أخرى كانت ضاربة في البادية وفي الطرق المؤدية الى بلاد الشام .

وقد ذكر أهل الأخبار اسم رجل دعوه (قدار بن سالف) ، زعموا أنه كان يدعى (أحيمر ثمود)[3] ، وأنه هو الذي عقر الناقة ، ناقة النبي صالح[4] ، وذكروا أن (قيدار بن إسماعيل) هو أبو العرب ، وزعم بعضهم أنه كان نبياً ، وزعم أن له قبراً ومشهداً يزار قريباً من السلطانية بالعجم ، وأعقب من ولده (حمل بن قيذار) ، وله ابن يقال له (سواري) . وقد ذكر أهل الأخبار أن (كعب الأحبار) ، قال : (قال الله لرومية : إني أقسم بعزتي لأهبن سبيك لبني قاذر ، أي بني إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، يريد العرب)[5] واذا صح أن هذا الكلام هو من كلام (كعب) حقاً ، فإنه يدل على تحريض (كعب) للمسلمين على اكتساح امبراطورية الروم ، وقد كان اليهود يكرهون الروم ، لما أوقعوه بهم من ظلم ، وأنه كان يعبر عن الحالة التي كانت بين الروم والعرب في ذلك الزمان . وليس الكلام المذكور ، كلام الله في التوراة

---

١ المزامير ، المزمور ١٢٠ ، الاية ٥ وما بعدها .

٢ حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٢١

٣ الطبري (٣١٤/١) « دار المعارف » ، « قيذر » منتخبات (ص ٨٤) مروج (٣٩٤/١) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢) ، تاج العروس (٤٨٣/٣ فما بعدها) .

٤ تاج العروس (٤٨٣/٣) .

٥ تاج العروس (٤٨٥/٣) ، عن « قيذار » : الطبري (١٩٣/٢) ، « قيذر » ، منتخبات (ص ٨٤) ، مروج (٣٩٤/١) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢)

وإنما هو كلام (كعب) . ولكعب أمور عديدة من هـذا القبيل ، إذ يضع كلاماً يزعم أنه من كلام الله المذكور في الكتب المنزلة .

وأما (أدبئيل) (Adbeel) ، فكناية عن قبيلة عربية أخرى من القبائل الإسماعيلية ، يرى بعض علماء التوراة أنها عاشت في جنوب غربي البحر الميت[١]. ويظن أنها قبيلة (ادب ايله) (Idiba'ila) (Dibi'ila) (ادبئيله) (ادبعيله) (دبئيله) (وبعيلة) المذكورة في كتابة من كتابات الملك (تغلا تبلسر الثالث)[٢]. وقد ذكر هذا الملك أنه عين نائباً عنه،أو (مندوباً سامياً) (قيبو) (Kepu) على خمسة عشر موضعاً ، وكان اسم هذا المندوب (ادب ال) (أدب أبل) (أدبئيل) (Idibi'il) ، وهو سيد قبيلة عرفت بهذا الاسم . والظاهر أنه فوّض اليه أمر حماية الحدود والمحافظة عليها من الغزو . وتقع أرض هذه القبيلة على مقربة من الحدود المصرية وفي الجنوب من غزة[٣]. وكانت هذه القبيلة لا تزال موجودة في أيام المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس)[٤] .

ويلي (أدبئيل) (أدب ال) (ادب ايل) في تسلسل أولاد إسماعيل ، مبسام (Mibsam) ، وقد سمي في بعض الكتب العربية (ميشا) ، ولا نعرف من أمر هذه القبيلة شيئاً[٥] .

وأما (مشماع) ، وقد سمي (منسى) و (منشى) و (مسمع) و (مشماعة) في بعض الكتب العربية ، فلا نعرف من أمره شيئاً . ويتصور بعض العلماء أن لهذا الاسم علاقة بقبيلة (بني مسماع) أو (جبل مسماع) (جبل مسمع) قرب تيماء[٦] .

ورأى (فورستر) أن (مشماع) هي قبيلة (Masmaos) التي ذكرها (يوسفوس) ، على أنها من القبائل العربية التي كانت تعيش في أيامه[٧] . ويرى

---

١ Enc. Bibli. P. 2213.

٢ « تفلاتبليزر الرابع » عند « الويس موسل » ، Musil, Hegaz, P. 291, Deserta, P. 278. f. Hastings, P. 12, Delitzch, Paradies, S. 301, Enc. Bibli. P. 65.

٣ Schrader, KAT. S. 58.

٤ Forster, I, P., 266.

٥ Forster, Vol. I, P. 273, Enc. Bibli. P. 3067, Musil, Deserta, P. 479.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٤٤) ، Enc. Bibli. P. 3154.

٧ Forster, Vol. I, P. 274.

(فورستر) أيضاً أن قبيلة (Masaemanes) التي ذكرها (بطلميوس) هي هذه القبيلة كذلك[1] . وهذا الاسم قريب من اسم (ماء السماء) .

و (دومة) هو (دوما) في بعض الكتب العربية ، وهو كناية عن موضع (دومة الجندل)[2] ، وقد عرف بـ (دوماتا) (Domatha) عند (بلينيوس)[3] وبـ (Doumaetha) (Dumaetha) عند (بطلميوس)[4] ، وبـ (Adumu) (ادومو) في الكتابات الآشورية[5] ، وهو كناية عن موضع وعن اسم قبيلة عربية . فقد ورد أن شعباً اسمه (Dumathii) كان يقدم قرباناً ، (ولداً) في كل سنة الى آلهته ، ويدفن ذلك القربان في معبد الإله . ويراد به شعب (دومة الجندل)[6] .

وقد ورد اسم (مسا) (Massa) في النصوص الآشورية مقروناً بـ (تيما) (تيماء).ويرى بعض العلماء أنه كناية عن قبيلة كانت منازلها في الشرق والجنوب الشرقي من (موآب)[7] . ويرى بعض آخر أن مواطنها في الأرضين الجنوبية من وادي السرحان ، وفي غرب منازل (عربي) (اربي)[8] .

وجاء في رسالة أرسلها أحد (المقيمين) الآشوريين الى ملك آشوري لم يرد اسمه في الكتابة أن (ملك قرو) (مالك قرو)[9] ابن (عميطع) سيد قبيلة (مسئا) (Mas'a) غزا قبيلة (Naba'ati) ، وقتل عدداً من أتباعها[10] . والظاهر أن هذه القبيلة ، هي القبيلة المذكورة في التوراة .

---

١ Forster, Vol. I, P. 274.

٢ « ودما ، وهو دوما ، وبه سميت دومة الجندل » ، ابن سعد ، طبقات (ح ١ ق ١ ، ص ٢٥) .

٣ Pliny, 6, 28, &, 157, Forster, Vol., I, P. 281.

٤ Forster, Vol. I, P. 281.

٥ Enc. Bibli. P. 1142, 2213, Musil, Deserta, P., 480.

٦ Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol. I ,P. 630 Burckhardt, Travels in Syria, 662, Ritter, Erdkunde von Arabien, II, S. 360. ff.

٧ Hastings, P. 591, Enc. Bibli. P. 2213, 2972, Musil, Hegaz, P. 288.

٨ Musil, Deserta, P. 478.

٩ مالك قمر ــ ملك قمر ــ ملك القمر ــ مالك القمر ــ ملك امره ــ وما شابه ذلك من اسماء

١٠ Musil, Deserta, P. 478, Delitzch, Paradise, P., 302, Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, Vol. 4, P. 1. 54, No. I.

وأما (حدد) أو (حدار) ، كما دُوِّن في سفر التكوين[1] ، فإنه (أدد) عند بعض أهل الأخبار[2] . وقد تكون لاسمه علاقة باسم الإلـه (حدد) أو (أدد) المعبود الشهير الذي تعبد له الآراميون وقبائل عربية كثيرة ، وكذلك الآشوريون والبابليون[3] . ولا نعرف من أمر قبيلة (حدد) هذه شيئاً يذكر في الزمن الحاضر .

وأما (تيما) ، فإنه (طما) في الكتب العربية ، وهو كناية عن (تيماء)[4] ، وسوف أتحدث عنها . وأما (يطور) ، وهو (وطور) وما أشبه ذلك في الكتب العربية ، فقبيلة عرفت بـ (Ituraea) في المؤلفات اليونانية واللاتينية[5] . وقد حاربت العبرانيين ، وكانت تقيم شرقي نهر الأردن في أيام الملك (شاؤول) : ويظهر أنها هاجرت نحو الشمال ،فسكنت في الأقسام الجنوبية من لبنان وفي الحافات الشرقية من جبال لبنان . وقد أجبر الملك اليهودي (ارسطوبولس الأول) (Aristobulus I) (١٠٧ قبل الميلاد) قسماً من اليطوريين على التهود . وكان قد استولى على أرضهم . وكان لهم ملوك . وفي أيام ملكهم (سوهومس) (سوحومس) (سوخومس) (Sohumus) أدخلت أرضهم في مقاطعة (سورية) وذلك في سنة (٥٠) ب. م. وقد كابدت دمشق مصائب شديدة من غزوات اليطوريين[6] .

وكانت مواطن اليطوريين في ما بين (اللجاة) (Trachonitis) و(الجليل) ، وعرفت بـ (جدورا) ، وبـ (ايطورية)[7] . وقد عرفوا بمهارتهم في الرماية. وقد ذكرهم (سترابو)[8] . والظاهر أن مواطنهم الأصلية كانت في البادية ،ومنها جاؤوا الى (ايطورية) ثم ذهبوا الى الأقسام الجنوبية من لبنان والى سهل البقاع. وقد ضيق عليهم الرومان في حوالي الميلاد وأجبروا بعضهم على الرجوع الى البادية

---

١ الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٦٠/١)
٢ الطبري (٣١٤/١) .
٣ Hastings, P. 323.
٤ Enc. Bibli. P. 2213, Forster, Vol. I, P. 310.
٥ Enc. Bibli. 2213, Josephus, Anti. XIII, II, 3.
٦ Enc. Bibli. P. 2213.
٧ قاموس الكتاب المقدس (٥١٣/٢)
٨ Strabo, XVI, II, 10.

ويظهر أن سبب ذلك هو عدم خضوعهم للسلطات وغاراتهم على الحضر . وقد قتل (ماركوس أنطونيوس) (Marcus Antonius) ، ملك اليطوريين في سنة (٣٤) ق.م ، وكان يدعى (ليسانياس (Lysanias)[١] ، وتوفي (زنودوروس) (Zenodorus) الذي خلفه في سنة (٢٠) ق. م ، واستولى (هيرود الكبير) (Herodes the Great) على قسم من أرض اليطوريين . ولما قسمت مملكة (هيرود) ، صارت هذه الأرضون من نصيب (فيليب)[٢] .

وفي أيام (لوقا) ، كانت (Ituraea) منطقة ، تقع على ما يظهر في شمال شرقي (بحر الجليل)[٣] . ويخترق الطريق الروماني الذي عمله الرومان من (دمشق) الى (طبرية) (طبريا)[٤] هذه المنطقة .

وقد كوّن اليطوريون لهم إمارة أو مملكة في (البقاع) ، كان حكامها رجال دين أي كهّاناً وملوكاً في آن واحد. وقد عرفنا منهم رجلاً اسمه (Mennaios) وهو اسم قريب من الأسماء العربية ، فلعله (معن) . أما ابنه فقد سمى نفسه باسم يوناني ، هو (بطلميوس) (Ptolemaios) . وكان لهذا الملك ، أي (بطلميوس) ، ولدان ، هما : (Lysanias) ، وقد تولى الملك من بعد والده و (فيليب) (Philippion) . وأما (زينودور) (Zenodor) ، فقد خلف (Lysanias) وأما (Sohaimos) (Sohumus) ، فإنه اسم قريب من (سحيم) ومن (سهيم) و (سخيم) و (سهم) ، وأمثال ذلك ، وهي أسماء عربية معروفة[٥] .

ويظهر أن ارتحال (اليطوريين) من الأقسام الشرقية من الأردن نحو الشمال ، نحو دمشق ، ثم سهل البقاع حتى ساحل البحر الأبيض ، كان قبل القرن الثاني قبل الميلاد . ولعلهم هم العرب الذين ذكر أن الاسكندر الكبير كان قد حاربهم بعد حصاره لمدينة (صور) (Tyros)[٦] .

---

١ Dio Casius, XIIX, 32, Hastings, P. 418.

٢ Hastings, P. 418, Josephus, Anti. XV, X, 3.

٣ Hastings, P. 418.

٤ The Bible Dictionary, I, P. 573.

٥ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 279, 315, M. Lidzbarski Ephemeris, I, (1900-1902), 335.

٦ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 170, 179.

وقد كوّن الرومان فرقاً محاربة من (اليطوريين) ، اشتركت معهم في الحروب. وقد امتازت بعض هذه الفرق في حذقها بالرمي . وكوّن (مارك أنتوني) (Marcus Antonius) حرساً خاصاً منهم ، أشير اليهم في الموارد اليونانية واللاتينية[1] .

و (نافش) (Naphish) ، هو (نفيس) عند الأخباريين[2] . ويرى بعض علماء التوراة احتمال كون (بنو نفسيم) (Naphisim) المذكورين في سفر (عزرا) هم (نافش) هؤلاء[3] .

وأما (قدمة) ، فهو (قيدمان) و (قيذما) وما شاكل ذلك في المؤلفات العربية[3] ، ولا نعرف من أمرهم شيئاً يذكر في الزمان الحاضر ، ولعلهم (القدمونيين) الذين أدخلت أرضهم في جملة (الأرض الموعودة) المذكورة في التوراة[4] . وكانت مواطنهم عند (البحر الميت) . ومن العلماء من يظن أن لهم صلة بـ (بني قديم) (Bene Kedem) ، أي (أبناء الشرق)[5] . وذهب (فورستر) ، الى احتمال كون (قدمة) موضع (رأس كاظمة) على الخليج[6] . ولما كانت (قدمة)[7] من القبائل الإسماعيلية ، وقد ذكرت مع القبائل الإسماعيلية في التوراة ، ومواطنها كلها لا تبعد كثيراً عن فلسطين ، فإني أرى أن مواطن هذه القبيلة يجب أن تكون أيضاً في هذه المواضع ، أي في مكان لا يبعد كثيراً عن فلسطين.

والغالب على أبناء اسماعيل البداوة ، أي حياة التنقل والغزو والرماية ، لذلك كانت ملاحظة التوراة عن اسماعيل من أنه سينشأ رامياً ، ملاحظة حسنة ، تدل على تبصر بأمور (الإسماعيليين) الذين كانوا يقومون بالغزو ويرمون بالسهام .

أما المجموعة الثالثة من مجموعات أنساب العرب المذكورة في التورة ، فإنها مجموعة قبائل نسبت الى (قطورة) زوج (ابراهيم) . وقد ذكرت التوراة

---

١ Hastings, A Dictionary, II, P. 521.

٢ الطبري (٣١٤/١) .

٣ عزرا ، الاصحاح الثاني ، الآية ٥٠ ، Hastings, P. 645, Enc. Bibli. P. 3331

٤ الطبري ، (١٦١/١) ، (٣١٤/١) ، « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥)

٥ التكوين ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١٩ .

٦ Hastings, P. 512, Enc. Bibli. P. 3331.

٧ Forster, Vol. I, P. 313.

انها ولدت له (زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحاً)[1]. وولد يقشان : شبا ، وددان . وكان بنو ددان : أشوريم ، ولطوشيم ، ولأميم. وبنو مديان : عيفة ، وعفر ، وحنوك ، وأبيداع ، والدعة[2] . ويبلغ عدد القبائل المنحدرة من (قطورة) ست عشرة قبيلة[3] .

فـ (قطورة) اذن هي مجموعة قبائل مثل الإسماعيليين واليقطانيين ، وهي تتفق مع القبائل الإسماعيلية في أنها تنحدر من صلب ابراهيم ، وهي من هذه الناحية أقدم عهداً من القبائل الإسماعيلية ، لأن والد هذه القبائل هو ابراهيم . أما والد القبائل الإسماعيلية ، فهو اسماعيل ، وهو ابن ابراهيم .

والأسماء المذكورة كناية عن قبائل عربية ، ألّفت مجموعة خاصة، كان حلفاً على ما يظهر تألف من قبائل رجعت نسبها الى أصل واحد ، هو (قطورة) . انتشرت قبائله في الأرضين الواقعة بين القبائل العربية الإشماعيلية وبين القبائل اليقطانية . وتشير قصة زواج (ابراهيم) بقطورة الى صلة القطوريين بالإشماعيليين، والإشماعيليون من صلب اسماعيل بن ابراهيم ، ويؤخذ على أنه كناية عن اختلاط قبائل المجموعتين ، أي الحلفين بتعبير أصح . ووجود أسماء بعض قبائل يقطانية وبعض قبائل كوشية في قائمة أسماء أبناء قطورة ، هو أيضاً دليل على وجود صلات بين هذه الاحلاف الثلاثة وعلى تداخل القبائل واختلاطها بعضها ببعض .

أما أولاد (قطورا) عند أهل الأخبار ، فهم : يقسان ، وزمران ، ومديان ، ويسبق ، وسوح ، وبسر على رواية[4] ، ومدن ومدين ويقسان وزمران ويسبق وسوح على رواية أخرى[5] . ومدن ومدين ويقشان ، وزمران ، وأشبق ، وشوخ[6]. وقد أخذت هذه الأسماء كما نرى من التوراة ، الا ان من أخذها حرّف فيها بعض التحريف ، وخالف الترتيب الموجود للأسماء في التوراة فقدّم وأخر ، وأضاف اسماً جديداً هو (بسر) على الرواية الأولى ، وضعه في مكان (مدان) ،

---

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١ فما بعدها .
٢ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١ فما بعدها
٣ Hastings, P. 514.
٤ الطبري (١/ ١٥٩) ، (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .
٥ الطبري (١٦٠/١) .
٦ ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

الا أن الطابع التوراتي ظل بارزاً واضحاً عليها . فلا حاجة بنا الى ارجاع كل اسم منها الى الاسم المقابل له في التوراة .

وزوّج أهل الأخبار (يقشان) (يقسان) ، من امرأة سموها (رعوة بنت زمر بن يقطن بن لوذان بن جرهم بن يقطن بن عابر) ، وأولدوا لها ولداً دعوه (البربر) ، قالوا عنه إنه جدّ البربر[1] . وهو زواج لا تعرف عنه التوراة شيئاً ، وأما الزوج (رعوة بنت زمر بن يقطن) ، فليس لها ذكر فيها أيضاً ، وأما نسبها ، فهو نسب اخترعه من اخترعها ، وليس له لذلك ذكر في التوراة . وأما (بربر) ابن (رعوة) فهو من صنع صانع أخبار أمه . وليس له ذكرٌ ما في التوراة .

ولفظة (بربر) في الكتاب المقدس لفظة تعني (الغريب) ، وهي من أصل يوناني ، وقد أطلقها اليونان على الغرباء الناطقين بلغة أخرى غير اللغة اليونانية[2] . ولم تستعمل علماً على جنس معين له جد وأب ونسل . ولذلك ، فإن ربط نسب (البربر) ، وهم سكان المناطق المعروفة من شمال إفريقية بـ (رعوة) وبقحطان ، هو من صنع (أهل الأخبار) ، وقد وقع في الإسلام بالطبع ، وبعد الفتح الإسلامي لتلك المناطق ، لغايات سياسية ، على نحو ما حدث من ربط نسب الفرس واليونان والأكراد بالعرب .

ولم يشر الأخباريون وأهل الانساب الى (القطوريين) كطبقة خاصة من العرب . وقد أشار بعضهم الى قبيلة عربية عرفت بـ (قطورة) ، ذكروا أنها عاشت مع (جرهم) بمكة[3] . ولعل لتشتت شمل القبائل القطورية ودخولها في القبائل الأخرى : قحطانية وعدنانية ، وفي جهل أهل الكتاب في ذلك العهد ، أي أيام لجوء أهل الأخبار اليهم يسألونهم عن الأنساب ، دخلا في هذا الإهمال.

ويلاحظ أن بين أسماء قبائل (قطورة) أسماء وردت في جدول أنساب قبائل (يقطان) ، وفي جدول أسماء أبناء (كوش) . ويفسر بعض العلماء ذلك باتصال القبائل القطورية بالقبائل اليقطانية وبالقبائل الكوشية وباختلاطها بها وتلاحمها

---

١ الطبري (١/٣٠٩) ، « دار المعارف » .

٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٢١٧) . Hastings, P. 84.

٣ Hastings, P. 514, Enc. Bibli. P. 2660, Ritter, Erdkunde, 12, 19.

معها ، ونزولهـا بينها ، فعدّ كتبة (أسفار التكوين) ذلك نسباً ، فأدخلوا القسم الذي دخل في اليقطانيين من اليقطانيين ، والقسم الذي نزل بين الكوشيين من الكوشيين ، ومن ثمّ صار ذلك نسباً ورابطة دم[1] .

وزوج إبراهيم (قطورة) ،معروفة عند أهل الأخبار . وقد دعوها بـ(قطوراء) وبـ (قطورا) وبـ (قنطوراء)[2] . ومعنى اللفظة في اللغة العبرانية (البخور) . وقد تزوجها إبراهيم بعد وفاة (سارة)[3] . ولكنهم كعادتهم في معظم الأخبار التي أخذوها من أهل الكتاب ، خلطوا في أخبارها وحرّفوا فيها ، فجعلوا لها نسباً ، ولم يرد له ذكر في التوراة ، اختلفوا فيه أيضاً ، فصار (يقطن) والد (قطورة) في خبر[4] ، وصار (يكفور) أو (مفطور) هو والدها في خبر آخر ، وصار (افراهم بن أرغو بن فالغ) هو والدها في خبر آخر أيضاً[5] . وجُعلت عربية من العرب : تتكلم بهذا اللسان العربي المعروف . وقيل إن اسمها (انموتا) أو (انمتلى)[6] ، وصيرت (قطورا بنت يقطن) ، ولكنهم أخرجوها أحياناً من العرب ، وأضافوهـا الى الكنعانيين[7] ، كما جعلوها (قطورا بنت مقطور) من العرب العاربة[8] .

ولم يفطن أهل الأخبـار الى خلطهم في هذا النسب والى سكوت التوراة عن نسبها ، ولا أدري من أين جاؤوا بـ (يكفور) ، أو (مفطور) ، وكيف يجوز أن تكون (قطوراء) من نسل (افراهم بن أرغو بن فالخ) . فـ (افراهم) ، هو (ابراهيم) ، وهو زوج (قطوزة) لا والدهـا أو جدّها أو جدّ جدّها أو ما شاكل ذلك . ثم إن نسب (إبراهيم) على هذه الصورة هو نسب مغلوط ، يدل على جهل ، فإنه (إبراهيم) وهو (ابرام) في التوراة ، هو ابن (تارح)

---

١ Musil, Hegaz, P. 287.

٢ القاموس (١٢٣/٢) ، اللسان (٤٢٢/٦) .

٣ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ٣٢

٤ الطبري (١٥٩/١) ، الكامل (٤٨/١) .

٥ الطبري (٥٩/١) ، الكامل (٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (حـ١ ، ق١ ، ص ٢٢)

٦ الطبري (١٥٩/١) .

٧ الطبري (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .

٨ الطبري (٣١١/١) ، « دار المعارف »

و (تارح) هو ابن (ناحور) و (ناحور) ابن (سروج) وهذا هو ابن (رعو) الذي صار (ارغو) عند الإسلاميين . و (رعو) هو ابن (فالج) الذي صير (فالغ) عند أهل الأخبار . فترى من ذلك كيف خلط أهل الأخبار، وكيف كان علمهم بالقصص المأخوذ من التوراة . وكل هذا الجهل ناشىء من اعتمادهم على الأخذ شفاهاً من أهل الكتاب ، ومن عدم رجوعهم الى نص التوراة[1] .

ويلاحظ ان أكثر الذين قالوا في (قطورة) (قطوراء) و (قطورا) ، ذكروا أولادها على نحو ما ورد في التوراة . أما الذين قالوا (قنطوراء) ، فقد نسب أكثرهم اليها الترك والصين ، وأضاف بعضهم اليها السودان في بعض الأحيان[2] . وهو نسب تكرم به عليها أهل الأنساب والأخبار ، فليس في التوراة ذكر لهؤلاء الأولاد النجباء . ولعل إلحاق هؤلاء بـ (قنطوراء) انما كان لغرض سياسي ، هو إدماج نسب الترك والصين بالعرب ، ترضية لهم ، كما فعلوا بالنسبة الى شعوب أعجمية أخرى . ويرد اسم (بنو قنطوراء) في الملاحم والتنبؤات ، فرووا أحاديث تدل على شعور الخلافة الإسلامية بالخطر القادم من الترك والصين، وبأن النسب لم ينفع شيئاً معهم ، اذ ورد : « يوشك بنو قنطوراء أن يخرجوكم من أرض البصرة » ، وورد : « اذا كان آخر الزمان جاء بنو قنطوراء »[3] .

وزعم أهل الأخبار ان ابراهيم تزوج من زوج أخرى ، كانت من العرب أيضاً ، أسموها (حجور بنت أرهير) ، وولدت له خمسة بنين : (كيسان ، وشورخ ، وأميم ، ولوطان ، ونافس[4]) . وليس في التوراة ذكر لهذه الزوج العربية ، فليس لها نسل فيها بالطبع . فالأولاد هم من نسل مخيلة أصحاب الأخبار،جمعوها من أسماء توراتية مرت وتمر علينا في مواضع من هذا الكتاب ، وضبطوها بعدد ، لتظهر بمظهر خبر صحيح مضبوط .

ومن الأخباريين من أحجم عن تعيين هوية زوج ابراهيم ، فلم يذكروا شيئاً

---

١ راجع نسب ابراهيم في التكوين ، الاصحاح الحادي عشر ، الاية ١٥ فما بعدها .
٢ القاموس (١٢٣/٢) ، اللسان (٤٢٢/٦)
٣ اللسان (٤٢٢/٦) .
٤ الطبري (١٦٠/١) ، (٣١١/١) ، « طبعة دار المعارف » ، الكامل لابن الاثير (٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

عن عروبتها أو عن أبيها وجدّها، بل اكتفوا بذكر اسمها وحده، فدعوه (حجوني)، وقالوا : إنها ولدت له سبعة نفر ، هم : نافس ، ومدين ، وكيشان، وشروخ، وأميم ، ولوط ، ويقشان[1] .

ومعارفنا بالقبائل القطورية لا تختلف عن معارفنا بالقبائل الإسماعيلية واليقطانية من حيث الضآلة والضحالة . فهي قد لا تزيد في بعض الأحيان على الاسم ، ذلك لأن التوراة لم تذكر شيئاً عنها ، ولأن المفسرين والأحبار الذين شرحوا التوراة ، لم يذكروا شيئاً عن تلك القبائل ، إما جهلاً بها ، وإما لعدم وجود ميل بين العبرانيين الى الوقوف على أحوال تلك القبائل التي ذكرت في التوراة لمناسبة من المناسبات . ولهذا ضحل علمنا بها أيضاً . وليس أمامنا غير انتظار الحظ ، فقد يكتشف العلماء موارد جديدة قد تساعدنا في الوقوف على أولئك الأقوام .

فزمران مثلاً ، لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد ورد لدى (بلينيوس) اسم قبيلة عربية دعاها (Zamareni) ، وهذا الاسم قريب من (زمران) ، لهذا رأى بعض العلماء احتمال وجود صلة باسم هذه القبيلة القطورية[2] ، كما ورد اسم موضع يقال له (زبرم) (Zabram) يقع غرب مكة ، يرى بعض الباحثين احتمال وجود صلة له بتلك القبيلة[3] . غير أن من الصعب الحكم أن أحد هذين الموضعين هو (زمران)[4] .

وأولد أهل الأخبار لـ (زمران) ولداً سموه : (المزامير) ، وهو في نظرهم جدّ (المزامير الذين لا يعلمون)[5] . وليس في التوراة ولد لـ (زمران) اسمه (المزامير) صفتهم أنهم لا يعلمون . وليس للفظة أية صلة بـ (المزامير) التي هي أغان أو موشحات ترتل على صوت المزمار لتمجيد الله . وتقسم الى خمسة كتب ، يختم كل منها بتسبيحة ، وتكرر لفظة (آمين) مرتين ، أضافها

---

١ الطبري (١/١٦٠) ، (١/٣١١) ، « دار المعارف » ، الكامل ، لابن الاثير (١/٤٨) ، ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .
٢ Enc. Bibli. P. 5419, Pliny, 26, 32, (Grotius).
٣ Enc. Bibli. P. 5419.
٤ Glaser, Skizze, 2, S. 451.
٥ الطبري (١/١٥٩) ، (١/٣٠٩) ، « دار المعارف » .

جامعو المزامير لا مؤلفوها[1] . وهي من لفظـة (مزمور) (Mizmor) في العبرانية و (Mazmor) في السريانية و (Mazmur) في الاثيوبية ، وتقابـل (الزبور) و (الزبر) في القرآن الكريم[2] .

وقد ذكر (ابن النديم) على لسان (أحمد بن عبدالله بن سلام) من مترجمي التوراة والإنجيل ، أن المزامير هي (الزبور) ، وهي خمسون ومئة مزمور[3] . وهو عدد صحيح مضبوط ، يدل على علمه بعدد المزامير ، لأن ما ذكره هو عددها الصحيح .

والعلماء مختلفون فيما بينهم في المعنى (الاثنولوجي) لكلمة (زمران) . ويرى بعضهم أنها من (زمر) ومعناها (تيس جبلي) ، ويقولون إن بني (زمران) اتخذوا ذلك الحيوان (طوطماً) لهم ، ولذلك عرفوا به[4] .

أما (يقشان) ، فيرى (كلاسر) أنه موضع (وقشة) ، وهو مكان من السراة في عسير[5] . ورأى (أوسيندر) انـه (يقش) في اليمن[6] . وذكـر (الهمداني) اسم قبيلة سمّاها (بني وقشة) من قبائل (الجنب)[7] . وذهب فريق من العلماء الى أن اللفظة هي تحريف للفظة (يقطان)[8] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (بني يقسان) ، أي (بني يقشان) لحقوا بمكة فسكنوا بها[9] . ولكنهم لم يشيروا الى بنية على نحو ما جاء في التوراة .

وأما (مديان) (مدان) (Midian) ، فإنه (مدين) في الموارد العربية .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٥١٣/١ وما بعدها) ، Hastings, P. 769.

٢ الاسراء ، السورة رقم ١٧ ، الاية ٥٥ ، ال عمران ، ٣ ، الاية ١٨٤ ، النحل ، ١٦ الاية ٤٤ ، الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٩٦ ، فاطر ، ٣٥ ، الاية ٢٥ ، القمر ، ٥٤ ، الاية ٤٣ ، ٥٢ .

٣ الفهرست (ص ٣٤) .

٤ Hastings, P. 990.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 453.

٦ Osiander, in ZDMG. 10, 31 Enc. Bibli. P. 2564.

٧ صفة (ص ١١٦) .

٨ Enc. Bibli. P. 2564, Hastings, P. 490, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 44.

٩ الطبري (٣١١/١) ، « دار المعارف » .

وقد ورد ذكر (مدين) و (أصحاب مدين) في مواضع من القرآن[1] . ورد على سبيل العظة والتذكير بمصير يشبه مصير (مدين) ، وأشار الى نبيهم (شعيب) : (والى مدين أخاهم شعيباً)[2] . وورد اسمهم في سورة (التوبة) مع قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم[3] ، وورد مثل ذلك في سورة (الحج)[4] . ومما جاء في القرآن على لسان شعيب ، قوله يخاطب أهل مدين : « يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره ، قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها، ذلكم خيرٌ لكم ان كنتم مؤمنين »[5] . وورد في سورة هود ما يشير أيضاً الى أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فاستحقوا العقاب والعذاب،وذلك لترهيب أهل مكة ، وكانوا تجّاراً ، من نقص المكيال والميزان ، لئلا يصيبهم ما أصاب قوم شعيب حيث أصابهم الهلاك .

ويظهر من ذكر (الرجفة) أن حدثاً أرضياً ، هزة أو هياج حرّة ، أصابهم ، فأثّر فيهم[6] . وهذا ممكن جداً ، لأن أرض مدين من مناطق الزلازل والحِرار .

ولورود اسم (مدين) وقصة (شعيب) في القرآن الكريم ، عني المفسرون وأصحاب قصص الأنبياء بجمع ما ورد عن أهل مدين وأخيهم شعيب من أخبار، غير انهم لم يجدوا في ذاكرة من تقدمهم شيئاً ، فاستعانوا بما ورد عند يهود . وقد أضاف الأخباريون الى ذلك شيئاً من القصص الشعبي ، وشيئاً ابتكروه ، فأصبح (شعيب) (شعيب بن نويت بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين ابن ابراهيم)[7] . وقد ذكر الطبري وغيره من المفسرين والمؤرخين ان اسم (شعيب) (يثرون) (يثرون) (يثرو)[8] ، وقد أخذوا ذلك من أهل

---

١ الاعراف ، ٧ ، الاية ٨٥ ، التوبة ٩ ، الاية ٧٠ ، هود ، ١١ ، الاية ٨٤ ، ٩٥ ، طه ، ٢٠ ، الاية ٤٠ ، الحج ، ٢٢ ، الاية ٤٤ ، القصص ، ٢٨ ، الاية ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٥ ، العنكبوت ، ٢٩ ، الاية ٣٦ .
٢ الاعراف ٧ ، الاية ٨٥ .
٣ التوبة ٩ ، الاية ٧٠ .
٤ الحج ٢٢ ، الاية ٤٤ .
٥ الاعراف ٧ ، الاية ٨٥ .
٦ العنكبوت ٢٩ ، الاية ٣٦ .
٧ مروج الذهب (٢٨/١) .
٨ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

الكتاب ولا شك ، ففي التوراة ان (موسى) نزل على أهل (مدين) ، بعد هربه من (فرعون) ، وتزوج ابنة كاهن (مدين) (مديان) (يثرون) ، واسمها (صفورة) ، فولدت له ولداً دعاه (جرشوم) (كرشوم) . فرأى المفسرون والأخباريون ان شعيباً المذكور في القرآن الكريم هو (يثرون) التوراة . ويرى (بول) (Buhl) ان ذلك لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وانما حدث هذا بعد هذا العهد[1] .

وقد وضع بعض أهل الأخبار نسباً عجيباً مضحكاً لـ (شعيب) ، فجعلوه (يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن ابراهيم)[2] . وتعقّل آخرون فقالوا: انه (شعيب بن ميكيل) من ولد مدين[3] . وقيل غير ذلك . وكل هذا من وضع أهل الأخبار ، وأهل الكتاب الذين أمدّوهم بمثل هذه الأنساب والقصص، ولم يتورعوا من ادّعاء انهم وجدوا ذلك في كتب الله .

وقد عرف (يثرو) (Jethro) (Jether) بـ (رعوئيل) (Reuel) أيضاً في التوراة[4] . كما عرف بـ (حوباب بن رعوئيـل) في موضع آخر[5] . ويظهر ان خطأً قد وقع في كتابة الاسم الثاني أو الأول ، ولهذا صار (رعوئيل) في سفر الخروج و (حوباب بن رعوئيل) في سفر العـــدد . ونرى ان الاسم الذي ذكره (المسعودي) وغيره من أهـل الأخبـــار لـ (شعيب) الذي هو (يثرو) يختلف مع اسمه المذكور في التوراة . ويرى بعض الباحثين ان كلمة (يثرو) ليست اسم علم له ، وانما هي كناية عن وظيفتـه ، وهي الكهانة ، فقد كان كاهناً في قومه،والكاهن هو (يثرو) في بعض اللغات العربية الجنوبية ، وأما اسمه ، فهو (رعوئيل) أو (حوباب بن رعوئيل)[6] .

وقد جعل الناس لشعيب قبراً زعموا انه على مقربة من (حطين) في موضع سماه (ياقوت) (خيارة)[7] . وقال له (بول Buhl) (خربة مدين)[8] .

---

١ Enc. Vol. 4, P. 389, J. Horovitz, Koranische Untersuchungen, Berlin, 1916, S. 119. ff.

٢ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

٣ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

٤ الخروج ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٨ .

٥ العدد ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٩ .

٦ Hastings, P. 465.

٧ البلدان (٢٩٩/٣)

٨ Enc. Vol. 4, P. 389.

وقد ورد خبر (مدين) في غزوة (زيد بن حارثة) لجذام في (حسمى)[1]. ويظهر من بعض الموارد الإسلامية أن (مدين) كانت في صدر الإسلام من أرض (جذام) ، وانها كانت اذ ذاك أكبر من (تبوك). وبها بئر زعم انها البئر التي استقى منها موسى[2] .

ويظهر من شعر (كُثَيِّر عزّة) انه كان في أيامه بمدين جماعة من الرهبان، يتعبدون ، ويبكون من حذر العقاب[3] . وورد اسم بطن يقال له (بنو المدّان)، كما ورد ذكر (مدان) في غزوة (زيد بن حارثة) بني جذام ، ويقال له (فيفاء مدان)[4] . (والمدان) اسم صنم أيضاً ، وبه عرف (بنو عبد المدّان)[5] .

وفي التوراة ان (المديانيين) كانوا برفقة (الإشماعيليين) لما بيع (يوسف)[6] . وأن موسى نزل عندهم وتزوج فيهم : أخذ ابنة (يثرون) كاهن (مديان) (مدين)[7] . وفي موضع آخر أن (يثرون) من (بني القيني) (Kenite)[8] ويظن أن (بني القيني) هم فرع من فروع (مديان)[9] .

---

١ ابن هشام (١/٩٩٤) « طبعة وستنفلد » .
٢ صفة (١٢٩) ، اللسان (١٧/٢٨٩) ، البلدان (٨/٤١٨) ، ابن خرداذبـــه ، المسالك (ص ١٢٩) ، « طبعة دى غويه » ، ابن رستة ، الاعلاق (طبعة دى غويه (ص ١٧٧) ، احسن التقاسيم ، (ص ١٥٥) ، « طبعة دى غويه » ، البلـــدان لليعقوبي (ص ٣٤١) ، « طبعة دى غويه » ، البكري ، معجم ، (٢/٥١٦ فمـــا بعـدها) ، « طبعـة وستنفلـد » .
٣ البلدان (٨/٤١٨)
٤ اللسان (١٧/٢٨٩) .
٥ « والمدان : صنم ، وبنو المدان بطن » ، اللسان (١٧/٢٨٩) ، Enc. Bibli. P. 3002.
٦ « فمر قوم مدينيون تجار ، فجذبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعـــوه للاسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا بيوسف الى مصر » التكوين ، الاصحاح السابع والثلاثون ، الاية ٢٨ .
٧ الخروج ، الاصحاح الثالث ، الاية ١ وما بعدها ، « وكان موسى يرعى غنـــم يثرو حميه كاهن مدين، فساق الغنم الى ما وراء البرية ،حتى افضى الى جبل الله حوريب » .
٨ القضاة ، الاصحاح الاول ، الاية ١٦
٩ Hastings, P. 616, Enc. Bibli. P. 3080.

وقد اتحد (المديانيون) مع (مؤاب) ضد اسرائيل[1] . وفي أيام (جدعون) (Gideon) كان المديانيون قد ضايقوا العبرانيين مضايقة شديدة ، وكانوا قد اتفقوا مع العمالقة و (بني المشرق) ، فتمكن (جـدعون) من اخراجهم . وقد ورد في سفر (القضاة) اسم أميرين من أمراء المديانيين ، هما (غراب) (Oreb) ، و (ذئب) (Zeeb)[2] وورد في الإصحاح الثـامن من القضاة اسم ملكين أو (شيخين) من (مديان) (مدين) هما : (زبح) (Zebah) و (صلمناع) (Zalmuna)[3] . والظاهر أنه لم يعد للمديانيين شأن منذ هـذا العهد ، فلم يرد عنهم شيء يذكر ، ولعلهم ذابوا في القبائل العربية الأخرى[4] .

ويفهم مما جـاء في (القضاة) أنهم كانوا فرعـاً من (الإشماعيليين)[5] . والذي يفهم من مواضع متعددة من أسفار التوراة أن مواطن (المديانيين) كانت تقع شرق العبرانيين[6] . والظاهر أنهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين،واتخذوا لهم هناك مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمداً طويلاً بعد هـذا التأريخ حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة[7] . وقد ذكر (بطلميوس) موضعاً يقال له (مودينا) (Modiana) على ساحل البحر الأحمر ، يرى العلماء أنـه موضع (مدين) ، وهو ينطبق على موضع أرض مدين المعروفة في الكتب العربية[8] .

وذكر (يوسفوس فلافيوس) المؤرخ اليهودي المعروف مدينة سماها (Madiana) وقال إن موسى زارها[9] . وذكر (بطلميوس) مدينة أخرى سماها (Madiama)[10]، وقـد أشار المؤرخ (أويسبيوس) (Eusebius) الى مدينة دعاها (مديم) (Madiam) ، قال إنها سميت بهذا الاسم نسبة الى ولد من أولاد (قطورة) زوج ابراهيم ، وهي تقع في بادية الـ (سَرسَين) (Saracens) الى شرق

---

١ القضاة ، الاصحاح السادس ، الاية ٢٣ .
٢ القضاة ، الاصحاح السابع ، الاية ٢٥ ، الاصحاح الثامن ، الاية ٣ .
٣ القضاة ، الاصحاح الثامن ، الاية ٦ وما بعدها .
٤ Hastings, P. 616.
٥ القضاة ، الاصحاح الثامن ، الاية ٢٤ Enc. Bibli. P. 3081.
٦ Enc. Bibli. P. 3081, Hastings, P. 616.
٧ Enc. Bibli. P. 3081.
٨ Enc. Bibli. P. 3081, Hastings, P. 616, Ptolemy, VI, 7, 27, Enc. Vol. 3, P. 104.
٩ Josephus, Archaeologia, II, 257, (Naber), Musil, Hegaz, P. 278.
١٠ Ptolemy, Geography, VI, 7, 27, Enc. Bibli. 3081.

البحر الأحمر . ويرى (موســل) أن (Madiama) أو (Madiam) هي (مدين)[1] .

ويظهر من التوراة أن (المدينين) قد غيّروا مواضعهم مراراً ، بدليل ما يرد فيها من اختلاطهم بـ (بني قديم) والعمالقــة والكوشيين والإسماعيليين[2] . ويظهر أنهم استقروا بعد ضعفهم في المنطقة التي ذكر (يوسفوس) وجود مدينة (Madiana) فيها ، أي في القرون الأخيرة قبل الميلاد . ويرى (موسل) أنها تقع في جنوب (وادي العربة) والى جنوب وجنوب شرقي العقبة[3] .

ومن الصعب تعيين (بشاق)[4] . فقد رأى بعضهم أنه موضع (يسبق) وهو مكان في شمال سورية ، ذكر في كتابات (شلمنصر) الثاني[5] . وقد ورد في خبر فتوحات (تغلاتبليزر) الأول اسم مكان يقال له (سوخ) (Sukh) أو (شوح) أو (شوخ) (Schukh) ، ويقع شرق (حلب) ، وهو لا يبعد كثيراً عن أرض (يسبق) (Jasbuk) . واسم (سوخ) قريب جــداً من (شوح) الذي يلي اسم (يشباق) في التوراة ، لذا رأى بعض العلماء أنه هو الموضع المقصود ، وأن (يشباق) كناية عن هذا المكان ، عن موضع (يسبق) الذي لا يبعد كثيراً عن (شوح)[6] . ورأى بعض الباحثين أنه (الشبك) ، وهو موضع يقع على طريق (السكة الرومانية) الموصلة الى العقبة[7] .

وأما (شوحا) ، فذهب بعض الباحثين الى أنه موضع (سوخ) (سوخو) (Suchu) (Sukh) المــذكور في نص (أشور بنبال) (٨٦٠) ق. م.[8] . ويقع على الجانب الأيمن من نهر الفرات[9] . وقد ذكرت أن نفراً من الباحثين رأوا

---

١ Musil, Hegaz, P. 279.

٢ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٦ ، الاصحاح السابع والثلاثون الاية ٢٥ ، ٢٨ ، العدد ، الاصحاح الثاني عشر ، الاية ١ ، حبقوق ، الاصحاح الثالث ، الايـــــة ٧ .

٣ Musil, Hegaz, P. 287.

٤ Hastings, P. 392.

٥ Enc. Bibli. 2210, Fr. Delitzch, in "Zeitschrift fuer die Keilschriftforschung und verwandte Gebiete," 2, 91. f., 1885 W. Smith, A Dictionary of the Bible, comprising its Antiquities, Biography, Geography, and Natural History, 2nd. Ed. Glaser, Skizze, 2, S. 445. Glaser, Skizze, 2, S. 445. ff.

٦ Glaser, Skizze, 2, S. 445. ff.

٧ Forster, I, P. 352. f.

٨ Enc. Bibli. P. 4495.

٩ Hastings, P. 852, Enc. Bibli. P. 4495.

أنه مكان (سوخ) المذكور في نص (تغلا تبليزر) الأول . وقد نسب أحد أصحاب (أيوب) الثلاثة ، وهو (بلدد) الى (شوح) فعرف بـ (الشوحي)[1] . ويظن كثير من العلماء أنه من قبيلة أو من أرض عرفت بـ (شوح) ، وأن هذه القبيلة أو الأرض هي (شوحا)[2] .

وقد نسبت التوراة ولدين الى يقشان هما : (شبا) ، و (ددان) . ويجب أن تكون أرض (شبا) هنا في جوار أرض (ددان) ، وذلك لورود (ددان) مباشرة بعد (شبا) ، أي على مقربة من موضع (ديدان) الذي هو (العلا) في الحجاز[3] . وأهل (شبا) المذكورون هنا ، هم جالية سبئية من جاليات سبئية عديدة انتشرت بين اليمن وفلسطين ، وفي السواحل الإفريقية المقابلة لليمن[4] ، كما سأتحدث عن ذلك .

ولم تهب التوراة لشبا أولاداً ، بل تركته عقيماً . إنما وهبت شقيقه ددان عدداً من الأولاد ونسلاً ، هم (أشوريم) و (لطوشيم) و (لأميم) . أما (أشوريم (Ashurim) (Asshurim) ، فإنهم قبيلة عربية من قبائل (قطورة) باجماع علماء التوراة ، ولا صلة لهم بـ (آشور) ، أي الآشوريين . وقد ورد في (التركوم) (Targum) أن (آشوريم) بمعنى سكان مستوطنة أو معسكر[5] . مما يدل على ان هؤلاء العرب كانوا مستقرين مقيمين في مستوطنات ، ولم يكونوا أعراباً .

وقد ورد اسم (آشور) في نصوص معينة مقروناً باسم موضع (عبر نهران) ، وتقع هذه المنطقة من (طور سيناء) الى (بئر السبع) (Beersheba) و (حبرون)[6] وتحاذي (مصرى) في جزيرة العرب على رأي (ونكلر)[7] .

ولا نعرف شيئاً عن (لطوشيم) و (لاميم) ، ويظن (كلاسر) أنهم من سكان (طور سيناء)[8] .

١ ايوب ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١

٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٤٥) ، Enc. Bibli. P. 4495 Hastings, P. 852.

٣ Glaser, Skizze, 2, S. 454.

٤ Hastings, P. 842.

٥ Hastings, 2, P. 59.

٦ Enc. Bibli. P. 346, Glaser, 1155, Winckler, AOF, 28. f. ZDMG. 1895, S. 527, Winckler, Musri, 2, S. 51. ff.

٧ Winckler, Musri, 2, 51.

٨ Glaser, Skizze, 2, S. 460, Enc. Bibli. P. 2768, Hastings, P. 541.

وأما (مديان) (مدين) ، فكان له من الأولاد : عيفة ، وعفـــر ، وحنوك ، وابيداع ، والدعة[1] . فهم اذن قبائل من صلب (مديان) أي مدين .

أما (عيفة) ، فقد ورد ذكره في التوراة على انه اسم قبيلة كانت تحمل الذهب واللبان على الجمال من (شبا) وتبيع تجارتها في فلسطين .

ذكرت مع (مدين)[2]. ويظهر ان (بني عيفة) وأهل مدين، كانوا وسطاء أو تجاراً يذهبون الى (شبا) ، فيحملون الذهب واللبان ، لبيع هذه السلــع الغالية النفيسة في فلسطين . ولا نعرف من أمر هذه القبيلة في الزمن الحاضر شيئاً يذكر[3] .

وأما (عفر) ، فاسم قبيلة يظن بعض العلماء انها (بنو غفار) من (كنانة)[4]، أو موضع (يعفر) على مقربة من (الحنكيـــة) بين تهامة وأبان[5] . ورأى (كلاسر) انه موضع (Apparu) الذي ورد في كتابة تعود الى (آشور بنبال)[6].

وهناك مواضع أخرى اسمها قريب من اسم (عفر) ، فعلى مقربة من (مكة) موضع يعرف بـ (عفر) وبـ (عفار) ، وفي نواحي (العقيق) مكان يسمى (عفاريات)[7] . وذكر (الهمداني) (عفار) و (الخنقة) ، واسماهما قريبان من (عفر) و (حنوك)[8] . غير ان في أعالي الحجاز في منطقـة (مدين) وفي الأردن مواضع تسمى بأسماء قريبة من (عفر) .

وأما (حنوك) ، فلا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد ذهب بعض الباحثين الى انه (الحنكية) ، وهو موضع في شمال المدينة[9] .

وأما (ابيداع) (Abida') ، فيرى (كلاسر) انه موضع من هـــذه

---

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٤ .
٢ اشعياء ، الاصحاح الـ ٦٠ ، الاية ٦
٣ Enc. Bibli. P. 1301, Hastings, P. 231.
٤ Enc. Bibli. P. 1301.
٥ Enc. Bibli. P. 1301.
٦ Glaser, Skizze, 2, S. 449.
٧ صفة (ص ٢٥٣)
٨ البلدان (١٨٧/٦ فما بعدها) .
٩ Glaser, Skizze, 2, S. 449, Enc. Bibli. P. 1960.

المواضع في الحجاز[1]. وقد ورد في النصوص السبئية اسم قريب من هذا الاسم[2]. ولا نعرف من أمر (الدعة) شيئاً حتى الآن[3] .

أبناء كوش :

ونجد في التوراة ان أبناء (كوش) (سبا ، وحويلة ، وسبتة ، ورعمة ، وسبتكا) ، وان (شبا و ددان) هما ابنا (رعمة) . و (كوش) هو ابن (حام) ، والمراد بأبناء (كوش) الحبش وسكان (نوبيا) وهم سود[4] .

أما الأسماء المذكورة ، فهي أسماء قبائل وأرضين عربية معروفة ، لذلك حار علماء التوراة في تفسير الأسباب التي حملت كتبة التوراة على جعـل تلك الأسماء أسماء أولاد لكوش . فرأى بعضهم انها كناية عن قبائل عربية هاجرت من جزيرة العرب الى السواحل الافريقية المقابلة واستقرت في افريقية منذ أزمنة قديمة وكوّنت لها مستوطنات وربما حكومات هناك ، واندمج نسبها في أرض افريقية ، فعُدّت من شعوبها ، فلما دوّن أهـل الأنساب العبرانيون أنساب البشر في أيامهم عدّوها من شعوب افريقية بحسب اقامتها ، وأدخلوها في أبناء (كوش)، أي في أبناء تلك المنطقة التي أقاموا فيها . وذهب بعض آخر الى أن (الكوشيين) المذكورين لم يكونوا من افريقية ، بل من جزيرة العرب ، ورأوا وجود (كوش) أخرى في جزيرة العرب أصحابها هم القبائل العربية المذكورة[5] . واستدلوا على ذلك بما جاء في (أخبار الأيام الثاني) : « وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب (الكوشيين) »[6] . حيث يفهم من هذه الآية ان العرب المذكورين الذين عادوا (يهورام) كانوا يجاورون (الكوشيـــين) ، ويقتضي ذلك على زعمهم وجود (كوش) أخرى ، هي (كوش عربية) ، واياها قصد (سفر التكوين) في هذا المكان[7] .

---

١ Glaser, Skizze, 2, S. 449.
٢ Enc. Bibli. P. 14.
٣ Enc. Bibli. P. 1255.
٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٧ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس(٢/٢٧٨)
٥ Hastings, P. 171.
٦ الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ١٦
٧ Hastings, P. 171.

(Rammanitae) الذي ذكره (سترابو)[1] ، أو موضع (ركمت) (ركمات) (رجمت) (رجمات) المذكور في كتابات المسند . ويخيل إلي أنه كناية عن حلف ضم جماعة من السبئيين الشماليين والديدانيين ورعمة ، في تلك الأيام ، ولذلك صير والداً لشبا وددان ، ثم انفصمت عراه ، فذكرت (رعمة) مع (شبا) تتاجر مع (صور) (Tyr) وذلك في سفر حزقيال[2] ، أو أنه اسم أرض في شمال غربي العربية الغربية يجاور مواضع السبئيين الشماليين والديدانيين . أو في موضع ما من سواحل الخليج[3] .

وأما (سبتكا) ، فلا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . وقد ذهب بعض العلماء الى أنها تحريف لفظة (سبته)[4] . ويرى (كلاسر) أنها في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب[5] .

الهاجريون :

وذكر في التوراة اسم شعب سكن في شرقي الأردن وفي شرقي أرض (جلعاد) ، عرف باسم (الهاجرين) . وهم من العرب أو من (بني إرم) في رأي بعض العلماء[6] . غير أن اطلاق هذه اللفظة على الإسماعيليين ، يدل على ان المراد بهم العرب؛ لأن (الإسماعيليين) هم عرب ، وأن (هاجر) كناية عن أم (إسماعيل) جد القبائل التي تحدثت عنها على رأي التوراة . وقد ذهب بعض الباحثين الى الى أن مراد التوراة من (الهاجرين) الأعراب ، أي البدو وهم عرب أيضاً[7].

وقد امتدت منازل الهاجرين من الفرات الى (طور سيناء) ، فهي منطقة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٨٥/١) ،
Hastings, P. 780, Enc. Bibli. P. 3997, Hommel, AHT. S. 240, Montgomery, Arabia, P. 30, 39, 42, 58, Glaser, Skizze, 2, S. 352, Forster I P. 59. ff.

٢ حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٢٢

٣ Forster, I, P. 59. ff. Glaser, Skizze, 2, S. 252.

٤ Enc. Bibli. P. 4181, Glaser, Skizze, 2, S. 252, Hastings, P. 809.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 252, Forster, 2, P. 59.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٤٤٦/٢ وما بعدها) ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٣١ .

٧ Hastings, P. 325.

أما (سبأ) ، وقد ذكر الاسم بالسين في هـذا الموضع من التوراة ، فإنه اسم شهير معروف ، هو شعب سبأ . وتصور التوراة وجود (سبأ) في (كوش) ، يشير الى انتشار السبئيين في افريقية ، ووقوف العبرانيين على ذلك ، وعندي ان ذكر السبئيين مرة بـ (شبا) أي بالشين المعجمة ، ومرة بالسين المهملة ، انما وقع من كتبة الأسفار ، كتبوه بالشين على وفق النطق العبراني ، وكتبوه بالسين على نحو ما ينطق به في العربية ، فظهر الاسم وكأنه اسم شعبين متباينين ، ولا سيما في الموضع المذكور ، حيث ظهر اسم (سبا) بالسين ، ابن من أبناء (كوش) ، بينما ظهر بالشين أي (شبا) ابن من أبناء رعمة وشقيق لـ (ددان) على حين ورد بالشين أيضاً في أولاد يقطان . والظاهر ان المورد الذي استقى منه كتبة الأسفار هذه الأسماء سمّوها بالشين من اخوانهم العبرانيين الذين كانوا على اتصال بالسبئيين ، وذلك على وفق نطقهم ، وقد كان هؤلاء السبئيون من سكان اليمن وأعالي الحجاز ، فأطلقها عليهم بحسب نطق العبرانيين بها ، وسمع عن السبئيين الآخرين وهم من دعاهم بـ (الكوشيين) من العرب ، فضبطها بالسين . وفرّق بين الأنساب على طريقة العبرانيين من نسبة الأقوام الى المواضع التي تقيم من ينسبونهم بها .

وأما (حويلة) ، فقد تحدثت عنها في كلامي على أبناء (يقطان) .

وأما (سبتة) (Sabta) ، فقد رأى بعض العلماء انها قبيلة من قبائل جزيرة العرب ، يجب أن تكون مواطنها بين (سبأ) و (رعمة) ، ورأى آخرون انها على ساحل الخليج[1] ، على حين رأى آخرون انها (Sabota) أي (شبوة) عاصمة حضرموت ، ورأى (كلاسر) انها في اليمامة[2] .

وأما (رعمة) (Raamah) ، فإنه والد (شبا) و (ددان) (ديدان) ، ولكونه أحد أبناء (كوش) وجب البحث عن أرضـه في افريقيـة ، إلا أن العلماء لا يتفقون على ذلك ، بل يذهب أكثرهم الى ان (رعمة) كناية عن أرض هي في مكان ما من جزيرة العرب ، في غرب الخليج العربي حيث موضع (Regma) الذي ذكره (بطلميوس) ، أو في أرض

---

١ Hastings, P. 809, Enc. Bibli. P. 4181.

٢ Glaser, Skizze, 2, S. 252, Enc. Bibli. P. 4181.

واسعة تشمل البادية : بادية الشأم ، وتضم عدداً كبيراً من الأعراب . وهي منازل (الإسماعيليين) أيضاً ، وقد يكون هذا هو السبب في عدم تمييز التوراة أحياناً فيما بين الهاجريين والإسماعيليين[١] . وقد ذكروا مع (يطور) (Jetur) و (Naphish) ، وهما من الإسماعيليين . وأشير الى اسم رجل من الهاجريين عرف بـ (يازيز) (Jaziz) ، ذكرت التوراة أنه كان يرعى بغنم داوود[٢] في جملة أشخاص كان (داوود) قد أودع اليهم أمر ادارة أمواله[٣] .

وبعد ، فهذا كلام موجز في أثر التوراة على روايات أهل الأنساب والأخبار في أنساب العرب . وقد رأيت أن مروجيه ومدخليه بين العرب هم أهل الكتاب، ومعظمهم من يهود أو من مسلمة يهود . لهذا ترى أسانيد أكثر هذه الروايات تنتهي بـ (كعب الأحبار) و (وهب بن منبه) وأضرابهما . وقد ينتهي السند بـ (ابن عباس) ، من طريق (ابن الكلبي) عن أبيه ، عن أبي صالح[٤] . وللعلماء كلام في هذا السند . و (ابن الكلبي) مورد مشهور معروف في هذه الموضوعات ، لا يقابله في ذلك إلا (ابن اسحاق) الذي غرف ، كما ذكرت في أول هذا الفصل ، من مناهل أهل الكتاب ، وكان يسميهم أهل العلم الأول، فلأ كتابه لذلك بغث كثير ، لاعتماده على هؤلاء وتوثيقه لهم ، ولم يكن لأكثرهم كما يظهر من نقد ما نسب اليهم علم بما جاء في التوراة . وبكتب اليهود الأخرى .

وقد ظهر لي من دراساتي لهذا الموضوع وللقصص الإسرائيلي عامةً أن كثيراً من هذا الذي يرويه أهل الأخبار في النسب وفي القصص ، بعيدٌ عما يرد في التوراة ، وقد اخترع اختراعاً وصنع بغباوة وبجهل ، وحشي بألفاظ عبرانية أو قريبة منها ، بطريقة مضحكة أحياناً ، تدل على خبث واضع الخبر أو جهله ، وعلى سذاجة الناقل عنه وعلى عدم اهتمامه إلاّ بإظهار نفسه بمظهر الواقف على عدم اهتمامه إلا باظهار نفسه بمظهر الواقف على الأخبار ، ولذلك كان لا يهمه إلاّ جمع الأخبار وقصها للناس ، وقد يكون هو واضع تلك الأخبار وصانع ذلك القصص .

---

١ The Bible Dictionary, Vol. I, P. 499, 570.

٢ اخبار الايام الاول ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٣١

٣ Hastings, A Dictionary, II, P. 281.

٤ الطبري (١/٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨) ، « دار المعارف » .

وقد ذكر (الطبري) في تأريخه حديثاً يرجع سنده الى رسول الله ، في أبناء نوح ، زعم أن الرسول قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش) . ذكره بصور مختلفة ، فيها تقديم وتأخير ، أو زيادة في بعض الألفاظ . ويتصل اسانيد هذا الحديث بمختلف صور رواياته الى سند واحد ، هو : (سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ابن جندب ، عن الرسول)[1] .

وهناك أحاديث ، وردت في موضوع نسب عدنان ، فيها نهي عن تجاوز ما وراء ذلك ، وهي وأمثالها يجب أن تكون موضع دراسة مستقلة حقاً ، لنرى سلاسل سندها ، ومقدار قربها أو بعدها من حديث الرسول . فعلى مثل هذه الدراسة نستطيع أن نبني أحكاماً في موضوع رأي النسابين في نسب العرب في أيام الرسول .

ولا بد لي هنا من التنبيه على أن (محمداً بن اسحاق بن يسار) صاحب المغازي والسير ، هو — كما قلت مراراً — من الآخذين عن أهل الكتاب ، الراوين عنهم[2] . وكان يسميهم أهل العلم الأول . وهم بالطبع من هذه الناحية أعلم من غيرهم بأمور التوراة والإنجيل ، بحكم كونهم يهوداً أو نصارى . ولهذا نجد المؤرخين والأخباريين يروون ما ورد من قصص توراتي ومن أنساب توراتية عن (ابن اسحاق) ، فهو اذن أحد الناشرين للإسرائيليات بين المسلمين . والقصص الإسرائيلي الذي نشره ، ليس في الواقع قصصاً اسرائيلياً صافياً خالياً من الكدرة ، بل هو متفاوت في درجات النقاء والصفاء . فيه العكر ، وفيه ما هو قريب مما جاء في التوراة ، وفيه ما هو مطابق لما جاء في (العهد القديم) ، فهو نقي صاف . ويعود سبب هذا الاختلاف الى الموارد التي استقى منها (ابن اسحاق) علمه . ففيها منابع كانت ذات علم ووقوف على كتب أهل الكتاب ، وفيها موارد مدعية أو ليس لها حظ من العلم ، وانما تحدثت اليه على نحو ما كان شائعاً بين أهل الكتاب ، وبينها موارد استباحت الكذب ، ادعاءً للعلم ولأسباب أخرى ، ومن هنا اختلفت موارد (ابن اسحاق) في درجات النقاء والصفاء .

---

١ الطبري (٢٠٩/١) ، « دار المعارف » .
٢ الاكليل (٣١/١) .

و (هشام بن محمد بن السائب الكلبي) ، هو من الآخذين عن أهل الكتاب كذلك ، المدخلين للإسرائيليات ولأنساب التوراة الى المسلمين . وهناك نفر آخرون أخذوا عن أهل الكتاب أيضاً ، يخرجنا ذكر أسمائهم هنا عن صلب الموضوع ؛ ولهذا اكتفيت بذكر هذين الرجلين ، لما لهما من أثر بارز فيمن جاء بعدهم في موضوع الإسرائيليات وأنساب التوراة .

وأما ما نسب الى (ابن عباس) من أقوال لها صلة بالتوراة فيجب دراسته بحذر ونقده نقداً عميقاً ، ومطابقته بما ورد في تلك الأسفار وفي كتب اليهود الأخرى . ونقد سلسلة السند التي تروي تلك الأقوال وتنسبها اليه . ولم يقم حتى الآن باحث لفت نظره هذا الموضوع . لذلك أرجو أن ينتبه اليه العلماء ليبدوا رأيهم فيه ، ورأيهم في الأقوال المماثلة المنسوبة الى صحابيين آخرين وتابعين ، ليكون حكمنا في مثل هذه الأمور حكماً مستنداً الى درس وعلم .

ومما نسب الى (ابن عبّاس) شعر مشهور معروف اليوم بين الناس قالوا إنه نسبه إلى آدم ، وأنه قال : إن آدم نظمه بعد قتل ابنه ، وهو شعر موضوع بالطبع ، وضع على آدم ، على لسان ابن عباس . فقد نسبه بعض العلماء إلى أناس آخرين[1] .

ولم يعرف عن (كعب الأخبار) أنه ألّف أو دوّن شيئاً ، انما عرف عنه انه كان يجلس مجالسه في المسجد يتحدث الى الناس ويستعين بالتوراة أحياناً يقرأ منها عليهم ، ويفسرها لهم[2] . ولكن (الهمداني) يذكر انه كان قد كتب كتباً ، وان أهل (صعدة) ، كانوا قد توارثوا كتبه ورووا منها . قال : « روى الصعديون مرفوعاً الى ابراهيم بن عبد الملك الخنفري ، قال : قرأت كتب كعب الأخبار ، وكان كعب رجلاً من حمير من ذي رعين ، وكان قد قرأ التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وأوسع في العلم[3] . وقال أيضاً : (والوجه ما ذكرنا في أول السيرة من هذا الكتاب ، ما رواه أهل صعدة عن كعب الأحبار في خلق آدم ، ومن خلفه الى نوح ، وخبر الطوفان[4] . وقد

١ الاكليل (١/٣٦) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٧/٧٩) .
٣ الاكليل (١/٥٥) .
٤ الاكليل (١/٥٥) .

نقل (الهمداني) نتفاً عن (الخلق) والأنبياء ونوح والطوفان في الجزء الأول من كتابه : الإكليل ذكر أنها لكعب الأحبار . والظاهر أنه أخذها من رواية أهل صعدة لكتب (ابراهيم بن عبد الملك الخنفري) ، نقلاً من كتب كعب الأحبار[1] .

---

١ الاكليل (١/٥٥) .

ضعفت فيهـا وشائج الدم والنسب ، وكثر فيها التزاوج والتصاهر بين العرب والعجم ، فصعب على الناس فيها المحافظة على أنسابهم ، وقلّت الفائدة من النسب عندهم . ولهذا لم يعتنوا به عناية الأعراب بالأنساب .

فالانتماء الى عشيرة أو قبيلة أو حلف ، هو حماية للمرء ، وجنسية في عرف هذا اليوم . ولهذا صار إخلاص الأعرابي لقبيلته أمراً لازمـاً له محتماً عليه ، وعليه أن يدافع عن قبيلته دفاع الحضري عن وطنه.فالقبيلة هي قومية الأعرابي، وحياته منوطة بحياة تلك القبيلة . ولهذا كانت قوميـة أهل الوبر قومية ضيقة ، لا تتعدى حدودها حدود القبيلة وحدود مصالحها وما يتفق أهل الحل والعقد فيها عليه . ومن هنـا صارت القبائل كُتَلاً سياسية ، كل كتلة وحدة مستقلة ، لا تربط بينها إلاّ روابط المصلحة والفائدة والقوة والضعف والنسب .

والعادة انتساب كل قبيلة الى جدّ تنتمي اليه ، وتدعي انها من صلبه ، وان دماءه تجري في عروق القبيلة ، وتتباهى به وتتفاخر ، فهو بطلهـا ورمزها ، وعلامتها الفارقة التي تميزها عن القبائل الأخرى . وليس ذلك بدعاً في العرب ، بل إنّا لنجد الأمم والشعوب الأخرى تنتمي الى أجـداد وآباء . فـ (هيلين) (Hellen) ، هو جدّ أهل (دورس) (Dorus) ، ومنه أخذ (الهيليون) اسمهم هذا . وكان للرومان وللفرس وللهنود وللأوروبيين أجداد انتموا اليهم واحتموا بهم وتعصبوا لهم ونسبوا أنفسهم اليهم على نحو ما نجده عند العرب والإسرائيليين وبقية الساميين[1] .

وفي التوراة ولا سيما (أسفار التكوين) منه ، أبرز أمثلة على النسب ، نجد فيها أنساب الأنبياء والشعوب ، وأنساب بني اسرائيل . يسبق النسب في العادة جملة : (وهـذه مواليد) (وإلّه تولدت) ، ثم يرد بعدها النسب[2] . أي أسماء من يراد ذكر نسبهم . قد يذكر نسب الأب والزوجة والولد،وقد لا تذكر الزوجة ، بل يكتفى بالأب وبأولاده . وقد لا يذكر الولد . والذي يقـرأ هذه الأسماء يقرأها وكأنها أسماء أشخاص حقاً . ولكننا اذا قرأناها قراءة نقد ، نرى أن بعضها أسماء مواضع ومواقع ، أو أسماء قبائل ، وعشائر أو أسماء طواطم ،

---

١ Hastings, P. 285.

٢ راجع السفر العاشر من التكوين ، الاية الاولى Hastings, P. 285.

الفصل الحادي عشر

أنساب العرب

للنسب عند العرب شأن كبير ، ولا يزال العربي يقيم له وزناً ، ولا سيما عربي البادية . فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان ، بل حياته في الغالب . فنسب الإنسان ، هو الذي يحميه ، وهو الذي يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه .

وقد يبدو ذلك للمدني الأعجمي أمراً غريباً شاذاً غير مألوف . ولكن هذا المدني نفسه يعمل بالنسب ويأخذ به ، وإن كان في حدود ضيقة . فجنسيته هي نسبه ، تحميه وتحفظ حقوقه . وليس نسب الأعرابي غير هذه الجنسية ، يحتمي به ، لأنه يصونه ويحفظ حقوقه ويدافع عنه . وهو مضطر الى حفظه ، وإلى عدّ آبائه وأجداده وذكر عشيرته وقبيلته ، لأنه بذلك يسلم ، ويحافظ على حياته. فإن اراد شخص الاعتداء عليه ، عرف ان وراءه قوماً ، يدافعون عنه ويأخذون بحقه من المعتدى عليه . وهو لذلك مضطر الى حفظ نسبه والمحافظة عليه .

وأما كون الحضر أقل عناية بأنسابهم من أهل الوبر ، فلأن الحاجة الى النسب عندهم أقل من حاجة أهل الوبر اليها . فالأمن مستقر، ولدى الحضر في الغالب حكومات تأخذ بحق المعتدى عليهم من المعتدين . ثم ان مجال الاختلاط والامتزاج عندهم أكثر وأوسع من أهل البوادي وسكان الأرياف ، وكلما كانت الحواضر قريبة من السواحل ومن بلاد الأعاجم ، كان الاختلاط أوسع وأكثر ، ولهذا

أي أسماء حيوانات تسمت بها القبائل ، مثل (ذئب) و (كلب) و (أسد) و (ضبة) وأمثال ذلك ، وكلها كناية عن قبائل وشعوب عاشت قبل الشروع في تدوين هذه الأنساب أو في أيام التدوين .

ويظهر من كيفية عرض هذه الأنساب وجمعها وتبويبها أن في العبرانيين جماعة من النسابين اختصت بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يعتني بجمع أنساب الغرباء عن بني اسرائيل ، وربما كان كتبة الأسفار من هؤلاء . فلما شرع كتبة أسفار التكوين بقصة الخلق وبكيفية توزع شعوب العالم وظهور الإنسان على سطح الأرض ، كان لا بد من ذكر الشعوب وأنسابها على أسلوب كتابة التاريخ في ذلك العهد ، فاستعين بما تجمع عند نسابي العبرانيين من علم بالنسب ، وأدرج في هذه الأسفار .

وقد وردت في التوراة في أسفار التكوين وفي (أخبار الأيام الأولى) أسماء قبائل عربية ، رجعتها الى مجموعات ، مثل مجموعة (يقطن) (يقطان) ، ومجموعة الإشماعيلين ، أي الإسماعيليين ، نسل اسماعيل،غير انها لم تشر كعادتها بالنسبة الى كل أنساب البشر الى المورد الذي أخذت منه تلك الأنساب . لذلك لا ندري اذا كانت التوراة قد اقتبست ما ذكرته عن أنساب الأمم من الأمم التي تحدثت عن نسبها ، بأن أوردت تلك الأنساب على نحو ما كان شائعاً متعارفاً عند الأمم المذكورة بالنسبة لنسبها ، أو أنها روتها على حسب ما كان متعارفاً عند قدماء العبرانيين في أجداد البشر وفي أنسابهم ، فدوّنتها على هذا النحو الشائع بين العبرانيين اذ ذاك .

أما النصوص الجاهلية ، فإنها لم تتحدث ، ويا للأسف ، عن مجموعات قبائل على النحو المتعارف عليه عند علماء النسب . ولكنها جاءت بأسماء قبائل عديدة كثيرة ، لم يعرف من أمرها أهل الأخبار والنسب شيئاً . فنحن نقف على أسمائها لأول مرة ، بفضل تلك الكتابات .

وقد أفادتنا الكتابات الجاهلية فائدة كبيرة من ناحية دراسة أسماء القبائل الواردة في كتب النسب والموارد الإسلامية الأخرى ، إذ مكنتنا من الوقوف على الصلات بينها ، وعلى معرفة ما سمي منها بالأب أو الابن أم الأم ، كما عرفتنا على مواطن عديدة من مواطن الخطأ التي وقع فيها النسابون وأصحاب الأخبار، وعلى كثير من الوضع الذي وضع في النسب أو في القصص المروي عن القبائل جهلاً

أو عمداً أو ظهوراً بمظهر العلم والإحاطة بأنساب العرب وأخبارهم ، الجاهليين منهم والإسلاميين .

ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه القحطانية والعدنانية التي يراها أهل النسب والأخبار ، وأقصى ما وجدته فيه قصيدة للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي حوت أسماء قبائل وأسماء مواطنها ومواضعها ، هي : (معد) و (لكيز) و (بكر) و (تميم) و (كلب) و (غسان) و (بهراء) و (إياد) و (لخم)[1] . وهي قبائل بعضها عدنانية وبعضها قحطانية في اصطلاح أهل النسب ، إلا أنني لم أجد فيها أسماء آباء هذه القبائل ولا أجدادها ، ولم أستطع أن أفهم منها أن هذه القبيلة ، هي قبيلة عدنانية ، وأن تلك قبيلة قحطانية ، فقد جاءت الأسماء متداخلة وكل ما وجدته فيها مما يخص النسب ، هذا البيت :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماة ليس فيها أشائب

ولم يرتفع الأخنس بنسب تغلب الى ما وراء وائل من آباء وأجداد .
والحق أن من يقرأ هذه القصيدة دون أن يقرأ اسم صاحبها ، يرى أنها من قصائد الشعراء المتكلفين الذين ظهروا في أيام الدولة العباسية ، ولن يخطر بباله أبداً أنها من نظم شاعر جاهلي . وأنا أريد أن أتجاسر فأقول : إني أشك في صحة نظم ذلك الشاعر لهذه القصيدة ، وأسلوب نظمها يأبى أن يرجعها الى ذلك العهد .

وقد خصص (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) فصلاً بـ (أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، ذكر فيه أسماء بعض من عرف واشتهر بحفظه للأنساب ، ولا سيما من ألف فيهم تأليفاً في النسب . وقد طبعت بعض مؤلفات المذكورين ، وهي متداولة بين الناس . والذين ذكرهم (ابن النديم) هم من اشتهر وعرف وذاع خبره في العراق وفي البيئة التي اتصل بها (ابن النديم) ، وهم من أهل الحواضر في الغالب ، إلا أن بين أهل البوادي والأماكن القصية النائية المنعزلة جماعة كانت قد تخصصت بالنسب ، انحصرت شهرتها في البيئة التي

---

١ المفضليات (ص ٩٥ وما بعدها) ، طبعة السندوبي ، القاهرة ١٩٢٦ م .

عاشت فيها . ولهذا لم يصل خبرهم اليه والينا ، وكثير منهم لم يؤلف في النسب تأليفاً ، وإنما حفظه حفظاً ، شأنهم في ذلك شأن النسّابين الجاهليين ، أو الذين أدركوا الاسلام .

ونجد في كتب الأدب والتواريخ قصصاً عن بعض النسابين في الجاهلية وفي الإسلام ، يثير الدهشة من قدرة وشدة الحافظة عند أولئك النسابين في حفظ الأنساب . وقد عرف أحدهم بـ (النسّابة) ، فقيل : (فلان النسّابة) أو (النسابة) . وقد كان لهم شأن خطير بين قومهم ، لأنهم المرجع في الأحساب والأنساب ، واليهم المفزع عند حصول اختلاف في الأمور المتعلقة بها .

ويذكر أن الخليفة (عمر) أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان ، وذلك عند فرضه العطاء ، « فبدأ بالترتيب في أصل النسب ، ثم ما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان . فقدم عدنان على قحطان لأن النبوّة فيهم وعدنان تجمع ربيعة ومضر ، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوّة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش ، فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وغيرهم ، فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب اليهم حتى استوعب قريشاً ، ثم بمن يليهم في النسب حتى استوعب جميع عدنان[1] . وقد كان هذا التسجيل سنة خمس عشرة للهجرة ، في رواية ، أو سنة عشرين في رواية أخرى[2] .

وذكر أن الخليفة قال : (أيما حي من العرب كانوا في حي من العرب أسلموا معهم فهم معهم ، إلا أن يعترضوا ، فعليهم البيّنة ، كالذي فعله مع (بجيلة) رهط جرير بن عبدالله بن جابر ، وكانوا قد تفرقوا ، واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى . وروي أن عوف بن لؤي بن غالب ألحق نسبه بـ (غطفان) ، والتحق نسب بنيه (بني مُرّة) بغَطَفان ، ويقال إن الخليفة قال : لو كنت مستلحقاً حياً من العرب ، لاستلحقت بني مُرّة ، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين ، مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤي بتلك البلاد . ثم قال لبعض أشرافهم : إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من

---

١ البلاذري ، فتوح (٥٤٩/٣) ، ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة (١١٣/٣) ، بلوغ الارب (١٩٠/٣) .

٢ الكامل ، لابن الاثير (٢١٢/٢) ، اليعقوبي (١٣٠/٢) ، الطبري (١٦٢/٤) .

قريش ، فافعلوا . ولكنهم كرهوا أن يتركـوا نسبهم في قومهم ، ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم »[1] .

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوّنت عليها الأنساب في ذلك الديوان ، ولم يبق منها شيء . ويظهر ان أهل الأخبار لم ينقلوا صورها ، وانما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل على نحو ما ذكرت ، وبالجملة فإن في اشارتهم الى تلك الأسس والقواعد التي سار عليها الخليفة في اتخاذ القربى بالرسول والوضع القائم للقبائل ، فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب في صدر الإسلام .

ويذكر ان الذي قام بوضع مخطط الأنساب وبتسجيل القبائـل والعشائر وفق الخطة التي أشرت اليها ، هو (عقيل بن أبي طالب) ، وهو من الثقات في معرفة الأنساب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وان الذي أشار عليه بتدوين النسب في الدواوين هو (الوليد بن هشام بن المغيرة) لما رآه من عمل الروم في تسجيل العطاء في بلاد الشام[2] .

ولم يقتصر التسجيل المذكور على تسجيل نسب القبائل وحدها ، بل شمل ذلك نسب أهل القرى أيضاً ، كنسب أهل مكة والمدينة والطائف وغيرها . وذلك لأن سكانها وان كانوا من أصحاب المدر ، وقد أقاموا واستقروا في بيوت ثابتة ، الا انهم كانوا كالأعراب من حيث الانتساب الى الآباء والأجداد . وقد رأينا ان عمر كان قد بدأ بقوم الرسول ، وقومه حضر ، من أهل مكة ، الا انهم كانوا لا يختلفون عن أهل الوبر في التعلق بالأنساب وفي حفظها ، لأن حياتهم الاجتماعية وان كانت في قرية ، الا أن غريزة المحافظـة على النفس والدفاع عن الحقوق حملتهم مثل الأعراب على التمسك بالعصبية ، بعصبيـة النسب ، ليتمكنوا من المحافظة على الأمن والسلامة والمال ، لعـدم وجود حكومة قوية تقوم اذ ذاك بتأمين هذه الواجبات . ثم ان هذه الأماكن محاطة بالأعراب ، وبين أهل مكة من كان شبه حضري ، وبيئة مثل هذه لا بد لها من الاحتماء بعصبية النسب ، وبالتزاوج مع الأعراب ، لتكوين رابطة دموية،تؤدي الى عصبية تضطر الطرفين الى الدفاع عن مصالحها المشتركة وتكوين كتلة واحدة تستجيب للنخوة ولنـداء

---

١ شرح المفضليات (ص ١٠١ ، ١١٦) .
٢ البلاذري (٥٤٩/٣) ، الطبري (٢٠٠/٣) ، ابن ابي الحديد ، شرح (١١٣/٣) .

الاستغاثة في ساعة الحاجة والضرورة . ولهذا كان للتزاوج عند العرب أهمية كبيرة في السياسة . ومن هنا نظر سادات القوم والملوك الى التزوج من بنات سادات القبائل الكبيرة نظرة سياسية في الدرجة الأولى وذلك لشد عضدهم ولتثبيت ملكهم ولضبط القبائل ، وبضبطها يستتب الأمن وينتصر على الأعداء . وقد كان لزواج معاوية في الإسلام من (كلب) أثر كبير في السياسة الأموية وفي تثبيت ملكه وملك ابنه يزيد وملك مروان الذي انتصر بهم في معركة (مرج راهط) على القيسيين .

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان للعطاء ، أي لأغراض حكومية رسمية ، فإن أنساب القبائل لم تثبت ولم تستقر الا بعد ذلك بأمد . وآية ذلك ما نجده من خروج قبائل في العصر الأموي من نسب قديم ، ودخولها في نسب آخر جديد . وقد كان شروع النسابين في تسجيل علمهم وتدوينه ، مما ساعد كثيراً ولا شك في تثبيت هذه الأنساب واقرارها،ولا سيا أنساب القبائل المشهورة المعروفة ، وقد وصلت بعض كتب الأنساب ، وطبع قسم منها .

وقد وضع بعض المؤلفين ، مثل الواقدي أبي عبدالله محمد بن عمر المتوفى سنة (٢٠٧ ﻫ) ، مؤلفاً في (وضع عمر الدواوين ، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها)[١] ، الا انها ضاعت ، فحرمنا الاستفادة منها ، ولو بقيت مثل هذه المؤلفات اذن لكان لنا علم قيّم ورأي في كيفية تصنيف القبائل في تلك الأيام .

وقد كان بعض النسابين قد تخصص بنسب جماعة من العرب ، جماعة قومه ومن يرتبط بهم في الغالب . مثل (الزبير بن بكّار) صاحب (كتاب نسب قريش وأخبارها)[٢] ، ومثل (عقيل بن أبي طالب) ، وكان قد تخصص بنسب قريش ، ومثل (أبي الكناس الكندي)،وكان أعلم الناس بنسب كندة، ومثل (النجار بن أوس العَدْواني) ، وكان من أحفظ الناس لنسب (معد ابن عدنان) ، ومثل (عديّ بن رثاث الإيادي) ، وكان عالماً بإياد ، ومثل (خراش بن اسماعيل العِجْلي)،وكان عالماً بنسب ربيعة[٣] . وعن هؤلاء وأمثالهم

١ الفهرست (ص ١٥٠) .
٢ الفهرست (ص ١٦٦) .
٣ الفهرست (ص ١٤٦)

أخذ أهل الأنساب علمهم بالأنساب، ووضعوا كتباً في نسب القبائل أو في أنساب العرب ، أو في أنساب جماعة منهم .

ولتسجيل (عُمَر) للأنساب شأن كبير بالنسبة الى الباحثين في تطور النسب عند العرب ، لأنه ثبت بذلك الأسس ووضع القواعد للنسابين في الإسلام وقلل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب، بسبب الاختلاط ، وعليه سار المسلمون في تقسيم العرب الى أصلين . ولا بد أن يكون لهذا التقسيم أصل قديم ، يرجع الى ما قبل عمر . أقره الخليفة ، وجعله أساساً له في التقسيم الذي بقي مرعياً متعارفاً عليه بين النسابين الى اليوم . ويمكن أن نقارن هذا العمل ، أي تسجيل النسب وتثبيته في سجلات ، بالعمل الذي قام به (عزرا) في تثبيت أنساب اليهود وتدوينها ، وفي تدوين انساب الغرباء ، لتستقر بذلك الأنساب فسار من جاء بعده من النسابين في تعيين النسب على اساس ذلك التدوين[1] .

وفي القرآن الكريم آيات تشير الى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم ، ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نظرهم بالنسبة اليها ، ولا يشعر في موضع ما منه بوجود تلك الفكرة التي ألحّ على وجودها أهل الأخبار ، وهي انقسام العرب الى ثلاث طبقات أو طبقتين ، ووجود نسبين أو جملة أنساب للعرب ، ولم يرد فيه اسم (عدنان) ولا (قحطان) ، ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار ، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما : عدنان وقحطان .

بل كان ما ورد في القرآن يشعر أن العرب كانوا ينظرون الى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد ، هو : (ابراهيم) وأن (ابراهيم) أبو العرب : (وجاهدوا في الله حق جهاده . هو اجتباكم . وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين ...)[2] . فلم يفرق بين عرب قحطانيين وعرب عدنانيين . ورُوي : ان الرسول قال : (كل العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام)[3] .

---

١ Hastings, P. 286.

٢ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، الاية ٧٨ .

٣ ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥) .

بل حتى الشعر الجاهلي ، لا نجد فيه اشارة واحدة تفيد اعتقاد الجاهليين بوجود أصلين أو ثلاثة أصول أو أكثر لهم . وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان وفخر بعدنان أو معدّ أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجداد التي ينتهي اليها (الشعب) أو (الجذم) . وأما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في كتب النسب أو الأخبار والتواريخ ، فهي من روايات الإسلاميين . ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح أن يكون جاهلياً ، ومنه ما قيل قبيل الإسلام ، ولا يصح كل الشعر الجاهلي أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام .

كذلك لا نجد في شعر الجاهلية سلسلة نسب قحطان أو عدنان . ولا نجد في الأخبار ما يفيد وقوف أهل الجاهلية عليها . وهي سلسلة أخذت أسماؤها من التوراة ، وبعضها أسماء محرفة موضوعة على شاكلة الأسماء التوراتية . أما في الحديث النبوي ، فقد ورد أن الرسول انتسب الى (أدد) ، وهو والد (عدنان) ، ثم قال : (كذب النسابون)[1]. وفي كل ذلك دلالة على أن أسماء آباء قحطان وعدنان ، إنما دونت وتثبتت في الإسلام . أما قبل الإسلام ، فلعل بعضهم وفي أيام الرسول ، كان قد تلقن من اليهود نسب قحطان ، وان بعض اليهود لقن العرب نسباً لعدنان ، فلما لاكت الألسنة تلك الأنساب ، وسمعها الرسول قال : (كذب النسابون) .

أما أسماء أبناء قحطان وعدنان فما دون ذلك ، فإنها أسماء عربية في الغالب ، وينقطع منها أثر التوراة وأثر الأسماء التوراتية ، مما يدل على ان النسابين العرب كانوا على علم وبصيرة بتلك الأسماء ، وأنها كانت معروفة عندهم . وهي أسماء لا ترد في التوراة ولا خبر لها عند اهل الكتاب .

وقد ذهب (دوزي) الى وجود فروق أساسية بين القحطانيين والعدنانيين ، حتى ذهب الى وجود اختلاف بين نفسية كل جماعة من الجماعتين[2] . وأنا لا أريد أن أنكر عليه وجود العداء الذي كان قد استحكم بين القبائل التي تنتسب الى معد أو الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر عليه تهجم شعراء اليمن على قبائل معد ،

---

١ نسب عدنان (ص ١) .

٢ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Bd. I, S. 73, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 89, Nallino, Reccolta, Vol. 3, P. 73.

أو عدنان ، ولا تهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمية الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر افتخار اليمانيين بانتسابهم الى اليمن ، ولا افتخار العدنانيين بانتسابهم الى عدنان أو مضر أو معد أو غير ذلك من أسماء الشعوب والأجذام ، لا أريد أن أنكر شعر (امرىء القيس) في افتخاره بنسبه في اليمن[1] ، ولا أن أنكر شعر غيره من الشعراء اليمانيين أو الشعراء العدنانيين في الافتخار باليمن أو بمضر أو بمعد. ولكنني لا أريد أن أنكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعض، وافتخار القبائل العدنانية بعضها على بعض ، وهجاء القبائل القحطانية بعضها لبعض ، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعضها هجاء لا يقل عن هجاء اليمن لمعد أو هجاء معد لليمن . فهل يصح أن يتخذ هذا الهجاء سبباً لوضع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل ؟ وهل يصح أن نجعل هذا الهجاء حجة على تباين أصل القحطانيين ، وعلى تباين أصل العدنانيين ؟ ان جاز ذلك، وجب علينا اذن اعادة النظر في كل ما هو مكتوب عن أصول القبائل وفي كل ما هو مدوّن في كتب النسب والأخبار .

هذا (سلامة بن جندل السعدي) ، وهو من مضر ، يحمل في شعره على معدّ ، ويهجوها هجاءً مرّاً[2] ، وهذا (قيس بن الخطيم) لسان الأوس يحمل على الخزرج ، ويردد ذكريات الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج بمثل الشدة التي تجدها في شعر الهجاء الذي قاله العدنانيون في القحطانيين، والقحطانيون في العدنانيين . إنه ذكر تلك الأيام لا لمجرد الفخر والتباهي ، بل ليثير في نفوس الأوس الأحقاد القديمة ، وليزيد في تلك النيران نيراناً . لقد ذكرهم (بيوم الربيع)[3] ، وذكرهم بـ (يوم السرارة)[4] ، وذكرهم بـ (يوم مضرس

---

١ (أنا معشر يمن) ، Muh. Stud. Bd. I, S. 89.

٢ همت معد بنا هما فنهنهها عناطمان وضرب غير تذبيب
بالمشرفي ومصقول اسنتها صم العوامل صدقات الانابيب
المفضليات (ص ٢٢٧) .
وقال الجميع الاسدي :
سائل معدا من الفوارس لا اوفوا بجيرانهم ولا غنموا
المفضليات (ص ٤٥) .

٣ شعر قيس (ص ٧)

٤ شعر قيس (ص ٢٠)

ومعبس)[1] ، وهو يوم دارت فيه الأيام دورتها على الأوس ، فقتل منهم عدد كبير ، وانهزم أكثرهم الى بيوتهم وآطامهم ، حتى خرج النـاس من طوائفهم الى مكة يستعينون على الخزرج ، وذكرهم بأيامهم الأخرى[2] . كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة،ليس فيها لين ولا رفق . إنه ينظر الى الخزرج نظرة عداء وحقد، نظرة تشعر منها أن الأوس جنس وأن الخزرج من جنس بعيد آخر . لقد ذكر قريشاً بخير ، وذكر أنها ستحمل عنهم حرب الخزرج ، وذكر أنهم لو التحقوا بأبرهة اليماني أو بنعمان أو عمرو[3] ، لنالوا من هؤلاء كل تقـدير ، ولجعلوا لهم جاهاً أي جاه .

ذكر أبرهة حاكم اليمن ، وذكر غسان ولخماً ، وذكـر أهم من ذلك كله قريشاً على انها ستحمل الحرب وستقابل الخزرج عما قريب . وقريش من عدنان، والأوس والخزرج من قحطان ، ولم نجد في شعره ما يذكر برابطة النسب بين الخزرج والأوس. ولم يرد في شعره اسم قحطان أو عدنان . والقصيدة التي ذكر فيها هذا اليوم هي من أقدم قصائد هذا الشاعر الذي اضطرت قبيلته (الظفر)، ومعها (عبد الأشهل) الى مغادرة يثرب والتفتيش عن حليف يساعدها في العودة الى ديارها ، فذكر قيس قريشاً ، وكأنه يذكر قبيلة قريبة من قبيلته[4] ، مع انها من نسب آخر في رأي النسابين .

وفي كتب الأدب والدواوين شعر كثير ينسب الى شعراء جاهليين وشعـراء مخضرمين وشعراء اسلاميين ، فيه هجاء عنيف من شاعر قحطاني لقبائل قحطانية، ومن شاعر عدناني لقبيلة عدنانية، وفيه مدح وفيه إغراق من شاعر قحطاني لقبائل عدنانية ، وهجوم عنيف على القحطانيين ، وهكذا. ولو أردنا شرح ذلك وسرد الأمثلة ، لأخذ ذلك منا وقتاً طويلاً يخرجنا عن صلب الموضوع ، وينقلنا الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا البحث .

ثم إن علينا أن نحسب حساباً لأمر هذا الشعر المروي في المدح والفخر وفي

---

١ شعر قيس (ص ٣٢) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق هرشفلد) (ص ٨٣ فمـا بعـدهـــا) .
٢ شعر قيس (ص ٣٢) .
٣ شعر قيس (ص ٦٧) (القسم الالماني) .
٤ شعر قيس (ص ٦٦) (القسم الالماني) .

الذم والهجاء ، وهو عندي أوسع باب من أبواب الشعر يحتمل النقد ، واثارة الشكوك حوله . وقد خبرنا من الكتب أن القبائل كانت تستأجر الشعراء لقول المدح أو الذم ، وانها كانت تعد الشاعر منحة من منح الله على القبيلة ، لأنه لسانها الناطق والذائد عنها بشعره ، يدافع عن قبيلته ، ويهاجم أعداءها، ويتهمهم بكل ما يصل اليه فنه من الهجاء ورمي التهم ، كائنين ما كانوا قحطانيين أو عدنانيين . وقد اقتضت طبيعة الخصومة التي زادت حدتها في الإسلام بين يمن ومضر وضع شيء كثير من هذا الشعر شعر المنافرة والمفاخرة بين عدنان وقحطان، وهذا أمر وقع ، مفروغ منه ، لا شك في صحته وثبوته ، اقتضته ظروف السياسة ، فيجب الانتباه له حين التحدث عن نزاع قحطان وعدنان[١] .

وترينا الأخبار أن ما نسميه بنزاع قحطاني وعدناني لم يكن شديداً في الجاهلية بين القبائل التي كانت تقيم في الأنحاء الشمالية من جزيرة العرب ، أي بين تلك القبائل التي رجع النسابون نسبها بحق أو بغير حق الى عدنان أو قحطان ، بمثل تلك الشدّة التي تظهر في النزاع الذي تحدثوا عنه بين القبائل التي كانت تعيش في اليمن أو في الحجاز . وهذا أمر ذو بال ، يجب أن يحسب له كل حساب عند الحديث عن نزاع عدنان وقحطان[٢] .

وترينا الأخبار كذلك أن الخصومات التي وقعت بين القبائل العدنانية نفسها ، أو بين القبائل القحطانية نفسها ، لم تكن أقل عنفاً وضراوةً من ذلك النزاع الذي وقع بين من نسميهم بالقحطانيين ومن نسميهم بالعدنانيين . لقد اتخذ شكلاً عنيفاً، شكلاً يجعلك تشعر أن تلك القبائل كانت تشعر انها قبائل متباعدة لا يجمعها شمل ، ولا يربط بينها نسب ، ولا تجمعها جامعة دماء على النحو الذي يرويه ويذكره أهل الأنساب والأخبار .

والغريب أنك في كل ذلك النزاع المرّ العنيف ، لا تسمع فيه انتساب كل العرب الى عدنان أو قحطان ، وانما تسمع فيه فخراً بأسماء القبائل أو بأسماء الأحلاف الداخلة في عدنان أو في قحطان ، تسمع فيه اسم (معد) أو اسم (يمن) أو (نزار) أو (مضر) أو غير ذلك ، ولا تسمع فيه اسم الجدّين

---

١ Muh. Stud. I, S. 91.

٢ Muh. Stud. I, S. 91.

الأكبرين المذكورين . فماذا يعني هذا ؟ وعلام يدل ؟

ويمن عند أهل الأنساب والأخبار وفي العرف ، كناية عن (قحطان) ، و (قحطان) عندهم أيضاً وفي العرف كناية عن (يمن) وعن الشعوب التي ترجع نسبها الى (يمن) . أما (معد) و (مضر) و (نزار) ، فكناية عن (عدنان) أو عن أحلاف من أحلاف عدنان .

وأنت اذا ما أردت أن ترسم حدوداً فاصلةً بين (قحطان) و (عدنان) ، أي بين (يمن) و (معد) ، فإنك تستطيع أن ترسمها بسهولة اذا ما اعتبرت (قحطان) كناية عن اليمن ، وان (عدنان) كناية عن (قريش) والقبائل التي ترجع نسبها الى نسب قريش . وحدود أرض قريش وحدود أرض اليمن معروفة واضحة . أما اذا أردت أن ترسم حدوداً فاصلة،وأن تضع معالم واضحة بيّنة بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية ، استناداً الى روايات أهل الأنساب والأخبار والى الشجرات التي رسموها لأنساب العرب طرّاً ، فإنك ستخفق حتماً، وسيخيب عملك من غير شك . ذلك لأن أهل الأنساب لم يسيروا في تقسيمهم العرب على وفق قواعد ثابتة وأسس واضحة مرسومة ، مثل اختلاف في ملامح جسمانية ، أو تمايز في أمور عقلية أو نفسية أو لغوية ، أو اختلاف في مواقع جغرافية ، بل ساروا وفقاً للعرف والشائع ، فسجلوا الأنساب على وفق الشائع بين الناس عن النسب في ذلك العهد .

وأنت اذا أردت تطبيق ما عندك من علم في (الأثنولوجيا) وفي(الأنتروبولوجي) وفي العلوم المشابهة الأخرى ، على التقسيم الثنائي للعرب ، فستجد نفسك حائراً تائهاً لا مجال لقواعد علمك في هذا المكان . فبين القبائل التي تنتمي الى(قحطان) مثلاً تباين كبير في الملامح وفي العقلية وفي اللغة ، ويجعل من غير الممكن تصور وجود وحدة دموية تجمع شمل هذه القبائل،وجدّ واحد انحدر من صلبه هؤلاء ، وبين القبائل العدنانية اختلاف كذلك في الملامح وفي اللغة ، يضطرك الى القول بفساد نظرية النسابين في أصل هذه القبائل . ولا بد عندئذ من اعتبار هذا النسب رمزاً أخذ من صراع قديم ، أو من أحلاف قديمة ، فصير جدّين لجماعتين .

وكيف تتمكن من اقناع الباحث الحديث في العلوم المذكورة بوجود وحدة في الملامح الجسمية وفي الصفات العقلية ، ووحدة في اللسان بين القبائل القحطانية الجنوبية ، الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية وبين القبائل القحطانية

الشمالية ، مثل غسان ولخم وكلب وكندة وغيرها ، على حين يرى بين الجماعتين فروقاً واضحة بيّنة في كل شيء . حتى انه يستطيع أن يشير الى القحطاني الجنوبي حالاً عند رؤيته له ، على حين لا يستطيع أن يميز القحطاني الشمالي من العدناني ، ولا أن يعرفه الا بالاستفسار منه . الصحيح اننا اذا أخذنا بالملامح وبالأمور الأخرى المذكورة،خلصنا الى نتيجة تقول لنا ان الفروق بين القحطانيين والعدنانيين هي أقل جداً من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين . وهي نتيجة ليست في مصلحة أهل الأنساب بالطبع،تبين لنا ان قضية قحطان وعدنان قضية اعتبارية لا غير .

بل خذ القحطانيين الجنوبيين ، وهم لبّ القحطانية ومادتها ، ترَ ان القحطاني الساكن على السواحل الجنوبية يختلف في سحنته عن القحطاني الساكن في المرتفعات والهضاب ، والجبال . وان الساكن على السواحل المقابلة للسواحل الافريقية يختلف في ملامحه الجسمية عن الساكن على السواحل المقابلة للهند ، وان سكان حضرموت أو عمان أو مسقط يختلفون في الملامح والسحن عن اخوانهم القحطانيين الساكنين في اليمن وفي نجران وفي الأقسام الجنوبية من المملكة العربية السعودية . فهل يكون هذا الاختلاف دليلاً على قحطانية بالمعنى الذي يزعمه أهل الأنساب ؟

ولقد ذهب بغض الباحثين في علم الأجناس البشرية (الأنتروبولوجي) (Anthropology) الى ان العرب الجنوبيين هم من أصل حامي ، وان وطنهم الأصلي هو افريقية [1] . وقد ذهب بعض آخر الى وجود شبه كبير في الملامح وفي الخصائص البشرية بين العرب الجنوبيين والقبائل الإفريقية الساكنة على الساحل الإفريقي من البحر الأحمر والصومال ، الا انه نسب ذلك الى ان تلك القبائل كانت عربية في الأصل ، هاجرت من جزيرة العرب عن طريق باب المندب الى افريقية ، فسكنت هناك . ومن ثم وقع هذا التشابه . بين تلك القبائل والعرب الجنوبيين [2] .

---

١ R. Poech, Berichte des Forschungsinstitutes fuer Osten und Orient, II, Wien, 1918, 19. ff. V. Giuffrida-ruggeri, Affinita Antropologiche fra Etiopici e Arabi Meridionali, Annuario del R. Instituto Orientale di Napoli, 1919-20, A. Grohmann, Arabien, S. 9.

٢ Les Antiquités du Yemen, Muséon, 61, 1948, 225. ff.

ورأى آخرون أن العربية الجنوبية هي مزيج من الأجناس البشرية واضح المعالم، وذلك منذ أقدم أيامها . فنرى فيها قبائل تشبه جماعة (الفيديد) (Weddid) الهندية ، وهي من السلالات الهندية القديمة ، يسكن بعضها في أرض (سيبان) و (معارة) من حضرموت ، ونرى فيها عناصر مما يطلق عليها اسم (الجنس الشرقي) (Orientalide Rasse) ، وهو الجنس الذي يكثر وجوده بين العرب الشماليين،وعناصر أخرى تمثل انسان حوض البحر المتوسط (Mediterranen Rasse) أو الأجناس الأوروبية ، حيث وجد بعض السياح بين بعض قبائل اليمن جماعة من الناس لها عيون زرق وشعر أشقر وبشرة بيضاء أو تميل الى البياض وملامح أوروبية بينة ، وتتراوح نسبة هؤلاء بين ٨ الى ١٢ بالمئة [١] .

ووجد الباحثون بين قبائل العربية الجنوبية،جماعات لها ملامح آشورية وجماعات ذات ملامح تشبه ملامح سكان آسية الصغرى ، وجماعات ذات ملامح افريقية . وقد وجد الدكتور (سليمان أحمد حزين) أن بين أهل شمال اليمن وبين أهل جنوب اليمن الى المحيط اختلافات بارزة في الملامح وفي المظاهر الجسمية يخرجنا البحث عنها هنا من حدود التأريخ العام[٢] . ووجد غيره مثل ذلك . كما وجد هذا الاختلاط بارزاً في بقايا الهياكل البشرية القديمة التي عثر عليها في العاديات .

وما هذه المظاهر والملامح التي رأيناها من الجماجم وبقية الهياكل البشرية ومن أشكال التماثيل والصور ، ومن دراسات الباحثين (الأنتروبولوجيين) للقبائل الحاضرة ، الا حكاية واضحة صريحة عن عملية امتزاج أجناس بشرية متعددة في العربية الجنوبية ، بسبب الهجرات والحروب والاتصال البحري والتجارة وعوامل أخرى ، ونجد مثل ذلك بالطبع بين من نسميهم بالعرب الشماليين . وسوف نرى ان الدول القديمة كانت تنقل البشر نقلاً من مناطق الى مناطق فتزرعهم فيها ، وان أكثر أفراد الجيوش التي كانت ترسل لمحاربة القبائل أو للتوسع في الجزيرة كانت تبقى وتستقر في المواضع التي ترسل اليها ، فتتطبع بطباع من نزلت بينهم، وتكون في النهاية منهم ، أضف الى ذلك الرقيق .

---

١ A. Grohmann, Arabien, S. II.

٢ بعثة جامعة فؤاد الاول سنة (١٩٣٦ م) .

وقد ذكر ان جماعة من (بني الحارث بن كعب) وفدت على الرسول ، فنظر اليهم ، فقال : « من هؤلاء الذين كأنهم من الهنـــد ؟ » . وقد كان (قيس بن عمرو) الشاعر المعروف بـ (النجاشي) من هؤلاء[1] . وسواء أكان ما نسب الى الرسول من قوله المذكور صحيحاً أم موضوعاً ، فإن الأخبار تذكر ان بشرة (بني الحارث بن كعب) ، كانت تميل الى السمرة الشديدة ، بل الى السواد الذي يشبه سواد بشرة الإفريقيين ، أفلا يجوز أن يكون أصلهم من افريقية ؟. وقد عرفت جماعة كبيرة من أهل مكة بالأحابيش ، لأن أصلهم من رقيق الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب ؟

فدعوى وجود جنس (أنتروبولوجي) واحد أو جنسين منفصلين ، لكـــل منهما خصائص جسمية وملامح (فسيولوجية) معينة للعرب ، وبالمعنى العلمـــي المفهوم اليوم عند علماء الأجناس ، هي دعوى غير مقبولة ، لأن البحوث العلمية والمختبرية لا تؤيدها ولا تثبتها ، ولأن البحوث التأريخية الحديثة تعارضها أيضاً، وكل ما نقوله هو أن ما نسميه اليوم بالجنس هو جنسية ثقافية فكرية، لا جنسية دموية تقوم على وحدة الملامح والمظهر والدم .

فما يذكره أهل الأنساب عن النسبين ، وما يتصوره بعض الناس من صفـاء الجنس العربي صفاءً تاماً ونقائه من كل دم غريب ، دعوى لا يمكن الاطمئنان اليها في هذا اليوم . لن يضير العرب قول مثل هذا ، فصفاء الأجناس البشرية صفاءً تاماً ، من القضايا التي عجز حتى القائلون بنظرية العنصريات مثل النازيين عن اثباتها في هذا اليوم . وسيظهر ضعفها في المستقبـــل ظهوراً أوضح مما هو عليه الآن .

لقد كان (نولدكه) أول من شك من المستشرقين في هذا النسب العام الذي وضعه أصحاب الأنساب للعرب ، وكان أول من نبه على أثر اليمانيين في وضعه وفي محاولتهم رجعه الى عهود قديمة قبل الإسلام[2] . وذهب (هاليفي) الى أبعد من ذلك،فرأى ان كل ما قيل في هجرة القبائل اليمانية الى الشمال هو أسطورة ،

---

١ البيان (٢٣٩/١) ، الاصابة (٨٥٨) ، الخزانة (١١٣/١) .

٢ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Noeldeke, in ZDMG. XL.

وان ما يزعم من انتساب تلك القبائل الى اليمن هو حديث خرافة لا يركن اليه[1] .

ونحا مستشرقون آخرون هذا المنحى ، فرأوا ان للنسابين يداً في ترتيب هذه الشجرة العظيمة للأنساب،أو الشجرتين بتعبير أصح : شجرة نسب أبناء قحطان ، وشجرة نسب أبناء عدنان . ولذلك فهم لا يطمئنون اليها ، ولا يصدقون بكثير من هذه الأنساب المروية وبالأخبار والروايات الواردة في هجرة القبائل القحطانية نحو الشمال[2] .

اذن ، فقحطان ليس بجدّ لكل القبائل القحطانية المعروفة ، وعدنان لم يكن جدّاً لجميع القبائل العدنانية ، وانما هما كنايتان عن مجموعة قبائل ، تدعى عند العرب (بالحلف) ، وقد أخذ أهل النسب قحطانهم من التوراة ، وهو هناك كناية عن مجموعة قبائل مواطنها في العربية الجنوبية . أما (عدنان) فلم يرد اسمه في التوراة ، ولا نعرف من أمره شيئاً في الزمن الحاضر ، والظاهر انه كناية عن حلف ، ويظهر انه ظهر للوجود قبيل الإسلام . وعدم وقوفنا على أخباره ، لا يسوغ لنا نكران وجوده، فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات نرى فيها اسمه ، كما حدث بالنسبة الى أسماء أخرى شك في أصلها بعض المستشرقين، ثم تبين انها كانت معروفة ، بدليل ورودها في بعض كتابات الجاهليين .

ولا أعتقد ان التوراة ابتدعت فكرة (يقطان) ونسل يقطان ، اذ لا يعقل تصور ذلك . والذي أراه انها حكت نسباً كان يجمع شمل القبائل العربية المذكورة عند العرب ، وصل خبره الى العبرانيين فسجله كتبة التوراة في الأسفار ، مع أنساب الشعوب . كما انها أخذت من العرب أيضاً نسب (الإشماعيليين) على نحو ما كان معروفاً يومئذ ، وكذلك نسب أبناء (قطورة) . فتكون التوراة قد ذكرت أنساب ثلاث مجموعات أو أحلاف عربية كبيرة ، كانت قائمة في ذلك الزمن .

وقد يكون من الخير الاتيان بأمثلة من أيام الإسلام ، تساعدنا في شرح موضوع النسب عند الجاهليين وتفسيره . فإن الزمن وان تغير وتبدل في الإسلام

---

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Halévy, in Journal Asiatique, 1882, II, 490, and Compte Rendu de VI, International Orientalisten Congress, Leiden, 1884, P. 102.

٢ Nicholson, A Literary History of the Arabs P. XX, L. Della Vida, Pre-Islamic Arabia, in Arab Heritage, 50, Robertson Smith, Kinschip, P. 6.

وتباعد عن الجاهلية ، الا أن الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة الى النسب وتكوين الأحلاف . فقبيل ظهور الإسلام كان بين (يثرب) و (مكة) نزاع شديد . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين. وقد دامت الهجرة الى عام الفتح : (فتح مكة)[1] . وأما أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه ، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ولتقديم مساعداتهم له وللمسلمين . وللقضاء على الخصومة ، آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين . غير أن العداء عاد فتجدد بين الأنصار والمهاجرين ، بعد وفاة الرسول ، ويظهر أثره في شعر حسان بن ثابت والنعمان بن بشير[2] والطرماح بن حكيم ، وهم شعراء يثرب وألسنتها ، وفي الأشعار الأخرى التي جمعت في دواوين الأنصار[3] .

وقد صيّر النزاع المذكور لفظة (الأنصار) علماً خاصاً على أهل المدينة ، حتى كادت تكون نسباً ، واصطبغت الدعوة بصبغة يمانية ،فنجد في شعر الأنصار فخراً باليمن ، واعتزازاً بأصلهم اليماني ، ومجاهرة بأنهم يمانيون صرحاء وبأنهم من أقرباء الغساسنة ومن ذوي رحمهم . كما انهم استعملوا لفظة الأنصار مقابل قريش[4] ومعد[5] ومضر[6] ونزار[7] ، وأطلقوا على لسانهم حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، وشاعر اليمن ، وشاعر أهل القرى[8] .

---

١ (فلما فتحت مكة ، صارت دار سلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة . وفي الحديث : لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية) ، اللسان (١١١/٧) ، المؤتلف (ص ١٢٦)

٢ الاغاني (١٤٢/١٣) ، (١١٤/١٤ فما بعدها) .

٣ (كان نهيك بن اساف يهاجي ابا الخضراء الاشهلي في الجاهلية ، واشعارهم موجودة في اشعار الانصار) ، الاغاني (١١٧/٢٠) .

٤ ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الانصار

الاغاني (١٤٢/١٣) .

٥ وقال الله قد يسرت جندا ... هم الانصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد ... قتال او سباب او هجاء

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

ديوان حسان (ص ١) (تحقيق هرشفلد) ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص٦، سباب او قتال) .

٦ ونحن جندك يوم النعف من احد ... اذ حزبت بطرا أشياعها مضر

ديوان حسان (ص ٥٧) ، شرح ديوان حسان (ص ٢٠٠) (للبرقوقي) .

٧ Muh. Stud. Bd. I, S. 94, ZDMG. XVIII, S. 239.

٨ مجالس ثعلب ، القسم الثاني ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سنة ١٩٤٩ (ص ٤٢٩) .

ونجد في أيام معاوية وفي ايام ابنه يزيد قصصاً عن هـذا النزاع اليثربي المكي ، النزاع الذي سمي بنزاع الأنصار مع المهاجرين ، أو نزاع الأنصار مع قريش ، ويلاحظ ان هذا القصص لم يستعمل لفظة (مهاجرين) في مقابل (الأنصار) الا نادراً ، انما استعمل الألفاظ المذكورة . وقد عرفت وفودهم فيه بـ (وفود الأنصار) أو (الأنصار)[1] . فصارت تلك اللفظة وكأنها نسب أو علم من أعلام القبائل ، حتى تضايق من ذلك رجال قريش . قيل بينما كان (عمرو بن العاص) عند (معاوية) يوماً ، اذ دخل عليـه حاجبه يقول : « الأنصار بالباب » ، فتضايق من ذلك عمرو ، وقال : « ما هذا اللقب الذي قد جعلوه نسباً ؟ أرددهم الى نسبهم » . فقال له معاوية : ان علينا في ذلك شناعة . قال : وما في ذلك ؟ انما هي كلمة مكان كلمة ، ولا مـرد لها . فقال معاوية لحاجبه : أخرج ، فنادِ : مَنْ كان بالباب من ولد عمرو بن عامر ، فليدخل . فخرج ، فنادى بذلك ، فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار ، فقال له : أخرج ، فنادِ : مَن هنا من الأوس والخزرج ، فليدخل . فخرج فنادى ذلك ، فوثب النعمان بن بشير ، فأنشأ يقول :

يا سعد ، لا تعد الدعاء ، فما لنا نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإلـه لقومنـا أثقل به نسباً الى الكفار
إن الذين ثووا ببدر منـكم يوم القَليب همُ وقود النار

وقـام مغضباً . فبعث معاوية ، فرده ، وترضاه وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار[2] . وكان النعمان بن بشير حامل لواء الأنصار قد غضب في مجلس من مجالسه مع معاوية ، ولاحظ معاوية عليه الغضب فضاحكه طويلاً ، ثم قال له : « إن قوماً أولهم غسان ، وآخرهم الأنصار ، لكرام »[3] . وكان أهل يثرب يلحقون نسبهم بنسب غسان ، ويرجعون نسبهم ونسب غسان الى الأزد . ونسب الأزد الى اليمن .

---

١ (وفد الانصار) ، الاغاني (١٤٢/١٣) .
٢ الاغاني (١٢٠/١٤ ، ١٢٢) .
٣ الاغاني (١١٩/١٤) .

لقد كان من المعقول استعمال لفظة (المهاجرين) في مقابل (الأنصار) ، الا أن الجانبين لم يستعملاها الا قليلاً ، وانما استعملا لفظتي قريش ومعد ، كما استعملا (قريشاً) في مقابل (يمن) . وقد افتخرت قريش بمعد ، وبالنبوة . فأجابهم الأنصار بأن أم الرسول من بني النجار أخوال النبي ، وهم من المدينة ، وبأنهم كانوا أول من آمن به ونصره ، وبأن المتنبين كانوا من قبائل معد[1] .

ولو كتب لمصطلح (الأنصار) بالبقاء ، ولو كان عهد التدوين بعيداً عنه ، لصار ولا شك نسباً من الأنساب ، ولصارت اللفظة اسم أب لقبيلة، كما صارت الألفاظ المذكورة التي خلدت لأنها الألفاظ الجاهلية ، فلما صار التدوين ، كان الناس يتداولونها على أنها أنساب وأسماء .

واستعملت لفظة (اليمانية) في مقابل (النزاريـــة) ، في العصر الأموي . ويظهر انها تغلبت على لفظة (الأنصار) وقضت عليها . وهي تعني القبائل التي ترجع أنسابها الى اليمن . أما (النزارية) فقد عنت كل القبائل العدنانية[2] .

وقد كان بين الحزبين نزاع شديد . ولكل شيعة نسابون ومدافعون ومهاجمون. وقد أثر هذا النزاع تأثيراً خطيراً في وضع الأنساب[3] .

ويرجع بعض الباحثين انقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين الى هذا النزاع: نزاع (يثرب) ومكة قبل الإسلام ، ويرجعه آخرون الى التنازع الطبيعي الذي هو بين البداوة والحضارة . فقد كان أهل يثرب أي اليمن كما يقولون أصحاب حضارة وملك . أما أهل مكة ومن والاهم ، فقد كانوا أعراباً أو شبه أعراب. ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عن طبيعة أهل مكة ، ووقع النزاع والتنافس بين الجماعتين ، وتحول الى نسبين . وزعموا ان هذا النزاع هو نزاع الحضارة مع البداوة ، نزاع أهل المدر مع أهل الوبر ، نزاع (بني مدراء)[4] ، أو (أهل القارية) كما يقال لهم أيضاً ، لأنهم (قارون) أي سكان القرية والقرى مع أهل البادية أي البادون نزلة البادية . قالوا : ومن هنا قيـــل : الحضر خلاف

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 96.

٢ التنبيه (ص ٦٩) .

٣ التنبيه (ص ٧٢) .

٤ اللســان (١٣٣/٧) ، الاغاني (١٤٥/١٢) .

البدو ، والحاضر خلاف البادي ، و (أهل الحاضرة) و (أهـل الباديـة) و (الحاضرة) ، خلاف البادية وهي المدن والقـرى والريف[1] ، وهو تقسيم ، يرونه ، قديماً ، يرجع الى الجاهلية . روي أن الرسول قال ، حين وفد عليه قيس بن عاصم : « هذا سيد أهل الوبر »[2] . ونجد مثـل ذلك في النصوص اليمانية الجاهلية ، اذ أشارت الى الأعراب كطبقة خاصة قائمة بنفسها ، تمتاز عن الحضر المستقرين .

ومن ثم كانت غالبية القبائل العدنانية التي يذكر أهل الأخبار أسماءها قبائل أعرابية ، أي قبائل بدوية ، أو قبائل غلبت البداوة عليها ، وغالبية القحطانية قبائل مستقـرة أو قبائل شبه حاضرة تنخت في أماكن ثابتـة ومالت الى حياة الحضارة . ولما كان الحضر أرقى فكرياً من أهل الوبر ، صارت اليهم السيادة في الغالب ، فتحكموا في القبائل العدنانية، وملكوا القبائل المعدية . فحكم المناذرة والغساسنة وآل كندة وغيرهم ممن يرجع نسبه النسابون الى قحطان،قبائل عدنانية، ولم يحكم العدنانيون القحطانيين قبل الإسلام .

هذا هو رأي من يرى أن القحطانية والعدنانية كناية عن الحضارة والبداوة ، وتعبير عن أهل المدر وأهل الحضر . يستدلون على رأيهم هذا بما قلته من غلبة الحياة الحضرية والاستقرار على القبائل التي يرجع النسابون نسبهـا الى قحطان ، وغلبة البداوة أو شبه البداوة على القبائل العدنانية .

وللحكم على هذه النظرية ، يجب تكوين جدول بأسماء القبائل الجاهلية العدنانية منها والقحطانية ، ودراسة أحوالها الاجتماعية والمواضع التي عاشت فيها في مختلف الأزمنة ، وعند ذلك نستطيع الحكم على ما فيهـا من قوة أو ضعف ، فإن في القحطانيين قبائل متبدية ، وفي العدنانيين قبائل مستوطنة وأصحاب قرى . ولهذا لن تصدق تلك النظرية الا بمثل هذه الدراسة .

ولفهم النزاع القحطاني العدناني ، أو نزاع يثرب ومكة ، لا بد من البحث عن موارد جاهلية واسلامية نستعين بها على فهم طبيعة هذا النزاع . أما الموارد

---

١ اللسان (٢٠/٣٨) ، فجر الاسلام ، (١/٧)
Sprenger, Das Leben, Bd., 3, S. CXXVIII
٢ معجم الشعراء (ص ٣٢٤) .

الجاهلية،أي الكتابات ، فليس فيها حتى الساعة شيء ما يحدثنا عن هذا النزاع، وأما الموارد الإسلامية ، فإن شعر حسان بن ثابت ، أو الشعر المنسوب الى هذا الشاعر بتعبير أصدق وأصح،هو المرجع الأول الذي يحدثنا عن طبيعة هذا النزاع أو التحاسد الذي كان بين مكة ويثرب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره،اذ كان حسان نفسه من المناضلين فيه الحاملين للواء يثرب في نزاعها مع مكة . ونرى القحطانيين يروون شعره ويذكرونه في افتخارهم على العدنانيين . وقد حمل شعره جلّ مواضع فخر قحطان على عدنان ، ومفاخر أهل يثرب على أهـل مكة ، حتى لنستطيع أن نقول انه أحد بناة النزاع القحطاني العدناني ، باعتبار انه أقدم مشارك فيه يصل خبره الينا ، وأن أكثر ما تذكره القحطانية من دعاوى مركزة في شعر هذا الشاعر مذكورة فيه .

وقد وصل جلّ شعر حسان الينا،وطبع في ديوان . راجعناه وراجعنا ما يحمل من شعر ، فلم نجد فيه ذكراً لعدنان ، وانما نجد فيه اسمي (قحطان) و(معد)[1] . ولم يرد فيه اسم الأول الا مرة واحدة في قوله :

فلو سُئِلَتْ عنه معد بأسرها وقحطان أو باقي بقية جرهما[2]

وأما اسم الثاني ، أي (معد) ، فقد ورد في مواضع بلغت سبعاً في الديوان[3] .

غير اننا نرى في الجزء الأول من (الإكليل) ، أبيات شعر نسبها (الهمداني) لحسان ، ورد فيها ذكر لقحطان ، وفخر به ، وانتسب اليه :

لقد كان قحطان العلا القرم جدّنا له منصب في يافع الملك يشهر
ينال نجوم السعدِ ان مدّ كفه تفلّ أكف عند ذاك وتقصر
ورثنا سناءً منه برزاً ومحتداً منيف الذرى فخر الأرومة يذكر[4]

---

١ طبعة (هرشفلد) سنة ١٩١٠ بمدينة (لايدن) ، رواية السيرافي ، شرح ديـوان حسان بن ثابت الانصاري ، للبرقوقي ، القاهرة ، ١٩٢٩ .
٢ ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي (ص ٣٩٨) .
٣ ديوان حسان (ص ١ ، ٥ ، ٦ ، ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٩)
٤ الاكليل (١١٨/١) .

وترى أبياتاً أخرى من هذا النوع من الفخر، في مكان آخر من هذا الكتاب، نسبها أيضاً لهذا الشاعر ، هي هذه :

فنحن بنو قحطان والملك والعلا ومنّا نبيّ الله هود الأخاير
وإدريس ما ان كان في الناس مثله ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعد ما ألات به حوت بأخلب زاخر
شعيب والياس وذو الكفل كلهم يمانون قد فازوا بطيب السرائر[1]

وترى أبياتاً أخرى نسبها (الهمداني) الى (حسان) أيضاً ، فيها فخر بقحطان وبقوم الشاعر ، رواها على هذا النحو :

فمن يك عنّا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك
ابن زيد[2] بن كهلان نما سبأ له الى يشجب فوق النجوم الشوابك
ويعرب ينميه لقحطان ينتمي لهود نبيّ الله فوق الحبائك
يمانون عاديون ، لم يلتبس بنا مناسب شابت من الى وأولئك[3]

والأبيات المذكورة ، لا يمكن أن تكون من نظم حسان ، فأسلوبها غير أسلوبه في شعره ، وفي بعضها ركة وضعف ، ولفظة (المرحوم) من الاصطلاحات الحادثة المتأخرة[4]، كما ان التفاخر بالأنبياء المذكورين لم يكن معروفاً على عهده .

وأما الشعر المبتدىء بهذا البيت :

فمن يك عنا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك

ففيه اضافات لا نجدها في الديوان .

وفي المضاف اليه تباين ظاهر مع أسلوب حسان في شعره ، وركة بينة ، وطابع الصنعة ظاهر عليه . وقد ورد في ديوانه على هذا النحو :

---

١ الاكليل (١/٩٦) .
٢ الاكليل (١/١٠٦) هكذا : (ابن زيد) .
٣ الاكليل (١/١٠٦) .
٤ الفضل لاستاذي الاثري في تنبيهي الى هذه الملاحظة .

فإن تك[1] عنا معشر الأسد[2] سائلاً فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهلان الذي نال عزّه قديماً دراري النجوم الشوابك
إذا القوم عدّوا مجدهم وفعالهم وأيامهم عند التقاء المناسك
وجدت لنا فضلاً يقر لنا به اذا ما فخرنا كل باق وهالك[3]

فأنت ترى أن الأبيات في الديوان خالية من نسب (سبأ) و (يشجب) و (يعرب) و (قحطان) و (هود) وغير ذلك ، وان أسلوب صياغة هذا النظم لا يمكن أن يكون من أسلوب شاعر جاهلي أو شاعر مخضرم ، بل لا بد أن يكون من نظم المتأخرين ، اضافه بعض المتعصبين لليمن الى شعر حسان ، ونظمه على وزن البيت الأول وطريقته ، ليكون أوقع في النفس ، ودليلاً على قدم ذلك النزاع .

ولا أعتقد ان هنالك حاجة تدعوني الى إلفات نظر القارىء الى أن الأبيات المتقدمة الواردة في ديوانه ، هي الأبيات المتقدمة عليها نفسها ، أي الأبيات التي أخذتها من كتاب الإكليل للهمداني رويت بشكل آخر ، بشكل يرينا أن الرواة مهما حاولوا اظهار انهم على حرص تام في المحافظة على أصالة الشعر والمحافظة على الأصل ، فإنهم لا يتمكنون من ذلك .

ونسب بعض الرواة اليه هذه الأبيات :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر[4]

وهي أبيات لم ترد في ديوانه ، تشعر ان (يعرب) ، وهو جد القحطانيين ، هو أول من أعرب في لسانه ، وأول من نطق بالعربية ، فهو أول متكلم بها ، وأول من أوجدها وكوّنها ، وان العدنانيين تعلموها من أبنائه ، بعد ان كان لسانهم لساناً أعجمياً . وأما من ناحية صحة نسبتها الى شاعر الإسلام وشاعر

---

١ وفي الديوان : (من تك) ، (ص٤٠) ، البرقوقي (ص ٢٩٥) .
٢ « الاسد » ، الاصح في نظري : « الازد » . كما في الابيات المتقدمة .
٣ ديوان حسان (ص ٤٠) ، البرقي (ص ٢٩٥) .
٤ الاكليل (١١٦/١) .

الأنصار ، فإن في أسلوب نظمها وفي صياغة البيت الأول وجملة (منطق الشيخ يعرب) ، ما فيه الكفاية لإظهار انها مصنوعة ، حملت عليه حملاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظم من نظم أول الإسلام،حتى وان كان من شاعر من شعراء أهل المدر في ذلك العهد .

وزعم ان حساناً ذكر القيل (ذو ثات) ، وهو من أقيال حمير ، فقال هذا البيت :

وفي هكر قد كان عز ومنعة   وذو ثات قَيْلٌ ما يكلم قائله[1]

ولم يرد هذا البيت في ديوانه . أما أسلوب نظمه ، فينبئك ان قائله يجب أن يكون شخصاً آخر من المتأخرين عن حسان ، ممن كانوا يضعون الشعر على ألسنة غيرهم على نحو ما وضعوا على ألسنة التبابعة وآدم والجن .

هذا ولحسان شعر لم يرد في ديوانه ، بل ورد في موارد أخرى . منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ، لأنه متحول وقد حمل على حسان وألصق به ، ولم يغفل العلماء عنه ، بل أشاروا اليه ونبهوا ان بعض الناس قد تعمدوا وضعه وحمله عليه لمآرب[2] . قال الأصمعي في ذلك : « تنسب اليه أشياء لا تصح عنه. وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيراً ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتاً لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : وأهل العلم ينفيها عن حسان »[3] . وقد نسب الجمحي الوضع على حسان الى بعض قريش للغض منه ، فقال : « وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لمّا تعاضهت قريش ، واستبّت ،وضعوا عليه أشعاراً كثيرة ، لا تليق به » . وقد كان ذلك لتعرضه بهم ، ولتعصبه المفرط ليثرب، وافتخاره بهم على قريش[4] .

هذا ومع إفراط (حسان) في التعصب ليثرب ، لا نراه يذكر قحطان الا

---

١ شمس العلوم (ح ١ ق ١ ص ٢٧١) .
٢ ديوان حسان : المقدمة الانكليزية (ص ٢ وما بعدها) ، (وقد قال الاصمعي في ذلك : تنسب اليه اشياء لا تصح عنه . وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيرا ما رايت في سيرة ابن هشام ابياتا لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : واهل العلم ينفيها عن حسان ....) ، البرقوقي (ص غ) .
٣ المصدر المتقدم .
٤ طبقات الشعراء (ص ٥٢) .

مرة واحدة ، أما عدنان فلم يذكره في شعره قط . ولهذه الملاحظة أهمية كبيرة، لتكوين رأي في فكرة (قحطان) وعدنان في ذلك العهد ، اذ انها تدل على ان القحطانية والعدنانية لم تكن عنده على النحو الذي صارت عليه فيما بعد ، بعد اشتداد النزاع بين الأنصار وأهل مكة ومن حولها في خلافة بني أمية خصوصاً ، وهم عصب العدنانيين ، وانه في كل فخره بالنسب لم يتجاوز الأزد ، أبنـاء (الغوث بن زيد بن مالك بن زيد بن كهلان)[1] ، وغسان وآل نصر .

وأما بعد اسلامه ، فقد حوّل فخره وتباهيه الى فخر بالأنصار على قريش ومضر ومعد ، أي أهل مكة ، بنصرة قومه للإسلام ، وبنصر النبي حين خذلوه وقاوموه . فكانوا ملوك الناس قبل محمد ، فلما أتى الإسلام ، كان لهم النصر في نصرته[2] . ونجد هذا الفخر واضحاً قوياً في شعره ، فهو فخـر أهل يثرب على أهل مكة . فخر الأنصار على مضر ومعد وقريش ، فلم يصل الفخر بقومه عنده اذن الى حد الفخر بقحطان ، أو باليمن كلها على عدنان . وأما ما ورد منه أكثر من ذلك، كما نرى في الأبيات المنسوبة اليه في الجزء الأول من الإكليل، فإنه عندي من ذلك النوع المنحول الذي اضيف اليـه . فالتكلف ظاهر عليه ، والأسلوب مختلف عن أسلوبه ، وهو من النظم المتأخر عن ايام حسان، من نظم وضّاح يتكلف قول الشعر ولا يحسن صناعته .

خذ قصيدته التي تمثل منتهى فخره بقومه ، نره يقول :

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر — لنا شرف يعلو على كل مرتقي ؟
رسا في قرار الأرض، ثم سمت له — فروع تسامى كل نجم محلّق
ملوك وأبناء الملوك ، كأننا — سوارى نجومٍ طالعات بمشرق

الى أن يقول :

كجفنة والقمقام عمرو بن عامرٍ — وأولاد ماء المزن وابني مُحرّق

---

[1] من تك عنا معشر الازد سائـلا — فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهـلان الذي نـال عزه — قديما ذراري النجـوم الشوابـك
ديوان حسان (ص ٤٠)

[2] وكنا ملوك الناس قبل محمـد — فلما اتى الاسلام كان لنا الفضل
ديوان حسان (ص ٧٠ ، ٧٣) .

وحارثة الغطريف أو كابن منذر ... ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق[1]

فلا تجد فخره بها يتعدى حدود الفخر بالأزد وبالغساسنة وآل نصر ، أي ملوك الحيرة . وهو ما وجدناه في أشعاره الأخرى . وقد عاب في هذه القصيدة (قيساً) و (خندفاً) لأنهما قاومتا الرسول وآذتاه . مما يدل على أن هذين الاسمين كانا معروفين قبل الإسلام .

هذا ، وقد أضاف أهل الأخبار الى قصيدة حسان التي مدح فيها الملك (جبلة بن الأيهم) ، ومطلعها :

لمن الدار أقفرت بمغان ... بين أعلى اليرموك والصمان[2]

هذا البيت :

أشهرنها فإن ملكك بالشا ... م الى الروم فخر كل يماني[3]

ولم يرد ذكر هذا البيت في الديوان . وهو بيت يتحدث كما ترى عن فخر باليمن : أصل الغساسنة ، وأهل يثرب ، وكل قحطان . وأغلب ظني انه من الأبيات المدسوسة ، وضعه أحد المتعصبين لليمن ودسّه في القصيدة .

هذا وقد نسب الى النعمان بن بشير الأنصاري شعر قيل انه قاله في هذا الباب. ونسب الى الطرماح بن حكيم مثل ذلك ، وهو أيضاً شاعر من شعراء الأنصار[4]. وعلينا أن ندرس شعرهما ، وشعر أمثالها ، وشعر شعراء قريش أيضاً دراسة نقد وتمحيص نميز بها بين صحيحه وفاسده ، لنتمكن بذلك من تكوين رأي علمي صحيح في القحطانية والعدنانية وتأريخ ظهورهما . ولو تيسر لنا ديوان الأنصار أو دواوين الأنصار ، لزادت معارفنا ، ولا شك ، في هذا الباب وتمكنا من تكوين رأي في تلك العصبية القبلية بصورة أصح وأدق ولا شك .

---

١ البرقوقي (ص ٢٨٨) .

٢ مروج الذهب (٣١/٢) (تحقيق محمد محيي الدين) . ونجد هنا اختلافا في الالفاظ وفي بعض الجمل عن نص القصيدة الوارد في الديوان ، راجع (ص ٥٥) من الطبعة الاوروبية ، و (ص ٤١٤) من (شرح ديوان حسان بن ثابت) لعبد الرحمن البرقوقي . وقد اخذت مطلع القصيدة من رواية المسعودي .

٣ مروج الذهب (٢ / ٣١) .

٤ فمنا سراة الناس هود وصالح ... وذو الكفل منا والملوك الاعاظم
الاكليل (٩٤/١) .

لقد حارب الإسلام العصبية الجاهلية ، وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، وحالف بين قريش وأهل يثرب ، ونهى عن أحلاف الجاهلية ، وروي عنه أنه قال : (لا حلف في الإسلام)[1] ، لما ينتج عنه من فتن ومن قتال بين القبائل وغارات ، ولأن الإسلام قد عوّض عن الحلف ، وزاده شدة بنزوله . (وما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة)[2] . وعدّ (التعرب) بعد الهجرة ، أي أن يعود المرء الى البادية ويقيم مع الأعراب ، كبيرة من الكبائر ، حتى عدّ من يعود الى موضعه من البادية بعد الهجرة كالمرتد[3] . ومع ذلك ، لم يكن من الممكن تناسي العصبيات ، وغسل آثار الجاهلية ، وطمس معالمها تماماً ، فتحزبت القبائل وتكتلت ، وكانت تحارب على أنها همدان[4] ، أو ربيعة[5] ، أو طيء[6] ، أو مضر[7] ، أو قريش[8] ، أو قيس[9] ، أو الأزد ، أو ربيعة[10] ، أو تميم[11] ، أو غير ذلك من أسماء قبائل .

القحطانية والعدنانية في الاسلام :

الحق ان ما نسميه قحطانية أو عدنانية انما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام ، شاء أصحابه ومثيروه رجعه الى الماضي البعيد، ووضع تأريخ قديم له ، فجعلوا له أصولاً زعموا أنها ترجع الى ما قبل الإسلام

---

١ تفسير الطبري (٣٦/٥)

٢ تفسير الطبري (٣٦/٥) .

٣ (وفي الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، هو ان يعود الى البادية ويقيم مع الاعراب بعد ان كان مهاجرا . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه ، من غير عذر ، يعدونه كالمرتد) ، لسان العرب (٧٦/٢)

٤ مروج (٢٢/٢) .

٥ مروج (٢٢/٢) .

٦ مروج (٢٢/٢) .

٧ اليعقوبي (١٦٥/٢) ، الكامل (٨٥/٤)

٨ اليعقوبي (٣/٣) ، الكامل (٦١/٣) .

٩ الكامل (١٤/٤ ، ٦٣) .

١٠ الكامل (٥٨/٤) .

١١ الكامل (٥٨/٤) .

بكثير ، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم وهابيل وقابيل والجن .

وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القراطيس والكتب. فكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها ، ليس في هذا العهد فقط، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً . اذ سجلت هذه الأنساب : جاهلية واسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيل والتدوين ، أي في أوج هذه العصبية العنيفة التي عمت الناس في صدر الإسلام . ومن هنا كان لا بد لفهم الفكرة القحطانية العدنانية من الإلمام بنزاع قحطان وعدنان في الإسلام .

والذين قاموا بتسجيل الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن ومن المتأثرين بالأحوال السياسية لذلك العهد. ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزباً وتطرفاً وميلاً الى تأييد فريق على فريق . ومن هنا كان لا بد لنا من التنبه لهذه العصبية، واتخاذ الحيطة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني العدناني .

وقد استعملت في هذا العهد (مضر) في مقابل (الأزد)[١] ، كما استعملت الأزد في مقابل تميم ، وورد (أهل اليمن) أو اليمانية[٢] . ولكننا قلما نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الفتن أو الحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة (عدنان) في مقابل (قحطان) ، ويقال مثل ذلك في الأشعار أيضاً، في مثل شعر (الفرزدق) الذي استعمل كلمة (قحطان) في مقابل كلمة (نزار) وكلمة (يمن) في مقابل (نزار) أو (الأزد) في مقابل (نزار)[٣] . كما استعمل الحكم بن عبدل (قحطان) في مقابل (معد)[٤] . وقد ذكر الأعشى

---

١ الكامل (٥٨/٤) .
٢ الكامل (٦١/٤) .
٣ ديوان الفرزدق « طبعة بوشيه » Boucher « ص ٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٦ » . Muh. Stud. Bd. I, S. 98.
٤ فما صادفت في قحطان مثلي ... كما صادفت مثلك في معد
الاغاني (١٤٨/٢) .

في شعر له : (ومن معدّ قد أتى ابن عدنان) ، وذلك في مقابل (قحطان)[1].

وفي أيام معاوية وابنــه (يزيد) و (مروان بن الحكم) ، نالت (كلب) مركزاً سامياً ، لتزوج معاوية امرأة من كلب ، هي (ميسون بنت بحدل) ، فأصبحت هي والقبائل التي تؤيدها مقربة عند الخلفاء ، مع أن الخلفاء من قريش ، وقريش من قيس . وهذا مما أغضب قيساً المعروفة بعدائها لكلب . وقد كانت لفظة (قيس) في هذا العهد ترادف كلمة (معد) و (مضر) و (نزار)[2] . وأما (كلب) ، فترادفه اليمن .وقد عرفت المعركة التي وقعت في (مرج راهط) بين مروان وابن الزبير بأنها معركة (قيس) و (كلب) لأن قيساً حاربت فيها عن (ابن الزبير) . أما كلب ، فقاتلت عن مروان ، وقد أوجد هذا الانتصار حقداً كبيراً بين (قيس) وحلفائها من القبائل ، وبين كلب وأنصارها من القبائل التي أدعت أنهــا من اليمن ، فوقعت حروب بين قيس وكلب هلك فيها خلق كثير من الفريقين[3] . ولعب دوراً مهماً في تكتل القبــائل وفي تجمع القحطانيين والعدنانيين .

وقد أسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد (عبد الملك) ، ويا للأسف ، في هذا النزاع ، متأثرين بعاطفتهم وبدمهم من الأمهات ، فكان بعضهم يؤيـد القيسيين اذا كانت أمهم من قيس ، وكان آخرون يؤيدون (كلباً) إذا كانت أمهم من اليمن . وسار على هـــذه السياسة الولاة والعمال ، فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها الى معسكرين (قيس) و (يمن) ، وتزعمت (أزدعمــان) في البصرة وخراسان حزب (يمن) في مقابل (قيس) و (تميم)[4] .

ووقعت وقائع دموية بين يمن وقيس ، انهكت العرب جميعاً ، وصارت من جملة العوامل التي عجلت بسقوط الأمويين .

وحمل الشعراء مشاعل هذا النزاع ،وأمدّوا ناره بوقود غزير . نظموا القصائد في مدح قيس وفي ذم يمن وذم قيس بحسب قبيلة الشاعر ونسبه . ساهم فيــه

---

١ سار بجمع كالقطا مــــن قحطان ومن معد قد اتــى ابن عدنــــان
الاغاني (١٥١/٥) .

٢ Enc. Vol. 2, P. 655.

٣ Enc. Vol. 2, P. 655, Werner Caskel, Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber, S. 13.

٤ Wellhausen, Das Arabische Reich und sein Sturtz, S. 40, Enc. Vol. 2, P. 655.

الأخطل والكُميت ودِعْبِل الخزاعي وجرير بن عطيـة بن الخَطَفَى التميميّ واسحاق بن سويـد العَدَوي وغيرهم ، فكان مدح وكان ذم ، وكان تبـاهٍ وافتخار ، وكان قذع وهجاء . وبدلاً من أن يتدخل الحكام ومسيرو الأمة في اخماد نار هـذه الفتنة واسكات الشعراء جمعاً للصف ، ساهموا هم أنفسهم كما قلت في هذه المعركة وشجعوا المحاربين فيها ، ففرقوا بين العرب بسياستهم هذه وأطمعوا الأعاجم فيهم ، وجعلوا العرب يقاتل بعضهم بعضاً ، وبـذلك توقفت الفتوحات العربية الإسلامية ، نتيجة لهذه السياسة المفرقة الخرقاء .

ولم يقف هذا النزاع على التباهي بقحطان وعدنان وبالأيام وبالشجعان ، بل تجاوز ذلك الى التباهي بارتباط كل فريق بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافة ، فافتخرت النزارية بالفرس على اليمانيـة ، وعدوهم من ولد (اسحاق ابن ابراهيم) وافتخروا بإبراهيم جدّ العرب والفرس . ونظم (جرير بن عطية ابن الخَطَفى التميمي) ، في ذلك شعراً ، جاء فيه :

أبونا خليل الله لا تنكرونه ... فأكرم بابراهيم جداً ومفخرا
وأبناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا ... حمائل موت لابسين السَّنَّورا
اذا افتخروا عدّوا الصبهبذ منهم ... وكسرى وعدّوا الهرمزان وقيصرا
أبونا أبو اسحاق يجمع بيننا ... أب لا نبالي بعده من تأخرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا ... رضينا بما أعطى الإلـه وقدرا [1]

ومن هذا القبيل ، قول اسحاق بن سويد العدوي :

اذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد ... أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بدءاً بإسحاق عمّنا ... وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا
ويجمعنا والغـر أبناء فارس ... أب لا نبالي بعده من تفردا [2]

وقول بعض النزارية :

واسحـاق واسماعيـل مـدا ... معالي الفخر والحسب اللبابا
فوارس فـارس وبنو نزار ... كلا الفرعين قد كبرا وطابا [3]

---

١ التنبيـه (ص ٩٥) .
٢ التنبيـه (ص ٩٥) .
٣ التنبيـه (ص ٩٥) .

ولم يقف النزاريون عند هذا الحدّ ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن هذا النسب قديم ، وأن قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة ، وأن الفرس كانت في سالف الدهر تقصد الى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لابراهيم الخليل بانيه، وانه عندهم أجل الهياكل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم ، وأن رجلاً تولاه وأعطاه العــدة والبقاء ، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أن قائله هو أحد شعراء الجاهلية :

زمزمت الفرس على زمزم　　وذاك في سالفهــا الأقدم[1]

وترتب على هذا وضع نسب للفرس يتصل بنسب العرب العدنانيين ، فزعموا أن (منوشهر) الذي ينتسب اليه الفرس هو (منشخر بن منشخرباغ) ، وهو (يعيش بن ويزك) ، و (ويزك) هو اسحاق بن ابراهيم الخليل، واستشهدوا على زعمهم هذا بشعر ، قالوا ان بغض شعراء الفرس في الإسلام قاله مفتخراً :

أبونا ويزك وبه أسامي　　اذا افتخر المفاخر بالولاده
أبونا ويزك عبد رسول　　له شرف الرسالة والزهاده[2]

أما (يعيش بن ويزك) جد الفرس الجديد ، فهو (عيسو) (Esau) ، وفي العبرانية (Usu) ، ومعناها (مشعــر) أو (خشن) ، وهو شقيق يعقوب وجد الأدوميين في التوراة وابن إسحاق[3] . وأما (ويزك) فهو (يزك) أو (إيزك) (Isaac) (Icaak) وهو (إسحـاق) ، وهو في العبرانيــة (يصحق) (يصحك) (يصحاك) (Yishak) أي (الضحاك) . ويرى علماء التوراة ان الأصل اسم قبيلة كان يقال لها (يصحقيـل) (يصحق ال) (يضحك ال) (Yishhakel) (Yishakil) ، وهو والد (عيسو) و (يعقوب)[4].

وقد أسهم بعض الفرس أنفسهم في اذاعة هذا النسب ونشره ، وقد استشهد على صحة دعواه بالأشعار المذكورة التي تفتخر بالفرس على اليمانية ، وانهم من

١ التنبيـــه (ص ٩٥) .
٢ التنبيه (ص ٩٦) .
٣ Enc. Bibli. P. 1333, Budde, Urgeschi. S. 217, Hastings, P. 235.
٤ Enc. Bibli. P. 2175, Hastings, P. 386.

ولد أبيهم ابراهيم[1] . ولعلهم قالوا ذلك تقرباً الى الحكومة ، وهي عدنانية ، ولعوامل سياسية أخرى ، منها تقريب الفرس من العرب ، وضمان تعاونهم مع الخلافة في وجه النعرات القومية التي ظهرت في ايران .

ولم يكتف العدنانيون بقرابتهم للفرس وللاسرائيليين ، بل زعموا ان الأكراد من أقربائهم كذلك ، وانهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل ، أو انهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد ، أو انهم من نسل مضر بن نزار ، أو من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وانهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان ، وانهم اعتصموا بالجبال فحادوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم ، وصارت لغتهم أعجمية ، فذلك على رأي أهل الأخبار بدء نسب الأكراد[2] .

وقد لقي هذا النسب الجديد للأكراد تشجيعاً من بعض الأكراد في ايام العباسيين ، وربما في أيام أواخر الدولة الأموية كذلك ، فأيدوه وانقسموا أيضاً فرقاً في شجرات النسب ، فمنهم من أخذ بشجرة كرد بن مرد، ومنهم من أخذ بانتسابهم الى سبيع بن هوازن، ومنهم من انتسب الى ربيعة ثم الى بكر بن وائل[3] .

وكان من الطبيعي أن يجعل القحطانيون أعداء الفرس من ذوي أرحامهم، وهم اليونان فقالوا : إن يونان أخ لقحطان ، وإنه من ولد عابر بن شالخ ، وإنه خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته حتى وافى أقاصي بلاد المغرب فأقام هناك ، وانسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه ووازى من كان هناك في اللغة الأعجمية من الافرنجة ، فزالت نسبته ، وانقطع نسبه وصار منسياً في ديار اليمن . وقالوا أيضاً إن الاسكندر من تبع[4] . وكان من الطبيعي انزعاج العدنانيين من ربط نسب قحطان بيونان ، فانبروا للرد عليه، وكيف يرضون أن يكون للقحطانيين أبناء عمّ على شاكلة اليونانيين ، وقد

---

١ التنبيه (ص ٩٤) .
٢ مروج الذهب (٣٠٧/١ فما بعدها) التنبيه (ص ٧٨) .
٣ التنبيه والاشراف (ص ٧٨) .
٤ مروج الذهب (١٧٨/١) (وقد ذكر ان يونان اخو قحطان ... وقد كان يعقوب ابن اسحاق الكندي يذهب في نسب يونان الى ما ذكرنا) .

كانوا أمهر من الفرس ، ولهم دولة كبرى . فقال أحدهم ، وهو أبو العباس الناشىء :

وتخلط يونانًا بقحطان ضلة لعمري لقد باعدت بينهما جدًا[1]

وأضاف القحطانيون الأتراك اليهم أيضاً ، فزعموا أن معظم أجناس الترك وهم (التبت) من حمير ، وأن التبع (شمر يرعش) أو تبعاً آخر ربتهم هناك، وأن (شمر يرعش) هو الذي أمر ببناء (سمرقند) ، الى غير ذلك من أقوال لا ترضي العدنانيين بالطبع ، وفي ذلك يقول (دعبل بن علي الخزاعي) في قصيدته التي يرد بها على (الكميت) ، وفخر فيها بمن سلف من ملوكهم وسير في الأرض،وان لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان ، فقال في شعره:

هم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا[2]

وأضافوا (الضحاك) اليهم ، وصيروه من (الأزد) ، والأزد من اليمن، فهو يماني إذن أصيل[3] . و (الضحاك) هو (بيوراسب) عند أهل الأخبار . وقد ملكوه الف سنة . وهو بطل أسطوري عند الفرس[4] . وقد أخذ أهل الأخبار (ضحاكهم) هذا من (إسحاق) ، كما أخذ العدنانيون (ويزكهم) من (إسحاق) فصيروه (منشخر) على نحو ما ذكرت . وقد قلت إن معنى (إسحاق) في العبرانية الضحاك . فالقحطانيون فعلوا هذا فعل العدنانيين ، لجأوا الى اسحاق فصيروه (الضحاك) ، وبدلاً من أن يقولوا إنه (ويزك) من اسم (إسحاق) في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيروه اسماً عربياً هو الضحاك. وجعلوه قحطانياً من الأزد .

وكان كل فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر ، حين يضيف اليه أمة من الأمم . فلما ادعى العدنانيون انهم هم والاسرائيليون والأعاجم من نسب واحد ،

---

١ مروج الذهب (١٧٨/١) ، ابن خلدون (١٨٤/٢) .
٢ مروج الذهب (٣٠٠/١) .
٣ مروج الذهب (ص ٧٦) .
٤ التنبيه (ص ٧٥) .

انبرى (دعبل الخزاعي) يرد عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها :

فان يك آل اسرائيل منكم | وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازير اللواتي | مسخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم | وآثار قدمن وما محينا
لقد علمت نزار ان قومي | الى نصر النبوة فاخرينا

قال هذه القصيدة في الرد على (الكميت) ، وهو لسان من ألسنة النزارية، وقد تعرض فيها باليمانية وتهكم عليهم[1] .

حتى الموالي ، وهم كما نعلم من أصل غير عربي،أسهموا في هذه المعركة ، وحاربوا في الصفوف الأولى منها ، تعصب كـل منهم للجانب الذي دخل في ولائه . هذا (أبو نواس) ، وهو مولى (بني حـكم بن سعد العشيرة) ، يتعصب للقحطانية ويدافع بكل قواه عنها ، لأن (بني الحكم) من اليمن . وقد حمله تعصبه لهم على نظم قصيدة هجا فيها قبائل نزار بأسرها وافتخـر بقحطان وقبائلها ، وقد أوجعت النزاريين وآلمتهم ، فشكوه الى الخليفة الرشيد،وهو منهم، فأمر بحبسه بسببها ، وقيل انه حده لأجلها ، وأولها :

لست لدار عفت وغيّرها | ضربان من قطرها وحاصبها

ثم قال مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك :

فنحن أرباب ناعط ولنا | صنعاء والمسك في محاربها
وكان منا الضحاك يعبده الـ | ـخابل والطير في مساربها

ثم يستمر فيقول في هجاء نزار :

واهج نزارا وافرِ جلدتها | وكشّف السترَ عن مثالبها[2]

وأثارت هذه القصيدة جماعة من النزارية ، فردت عليه . وكان منهم رجل

---

١ مروج (١/٣٠٠) .
٢ التنبيه (ص ٧٦ فما بعدها) .

من (بني ربيعة بن نزار) ، فقال يذكر نزاراً ومناقبها ، واليمن ومثالبها في قصيدة أولها :

دع مدح دار خبا وانتهى عهد معدّ بزعم عاتبها

ثم استمر ، فقال :

فامدح معداً وافخر بمنصبها الـ ـعالي على الناس في مناصبها
وهتك الستر عن ذوي يمن أولاد قحطان غير هائبها [1]

وقد أنتج هذا النزاع القحطاني العدناني قصصاً وحكايات وشعراً دُوّن في الكتب ، وأنتج (حديثاً) زعم أن قائله هو الرسول ، قاله في مدح قحطان أو في مدح عدنان ، وأحياناً في مدح القبائل ، مثل : حمير ومذحّج وهمدان وغسّان ، وقبائل أخرى أو في مدح بيوتات معينة من مثل هذه القبائل .

لقد تلوّن هذا النزاع بلون أدبي زاهٍ لا يخلو من طرافة وإن كان قد أساء من الناحية السياسية الى هذه الأمة أيما اساءة . فقد لوّن اليمانون تأريخهم القديم بألوان زاهية جميلة من القصص والحكايات والأخبار ، فهم الذين زعموا أن قحطان هو ابن هود النبي ، فأوصلوا نسبهم بالأنبياء ، وهم الذين أوصلوا نسب قحطان الى إسماعيل ، فنفوا بذلك أي فضل كان للعدنانيين على القحطانيين في الآباء والأجداد ، وهم المسؤولون عن هذا التقسيم المشهور المعروف للعرب وجعل القحطانيين في الطبقة الأولى من العربية بالنسبة الى العدنانيين ، وهم الذين نظموا في الإسلام تلك الأشعار والقصائد التي ذكرها الرواة على أنها من نظم التبابعة وملوك القحطانيين ، وهم الذين ساقوا تلك الحكايات عن الفتوحات العظيمة لملوك اليمن وعن حكم القحطانيين للعدنانيين واستذلالهم إياهم .

وقد استغل العدنانيون ظهور الرسول بينهم ، فاتخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين . وقد أجابهم اليمانون على ذلك بأنهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول وإعلاء كلمة الله ، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي ، وهم الذين آووا الرسول وفتحوا مكة . وتمسك العدنانيون بأذيال

---

[1] التنبيه (ص ٧٧) .

إبراهيم وعدّوه جدهم الخاص بهم ، مع أنه جدّ العرب عامة ، كما في القرآن الكريم ، ونفوا كل مشاركة للقحطانيين في هذا النسب الشريف. وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجتهم ، فقد كان الرسول من صلب اسماعيل والرسول منهم ،فابراهيم هو أبو المختص بهم. ولرد دعوى الإسماعيليين هذه من اختصاص إسماعيل وابراهيم بهم . وصل بعض رواتهم نسب قحطان بإسماعيل وإبراهيم ، ولم يكتفوا بذلك فلا بد لهم من شرف زائد ، ورجحان على العدنانيين الذين لم يبدأ ملكهم إلا في الإسلام ، فاختصوا هوداً بهم ، وجعلوه نبياً يمانياً . ثم لم يقبلوا بنبي واحد زيادة على الأنبياء الذين اختص بهم العدنانيون فأضافوا اليهم صالحاً النبي وقالوا : إنه من صميم حمير وإنه صالح بن الهميع بن ذي ماذن نبي حمير من آل ذي رعين ، وزعموا أن ثقفياً كان غلاماً له [1] ، وحصلوا بذلك على نبي وطعنوا في ثقيف ، وهم من العدنانيين في الوقت نفسه ، وأضافوا اليهم نبياً آخر من صميم حمير سموه أسعد تبع الكامل بن ملكي كرب بن تبع الأكبر ابن تبع الأقرن ، وقالوا إنه ذو القرنين الذي قال الله تعالى فيه : (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) [2] . وذكروا أنه كان من أعظم التبابعة وأفصح شعراء العرب ، ولذلك قال بعض العلماء فيه ذهب ملك تبع بشعره ، ولولا ذلك لما قدم عليه شاعر من العرب وقالوا : نهى النبي عن سبّه ، لأنه آمن به قبل ظهوره بسبع مئة عام ، وليس ذلك إلا بوحي من الله عز وجلّ . وهو أول من كسا البيت ، وجعل له مفتاحاً من ذهب . وأوردوا له أشعاراً لاثبات ايمانه بالرسول تمنى فيها لو أدرك ايامه إذن لآمن به ، ولكان له وزيراً وابن عم ، ولألزم طاعته كل من على الأرض من عرب وعجم ، ورووا له أبياتاً في البيت الحرام ، وكيف كان يقصده فيمكث فيه تسعة أشهر ، وكيف كان ينحر في العام سبعين ألفاً من البدن [3] .

وزعموا فوق هذا كله أنه تنبأ بعودة ملك حمير حيث يظهر المهدي منهم ، وهو رجل حميري سبئي الأبوين ، يعيد الملك الى حمير بالعدل ، في هذه الأبيات التي رواها عُبَيْد بن شَرْيَةَ الجُرْهمي :

---

١ منتخبات (ص ٦٢) .
٢ منتخبات (ص ١٣) .
٣ منتخبات (ص ١٣)

ومن العجائب أن حمـ ـير سوف تعـلى بالقهور
ويسودها أهـل المـوا شي من نضير أو نضـير

يعني النضر بن كنانة ، وهـو قريش :

ويثيرهـا المنصـور من جنبي أزال كالصقـور
وهـو الإمام المرتجى المـ ـذكور من قدم الدهور

وأنه قال :

بمنصور حمـير المرتجى يعود من الملك ما قد ذهب
ويرجع بالعـدل سلطانها على الناس في عجمها والعرب

وقالو ان المنصور هو لقب القائم المنتظر الذي سيظهر ليعيد ملك حمير المسلوب[1] .

وذكروا انه كان في جملة ما قاله من شعر قوله :

واعلم بنيّ بأن كل قبيلة ستذل ان نهضت لها قحطان[2]

الى غير ذلك من أشعار نسبت اليه والى غيره من التبابعة تتحدث عن حقد القحطانيين على العدنانيين ، وعن ألمهم الشديد لفراق ملكهم وانتقال الحكم منهم الى المكيين ، وقد كانوا من أتباعهـم بالأمس . فعللوا أنفسهم بالتحدث عن الماضي ، ثم صبروا أنفسهم بالحديث عن ملك سيعود ، وعن دولة ستأتـي ، وعن مهدي يأخذ بالثأر ، كالذي يفعله المغلوبون . وجعلوا ذا القرنين الذي ورد اسمـه في سورة الكهف منهم[3] ، فقالـوا : هو الهميسع بن عمرو بن زيد ابن كهلان ، أو الصعب بن عبدالله بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر ، أو تبع الأكبر بن تبع الأقرن ، أو تبع الأقرن ، وكان مؤمناً عالماً عادلاً ، ملك جميع الأرض وطافها ، ومات في شمال بلاد الروم حيث يكون النهار ليلاً اذا انتهت الشمس الى برج الجـدي . وقد كان يقول الشعر ، وهو الذي بشر

---

١ منتخبات (ص ١٠٣) .
٢ منتخبات (ص ٨٣) .
٣ سورة الكهف : ١٨ ، الاية ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ .

بالنبي في شعره ، وطبيعي أن يكون واضعو هذه الأشعار أناساً من الأنصار ومن بقية فروع قحطان[1] .

وتعلق متعصبو اليمانية بالأبنية الفخمة وبالمدن الكبرى ، فجعلوها من أبنية ملوكهم أو من أبنية أسلافهم العرب العاربة . وقد ذكر المسعودي ان من اليمانية من يرى أن الهرمين اللذين في الجانب الغربي من فُسطاط مصر ، هما قبرا (شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر ، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم)[2] . ونسبوا لملوكهم الفتوحات الفخمة في الشرق والغرب .

وأضافوا اليهم لقمان الحكيم ، زعموا انه لقمان الحميري ، وقالوا انه كان حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان ، وهو الذي وقّت المواقيت ، وسمّى الشهور بأسماء مواقيتها . وزعموا أن ياسر ينعم ملك بعد سليمان بن داوود ، وسمي ينعم ، لأنه ردّ الملك الى حمير بعد ذهابه ، وان الضحاك ملك من الأزد كان في وقت ابراهيم فنصره . وبذلك كانت للقحطانيين منة قديمة على ابراهيم وعلى العدنانيين بصورة خاصة . وقالوا أشياء أخرى كثيرة ، قد يخرجنا ذكرها من صلب هذا الموضوع من أعمال وفتوحات لشمر يرعش وغيره من التبابعة[3] .

وقد لوّن العدنانيون تأريخهم ، واستعانوا بالشعر ، فوضعوا منه ما شاءوا في الرد على القحطانيين . قال ابن سلام « نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثرت منه في الإسلام »[4] ، وعقبوا على الروايات القحطانية . فلما ادعى اليمانون مثلاً ان تبعهم (أبا كرب) فتح العراق والشام والحجاز ، وانه امتلك البيت الحرام ، ونكل بالعدنانيين شر تنكيل ، وانه قال شعراً، منه :

---

١ قال النعمان بن بشير :

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر	كرام فذو القرنين منا وحاتم
ونحن بنينا سد يأجوج فاستوى	بايماننا ، هل يهدم السد هادم ؟

وقال لبيد :

والصعب ذو القرنين اصبح ثاويا	بالحنو في جدث هناك مقيم

منتخبات (ص ٦١ ، ٨٤ فما بعدها) .

٢ التنبيه (ص ١٨) .

٣ منتخبات (ص ٥٦ ، ٦٥)

٤ في الادب الجاهلي (ص ١٢٣) .

لست بالتبع اليماني إن لم | تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً | أو تعقني عوائق العواق

قال العدنانيون : نعم ، وقد كانت بين تبع هذا وقبائل نزار بن معد وقائع وحروب ، واجتمعت عليه معد من ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، فانتصرت عليه، وأخذت الثأر منه ، وفي ذلك قال أبو دُوّاد الإيادي :

ضربنا على تبّع حربه | حبال البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هارباً | وكان جباناً كثير الرهب
وأتبعته فهوى للجبين | وكان العزيز بها من غلب[1]

إلى غير ذلك من القصص والحكايات التي وضعها الرواة في صدر الإسلام حين احتدم الخلاف بين الأنصار وقريش ، سجلت في الكتب ، ورويت للناس، وانتشرت بينهم على انها أمور واقعية ، وان العرب كانوا من أصلين : قحطان وعدنان .

وقد كان لكل فريق رواة وأهل أخبار يقصون على الناس قصصاً وأخباراً في أخبار النزاع القحطاني العدناني . فوضع (عُبيد بن شَرية الجُرهمي) كثيراً من القصص والأشعار عن العرب الأولى وعن القحطانيين ، وضع ذلك لمعاوية ابن أبي سفيان ، وكان معاوية مغرماً بسماع أساطير الأولين وأخبار الماضين ، كما سبق أن أشرت الى ذلك .

ووضع (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، وهو شاعر متعصب لليمن ، قصص (تبع)[2] . جاء في كتاب الأغاني : « سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها ، فقال : ابن مفرغ . وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره الى الشام وتخلصه من عبيد الله بن زياد ، أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين ، وزعم أنه من حمير ، ووضع سيرة تبع وأشعاره . وكان النمر بن قاسط يدعي أنه منهم »[3] .

---

١ مروج الذهب (١/٣٠٠) .
٢ Muh. Stud. Bd. I,S. 97.
٣ الاغاني (١٧/٥٢) .

وظهرت كتب ضمت أخبار التبابعة وقصصهم ، أشار اليها المسعودي ، دعاها بـ (كتب التبابعة)[1] : وقد وقف عليها ونقل منهـا ، وهي كما يظهر من نقله ومن نقل غيره منها من هذه الأساطير المنسوبة الى عبيد ووهب ويزيد ابن المفرغ وأمثالهم من أصحاب القصص والأساطير .

وكان بين العدنانيين والقحطانيين جدل وكلام في لغة (اسماعيل) ، فاليمانيون ومنهم (الهيثم بن عدي الطائي) كانوا يرون أن لسان (إسماعيل) الأول هو اللسان السرياني ، ولم يكن يعرف العربية . فلما جاء الى مكة وتصاهر مع جرهم، أخذ لسانهم وتكلم به ، فصار عربيـاً . أما النزارية ، فكانت تنفي ذلك نفياً قاطعاً ، وترده رداً شديداً ، وتقول لو كان الحال كما تزعمون : (لوجب أن تكون لغته موافقة للغـة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة . وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان ، وولده يعرب بخلاف لسانه . وليست منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل ، ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة ابراهيم ، فأعطاه فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان)[2].فنفوا النزارية العربية عن قحطان أيضاً وصيروه كإسماعيل سرياني اللسان .

وقد عقب (المسعودي) على هذا النزاع النزاري القحطاني بقوله : « ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمـل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف »[3]. ونجد جملاً كثيرة من هذا النوع مبثوثة في كتابيه : مروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، تتحدث عن ذلك النزاع المرّ المؤسف الذي وقع بين العرب في تلك الأيام .

ولعل هـذه العصبية الجاهليـة ، هي التي حملت جماعة من المتكلمين منهم (ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس) و (عمرو بن بحر الجاحظ) على الرغم ان (النبط) خير من العرب ، لأن الرسول منهـم ، ففضلوهم بذلك على العدنانيين والقحطانيين . وهو قول رد العدنانيون والقحطانيون عليه[4] . قال به

---

١ مروج الذهب (٢٧٩) .
٢ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
٣ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
٤ مروج الذهب (٢٦٦/١ فما بعدها) .

المتكلمون متأثرين بآراء أهل الكتاب في أنساب أبناء إسماعيل وبآرائهم الاعتزالية التي تكره التعصب في مثل هـذه الأمور . وقد ذكر (المسعودي) شيئاً من الرد الذي وضعه القحطانيون والعدنانيون ضد هؤلاء .

العرب العاربة والعرب المستعربة :

أما مصطلح (العرب العاربة) و (العرب المستعربة) ، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والأخبار من المصطلحات القديمة التي تعود الى الجاهلية ، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها ، ونحن على يقين بأن الجاهليين لم يطلقونهما بالمعنى الذي ذهب اليه الإسلاميون ، بل قصدوا بهما القبائل البعيدة عن أرض الحضارة ، والقبائل القريبة منها ، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام والساكنة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية بـ (المستعربة) . و (المستعربة) مصطلح أطلق على هذه القبائل وعلى القبائل النازلة في سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشام ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس الذي يحيط بحدود الامبراطوريتين . ومن المستعربة غسان وإياد وتنوخ[1] . وقد فضلت غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحارى ، عرفت عندهم بـ (الحاضر) ، فكان في أكثر مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ[2] .

وقد وجدت في تأريخ الطبري خبراً زعم انه جرى بين (خالد بن الوليد) ، وبين (عدي بن عدي بن زيد العبادي) ، يفهم منه أن العرب : عرب عاربة وأخرى متعربة . وقد جرى بينهما على هذا النحو : (قال خالد : ويحكم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ، فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة . فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان الا بالعربية)[3] . فيفهم من هذا الحديث ان العرب : عرب عاربة وعرب متعربة . وهم أناس تعربوا فصاروا عرباً . وهو كلام معقول

١ البلاذري (١٧١) .
٢ البلاذري (١٨٠) ، و (الحاضر : الحي العظيم او القوم ... حاضرطيء) ، تاج العروس (١٤٨/٣) .
٣ الطبري (٣٦١/٣) .

مقبول ، ولا سيما بالنسبة الى الحيرة والعراق وبلاد الشام ، حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربياً في الأصل فصاروا عرباً ، لسانهم لسان العرب . ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع تقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند أهل الأخبار والتأريخ ، أي عرب قحطانيون وعرب عدنانيون . وكل ما قصد به ان صح ان هذا الكلام هو كلام (خالد) وكلام (عدي) حقاً تعنيف وتأنيب لعدي بن عدي بن زيد على وقوفه هو وقومه وأهل الحيرة موقفاً معادياً للمسلمين ، وتأييدهم للفرس ولدفاعهم عنهم ، مع انهم عجم بعيدون عنهم . فكأنه قال لهم : لو كنتم عرباً فكيف تؤيدون عجماً علينا ونحن عرب ؟ و (عدي) من العرب ، وأبوه من تميم كما يقول النسابون . فهو ليس من العرب الأخرى المتعربة ، ولكن من العرب العاربة ، أي عرب بالأصالة ، كما أن خالداً نفسه من العرب العاربة ، لأنه عربي أصلاً وان كان عدنانياً . فلم يقصد بالعرب العاربة هنا العرب القحطانيين ، ولا بالعرب المتعربة العرب العدنانيين . فالعرب المتعربة اذن هم المتعربون من أهل الحيرة وغيرهم ، ممن كانوا من النبط وبني إرم أو غيرهم ثم دخلوا بين العرب ولحقوا بهم ، فصار لسانهم لساناً عربياً مثل العرب الآخرين وتعربوا بذلك .

ويلاحظ ان (غسان) قد أدخلت في (المستعربة) ، مع انها من العرب العاربة ، أي من العرب القحطانيين في عرف النسابين . وفي ذلك دلالة على ان مدلول العرب العاربة والعرب المستعربة لم يكن في الجاهلية وفي صدر الإسلام بالمعنى الذي صار عليه عند علماء النسب وأهل الأخبار ، وان تخصيص العرب العاربة بالقبائل التي ترجع نفسها الى اليمن ، والعرب المستعربة بالقبائل التي يرجعون نسبها الى عدنان ، قد وقع من النسابين في أيام الأمويين فما بعد .

الفصل الثاني عشر

طبقات القبائل

ورتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب ، هي : شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم وبني أمية ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس[1] . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة ، هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل[2] . وبنى (النويري) طبقات القبائل على عشر طبقات هي : الجِذْم ، والجماهير ، والشعوب ، والقبائل ، والعمائر ، والبطون ، والأفخاذ ، والعشائر ، والفصائل والأرهاط[3] . ورتب (نشوان ابن سعيد الحميري) القبائل على هذا النحو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الجيل ، ثم الفصيلة . وجعل مضر مثال الشعب ، وكنانة مثال القبيلة ، وقريشاً مثال العمارة ، وفهراً مثال البطن ، وقُصَيّاً مثال الفخذ ، وهاشماً للجيل ، وآل العباس للفصيلة [4] .

---

١ بلوغ الارب (١٨٧/٣ فما بعدها) ، اللسان (٥٧/١٤) ، (البطن دون القبيلة ، وقيل هو دون الفخذ وفوق العمارة) ، اللسان (١٩٩/١٦) ، الاكليل (٢٢/١) .
٢ العقد الفريد (٢٨٣/٣ فما بعدها) .
٣ نهاية الارب (٢٦٢/٢ فما بعدها) .
٤ منتخبات (ص ٥٥) .

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة ، والظاهر ان هذه الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حيث ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع ، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير الى هذا المعنى ، مثل اطلاقهم العرب على العرب جميعاً اصطلاحاً ، وحيث أخذ الحس القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة الغرباء ، كالذي حدث في معارك اليمن مع الحبش ، وفي معارك عرب العراق مع الفرس . وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على القبائل « وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لِتَعارفوا »[1] . فالشعوب هنا فوق القبائل وتعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه .

وزاد بعض العلماء الجذم ، بأن وضعوها قبل الشعب ، ووضعوا الفصيلة بعد العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة : الجذم ، ثم الجمهور ، ثم الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة ، ثم الرهط ، ثم الأسرة ، ثم العترة ، ثم الذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة ، هي : البيت ، والحي ، والجماع .

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب ، هو في الترتيب ، أي من حيث التقديم والتأخير ، وفي اضافة بعض المصطلحات أو في نقصها . أما من حيث العموم ، فإننا نجدهم يتفقون في الغالب،ولا يختلفون أبداً في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات . ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القريبين من الإسلام . أما بالنسبة الى الجاهليين البعيدين عنه ، فلن يكون حكمنا عليهم علمياً إلا إذا أخذنا مصطلحاتهم من كتاباتهم . ولم نتمكن ويا للأسف من الحصول على مادة منها تفيدنا في هذا الباب . فليس لنا إلا الصبر والانتظار .

والقبيلة : الجماعة تنتمي الى نسب واحد[2] ، ويرجع ذلك النسب الى جد أعلى ، أو الى جدّة وهو في الأقل . ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها

---

١ الحجرات ، الرقم ٤٩ ، الاية ١٣ .
٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٤٠٠) .

العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين[1] .

والقبيلـــة هي المجتمع الأكبر بالنسبة الى أهـل البادية ، فليس فوقها مجتمع عندهم . وهي في معنى (شعب) عندنا وفي مصطلحنا الحديث . وتتفرع من القبيلة فروع وأغصان ، هي دون القبيلة ، لأنها في منزلة الفروع من الشجرة : ثم اختلفوا في عدد الفروع المتفرعة من القبيلة ، فجعل بعضهم بعد القبيلة العمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ثم الفصيلة [2] ، وجعل بعض آخر ما دون القبيلة : العمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وزاد بعض آخر قبل الشعب الجِذم، وبعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتب بعض النسابين طبقات النسب على هذا النحو : جذم ، ثم جمهـور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد بعضهم في أثنائها ثلاثة ، وهي : البيت والحي ، والجماع[3] .

ويدل اختلاف النسابين في ضبط أسماء ما فوق القبيلة أو ما تحتها،واضطرابهم في الترتيب على أن هـــذا الترتيب لم يكن ترتيباً جاهلياً أجمع الجاهليون عليه ، وإلا لما تباينوا هذا التباين فيه ، ولما اختلفوا هذا الاختلاف في سرده ، إنمـــا هو ترتيب اجتهادي أخذه العلماء من أفواه الرواة ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم ومن اجتهادهم أنفسهم ، فرتبوها على وفق ذلك الاجتهاد .

وأكثر هذه المصطلحات لم ترد لا في الكتابات الجاهلية ولا في الشعر المنسوب الى الجاهليين ، لذلك يصعب على الانسان أن يبدي رأياً علمياً مقبولاً فيهـــا ، وأعتقد أن خير ما يمكن فعله في هـــذا الباب هو استنطاق الكتابات الجاهلية وتفلية الشعر الجاهلي للبحث عما فيه من مصطلحات تتعلق بالنظم القبلية ، وعندئذ نتمكن من تكوين رأي قريب من الصواب والصحة في هذا الموضوع .

ومن أجل ذلك قال (روبرتسن سمث) ان البطن والحي هما أساس أقـــدم أشكال المجتمعات السياسية عند الساميين .

---

١ Naval, P. 403.

٢ بلوغ الارب (١٨٨/٣) .

٣ بلوغ الارب (١٨٨/٣) .

كما استدل من أسماء بعض القبائل التي تحمل أسماء بعض الحيوانات ، مثل : بني أسد ، وبني كلب ، وبني بدن ، وبني ثعلب ، وبني ثور ، وبني بكر ، وبني ضب ، وبني غراب ، وبني فهد ، وما شاكل ذلك من أسماء جماعة من القبائل ، وبعضها عمائر ، وبعضها بطون أو فصائل على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أن هذه الأسماء هي من ذكريات (الطوطمية) القديمة .

وقد تأثر بنظريته هذه جماعة من العلماء . وعدّ بعض العلماء نظرية (الطوطمية) مفتاحاً يوصل الى حل كثير من المسائل الغامضة من تأريخ البشرية القديم .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على أن تنوخاً اسم لعشر قبائل ، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

وينطبق ما قلته عن تنظيم القبيلة وبناء الأنساب عليه على أهل الحضر أيضاً . فالحضر ، ولا سيما حضر الحجاز ، وان استقروا وأقاموا غير أنهم لم يتمكنوا من ترك النظم البدوية الاجتماعية القائمة على مراعاة قواعد النسب وفقاً للتقسيمات المذكورة . وهي تقسيمات أوجدتها طبيعة الحياة في البادية ، تلك الحياة الشحيحة التي لا تتحمل طاقاتها تقديم ما يحتاج اليه مجتمع كبير مستقر من مأكل وماء ، ولذلك اضطرت المجتمعات الكبرى ، وهي القبائل، على التشتت والانقسام والانتشار كتلاً تختلف درجات حجمها حسب طبيعة الأرض التي نزلت بها ، من حيث الكرم والبخل . ولما استقر بعض هؤلاء البدو وتحضروا في أماكن ثابتة مثل مكة ويثرب والطائف ، حافظوا على نظمهم الاجتماعية المذكورة الموروثة من حياة البادية ، وعاشوا في مدرهم أحياءً وشعاباً عيشة قائمة على أساس الروابط الدموية والنسب ، كما سأتحدث عن ذلك في الحياة الاجتماعية .

والنسب عند العرب ، هو نسب يقوم إذن على الطبقات المذكورة ، كما أن

الطبقات المذكورة قائمة على دعوى النسب ، فبين النسب وبناء المجتمع ، صلة وارتباط ، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر . ولهذا نجد شجرات الأنساب تتفرع وتورق وتزهر على هذا الأساس .

وأنا لا أستثني المجتمع العربي في الجنوب ، الذي تغلب عليه حياة الاستقرار والسكن والاستيطان من هذا التنظيم . فنحن وإن لم نتمكن حتى الآن من الحصول على كتابات كافية تقدم لنا صورة واضحة عن الأنساب وعن تنظيمات المجتمع عند المعينيين والسبئيين وغيرهم من العرب الجنوبيين ، غير أن في بعض الكتابات التي وصلت الينا اشارات تفيد وجود هذا التنظيم عند العرب الجنوبيين ..

والعرب الجنوبيون وإن غلبت عليهم حياة السكن والاستقرار ، غير أن زمانهم لم يتمكن من تحرير نفسه من قيود الحياة القبلية ، ولم يكن من الممكن بالنسبة لهم الابتعاد عن الاحتماء بالعصبية القبلية وبعرف القبيلة ، فالطبيعة اذ ذاك طبيعة حتمت على الناس التمسك بتلك النظم لحماية أنفسهم وللدفاع عن أموالهم حيث لا حق يحمي المرء غير حق العصبية القائم على أساس النسب والدم .

ويعبر عن القبيلة بلفظة (شعم) و (شعبن) في العربيات الجنوبية . أي (قبيلة) و (القبيلة)[1] . أما لفظة (القبيلة) فلم أعثر على وجود لها في كتابات المسند . فلعلها من الألفاظ الخاصة بأهل الحجاز ونجد . وأما ما دون (الشعب) ، أي القبيلة في اصطلاحنا، فلم أقف على مسمياتها بالنحو الذي يذكره أهل الأنساب. وإنما نجد العرب الجنوبيين يقسمون القبيلة الى أقسام ، مثل (ربعن) أي (ربع) و (ثلثن) أي ثلث . ويريدون بذلك ، ربع قبيلة وثلث قبيلة . وربما كانوا يقسمونها إلى أقسام أخرى ، لم تصل أسماؤها الينا ، ولعل الأيام ستزودنا بما كان العرب الجنوبيون يستعملونه من مصطلحات في النسب عندهم، وذلك قبل الإسلام بزمان طويل ، وبالمصطلحات التي كانوا يطلقونها على فروع القبيلة في تلك الأوقات .

وبينما نجد أهل الأنساب ينسبون أهل الوبر وأهل المدر الى أجداد ، عاشوا

---

١ راجع النصوص : ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ من كتاب «نشر نقوش سامية قديمة» لخليل يحيى نامي .

وماتوا ، نجد المعينيين مثلاً . يستعملون جملة . (أولدهو ود)[1] . أي (أولاد ودّ) ، و (ودّ) هو إلـه شعب معين الأكبر . كما نجد السبئيين يطلقون على أنفسهم (ولد المقه)[2] ، أي أولاد الإلـه (المقه) . والمقه كما سنرى فيما بعد ، هو إلـه سبأ الأول . ونجد القتبانيين يدعون أنفسهم (ولد عم) ، أي أولاد عم[3] . ومعنى هذا ، ان كل قبيلة من القبائل المذكورة، نسبت نفسها إلى إلهها الخاص بها واحتمت به ، تماماً كما فعل العبرانيون وغيرهم ، إذ نسبوا أنفسهم إلى إلـه قومي اعتبروه إلههم الخاص بهم ، المدافع عنهم ، والذي يرزقهم وينفعهم . وقد يعدّ هذا نسباً . أما نسب على النحو الذي يقصده ويريده أهل الأخبار ، أي جد عاش ومات وله أولاد وحفدة ، فهذا لم يصل خبره الينا في كتابات المسند ، بل في كل ما وصل الينا من كتابات جاهلية حتى الآن .

الأنساب :

وأقرب تفسير الى أنساب العرب في نظري هو ان النسب ، ليس بالشكل المفهوم المعروف من الكلمة ، وانما هو كناية عن (حلف) يجمع قبائل توحدت مصالحها ، واشتركت منافعها ، فاتفقت على عقد حلف فيما بينها ، فانضم بعضها الى بعض ، واحتمى الضعيف منها بالقوي ، وتولدت من المجموع قوة ووحدة ، وبذلك حافظت تلك القبائل المتحالفة على مصالحها وحقوقها . قال البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم » .

لقد حملت الضرورات قبائل جزيرة العرب على تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف

---

١ Euting 57, Jaussen et Savignac, Mission, I, P. 255, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

٢ Glaser 1000 A.

٣ Glaser 1600, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإن هذه الرابطة تنتهي الى نسب ، حيث يشعر أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جد واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنظم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى، وهكذا نجد في جزيرة العرب أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف .

لم يكن في مقدور العشائر أو القبائل الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي ، يشد أزرها اذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، الا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، يذكر أهل الأخبار انها كانت تتفاخر لذلك بأنفسها ، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت كما انتهت عند العرب إلى نسب ، حيث يشعر المتحالفون انهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد . ويقال للحلف أيضاً (تحالف) ، وعند اليمانين (تكلع) .

ويرى (كولدتزيهر) انه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف فإنها أساس تكوّن أنساب القبائل ، فإن هذه الأحلاف التي تجمع شمل عدد من البطون والعشائر والقبائل هي التي تكوّن القبائل والأنساب ، كما ان تفكك الأحلاف وانحلالها يسبب تفكك الأنساب وتكوين أنساب جديدة ويرى أيضاً أن الدوافع التي تكوّن هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي ، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة. ولذا نجد الضعيف منها يفتش عن حليف قوي، فانضمت (كعب) مثلاً الى (بني مازن) وهم أقوى من (كعب) ، وانضمت (خزاعة) الى (بني مدلج) ، كما تحالفت (بنو عامر) مع (اياد) وأمثلة أخرى عديدة . ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل الفعال في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، فمتى نفذت

أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ انحل الحلف . وتعد هذه الناحية من النواحـــي الضعيفة في التأريخ العربـي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل المحلية التي تخص القبائل ، ولم تكن موجهة للدفاع عن جزيرة العرب ولمقاولة أعـــداء العرب . ولا يمكن أن نطلب من نظام يقوم على العصبية القبليـة أن يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فإذا ارتحلت عنها ونزلت في أرض جديدة، كانت الأرض الجديدة المواطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

خذ اختلاف النسابين في نسب بعض القبائل وتشككهم فيه ، فإنه في الواقع دليل قوي يؤيد هذا الرأي، فقـــد اختلف في نسب (أنمار) مثلاً . فمنهم من عدّها من ولـــد (نزار) ، ومنهم من أضافها الى اليمن . والذين يضيفونها الى (نزار) يقولون ان انماراً من نزار ، وأنمـــار هو شقيق ربيعـــة ومضر وإياد ، فهو أحد أبنـــاء نزار . دخل نسله في اليمن ، فأضيفوا اليه ، ومن هنا حدث هذا الاختلاف . أما اليمانية ، فانهم يرون أن أنماراً هو منهم ، وقد كان أحد ولـــد (سبأ) العشرة . فهو عندهم شقيق لخم وجذام وعاملة وغسان وحمير والأزد ومذحج وكنانة والأشعرين ويرون أن بجيـــلة ، وخثعماً من أنمار. ويستدلون على ذلك بحديث ينسبونه الى الرسول .

وأما الذين يرجعون نسبه إلى (نزار) فيستدلون على نسبه هذا بحديث ينسبونه إلى الرسول أيضاً . وفي الجملة لا يهمنا هنا موضوع نسب (أنمار) أكان في اليمن أم كان في نزار ، وانما الذي يهمنا أن الأحـــلاف تؤثر تأثيراً كبيراً في نشوء النسب ، فلولا دخول أنمار في اليمن ونزولها بين قبائل يمانية ، لما دخل نسبها في اليمن . ولولا دخول أنمار في قبائل عدنانية وتحالفها معها لما عدها النسابون من نزار ، ولما عدّوا أنماراً ابناً من أبناء نزار الأربعة . فاختلاط (أنمار) في اليمن وفي نزار وترددها بين الجماعتين هو الذي أوقع النسابين في مشكلة نسبها .

وطالما دفعت الحروب القبائل المغلوبة على الخضوع لسيادة القبائل الغالبة وقد تتحالف معها وتدخل في جوارها، وإذا دام ذلك طويلاً ، فقد يتحول الحلف والجـوار الى

نسب. ثم إن تقاتل القبائل بعضها مع بعض يؤدى أحياناً الى ارتحال بعض هذه القبائل المتقاتلة الى مواطن جديدة فتنزل بين قبائل أخرى ، وتعقد معها حلفاً وتجاورها ومتى طال ذلك صار نسباً ، كالذي ذكره أهل الأنساب من نزوح قبائل عدنانية الى اليمن بسبب تقاتلها بعضها مع بعض ، مما أدى الى دخول نسبها في اليمن ، وكالذي ذكروه أيضاً من نزوح قبائل يمانية نحو الشمال واختلاطها بقبائل عدنانية مما أدى الى دخول نسبها في نسب تلك القبائل .

وتجد في كتب الأنساب والأخبار أمثلة كثيرة على اختلاط أنساب قبائل معروفة في عدنان وفي قحطان ، كما رأيت فعل السياسة في تكييف النسب في مصدر الاسلام وفي عهد الدولة الأموية وتنظيمه ، كما رأيت كيف أن بعض النسابين ينسبون قبيلة الى أب قحطاني على حين ينسبها بعض آخر الى أب عدناني ، وكيف أن نسابي القبيلة كانوا يرون رأياً آخر . وقد رأيت كيف أن بعضهم رجع نسب ثقيف الى (ثمود) بغضاً للحجاج الذي كان من ثقيف ، ورأيت أيضاً اختلاف النسابين فيما بينهم في رسم شجرات الأنساب .

لقد وقع هذا الاختلاف لعوامل عديدة سياسية وجغرافية وعاطفية ، لا يدخل البحث فيها في هذا المكان .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على ان تنوخاً اسم لعشر قبائل ، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار .

وبين أجداد القبائل والأسر الذين يذكرهم أهل الأنساب ، أجداد كانوا أجداداً حقاً ، عاشوا وماتوا . وقد برزوا بغزواتهم وبقوة شخصياتهم ، وكونوا لقبائلهم وللقبائل المتحالفة معها أو التابعة لها مكانة بارزة ، جعلتها تفتخر بانتسابها اليهم ، حتى خلد ذلك الفخر على هيأة نسب . ونجد في كتب الأنساب أمثلة عديدة لهؤلاء .

(الطوطمية) ودور الأمومة عند العرب :

وقد لاحظ العلماء المحدثون ان بين أسماء القبائل ، أسماء هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد أو أجرام فلكية . كما لاحظوا ان بين المصطلحات الواردة في النسب مصطلحات لها علاقة بالجسم وبالدم . وقد وجدوا ان بين هذه التسميات والمصطلحات وبين البحوث التي قاموا بها في موضوع دراسة المجتمعات البدائية صلة وعلاقة . وان للتسميات المذكورة صلة وثيقة بـ (الطوطمية) ؛ كما ان للمصطلحات صلة بما يسمى بـ (دور الأمومة) أو (زواج الأمومة)عند علماء الاجتماع .

والطوطمية نظرية وضعها (ماك لينان) (مكلينان) المتوفى سنة ١٨٨١م ، خلاصتها :

١ ـ ان الطوطمية دور مرّ على القبائل البدائية ، وهي لا تزال بين أكثر الشعوب اغراقاً في البدائية والعزلة .
٢ ـ ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً، كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد انها متسلسلة منه وتسمى باسمه .
٣ ـ تعتقد تلك القبائل ان طوطمها يحميها ويدافع عنها ، أو هو على الأقل لا يؤذيها وان كان الأذى طبعه .
٤ ـ لذلك تقدس القبيلة طوطمها وتتقرب اليه وقد تتعبد له .
٥ ـ الزواج ممنوع بين أهل الطوطم الواحد ، ويذهبون إلى الزواج من قبائل غريبة عن قبيلة الطوطم المذكور . وهو ما يعبر عنه بـ (Exogamy) في اللغة الانكليزية . اذ يعتقدون ان التزاوج من بين أفراد القبيلة الواحدة ذو ضرر بالغ ، ومهلك للقبيلة ، لذلك يتزوج رجال القبيلة نساءً من قبيلة أخرى غريبة ، لا ترتبط بطوطم هذه القبيلة، والمخالف لهذه القاعدة ، أي الذي يتزوج امرأة من قبيلته يعرض نفسه للعقوبات قد تصل الى الحكم عليه بالموت .
٦ ـ الأبوة غير معروفة عند أهل الطوطم، ومرجع النسب عندهم إلى الأم .
٧ ـ لا عبرة عندهم إلى العائلة ، والقرابة هي قرابة الطوطم ، فأهل الطوطم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد[١] .

١ من كتاب جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي (٢٤٤/٣ وما بعدها)

والطوطمية (Totemism) ، لفظة أخذت من كلمــة (Ototemom) ، وهي من كلمات قبيلة (Ojibwa) من قبائل هنود أمريكا [1] . اشتق منها (لانك) (J. Lang) كلمة (توتم) (Totem) ،ومنها أخذ اصطلاح (طوطمية) (توتميسم) (Totemism) [2] الذي يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهـم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسة ، ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحهـا أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها [3] . وتشمل الطوطمية النباتات كذلك ، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها أو إلحاق الأذى بها . وقد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهــر الطبيعة مثل المطر والنجوم والكواكب[4] .

وهم يؤمنون بأن (الطوطم) لا يؤذي أتباعه . فلا يخافون منه ، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية ، الـتي تلحق الأذى بالإنسان ، كالحية أو العقرب أو الذئب . وهم يعتقدون أيضاً أنــه يدفع عنهم ، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب وقوع خطر على أتباعه ، وذلك بعلامات واشارات على نحو ما يقــال له الزجر والطيرة والفأل .

وهم يتقربون الى طوطمهم ، محاولة منهم في كسب رضـاه ، فيقلدونه في شكله ومظهره ، وقد يلبسوا جلده أو جزءاً من جلده ، أو يعلقون جزءاً منـه في أعناقهم أو أذرعهم عــلى نحو من التعاويذ . لأنه يحميهم بذلك ويمنع عنهم كل سوء . كما يحتفلون به وبالمناسبات مثل مناسبات الولادة أو الزواج أو الوفاة بنقش رمز الطوطم على ظهر المولود ، أو دهن الجسم بدهن مقدس من دهان ذلك الطوطم الى آخر ما هنالك من أعراف وتقاليد [5].

ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بـين أفرادها ، أي بوجود صلة رحم بينها . والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة اليه وتلتف حوله ، ليكون حاميها والمدافع عنها في الملمات . ومن أصحاب هذا المذهب من لا يذكر اسم الطوطم ، بل يُكنى عنه . ويجوز أن يكون ذلك خوفاً

---

١ Enc. Reli. Vol. 9, P. 454, Peter Jones, History of the Ojibwa Indians, London, 1961, Enc. Reli. Vol. 12, P. 393.

٢ Voyages and Travels of an Indian Interpreter and Trader, London, 1791.

٣ Lang, Voyages, P. 87, Wesleyen, Journals of Two Expeditions of Discovery in N.W. and W. Australia, London, 1841, 11, 225, f. 391.

٤ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394.

٥ التمدن الاسلامي (٣/٢٤٢ وما بعدها) .

منه ، أو احتراماً له . وقد يرسم له شعار تحمله الجماعة وأفرادها . ولها قوانين وآراء في موضوع الزواج الذي تترتب عليه قضية القرابة وصلات الرحم[1] .

وللعلماء نظريات وآراء في الطوطمية . وهي منصبّة على دراسة الناحية الاجتماعية منها ، من حيث كون « الطوطمية » نظاماً اجتماعياً يقوم على أساس مجتمع صغير مبني على العشيرة أو القبيلة . أما الدراسات الدينية للطوطمية ، فهي بعد هذه الدراسة من حيث التوسع والتبسط في الموضوع . وأكثر هذه الدراسات أيضاً عن قبائل هنود أمريكا الشمالية وعن قبائل اوستراليا ثم افريقية . أما أثر الطوطمية عند الشعوب القديمة مثل اليونان والشعوب السامية فإن بحوث العلماء في المراحل الأولى من البحث ، وهي مستمدة بالطبع من الاشارات الواردة في الكتابات أو المؤلفات أو من دراسات الأسماء .

ومن أشهر أصحاب النظريات في موضوع الطوطمية (تيلر) (Sir E. B. Tylor)[2] و (سير جيمس فريزر) (Sir J. G. Frazer) ، وهذا الأخير يرفض نظرية الذاهبين الى أن الطوطمية في شكلها الأول هي ديانة ؛ لأن الطوطم لا يعبد كما يقول على صورة صنم[3] .

ومن أسماء الحيوانات التي تسمّت بها البطون والعشائر : كلب ، وذئب ، ودبّ ، وسلحفاة ، ونسر ، وثعلب ، وهرّ ، وبطة ، وثور ، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطواطم . يضاف الى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى وطائفة من أسماء الأسماك . وقد ذكر (بيتر جونس (Peter Jones) أربعين بطناً من بطون قبيلة الـ (Ajibwa) لها أسماء حيوانات[4] .

وقد لاحظ (روبرتسن سمث) (Robertson Smith) ان في أسماء القبائل عند العرب أسماء كثيرة هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد . فاتخذ من هذه الأسماء دليلاً على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أثرها في الجاهليين .

---

١ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394, J. Lubbach, Origin of Civilization, 1905, A. Lang, The Secret of the Tate. 1905, Frazer, Totemism and exogemy, 4. Vols. 1910, Frend, Tatem and Tabu, 5. ed. 1934.

٢ Taylor, Primitive Culture, Vol. I, P. 402.

٣ Bowman, P. 98. f.

٤ Enc. Religi. Vol. 12, P. 394.

فأسماء مثل : بني كلب ، وبني كليب ، والنمر ، والذئب ، والفهد ، والضبع والدب ، والوبرة ، والسيد ، والسرحان ، وبكر ، وبني بدن ، وبني أسد ، وبني بهثة ، وبني ثور ، وبني جحش ، وبني ضبّة ، وبني جعل ، وبني جعدة ، وبني الأرقم ، وبني دُئل ، وبني يربوع ، وقريش ، وعنزة ، وبني حنش ، وبني غراب ، وبني فهد ، وبني عقاب ، وبني أوس ، وبني حنظلة ، وبني عقرب ، وبني غنم ، وبني عفرس ، وبني كوكب، وبني قنفذ، وبني الثعلب ، والسيد ، وبني قنفذ ، وبني عجل ، وبني انعاقه ، وبني هوزن، وبني ضب ، وبني قراد ، وبني جراد[1] ، وما شاكل ذلك من أسماء ، لا يمكن في نظره الا أن تكون أثراً من آثار الطوطمية ، ودليلاً ثابتاً واضحاً على وجودها عندهم في القديم[2] .

وقد لاقى تطبيق روبرتسن سمث نظرية (الطوطمية) على العرب الجاهليين ، ترحيباً عند بعض المستشرقين ، كما لاقى معارضة من بعضهم . وقد رد عليه (جرجي زيدان) في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) ، وبيّن أسباب اعتراضه على ذلك التطبيق[3] .

دور الأمومة :

واتخذ (روبرتسن سمث) من تسمي بعض القبائل بأسماء مؤنثة مثل : (مدركة) (وطابخة) و (خندف) و (ظاعنة) و (قيلة) و (جديلة) و (مُرّة) و (عطيّة) ، وأمثالها ، دليلاً على وجود ما يسمى بـ (دور الأمومة) عند العرب . وهو دور لم يكن للنساء فيه أزواج معيّنون ، لأن الزواج لم يكن فيه بالمعنى المفهوم من الزوجية عندنا ، بل كان الرجل يجتمع بالمرأة ثم يتركها ، ليجتمع بامرأة أخرى ، وهكذا تكون المرأة قد اتصلت بجملة رجال ، كما يكون الرجل قد اتصل بجملة نساء . واذ كانت المرأة لم تكن تعرف زوجها الذي

---

١ الاكليل (١٨٢/١ وما بعدها) ، الاشتقاق (٩٠ ، ١٨٧) ، التمدن الاسلامي(٢٦٦/٣) Kinship, P. 188.

٢ Robertson Smith. Kinship and Marriage in Early Arabia. Religion of the Semites, 2nd. ed. London, 1894, P. 35.

٣ (حـ ٣/ ٢٤٠ وما بعدها) .

تحمل مولودها ، ولا يعرف المولود والده نُسب إلى أمه وعرف بها . وبهذا التفسير ، فسر (روبرتسن سمث) ومن ذهب مذهبه من علماء علم الاجتماع ، وجود الأسماء المؤنثة عند العرب وعند العبرانيين وعند بقية الساميين[1] .

واتخذ (روبرتسن سمث) من وجود بعض الكلمات في تسلسل أنساب القبائل مثل : البطن والفخذ والصلب والظهر والدم و (رحم) ، دليلاً آخر على وجود (دور الأمومة) عند العرب ، لأن لهذه الألفاظ صلة بالجسم ، ولهذا كان اطلاقها عند قدماء العرب – على حد قوله – علاقة بجسم الأم . ولا سيما أنهم استعملوا لفظة (الحي) كذلك . ولهذه اللفظة علاقة بالحياة وبالدم . واطلاق الألفاظ في نظره ورأيه على معان اجتماعية ، دليل على الصلة التي كانت للأم في المجتمع لذلك العهد[2] .

وقد بحث (روبرتسن سمث) بحثاً مفصلاً في الحي ، إذ هو في نظره وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها[3] . ويطلق على (الحي) لفظة (قوم) و(أهل). وينظر أبناء الحي الواحد بعضهم الى بعض نظرة قرابة ، فكأنهم من نسل واحد يربط بينهم دم واحد . وقد استدل (روبرتسن سمث) من معنى (الحي) على وجود معنى الحياة في الكلمة في الأصل ، كما هو الحال في اللغات السامية ، ورأى لذلك أنها تمثل رابطة قرابة وصلة رحم عند سائر العرب السامية . ويكون أعضاء الحي الأحرار (صرحاء) ، وفي العبرانية (أزراح) . أما الذين ينتمون اليه بالولاء ، فهم (الموالي) يستجيرون به أو بالقبائل أو الأفراد ، فيلقون حماية من يستجيرون بهم ، ويكون (الجار) في رعاية مجيره .

و (البطن) في نظر (روبرتسن سمث) هو أقدم أوضاع المجتمع السامي القديم ، ويقوم على أساس الاعتقاد بوجود القرابة والروابط الدموية . ويرى أن مفهومه عند قدماء الساميين كان يختلف اختلافاً بيّناً عنه عند العرب المتأخرين ،

---

١ Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, Cambridge, 1885.

٢ Kinship, P. 37. ff. Smith, Religion of the Semites, London, 1894, P. 35.

٣ (الحي : الواحد من احياء العرب ، والحي البطن من بطون العرب . ويقع على بني اب كثروا ام قلوا) ، اللسان (١٨/٢٣٥) ، (والعمارة : الحي العظيم يقوم بنفسه) ، المفضليات (ص ٤١٤) ، بلوغ الارب (٣/١٨٩) . (الحي) ديوان الطرماح (٩٥ ، ١١٤)

أو عند العبرانيين ، أو غيرهم . وقد فهم من اللفظة معنى المجموع الأكبر عند العرب ، أي معنى (شعب) أو (جذم) أو قبيلة ، ورأى أن هـــذا المعنى هو المعنى القديم للكلمة عند العرب[١] . أما المعاني التي يذكرها علماء اللغة والأدب والأخبار ، فهي في نظره معان متأخرة وضعت في الجاهلية القريبة من الإسلام، ومن جملة هذه المعاني اختصاصها بالأماكن التي تقيم فيهـا القبيلة أو العشيرة ، وتتألف من جملة عدد من الدور .

وقد استدل (روبرتسن سمث) من لفظة (البطن) و (الفخذ) وأمثالها على مرور العرب في دور الأمومة ، وعلى أن القبائل كانت قد أخذت أنسابها القديمة وأسمائها من الأمومة ومن (الطوطمية) . ورأى أن كلمة (البطن) في الأصل كانت تعني معنى آخر غير الذي يذهب اليه علماء الأنساب ، ودليله عـلى ذلك استعمال (رحم) .

ولـ (روبرتسن سمث) بحوث في طرق الزواج عند قدماء العرب ، سأتحدث عنها في موضوع الزواج والطلاق عند الجاهليين في القسم الخاص بالحياة الاجتماعية عند العرب وبالتشريع .

وقد أشار (نولدكه) Noeldeke الى أهمية تأنيث أسماء القبائل[٢] ، فاتخـذ القائلون بنظرية (الأمومة) من هذه الأسماء دليلاً على أهمية هذا العهد في التأريخ الجاهلي القديم .

وقد وافق (ويلكن) G.A. Wilken على بعض آراء (روبرتسن سمث) ، وخالفه في بعض الآراء[٣] .

ومن واضعي نظريـــة الأمومـــة العالم الألمانـــي السويسري (باخأوفن) (Johann Jakob Bachofen) (١٨١٥ — ١٨٨٧م) ، وهو من علماء القانون ومن مؤسسي (علم القانون المقارن) ، وكان معروفاً بأبحاثه عن الأشياء الخفية

---

١ الهلال : الجزء الثامن من السنة الرابعة عشرة ، ايار ١٩٠٦ ، (ص ٤٧٨) ،

٢ Naeldeke, in ZDMG. Bd. XVII, S. 707.

٣ راجع كتاب : « الامومة عند العرب » ، تأليف « ويلكن » ، ، تعريب بندلي صليبا الجوزي ، قازان ١٩٠٢ م ،

G. A. Wilken, Het Matriarchaatli i de ande Arabieren, Oestr. Monatschrift fur d. Orient, 1889.

التي تؤثر في حياة الانسان . وقد ذهب الى أن تأريخ العالم صراع بين الروح والمادة ، بين الذكر والأنثى ، وأن الحياة الأرضية مزيج من هذين الكفاحين . وقد لفت نظره الى الزواج باعتبار أنه ناحية من النواحي القانونية ، وتعرض لمباحث الزواج عند الانسان القديم ، ولفوضوية الزواج ، حيث كان الرجل يتناول المرأة بغير عقد ، كما تفعل الحيوانات ، ولاشتراك عدد من الرجال في امرأة واحدة ، (Hetarische Gynaikokratie) ، فلا يعرف فيه النسل من أي أب هو ، ولهذا بقي في رعاية أمه ، فنسب اليها ، وهو زواج مرّ على جميع الشعوب . كما بحث عن الأديان البدائية وعلاقتها بأمثال هذا الزواج[1] .

ويجب أن نضيف الى تلك الفوضوية فوضوية أخرى ، هي فوضوية الغزو وتقاتل الانسان مع الانسان واباحة المدن والقرى للجيوش الغازية المنتصرة، يعيثون فيها وفي أهلها فساداً ، يؤدي الى انتهاك الحرمات واستباحة الأعراض وتوالد أطفال ليس في مقدور أمهاتهم معرفة آبائهم،فلا يبقى لهم من مجال إلا الانتساب إلى الأمهات .

ودور الأمومة عند أصحاب هذه النظرية ، هو أقدم أنواع الزواج . وأما (الأبوة) أي دور الزواج الذي عرف النسل فيه آباءهم فهو عندهم أحدث عهداً من الأمومة ، وقد زعموا أن هذين الدورين مرّا على البشرية جمعاء ، وفيهم العرب . وفي دور الأمومة تكون القرابة فيه لصلة الرحم ، أي الى الأم، فهو الرباط المقدس المتين الذي يربط بين الأفراد ويجمع شملهم ، وهو نسبهم الذي اليه ينتمون . ففي هذا الدور لا يمكن أن يعرف فيه الانتساب الى الأب، لسبب عادي هو عدم امكان معرفة الأب فيه . ولهذا كان نسب النسل فيه حتماً للأم . وكان نسب الجماعات فيه أيضاً للأم . ومن هذه الجماعات القبائل . وهم يرون أن تسمي القبائل بأسماء رجال ، بأن تجعلهم أجداداً وآباءً ، هي تسميات محدثة ظهرت بعد ظهور دور الأبوة،وتطور الزواج من زواج الفوضى أو زواج تعدد الرجال الى زواج حدد فيه على المرأة التزوج برجل واحد ليس غير ، يكون فيه بعلها الذي تختص به . ومن هنا اندثرت الأسماء القديمة ، أي أسماء الأناث في الغالب ، وحلت محلها أسماء الذكور . وسيأتي الكلام على موضوع

---

١ Mutterrecht und Urreligion, von R. Mark, in KTA. Bd. 52, Der Mythus von Orient und Okzident, M. Schroeter, 1926, H. Schmidt, Philosophisches Woerterbuch, S. 61.

أشكال الزواج عند العرب في موضعه من هذا الكتاب .

هذا ، وقد بحث (جرجي زيدان) في نظرية (الأمومة) عند العرب وردّ عليها بتفصيل[1] .

أصول التسميات :

وقد ألف (ابن دريد الأزدي) كتاباً في اشتقاق الأسماء عند العرب ، سماه (كتاب الاشتقاق) ، تحدث فيه عن أصول الأسماء واشتقاقها ، وذلك رداً على من زعم أن العرب تسمي بما لا أصل له في لغتهم ، فذكر اشتقاق تلك الأسماء[2] . وقد قال في مقدمته له : « كان الأميون من العرب ... لهم مذاهب في أسماء أبنائهم وعبيدهم وأتلادهم . فاستشنع قوم إما جهلاً وإما تجاهلاً تسميتهم كلباً ، وكليباً ، وأكلب ، وخنزيراً ، وقرداً ، وما أشبه ذلك مما لم يستقص ذكره : فطعنوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستنبط عيب .. وكان الذي حدانا على انشاء هذا الكتاب ، ان قوماً ممن يطعن على اللسان العربي وينسب أهله الى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، والى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم وعدّوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها »[3] .. الى أن قال : « واعلم ان للعرب مذاهب في تسمية أبنائها فنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو : غالب ، وغلاب ، وظالم ، وعارم ، ومنازل ومقاتل ، ومعارك ، وثابت ونحو ذلك . وسموا في مثل هذا الباب مسهراً ، ومؤرقاً ، ومصبحاً ، ومنبهاً ، وطارقاً . ومنها ما تفاءلوا به للابناء نحو : نايل ، ووايل ، وناج ، ومدرك ، ودرّاك ، وسالم ، وسليم ، ومالك ، وعامر ، وسعد ، وسعيد ، ومسعدة ، وأسعد ، وما أشبه ذلك . ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لاعدائهم نحو : أسد ، وليث ، وفراس ، وذئب ، وسيد ، وعملس ، وضرغام ، وما أشبه ذلك . ومنها سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً ، نحو : طلحة ، وسمرة ، وسلمة ، وقتادة ، وهراسة ، كل

---

١ تاريخ التمدن الاسلامي (٣/٢٤٠ وما بعدها) .
٢ طبعة « وستنفلد » في « كوتنكن » (غوتنكن) سنة ١٨٥٤ م .
٣ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) .

ذلك شجر له شوك وعضاة . ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطئه ، مثل : حجر ، وحجير ، وصخر ، وفهر ، وجندل ، وجرول ، وحزن ، وحزم . ومنها ان الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو : ثعلب ، وثعلبة ، وضب ، وضبة ، وخزز ، وضبيعة ، وكلب ، وكليب ، وحمار ، وقرد ، وخنزير ، وجحش ، وكذلك أيضاً يسمي بأول ما يسنح أو يبرح لها من الطير ، نحو : غراب ، وصرد ، وما أشبه ذلك .. خرج وابل بن قاسط وامرأته تمخض ، وهو يريد أن يرى شيئاً يسمي به ، فإذا هو ببكر قد عرض له ، فرجع وقد ولدت له غلاماً ، فسماه بكراً ، ثم خرج خرجة أخرى وهي تمخض ، فرأى عنزاً من الظباء ، فرجع وقد ولدت غلاماً فسماه عنزاً .. ثم خرج خرجة أخرى ، فإذا هو بشخيص قد ارتفع له ولم يتبينه نظراً ، فسماه الشخيص .. ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فغلبه أن يرى شيئاً ، فسماه تغلب .. خرج تميم بن مرّ وامرأته سلمى بنت كعب تمخض ، فإذا هو بواد قد انبثق عليه لم يشعر به ، فقال : الليل والسيل ، فرجع وقد ولدت غلاماً ، فقال : لأجعلنه لإلهي ، فسمّاه زيد مناة ، ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فإذا هو بمكاء يغرد على عوسجة قد يبس نصفها وبقي نصفها ، فقال لئن كُنت قد أثريتِ وأسريتِ لقد أجحدت وأكديت ، فولدت غلاماً فسماه الحرث »[1] ...

قيل لأبي الدقيش الاعرابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » ، فقال : « إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا »[2] . وتعرض الجاحظ لهذا الموضوع أيضاً ، فقال : « والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ذكر ، خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حجر أو رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك إذا سمع انساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد

---

١ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) ، بلوغ الارب (١٩٣/٣ وما بعدها) .
٢ الديري (٢٤٢/٢) .

الصوت والكسب »[1] . ويظهر مما تقدم أن موضوع التسميات عند العرب كان من الموضوعات التي لفتت اليها الأنظار ، لما في كثير منها من غرابة وخروج على المألوف ، فانبرى بعض العلماء في شرح الأسباب التي أدت بالعرب الى اتخاذ تلك التسميات ، والى ذكر العلل التي دفعتهم عليها كالذي نراه في بحث (ابن دريد) في كتابه (الاشتقاق) ، حيث ذكر في مقدمته كل الأسباب التي رآها وتوصل اليها في بحثه عن هذا الموضوع ، الذي أثار جانباً منه (روبرتسن سمث) وغيره من المستشرقين .

كما سموا بعبد العزى وعبد ود وعبد مناة وعبد اللات وعبد قسي ونحو ذلك ، مما فيه إضافة العبودية لأحد الأصنام .

والمتعارف عليه في الإسلام ، هو ارجاع النسب الى الأب . أما الانتساب الى الأم ،فانه قليل الوقوع . ولهذا يعد الرجل عربياً اذا كان والده عربياً ، لا يؤثر فيه نسب أمه إن كانت أعجمية . أما قبل الإسلام ، فإن النسب وإن كان تابعاً لنسب الأب ، إلا أنه قد يلحق الولد بالأم . وبالرغم من هذا العرف ، فإن العرب في الماضي وفي الحاضر يقيمون وزناً كبيراً لدم الأمهات ، بل قد تزيد أهميته عندهم على أهمية دم الأب . والمثل العراقي العامي (ثلثين الولد على الخال)[2] ، خير تعبير عن وجهة نظرهم تلك ، فإنه يمثل نزعة عرق الخال[3] . وهي من النزعات التي أقام لها الجاهليون وزناً كبيراً عندهم .

أما وجهة نظر العلم الحديث ، فإن لدم الأبوين أثراً متساوياً في المولود . ولهذا فان موضوع النسب الى الأب أو الأم ، موضوع لا يعالج عنده بالعرف والعادة ، بل يعالج وفق قواعد العلم المقررة لديه . وبناءً على ذلك يجب أن نقيم وزناً لموضوع التزاوج المختلط بين العرب والغرباء، وقد كان معروفاً وشائعاً في الجاهلية أيضاً ، اذ تزوجوا من الرقيق ، ولاسيما الرقيق الأبيض ونسلوا منه، كما سكن في جزيرة العرب آلاف من الغرباء قبل الإسلام واندمجوا في أهلها . وتركوا أثراً في دماء أهلها ، يختلف باختلاف مقدار الاختلاط . ويتبين ذلك بوضوح في سحن سكان السواحل ، لأنهم أكثر عرضة للاختلاط من أبناء البواطن والنجاد .

---

١ التمدن الاسلامي (٣/٢٦٩) .
٢ اي : ثلثا الولد .
٣ ابن سعد ، الطبقات (ج٣ ، ق ١ ، ص ٣٣٥) .

ولا تختلف أسماء القبائل العربية في طبيعتها عن طبيعة أسماء القبائل عند الشعوب الأخرى ، ولا سيما قبائل الشعوب المسماة : الشعوب السامية . فهـــي أسماء آباء وأجداد ترد غالباً في شكل أسماء ذكور ، وترد في الأقل في صورة أسماء نساء، وتعدّ عندئذ أسماء أمهات ، أي أمهات قبائل . وهي كما قلت قبل قليل ليست أسماء أعيان بالضرورة ، فبينها أسماء مواضع نسب سكانها اليها ، فصارت بمرور الزمن جدّاً ، وأباً ، أو أماً . وبينها أسماء آلهة وأصنام ، تعلق المؤمنون بهـــا حتى نسبوا اليها ، وبينها أسماء طواطم . ونجد بين أسماء القبائل العربية أسماء ترد عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب السامية أعلاماً لقبائل كذلك،وقد يكون من المفيد جداً دراسة هذه الأسماء ومقابلتها بعضها ببعض ، ودراسة أسماء القبائل العربية دراسة مستفيضة لمعرفة أصولها وتطورها ومراجعة الموارد الأعجمية والكتابات الجاهلية للعثور على تلك الأسماء فيها وتعيين زمن ظهور الاسم فيها لأول مرة .

الفصل الثالث عشر

تأريخ الجزيرة القديم

ليس من السهل بقاء العاديات ، التي تتألف من موادّ منزلية وأدوات ضرورية لحياة الانسان ، مدةً طويلة في أرضين مكشوفة سهلية ، وفي مناطق صحراوية لا حماية فيها لتلك الأشياء . وليس من السهل أيضاً احتفاظ مثل هذه التربة بجدث الإنسان وبعظام الحيوان أمداً طويلاً . وهي معرضة لحرارة شديدة قاسية ولرياح عاصفة قاسية . ولهذا لا يطمع الباحثون في الحصول على كنوز غنية من المناطق السهلة المكشوفة التي تغلب عليها الطبيعة الصحراوية والتي تؤلف أكبر قسم من جزيرة العرب .

ومن هنا سيتّجه أمل الباحثين عن الآثار الى الأودية التي تتوافر فيها الوسائل الكفيلة بنشوء المجتمعات على اختلاف أشكالها ، والى السهول التي تبعث النهيرات والينابيع والآبار الحياة فيها ، والى الهضاب والجبال حيث توجد المياه وتتساقط الأمطار وتتوافر الكهوف والصخور ،وهي من العوامل المساعدة على نشوء الحضارة وحفظ الآثار ، للاستفادة منها في الحصول على آثار تحدثنا عن تأريخ جزيرة العرب في آلاف السنين الماضية قبل الميلاد .

وليس في استطاعتنا في الزمن الحاضر التحدث عن جزيرة العرب في العصور الجليدية ، لعدم وجود بحوث علمية عن هذه العصور في هذه البلاد . كذلك لا نستطيع أن نتحدث عن بلاد العرب في العهود الحجرية ، لعدم وجود موارد

كافية تساعدنا في الكشف عنها كشفاً علمياً . نعم ، عثر على أدوات حجرية في موضع يقال له (الدوادمي) (Dawadmi) ، وهو يبعد (٣٧٥) ميلاً عن الخليج ، عثر عليها مدفونة في الأرض ، وكان بينها فأس طولها سبع عقد ونصف عقدة ، ولها لون يميل الى الخضرة [١] ، وعثر على أدوات حجرية أخرى في أنحاء من جزيرة العرب ، وفي جملتها الأحساء وحضرموت ، ولكن ما عثر عليه ما زال قليلاً ، لا يمكن أن يعطينا رأياً واضحاً علمياً في تلك العهود في هذه البلاد .

وقد تبين من فحص الأدوات الحجرية التي عثر عليها في الأحساء أنها تتكون من أحجار لا توجد في العروض، وبينها أحجار بركانية أو من حجارة (الكوارتز)، ومن أنواع أخرى من الصخور ، لهذا رأى فاحصوها أنها أدوات استوردت من العربية الغربية . كما تبين من فحص الأدوات الحجرية التي عثر عليها في اليمن وفي حضرموت أنها من النوع المستورد من فلسطين أو من بلاد الشام ، لأنها تشبه الأدوات الحجرية التي عثر عليها هناك [٢] .

أما الأدوات الحجرية التي عثر عليها في مواضع من حضرموت ، فليست محكمة دقيقة الصنعة ، بالقياس الى ما عثر عليه في فلسطين أو في بلاد الشام أو في إفريقية ، وقد عزا بعضهم ذلك الى طبيعة أحجار هذه المنطقة ، وعزاه آخرون الى تأخر حضارة أهل حضرموت في ذلك العهد بالقياس الى الحضارات الأخرى [٣] . ورأى بعض الباحثين أن أرض حضرموت كانت في عزلة عن البلاد المتقدمة في الشمال ، وأن صلاتها بإفريقية كانت أقوى من صلاتها بشمال جزيرة العرب وبالهلال الخصيب وبحضارة البحر المتوسط ، ولذلك صارت الأدوات التي عثر عليها بدائية بعض الشيء بالقياس الى ما عثر عليه في أعالي جزيرة العرب، حيث كان الاتصال وثيقاً بالحضارات المتقدمة .

ومن الأدلة التي تثبت ان اتصال حضرموت بالسواحل الافريقية المقابلة كان

---

١ P. B. Cornwall, Ancient Arabia, Explorations in Hasa, 1940-1941, P. 39, in Geogra. Journ. CVII, Febr. 1946.

٢ Geogr. Journal. Vol. XCIII, No. I, January, 1939, PP. 30.

٣ Geogr. Journal. Vol. XCIII, No. I, January, 1939, "An Exploration in the Hadhramaut and Journey to the Coast" By, Freya Stark.

قوياً ووثيقاً في العصور الـ (الباليوليثية) ، هو عثور المنقبين على فؤوس يدوية في حضرموت تعد من صميم الصناعات التي ظهرت في تلك الأنحاء من افريقية . ووجودها في حضرموت وعثور المنقبين على أدوات أخرى هي من صناعات افريقية ، دليل على شدة العلاقات ومبلغ توثقها بين افريقية والسواحل العربية الجنوبية [1] .

ويظن ان الزجاج البركاني ، المتكون من فعل البراكين (Obsidian) المتخذ أشكالاً هندسية ، مثلثاً أو هلالاً أو مربعاً ، الذي يعود الى الدور المعروف عند علماء الآثار بدور صناعات النصل (Blade Industries) ، والذي عثر على نماذج منه في حضرموت ، هو من المستوردات التي يرجع أصلها إلى سواحل افريقية الشرقية . وقد كانت هذه الصناعة مزدهرة في حوض البحر المتوسط وفي أوروبة قبل الألف الثالثة قبل الميلاد . أما في العربية الجنوبية ، فيعود عهدها الى الألف قبل الميلاد[2] .

واكتشفت أدوات من العصور الحجرية في (الحملة) ورأس (عوينات علي) (عوينت علي) وجنوب (دخان) من (قطر) ، منها فؤوس ومقاشر ونبال وكميات من حجر الصوان . وهذه الصخور هي من العصور (الباليوليثية) و (النيوليثية)[3] .

وعثر في مواضع متفرقة أخرى من جزيرة العرب على أدوات من عهود مختلفة قبل التأريخ ، عثر على أكثرها في مواضع شتى تقع عند الأودية والطرق والمواضع التي تتوافر فيها وسائل الحياة . وسيكون لبحث من يأتي بعدي فيقوم بوضع خارطة أو مخطط للمواضع التي عثر فيها على آلات وأدوات مما قبل التاريخ شأن كبير. ولا شك في الكشف عن مواضع السكنى والحضارة في بلاد العرب قبل التأريخ،وفي الكشف عن نظرية تغير الجو في جزيرة العرب ونظرية الهجرات وارتحال السكان من مكان الى مكان .

---

١ B.R. 527, (Restricted), Geographical Handbook Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June, 1946, Naval Intelligence Division.
وسيكون رمزه : Naval

٢ Naval

٣ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، ١٩٥٨ – ١٩٦٣ م ، الكويت (ص ٢٤) .

وعثر على آثار متنوعة من العصور الـ (الباليوليثية) (Palaolithikum) (Palaeolithic) والـ (النيوليثية) (Neolithikum) (Neolithic) في الكويت والبحرين وحضرموت ومواضع أخرى من العربية الجنوبيــة واليمن . وقد ذهب (فيلد) (H. Field) إلى أن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان في العصور (النيوليثية) ، ثم هاجر قسم من الناس إلى عمان والخليج ، وهاجر قسم آخر بطريق باب المندب إلى الصومال و (كينيا) (Kenya) و (وتنجانيقا) ، وهاجر فريق آخر بطريق مأرب ونجران إلى شبــه جزيرة سيناء وفلسطين والأردن[1] .

وعثر على آثار من العصور المذكورة في مواضع من المملكة العربية السعودية تمتد من الأحساء (الهفوف) إلى الحجاز ، ومن مدائن صالح إلى نجران . وقد عثر على أدوات حجريــة في (تل الهبر) . وقــد كان الصيادون في عصور ما قبل التأريخ يتنقلون باتجاه الأودية من مكان الى مكان حيث كانت الأحوال فيها خير مما عليه الآن . وقــد ترك هؤلاء الصيادون ثم الرعاة بعض الآثار في الأمكنة التي حلّوا بها ما برح السياح وخبراء شركة (أرمكو) وغيرهم يعثرون على قسم منها بين الحين والحين[2] .

ووجدت في (كلوة) (Kelwa) التي تقع على سفــح (جبل الطبيق) آثار من العهود (الباليوثيكية) القديمة : (Chelléen) والـ (Acheuléen) والـ (Levalloisien) . وقد قدر بعض الباحثين تأريخ السكنى في هذا الموضع إلى الألف الثامنة قبل الميلاد. وقد اكتشف هذا الموضع (هورسفيلد) (G. Horsfield) و (كلويك) (N. Glueck) ، فوجد آثاراً وصوراً على الصخور ، قدّر أنها ترجع الى آلاف من السنين قبل الميلاد من مختلف العصور[3] .

وعثر على كهوف وقد صورت على جدرانها صور حيوانات وصور الشمس ،

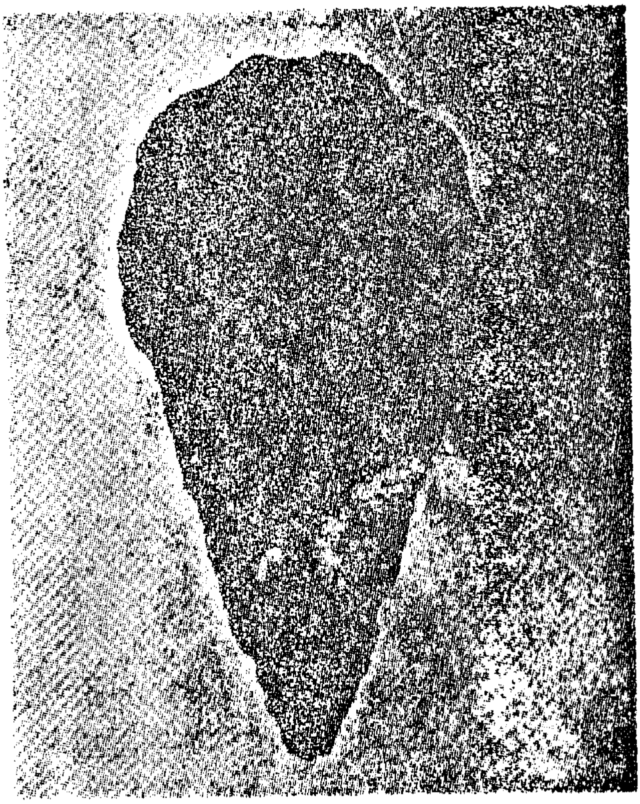
---

١ A. Grohmann, Arabien, S. 15, H. Field, Papers of the Peabody Museum, 48/2 (1956), PP. 117.

٢ H. Field, Papers, 48/2 (1956), 63, A. Grohmann, Arabien, S. 15.

٣ N. Glueck, The other Side of the Jordan, New Haven, Con. 1940, PP. 43, H. Rothert, Transjordanien, Vorgeschichtliche Forschungen, Stuttgart, 1938, S. 161, A. Grohmann, Arabien, S. 16.

والهلال ، وذلك على طريق التجارة القديمة في العربية الجنوبية ، بين وادي يبعث ووادي عرمة . وهي تشبه في أهميتها من دراسة الناحية الأثرية ، الصور المتقدمة التي عثر عليها في (كلوة) في الأردن[1] .



فأس من الحجر تعود الى عصر الـ « Palaeolithic » المتأخر ، عثر عليها في « درادمي » .
صنعت هذه الصورة عن صورة نشرت في مجلة : « The Geographical journal »
جزء شباط سنة ١٩٤٦ أرسلها لي صديقي الدكتور جورج ماثيوس من الظهران

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوروبة ، أي قبل خمسين ألف سنة ، وأن ساحل الخليج ، ولا سيما المنطقة الواقعة بين (الدوادمي) وشمال القطيف ، كان مزدحماً

١ Naval, P. 214.

بالسكان في العصور البرنزية ، أي حـوالي (٣٠٠٠ – ٢٥٠٠ ق.م) ، كما عثر على أدوات من العصور (الباليوثيكية) في موضع (رأس عوينت علي) (عوينات علي) في شبه جزيرة (قطر)[١] .

وقد ذهبوا أيضاً الى أن جوّ البحرين آنذاك – أي أيام العصور الجليدية – كان يشبه جوّ بلاد اليونان في الوقت الحاضر . وأن أرض البحرين كانت مخصبة خضراء ، مغطاة بكساء من الغابات . ولعلها كانت متصلة إذ ذاك بالأرض الأم – أرض جزيرة العرب – أما سكانهـا فقوم من الصيّادين . عاشوا على ما يقتنصونه من حيوانات ، وفي مقدمتها الأسماك . وقد عثر على أدوات من حجر الصوان ، استخدمها أولئك الصيادون في صيدهم وفي تقطيع لحوم الفرائس التي يوقعها سوء حظها في أيديهم . عثر عليهـا في مواضع متعددة من البحرين ، وبعدد كبير أحياناً ، مما يدل على أن تلك الأماكن كانت مستوطنة آهلة بالناس .

وليس في هذه الأدوات الصوانية ما يشير الى أصل أصحابها ، أو الى أسمائهم وأسماء المواضع التي كانوا فيها . وكل ما يستفاد منها أنهـا من أواسط العصور (الباليوثيكية) (Paleothitic) ، وذلك بدليل مشابهتهـا لأدوات من الصوان ترجع الى هـذا العهد عثر عليها في شمال العراق وفي فلسطين في شمال غربي الهند[٢] .

وقد عثر في البحرين أيضاً على عـدد من رؤوس حراب وسكاكين صنعت من الصخور الصوانيـة . قدّر بعض الباحثين عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة . وهي ترجع الى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة . وبين ما عثر عليه من هذه الأدوات ، أحجار سنّت وشذبت لكي تكون بمثابة آلات لحصد المزروعات ولقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض[٣] .

وفي العربية الغربية والعربية الجنوبية جبال ترصعها كهوف ، اتخذها الانسان

---

١ P.B. Cornwall, Ancient Arabia: Explortions in Hasa, 1940-1941, A. Grohmann, Arabien, S. 255.

وسيكـون رمزه : Arabien

٢ James H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, London, 1965, PP. 50.

٣ المصدر نفسه ، (ص ٥١) .

مساكن له ، فأقام فيها قبل الميلاد بأمد طويل ، لا نستطيع تقدير زمانه، واتخذ بعضها معابد ومواضع مقدسة ، وأماكن للخلوة والتأمل الروحي والعبادة، وبعضها مقابر يودع فيها أجداث آبائه وأجداده وأهله ، ولكن أكثر هذه الكهوف قد عبث بها الزمن ، وعبثت بها أيسدي الإنسان ، أكثر من عبث الطبيعة بها ، فانتزعت منها ما نبحث الآن عنه من بقايا عظام وتركات سكنى ، وآثار فن ، فحرمنا بذلك الوقوف على حياة الإنسان في جزيرة العرب في تلك الأيام .

وقد أشار الكتبة (الكلاسيكيون) الى سكان الكهوف في بلاد العرب. وعثر السياح على بقايا تلك الكهوف التي كانت منازل ومساكن آهلة بالناس. ولا يزال الناس يسكنون الكهوف في حضرموت وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب[1] . وقد يكون من بينها كهوفاً كانت منازل الأجـداد النازلين بها اليوم منذ آلاف من السنين .

ولما كانت زيارات السياح لهذه الكهوف زيارات سريعة خاطفة ، لم يتعمق السائحون فيها في داخل الكهف ، ولم تتناول ما على جدر الكهوف من رسوم أو زخارف، وقد يأتي يوم يعثر فيه الباحثون على كنوز من فن سكان الكهوف، ومن مخلفات لهم وعظام تكدست تحت أطباق الثرى ، نستخرج منها وصفاً لحياة الانسان في تلك المناطق من جزيرة العـرب ، وقد تفيدنـا في دراسة الصلات والعلاقات التي كانت بين أهل الجزيرة وبين بقية أنحاء العالم في تلك العهود السحيقة .

فيتبين من هذه الآثار القليلة ان بلاد العرب كانت مأهولة بالناس منذ العصور (الباليوثية) (Palaeolithic) ، أي العهود الحجرية المتقدمة ، وان من أقدم الآثار التي عثر عليها آثاراً من أيام العصور المعروفة بـ (Chellian) بين علماء الآثار ، أي الأدوار الأولى من أدوار حضارة العصر الحجري ، وانه قد عثر على أدوات من الصوان في الربع الخالي وفي حضرموت من عهد الـ (Neolithic) والعصور (البرنزية). وعثر على أدوات من الصوان من عصور الـ (Chalcolithic) هي من النوع الذي عثر عليه في جنوب فلسطين[2] .

---

١ Van der Meulen, Aden to the Hadhramaut, P. 120, 200, 203.

٢ Naval. P. 213.

ولم يوفق الباحثون للعثور على هياكل كاملة لإنسان ما قبل التأريخ ، لا في جزيرة العرب ولا في (سيناء)[١] . وللعثور عليها أهمية كبيرة بالنسبة الى البحث في تأريخ ظهور الإنسان وتطوره ، للوقوف على الزمن الذي عاش فيه في بلاد العرب .

والجماجم والعظام مادة مفيدة جداً في دراسة التأريخ ، ولكن الباحثين لمّا يتمكنوا من الحصول على مقدار كاف منها يكوّن عندهم فكرة علمية عن العصور التي ترجع اليها وعن أشكال أصحابها . وقد عثر رجال شركة (أرمكو) للبحث عن البترول في العربية السعودية على بقايا عظام وأسنان لبعض الحيوانات (الحلمية) (Mastodon) وعلى قسم من جمجمة حيوان قديم في موضع يبعد تسعين ميلاً إلى الغرب من (الدمام) ووجد مثل هذه البقايا الحيوانيــة في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولكن ما عثر عليه لا يزال قليلاً ، لا يكفي لاعطاء آراء علمية عن الحياة في جزيرة العرب في التأريخ القديم[٢] .

وقد تعرضت تلك المقابر لعبث الطبيعة ولعبث الطامعين بما فيها من أشيــاء ثمينة ، لذلك أصاب أجسام الموتى التلف ، ولم يبق منها غير بقايا من جسم ، إلا ما كان من مقابر البحرين ، فقد أعطت الباحثين هيكلين كاملين لم يصبهما أي سوء أو تلف . فقد تبين من فحصهما ان أهل الميت وضعوا جسمي الميتين على الجانب الأيمن ووجهوا الوجهين نحو المشرق ، وأمدوا رجلي الميتين . ويبعث وضع الميتين على هذه الصورة الاحتمال بأن أهل البحرين كانوا يتبعون هــذه العادة في دفن موتاهم ، وهي عادة كانت عند أهل العراق أيضاً ، في الألف الثالثة قبل الميلاد[٣] .

وقد عثر في مواضع من جزيرة العرب على مقابر تبين انها من نوع المقابر التي يقال لها (تمولي) (Tumuli) ، التي عثر عليها في البحرين في نهاية القرن التاسع عشر . أما مقابر البحرين ، فهي تلال تكونت من قطع من الصخور ، وضع بعضها فوق بعض ، لتكون غرفة أو غرفتين ، تكون احداهما فوق الأخرى في الغالب ، لتتخذ قبراً يوضع فيه الموتى ، وتكون سقوف الغرف من ألواح

---

١ Naval. P. 213.

٢ Cornwall, Ancient. P. 39.

٣ James H.D. Belgrave, P. 52.

الصخور . وبعد اغلاق باب القبر يهال التراب على الصخور ، حتى تتخذ شكل تلال . وقد عثر على بقايا خشب فيها ، مما يدل على استعمال الخشب في بناء هذه القبور التي يصل قاعدة بعضها الى حوالي خمسين ياردة في العرض وحوالي ثمانين قدماً في الارتفاع . ويقدر الباحثون الذين بحثوا عن هذه المقابر عددها بزهاء خمسين ألف تل ، وبزهاء (١٠٠) ألف تل في تقدير بعض آخر ، أي خمسين ألف قبر أو (١٠٠) ألف قبر[١] . قبر فيها الإنسان والحيوان جنباً الى جنب ، كما يتبين ذلك من بقايا العظام التي عثر عليها فيها . والغالب أنهم دفنوا الحيوان مع الإنسان ، ليستفيد منه الميت في العالم الثاني في عقيدة أهلها يومئذ ، وكما نجد ذلك في اعتقاد المصريين واعتقاد غيرهم من الشعوب ، ولهذا دفنوا مع الموتى أواني وأدوات بيتية وحلياً وجواهر وفخاراً وغير ذلك مما يحتاج اليه الإنسان[٢] .

وقد عثر في هذه المقابر على عدد من الجرار ، تشبه الجرار المستعملة في الوقت الحاضر ، مما يدل على أن الناس في الوقت الحاضر لا يزالون يسيرون على سيرة أجدادهم الذين عاشوا قبل الميلاد في عمل الجرار وسائر الخزف . وقد صنعت تلك الجرار من الطين ، وضعه الخزاف على قرص دولاب يديره برجليه. واستعمل يديه في اكساب الطين شكل الجرة التي يريدها . ويميل لون هذه الجرار الى الحمرة . كما عثر على قشور بيض النعام ، وقد قطعت بصورة تجعلها كأساً يشرب بها . وعثر على أدوات أخرى،وكل ما عثر عليه غير مكتوب ولا مؤرخ، لذلك لا نعرف من أمره اليوم ولا من أمر أصحابه شيئاً[٣] .

وعثر رجال شركة (أرمكو) على عدد كبير من هذه المقابر على حافات جبل (المدرى) الشمالي ، قدرها (كورنول) بالألوف ، وعثروا كذلك على عدد آخر من هذه المقابر في جبل (المدرى) الجنوبي[٤] . وقد حافظت بعض

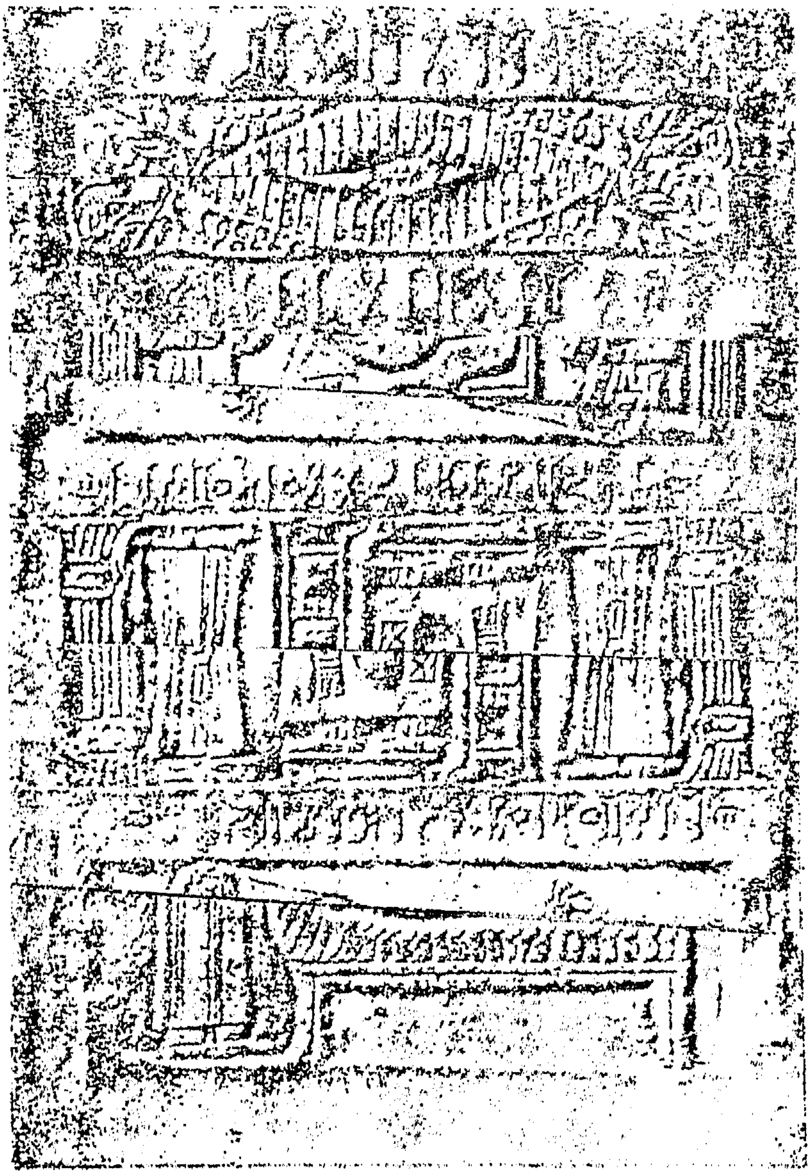
---

١ J.H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, P. 51.

٢ Bent, The Bahrain Islands, Proc. Roy. Geogr. Soc. 12, London, 1890, Jouannin, A, "Les Tumuli des Bahrain", Memoirs de la Delegation in Perse, T., VIII, 1905, V., 149-157, Prideaux, F.B., The Sepulchral Tumuli of Bahrain, Archaeological Survey of India, Annual Rep. 1908-1909, Calcutta, Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141.

٣ Belgrave, P. 52.

٤ Cornwall, P. 36.



حجر يظهر أنه من الأحجار التي توضع شاهداً على القبور يمثل صورة امرأة يقال لها : « فللت بنت مفدت » ويقال البنت في العربية الجنوبية « بت » أيضاً . وقد توسلت الى الإله « عشتر » بانزال الويل والثبور على من يتجاسر فيغير هذا الحجر من موضعه .

هذه القبور على أشكالها محافظـــة جيدة ، ويشبه بعضها القبور التي عثر عليها (فلبي) في الأقسام الجنوبية الغربية من جزيرة العرب[1] . ووجـد (كورنول) مقابر أخرى في موضع (الرديف) الواقع على بعد (١١٠) أميال من شمال غربي (الدمام) ، وفي موضع يقع شمال (عين السبح) ، بمسافة أربعـــة أميال ، حيث بلغ قطر أحد تلك المقابر (٣٣) ياردة وارتفاعه (١٣) قدماً . وقـد تمكن من الحصول على هيكل عظمي وعلى فخار وقطع من العاج وقشور بيض للنعـام وأسلحة مصنوعة من البرنز[2] .

وعثر على مقابر في موضع (المويه) الواقع على (١٤٣) ميـلاً من شمال شرقي مكة[3] . وقد وصف (فلبي) المقابر التي عثر عليهـا في (الرويق) وفي مرتفعات (العلم الأبيض) و (العلم الأسود) ، فقال : إن أكثرها قد عبث به العابثون ، فأخذوا ما كان داخل الغرف التي كان يوضع فيها الموتى من ذخائر ومواد ، وهي مختلفة الأحجـــام والارتفاع . ويظهر من وجود هذه المقابر في محال صحراوية بعيدة عن مواضع العمران وفي أماكن لا يقيم فيها النـاس ، أن هذه المناطق كانت مأهولة قبل الإسلام ، وأنها كانت ذات تأريخ قديم جداً ، ربما يرجع في رأي (فلبي) الى أيام قدماء (الفينيقيين) وربما كان (الفينيقيون) في رأي (فلبي) أيضاً من الأفلاج والخرج ، حيث هاجروا بعدئذ الى البحرين[4] .

وقد سمع (فلبي) بوجود مقابر أخرى من هذا النوع ، تعرف بـين الناس باسم (الخشبة). وسمع (Thesiger) بمقابر أخرى في موضع (رهلة جهمين)[5]. وعثرت شركة (أرمكو) على مقابر عادية كثيرة العـــدد في (وادي الفاو) و (القرية) ، لم تحدد هوية أصحابها حتى الآن . وقد زارها (فلبي) ووصفها، وتبين له أن الموضع وهو (القرية) ، كان محاطاً بسور ، وجد في داخله آثار بيوت ومقابر ، وبين أنقاض المقابر أحجار مكتوبة تدل على أنهـا كانت شواهد قبور . وعلى مسافة من (القرية) كتابات وصور حيوانات مثل النعامة والأيل ، وصور أناس نقشت على الصخر[6] .

١ Cornwall, P. 36, Philby Sheba's, P. 373.

٢ Cornwall, P. 37.

٣ Philby. Sheba's, P. 373.

٤ Philby, Sheba's, P. 373.

٥ Beitrage, S. 16.

٦ Beitrage, S. 12.

ويظهر من وصف (جيرالد دي كوري) (Gerald de Gaury) (وفلبي) لمقابر الخرج أنها كثيرة العدد ، وأنها في مواضع متعددة من هذه الإيالة عند (فرزان) و (السلمية) و (الدلم) ، وهي متفاوتة الأحجام والارتفاع[1] . ولم يتمكن (دي كوري) من تعيين تأريخها ، ولا يمكن التثبت من ذلك بالطبع إلا بعد القيام بحفريات دقيقة وفحوص للعظام ولمحتويات القبور لمعرفة مكانها في التأريخ .

وقد وجد أن أبواب مقابر البحرين قد وضعت في الجهة الغربية ، مما يبعث على الظن على أن لهذا الوضع صلة بدين القوم الذين تعود اليهم تلك المقابر . وقد وجد أن المواد والأدوات التي عثر عليها في هذه المقابر تشبه المواد والأدوات التي عثر عليها في المقابر الأخرى التي عثر عليها في المواضع المذكورة من جزيرة العرب . ويظن بعض الباحثين أن أصحاب هذه المقابر كانوا يقيمون في الجهة المقابلة لجزيرة البحرين من الجزيرة ، أي على ساحل الخليج ، وكانوا قد اتخذوا الجزيرة مقبرة لهم ، فينقلون اليها موتاهم لدفنهم هناك . ومنهم من يرى أن تلك المقابر هي مقابر رؤساء الفينيقيين وأشرافهم الذين كانوا يقطنون البحرين ، وأن عهد تلك المقابر يرجع الى ما بين ٣٠٠٠ — ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد[2] .

وقد عثرت البعثة الدانماركية في سنة (١٩٥٩ م) في البحرين جنوب طريق (البديع) على أربع مقابر تبين من فحصها أنها ترجع الى العصور الحجرية[3] . وعثر السياح على تلال في مواضع متعددة من عمان وقطر ، تبين أنها مقابر لعهود سبقت الميلاد .

وليست لدينا الآن دراسة علمية شاملة عن هذه المقابر : مقابر البحرين ، ومقابر المواضع المذكورة من جزيرة العرب ، إلا أن آراء من زاروها ورأوها، تكاد تتفق في القول بوجود ترابط في الزمن فيما بينها ، ويرجعون أيامها الى عصر الـ (Chalcolithic) أو الى العصر البرنزي . ومنهم من يرى انها من العصر البرنزي المتأخر[4] ، ويرى أن المقابر المقامة على المرتفعات هي مقابر جماعة

---

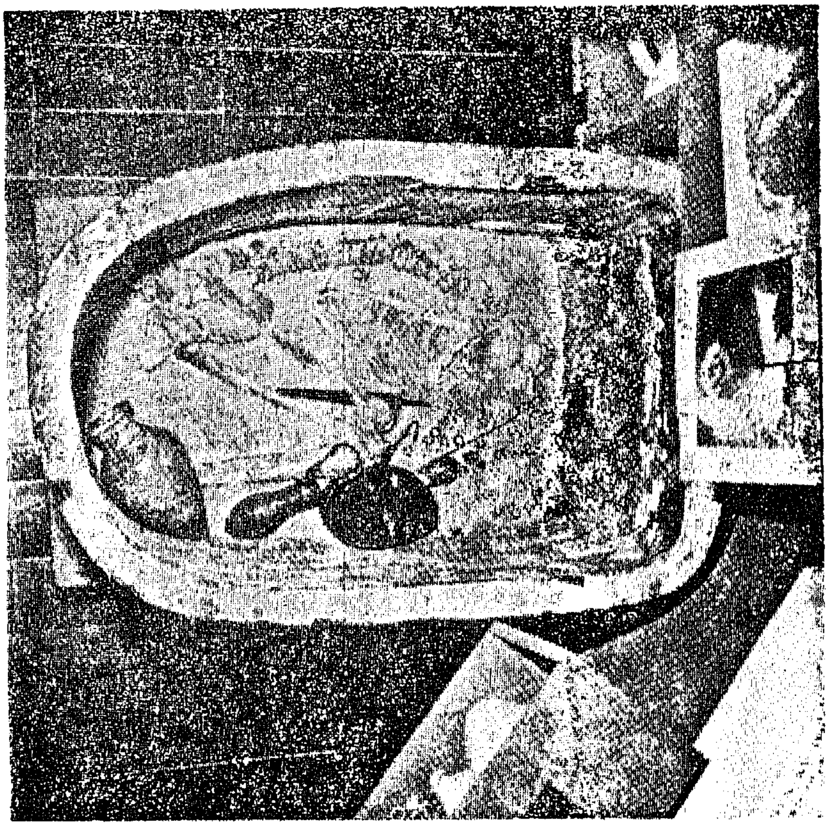
١ Geogr. Journal. Vol. CVI, Numb. 3, 4, Sept-Octo. 1945 P. 152, Philby, Heart of Arabia, Vol. 2, P. 26.

٢ Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141, Enc. Vol. I, P. 585.

٣ P.V. Glob, Archaeological Investigations in four Arab States, Kuml, 1959, P. 238.

٤ Sanger, P. 141.

من الصيادين أو الرعاة . أما المقابر المقامة على السهول المنبسطة فيرون انها مقابر قوم مزارعين مستقرين[1] .



تابوت من الفخار على شكل حوض وأدواته ترجع الى عام ٦٠٠ قبل الميلاد
من نشرة دائرة الاعلام : حكومة البحرين

ويظن ان المقابر التي عثر عليها في جزيرة (ام النار) في (أبـي ظبي) هي مقابر أقوام عاشوا في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد عثر فيها على هياكل عظمية وعلى خرز وفخار عليه رسوم . وقد كسيت هذه المقابر وغطيت بحجارة منحوتة ، حفرت عليها صور ثيران وجمال وأفاعي وحيوانات أخرى . وقد نحتت

١ Cornwall, P. 37.

واجهة الحجر المحيطة بالصور لتظهر الصور بارزة عالية[1] . ويظهر من دراستها انها من عمل أيد أتقنت مهنتها ، وأجادت في فنها بالقياس الى تلك الأزمنة . وهي تحتاج الى دراسة لمعرفة مدى تأثرها بفنون الشعب الأخرى التي كان لها اتصال بهذه البلاد .

ان هذه المقابر تستحق الدراسة حقاً ، لأنها تتحدث عن وجود روابط فكرية مشتركة بين أصحابها ، وعن احتمال ارتباطهم بعقيدة دينية واحدة . ولا يستبعد أن تكشف بعض القبور السالمة التي لم تعبث بها أيدي البشر العاتية ، عن كتابات مطمورة في غرفها ، أو عن صور ونقوش ورموز تتحدث الينا عن هوية أصحابها وعن مكانتهم في التأريخ وفي الحضارة البشرية بالنسبة الى الأيام التي عاشوا فيها . وعندئذ نكون قد انتقلنا الى مرحلة جديدة من مراحل تأريخ العرب القديم ، لا نعرف اليوم من أمرها الا هذا النزر اليسير الذي نتحدث عنه .

ولست أستبعد أيضاً احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار أصحاب هذه المقابر في مواضع لا يمكن أن تكون بعيدة عنها ، اذ لا يعقل أن يكون ذوو أرحام الموتى قد سكنوا في مواضع قصية نائية عنها . وأن قوماً لهم هذه المهمة في عمل هذه القبور ، لا بد أن يكونوا على درجة من الحضارة . والمخلفات التي عثر عليها في بعض هذه القبور هي خير شاهد على ذلك . فقد عثر فيها على حلي وعلى أوان من الفخار وعلى آثار أخرى مصنوعة تظهر براعة في الصنعة والاتقان . ولا يستبعد العثور على أمثالها في مستوطناتهم متى عثر عليها .

هذا ، وقد عثر بعض السياح على قبور جاهلية في حضرموت وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب، الا أن هذه المقابر هي أحدث عهداً من تلك ، ثم انها قبور نحتت في الصخور نحتاً ، ولم تعمل على هيأة تلال على النحو الذي وصفناه . ول (كارل راتجن) (Carl Rathjens) وصف مفصل لمقابر منحوتة زارها تقع على مقربة من مدينة (كوكبان) في اليمن . وهي كثيرة منحوتة في جانب الجبل ، منها المنفردة المنعزلة ومنها ما نحتت بعضها فوق بعض . وقد وجد أن أكثرها قد لعبت بها الأيدي ، فأخذت ما كان فيها ، فخلت من كل شيء . وقد عثر على كتابة سبئية عند أحد أبواب هذه المقابر ، مما يدل على

---

١ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، ١٩٥٨ — ١٩٦٣ م ، الكويت (ص ٢٤) .

انها كانت لقوم من سبأ[1]. ولا يستبعد بالطبع أن يكون أولئك الناس قد توارثوا هذا النوع من القبور من أسلاف لهم كانوا قد نحتوها .

وعلمنا بأحوال جزيرة العرب في العصور (البرنزية) ،لا يزيد على علمنا بالعصور الحجرية فيها . فهي ضحلة يسيرة ، لأن ما عثر عليه من مخلفات تلك العصور ليس بشيء يذكر ولا يكفي لاستنباط آراء منه . ولا يستبعد بالطبع احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار قد ترجع الى هذه العصور ستهتك الحجب التي تحول الآن بيننا وبين التعرف على تلك الحقب القديمة من تأريخ الجزيرة . وقد وجدت (البعثة الدانماركية) التي نقبت في جزيرة (فليكا) من جزر الكويت على آثار من هذه العصور[2] ، إلا أن ما عثر عليه لا يكفي لإعطاء رأي علمي كاف عن العصور البرنزية في هذه الأرضين .

وقد عثر في جزيرة (فيلكا) على آثار سكنى وبقايا أبنيــة وهياكل يرجع عهدها الى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تبين أن هذه الجزيرة والجزر الأخرى الواقعة في الخليج كانت ملاجيء يلجأ اليها أصحاب السفن والتجار في تلك الأزمنة للاستراحة ولشراء ما يجدونه عند أهل السواحل المقابلة ، وللتمون بمـا يحتاجون اليه من ماء وزاد . ولأهميتها هــذه اهتمت بها وبالسواحل المقابلة لها حكومات العراق ، فاستولى عليها الأكاديون والآشوريون واليونان .

وقد عثر على مواد مصنوعة من حديد من العصر الحديدي ، غير أنها قليلة لا يمكن أن تكوّن لنا رأياً واضحاً من العصور الحديدية في جزيرة العرب .

وعثر على بقايا جماجم بشرية في (الظهران) تبين من دراستها وفحصها على أنها من العصور (البرنزية)[3] .

وتدل الأدوات المكتشفة عــلى قلتها على أن شعوب جزيرة العرب حتى في الأزمان البعيدة عن الميلاد كانت على اتصال بالعالم الخارجي ولا سيما العراق وبلاد الشام وحوض البحر المتوسط والقارة الإفريقية،وأنها كانت تستورد منها ما تحتاج

---

١ Carl Rathjens, Sabaeica, I, S. 105.

٢ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة فيلكا ، ١٩٥٨ – ١٩٦٣ م الكويت مطبعة الحكومة ، من منشورات وزارة التربية والتعليم ، (ص ٩) .

٣ H. Field, Papers of the Peabody Museum, 48/2, (1956), 58, A. Grohmann, Arabien, S. 15.

اليه من مواد وتبيع لها ما عندها من سلع خام أو من سلع تستوردها من السواحل الإفريقية أو الهند ، وأنها لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن بقية العالم .

والعراق وبلاد الشام ، أي الأرضون التي يقال لهـا (الهلال الخصيب) في الزمان الحاضر ، هي من الناحية الطبيعية وحـدة لا يستطاع فصلها عن جزيرة العرب ، وامتداد طبيعي لها [1] . وليست البادية الواسعة التي تملأ باطن الهلال إلا جزءاً من جزيرة العرب ، وامتداداً لها ، لا يفصلها عنها فاصل ، ولا يحد بينها حدّ ، واذا ما تنقلت من بادية الشام الى بوادي المملكة العربية السعودية ، فلا تجد أمامك شيئاً يشعرك بوجـود فروق بين طبيعة هذه الأرضين الواسعة ، أو وجود حواجز تمنع سكانها من الهجرة نحو الشمال أو الى الجنوب [2] . ولهذا كان من الطبيعي تنقل الناس في هذين الأرضين منذ وجدوا فيها وظهروا عليهـا بكل حرية ، وبحسب الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية .

وتأريخ ظهور العرب في بادية الشام وفي أطراف الهلال الخصيب ، تأريـخ قديم جداً ، ولكننا لا نستطيع تحديد مبدئه ، ولا تثبيتـه ، لأننا لا نملك أدلة علمية تعينه وتحدده . ثم ان كلمة (العـرب) لم تكن تعني عند الشعوب التي عاشت قبل الميلاد ، غير معنى (أعراب) ، وكانت اذا ما ذكرت لفظـة (عرب) تقصد البدو على نحو ما ذكرت في الفصل الأول في تحديد معنى هذه اللفظة . أما العرب المستقرون ، أو شبه الحضر ، فقد عرفوا عندهم بأسمائهم ، ولهذا اشتبه أمرهم علينا ، وعسر على العلماء تعيين هوياتهم ، لعدم نص الكتابات أو الكتب القديمة على انهم عرب بمعنى جنس للسبب المذكور ، فصرنا في حيرة من أمرهم ، وفي التوراة أسماء قبائل كثيرة ، نسبت الى آباء وأجداد ، يجب أن تعد من العرب ، ولكن التوراة لم تطلق عليها لفظة (عرب) ، لأنها لم تكن قبائل بدوية وليست اللفظة فيها الا بهذا المعنى ، فحار العلماء في تعيين أصل كثير منها ، وما زالت حيرتهم هذه حتى اليوم . وليس من المستبعد أن يكون بـين الشعوب القديمة شعوب عربية ، الا انهـا لم تعد من العرب لأن اللفظة لم تكن علماً على جنس قبل الميلاد .

---

1 الهلال الخصيب (Fertle Crescent) اصطلاح أطلقه « برستيد (H. Brested) لاول مرة بهذا المعنى ، على القوس المتكون من العراق وبلاد الشام .

2 Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. I.

واذا ما أخذنا بنظرية القائلين ان جزيرة العرب هي مهد الساميين ، جاز لنا أن نقول عندئذ ان معظم أهل الخصيب والبادية هم من معمل تفريخ الجنس السامي الكائن في تلك الجزيرة ، وان ذلك المعمل هو الذي أمدّ هذه الأرضين الممتدة من ايران الى البحر المتوسط بسلالات الساميين . فصلة جزيرة العرب بالهلال الخصيب صلة قديمة ترجع الى الأيام الأولى من أيام الساميين ، على هذه النظرية ، وربما ترجع الى أقدم من تلك الأيام .

وسنرى فيما بعد أن حكام العراق كانوا قد استولوا على العروض في الألف الثالثة أو قبلها قبل الميلاد ، وانهم نزلوا في البحرين وفي جزر أخرى من جزر الخليج ، وان أصل الفينيقيين هو من البحرين في رأي كثير من العلماء ، منها هاجروا الى أرض (فينيقية) وسواحلها ، وما كان ذلك ليتم لو كانت جزيرة العرب بمعزل عن الهلال الخصيب أو عن بادية الشام ، أو ان الهلال والبادية كانا بمعزل عن جزيرة العرب .

وقد ذكر ان جماعة من تجار(أور) كانوا يتاجرون في حوالي السنة ٢٠٠٠ ق.م مع البحرين . وكانوا قد أنشأوا أسطولاً لنقل التجارة [١] . ويقال ان (سرجون) الأكادي استولى في حوالي السنة (٢٣٠٠ ق. م.) على البحرين وقطر ، وان البحرين كانت في حوالي السنة (١٧٥٠ ق. م.) في يد قبيلة اسمها (أكاروم) (أجارم) (Agarum) ، وهو اسم قريب من (أجرم) ، وانها كانت تدفع الجزية الى الملك (اسرحدون) [٢] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (Agarum) هم أهل مدينة (هجر) التي هي الأحساء [٣] .

وقد كانت العلاقات التجارية مستمرة دوماً بين البحرين وبين العراق . إذ كانت (دلمون) محطة مهمة جداً للتجارة بين الهند وإفريقية وسواحل الخليج والعراق . تستورد الأخشاب من الهند ومن إفريقية كما تستورد الحاصلات الأخرى وتنقل النحاس من عمان ، فتبيع ذلك الى جنوب العراق ، وربما حملت تلك التجارات بسفن يملكها أهل (أور) أو غيرهم خلال نهر الفرات ، لنقلها من

---

١ P.V. Glob, Bahrain, Kuml, 1954, 103, Bahrains Oldtidshovedstad, Kuml, 1954, 169.

٢ Arabien, S. 257, H. Field, Ancient and Modern Man in Southwestern Asia, 108, Archiv fuer Orientforschung, 16, (1952-1953), 6-9.

٣ Arabien, S. 257

هناك الى بلاد الشام ومنها الى البحر المتوسط لبيعها الى أهل اليونان وبقية أرجاء (أوروبة) . وقد تبين من الأخبار التي تعود الى أيام الأسرة الثانية من أسر (أور) أن سفن ذلك الوقت (٢٢٠٠ – ٢١٠٠ ق . م) كانت تقوم برحلات منتظمة فيما بين البحرين و (أور) ، وذلك لنقل ما يرد الى هذه الجزيرة من نحاس ومن أحجار ثمينة من عمان ، ومن ذهب وأخشاب وأفاويه ومواد أخرى ثمينة من الهند[1] .

وقد نزلت جاليات عراقية في البحرين ، كما هاجرت جاليات من البحرين الى العراق فسكنت بـه . وما الإله (انزاك) (Inzak) الذي عبد في جنوب العراق وشيدت المعابد باسمه ، إلا علامة على هجرة أهل البحرين الى العراق ، وتأثر أهل العراق به . فهذا الإله هو إله أصله من آلهة أهل البحرين . وانتقال عبادته الى العراق دليل على تأثر العراقيين بثقافة أهل البحرين ، ونقل أهل البحرين له معهم الى وطنهم الجديد .

وقد كانت البحرين ترتاح كثيراً عند انشغال أهل العراق بالتحارب فيما بينهم ، أو بانشغال الحكومات المهيمنة عليه بمحاربة جيران العراق من الدول القوية الكبيرة ، اذ تلهيهم تلك الحروب عن التفكير في السيطرة على البحرين وابتزاز الأموال من أهل الجزيرة ، وتكون مثل هذه الظروف فرصة ثمينة للدلمونيين ، إذ يجدون أسواقاً رائجة تشتري منهم ما يأتون به الى جنوب العراق ، كما يجدون الحكومات مشغولة في معالجة مشكلاتها فلا تشتط كثيراً في أخذ الضرائب من أولئك التجار .

والكتابات الآشورية ، هي أقدم سجل ، لا شك في ذلك ، يشير الى وجود (العرب) في الأرضين الواسعة الممتدة من الفرات الى مشارف بلاد الشام . ولكن العرب فيه هم أعراب ، لا أقل من ذلك ولا أكثر : أعراب متنقلون في الغالب ، هائمون في البادية حيث الماء والكلأ والارتزاق من الغارات على الآشوريين وعلى غيرهم . والى هذه الغارات يعود ، ولا شك ، فضل اضطرار الآشوريين الى الإشارة اليهم في تلك الكتابات ، ولولاها لما ذكروا فيها ولا أشير اليهم . وقد وجد هؤلاء الأعراب قبل زمان هذا التسجيل بأمد طويل من دون ريب ، ومن يدري ؟ فقد يعثر على كتابات جديدة من زمن سحيق ، يسبق زمن الكتابات

---

١ Belgrave, P. 55.

الآشورية ، يرد فيها شيء من الأعراب فترتفع بذلك معارفنا عنهم الى زمن أبعد من هذا الزمن المنصوص عليه في كتابات الآشوريين .

أما الموارد الإسلامية ، فقد اضطربت في تعيين الزمن الذي ظهر فيه العرب في بادية الشام ومشارقها وفي العراق ، ولكنها كلها لا تعرف تأريخاً يسبق التاريخ المذكور في النصوص الآشوزية . وما ذكروه عن ظهور العرب في هذه البلاد ، فهو مأخوذ من قصص اسرائيلي . ويظهر من رواية (لهشام بن محمد الكلبي) أن العرب كانوا في أرض العراق في أيام (بختنصر) ، وانهم كانوا تجاراً يقدمون العراق للتجارات ، وذلك في أيام (معد بن عدنان) ، وان (بختنصر) جمع من كان في بلاده من العرب حين همّ بغزو العرب في جزيرتهم ، اذ نزل وحي من الله على (برخيا) ، فبنى لهم (حيراً) على النجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظةً ، ثم نادى في النــاس بالغزو . وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب ، فخرجت اليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين ، فأنزلهم (بختنصر) السواد على شاطىء الفرات ، فابتنوا عسكرهم بعد ، فسموه (الأنبار) ؛ وخلّى عن أهل الحيرة ، فاتخذوها لهم منزلاً . فهذا كان مبدأ نزول العرب في العراق[1] .

ويظهر من رواية أخرى (لابن الكلبي) كذلك ان الـذي أنزل العرب في العراق هو (تبع) ، فالعرب الذين نزلوا الحيرة والأنبــار هم قوم يمانون . و (تبع) هذا حكم — على زعمه — بعد (ياسر انعم) ، الذي حـكم بعد بلقيس ، وهو (تبان أسعد) ، وهو (أبو كرب بن ملكي كرب بن تبـع ابن زيد بن عمرو بن تبــع) ، وهو (ذو الأذعار بن أبرهـة تبع ذي المنار ابن الرائش بن قيس بن صيفي بن سبأ) ، وكان يقال له (الرائد) . وقد خرج من اليمن حتى نزل على جبلي (طيء) (جبل شمّر) ، ثم سار يريد (الأنبار) . فلما انتهى الى (الحيرة) ليلاً ، تحير فأقام مكانه ، فسمي ذلك الموضع (الحيرة) . ثم سار ، وخلف به قوماً من (الأزد) و (لخم) و (جذام) و (عاملة) و (قضاعة) ، فبنوا وأقاموا به ، ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكون و (بلحارث بن كعب) و (إيــاد) ، ثم توجه

---

١ الطبري (٢٩١/١) « المطبعة الحسينية » .

الى (الأنبار) ثم الى (الموصل) ، ثم الى (أذربيجان) ، فلقي الترك ، ثم انكفأ راجعاً الى اليمن . وأقام العرب في العراق . « ففيهم من قبائـل العرب كلها من بني لحيان وهذيل وتميم وجُعْفي وطيء وكلب »[1] . فهذا كان مبدأ نزول العرب السواد من أرض العراق .

وحكى (الطبري) رواية أخرى عن (ابن الكلبي) متممة للرواية الأولى عن نزول العرب أرض العراق ، خلاصتها : أن العرب الذين أسكنهم (بختنصر) الحيرة ، انضموا بعد وفاة هذا الملك الى أهل (الأنبار) ، وبقيت الحـيرة خراباً . فلما كثر أولاد (معد بن عدنان) ومن كان معهم من قبائـل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم ، فرقتهم حروب وقعت بينهم ، وأحداث حدثت فيهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام ، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين ، وبها جماعة من (الأزد) كانوا نزلوها في دهر (عمران بن عمرو) من بقايا (بني عامر) ، فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتحالفوا على (التنوخ) ، وهو المقـام ، وتعاقدوا على التآزر والتناصر ، فصاروا يداً على الناس ، وضمهم اسم (تنوخ) . وتطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب الى ريف العراق ، وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه ، أو مشاركتهم فيه ، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختـلاف ، فأجمع رؤساؤهم على المسير الى العراق ، ووطن جماعة ممن كان معهم على ذلك ، فكان أول من طلع منهم (الحيقار بن الحيق) في جماعة قومه وأخلاط من الناس ثم أعقبتهم موجات أخرى استقرت في الحيرة والأنبار وغيرهما من الأماكن بعد أن تغلبوا على (الأرمانيين)[2] .

وروي عن (ابن الكلبي) أن (أردشير) لما استولى على الملك بالعراق ، كره كثير من (تنوخ) أن يقيموا في مملكته ، وان يدينوا لـه ، فخرج من كان منهم من قبائل (قضاعة) الذين كانوا أقبلوا مع (مالك وعمرو ابني فهم) و (مالك بن زهير) وغيرهم ، فلحقوا بالشام الى هناك من قضاعة . ثم وصلت اليهم جموع أخرى من قبائل العرب، فكونوا ممالك وأمارات ، سوف أتحدث عنها[3].

---

١ الطبري (٢/٣) « المطبعة الحسينية » .
٢ الطبري (٢/٥٩) « المطبعة الحسينية » .
٣ ابـن خلدون (٢/٢٧٨) .

هذا ما وصل اليه علم الأخباريين عن العرب في الهلال الخصيب ، وهو علم لا يستنـــد بالطبع الى نصوص عربية جاهلية ، وإنما أخذ من روايات شفوية ، وأخبار وردت على ألسنة الأخباريين ومن روايات أهل الكتاب .

ومن الخطأ بالطبع أن نتصور أن وجود العرب في بادية الشام وشاطىء الفرات وأطراف دمشق يرتقي إلى أيام الآشوريين ، أو قبل ذلك بقليل . فوجود العرب في هذه الأرضين هو أقدم من هذا العهد بكثير . وإذا كنا قد أشرنا الى وجودهم في المواضع المذكورة في هذا العهد ، فلأن الكتابات الآشورية هي أقـدم كتابة وصلت الينا ووردت فيها إشارة الى العرب، وإلا فإن العرب هم في هذه الأرضين قبل هذا العهـــد بكثير . في عهد لا نستطيع بالطبع تعيين ابتدائه ، لأن هذه الأرضين هي امتداد لأرض جزيرة العرب ، والتنقل بينها وبـين جزيرة العرب هو تنقل حرّ ليس له حاجز ولا حدود ، فلا نستطيع إذن أن نقول متى سكن العرب بادية الشام .

وقد لاقت القبائل العربية مقاومة شديدة وعنتاً شديداً من الحكومات التي حكمت العراق والحكومات التي حكمت بلاد الشام ، فقد وقفت تلك الحكومات منــذ الدهر الأول لها بالمرصاد ، وأبت أن تسمح لهــا بالتوغل في داخل أرضها التي تحكمها حكماً فعلياً ، ذلك لأنها كانت تهاب الأعراب وتخشى من البداوة ، إذ لم يكن من السهل على البدو تغيير سننهم واقتباس سنن الحضر ، ثم إنهم كانوا يغيرون على الحضر وعلى الحدود لأخذ ما يجدونه أمامهم. وقد ترك غزو الأعراب للحدود أثراً سيئاً راعباً في نفوس الحكام جعلهم لا يتسامحون في دخول البدو الى أرض الحضارة ، ما دامت للحكام قوة ، ولم يتساهلوا معهم إلا بالوصول الى حدود الحضارة ومشارفها ، وذلك لأنهم نصبوهم حرساً لهم ، يمنع القادمين الجدد من الباديـــة من الدنو من أرض الحضارة ، ويدافع عن الحدود ساعة الخطر ، ويهاجم مع القوات النظامية للحكومة الحاكمة أرض العدو في الحروب ، وفي أيام السلم لإلقاء الرعب والفزع في نفس العدو وإكراهه على تنفيذ مطلب يراد منه .

وقد اضطرت الحكومات الى دفع أكل وطعم وهبات وعطايا سخية لسادات القبائل الحرّاس في مقابل قيامهم بحراسة الحدود . إذ لم يكن في استطاعة تلك الحكومات القيام بها بنفسها ، ولا سيما في تعقب الأعراب وملاحقتهم في البوادي وغزو أعراب العدوّ ، فصارت لسادات القبائل جعـــالات سنوية وهدايا وألطاف

وبعض امتيازات لاسترضائهم وإسكاتهم ما داموا أقوياء أعزاء ، وجعلت معهم في بعض الأحيان حاميات من قوى تلك الحكومات عليها سياسيون وقادة لمراقبة أعمال سادات القبائل والحدّ من غلوائهم، ولمساعدتهم عند ظهور سيد آخر قوي منافس في الميدان يريد مهاجمة الحدود أو انتزاع الرئاسة من سيد القبيلة صاحب الامتيازات.

والحكومات هم عادة الى جانب سادات القبائل ما دام السادات أقوياء أعزاء. فإذا بدا الوهن عليهم ، وتبين أن الأمر قد أفلت من أيديهم ، وان سادات جدداً أصحاب كفايات وقُدَر ورؤساء أقوى من رؤساء القبائل القديمة قد برزوا في الميدان ، وقد أخذوا على أيدي السادات القدامى ، وأن المصلحة تقتضي الآن التحول من القديم الى الجديد ، تحولت تلك الحكومات الى السادات الجدد ، واتفقت معهم على شروط مرضية ، للقيام بأداء المصالح والواجبات المذكورة حتى يظهر منافس جديد ، يتطاول على القديم فيأخذ مكانه . وهذا هو سر تعدد حكم سادات القبائل ، وانتزاع قبيلة الحكم من قبيلة أخرى ، وتغير حكم (آل فلان) و (آل فلان) ، وحلول حكم قبلي محل حكم قبلي سابق .

وسادات القبائل هم على هذه السنة أيضاً ، فكانوا اذا وجدوا ضعفاً في الحكومة المهيمنة على العراق أو على بلاد الشأم وأدركوا انها في وضع حرج، تقدموا اليها بمطالب جديدة وبشروط جديدة ، تكون متناسبة مع حراجة الموقف. فإذا لم تجب قام سيد القبيلة بتهديد مصالح الحكومة وبغزو أرضها أحياناً ، وقد يفاوض العدو للاتفاق معه عليها ، وقد يثور ويخرج عن طاعتها ، ويظل هذا شأنه حتى تجاب مطالبه ، أو يتفق معها على شروط يرضى عنها . وينطبق هذا الوضع على الأعراب الذين يجاورون الحضر ، فعلى الحضر دفع جعالة الى سيد الأعراب في مقابل حمايتهم لهم ومنع القبائل الأخرى المجاورة من الإغارة على أولئك الحضر . ويتقيد هؤلاء السادة بعهودهم مع الحضر ما دامت في مصالحهم. أما اذا رأوا أن الحضر في وضع حرج وأن الحكومة التي ترعاهم ، أو حكومة المدينة ضعيفة غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، فإن الأعراب يفرضون على الحضر مطالب جديدة ، ويأخذون منهم امتيازات اضافية مثل حق الارتواء من الآبار ومن مجاري الماء ، وحق رعي ماشيتهم في زرع الحضر ، الى غير ذلك من شروط ، يضطر الحضر الى الموافقة عليها للمحافظة على حياتهم وأموالهم ، والا تعرضوا للغزو ولكوارث أخرى قد تنزل بهم أضراراً تزيد على ما يطلبه

الأعراب منهم بكثير .

وللسيطرة على حركات الأعراب ولضبطهم ، أقامت حكومات العراق وبلاد الشأم لها (مسالح) ، أي مواضع حصينة تعسكر فيها قوات نظامية في البادية ، يترأسها ضباط ، وضعت فيها كل ما يحتاج اليه من سلاح ومؤن وذخائر وقوات كافية للقيام بمثل هذه المهمات الخطيرة في البوادي . وقد حفرت لها آباراً للارتواء منها . ونصب ضباط هذه الحصون أنفسهم حكاماً يتحكمون في البوادي التي يشرفون عليها ، يفضون مشكلات القبائل ، ويحافظون على الأمن ، ويراقبون تحركات الأعراب وتنقلاتهم ، ليكونوا على حذر منهم ومن غزواتهم المفاجئة للحدود . وقد بقيت هذه (المسالح) الى أيام فتوح المسلمين للعراق ولبلاد الشأم . وكان من واجبات هذه الحصون توزيع الأرزاق على الأعراب أيام الشدة والضيق ، والتقرب الى سادات القبائل ، وعقد صداقات معهم ليستفاد منهم في كبح جماح أتباعهم ، ويحولوا دون تحرشهم بهم ، ولئلا يقوموا بمهاجمة الحدود.

وكان أقصى مكان سمح للعرب بالوصول اليه هو الشاطئ الغربي لنهر الفرات ، وحدود الحضارة لبلاد الشأم وأعالي البادية ، أي قصر البادية الأعلى. أما ما وراء ذلك ، فكان من الصعب على العرب الوصول اليه ، لتشدد الحكومة في منعهم من الدنو منه ، وتصلب الحضر تجاههم . ولم يدخله من العرب الا أفراد أو جماعات تنكرت للبادية ولسننها ، وكفرت بسنة الغزو ، ورأت في الزراعة وفي احتراف الحرف شرفاً لا يقلّ عن شرف رعي الإبل والتنقل بها من مكان الى مكان . أما الذين وقفوا عند هذه الحدود ، وهم السواد الغالب ، فقد بقوا على سنن البادية ، مخلصين لها مؤمنين بحق الغزو والقوة ، الا من اشتم رائحة الحضارة وتنفس قليلاً من ريح الحضارة ، وجاور الفرات ومشارف الشأم ، حيث تلوح معالم الحضر ، فقد طوّر نفسه بعض التطور ، واستقر في الأرض بعض الشيء وصار وسطاً بين الحضارة والبداوة ، لا هو حضري كل الحضري ، ولا هو أعرابي تام الأعرابية ، وانما وسط بين بين ، ومنزلة بين المنزلتين .

ولم يكن من الممكن للأعرابي أن يدرك قيمة الزرع والغرس وحياة الاستقرار لأن الماء وهو جوهر الزرع غير متوافر لديه ، ولأن الأمن غير موجود عنده ، فهو متى زرع واستقر وكون مجتمعاً حضرياً صغيراً ، هاجمه من هم على شاكلته من أهل البادية وسلبوه كل ما لديه . ومجتمعه مجتمع صغير لا يستطيع الاعتماد

على نفسه والركون الى قوته في صد عادية الغزاة ، لذلك حالت هذه الظروف دون السكنى والزرع والاستقرار . إلا في الأماكن التي وجدت فيها مياه ، وتوافرت لديها القوة ، كما لم يكن من السهل على سادات القبائل اكراه أتباعهم على الاستيطان والسكنى في بيوت من مدر ، ذلك لأنهم هم أنفسهم أبناء بادية ، وآراؤهم آراء أعرابية ولا يفكر في هذه الشؤون إلا من كان حضرياً مستقراً ومن ولد ونشأ وتثقف في أرض الحضارة . ثم إن تنفيذها يستدعي وجود مال وأمن وقوة رادعة تمنع الأعراب من إفساد ما يقوم به الحضري من عمل مجهد . ولم تكن هذه متوافرة عند سادات القبائل ، ولم يكن في وسع سيد القبيلة الذي يجب أن يكون محترساً يقظاً حتى لا يفاجئه منافس طامع من أهل البادية فيأخذ مكانه ، أن يأمر قومه بالاستيطان ، ووضعه على هذه الحالة من القلق وعدم الاستقرار . لذلك قضت طبيعة هذه البيأة على غالبية الأعراب التي جاءت الى هذه الأماكن بأن تعيش عيشة أعرابية أو عيشة رعي ، تعيش على ماشيتها بدلاً من الاستقرار استقراراً دائماً والاشتغال بالزراعة والاتجار بالزرع .

لقد كانت القبائل العربية قد توغلت في (طور سيناء) منذ القدم . ولا بد أن تكون هذه القبائل قد نزلت مصر أيضاً ، فمن يصل الى (طور سيناء) يكون قد طرق أبواب مصر . ذهبت تلك القبائل الى مصر تحمل اليها ما عندها من سلع ، وفي جملتها البخور والمر والحاصلات الأخرى التي عرف العرب بالاتجار بها ، غير أننا لا نملك وياللأسف نصوصاً تأريخية نستطيع أن نعتمد عليها في اثبات ذلك الاتصال . نعم ، عثر على صور ومدوّنات مصرية للسلالات الملكية الأولى ، تشير الى البدو ، والبدوي هو (عمو) في اللغة المصرية[1] . غير أننا لا نستطيع أن نؤكد أن أولئك البدو ، هم أعراب من أعراب طور سيناء ، أو من بدو مصر أو من أعراب جزيرة العرب .

والذين يتحدثون اليوم عن صلات السلالات الملكية المصرية القديمة بالعرب وببلاد العرب ، إنما يتحدثون عن حدس وتخمين ، لا عن وثائق ونصوص أشير فيها صراحة الى العرب والى بلاد العرب ، وإن كنا لا نشك كما قلنا بوجوب وجود صلات قديمة جداً ربطت بين مصر وبلاد العرب ، لا سيما أن مصر متصلة

---

١ Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. I, 450, 483, O'leary, Arabia, P. 28, Naval, P. 214.

فعلاً بجزيرة العرب من ناحية البر عن طريق (طور سيناء) ، ثم انها على الساحل المقابل للجزيرة ، فلا بد أن يكون هناك اتصال بري وبحري قديم بين الغرب والمصريين . ولا يستبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار قد تتحدث عن هذا الاتصال .

يظهر من أقوال (هيرودوتس) و (بلينيوس) ، وغيرهما من (الكلاسيكيين) ، ان الأقسام الشرقية من (مصر) ، ولا سيما المناطق المتصلة بـ (طور سيناء) كانت مأهولة بقبائل عربية . وقد ذكرت أسماء عدد منها في كتب هؤلاء[1] . ولم تستقر هذه القبائل في أيام هؤلاء (الكلاسيكيين) ، بل سكنت قبلهم بأمد طويل كما يظهر ذلك من كتبهم . وقد أطلق (الكلاسيكيون) على البحر الأحمر اسم (الخليج العربي) (Arabici Sinus) (Sinus Arabicus) ، وفي هذه التسمية معنى يشير الى نفوذ العرب وهيمنتهم على هذا البحر[2] .

ومعارفنا بصلات العرب بالحكومات العراقية القديمة ، مثل حكومة السومريين والأكديين (الأكاديين) ، لا تزيد على معارفنا المذكورة بصلات المصريين بالعرب ، فهي حتى الآن قليلة ضئيلة ، ولكن ضآلة ما لدينا من معلومات لا يمكن أن تكون سبباً في الحكم بعدم وجود صلات وثيقة بين سكان الخليج وسكان العراق ولا سيما القسم الجنوبي منه في أيام السومريين ، بل وقبل أيامهم أيضاً ، فالعراق هو امتداد طبيعي لتربة ساحل الخليج ، وهو جزء طبيعي من جزيرة العرب . وهو من ثم لا يمكن أن يكون بمعزل عن أرض الساحل وعن بقية أرض جزيرة العرب .

وقد يكون لاسم أرض (دلمون) ، وهي أرض السلامة والنظافة ، والأرض التي لا تعرف الموت ولا الأمراض والأحزان ، والتي لا ينعب فيها غراب ، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض ، والتي لا تفترس أسودها ، ولا يأكل ذئب فيها حملاً ، الجنة في الأسطورة السومرية ، علاقة بـ (دلمون) التي هي جزيرة البحرين في لغة قدماء أهل العراق . وقد حوّل الخيال السومري ، أو خيال من عاش قبلهم على تلك الأرض الى أرض مسالمة مثالية لا قتال فيها ولا موت

١ Herodotus, Vol. I, P. 118, 120, 190, 196, Pliny, Natr. Hist. Vol. II, Bk. VI, 165 P. 463ff.
٢ Forster, II, 154.

ولا حزن ، استمده من تلك الجزيرة المسالمة الواقعة في الخليج[1] .

ويحدثنا نص كتب عن فتوحات (لوكال – زكه – سي) (Lugal-Zagge-Si) (٢٤٠٠ – ٢٣٧١ ق. م.) ، وهو من رجال السلالة الثالثة من ملوك (الوركاء) (Uruk) ، أن فتوحاته كانت قد امتدت من (البحر الأسفل) (الخليج العربي) الى (البحر الأعلى) (Upper Sea) ، أي البحر المتوسط. ومعنى هذا ان حكمه كان قد شمل الخليج العربي[2] .

وفي أخبار (سرجون) الأكدي، المعروف بـ (شروكين) (Sharru-Kin) (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق. م) ، أي العادل، أن فتوحاته بلغت (البحر الجنوبي) (البحر التحتاني) (البحر الأسفل) ، أي الخليج العربي ، وأنه استولى على مواضع منه[3] . و (سرجون) ، هو أقدم ملك أكدي ، يقص علينا خبر وصول الأكديين الى تلك الجهات .

ويلاحظ أن قدماء العراقيين كانوا يطلقون على البحر المتوسط (البحر الأعلى) ، وعلى الخليج العربي (البحر الجنوبي) (The Lower Sea) [4] . وذهب بعض العلماء الى أن المراد من (البحر الأعلى) بحيرة (وان)[5] .

وقد أرسل الملك الأكدي (منشتوسو) (Manishtusu) (٢٣٠٦ – ٢٢٩٢ ق. م) حملة عسكرية بحرية ، يظهر أنها ركبت السفن من الجزء الجنوبي الغربي من ايران من (شريكم) (Shirikum) ، فعبرت الخليج (البحر الأسفل) الى الساحل المقابل ، أي الساحل الشرقي لجزيرة العرب . ولما وصلت سفنه الساحل ، تجمع ملوك (المدن) ، وبلغ عددهم (٣٢) ملكاً ، وقرروا محاربة جنوده ، غير أن جنوده انتصروا – كما يقول ملك أكد – على جنود ملوك المدن ، وانحدر أهل الساحل ، واضطروا الى الاستسلام والخضوع ، وسلمت تلك المدن له . وبذلك فرض سلطان (أكد) عليها الى موضع (مناجم الفضة) . وقد استولى على الجبال جنوب (البحر الأسفل) ، وأخذ ما وجد

١ Ancient Iraq, P. 94.

٢ Ancient Iraq, P. 122.

٣ Ancient Iraq, P. 129.

٤ W. F. Leemans, Trade in the Old Babylonian Period, P. 4, Leiden, 1960.

٥ Reallexikon der Assyriologie, I, Funfte Liefrung, S. 374.

فيها من أحجار ، فصنع منها تماثيل قدمها نذراً للإلّه (انليل) (Enlil)[1] .

وأغلب الظن أن مراد الملك من الجبال أسفل (البحر الأسفل) هي أرض عمان ، وهي أرض متصلة من البحر بالبحرين وبالعراق من البر والبحر ، كما أن تحرك السفن من جنوب غربي ايران ، أي من الأرض العربية المسماة بـ (عربستان) في الزمن الحاضر الى الساحل المقابل ، أي ساحل جزيرة العرب الشرقي ، يحمل الذهن الى أن الجبال التي ذكرها الملك هي جبال عمان ، وإذا صح هذا الرأي، يكون هذا الملك الأكدي قد وصل في فتوحاته الى أرض عمان .

وجاء في كتابة مدوّنة على تمثال الملك (نرام سن) (نارام سن) (نارام سين)[2] (٢٢٩١ — ٢٢٥٥ ق. م)[3] . أنه أخضع موضع (مكان) مجان (مقان) (Magan) ، وتغلب على ملكه (مانو) (مانيوم) (Manium) (مانودانو) (Mannu-Dannu) ، وأسره[4] .

ويظهر أن أهل (مجان) (مكان) ، وهم قوم لم يشر الى اسمهم (منشتوسو) والد (نارام سن) (Naram-Sin) ، وهم أهل عمان في رأي أكثر العلماء — كما سأتحدث عن ذلك بعد قليل — كانوا قد ثاروا على العراقيين الأكديين الذين أخضعهم لحكمه والد (نارام سن) ، وذلك في أيامه أو في أواخر أيام والده ، فأرسل لذلك (نارام سن) حملة تأديبية قضت على ثورتهم وأعادتهم الى حكم الأكديين، وعاد بذلك ساحل الخليج العربي من عمان الى أعلاه ، فصار جزءاً من مملكة أكد .

وقد ورد اسم (مكان) (مجان) في نصوص سومرية وأكادية ، نشر

---

١ G.A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924, P. ff. Ancient Iraq, P. 131.

٢ نحو « ٢٣٠٠ ق . م » حتى (ص ٤٣) الترجمة العربية ، و (٢٤٠٠ ق .) في الطبعة الثالثة باللغة الانكليزية (ص ٣٦) ، — (٢٧٣٠ ق . م) في :
Rostovtzelf, A History of the Ancient World, Vol. I, Oxford 1930, P. 397, ancient Iraq, P. 132.

٣ L.W. King, Studies in Eastern History, II, "Chronicles concerning Early Babylonian Kings," Vol. I, P. 8, 51, 52, Vol. II, P. 10, 38, 39.

٤ King, I, P. 51, The Cambridge Ancient History, Vol. I, P. 415, Cambridge, 1923, Bruno Meissner, Koenige Babyloniens und Assyriens, S. 31, King, Vol. II, P. 10, 38 39.

بغضها العلماء ، منها نص للملك (شلجي) أو (دلجي) أو (ونجي) الملقب بـ (ملك سومر وأكاد) أفاد وجود صناعة بناء السفن في هذا المكان[1]. والواقع ان أهل الساحل الشرقي لجزيرة العرب عرفوا ببناء السفن منذ القديم ، وقد ركبوا البحار ، وتاجروا ، وتوسطوا في نقل التجارة من مختلف السواحل ، ولا تزال صناعة بناء السفن الشراعية معروفة حتى اليوم مع قلة ربحها ، وعدم تمكنها من منافسة البواخر ، الا انها على كل حال مورد رزق لأصحابها لاقتناعهم بالقوت القليل .

ويدل عثور المنقبين على أختام ومواد أخرى من عمل الهند ، في(اور) وفي (كيش) و (البحرين) ومواضع أخرى من الساحل العربي الشرقي على أن الاتصال التجاري بالبحر كان معروفاً في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة ، وان بعض مواضع الخليج مثل (البحرين) كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الأيام ، تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند ، والسفن القادمة من الهند في طريقها الى العراق[2] .

وقد دعيت (مكان) (مجان) في نصوص أخرى (Matu-Ma-Gan-Na) أي (أرض مجان)[3] . ويظهر ان الملك (مانيوم) (مانثوم) (مانوم) هو الملك (منودنو) (Mannu-Dannu) نفسه الذي ورد في نص آخر[4] . وقد كتبت على التمثال لفظة (باو) (Belu) بمعنى (سيد) ، أي سيد (مجان) ، وهو (مانيوم) . وقد جيء بحجر التمثال من (مجان) . وتعني كلمة (دنو) (المقتدر) ، ولذلك يرى بعض الباحثين انها صفة ألحقت بالاسم ، فهي لقبه، وليست جزءاً من الاسم[5] .

---

١ S.H. Langdon, The Cambridge Ancient History, Vol. I, P. 415, 437, F. Thureau-Dangin, Die Sumerischen und Akkadischen Koenigsinschriftten, Bd. I, S. 66, 72, 76, 78, 104, 106, 134, 164, 166, H.R. Hall, The Ancient History of the Near East London, 1947, P. 190, Ancient Iraq, P. 142

٢ C. J. Gadd, Seals of Ancient Indian Style found at Ur, PBA, XVIII, P. 191-210, Sir M. Wheeler, The Indus Civilization, P. 85, Leemans, P. 5.

٣ King, II, P. 38, 39.

٤ King, I, P. 8, 51, 52, De Morgan, Délégation en Pers, Mémoires VI, P. 2 1905.

٥ King, I, P. 52, Cambridge Ancient History, I, P. 415.

وفي أنباء (جوديا) (غوديا) (Godea) ، وهو (باتيسي) مدينة (لكش)[١] ، انه جلب الحجر من (مجان) ، وذلك لصنع التماثيل ، كما جلب الخشب منه ومن (دلمون)[٢] . وذكر مع موضع (مجان) اسم موضع آخر هو (ملوخا) . وقد ذكر (جوديا) (غوديا) انه جلب كميات كبيرة من (حجر أحمر) من (ملوخا)[٣] . وقد أخذ العلماء في تقصّي هذين المكانين اللذين أخذ منهما هذا الـ (باتيسي) أحجاره وأخشابه ، وكذلك أسماء مواضع أخرى ذكرت مع المكانين[٤] .

وقد بحث (ونكلر) عن موضع (مجان) ، ويقع على رأيه في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب[٥] . وقد نبه على اقتران اسم (ملوخا) باسم (مجان) في الغالب ، ويرى انهما اصطلاحان يقصد بهما في البابلية القديمة بلاد العرب ، فيراد من (مجان) القسم الشرقي من الجزيرة من أرض (بابل) الى الجنوب . وأما (ملوخا) ، فيراد بها القسم الشرقي من جزيرة العرب . ويرى أيضاً ان ما وقع في جنوب المنطقتين عرف باسم (كوش) أي الحبشة ، وان البابليين لم يكونوا يتصورون بلاد العرب شبه جزيرة تحيط بها البحار من الشرق والجنوب والغرب ، بل تصوروها منطقة واسعة تمتد من الحبشة الى الهند ، وان (كوش) تقابل مصر التي هي القسم الشمالي من جزيرة العرب . فما ذكر عن (كوش) ومصر في التوراة ، لا يقصد به الحبشة ومصر ، بل يقصد به جزيرة العرب وشمالها . وقد جاء على ذلك بأمثلة من العهد العتيق ، ذكر أن من الصعب ان يكون المراد بها مصر والحبشة .

وقد ألف (ونكلر) رسالة سمّاها (مصري وملوخا ومعين) بيّن فيها رأيه في أن (مصري) هي أرض عربية شمالية ، وأن مصر المذكورة في التوراة

---

١ « باتيسي » ، في السومرية في مقابل كلمة « اشاكو » (Ischakku) و«لكرب» اي الحاكم الكاهن ، الذي يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية

٢ Schrader, Die Keilschriften und das Alte Testament, S. 15. ff. وسيكون رمزه : KLT

٣ Ancient Iraq, P. 141.

٤ « مجان وملوخا ، جمعتا الخشب من جبالهما .... وجوديا جلب الخشب منهما الى مدينة جرسو » ، Ancient Iraq, P. 141.

٥ KLT, S. 15.

هي في بلاد العرب ، لا في إفريقية . وقد أثارت نظرية (ونكلر) هذه جدلاً بين العلماء وقوبلت بنقد شديد ، لأنها تعارض ظاهرة نصوص التوراة [١] :

وذهب آخرون الى أن (مجان) هي في المنطقة المسماة (Gerrha) عند (الكلاسيكيين) ، وهي الأحساء ، وأما (ملوخا) فتمتد من المنطقة الواقعة الى الجنوب من البحرين الى عمان [٢] . وقد اشتهرت (ملوخا) بوجود الذهب فيها [٣] . ومنها حصل (جوديا) (Gudea) (غوديا) على الذهب [٤] ، كما اشتهرت بالخشب الثمين المسمى (Uschu) [٥] . وأما (هومل) ، فيرى أن (مجان) في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب ، وأن (ملوخا) تقع في وسط جزيرة العرب ، أو في القسم الشمالي الغربي منها .

وذهب (جيسمن) الى احتمال وقوع (مجان) على مقربة من ساحل الخليج ، في موضع في الرمال جنوب (يبرين) ، فيه بئر جاهلية ، قال إن اسمها قريب من (مجان) (Magan) ، ويعرف هذا المكان باسم (مجيمنة) [٦] .

وقد عارض (فلبي) رأي (جيسمن) هذا ، لأن الموضع المذكور يقع في منطقة صحراوية بعيدة عن ساحل البحر ، ولا توجد فيه آثار عاديات تشعر أنه كان من المواضع الجاهلية العتيقة ، ولا صخور من نوع (الديوريت) الذي صنع منه تمثال (نرام — سين) ، ولا أي نوع آخر من الصخور ، يبعث على الظن أنه المكان الذي نقلت منه الحجارة الى العراق . وقد رأى (فلبي) أن موضع (مجن) ، الواقع على مقربة من الساحل عند مصب وادي (شهبة) ، هو أقرب الى (مجان) من الموضع الذي اختاره (جيسمن) ، ولهذا ظن أنه هو المكان المقصود [٧] .

ويرى (موسل) أن من الصعب جداً الاتفاق على تعيين موضعي (مجان)

---

١ Hugo Winckler, Musri, Meluhha, Main, Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1898, I, Berlin, "hefte.

٢ O'leary, P. 47.

٣ O'leary, P. 49.

٤ Thureau-Dangin, Die Sumerischen und Akkadien Koniginschriften, Leipzig, 1907, S. 70.

٥ Fr. Hommel, Grundriss, I, S. 13, Arnorld T. Wilson, The Persian Gulf, Oxford, 1928, P. 28.

٦ Philby, The Empty Quarter, P. 119. ff.

٧ Major Cheesman, In Unknown Arabia, P. 266.

و (ملوخا) ، لأن مدلولي الاسمين قد تغيرا تغيّراً مراراً . فالذي يفهم من نصوص الألف الثالثة قبل الميلاد ، أنهما يقعان في جزيرة العرب على سواحل الخليج وعلى سواحل المحيط الهندي . فـ (مجان) في نص (نرام — سين) أرض تحد إقليم (بابل) ، أو هي لا تبعد عنه كثيراً [1] . وهي كذلك في كتابة (جودية) (جوديا) (غوديا) . وفي بعض النصوص التي عثر عليها في (اور) حيث أشير الى طريق قوافل يوصل من (السوس) الى (مجان) [2] ؛ وهذا مما يبعث على الظن أن أرض (مجان) و (ملوخا) المذكورتين في نصوص الألف الثالثة قبل الميلاد تقع على الخليج ، في الأرضين التي سكن فيها الـ (جرهائيون) (Gerrhaens) [3] . وقد كان سكان هذه السواحل يتاجرون منذ القديم مع الهند وايران والسواحل العربية الجنوبية ، ومع إفريقية أيضاً ؛ ويرى احتمال شمول اسم (ملوخا) منطقة واسعة تشمل ما يسمى (كوش) في التوراة ، والسواحل العربية الجنوبية التي كانت تعرف بـ (كوش) كذلك [4] .

ويرى (موسل) أن مدلول (مجان) قد توسع في الألف الأول قبل الميلاد فشمل منطقة كبيرة شملت مصر أيضاً ، فعنى في النصوص الآشورية التي ترجع الى الألف الأول قبل الميلاد بـ (مجان) طور سيناء والأقسام المتاخمة لها من مصر ، والى هذا الرأي ذهب (مايسنر) كذلك [5] . أما (ملوخا) ، فقد قصد بها الحبشة والسودان . وقد توسع مدلول (حويلة) المذكور في التوراة أيضاً ، فشمل المنطقة التي تقع غرب (بابل) الى طور سيناء والسواحل الشرقية الواقعة على خليج العقبة . ولهذا ظن بعض العلماء أنها صارت تعني (ملوخا) [6] .

وقد ذهب (كيتاني) الى أن (مجان) هي (مدين) ، لأن أرض (مدين) كانت في حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد كثيفة الأشجار ، وكانت تصدر الأخشاب التي تصلح لبناء السفن . ومن مدين أخذ البابليون الذهب والنحاس

---

١ Musil, Negd, P. 306. ff. British Museum Tablet, 26, 472, K. 2130.

٢ Musil, Negd, P. 307.

٣ Musil, Negd, P. 307.

٤ Musil, Negd, P. 307.

٥ Konige, S. 31, Musil, Negd, P. 307.

٦ Musil, Negd, P. 307.

والأخشاب . أما (موسل) ، فيعارض هـذا الرأي ، ويرى أن من الصعب تصور نقل الأكديين والسومريين والبابليين الأخشاب والصخور الثقيلـة من مدين عـلى ظهور الجمال الى بلادهم مع اتساع الشقة وبعد الطريق ، ويرى أن من الصعب تصور نقلها في البحر الأحمر فالبحر العربي فالخليج ، فإن ذلك يستدعي زمناً طويلاً ومتـاعب كثيرة ، ثم إن النصوص لم تشر الى ذلك . فمن المعقول أن تكون (مجان) في العربية الشرقية على ساحل الخليج[1] .

ويرى (كلاسر) أن (Magon Kolpos) الذي ذكره (بطلميوس) لا يعني (خليج المجوس) (Magorum Sinus) حتمـاً ، إذ يجوز أن يكون المراد منه (مجان) (Magan) ، أي موضع (مجان) الذي نتحدث عنه[2] . ويقع – في رأيه – على ساحل الخليج ، وربمـا كان عند (القطن) (قطـن) . ويحتمل – في رأيه أيضاً – أن يكون (Maka) المذكور في نص (دارا)[3] .

ويرى (أوليري) أن (مجان) هي (Gerrha) ، وتمثلهـا الأحساء في الزمن الحاضر . أما (ملوخا) (Meluhha) ، فتقـع – في رأيه – جنوب الأحساء ، في عمان . وقد استدل على ذلك بنص دوّن في عهـد (سرجون) (٧٢٢ – ٧٠٥ ق. م.) ، جاء فيه أن مملكته بلغت مسيرة ١٢٠ (بيرو) من سقي نهر الفرات الى (ملوخا) على ساحل البحـر[4] ، وأن موضع (دلون) (Dilmun) يقع على مسافة ٣٠ (بيرو) من رأس الخليج[5] . فيجب أن يكون موضع (ملوخا) اذن بعد موضع (دلون) . ولما كان موضع (دلون) هو (تيلوس) (Tylus) في رأي أكثر العلماء ، أي البحرين ، فإذن تكون أرض (مجان) وأرض (ملوخا) في العـرض ، وفي المواضع المذكورة[6] . وذهب

١ المصدر نفسه .

٢ Glaser, Skizze, II, S. 223. f. Forster, I, P. 298, 306, II, 215.

٣ Skizze, II, S. 225.

٤ Schroder, Keilinschr. Verschiedenen Inhalts, No. 92, O'leary P. 46.

٥ « بيرو » ، وفي القراءات القديمة « قصبو » (قصبة) ‹ Kaspu › عوضـا عن (بيرو) وهي مقياس للمسيرات ، سومر ، الجزء الثاني ، ١٩٤٩ ، من المجلد الخـامس (ص ١٣٤) .

٦ O'leary, P. 46, ff.

بعض آخرون الى احتمال أن يكون (مجسان) (مكان) في العربية الشرقية في موضع عمان[1] .

وقد ذكر الملك (شروكين) (Sharrukin) ملك آشور أن في جملة الأرضين التي خضعت لحكمه أرض (تلمون) (Tilmun) و (مجانا) (مجان) (مجنا) (Maganna) ، وتقع في البحر الجنوبي ، ويريد به الخليج . ويشير الى انه فتح هذه الأرضين بيده ، وذلك قبل الميلاد بمئات السنين (١٩٨٠ ؟ — ١٩٤٨ ؟ ق. م.)[2] . وقد رأى (ينسن) (P. Jensen) أن المراد بـ (تلمون) جزيرة (قشم) ، على الرغم من ذهاب كثر الباحثين الى انها البحرين . وأما (مجان) فإنها في نظره أرض (عمان)[3] .

وجاء اسم (ملوخا) (ملوخه) (Melluhha) واسم (تلمون) (Tilmun) في جملة أسماء الأرضين التي كان يحكمها ملك آشور (توكولتي نينورتا) (Tukulti-Ninurta) ، وقد نعت نفسه بـ (ملك كردونيش) (Karduniash) وملك سومر وأكاد ، وملك سيبار (Sippar) وبابل ، وملك تلمون وملوخا ، وملك (البحار العالية) و (البحار التحتية) ، وقصد بجملة (البحار العالية) (بحيرة وان) على ما يظهر ، وتقع أعلى آشور ، وبجملة (البحار التحتية) البحر الذي يقع أسفل مملكة آشور ، أي في جنوبها ، ويظهر انه أراد به الخليج العربي . ومعنى ذلك انه حكم منطقة واسعة امتدت رقعتها من (بحيرة وان) حتى الخليج ، وفي ضمنها (البحرين) والسواحل الواقعة الى غربها ، وهي سواحل (ملوخا) (ملوحا)[4] .

دلمون :

ويجرنا الحديث عن (مجان) و (ملوخا) الى الحديث عن موضع آخر ورد في النصوص (الأكدية) و (السومرية) و (الآشورية) ، هو موضع

---

١ Leemans, P. 12.

٢ Reall. I, Dritte Lieferung, S. 237, 240.

٣ المصدر نفسه .

٤ Reall. I, Funfte Lieferung, S. 374, Berlin, 1931.

(ني – تلك) (Ni-Tuk) (Ni-Tuk-Ki) وهو (دلمون) (Dilmun) أو (تلمون) (Tilmun) [1] . وقد اشتهر بتمره وخشبه ومعادنه مثل النحاس والبرنز ، وكانت فيه مملكة يرأسها ملوك[2] . وقد رأينا ان (جوديا) (Gudea) كان قد أشار اليه والى موضع (مجان) ، وقد ذكر انه استورد الخشب منه ، كما رأينا اسم هذا المكان في ضمن الأماكن المذكورة في نص (سرجون) ، وقد ورد أيضاً في نص للملك (آشور بانبال)[3] . وفي نص للملك (سنحاريب) (سنحريب) ، وقد ذكر هذا الملك انه بعد أن تمكن من (بابل) ودكها دكاً ، عزم على ضم (دلمون) الى مملكته ، فأرسل وفداً الى ملكها يخبره أمراً من أمرين : إما الخضوع لـ (آشور) وإما الخراب والدمـــار . فوافق ملك الجزيرة على الاعتراف بسيادة (سنحاريب) عليه ، وأرسل اليه بجزية ثمينة [4] . وكذلك كانت هذه الجزيرة في عداد الأرضين التي خضعت لـ (آشور بانبال)[5] .

ويظهر من النصوص أن (دلمون) كـــانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة ، فكانت تعدّ من الأماكن المقدسة ، وقد رويت عنها أساطير دينيـــة ، وعبدت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق ، مما يدل على الاتصال الثقافي المتـــين الذي كان بين العراق والبحرين . ووجـــد اسم الإلـه (انزاك) في كتابة عثر عليها في البحرين[6] ، وتشير أسطورة (أنكي) وزوجه (ننخرساك) وملحمة (كلكمش) (جلجامش) (جلجمش) ، وأسطورة (أرض الحيـــاة)[7] وغير ذلك من القصص الشعبي ، الى هـــذا الاتصال الطبيعي الذي كان بـــين جنوب العراق والعروض :

وذكر (هومل) أن من كبار آلهة (دلمون) : (لخامو) (لخامون) ، وهو إلهة أنثى[8] . وأشار أيضاً الى نص أرخ في السنة السابعة من سني (فيلبس)

---

١ O'leary, P. 46.

٢ Burrows, Tilmun, Bahrain, Paradise, in Orientalia, Heft, 2, Scriptura Sacra et Monumenta Orientis Antiqui, Roma, 1928, P. 5, 30.

٣ Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 41, 76, 92, 185.

٤ Luckenbill, Ancient, II Sect. 438,

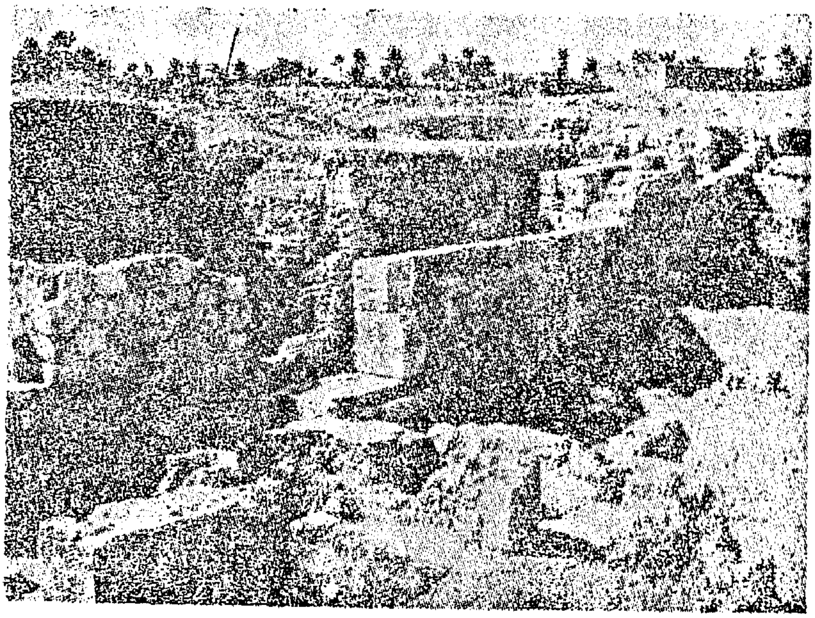
٥ مجلة سومر ، الجزء الثاني من المجلد الخامس ، ١٩٤٩ ، (ص ١٣٧) .

٦ Burrows, P. 30.

٧ S.N. Kramer, in BOASOOR, Num. 96, (1944), P. 18.

٨ Hommel, Grundriss, I S. 130.

(Philippus) (فيلفوس)[1] وتقابل سنة (٣١٧ ق. م.) ، وهو نص (بابلي) ورد فيه اسم أرض دعيت (برديسو) (Pardesu) ، وتقابل هذه الكلمة كلمة (Pildash) [2] (Pardes) بالعبرانية[3] و (فردوس) بالعربيــة ، وتقع في



معبد من حضارة ديلمون (٣٠٠٠ ق. م)
من نشرة دائرة الإعلام : حكومة البحرين

القسم الشرقي من جزيرة العرب، بين (مجان) و (بيت نبسانو) (Bit Napsanu) التي هي جزيرة (دلمون)[4] . وقد حملت هذه التسمية بعض العلماء على التفكير في أن ما ورد عن (جنة عدن) في التوراة ، إنما أريد به هذه المنطقة التي تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج[5] .

١ « فيلفوس » ، الطبري (٦٩٤/١ ، ٧٣٨) ، « طبعة ليدن » ،
٢ Hommel, Grundriss, I, S. 166.
٣ Enc. Bibli. P. 3569.
٤ Hommel, Grundriss, I, S. 250.
٥ المعرفة النظريات التي ذكرها علماء التوراة عن « جنة عدن » يستحسن مراجعة:
Enc. Bibli. P. 3574.

وقد ذهب أكثر العلماء الى أن أرض (دلمون) هي جزيرة البحرين ، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها ، وذلك لأن المسافة التي ذكرت في نص (سرجون) تكاد تساوي بعد البحرين عن فم نهر الفرات ، وهذا مما حملهم على القول إن موضع (دلمون) هو جزيرة البحرين . ثم إن الصلات بين العراق والعروض كانت قوية ، والأرض هي على امتداد واحد ، فلا موانع ولا حواجز ، ولهذا رجحوا كون (دلمون) هي البحرين[1] .

وعرفت (دلمون) أو البحرين في الكتب (الكلاسيكية) باسم (تيلوس) (Tylus) ، ويرى بعض الباحثين أنه حرف عن (تلوون) (Tilwun) ، وهو (Dilmun) في الأصل ، وورد معه اسم (أرادوس) (Aradus)[2] . وقد ذكر (بلينيوس) (Pliny) أن جزيرة (Tylos) (Tylus) معروفة باللؤلؤ ، وبها مدينة عرفت بهذا الاسم كذلك . وعلى مقربة منها جزيرة صغيرة . وهي تقابل الساحل الذي يسكنه الـ (الجرهائيون) (Gerrhaens) ، نسبة الى مدينتهم (جرها) (Gerrha)[3] . وينطبق وصف (بلينيوس) لجزيرة (Tylos) (Tylus) على جزيرة البحرين كل الانطباق :

وقد ورد في بعض نصوص (أور) (Ur) أنها صدرت الصوف في السفن الى (تلمون) (Tilmun)[4] ، كما أشير الى قوافل كانت تذهب من (أور) الى هذا الموضع ، وقد عادت بأرباح كبيرة[5] . ويظهر من هذه النصوص ومن نصوص أخرى أن الاتجار بين (تلمون) و (أور) كان متصلاً مستمراً ، وأن جماعة من تجار (أور) كانوا يرسلون قوافل من السفن الى (تلمون) للاتجار ، تحمل الى هذا الموضع ما بها حاجة اليه من حاصلات العراق ومن الأموال الواردة الى العراق من الأسواق الخارجية مثل ايران وبلاد الشام وآسية الصغرى وربما من اليونان وأسواق أوروبة ، فتبيعها هناك ، وربما يشتريها تجار (تلمون) أو غيرهم

---

١ P.B. Cornwall, in BOASOOR, 1946, P. 3. ff. The Geographical Journal, CVII, Nos, I, and 2, Febr. 1946, 28-50, The National Geographical Magazine, April, 1948.

٢ Enc. I, P. 584.

٣ Glaser, Skizze, II, S. 74.

٤ UET III, 1507, Leemans, P. 22.

٥ UETV 526, UETV 678, Leemans, 25, 26, 27, 28, 29.

لتصديرها الى أماكن أخرى بعيدة مثل الهند،أو إفريقية ، أو قلب جزيرة العرب. فإذا انتهى هؤلاء التجار من بيع تجارتهم ، يعودون ببضائع من البحرين ، هي في الغالب من تجارة الهند أو إفريقية ، في جملتهـا المعادن والأخشاب والعطور والأشياء النفيسة الأخرى التي كانت تباع بأثمان باهظة ، فيربح هؤلاء التجار من هذه التجارة ربحاً كبيراً .

وقد كان تجار (تلمون) يأتون بسفنهم الى (أور) يحملون ما استوردوه من تجارات من الهند أو افريقية أو جزيرة العرب ، لبيعه في أسواق (أور) ثم يعودون بسلع أسواق أور ، من حاصل العراق وما جلب الى أور من الخارج . وقد كان هؤلاء التجار يدفعون العشر ، ضريبة عن هذا الاتجار[1] .

وقد عثر على نصوص تبين من دراستها انها عقود واتفاقيات عقدت بين تجار للاتجار بين (أور) و (تلمون) ، وبينها وثائق تتعلق بتجارة تجـار قاموا بأنفسهم بالاتجار مع (تلمون) . ويظهر من دراستهـا ان اولئك التجار كانوا يستوردون النحاس بمقياس واسع من (تلمون) ، لأنـه مطلوب في العراق ، ولأن أسعاره هناك أرخص بكثير من سعره في أور ، وكان في جملة السلع التي استوردوها من (تلمون) الفضة و (عين السمك) ، أي اللؤلؤ على ما يظن[2] .

ولا بد أن يكون هذا النحاس من جملة المواد المستوردة من مواضع أخرى الى (تلمون) . وقد تكون أرض عمان في جملـة الأماكن التي أمدّت هذا الموضع به . فقد عثر في عمان على آثار منجم عند مكان يسمى (جبل معدن) يقع على مسافة (٧٥) ميلاً الى الشمال الغربي من الجبل الأخضر[3] . فلعل هذا المنجم القديم كان مستغلاً في تلك الأيام يستخرج النحاس منه .

ولقد عثر في البحرين على مقابر قديمة كثيرة كما ذكرت قبل . وقد وجد بعد فتحها انها خططت على نمط واحد ، وتتجه مداخلهـا نحو الغرب ، وذلك مما يبعث على الظن ان لهذا الاتجاه علاقة بشعائر دينية عند القوم أصحاب المقابر. وقد وجدت فيها كما سبق أن قلت عظام بشرية ، منهـا جمجمتان بشريتان ،

---

١ Leemans, P. 31.

٢ Leemans, P. 48, 50.

٣ Leemans, P. 122.

وعظام حيوانات يظهر انها دفنت وهي حية مع أصحابها وفق العقائـد الدينية التي كانوا يدينون بها . وعثر على مصوغات من الذهب وعلى خرز وأحجار زينة : غير ان هذه الأشياء لم تعط الباحثين حتى الآن فكرة يقينية عن تأريخها وعن أيام أصحابها ، والرأي الشائع بين الذين عنوا بدراستها وفحصها انها مقابر (فينيقية) ، لأن البحرين كانت الموطن القديم للفينيقيين[١] ،وان لم يصدر حتى الآن رأي جازم في هذا الشأن .

وقد عثر كما ذكر (ولسن) (Wilson) في مقبرة من هـذه المقابر على حجر أسود مكتوب بكتابة تشابه الكتابات المسمارية[٢] .

ويستشهد العلماء الذين يذهبون الى أن تلك المقابر هي مقابر (فينيقية)، وان سكان البحـرين هم فينيقيون ، بما ذكـره (سترابون) من أن في جزيرتي (Tylus) (Tyrus) و (Aradus) ، مقابر تشابـه مقابر الفينيقيين ، وان سكان الجزيرة يرون ان أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينيقية[٣] .

وقد قامت بعثة آثارية دانماركية بالبحث عن الآثار في البحرين ، وقد نبشت الأرض في ثلاث مواضع لاستنطاقها والاستفسار منها عن ماضيها القـديم . وقد تأكدت البعثة من أن الأماكن التي نقبت فيها تعود الى مستوطنات العصر البرنزي. وكان في جملة ما عثرت عليه تمثالين صغيرين لثورين،وفخاراً، وأشياء أخرى .

وقد عثر المنقبون على آثار معابد في مواضع من جزر البحرين ، تبـين من فحصها انها خربت مراراً ، وان الأيدي لعبت بها ، وقـد انتزعت أحجارها للاستفادة منها في تحويلها الى أبنية جديدة . وفي جملة ما عثر عليه في أنقاضها بعض التماثيل وبعض الأحجار المثقوبة ، وكانت مذابح تذبـح عليها القرابين ، فتسيل دماؤها من هذه الثقوب الى حفرة تتجمع فيها الدماء . وقد تبين أن هذه المعابد ، هي من معابد العصر النحاسي والعصر البرنزي ، وأن تأريـخ بعضها يعود الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد[٤] .

---

١ Enc. Vol. I, P. 585,Cornwall, in Geogr. Journal., CVII, P. 36, 142, 1946, Wilson, The Pers. Gulf. P. 29, Bent, The Bahrain Islands, In Roy. Geogr. Soci. 12, London, 1890.

٢ Wilson, P. 31.

٣ Enc. I, P. 585, Wilson. P. 29, 30, Strabo, XVI, III, 3, 4, Stuhlmann Der Kampf S. 195

٤ Belgrave, P. 53.

ويرى كثير من الباحثين في التأريخ القديم ان أصل الفينيقيين الساكنـين في (فينيقية) بلبنان هو من هذه المنطقة ، أي من البحرين والساحل المقابل له . وقد ذكر (هيرودوتس) ان المشهور في أيامه ان أصلهم من البحر الأحمر[١] . ولكن العلماء يرون انه قصد الخليج العربي (Sinus Persicus) لا البحر الأحمر .



سلالم تؤدي الى معبد من معابد « باربار » في البحرين
من تصوير شركة نفط البحرين

ويذكرون أن الفينيقيين تركوا ديارهم هذه ، وهاجروا منها سالكين الساحل ، ثم وادي الفرات ، ومن وادي الفرات يمّموا لبنان ، حيث استقروا على الساحـل في المنطقة التي عرفت باسمهم ، أي (فينيقية) (Phoenicia)[٢] .

اننا لا نستطيع أن نتحدث الآن عن حكومة العروض أو حكومات العروض

١ Herodotus, I, VII, 89, Hastings, P. 725.

٢ Hastings, P. 725.

في عصور ما قبل الميلاد : فما لدينا من أخبار هو نزر يسير . نعم ، من الجائز أن يكون أهل هذا الساحل قد كوّنوا لهم حكومة واحدة، ومن الجائز أن يكونوا قد أقاموا حكومات عديدة ، حكومات مدن ، أو حكومات قبائل ، على نحو ما نعرفه عن هذه المنطقة الى عهد ليس ببعيد : وكما نرى في مشيخات وإمارات الخليج في هذا الزمان . ومن الجائز أن يكون أهل العراق قد أخضعوا ذلك الساحل وأقاموا حكومات فيه . ونحن لا نستطيع التحدث الآن عن (أرض البحر) (Mat-Tamtim) ، هل كانت حكومة قوية عاشت في الألف الثالث قبل الميلاد ، حكمت كل الساحل الى أن غزتها حكومات من العراق أو كانت إمارة أو (مشيخة) في اصطلاح هذا اليوم ؟ ولكن ما نراه من سرعة تغلب الأكاديين والسومريين والآشوريين على أهل الساحل ، يشير الى انهم لم يكونوا أصحاب حكومة قوية وانهم انما كانوا في أغلب الظن رجال بحر وتجارة ، لهم حكومات صغيرة أي إمارات و (مشيخات) ، وهذا يفسر لنا سر استسلامها لحكومات العراق بسهولة ويسر وأدائها الجزية لها .

وهناك من يزعم أن (السومريين) إنما جاءوا الى العراق من البحرين ، جاءوا اليه في حوالي السنة (٣١٠٠ ق. م) . وقد عرفت البحرين باسم (دلمون) (تلمون) (Dilmun) في نصوص السومريين وقد كانت البحرين محطة مهمة ينزل فيها الناس في هجراتهم نحو الشمال ، كما كانت محطة للاتجار مع الهند والبلاد البحرية الأخرى[1] . والرأي الغالب اليوم بين علماء التأريخ القديم أن الكلدانيين الذين سكنوا الأقسام الجنوبية من العراق ، إنما جاءوا الى هذه الأرضين من العربية الشرقية ، من ساحل الخليج ، وذلك في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم زحفوا نحو الشمال حتى وصلوا الى بابل ، وقد وجد بعض الباحثين كتابات كلدانية تشبه حروفها الحروف العربية الجنوبية القديمة ، أي حروف المسند ، واستدلوا من ذلك على أن أولئك المهاجرين الذين ربما كان أصلهم من عمان هاجروا الى ساحل الخليج ، ثم انتقلوا منه الى العراق ، ونقلوا معهم خطها القديم ، الذي تركوه بعد ذلك حينما استقروا في العراق ، لتأثرهم بالمؤثرات الثقافية العراقية . والنماذج القديمة من كتاباتهم التي عثر عليها الباحثون،

---

١ Grohmann, Arabien, S. 255.

وإن لم تتحدث عن أصل أصحابها ، إلا أن خطهـا المذكور يشير الى أنـه من العربية الشرقية [1] .

وقد ذهب (سترابو) الى أن (Gerrha) التي تقع عند (العقير) كانت في الأصل موضعاً للكلدانيين (Chaldaer) ، وكانت ذات تجارة مع أهـل بابل مزدهرة [2] .

على كل فالذي يتبين لنا من الأخبار السومرية والأكدية والآشورية وغيرهـا أن أهل العربية الشرقية كانوا قد كوّنوا لهم حكومات مدن وذلك قبـل الألف الثالثة قبل الميلاد ، صرفت جل عنايتهـا نحو التجارة وركوب البحار للاتجار ، والاستفادة من البحر لاستخراج ما فيه من سمك و (لؤلؤ) ، واستغلال ما في أرضها من ماء للزراعة عليه . والطبيعة هي التي فرضت على أهل هذا الساحل هذا الشكل من الحكم ، لأنها لم تمنحهم أمطاراً وافرة تمكنهم من استغلال أرضهم ، ولم تعطهم أنهاراً كبيرة طويلةً تساعد في نشوء العمران عليها وتكوين حكومات مطلقة ، كما في العراق أو في وادي النيل ، لذلك انحصرت السكنى في مواضع متناثرة من الساحل ، فصعب على السكان تكوين حكومة مطلقة واحـدة يكون الحكم فيها حكماً مركزاً في أيدي الملوك ، لتباعد المدن بعضها عن بعض ، لذلك صار الحكم فيها حكم مدن ، على المدينة (ملك) أو رئيس يدير شؤون الجماعة ، إلاّ أن هذا الوضع جعلهم عرضـة للغزو اذ طمعت فيهم الحكومات الكبيرة ، كالذي رأيناه من غزو السومريين والأكديين لهم ، وكالذي سنراه فيما بعـد من غزو الآشوريين واليونانيين وغيرهم لهذه الأرضين .

لقد استورد السومريون والأكديون الذهب والحجارة الصالحة لصنع التماثيل ، والأخشاب لبناء المعابد ، والأشياء النفيسة الأخرى من (دلمون) ومن (ملوخا) ومن (مكان) (مجان) ، وهي أماكن يرى كثير من العلماء انها في العربيـة الشرقية ، وقـد تكون تلك المواد من الأموال المستوردة من الهنـد . على كل حال ، فقد توسطت تلك الأماكن في استيرادها وايصالهـا الى العراق ، بفضل مهارة سكانها في تسخير البحر وتيسيره ، وقد ترك الفتح العراقي فيها أثراً كبيراً

---

١ W. F. Albright, in BASOOR, Num. 128, 1952, P. 39, "the Chaldaean Inscriptions in Proto-Arabic Script".

٢ Strabo, XVI, 7, 66, Grohmann, Arabien, S. 257.

يظهر في الآثار العراقية التي استخرجت من باطن الأرض وفي فن العربية الشرقية المتأثر بالفن العراقي .

وقد أثر انتقال ثقل الحكم من (أور) ومن القسم الجنوبي من العراق الى وسطه تأثيراً كبيراً في ثراء (أور) واقتصادها ، فقد كان في هذه المدينة تجار كوّنوا لهم شركات بحرية لنقل التجارة بين هذة المدينة ومدن الخليج ، وربما الى



رأس ثور عثرت عليه البعثة الدانماركية في « باربار » بالبحرين

مدن الهند أيضاً . وقد أثر ذلك فيهم بصورة خاصة حين وضع (حمورابي) أنظمة تحدد الاتجار البحري في ذلك العهد[1] : وقد افتخر ملك (آشور) ، الملك (تكولتي — ننورتا) (Tukulti-Ninurta) (١٢٤٤ — ١٢٠٨ ق. م.) ، بأنه وسّع حدود مملكته في الجنوب ، بأن استولى على (سومر) و (أكد) ، وثبت حدودها الجنوبية عند (البحر الأسفل حيث مشرق الشمس)[2] . ويعني بذلك الخليج ، غير انه لم يشر الى الأرضين التي استولى عليها في هذا الخليج :

هذا كل ما نعرفه اليوم عن تأريخ العرب في العهود القديمة . وهو كما رأينا

---

١ Ancient Iraq, P. 184, Leemans, The Old Babylonian Merchant, Leiden, 1950, P. 78-95, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960, A. L. Oppenheim, JAOS, S. 74, 1954, P. 15, 17.

٢ Ancient Iraq, P. 217, D.D. Luckenbill, Ancient Records, I, P, 145.

نزر يسير، أخذ من بحوث أفراد ومن بحوث عرضية حصل عليها عند البحث عن البترول ، وأملنا في زيادة علمنا بتلك العهود هو في قيام بعثات علمية بالبحث عن الآثار والعاديات لاستنطاقها عن أحوال تلك العهود . وليس أمامنا بعد هذه المقدمة الا الدخول في العصور المعروفة التي وصل الينا بعض أخبارها في الكتابات وفي الموارد الأخرى .

وقد كان لأعمال الحفر التي قامت بها بعثة (دانماركية) أرسلها متحف ما قبل التأريخ في (Aarhus) بالدانمارك فضل كبير في الكشف عن صفحات مطوية من تأريخ سواحل الخليج . فقد تمكنت هذه البعثة من العثور على آثار من عهود ما قبل العصور التأريخية في البحرين وقطر و (أبي ظبي) ، كما تعقبت آثار السكنى القديمة في البحرين وعمان وبقية الساحل ، وعثرت على معابد قديمة مثل معبد (بربر) (باربار) في البحرين و (تل قلعة البحرين) في البحرين ، وتوصلت بذلك الى نتائج قيمة جداً رجعت بتأريخ هذه البلاد الى عصور بعيدة جداً عن الميلاد ، وكان من أعمالها الكشف عن آثار (فيلكا) في الكويت .

وقد تبين من دراسة البعثة الدانماركية لآثار معبد (بربر) (باربار) في البحرين ، انه معبد عتيق : يرجع عهده الى حوالي السنة (٣٠٠٠ ق.م.) أو أقدم من ذلك [١] . وأنه كان معبداً كبيراً به (بئر) مقدسة يستقي منها المؤمنون للتبرك بمائها ولتطهير أجسامهم ولاجراء الشعائر الدينية، ويلاحظ أن الباحثين تمكنوا من العثور على آبار مقدسة في بيوت العبادة الكبرى عند الجاهليين ، وهذا يدل على أن معابدهم الكبيرة كانت ذات آبار مقدسة يشربون منها للتبرك والشفاء ولتطهير أجسامهم ، شأنهم في ذلك شأن أهل مكة و (زمزم) .

لقد وجدت هذه البعثة تحت أنقاض (تل القلعة) في البحرين بقايا مدينة قديمة يمكن أن تعدّ من مدن الجزيرة الكبيرة أو عاصمتها ، يرجع تأريخها الى حوالي السنة (٢٥٠٠ ق.م.) . وكانت مسورة بسور ارتفاعه (١٦) قدماً عن سطح الأرض ، بني بالحجارة ، وقد بنيت به قلعة لحمايته من هجوم الأعداء ، وعثر على باب المدينة، وقد زينت ببناء مربع الشكل . ويقال ان الملك (سرجون) الأكادي كان قد أمر باحراقها سنة (٢٣٠٠ ق. م.) ، حتى صارت ركاماً ،

١ Grohmann, Arabien, S., 266.

وبقيت عـــلى ذلك طوال أيام (الكاسيين) (الألف الثانية قبل الميلاد) ، حتى أعيد بناؤهـــا في القرن السابع قبل الميلاد ، فازدهرت وتوافد عليها السكان ، وأخذت تتاجر مع العراق . وكانت مزدهرة في أيام (الأخمينين) و(السلجوقيين)، الا أن النحس حلّ بها بعد سقوط الحكومة السلجوقية ، ولازمها ولم يتركهـــا حتى هجرها الناس[١] .

وفي جملة مـــا عثرت عليه تلك البعثة آثار مدينة يرجع عهدها الى منتصف الألف الأولى قبـــل الميلاد ، في مكان يعرف بـ (مرب) في القسم الغربي من (قطر)[٢] .

١ P.V. Glob, Kuml, 1957, 1958, 142, 144, T.G. Bibly, Kuml, 1957, 162.

٢ Glob, Kuml, 1959, 238, Grohmann, Arabien, S. 260.

الفصل الرابع عشر

العرب في الهلال الخصيب

ليس من السهل علينا التعرض في الوقت الحاضر للصلات التي كانت بين العرب الشماليين وبين حكومات الهلال الخصيب في أقدم العهود التأريخية المعروفة التي وقفنا على بعض ملامحها ومعالمها من الآثار ، فبينها وبيننا حجب كثيفة ثخينة لم تتمكن الأبصار من النفاذ منها لاستخراج ما وراءها من أخبار عن صلات العرب في تلك العهود بالهلال الخصيب .

ولعل خبر (نرام — سن) (نرام — سين) (Naram-Sin) الأكادي (٢٢٧٠ — ٢٢٢٣ ق. م.) ، عن استيلائه على الأرضين المتصلة بأرض بابل والتي كان سكانها من العرب (Aribu) (Arabu) ، هو أقدم خبر يصل الينا في موضوع صلات العرب بالعراق[1] . وهو خبر ينبئك بأن عرب أيام (نرام — سن) ، كانوا في تلك المنازل قبل أيامه بالطبع ؛ وهي منازل كوّنوا فيها (مشيخات) و (امارات) مثل امارة (الحيرة) الشهيرة التي ظهرت بعد الميلاد .

ويحدثنا سفر (القضاة) بأن (المديانيين) والعمالقة وبنو المشرق ، كانوا ينتزعون ما بأيدي الإسرائيليين من غلة زراعة ،وما عندهم من ماشية ، ويغيرون

١ Arabien, S., 21.

عليهم . كانوا يأتون اليهم بخيامهم « كالجراد في الكثرة ، وليس لهم ولجمالهم عدد » حتى ذل الإسرائيليون[١] . وأصل المدينيين من جزيرة العرب ، استقروا بأرض (مدين) جاءوا اليها من الحجاز ، وأخذوا يغزون العبرانيين ، ومنها هذه الغزوات التي يرجع بعض الباحثين تأريخها الى النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد[٢] . أما العمالقة وبنو المشرق ، فإنهم مثل المدينيين من قبائل العرب .

العرب والآشوريون :

إن أول إشارة الى العرب في الكتابات الآشورية ، هي الإشارة التي وردت في كتابات الملك (شلمنصر الثالث) (شلمناسر) ملك آشور[٣] . فقد كان هذا الملك أول من أشار الى العرب في نص من النصوص التأريخية التي وصلت الينا ، إذ سجل نصراً حربياً تم له في السنة السادسة من حكمه على حلف تألف ضده ، عقده ملك (دمشق) وعدد من الملوك الإرميين الذين كانوا يحكمون المدن السورية وملك اسرائيل ورئيس قبيلة عربي ، اسمه (جندب) . وقد كان هذا النصر في سنة (٨٥٣) أو (٨٥٤ ق. م)[٤] . وقد قصد (شلمنصر) بلفظه (عرب) الأعراب ، أي البدو ، كما شرحت ذلك في الفصل الأول : أما العرب الحضر ، أهل المدر ، أي المستقرون ، فقد كانوا يدعون كما ذكرت ذلك أيضاً بأسماء الأماكن التي يقيمون فيها أو التسميات التي اشتهروا بها . ذلك لأن لفظة (العرب) لم تكن قد صارت علماً على جنس ، من بدو ومن حضر ، بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا . ولم يكن هذا الاستعمال مقتصراً على الآشوريين

---

١ القضاة ، الاصحاح السادس ، الاية ٣ وما بعدها .

٢ Arabien, S., 21.

٣ (شلمناسر) ، قاموس الكتاب المقدس (٦٢٩/١) ، بمعنى (شلمان ذو نعمة) سنة ١٢ و ١٩ (ص ٦٥) ، راجع عن مادة العرب في الموارد البابلية والاشورية ادي شير : تأريخ كلدو واثور (المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين) في بيروت اطروحة T. Weiss Rosmarin المعنونة بـ (Arabi und Arabien in den Babylonish-Assyrrischen Quellen) Wuerzburg, 1931, New York, 1932, JSOR, 16, 1932.

٤ D.D, Luckenbill, Ancient Records, Vol. II, 17, 118, Vol., I, 661.

بل كان ذلك عاماً حتى بين العرب أنفسهم وقد أدى ذلك الى جهلنا بهويات شعوب ذكرت فى النصوص الآشورية وفي النصوص الأخرى وفي التوراة ، دون أن يشار الى جنسيتها ، فلم نستطع أن نضيفها الى العرب للسبب المذكور :

وكان ملك (دمشق) (بيرادري) (Bir-Idri) (Biridri) ، المعروف باسم (بنهدد) (Benhaddad) في التوراة[1] ، قد هاله توسع الآشوريين وتدخلهم في شؤون الممالك الصغيرة والإمارات ، ولا سيما بعد تدخلهم في شؤون مملكة (حلب) ، وخضوع هذه المملكة لهم بدفعها الجزية واعترافهم بسيادة آشور عليها . فعزم على الوقوف أمام الآشوريين ، وذلك بتأليف حلف من الملوك السوريين وسادات القبائل العربية ، لدرء هذا الخطر الداهم . وقد انضم اليه (آخاب) ملك اسرائيل ، وأمراء الفينيقيين ، فكان مجموع من استجاب لدعوته اثنا عشر ملكاً من ملوك سوريا ، (وجنديبو) ملك (العرب) ، وقد أمد الحلف بألف جمل وبمحاربين ، وكل هؤلاء كانوا قد أصيبوا بضربات عنيفة من الآشوريين وتعلموا بتجاربهم معهم مبلغ قوتهم وغلظتهم على الشعوب التي غلبوها على أمرها ، فأرادوا بهذا الحلف التخلص من شرهم والإنتقام منهم والقضاء عليهم .

وعند مدينة (قرقر) ، الواقعة شمال (حماة) وعلى مقربة منها ، وقعت الواقعة ، وتلاقى الجيشان : جيش (آشور) تسيّره نشوة النصر ، وجيوش الإرميين والعرب والفينيقيين ومن انضم اليهم ، تجمع بينهم رابطة الدفاع عن أنفسهم ، وبغضهم الشديد للآشوريين . لقد تجمع ألوف من جنود الحلفاء في (قرقر) على رواية ملك آشور ، لمقاومة الآشوريين وصدّهم من التوسع نحو الجنوب ، واشتركت في المعركة مئات من المركبات . أما النصر فكان حليف (شلمنصر) ، انتصر عليهم بيسر وسهولة ، وأوقع بهم خسائر كبيرة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وتفرق الشمل ، وهرب الجميع ، وانحل العقد ، ورجع ملك آشور الى بلده منتصراً ، مخلداً انتصاره هذا في كتابة ليقف عليها الناس[2] .

---

١ راجع عن (بنهدد) ، قاموس الكتاب المقدس ، (١/ ٢٥٠) ، (بنهداد ، اوبرهداد) (اداريدري ، وهو الذي يسميه الكتاب المقدس بنهداد ، باسم ابيه بنهداد الاول) ادي شير (ص ٦٩) ، Meisner, Konige, S. 139, Hastings, P. 90, Enc. Bibl. P. 5.

٢ ادي شير (ص ٦٩ فما بعدها) ،

وإليك بعضَ ما جاء في نص (شلمنصر) عن معركة (قرقر) ، لتقف على ما قاله عنها : (قرقر : عاصمته الملكية ، أنا أتلفتها ، أنا دمرتها ، أنا أحرقتها بالنار ، ١٢٠٠ عجلة ، ١٢٠٠ فارس ، ٢٠,٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب إرم ... ألف جمل لجندب العربي ... هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمساعدته ، برزوا الى المعركة والقتال ، تألبوا عليَّ ...)[١] .

ويلاحظ كثرة عدد العجلات المستخدمة في المعركة بالنسبة الى تلك الأيام . وهذه الأرقام ليست بالطبع أرقاماً مضبوطة ، فقد عودنا الملوك الأقدمون المبالغة في ذكر العدد ، والتهويل في تدوين أخبار المعارك والحوادث ، للتضخيم من شأنهم وللتعظيم ، وتلك عادة قديمة ، نجدها عند غير الآشوريين أيضاً[٢] .

و (جنديبو) اسم من الأسماء العربية المعروفة ، هو (جندب) . ويكون هذا الاسم أول اسم عربي يسجل في الكتابات الآشورية . ولم يشر (شلمنصر) الى أرضه والمكان الذي كان يحكم فيه . غير ان القرائن تدل على انها كانت في أطراف البادية ، ويرى (موسل) انها كانت تقع في مكان ما جنوب مملكة (دمشق)[٣] . وأرى انه كان ملكاً على غرار الملوك سادات القبائل مثل ملوك الحيرة والغساسنة ، حكم على قبائل خضعت لحكمه وسلطانه ، وكان يتناول الإتاوات من الحكومات الكبيرة مقابل حماية حدودها من الغارات والاشتراك معها في الحروب .

وقد أبلغنا (شلمنصر) الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ ق. م.) أيضاً ، انه زحف نحو الجنوب ، نحو أرض (كلدو) ، أي أرض الكلدانيين ، فاستولى عليها وتوغل بعد ذلك نحو الجنوب حتى بلغ (البحر المر) (البحر المالح) (Nar Marratu) أي الخليج العربي ، فقهر كل السكان الذين وصلت جيوشه اليهم[٤] . ويظهر انه بلغ حدود الكويت فاتصل بذلك بجزيرة العرب وبقبائل عربية ساكنة في هذه الأرضين .

---

١ Meisner, Koenige, S. 140, J.W. Weiss, Geschichte dés Orients, S. 597, Grohmann, S. 21. Luckenbill, I, 611, Meisner, Koenige, S. 140.

٢ Meissner, Konige, S. 140.

٣ Musil, Deserta, P. 477.

٤ Ancient Iraq, P. 277, Luckenbill, I, 624.

وفي السنة الثالثة من حكم (تغلث فلاسر) (تغلاتبلاسر الثالث) (Tiglath Pileser)[1] (٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م.) تقريباً ، دفعت ملكة عربية اسمها (زبيي) الجزية الى هذا الملك . وكانت تحكم (أريبي) ، أي العرب . ولم يتحدث النص الذي سجل هذا الخبر عن مكان الأعراب أتباع (زبيي) :



معركة بين العرب والآشوريين

وقد ذهب (موسل) الى انه (أدومو) (Adumu) ، أي (دومة) (دومة الجندل) ، وذهب أيضاً أن الملكة كانت كاهنة على قبيلة (قيدار) (Kedar)[2].
و (زبيي) ، هو تحريف لاسم (زبيبة) ، وهو من الأسماء العربية المعروفة.

ويحدثنا هذا الملك أيضاً انه في السنة التاسعة من ملكه ، قهر ملكة عربية أخرى اسمها (سمسي) (Samsi) (شمسي) (Shamsi) ، واضطرها الى دفع الجزية له بعد أن تغلبت عليها جيوش آشور . ويدعي الملك أنهاحنثت بيمينها

---

١ « تغلث فلاسر » ، و « ثغلث فلناسر » في الترجمات العربية للتوراة ، اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثامن والعشرون ، الاية العشرون ، الملوك الثاني ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٢٩ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٦ ، ولذلك اخترت هذه التسمية ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨٨/١) ، ادي شير (ص ٨٠) ، وقد جعله « موسل » « ثغلث فلاسر الرابع » ، Musil, Hegaz, P. 287, Deserta, P. 477.
وعرف بـ "Tukulti-Apil-Esharra" في النصوص. Hastings, P. 934.

٢ Rost, Keilschrifttexte, II, P 1. 16, (1893), Olmstead, History of Assyria, P. 189, G. Rawlinson, The Five Great Monrchies, Vol. II, P. 396.

وكفرت بالعهد الذي قطعته للإلّه العظيم (شماش) (Schamash) بألا تتعرض للآشوريين بسوء ، وبأن تخلص لهم ، فانتصر عليها ، واستولى على مدينتين من مدنها ، وتغلب على معسكرها ، فلم يبق أمامها غير الخضوع والاستسلام وتأدية الجزية إبلاً : جمالاً ونوقاً[١] .

والظاهر انها انضمت الى ملك دمشق في معارضته للآشوريين ، وتعرضت لقوافل آشور ، فجهز الملك عليها حملة عسكرية تغلبت عليها . ولضمان تنفيذ مصالح الآشوريين ، قرر الملك تعيين (قيبو) أي مقيم أو مندوب سام آشوري لدى بلاطها ، لارسال تقاريره الى الحاكم الاشوري العام في سورية عن نيّات الملكة واتجاهات الأعراب ، وميول قبيلتها ، ولتوجيه سياسة الملكة على النحو الذي تريده (آشور)[٢] .

وقد ذكر النص الآشوري أن الملكة أصيبت بخسائر فادحة جداً ، وهي ألف ومئة رجل ، وثلاثون ألف جمل ، وعشرون ألف من الماشية ، وهي أرقام بولغ فيها جداً ، ولا شك[٣] .

ويذكرنا اسم الملكة (شمسي) (سمسي) باسم عربي هو (شمس) أو (شمسة) . و (شمسة) من الأسماء العربية القديمة التي ما تزال حية . وقد كان في المدينة امرأة نصرانية اسمها (شمسة) ، أسلمت على يدي الحسن بن علي بن أبي طالب[٤] فحرف الآشوريون الاسم وفق نطقهم وكتبوه على هذا الشكل .

وقد صوّر على اللوح الذي ورد فيه خبر الانتصار المذكور ، منظر فارسين آشوريين يحملان رمحين ، يتعقبان أعرابياً راكباً جملاً ، وتحت أعقاب الفرسين وأمامها جثث الأعراب الذين خروا صرعى على الأرض. وصوّر شعرهم طويلاً وقد عقد الى الوراء ، وأما اللحى فكثة ، وأما أجسامهم فعارية إلا من مئزر شدّ بحزام . وقد حرص الفنان على تصويره الأعرابي الراكب قريباً جداً من الفارسين ، ماداً يده اليمنى اليهما متوسلاً ومسترحماً ومستسلماً ، وصورت الملكة

---

١ ادي شير (ص ٨٥) ،
Musil, Deserta, P. 477, Olmstead, History Of Assyria, P. 199, J. B. Pritchard, Ancient Near Easterern Texts, Princeton, 1950, P. 283.

٢ Musil, Deserta, P. 477.

٣ Meisner, Konige, S. 140.

٤ ابن سعد ، الطبقات (٥/٢٨٤) « طبعة بيروت ١٩٥٧ »

(سمس) (شمسي) (سمسي) حافية، ناشرة شعرها ، تحمل جرة من الجرار الاحدى عشرة المقدسة ، بعد أن أضناها الجوع والتعب في فرارها الى (بازو) ، وقد خارت قواها المعنوية [1] .

وورد في الكتابة الآشورية أن الملكة أرسلت وفداً الى ملك آشور لمصالحتــه واسترضائه ، ضم عدداً من سادات قبيلتها وأتباعها ، منهم (يربع) (يربأ) (Jarapa) ، وكان رئيس الوفد ، و (ختزنو) (حتزنو) (Hataranu) و (جنبو) (Ganabu) ، و (تمرنو) (Tamranu) [2] . وهي أسماء عربية لا غبار عليها ، كتبت بحسب النطق الآشوري . فـ (Jarapa) مثلاً ، يمكن أن يكون أصله (يرفع) أو (يربع) أو يربوع ، و (Hataranu) جائز أنه (خاطر) أو (خطر) ، و (Ganabu) جائز أنه جناب أو (جنب) ، و (Tamranu) جائز أنه (تمر) أو (تمار) أو ما شابه ذلك . ولا أرى بنا حاجة الى ذكر أمثلة عديدة وردت فيها أسماء من مثل (يربوع) (وجناب) و (جنب) وأمثال ذلك لدى الإسلاميين [3] .

وبعد أداء (شمس) الجزيـــة الى ملك آشور ، دفعت عدة قبائل وشعوب عربية الجزية اليه . وقد جعل بعض الباحثين ذلك في حوالي سنة (٧٣٨ ق م) [4] وجاء في الترجمة العربية لكتاب (حتي) ان ذلك كان في عام (٧٢٨ ق م) [5] واذا كان أداء العرب المذكورين الجزية في السنة التاسعة من حكمه ، فيجب أن تكون السنة سنة (٧٣٦ ق.م.) تقريباً ، لأن حكم الملك كان في (٧٤٥ ق.م.) [6] . وقد ذكر الملك انــه تسلم الجزيـــة ذهباً وفضة وإبلاً وطيوبـــاً من (مساى) (مسأى) (Mas'a) و (تيما) و (سبأ) (سبا) و (خيابة) (خيابه) (Hajapa) (Hayapa) (Hajappa) و (بطنه) (Batana) (Badana)

---

١ Olmstead, History of Assyria, P. 199.

٢ H. Winckler, Keilschrift. Bd. II, S. 62, AOF. BD. I, S. 465.

٣ الاشتقاق (٢/٢٣٥ ، ٣٦٢)

٤ Stuhlmann, Der Kampf, S. 10.

٥ حتي (ص ٤٥) .

٦ تولـى الحكم في « ١٣ ايار » ، Hastings, P 934.

و (خطي) (Hatti ، Hatte) و (ادبئيل) (Ibida'il)[١] . وقـــد ورد انها كانت تقطن في أرضين تقع في الغرب في أماكن بعيـدة[٢] . ويقصد انهـا كانت غرب آشور ، والغالب انه كان يريد من قوله : في مواضع بعيـــدة ، البادية حيث يصعب الوصول اليها .

ويرى بعض الباحثين ان (مسأى) (مسا) (Mas'a) هي قبيلة (مسا) (Massa) المذكورة في التوراة[٣] . وهي قبيلة اسماعيلية كانت منازلها في شرق (مرآب) ، أو في جنوب شرقيهـا[٤] . ويظهر انها لم تكن بعيـــدة جداً عن فلسطين[٥] . ورأى (ذورمه) (Dhorme) انها قبيلة من قبائل العربية الجنوبية[٦] ، وهو رأي بعيد الاحتمال[٧] ، فلا يعقل وصول نفوذ الآشوريين في ذلك الزمن الى تلك المواضع . ثم ان (مسا) وهو أحد أبناء (اسماعيل) كما ورد في التوراة[٨]. والقبائل الإسماعيلية لم تكن تسكن العربية الجنوبية ، بل المواضع التي ذكرتها في أثناء حديثي عنهم . ثم ان أحد المقيمين الآشوريين كان قـــد كتب تقريراً الى ملكه ، يذكر فيه ان (ملك قهرور) (مالك قهرو) ، وهو ابن (عم يثع) (عم يطع) (عمي يطع) (Amme'uta') من قبيلة (مسا) ، غزا ، بعد خروج الملك وارتحاله عن قبيلة (نبأ أتى) (نبي أتي) (Nabi'ati) ، هذه القبيلة وذبح أفرادها ، وسرقها وقد تمكن أحدهم من النجاة بنفسه ، فبلغ الملك وأخبره بالحادث[٩] . ويشير المقيم السياسي الآشوري في تقريره هذا الى الحادث ، ليكون ملكه على علم به . وقبيلة (نبأ أتى) (نبي أتي) (Nabi'ati) هي

---

١ Musil Hegaz, P. 288, Rost, Keilschrifttexte, II, Taf. 23, Z. 218-226, 240, Meissner, Koenige, S. 165, Pritchard, Ancient, Near East Texts, 1950, P. 283, 284.
وسيكـــون رمـــزه : Pritchard

٢ Winckler, KLT. S. 58

٣ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١٤ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٤٢/٢)

٤ Musil Hegaz, P 288, W. F. Albright, The Biblical Tribe of Massa', in Studi Orientalistici, Roma, 1956, 12,

٥ Hastings, P. 591, Enc. Bibli. P. 2972.

٦ Dhorme, Les Pays Bibliques, P. 196, 1910, Deserta, P. 478.

٧ Musil, Deserta, P. 478.

٨ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٤ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ٣٠.

٩ Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, (1861-1884) Vol. 4, P. 1. 54. Note, I.

قبيلة (نبايوت) (Nabajot) (Nebaioth) المذكورة في التوراة [1] . وهي مثل (مسا) احدى القبائل الإسماعيلية . ولهذا تكون منازل قبيلة (مسا) في الشمال أو في الشمال الغربي من منازل (نبايوت)[2] .

وأما (تيما) (Tema) ، فإنها (تيماء) المذكورة في التوراة [3] ، والمعروفة حتى في الإسلام . وتقع على الطريق التجاري الخطير الذي يربط العربية الجنوبية والحجاز والشام والعراق ومصر ، ثم بموانيء البحر المتوسط ، كما عرف التيمائيون باشتغالهم بالتجارة ، فلعلهم دفعوا الجزية الى آشور حفظاً لمصالحهم التجارية ولكي يسمح لهم الآشوريون بمرور تجارتهم في الطرق التي تخترق العراق وبلاد الشام وموانيء البحر المتوسط بعد أن أصبحت تحت سيطرتهم[4] .

وقد ذكرت (تيماء) مع (ددان) في مواضع من التوراة [5] . وذكرت مع (ددان) و (بوز) كذلك[6] . ومعنى هذا أن هذه المواضع كانت متقاربة لا يبعد بعضها عن بعض كثيراً ، وأشير الى (قوافل تيماء) و (سيارة سبأ)[7]، ويدل ذلك على اتصال تجاري كان بين التيمائيين والسبئيين في ذلك العهد .

ويدل ورود اسم (سبأ) ، بعد (تيما) في نص (تغلث فلاسر) ، على أن السبئيين المقصودين كانوا يعيشون على مقربة من التيمائيين ومن بقية من دفع الجزية للآشوريين . ويرى (موسل) أنهم كانوا يقيمون اذ ذاك في (ددان) (ديدان) ، وأنهم من السبئيين الذين أخذوا مكان المعينيين ، وكانت لهم قوافل تنقل التجارة على الطرق البرية كما كانوا يقومون بتربية الإبل والماشية [8] .

وأما (خيابه) (Hajapa) ، فإننا لا نعرف عنهم اليوم شيئاً غير الاسم . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنهم (عيفة) ، المذكورون في التوراة . ومن

---

١ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، اية ١٣ . Deserta, P. 478.
٢ Deserta, P. 478.
٣ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٥ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١)
٤ Musil, Hegaz, P. 288.
٥ اشعياء الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها ، ارميا الاصحاح ٢٥ ، الاية ٢٣
٦ ارميا ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ٢٣
٧ ايوب ، الاصحاح السادس ، الاية ١٩ .
٨ Musil, Hegaz, P. 288. وسيكون رمزه : Hegaz

هؤلاء (فرديش دلج)[١] و (شرادر)[٢] و (موسل) وآخرون[٣] . وهو على رواية نسابي العهد العتيق من نسل (مديان) (مدين) ، ومن حَفَدة (إبراهيم) من زوجه (قطورة) . ويفهم من (أشعياء) ، أنهم كانوا يتاجرون مع (شبا) مثل (مديان) يحملون الذهب واللبان[٤] ، ويظهر أنهم كانوا يقطنون منطقة (حسمي)[٥] .

ومن الصعب تشخيص قبيلة (بطنه) (بطنا) (بدنه) (Batana) (Badana) . ولم يرد في التوراة ما يقابل الاسم أو ما يقاربه. وقد قرأ (موسل) الاسم (بدنه) (Badana) ، وذهب الى أنه اسم قبيلة (بدون) أو (مدون) ، بإبدال (الباء) ميماً ، وهذا أمر مألوف . وتقع منازلها في (العلا) ، أي في (ددان) (ديدان) القديمة . ويعتقد أفرادها أنهم من سلالة قديمة جداً ، وليست لهم صلات قربى بالقبائل الأخرى . وتسكن بطون منهم عند (البتراء) (Petra) أي الرقيم[٦] .

وأشار (موسل) أيضاً الى اسم موضع ذكر أنه ورد في كتاب (بلينيوس)، وهو (Badanatha) . غير أنه لاحظ أن هذا الاسم مشكوك في صحة ضبطه، فإن بعضهم قد قرأه (Baclanaza)[٧]. فإذا كانت القراءة (Badanatha) صحيحة ، فمن الممكن إذن أن يكون لهذا الاسم علاقة بـ (بدون) ، أو (مدون) وبـ (بطنه) (Batana) ، الوارد في نص ملك آشور[٨] . والموضع الذي ذكره (بلينيوس) ، قريب من (Domata) ، أي (دومة الجندل) ،

---

١ Fr. Delitzch, Wo Lag das Paradies? Leipzig, 1881, S. 304.
وسيكون رمزه Delitzch

٢ KLT. S. 58.

٣ Hegaz, P. 289.

٤ « تغطيك كثرة الجمال ، بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهبا ولبانا » اشعياء ، الاصحاح الستون ، الاية السادسة ،
Hastings, P. 231, Ency. Bibli. P. 1300.

٥ Hegaz, P. 289.

٦ Rost, Die Keilschrifttexte Tiglatpilesers, III, Leipzig, 1892, S. 36, Hommel, Geographie, S. 297, 595, Reall., I, S. 431, Hegaz, P. 290.

٧ Pliny, Natu. Histo. VI, 157, Vol. II, P. 457, (H. Rackham)

٨ Skizze, II, S. 107, Hegaz, P. 290.

ومن (ثمود) ، فهو في هذه المنطقة التي دفع أصحابها الجزية الى الآشوريين :

وتقع ديار (خطي) (Hatti) على مقربة من (أدوم) ، عـلى رأي (موسل)[١] . وأما (كلاسر) ، فيذهب الى أنها كانت تسكن (الخط) ، سيف البحرين ، أي على ساحل الخليج[٢] . وهي منطقة قريبة من العراق، يرى أن من السهل الاستيلاء عليها . وقد ذكر (بلينيوس) موضعاً دعاه (خطيني) (Chateni) يقع على ساحل الخليج ، ولهذا رجح (كلاسر) أن (Hatti) هم (خطيني) هؤلاء[٣] . وقد ذكر (ياقوت الحموي) جبلاً بمكة دعاه (الخط)[٤] .



اعرابية تتبعها ابلها . من الألواح المنحوتة التي عثر عليها في قصر « تغلث فلاسر » الثالث
وقد نقل اللوح الى المتحف البريطاني. Helmuth Th. Bossert, 1394

وقد يكون سكان المنطقـة المجاورة له عرفوا باسم (الخطيون) ، وقد مارسوا التجارة ، وبعثوا كالقبائل الأخرى بتجاراتهم الى اليمن وبلاد الشام والعراق ، ولذا دفعوا الجزية إلى الآشوريين ليسمحوا لقوافلهم باجتياز الطرق البرية التي خضعت

١ Hegaz, P. 290.

٢ البلدان (٣/٤٤٩) ، المفضليات (٢٤٥) .

٣ Skizze, II, S. 75, Forster, II, P. 216.

٤ البلـدان (٣/٤٤٩) .

لسلطانهم وللاتجار في أسواق مملكة آشور :

ويظهر ان (ادبئيل) (ادبعيل) (Idiba'il) ؛ القبيلة المذكورة في نص (تغلث فلاسر) ، هي قبيلة (ادبئيل) (Adabeel) في التوراة . وهي احدى القبائل الإسماعيلية على حسب رواية نسابي العبرانيين[١] . وكانت منازلها في جنوب غربي البحر الميت على مقربة من غزة والى جنوب غربها عند حدود مصر ، وفي طور سيناء[٢] . وكان يسكن الى الشرق منهم ومن قبيلة (خطي) وكذلك الى الجنوب الشرقي وشرقي (بئر السبع) (Beersheba) (مبسام) (Mibsam) و (مشماع) ، وهما ولدان من ولد (اسماعيل)[٣] ، ويمثلان قبيلتين من القبائل الإسماعيلية . ويظهر من (أخبار الأيام الأول) أن بني (مبسام) و (مشماع) كانوا من بني (شمعون) ، وكانوا من بطون(الشمعونيين) القوية ولهم أرضون واسعة[٤] . ويشير هذا الى أن (المبسامين) و (المشماعيين) كانوا قد توسعوا وتصاهروا مع (الشمعونيين) واختلطوا بهم ، فاختلط الأمـــر ، وعدّ الذين تصاهروا مع الشمعونيين واختلطوا بهم منهم ، مع ان أصلهم من الإسماعيليين ، أي من العرب الشماليين[٥] .

وقد عيّن (تغلث فلاسر) في سنة (٧٣٤ ق. م.) عربياً (Arubu) اسمه (ادبئيل) (Idiba'il) في وظيفة (قيبو) (Kepu) ، أي والياً عـلى (مصري) ، ليدير شؤونها بالنيابة عنه ، وجعل تحت تصرفـــه خمسة وعشرين موضعاً من (عسقلان)[٦] . ويحتمل أن يكون هذا الرجل – على رأي (موسل) – شيخاً من قبيلة (ادبئيل) ، كان مقيماً مع قبيلته في (طور سيناء) ، وكان له سلطان واسع بلغ حدود مدينة (غزة)[٧] . ولم يكن هذا الشيخ الذي اعتمد

---

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١٣ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الايـــة ٢٩ .

٢ Hastings, P. 12, Enc. Bibli. P. 65, Hegaz, P. 291, Deserta, P. 478.

٣ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١٣ فما بعدها اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٢٩ فما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٣٠٨/٢ ، ٣٤٤)

٤ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الرابع ، الاية ٢٥ فما بعدها .

٥ Deserta P. 479.

٦ Reall. I, S. 125. Deserta, P. 478, Winckler, AOF., I, S. 25.

٧ Deserta, P. 478, Arabien, S. 21.

طليه ملك آشور فعينه والياً عنه، الا سيد قبيلة كلف حماية الحدود وحفظ مصالح الآشوريين بحفظ الأمـن والسلامة ومنع الغزو والتحرش بالحدود . ولمـا كان من الصعب على الجيوش النظامية ولوج البوادي وتعقب أثر الأعراب ، فكرت الحكومات القديمة والحكومات الحديثة في القرن العشرين في حماية مصالحها بدفع جعالات شهرية وسنوية وهدايا الى سادات المشايخ ، وتعيين بعضهم في مناصب كبيرة ، ليتولوا حماية الحدود ، وكبح جماح البدو ومنعهم من الغزو، والاستفادة منهم في ازعاج خصومهم بغزوهم ومحاربتهم أو محاربة القبائل المتحالفة معهم ، كالذي فعله الفرس واليونان والرومان والـدول المستعمرة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ويظهر ان بلوغ جيوش (تغلاتبلاسر الثالث) غزة كان في حوالي السنـة (٧٣٨ ق. م.) . فسيطر الآشوريون بذلك على هذا الميناء المهم ، الذي كان نهاية طرق القوافل التجارية الآتية بصورة خاصة من الحجاز[١] ، وهو ميناء كان مقصد تجار يثرب ومكة حتى عند ظهور الإسلام .

ويحدثنا (سرجون الثاني) (٧٢٤ – ٧٠٥[٢] ق م) أنه في السنة السابعة من حكمه ، سنة (٧١٥ ق م)[٣] أدّب (ثمودي) (Tamudi) و (اباديدي) (عباديدي) و (مرسماني) (Marsimani) و (خيـابه) (Hajapa) ، وهزمهم ، ونقـل من وقع في يديه منهم الى (السامرة) (Samaria)[٤]. ثم يذكر بعد هـذا الخبر أنـه تلقى الجزية من (سمسي) (Samsi) ملكة (اربي) ومن (برعـو) (Pir'u) ملك (مصري) (Musuri) ومن (يثع أمر) (It'amra) السبئي[٥] . وذكر أن الجزيـة كانت من الذهب وحاصلات الجبل والحجارة الكريمة والعاج وأنواع البذور والنبات والخيل والإبل[٦].

ويتبين من أسماء المواضع والقبائل التي ذكرها (سرجون) ، أن تلك المعارك كانت قد وقعت في أرضين تقع في الشمال الغربي من جزيرة العرب ، وفي المنطقة

١ Arabien, S., 21.
٢ « شركينا الثاني » ، ادي شير (ص ٨٨)
٣ سنة « ٧١٥ ق . م » ، بحسب راي Reall. I, S. 125
٤ Schrader, KLB. Bd. II, S. 42, Rawlinson, The Five great Monarchies, II, P. 415 Reall, I, S. 125.
٥ Reall. I, S. 125, Winckler, Sargon I, S. 20.
٦ Luckenbill, II, 17.

الواقعة فيما بين خليج العقبة و (تيماء) والبادية . ولا بد وأن تكون الجيوش الآشورية قد هاجمتها من الشمال أي من فلسطين :

وقد ورد في بعض ترجمات نص (سرجون) أنه نقل الأعراب الذين ينزلون في مواضع نائية من البادية ، ولم يعرفوا حاكماً رسمياً ولا موظفاً ولم يدفعوا جزية الى أي ملك سابق ، نقلهم الى (السامرة) وأسكنهم فيها [1] . ويظهر أن هذه الجملة لا تخص الجملة السابقة التي ذكر فيها (ثمود) وبقية الأسماء ، وليست معطوفة عليها ، لأنه وصف هؤلاء الأعراب بأنهم سكان بوادٍ نائية ، ولم يدفعوا الجزية لأحد من قبل ، على حين يقيم المذكورون في أرض معروفة ولمنازلهم أسماء ، وهي ليست من البوادي .

وورد في هذه الترجمات بعد جملة (ويثع أمر السبئي) « ومن هؤلاء الملوك ملوك على الساحل ، ومنهم ملوك في البادية . تسلمت منهم جزية : تبراً ، وأحجاراً كريمة ... الخ » [2] ، مما يدل على أن أولئك الملوك كانوا يحكمون أرضين واسعة تمتد من البادية الى البحر الأحمر .

ووردت في نص (سرجون) المشار اليه أسماء مواضع هي (Uaidaue) و (Bustis) و (Agazi) و (Ambanda) و (Dananu) ، ووردت معها جملة : (اربي الساكنين في مشرق الشمس) (اربي مطلع الشمس) . ولهذا ذهب بعض الباحثين الى أن الأسماء المذكورة هي أسماء مواضع في أرض (اربي)، أي البادية . وهو رأي يعارضه باحثون آخرون ، لغموض العبارة ، ولتعذر القول إن أسماء هذه المواضع تعود الى (أربي الساكنين في مشرق الشمس) [3] :

أما (تمودي) (Tamudi) ، فإنهم (ثمود) ، الذين سبق أن تحدثت عنهم : وأما (أباديدي) (Ibadidi) ، فشعب لا نعرف من أمره شيئاً . وقد ذهب (موسل) الى احتمال كونهم (أبيداع) (Abida) المذكورين في التوراة [4].

---

١ Pritchard, P. 286.

٢ Pritchard, P. 286.

٣ « اربي شانيخ شمشي » "Aribi Sha Nipikh Schamschi"
Reall. I, S. 144, Delitzsch, S. 306, Winckler, Sargon I, S. XXVII, UAOG. 112 Rost, MVAG. 1897, 2, S. 84,

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٤ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٣٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨/١) ،
Hastings, P. 3, Enc. Bibli. P. 14.

وهو فيها ابن (مديان) ، أي (مدين) . ويرى أن مساكنهم كانت في جنوبي شرقي (أيلة) (Elath) أي العقبة ، على الطريق التجارية المهمة التي تربط ديار الشام بالحجاز[1] .

ورأى (كلاسر) أن (الابادیدي) هم (Apataei) المذكورون في جغرافيا (بطلميوس)[2] ، وكانوا يقيمون في مكان يقال له (وادي العبابيد) أو (العباديد) على مقربة من العقيق ؛ أو أن فرعاً منهم كان يقيم في هذا المكان[3] . وذهب (فورستر) الى أن شعب (Apataei) ، هم شعب آخر ، وأن الكلمة هي في الأصل (Nabataei) ، وهو شعب كانوا يقيمون في موضع (نبت) على ساحل الحجاز[4] .

ولا نعرف من أمر (مرسماني) (Marsimani) شيئاً يذكر ، ولم يرد لهذه القبيلة اسم في التوراة . غير أن بعض الكتبة (الكلاسيكيين) ذكروا قبيلة عربية يظهر أنها كانت تقيم في جنوب شرقي (العقبة) سمّوها (Batmizomaneis) (Banizomaneis) ، وقد كانت في جوار قبيلة (Thamudenoi) أي ثمود[5] . ويرى (موسل) احتمال كون هذه القبيلة هي (مرسماني) ، تحرف اسمها في النص الآشوري أو حرفه الكتبة (الكلاسيكيون) حتّى صار على نحو ما نرى[6]. وعلى كل حال فإن على لفظة (Marsimani) طابع العروبة ، فلا يستبعد أن تكون من (مرسم) ، أو أسماء أخرى عربية قريبة منها .

ويظهر أن كراهية الأعراب للآشوريين كانت شديدة جداً ، لم تخفف من حدتها لا سياسة القوة والعنف ولا سياسة التودد واللين . لقد حملت هذه الكراهية القبائل على مدّ يد المساعدة الى كل مبغض للآشوريين ، أو متمرد عليهم ، فقدمت المعونة الى (مردخلبلدان) (مردخ بلدان) (مردخ بلادان)[7]

---

١ Hegaz, P. 292.

٢ Skizze, II, S., 289.

٣ « العبابيد » ، البلدان (١٠٤/٦) ، Skizze, II, S. 259.

٤ Forster, I, P. 233. ff.

٥ Diodorus, Bibliotheca, III, 43. f.

٦ Hegaz, P. 292.

٧ « مردخ بلادان » ، (مردخ بلدان) ، (مرود خلبلدان) ، ادي شير (ص ٩٧)
Reall., I, S., 125, Deserta, p. 480.

(Merodachbaladan) ملك بابـل خصم وعدوّ (سنحاريب) (سنحريب) وأرسلت (ياتيعة) (يثعة) (يطيعة) (Ja'iti'e) ، ملكة (اريبي) جيشاً لمساعدته ومناصرته في كفاحه هذا مع الآشوريين وضعته تحت قيادة أخيها (بسقانو) (بصقانو) (Basqanu)[1] ، إلاّ أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الآشوريين ، فنزلت به خسارة فادحة ، وأسر (بسقانو) وأسر معه معظم جيشه ، وكانت هذه الهزيمة في موضع (كيش) (Kish) . وقد كانت في حوالي سنة (٧٠٣) أو (٧٠٢) قبل الميلاد على رأي بعض الباحثين[٢] .

ويظهر أن لفظة (Iati'e) هي تحريف لاسم عربي من أسماء النساء لعلـه (بطيعة) أو ما يشابه ذلك . وقد كانت ملكة إذ ذاك ، أي أنها كانت مثل (زبيبة) و (شمس) المذكورتين . وأمـا اسم (بسقانو) (Basqanu) ، فالظاهر أنه (الباسق) فإنه قريب منه .

ويحدثنا (سرجون) في كتاباته عن أيامـه وعن أعمالـه المجيدة أن الملك (أبيري) (Uperi) ملك (دلمون) سمع بقدرة آشور وبعظمتها فأرسل هداياه اليه[٣] . ومعنى هذا أن البحرين كانت اذ ذاك تحت حكم ملك اسمه (أبيري) ، لعله (أبير) ، وان الصلات السياسية كانت وثيقة بين اشور والبحرين في ذلك العهد . وقـد ذكر (سرجون) ان (أبيري) ، (ملك دلمون) ، « كان يعيش كالسمكة في وسط بحر الشروق ، البحر الذي تشرق عليه الشمس ، وعلى مسافة ثلاثين ساعة مضاعفة، وكان قد سمع بجلال عظمتي فأرسل بالهدايا اليّ »[٤] .

وفي هذا الخبر اشارة واضحة الى استقلال البحرين ، أي جزيرة (دلمون) وخضوعها لحكم ملك لعله كان من أهلها . ولما كان القسم الجنوبي من العراق تحت حكم الآشوريين في هذا العهد. وللبحرين علاقات تجارية متينة مع هذا القسم، لذلك أرسل هدايا ثمينة الى ملك آشور .

ويظهر من خبر آشوري يعود عهده الى أيام الملك (سنحاريب) (سنحريب)،

---

١ Reall., I, S., 125.

٢ Reall., I, S., 125, British Museum Cylinder, 113, 203, Smith, First Campaign of Sennacherib, P., 62, (1921), Deserta, P., 480.

٣ Ancient Iraq, P., 261.

٤ Belgrave, P. 87.

وهو ابن (سرجون) ، أن ملك البحرين لما سمع بخبر اجتياز هذا الملك نهـر الفرات ودخوله الخليج ووصوله أرض جزيرة (دلمون) ، أسرع فاعترف بسيادة ملك آشور عليه. وكان هذا الملك قد دكّ أرض بابل في حوالي السنة (٦٨٩ق.م.)، وسار منها متوجهـاً نحو أرض الخليج . وفي هذا الخـبر اشارة الى أن علاقة الآشوريين بالبحرين كانت وثيقة في هذا العهد أيضاً ، وان ملك البحرين كان يخشى ملك آشور ، لذلك اعترف بسيادته الاسمية عليه[١] .

وأخبرنا (سنحاريب) (سنحريب) (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م.) انه تسلم هدايا من (كرب ايل) (كريبي — ايلو) (Karibi-ilu) ملك سبأ (Saba'i) ، اذ بنى بيتاً أو معبداً (بيت اكيتو) (Bit-Akitu) ، للاحتفال فيه بعيد رأس السنة والأعياد الأخرى[٢] . وكان من جملة هذه الهدايا أحجار كريمة وأنواع من أفخر الطيب ذي الرائحة الزكية الطيبـة (Rikke Tabutu)[٣] ، وفضة وذهب وأحجار ثمينة أخرى[٤] ، وهي أمور اشتهرت بها العربيـة الجنوبية ، كما عرفت بتصديرها هذه المواد الى الخارج ، وقد تحدثت عنها التوراة في مواضع من الأسفار[٥] .

وقد ذهب (هومل) الى أن (كريبي — ايلو) ، هذا هو (كرب ال) (كرب ايل) أحد (مكربي) (مقربي) سبأ ، أي الكهان الحكام ، ولم يكن ملكاً على عرش سبأ وانْ دعاه (سنحاريب) ملكاً ، ذلك لأن الآشوريين لم يعرفوا لقبه الرسمي ، أو لأنهم لم يهتموا بذلك فجعلوه ملكاً . وهذه الهدايا لم تكن جزية فرضت عليه ، بل كانت هدية من حاكم الى حاكم ، وقد بعث بهـا اليه مع القوافل الذاهبة الى الشام بطريق غزة ، أو طريق مكة ، فالباديـة الى العراق[٦] . وعندي ان من الجائز أن يكون (كريبي — ايلو) هذا سيد قبيلة أو أميراً من الأمراء الذين كانوا في العربية الشمالية ، من المجاورين لتلك القبائـل

---

١ Belgrave, P. 56, 87.

٢ Handbuch. I, S. 76.

٣ Reall. I, S. 61.

٤ « طبوتو » ، (طيبوتو) ، (طيب)

٥ Handbuch, I, S. 76, O. Schroeder, Keilschrift Texte aus Assur. Hist. Inhalts, II, No. 122, Leipzig, 1922.

٦ Handbuch. I, S. 76, 86.

التي تحدثت عنها وسبق لها أن قدمت هدايا لآشور ، وكان من السبئيين النازحين الى الشمال الذين حلوا محل المعينيين .

ولما قضى (سنحاريب) على مقاومة البابليين وعيّن عليهم ملكاً منهم، كان قد تربى في قصور الآشوريين فأخلص لهم ، سار الى بلاد الشام لاخضاع العمونيين والمؤابيين والأدوميين والعرب والعبرانيين ، فقد كان هؤلاء قد انتهزوا فرصة قيام البابليين وقبائل إرم والعرب والعيلاميين على الآشوريين للتخلص منهم، فألفوا حلفاً بينهم في جنوب بلاد الشام ، أي في فلسطين والأردن ، واتحدوا لمحاربة (سنحاريب) . فلما وصل الى ساحل البحر المتوسط ، أخذ جيشه يستولي على المدن ، الفينيقية والفلسطينية ، ويتقدم نحو الجنوب حتى بلغ (عسقلان) (Ashkelon) . ولما وصل الى موضع (التقه) (علتقه) (Eltekeh) (Altekeh) ، اصطدم بالعرب وبالمصريين ، غير انه تغلب عليهم واستولى على (التقه) وعلى (تمنة) (تمنث) (تمنة) (Timnath) [1] و (عقرون) (عاقر) (Ekron) [2] .

وفي أنباء الانتصارات التي سجلها (سنحاريب) لنفسه انه قام في حوالي السنة (٦٨٩ ق. م.) بحملة على الأعراب التابعين للملكة (تلخونو) (Telhunu) ملكة العرب (Arabi) ، أي أعراب البادية ، وعلى الملك (خزا ايلي) (حزا ايلي) (Haza-ili) ، ملك (قيدري) (Qidri) ، أي القيداريين، فسارت جيوشه في اتجاه (أدوماتو) (دومة) (Adummatu) ، فتغلبت على العرب وعلى القيداريين[3] . ويقصد بـ (أدوماتو) (دومة الجندل)[4] . وقد كانت (أدوماتو) (Adummatu) من مواضع (أريبي) (عربي) الحصينة[5] .

---

١ يحتمل انها « تبنة » في الزمن الحاضر ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩١/١)

٢ « عقرون » من مدن الفلسطينيين الخمس ، وتسمى الان عاقر ، على تل يبعد اثني عشر ميلا عن يافا الى الجنوب الشرقي ، تنبأ « صفيا » بخرابها ، أذ قال : « عقرون تستاصل » ، صفيا ٢ ، الاية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٨/٢ وما بعدها) ،

٣ ادي شير (ص ١٠٨ فما بعدها) ، Hastings, P. 67, Reall. I, S. 125. Reall. I, S. 125,Ungnad, Vorderasiatische Schriftdenkmaler I, No. 77. II, 22. ff. Olmstead, History of Assyria, P. 310.

٤ Deserta, P. 480.

٥ Reall. I, I lieferung, S. 39.

وهي في موضع بعيد عن عواصم الدول الكبرى ، الا انها لم تنج مع ذلك من غزوات تلك الدول . وقد ذكرها (بطلميوس) باسم (Doumatha) (Adomatho)[1] .

وقد جاء في نص آشوري ان الملك (سنحريب) أرسل حملة الى الخليج ، فانتصرت وحققت رغباته ، وقد فرّ ملك (أرض البحر) الى أرض (عيلام) . ويظهر انه بني أسطولاً قوياً حمل جنوده الى تلك الأنحاء ، فلم يتمكن أهل الخليج من مقاومته واضطر الى الخضوع لآشور[2] .

ويظهر ان (سنحريب) كان قد تمكن فعلاً من اخضاع الأعراب له ، ومن السيطرة عليهم ، ويرى بعض الباحثين في نعت (هيرودوتس) له بأنه (ملك العرب والآشوريين)[3] تعبيراً عن اخضاع (سنحريب) الأعراب لحكمه وان كان ذلك قد وقع لأمد محدود[4] .

وفي نص دوّنه (أسرحدون) (٦٨٠ – ٦٦٩ ق. م.) عن أعماله وعن أعمال والده ان أباه (سنحاريب) ، أخضع (أدومو) (Adumu) (معقل أريبي) ، واستولى على أصنامها ، وحملها معه الى عاصمته ، وأسر ملكتها (Iskallatu) التي كانت كاهنة للإله (دلبات) (Dilbat) ، وأسر الأميرة (تبؤة) (Tabua) كذلك . فهو يؤيد بذلك ما ذكره أبوه من انتصاراته على العرب[5] .

ولم يتحدث النص الآشوري عن الجهة التي هاجم منها (سنحاريب) (دومة الجندل) أي (Adummatu) (Adumu) (Adumu) . ويرى (موسل) أنه هاجمها من إقليم (بابل) ، ويرى أيضاً أن سلطان الملكة (تلخونو) كان يشمل منطقة واسعة تمتد من (أدومو) الى حدود بابل . وقد كان أعرابها يمتارون ويبتاعون الطحين والملابس والمواد الضرورية الأخرى من بابل ، فيسلكون البادية ، ومن هذه البادية وصلت امداد الملكة وقواتها الى بابل لمساعدتها في مقاومة

---

١ Albright, in JRAS., 1925, P. 293, Hommel, Geographie, S. 581. f, 594.
٢ العرب والملاحة في المحيط الهندي ، جورج فاضلو حوراني (ص ٣٨ وما بعدها)
٣ Herodotus, II, 141.
٤ Grohmann, S. 22.
٥ Reall. I, S. 126, «Jal'u», «Jata», «Jauta», Pritchard, P. 289, «91».

آشور ، فاشتركت مع البابليين في الحرب ، على حين هاجم فريق آخر من اتباع الملكة المقاطعــات الآشورية في بلاد الشام . فلما تغلب (سنحاريب) على بابل وانتصر عليها في سنة ٦٨٩ ق.م ، تفرغ لمحاربة الملكة والانتقام منهـا ، فأمر قواته بالضغط على أتباع الملكة ، وتعقبهم في البادية لحفظ الحـدود . ثم حاصر (أدومو) ، حتى تغلب عليها ، وانتصر على هذا المعقل الذي التجأ اليه أتباع هذه الملكة وغيرهم للخلاص من الآشوريين[١] .

ويظهر من النصوص الآشورية أن خلافاً وقع بين الملكة (تلخونو) والملك (خزا ايلي) ، قد تكون أسبابه الهزيمة التي حاقت بهما ومحاصرة (سنحاريب) لهما في (دومة الجندل) . وقد كان (خزا ايلي) على ما يظهر هو الذي تولى قيادة الجيش ، وتنظيم خطط الدفاع والهجوم . فسببت الهزائم التي حلت بهـما غضب الملكة عليه وعلى سوء قيادته (فغضبت تلخونو على خزا ايلي ملك اربي)[٢]. ولعلهما اختلفا أيضاً بسبب محاصرة (دومة الجندل) والدفاع عنهـا أو عدمه . ومهما يكن من شيء ، فقد استسلمت الملكة (تلخونو) للآشوريين ، وتغلبت جيوش (سنحاريب) على هذا المعقل ، وأخذت الأصنام أسرى الى (نينوى) كما أخذت الأميرة (تبؤة) (Tabua) أسيرة الى عاصمة آشور ، لتربى هناك تربية يرضى عنها الآشوريون ، ولتهذب تهذيباً سياسياً خاصاً يؤهلهـا أن تكون ملكة على (أربي) :

أما (خزا ايلي) ، فقد تمكن من خرق حصار الآشوريين على (دومة الجندل) ومن الاعتصام مع أتباعه بالبادية ، حيث لم يكن في قدرة (سنحاريب) مطاردتهم وايقاع خسائر بهم ، وبقي في هذه البادية طول حياة (سنحاريب) . فلما توفي هذا الملك ، وانتقل الملك الى ابنه (أسرحدون) ، وزالت أسباب الجفـاء ، قصد نينوى لمقابلة الملك الجديد ، ومعه هدايا كثيرة ، سُرّ بها الملك واستقبله بلطف ورعاية ، وسلمه الأصنام الأسيرة السيئة الحظ التي كان عليها أن تشارك أتباعها الحياة الأرضية المزعجة ، وتمكنت كل من (عثر سماين) (عثر السماء) و (دبلات) و (دايا) (ديه) (Daja) و (نوهيا) (نهيا) (نهى) (Nuhaia) و (ابيريلو) (Ebirillu) و (عثر قرميـة) (عثر قرمي)

---

١ Deserta, P. 480.

٢ British Museum Tablets, K3087, K3405.

(Atar Kurumaia) ، وهي الآلهة التي كتب عليها أن تسجن ، من استنشاق ريح الحرية ثانية ، ومن استعـادة مقامها بين عبادها ، فوضعت في أماكنها ، وسر أتباعها ولا شك بهذه العودة[1] .

وفي أثناء وجود تلك الأصنام في الأسر ، أصيبت ببعض التلف ، فمنّ (أسرحدون) عليها بالأمر باصلاح ما أصابهـا واعادتها الى ما كانت عليه ، ثم تلطف فأمر بإرجاعها الى (خزا ايلي) (خزائيل) ، بعد أن نقشت عليها كتابة تفيد تفوق إله آشور على تلك الأصنام ، وبعد أن نقش عليها اسم الملك[2] .

وأراد (أسرحدون) تنصيب (تبؤة) (Tabua) ، التي تربت تربيـة آشورية ، ملكة على (أريبي) ، ليضمن بذلك فرض سلطان آشور على الأعراب ، وهو حلم تحقق ، ولكنـه لم يدم طويلاً ، لأن العداء بين الآشوريين والعرب كان عميقاً ، لا يقضي عليه منح تاج ، ونصب ملك أو ملكة[3] .

واعترف (أسرحدون) بـ (خزا ايلي) ملكاً عـلى قبيلة (قيدار) ، في مقابل إتاوة يدفعها ، قدرها خمسة وستون جملاً[4] . فلما توفي (خزا ايـلي) ، سنة (٦٧٥ ق. م)[5] اعترف (أسرحدون) بابنه (يايتع) (يايطع) (يطع) (يثع) (Uaite') ملكاً مكان أبيه ، على أن يدفع إتاوة سنوية كبيرة مقدارها ألف (من) (Minae) من الذهب ، وألف حجر كريم وخمسون جمـلاً ، وطيب ، أي أكثر مما كان يدفعه أبوه[6] . وقد رضي الابن بذلك على أمل أن ينعم عليه بتاج كيفما كانت الشروط . غير أن حسابه هذا لم يكن دقيقاً ، فقد ثار عليه شعبه الذي أبى أن يخضع لرجل فرض عليه فرضاً ، وأبى قبوله ملكاً عليه . وقام — وعلى رأسه الزعيم (اوبو) (وهبو) — (وهب) ، (أوب) (Uabo) (Uaboa) بثورة عامة للتخلص منه ، ومن سلطان الآشوريين .

وأسرع الآشوريون فأرسلوا جيشاً لإخمـاد هـذه الثورة ، فأطفأها ، وأسر

---

١ Pritchard, P. 291, D.J. Wixman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, London, 1958, P. 4.

٢ Pritchard, P. 291.

٣ Pritchard, P. 291.

٤ Deserta, P. 482.

٥ Hastings, P. 832.

٦ Grohmann, S. 22.

(أوبو) (Uabo) وأخذ الى (نينوى) ، إلا أن الانتصار عليه لم يقض على مقاومة العرب للآشوريين وثورتهم عليهم ، فقاد (يابئ ء) (يثع) (Uaite') الثورة هذه المرة ، ورفع راية الحرب على الآشوريين ، وغزا هو وأتباعه حدود الامبراطورية الآشورية المحاذية للبادية ، واضطر الآشوريون الى تجهيز حملة جديدة انتصرت عليه ، وهاجمت مضاربه ، وقبضت على أصنامه ، وأخذتها معها أسرى للمرة الثانية [١] . أما (يايئ ء) ، فقد فر « وحيـداً الى أصقاع بعيدة » على ما جاء في النص[٢] . والأصقاع البعيدة ، هي البادية ، ولا شك ، حيث يصعب على الآشوريين التوغل فيها للتوصل اليه . لذلك صارت مأوى لكل ثائر تحل به خسارة . فإذا نجا بنفسه ، وتمكن من الفرار من ساحة الهزيمة الى البادية ، صار في حصن أمين ،لا تمتد اليه الأيدي بسوء الا اذا كان المهاجمون من أبناء جنسه ، الأعراب .

وقام (أسرحدون) ، بعد هذه الحملة ، بحملة أخرى على قبائل عربيـة تنزل أرض (بازو) (Bazu) و (خازو) (Hazu) [٣] . وقد ابتدأ بها في اليوم الثاني من شهر (تشرى) من السنة الخامسة من سني حكمه . وهي تقابل سنة (٦٧٦ ق. م.)[٤] . وقد قتل فيها ثمانية ملوك ، هم : (كيوّ) (Kiau) [٥] (قيسو) (Kisu) و (Ki-i-su) ملك (خلديـلي) (Haldilli) [٦] . و (اكبرو) (Agbaru) (Ak-baru) ، وهو ملك (ال بياتي) (البياتي) (ايل بياتي) (Ilpiati) [٧] (Na-pi-a-te) [٨] ، و (منسكو) (منساكو) (منسك) (Mansaku) (Ma-an-sa-ku) ، ملك (مجل اني) (مجلاني)

---

١ II, S., 217, 377, British Museum, A Guide to the Baby. and Assy. Antiquities,
II, S., 217, 377, British Museum, A Guide to the Baby. and Assy. Antiquities,
P. 227, Deserta, P. 482.

٢ Luckenbill, II, 916,

٣ Rawlinson, Cunei. Inscr., Col. 3, II, 25-52, III, Pl., 15, 16 Col. 4 II 10-26.
Schrader, Keil. Bibl. II, S. 131 Deserta, P. 482.

٤ Reall. I, S. 440, Skizze, II, S. 4. ff. Hommel, Geschichte Babyloniens-Assyriens, S. 709.
سومر : الجزء الثاني ، ١٩٤٩ م ، المجلد الخامس (ص ١٤٠)

٥ Reall. I, S. 440.

٦ «Dil-di-li», «Kud-di-li», Deserta, P. 488, Skizze, II, S. 265.

٧ Reall. I, S. 42, 440, Schrader, Keil. Bibl. II, S. 146

٨ Skizze, II, S. 265, Deserta, P. 483.

(Magal'ani) (Ma-gal-a-ni)[1] ، والملكة (يافأ) (ايفع) (يفع) (Iapa')
(Ja-pa') ، ملكة (دخراني) (دحراني) (دخر) (Dihrani)[2] (Didhrani)
و (خبيصو) (نخابصو) (جيبسو) (Habisu) (Kha-bi-su) ملك (قداباً)
(Qadab')[3] ، و (نخارو) (نيخرو) (نحارو) (نحر) (Niharu)
(Ni-kha-ru) ملك (جأباني) (جعباني) (جعفاني) (Ga'pani)[4] ،
والملكة (با ايلو) (بائلة) (Ba'ilu) (Ba-i-lu) ملكة (اخيلو) (Ihilu)[5]



آشوريون يحرقون خيمة أعراب قيام Helmuth Th. Bossert, Altsyrien, 1397

و (خبن امرو) (خبن عمرو) (حبن امرو) (حبان امرو) (Habanamru)
(Kha-ba-zi-ru) ملك (بداء) (بدع) (Buda')[6] . وأسر خلقاً من
أتباعهم أخذهم الى أرض آشور كما حمل آلهتهم معه . وتمكن أحد الملوك ، وهو
الملك (ليلى) (Laili) (ليلة) (Laiale) ملك (يادىء) (ياديا) (يدع)
(Iadi) (Jadi') من النجاة ، غير انه ذهب الى نينوى بعدئذ ، حيث طلب
العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معه ،

---

١ «Ma-gal-Za-ni», Skizze, II, S., 265, Reall., I, S., 440, Deserta, P. 483.

٢ «Di-ikh-ra-a-ni», «Di—ikh—ra—ta—a—ni», Skizze, II, S., 266.

٣ «Ka-da-ba'-a», «Ka-ta-ba'- a», Skizze, II, S. 266.

٤ «Ga'-u-u-a-ni», Skizze, S. 266.

٥ «I-khi-lu», Reall. I, S. 392, Schrader, Keil. Bibli. II, S. 148, Skizze, II, S. 266.

٦ Reall. I, Sechste Lieferung, s. 440, II, S. 74, «Pu-ta'-a», «Bu-da-a», Asarh. Prism Br. Col. IV, L. 22, Schrader, Keil. Bibli. II, S. 148, Skizze, II, S. 266.

وأعاد اليه أصنامه ، وعينه ملكاً على أرض (خازو) و (بازو) (بازي) على أن يدفع الجزية اليه[1] .

وقد ورد في التوراة اسم (بوز) و (حزو)[2] . أما (بوز) ، فهو ابن ناحور أخي ابراهيم ، ويظن ان لاسمه صلة باسم أرض (بوز)[3] : وأما (حزو) فانه أحد أولاد (ناحور)[4] . وقد ذكرت كلمة (بوز) بعد (تيماء) في سفر (إرميا) ، حيث ورد : « وكل اللفيف وكل ملوك أرض عوص ، وكل ملوك أرض فلسطين وأشقلون وغزة وعقرون وبقية أشدود ، وأدوم ومؤاب وبني عمون ، وكل ملوك صور ، وكل ملوك صيدون ، وكل ملوك الجزائر التي في عبر البحر ، وددان وتيماء وبوز ، وكل مقصوصي الشعر مستديراً ، وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية »[5] . ف (بوز) في التوراة اسم موضع ، واسم شعب ، وقد ورد في التوراة اسم رجل من (بوز) سمي (اليهو) (Elihu) البوزي ، وهو ابن (برخئيل) ، وكان صديق (أيوب) وحكماً في المحاورة التي جرت بين أيوب وأصحابه الثلاثة الذين أتوا ليعزّوه في المصائب والبلايا التي نزلت به[6] . وأيوب كان من سكان أرض (عوص)[7] ، وهو عربي على رأي عدد من علماء التوراة .

ولم يحدد موقع (بوز) في التوراة : ولكن ورود (بوز) بعد ددان وتيماء في الموضع الذي ذكرته من إرميا، وقبل جملة (وكل مقصوصي الشعر مستديراً) ، يحملنا على التفكير في أن أرض (بوز) كانت في جوار تيماء ، وليست بعيدة جداً عن (ددان) (ديدان) ، وقريبة من الأعراب الذين كانوا يحلقون شعور رؤوسهم إلاّ دائرة تبقى في أعلى الرأس، أي غير بعيدة عن البادية وعن الأعراب

---

١ ادي شير (ص ١١٨)
Rawlinson, The Five, II, P. 470. ff. Reall. I, 6. te. Lieferung, «Basi», S. 440, Deserta, P. 483, Real. I, 3. Lieferung, S. 201.

٢ التكوين ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية ٢١ وما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٥٥) .

٤ التكوين ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية الثانية والعشرون ، قاموس الكتاب المقدس (١/٢٧٣) .

٥ ارميا ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٢٠ وما بعدها .

٦ ايوب ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، الاية ٨ ، قاموس الكتاب المقدس (١/١٤١)

٧ قاموس الكتاب المقدس (١/١٨٨) .

الإسماعيليين . ولهذا ذهب (كلاسر) و (دلج) (F. Delitzsch) وغيرهما الى أن بوز ، هي (بازو) الواردة في نص (سنحاريب) ، وتقع في العربية الشمالية [١] : ورأى (ذورمة) (Dhorme) ، أنها في منطقة تقع في جنوب شرقي الجوف [٢] . وأمـا (موسل) ، فيستند أيضاً الى الوصف الذي جاء في النص الآشوري عن (بازو) الـتي تقع في موضع قاص ، ويبدأ من السباخ وبادية مجدبة ، (١٤٠ بيرو من الرمال) [٣] ، وليس فيها غير الشوك ونوع من حجر يعرف بـ (حجر فم الغزال) [٤] ، ثم سهل فيه الأفاعي والعقارب مثل (الزربابو) الجراد [٥] . تليه (خازو) ، وهي أرض جبلية اتساعها (٢٠ بيرو) من حجر الـ (Saggilmut) [٦] . ويرى من هذا الوصف أن موضع (بازو) في غرب وفي جنوب (تدمر) وفي (وادي السرحان) ، وأن الملوك الثمانية الذين قتلهم (اسرحدون) كانوا يقيمون في وادي السرحان عند الحدود الشرقية لحوران وفي (الرحبة) و (قطبة) الى وادي (القطامي) . ويرى أيضـاً أن (يدىء) (يادىء) (يدي) ، وهو موضع الملك (ليلى) ، هو (الجـاف) ، أو (الودي) وذلك بابدال الحرف الأول من كلمة (يدي) بحرف الواو . وهو أمر يرى أنه كثير الحدوث ، فمن المحتمل أن يكون موضع (الودي) — على رأيه — هو (يدي) أو (يدىء) مقر الملك (ليلى) (Laili) [٧] .

فرأي (موسل) أن (بازو) تعني النصف الشمالي من (وادي السرحان). وأما الأرض الواقعة في شرق (السرحان) وفي شمال السرحان في المنطقة الجبلية، فإنها (خازو) (حازو)،وقد سلك الجيش الآشوري كما يقول الطريق التجارية

---

١ Reall. I, S. 440, Enc. Bibli. P. 615, Delitzsch S. 307, Skizze, II, S. 265, 266.

٢ Deserta, P. 483.

٣ « كسبو » « قصبـو » « Kasbu » عند (كاسر) و (دلج) بدلا من — بيرو — و — قصبو — قصبة — و — بيرو — هما وحدة قياس الابعاد والمسافات
Rawlinson, The five. II, P. 470, S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 18, Campbell Thompson, Assyrian Herbal, 102.

٤ « صبيتـي » ، « Sabiti » Deserta, P. 484,

٥ « زربابـو » ، «Zirbabu» جراد ، Skizze, II, S. 265. Reall. I, S. 440,

٦ Reall. I, S. 440 Deserta, P. 482. f. Skizze, II, S. 265, Delitzsch, S. 306.

٧ Deserta, P. 484.

المارة من الحافات الشرقية لحوران الى دمشق[١] .

وقد صيرت أرض (بوز) و (بوزي) بـ (أرض أوسيتس) (Ausitis) في الترجمة السبعينية للتوراة (العهـد العتيق)[٢] ، ولذلك رأى بعض العلماء أن المراد بها اسم (Aiseitai) (ايسايتاي) (ايسايته) ، وهو اسم موضع ذكره الجغرافي (بطلميوس) في داخل بادية بـلاد العرب[٣] . ورأوا أن بوز هي هذا المكان[٤] .

ورأى آخرون أن (بازو) هي نجد،وأن البادية التي تحدث عنها (أسرحدون) هي (النفود) . وأما (خازو) فإنها الأحساء[٥] . وذهب (رولنسن) الى احتمال كون هذه المنطقة هي أرض مملكة الحيرة ، وما يتصل بها الى جبل شمر ، لأن الوصف المذكور ينطبق – في رأيه – على هذا المكان[٦] .

وذهب (كلاسر) في مكان آخر من بحوثه المستفيضة عن (بازو) و(خازو) الى أن (خازو) هي (حزو) ، والى أن (بازو) و (حازو) في الأقسام الشرقية والجنوبية من (اليمامة) الى أرض (مأكن) (Maken) الى مرتفعات (رأس الخيمة)[٧] . وأشار أيضـاً الى (حزوى) ، وهي (السدوسية) لبني سعد في اليمامة ، وقد ذكرها (الهمداني)[٨] ، ويرى أن هذه اللفظة قريبة جداً من (حزو) التوراة ومن (خازو) النص الآشوري . وعلى هذا تكون أرض (خازو) في اليمامة ، وهي أرض ذات آثار قديمة وعاديات وخرائب تقع بين وادي (ملهم) و (وادي حنيفة)[٩] .

---

١ Deserta, P. 484.

٢ ـ العهد القديم ـ ، ـ العهد العتيق ـ ، ـ الصورة القديمة ـ ، الترجمـــة السبعينية ، هي الترجمة التي تمت في عهد الملك ـ بطلميوس الثاني ـ ،ـ٢٨٥ـ ٢٤٧ ق. م ـ ، وذلك ليتمكن يهود مصر ، الذين كانوا قـد نسوا العبرانيـــة ، وتكلموا باليونانية من الوقوف على التوراة وفهمها .

٣ Ptolemy, Geography, V, 19, 2.

٤ Reall. I, 6te. Lieferung, S. 440.

٥ Reall. I, 440, Palgrave, Central Arabia, I, P. 96, (1866)

٦ Rawlinson, The Five. II, P. 470.

٧ Skizze, II, S. 266.

٨ الصفـــة (ص ١٦٢) .

٩ Skizze, II, S. 269.

ورأى بعض الباحثين المحدثين ان أرض (بازو) هي الساحل المقابل لجزر البحرين ، أي جزيرة (تلمون) كما كانت تعرف عند القدامى . وأما (خازو) أي (حازو) في قراءة ، فهي (الأحساء)[١] . ونرى بين اللفظتين (حازو) و (أحساء) تقارباً كبيراً .

ولم يذكر (أسرحدون) كيف رجع الى بلاده بعد حملته الطويلة هذه ، ومن أي سبيل رجع الى ملكه ؟ غير ان بعض الباحثين يرون انه سلك طريقاً غير الطريق الأول الذي سلكه في حملته على الشعوب والأرضين المذكورة . يرون انه سلك طريقاً موازياً لساحل الخليج ، فاخترق أرض (بازو) و (خازو) ، (حاسو) ، ثم سار شمالاً الى اقليم بابل . و (حاسو) عندهم هي الأحساء ، وهي بين (نجد) والخليج ، وكان (أسرحدون) قد سلك في حملته الأولى كما يرون طريقاً اخترق (نجداً) . فلما قرر العودة سلك الطريق الثاني[٢] .

ويرى (موسل) ان اسم (دخراني) (Di-ih-ra-ani) هو (Dacharenoi) المذكور عند (اصطيفان البيزنطي) (Stephen of Byzantium)[٣] . أما (كلاسر) فيرى ان قبيلة (Dachareni) ، التي ذكرها (بطلميوس) بعد اسم قبيلة (Malangite) هي القبيلة المذكورة في نص (أسرحدون)[٤] ، وان قبيلة (Malangite) هي قبيلة (Ma-gal-a-ni) المذكورة في نص (أسرحدون) . ورأى احتمال كون (Gauuani) هي (جوجان)[٥] و (Ikhilu) ، هي (أجلة) أو (أخلة) ، وهما عند الخرج[٦] .

ويرى (كلاسر) احتمال وجود علاقة بين (Bi-i-lu) ، وهو اسم الملكة ، و (باهلة) ، وهو اسم القبيلة المعروفة التي تقع منازلها منذ القديم في هذه المنطقة . وعنده أن حملة (أسرحدون) قد كانت في اليمامة ، حيث ينطبق وصف

---

١ J. Simons, P. 15.

٢ Reall. I, te. Lieferung, S. 441.

٣ Deserta, P. 484, Stephen of Byzantium, Ethnica, (meineke) I, P. 223, Forster, II, P. 141, Skizze, II, S. 5.

٤ «Dacharaemoizae»
Forster, I, P. IXXIX, 138, II, 268, Skizze, II, S. 256.

٥ « جوجان » ، صفة (ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٠) .

٦ « اجلة » صفة (ص ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦١) Skizze, II, S. 5.

هذه المنطقة على وصف الأماكن المذكورة في حملة (أسرحدون) أحسن انطباق[1] .
وبعد وفاة (أسرحـدون) رأى (يثع) (يطع) (يايطع) (Uaite') أن من الأصلح مصالحة الآشوريين ، فذهب الى (آشور بانبال) ، (آشور بنبال) وقابله وأرضاه ، فأعاد اليه أصنامه ، ومنها الصنم (عثتر السماء)،(أتر سمائين) (Atarsamain) (A-tar-sa-ma-a-a-in) ، أي (عثتر السماوات) ، وهـو الإله (عثتر) إله السماء ، الذي سأتحدث عنه عند كلامي على ديانـة العرب قبل الإسلام ، ورضي عنه وأعاده الى منصبه[2] .

ويذكر (آشور بانبال) أن (Uaite') حنث بيمينه ، وخالف عهده وميثاقه معه ، لما أعلن (شمش — شوم — أوكـن) (Schamaschschumukin) ، شقيق آشور بانبال العصيان عليه ، وخاصمه ، فانضم اليه ، وأيده بمدد يساعده، جعله تحت قيادة (اب يثع) (أب يتع) (Abjate') و (ايمو) ابنا (تارى) (ثأر) (تور) ، (Te'ri) . وقام على رأس أتباعه بغزو الحدود الغربيـة لأرض بلاد الشأم التي سبق أن استولى عليها الآشوريون،وأصبحت من المقاطعات الخاصة لهم ، من (أدوم) (Adom) في الجنوب الى جنوب (حمـاة) في الشمال . غـير ان السعد لم يحالف (Uaite') في هذه المرة ايضاً ، فتصدت الجيوش الآشورية للمـدد الذي ارسل لمساعـدة (شمش — شوم — اوكن) ، وشتت شملـه قبل وصوله الى (بابل) . أما الذين تمكنـوا من الهرب والوصول الى (بابل) ، فقد أبيد أكثرهم كذلك . وقد اضطر (اب يثيء) (اب يتع) (Abjate) أن ينجو بنفسه بالهرب الى البادية خشية أن يقـع في الأسر ، وذهب من ثم الى (نينوى) حيث مثـل أمام الملك طالباً منه العفو والصفح ، وقبل الملك عذره وصفح عنه ، ثم أصدر أمره بتعيينه ملكاً في مكان (Uaite') الذي كان مشغولاً بغزو حدود الشام وفلسطين الشرقية المتاخمة للصحراء أي حدود أرض (أمورو) (Amurru) على رأي بعض العلماء[3] ، وذلك بعد

---

١ Skizze, II, S., 269, 273.

٢ « اسور بانيبال » ادي شير ، (ص ١٣٢) ،
Reall. I, S. 310, 312, Schrader, KAT. S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VII, S. 72, Deserta, P. 485.

٣ لمعرفة اراء علماء الاشوريات في ارض « امورو » التي تعني ارض المغرب ، او الرياح الغربية ، استحسن الرجوع الى ما كتب عن هذا الموضوع في :
Reall. I, S. 99. ff. Hastings, P. 27.

هزيمة (Uaite') وتغلب الآشوريين عليه في حوالي سنة (٦٤٨ ق. م.)[١]. وقد وافق (اب يتيء) (Abjate') أن يدفع جزية الى الآشوريين ، تتألف من ذهب وأحجار كريمة وجمال وحمير[٢].

ولم يتمكن (Uaite') من الثبات طويلاً والاستمرار على مهاجمة الآشوريين، إذ كلف الملك (آشور بانبال) حرس الحدود والقوات الآشورية التي كانت هناك مهاجمة أتباعه ، ومعاقبة (Uaite') الذي نسي الجميل ، وخاس بعهده على حد قول (آشور بانبال)[٣]. وبعد مصادمات ومعارك وقعت بالقرب من (ازريلو) (Azarilu)[٤]. و (خير اتكاسي) (Khiratakasi) و (ادومه) (Udume) في ممر (يبردو) (Jabrudu) في (بيت أماني) (بيت عماني) (Bit Ammani) في منطقة (خوينه) (Khaurina) و (موابه) (Mu'aba) و (ساري) (Sa'ari) و (خرجه) (Kharge) و (صوبيتي) (Subiti)، اضطر أتباع (اويتي) (Uaite') الى الرجوع الى البادية للاحتماء بها . ويظهر أنهم أصيبوا في أثناء ذلك بخسائر فادحة . وقد أكره (اويتيء) بعد هذه الخسائر على الالتجاء الى الملك (نتنو) (Natnu) ملك (نبيتي) (نبيطي) (Nabaitai) (Nabaiti) تاركاً زوجته بين أتباعه من قبيلة (قيدار) (Qidri) (Kedar)[٥].

ولما هاجم (امولاتي) (عمولاطي) (امولاطي) (Ammulati) ملك قبيلة (قيدار) (قيدري) أرض مملكة (مؤاب) (Moab) أصيبت جيوشه بخسارة كبيرة، وسقط أسيراً — ومعه (اديا) (عادية) (عدية) (Adija) زوجة (Uaite') ملك (اربي) في أيدي الملك (Kamashkalta) (Kamaskhalta) ملك مؤاب (٦٤٨ ق. م) . فأرسلا أسيرين الى نينوى

---

١ Meissner, Konige, S. 246, Deserta, P. 486, Reall. I, S. 9

٢ Deserta, P. 486, Rawlinson, Cuneiform, 5, Part, I, Plate, 9, Col. 8 II 30. III, P 1. 34, Streck, Die Inschriften Assurpanipals, II, S. 68, 134, 202.

٣ Reall. I, S. 126.

٤ Reall. I, S. 325.

٥ Deserta, P. 485, Rawlinson, IV, Part. I, P 1. 9, Streck, II, S. 64, 132.

حيث سلما الى (آشور بانبال)[1] . وكان (Ammulati) قد ساعد (شمش — شوم — أوكن) في ثورته على أخيــه ، وهاجم أرض المغرب (أمــورو) (Ammurru) ، لذلك سر (آشور بانبال) ، بهـذا الانتصار الذي أحرزه (مؤاب) . وقــد رسم منظر غلب (آشور بانبال) وأسر (Ammulati) و (Adija) على جدار إحدى غرف قصر الملك (آشور بانبال)[2] .

لقد أثرت الانتصارات التي أحرزتها جيوش (آشــور) في نفس (نتنو) (ناتنو) (Natnu) ملك (Nabaiti) ، فأخذ يتقرب الى (آشور بانبال) ، ومن جملة ما فعله في التقرب اليه أنه أرسل (Uaite') — الذي كان قد التجأ اليه — الى نينوى حيث سلم الى الملك الذي أمر بوضعه في قفص ، ليعرض على الناس عند أحد أبواب المدينة[3] . وذكر (آشور بانبال) في كتابتــه أن منازل (Nabaiti) قبيلة (Natnu) بعيدة ، ولم يسبق لها أن أرسلت رسلاً الى بلاط أحد من أجداده وآبائه في نينوى من قبل ، وأن هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها من هذه القبيلة رسول[4] .

وقد وصف (آشور بنبال) موقف الأعراب وصفاً مؤثـراً بهذه الكلمات : « اشتدت عليهم وطأة الجوع . ولكي يسدوا رمقهم ، أكلوا لحوم صغارهم .. وقد سأل أهل العربية بعضهم بعضاً : ما بال بلاد العرب قد أحدق بها هــذا الشر ؟ فكان الجواب : تلك عاقبة من ينكث العهد،ويخرق المواثيق التي قطعناها لآشور »[5] .

وذكر (آشور بانبال) انه عامل (Uaite') على هذه الصورة ، وذلك في عباراته التي أمر بتدوينها في النص : « حبسته في مربط الكلاب ، وضعته مع بنات آوى والكلاب ، وأقمته على حراسة الباب في نينوى »[6] .

---

١ British Museum Tablet, K2802, Rawlinson, 3, Pl., 34, Col. 8, II, 31-44, Pl. 35. ff. Col. 5, II, 15-30, Reall. I, S. 36.

٢ Real. I, S. 36, 98, British Museum, A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiquities, London, 1922, P. 184, 44, K. 2802, + K3047, + 3049.

٣ Reall. I, S. 126.

٤ Deserta, P. 486, Ungnad, in Vorderasiatische Schriftdenkmaler, I, No. 83, Col. 3, II, 4-16.

٥ Luckenbill, II, 888.

٦ Luckenbill, II, 819.

ووصف حملته على الأعراب ومطاردته لهم بهذه الكلمات : « في رمضاء البادية وقيظها ، حيث لا ترى طيور السماء وحيث لا يرى حمار الوحش ولا الغزال »[1] . وذلك من شدة جدب البادية ، وعدم احتمالها الأحياء .

لم تنفع الشدة التي استعملها الآشوريون في القضاء على مقاومة الأعراب شيئاً . فما كاد (آشور بانبال) يشغل نفسه بقتال ملك (عيلام) وحربه في عام (٦٤٠ — ٦٤١ ق. م.) حتى ثارت القبائل العربية على آشور بزعامة (أبيتأ) (أبي يثع) (Abijate') ابن (تاري) (Te'ri) الذي تحدثت عنه سابقاً ، و (اويتء) (Uaite') الثاني ، وهو ابن (بير دادا) (Bir Dadda) (Bir Dadda) ، وأخذت تتحرش ثانية بحدود المقاطعات الآشورية المتصلة بالبادية. ولما أرسل الآشوريون جيوشاً قوية لصد هذه الهجمات ، طلبت قبيلة (قيدري) (قيدار) مساعدة (نتنو) ملك (نبتي) (Nabaiti) ، فلبى الطلب ، وتحالف معهم ، وأخذوا يهاجمون الحدود ، ومعهم قبيلتا (يسمع) (يسمأ) (Isamme') و (عثر سمين) (Atarsamain) . غير ان الجيوش الآشورية تمكنت — مع ذلك كما تدعي كتاباتهم — من الانتصار على (قيدار) وعلى حلفائهم ، فانتصرت على (Isamme') وعلى (Atarsamain) و (Nabaiti) في موضع في البادية بين (ياركي) (يركي) (Jarki) (أرك) شرق تدمر[2] ، و (ازلة) (Azalla)[3] ، وشتتت شملهم . ثم انتصرت في معركة أخرى على (Atarsamain) على (قيدار) وقعت عند (Qurasiti) ، وغنمت فيها غنائم كبيرة من الحمير والجمال والأغنام ، كما أسرت أصنام (Uaite') وأمه وزوجته وعدداً كبيراً من أتباعه[4] . وأخذوا الى دمشق ، وأسر (ابي يثأ) (Abjate') وشقيقه (أيمو) (Aimnu) في المعركة التي وقعت عند (خوكرينا) (Khukkurina) (Khukruna)[5] .

١ Luckenbill, II, 823.

٢ Meissner, konige, S. 246, Streck, Vab. Vii, S. S. CCLXXXII, ff.

٣ وتقع في بادية « تدمر » بين « يركى » «Jarki» ودمشق ،
Reall. I, S. 325, Reall. I, Ite, Lieferung, S. 9.

٤ Deserta, P. 487.

٥ Deserta, P. 488, Reall. I, S. 126.

أما الملك (Uaite') ، فقد اعتصم مع عدد من أتباعه بالصحراء ، غير أن الأمراض والأوبئة التي انتشرت بين أتباعه أكرهته على الذهاب الى الآشوريين الذين نقلوه الى نينوى ، وعرضوه أمام الملك . وقد عوقب عقاباً قاسياً،وعذب عذاباً شديداً،ثم عفا عنه الملك بعد ذلك غير انه لم يسمح له بالعودة الى البادية، حيث أهله وأتباعه ومنازله ، ولعله مات في نينوى[١] .

لقد وردت في أخبـــار حملات الآشوريين على العــرب ، أسماء مواضع منها ما يمكن التعرف عليه ، ومنها ما ليس في الامكان تشخيصه الآن ، وقد تحدثت عن بعضها . ويرى بعض العلماء ان موضع (أزريلو) (Azarilu) المذكور في أخبار انتصارات (آشور بانبال) على العرب ، هو موضع يقع في باديـــة الشأم[٢] . وأما لفظة (أدومة) (Udume) ، فيرى (موسل) انهـــا تعني (أدوم) (Edom) أرض (الآدوميين) من ذرية (عيسو بن إسحاق) على رواية التوراة . وهم شعب استوطن في الأصل جبـــل (سعير)[٣] ، ثم توسع فسكن في منطقة شملت كل تخوم كنعان الجنوبيـــة من البحر الميت الى الخليج الشرقي للبحر الأحمر ، ومن ضمنها جبل (سعير)[٤] . وقد كان الأدوميون من أعداء العبرانيين :

ولما زاحم النبط الأدوميـــين على أرضهم ، زحفوا نحو الشمال فسكنوا في (اليهودية) (judah) ، وتوسعوا حتى تجاوزا شمال (حـبرون) ، ولذلك دعيت هذه المنطقة باسم (الأدومية) (Idumaea)[٥] . وذكر المؤرخ اليهودي (يوسفوس) ان من أصنامهم صنماً يدعى (Koze)[٦] ، ويذكرنا اسم هـــذا الصنم باسم الصنم (قزاح) ، وهو صنم كان يعبد على مقربة من مكة[٧] .

---

١ Deserta, P. 389, Rawlinson, The Five. II, P. 492.

٢ Reall. I, S. 325.

٣ التكوين ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، الاية ٣ ، القضاة ، الاصحاح الخامس الاية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٥٣) ، Hastings, P. 203.

٤ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٣)

٥ Hastings, P. 203.

٦ Josephus, Antiq. XV, 7, 9.

٧ Enc. Bibli. P. 1188.

وأما (Mu'aba) ،فيرى (موسل) انها (مؤاب) المذكورة في التوراة [1]، وهي أرض المؤابيين ، أبناء (مؤاب)[2] .

وأسماء الأشخاص الواردة في النصوص الآشورية هي أقدم أسماء نعرفها وردت في نصوص تأريخية عند العرب الشماليين،مثل (زبيبة) و (شمس) و(الباسق) الذي كتب (بسقانو) (Basqanu) في النص الآشوري ، و (أيم) الذي هو (ايمو) في النصوص الآشوريـــة ، و (جندب) الذي صار (جنديبو) (Gindibu) في اللغة الآشورية (Kiau) (Kisu) (Ki-i-su) الذي يحتمل أنه (قيس) ، و (Agbaru) (Akbaru) القريب من أكبر أو (أخبر) أو (أجبر) ، و (خبيصو) (جيصو) (Habisu) (Kha-bi-su) الذي يحتمل أنه (خبيص) أو (خابص) أو (حبيس) أو (حابس) أو (قبيصة) أو ما شابه ذلك من أسماء، و (نخرو) (نحرو) (Niharu) (Ni-kha-ru) الذي يحتمل أنه (نخر) ، أو (ناخر) أو (نهار) ، (وليلى) (Laili) (Laiale) ، الذي هو (ليلي) الى آخر ذلك من أسماء .

وورد في جملة الأرضين التي استولى عليها (آشور بانبال) في بلاد العرب، اسم موضع دعـــي (انزلكرمة) (Enzilkarme) (Al-en-zi-kar-me) ، وهو كناية عن واحة ، يرى (ديلج) (Delitzsch) أنها تقع جنوب حوران[3].

وقـــد افتخر « آشور بانبال ، الملك العظيم ، الملك الحـــق الشرعي ، ملك العالم ، ملك آشور ، ملك الجهات الأربع ، ملك الملوك ، الأمير الذي لا ينازعه منازع ، الذي يحكم من البحر الأعلى الى البحر الأسفل ، والذي جعل كل الحكام الآخرين يخرون له سجداً ويقبلون أقدامه »[4] ، بأنه ملك من البحر الأعلى حتى جزيرة (دلمون) من البحر الأسفل[5] . ومعنى هـــذا أن ملكه امتد من أعالي العراق الى البحرين[6] .

يظهر من النصوص الآشورية أن الآشوريين قاموا بعدد من الحملات يزيـــد

---

١ Deserta, P. 485.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٨٥/١) .

٣ Delitzch, S. 300, Hommel, Geographie, S. 588, Reall, II, S. 404.

٤ راجع النص في : Pritchard, P. 297.

٥ Pritchard, P. 297.

٦ R. C. Thompson. In AAA, XX (1933), 71.

عددها على تسع للانتقام من الأعراب الذين كانوا قد تعودوا التحرش بهم ، ومضايقتهم عند اجتياز البوادي ، ومهاجمة قوافلهم وحدود أمبراطوريتهم ، تحرضهم بابل في بعض الأحيان ، أو حكومة مصر ، أو يدفعهم الى ذلك أملهم في الحصول على غنائم يتعيشون منها . وقد أزعجت هذه التحرشات الآشوريين كثيراً ، وأغضبتهم ، يتجلى غضبهم هذا فيما دوّنوه عنهم . وفي الصور التي رسموها للعرب في قصورهم ، فصوّروهم يقبلون أرجل ملوك (نينوى) ليرضوا عنهم ، مقدمين اليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وأنواع الطيب والكحل واللبان والجمال . وصوّروا الآشوريين وهم يحرقون خيام الأعراب ، وهم نيام ، وصوّروا عساكرهم يقاتلون الأعراب ويطاردونهم ، وهو على ظهور خيولهم المطهمة . أما العرب ، فإنهم على ظهور الجمال لا يستطيعون الافلات من الآشوريين[1] . وترجع هذه الصور الى أيام (آشور بانبال) ، حيث عثر عليها في قصره بـ (نينوى) .

وقد صور العرب ولهم لحى وقد تدلى شعر رؤوسهم على أكتافهم ضفائر ، وشد أحياناً بخيط . وأما الشوارب ، فإنها محفوفة في الغالب . وقد صوّر العرب وهم يركبون الجمال عراة في بعض الأحيان ، أو تمنطقوا بمنطقة ثخينة أو ائتزروا إزاراً يمتد من البطن الى الركبتين[2].ولا تصور هذه الصور كل الأعراب بالضرورة بل هي تمثل أولئك الذين تحاربوا مع الآشوريين .

لقد أقام الآشوريون لهم مسالح في أقاصي الأماكن التي بلغ نفوذهم الحربي والسياسي اليها ، كما أقاموا حصوناً في مفارق الطرق المؤدية الى البادية ، وذلك لحماية حدودهم من غزو أبناء البادية . كما وضعوا مراقبين آشوريين، أو مندوبين سياسيين في مواطن سكن سادات القبائل ، وذلك لمراقبة حركات القبائل وأخبار حكوماتهم بنوايا وبأعمال ساداتها وللتأثير على أولئك السادات لحملهم على تنفيذ ما يريده ملوك آشور . وهي خطة قلدها من جاء بعد الآشوريين من أجانب . ولم يكن الآشوريون هم أول من ابتدع هذه السياسة ، فلا بد وأن يكون من سبقهم قد سار على هذا الدرب ، ومهد أرضه للآشوريين ولمن جاء بعد الآشوريين من حكام .

---

١ British Museum, Assyr. Sal. Nr. 85-87, Reall. I, 127, E. Unger, Assyr. und Babyl. Kunst, 1927, Abb. 77, Marucchi, Catal. del Mus. Egiz. Vatica. Nr. 24.

٢ Streck, VAB. VII, S. 217, Anm. II, 411, 772, Reall. I, S. 127.

الفصل الخامس عشر

صلة العرب بالكلدانيين والفرس

لا نعلم شيئاً كثيراً عن صلات العرب بالكلدانيين ، فلم تصل الينا كتابات منهم تفصح عن علاقتهم بالعرب . غير ان سكوت هذه الكتابات وعدم وصولها الينا ، لا يمكن أن يكون سبباً يحملنا على التفكير في عدم قيام صلات بين العرب والكلدانيين . فقد رأينا فيما مضى انهم ساعدوا أهل بابل في نزاعهم مع آشور، ثم ان العرب كانوا يجاورون البابليين منذ القديم ، وهذه المجاورة القديمة في حد ذاتها واسطة طبيعية لتكوين الاتصال المباشر بين العرب والكلدانيين .

وقد تحدث الأخباريون عن غزو (بخت نصر) (بختنصر) (٦٠٤ – ٥٦١ق. م.) للعرب في أيام (معد بن عدنان) ، ووصوله الى موضع (ذات عرق) ، كما تحدثت عن ذلك في فصل « طبقات العرب » ، وقد قلت ان رواتـه أخذوا مادته من أهل الكتاب ، وأضافوا اليه مادة جديدة أنتجها ابتداعهم له ، فصار نسيجاً جديداً هو المدوّن في الكتب[1] . وهو حديث لا قيمة تأريخية له ، ولذلك لا يمكن الاطمئنان اليه والأخذ به . وقد قص علينا الأخباريون ألواناً كثيرة من هذا القصص الذي بان لونه وعرف أصله في القرن العشرين .

وأنا لا أريد أن أستبعد احتمال قتال (بخت نصر) مع القبائل العربية، فذلك

---

١ الطبري (٢٩١/١) ، ابـن الاثير، الكامل (١١٧/١) ، (نبوكـد ناصـر) ، (ادي شير) (ص ١٤٠) .

ممكن جداً ، ولا سيما أن بابل مجـاورة للعرب ، وان توسع هذا الملك ودخوله فلسطين جعل البابليـين يتصلون اتصالاً مباشراً بالأعـراب ، فلا بد أن يكون (بخت نصر) قد احتك بالعرب واتصل بهم . وقد يكون حاربهم وأوقع خسائر بهم ، لتحرشهم بجيوشه وبحدود امبراطوريته التي شملت البادية الواسعة الفاصلة بين العراق وبلاد الشام[١] . ولكن الذي نتوقف عنده وننظر اليه بحذر ، هو هذا الطابع المعروف عن الأخباريين ، الذي يروون به كيفية غزو ذلك الملك لـ (معد ابن عدنان) .

وقد يكون (بخت نصر) ، قد بلغ موضع (ذات عرق) وقد يكون بلغ موضعاً آخر أبعد منه ، إلاّ أن الذي أراه أن استيلاء البابليين على الأماكن التي احتلوهـا من جزيرة العرب إن وقع فعلاً ، فإنه لم يدم طويلاً ، فقد كانت فتوحات الفـاتحين لجزيرة العرب كالسيول ، تأتي جارفة عارمة ، تكتسح كل شيء تجده أمامها ، ثم لا تلبث أن تزول وتختفي آثارها بعد مدة قصيرة، لأسباب منها بُعد طرق المواصلات عن عواصم الغازين الفاتحين وعدم وجود مواد غذائية كافية في البلاد المفتوحة لإعاشة جيش كبير ، ليستطيع ضبط القبائل والمحافظة على الأمن ، ومهاجمة القبائل للقوافل التي ترد لتموين الحاميات وللحاميات نفسها، وعدم تمكن الفاتح من وضع جيش كبير جاهز في كل لحظة للقتال ليصدّ غارات القبـائل التي تؤلف غالبية سكان جزيرة العرب في ذلك العهد . ثم إن القسم الأكبر من الذين قاتلوا وفتحوا أناس مرتزقة سيقوا الى القتال سوقاً ، خوفاً أو طمعاً ، وقبائل اشترى الفاتحون ساداتها بأطماعهم في مغانم يجنونها أو لدوافع حقد قبليّ ، ومن عادة سادات القبـائل أنهم مع الفاتح ما دام قوياً سخياً يبذل لهم بكل سخاء ، فإذا ضعف أو أمسك أو دارت الدنيا عليه ، كانوا هم أول من ينقلب عليه . ولذلك صارت أمثال هذا الفتوحات غارات انتقامية سريعة ، لا يلجأ اليها إلاّ بعد تفكير واعداد خطط ووجود ضرورات ملحة تستوجب ارسال مثل هذه الحملات .

ويرى بعض علماء التوراة والبابليات ما جاء في كتاب (دانيال) الذي كتب بعد أيام (بخت نصر) من نبوءة ومن رسالة أرسلها النبي الى ذلك الملك، ومن

---

١ D.J. Wiseman, Chronicle of Chaldaean Kings, PP. 32, 48, 70, Nebuchadrezzar's Campain in Arabia, 599 B. C.

فتوحات في بلاد العرب ، هو من وضع كاتب تلك الرسالة ، وضعه ليثبت نبوءته ، وأن ذلك الكاتب أخذ فتوحات (نبونيد) فنسبها الى (بخت نصر)[1].
أما أنا ، فلا أريد أن أثبت فتوحات (بخت نصر) ، ولا أريد أن أنفيها في هذا العهد ، فوصول (بخت نصر) الى الحجاز أمر ممكن ، وسوف نرى أن (نبونيد) قد وصل الى مدينة (يثرب)،فليس بمستبعد وصول (بخت نصر) الى الحجاز ، بعد أن استولى جيشه على فلسطين ، وصار في إمكانه الزحف نحو الجنوب ، ولكن الذي أراه الآن هو التريث ، فلعلّ الزمن يجود علينا بنصوص قد تتحدث عن حروب وفتوح أمر بها هذا الملك في بلاد العرب : وكتاب (دانيال) ، وإن كُتب على شكل نبوءة ، لا يستبعد أن يكون قد استمد خبر النبوءة من وثيقة أو خبر شائع ، فصاغه في شكل نبوءة ، ليثبت نبوءته لبني اسرائيل .

وقد أخبرتنا الكتابات البابلية أن (بختنصر) (Nebuchadrezzar) أرسل في شهر (كسلو) (Kislev) (Kislew) من السنة السادسة من ملكه المقابلة لسنة (٥٩٩ ق. م.) حملة على العرب الساكنين في البادية ، نهبت أملاكهم وما عندهم من مواشي ، وسرقت آلهتهم ثم عادت[2] . ولم يذكر النص البابلي اسم البادية التي هاجمها الجيش البابلي ولا اسم القبائل التي هاجمها ، ولم يذكر أيضاً اسم المواضع التي تحرك منها الجيش لمهاجمة العرب . ويرى الباحثون احتمال مهاجمة البابليين للعرب من (حماة) (Hamath) أو (ربلة) (Riblah) ، أو (قادش) (Kadesh) ، فتوغل جيش (بختنصر) في البادية ، ثم عاد حاملاً معه ما ذكر في النص من أسلاب ومن مواشٍ وآلهة العرب أي الأصنام .

وكانت غاية البابليين من تأسير الأصنام وأخذها ، هو اكراه القبائل على الاستسلام والخضوع لهم ، لما للأغنام من أثر كبير في نفوسها ، وقد رأينا ان ملوك الآشوريين مثل : (سرجون) و (سنحريب) و (أسرحدون) كانوا قد أسروا أصنام العرب وأخذوها معهم الى آشور وكتبوا عليها شهادة الأسر والوقوع في أيدي الآشوريين ، ليؤثروا بذلك نفسياً في نفوس أتباعها وعبّادها

١ S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 35.

٢ Br. Mus. 21946, D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1956, P. 31, 48, 71.

ويكرهوهم على الخضوع لهـم وعلى مساومة الآشوريـين لاستردادها في مقابل الاستسلام لهم وتأييد سياستهم وعدم التحرش بهم . ولم يذكر النص البابلي أسماء تلك الآلهة .

وكانت غاية (بختنصر) من ارسال حملته هذه على العرب، هو حماية حدود (حماة) وبقية مشارف فلسطين وبلاد الشام من الأعراب واخضاعهم لحكمه ، ثم تأديب بعض القبائل التي تحرشت به على ما يظهر حين دخوله بلاد الشام وفي جملة ذلك فلسطين . واستناداً الى ما جاء في (سفر إرميا) نستطيع أن نقول ان (قيدار) كانوا على رأس القبائل العربية البارزة التي غزاها جيش (بختنصر) وكذلك (بني المشرق) (أبناء المشرق) و (ممالك حاصور) . ونظراً لوجود تشابه كبير بين الرواية البابلية عن حملة (بختنصر) على العرب وبين ما جاء في (سفر إرمياء)[1] ، أرى ان مدوّن السفر قد أخذ خبره هذا الذي صيّره نبوءة من موارد بابلية ثم كيّفه على النحو المذكور .

ولدينا خبر رواه لنا (اكسينوفون) (Xenophon) ، يفيد أن (بختنصر) لما حمل على مصر أخضع (ملك العربية) . وقـد قصد بذلك حملته على مصر سنة (٥٦٧) قبل الميلاد[2] .

والخبر التأريخي الثاني الذي وصل الينا عن صلات البابليين المتأخرين بالعرب، هو ما ورد عن الملك (نبونيـد) (Nabonid) (Nabonidus) (٥٥٥ — ٥٣٨ ق. م.) (٥٥٦ — ٥٣٩ ق. م.) من اتخاذه (تيماء) مقراً له . ففي السنة الثالثة من حكمه جرد حملة على (أدومو) (Adumu) (Adummu) أي (دومة) (دومة الجندل) ، وسار منها الى (تيماء) ، سالكاً طريقاً لم تعرف في الزمن الغابر ، على رأس جيشه ، جيش أرض (أكد) (أكاد) . فلما وصل اليها ، أعمل فيها السيف ، وقتل أميرها وأهلها ، والظاهـر ان ذلك بسبب مقاومتهم له وعنادهم في الدفاع عن مدينتهم ، ثم طاب له أن يستقر بها، فابتنى بها قصراً ضخماً له جعلوه كالقصر الذي في بابل ، وحلت (تيماء) محل

---

١ الاصحاح ٤٩ ، الآية ٢٧ وما بعدها .

٢ Xenophon, Cyropaedeia, I, 5, 2, Naval, P. 216.

بابل ، أي صارت عاصمة لملك البابليين[1] :

ويرى العلماء أن حملة (نبونيد) على (دومة الجندل) (ادومو) (Adummu) (وتيماء) (Tema) كانت في سنة (٥٥٢ ق. م.)[2] . وقد جاء اليها سالكاً الطريق البرية المؤدية من بلاد الشام الى شرقي الأردن ، الطريق التي يسلكها حجاج بلاد الشام في الإسلام الى مكة . وبعد أن قضى على حكام المدينتين استقر في (تيماء) ومعه حرسه البابليون . ويظهر من اشارته في نصّه المدوّن عن أخبار فتوحاته أنه سلك في وصوله الى (تيماء) سبيلاً لم يسلكها الأقدمون من قبل ، ومن اشارته الى قتله (ملك تيماء) وسكان المدينة أن المدينة في أيامه كانت مستقلة ، يحكمها ملك من أهلها ، وأن البابليين لم يكونوا قد حكموها قبله[3] .

وقد أقام (نبونيد) سنين في عاصمته الجديدة . أما ابنه (بلشاصر) (بلشصر) (بلشسر) (Belsharrusur) (Belsazar) ، فكان بـ (بابل) مع الجنود البابليين . ويظهر أنه أقام بهذه المدينة حتى السنة الحادية عشرة من حكمه ، وربما أقام بها أكثر من ذلك قليلاً ، حتى اضطر الى تركها والعودة الى بابل ، بظهور الفرس ، الذين هدّدوا البابليين ، ووسعو ملكهم ، وصاروا على مقربة من بابل . فقد تغلب (كيرش) (كورش) (Cyrus)[4] على العربية وأدخلها في جملة أملاكه ، وعين عليها مقيماً سياسياً فارسياً (ستراب) (Satrap) ، ويظهر أن حملته هذه على العربية كانت حوالى سنة (٥٤٠ — ٥٣٩ ق. م) ، وأن (نبونيد) كان قد ترك (تيماء) ، وجاء الى بابل قبل تغلب (كيرش) على العربية[5] .

وقد يتساءل المرء عن الأسباب التي حملت (نبونيد) على ترك بابل والالتجاء هذه السنين الى (تيماء) : أهي شؤون سياسية خطيرة حملته على السكنى في هذه

---

١ Musil, Negd, P. 225, Meissner, Koenige, S. 208, Sidney Smith, Babylonian, P. 88, Dougherty, Nabonides, and Belshazzar, New Haven, 1929, PP. 106, Reall. I, 5te, Lieferung, S. 383.

٢ S. Smith, P. 53.

٣ راجع السطر ٢٤ من النص S. Smith, P. 88.

٤ (كيرش) ، الطبري (٥/٢) ، (٦٥٣/١ ، ٦٩١ ، ٧١٨) ، (طبعة ليدن) ، (كورش) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، (ص ٨١) ، (بيروت ١٨٩٠) .

٥ S. Smith, Baby. Hist, P. 82, 102, The Cambridge Ancient History. IV, P. 194.

المدينة البعيدة عن عاصمته القديمة ، أم هي عوامل عسكرية ، أو اقتصادية أو بواعث شخصية لا تتعلق بهذه ولا بتلك ؟ أما اجابات المؤرخين ، فهي مختلفة ومتنوعة . منهم من رأى أن لتيماء أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية لوقوعها في ملتقى طرق تجارية عالمية بالنسبة الى ذلك العهد ، والاستيلاء عليها والبقاء فيها معناه كسب عظيم ، وربح كبير بالنسبة الى عالم السياسة في ذلك اليوم . ومنهم من رأى أن ذلك كان لأثر مزاج الملك وطبيعته ورغبته في التخلص من أمراض بابل ، بسكناه في محل جاف مرتفع زهاء (٣٤٠٠) قدم عن سطح البحر .

وتيماء مركز مهم ، ذكر كما رأينا في نصوص الآشوريين ،وهو من الأماكن القديمة المذكورة في التوراة ، وهو فيها كناية عن أحد أبناء اسماعيل ، مما يدل على انه كان من المواطن الإسماعيلية ، ويقع على مسافة (٢٠٠) ميل الى الجنوب الشرقي من رأس خليج العقبة ، ويمثل هذه المسافة الى الشمال من المدينة ، وعلى بعد (٦٥) ميلاً من شمالي العلا . وبها عين غزيرة المياه ، هي التي بعثت الحياة في هذا المكان .. وتعدّ أشهر عين ماء في جزيرة العرب[1] ، تستعمل للسقي ، ولإرواء المزارع التي تنبت مختلف الفواكه والتمور والحبوب . وهواؤها صحي جيد ، ولا تزال مأهولة ، فهي في الزمن الحاضر ، كناية عن قرية يزيد عدد سكانها على الألفين ، يسكنون في بيوت من طين وفي أكواخ[2] .

وعلى مقربة من (تيماء) خربة فيها أحجار ضخمة مربعة ، وبقايا عمران قديم يظن بعض العلماء انها موضع معبد عتيق . ويرى بعض من زارها انها كانت مدينة لا تقل ضخامة عن (الحجر) وعن المدن الأخرى التي ترى آثارها في العربية النبطية حتى الآن . ولم تفحص هذه الخربة التي يسميها الناس (توما) (Tuma) فحصاً علمياً[3] . وقد يعثر فيها على كتابات آشورية وبابلية ويونانية وارمية وعربية ترينا أثر الاتصال الثقافي الذي كان في هذه المواضع التي تعد ملتقى القوافل والتجار والثقافات .

---

١ Hastings, P. 897, Doughty, Arabia Deserta, I, Chapt. 10, 19, Jaussen, and Savignac, Archéologique en Arabie, II, Part, I, Chapt. 4, Musil, Oriental Explorations, V, P. 224, Montgomery, P. 66.

٢ وهبة ، جزيرة العرب (ص ٧٥ فما بعدها) .

٣ S. Smith, Baby Hist. Text. P. 80.

وقد عثر في هذه الخربة على حجر مكتوب بلغة بني إرم ، يرجع تأريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ورد فيه ان أحد الكهـان استورد صنماً جديداً الى تيماء ، وبنى له معبداً ، وعيّن له كهاناً توارثوا خدمة (صلمهجم) . و (صلم) بمعنى صنم . وقد مثل صنم (هجم) في زي آشوري ، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيّد ذلك النصب . وقد نشرت ترجمة الكتابة الإرمية . ويرى (سدني سمث) ان تأريخها يرجع الى ايام (نبونيد) ، فلعله صنع في ذلك الزمن بتأثير البابليين[1] .

ولطول اقامة (نبونيد) في (تيماء) ، لا يستبعد أن يجيء يوم قد يعثر فيه على كتابات أو آثار أخرى ترجع الى هذا الملك . فلا يعقل أن تذهب ذكريات ايامه كلها من هذه المدينة ، وينطمس أثر قصره عنها ، ذلك القصر الذي بالغ الملك في وصفه وأراد أن يجعله في مستوى قصور بابـل . وقد يعثر فيها على مراسلاته مع مدينته بابل ومع الحكومات الأجنبية التي كانت في أيامه ومـع الأعراب . واذا حدث ذلك ، فقد نجد شيئاً جديداً لا نعرفه عن ايام تيماء في عهد نبونيد .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (تيماء) التي استقر بها (نبونيد) هي تيماء أخرى تقع في العروض على ساحل الخليج ، وحجتهم في ذلك أن المسافة بـين تيماء الحجاز وبابل ، كبيرة واسعة ، تجعل من الصعب تصور اقامة (نبونيد) في هذا المكان . أما العروض فإنه على اتصال ببابل ، ولا يفصل بينهما حـاجز أو فاصل أو عائق ، ولهذا ذهبوا الى احتمال وقوع (تيماء) في العروض[2] ، كما ذهب بعض آخر الى احتمال كون (تيماء) (تيمان) المذكورة في التوراة[3] . وهي أرض (أبناء الشرق)[4] ، وملتقى طرق القوافل القادمة من بـلاد الشام ومصر والعراق والجنوب[5] . غير أن الباحثين في هذا اليوم متأكدون من أن (تيماء)

---

١ Smith, Baby. Hist. Texts. P. 79, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars, Secunda, Plate, IX, Tome, I, P. 107, Montgomery P. 67, Hogarth, Penetration of Arabia, P. 280, Cooke, North Semitic Inscriptions, P. 195.

٢ Negd, P. 226.

٣ ارميا ، الاصحاح التاسع والاربعون الاية ٧ ، عوبديا ، الاية ٩ ، وعاموس الاصحاح الاول ، الاية ٢ ، حبقوق ، الاصحاح الثالث ، الاية ٣ .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١ فمابعدها)

٥ Negd, P. 225.

(نبونيد) هي (تيماء) الحجاز ، في المملكة العربية السعودية .

فقد عثر في (حرّان) على كتابة مهمة جداً في بحثنا هذا ، دوّنها الملك (نبونيد) ،عثر عليها في سنة (١٩٥٦ م)،وكانت مدفونة في خرائب جامع حرّان الكبير ، وترجمت الى الانكليزية ، وإذا بها تتحدث عن تأريخ أعمال ذلك الملك، ومما جاء فيها : انه لما ترك (بابل) وجاء الى (تيماء) ، أخضع أهلها ، ثم ذهب الى (ددانو) (ديدان) و (بداكو) و (خبرا) و (ايديخو) حتى بلغ (اتريبو)[١] . ثم تحدث بعد ذلك عن عقده صلحاً مع (مصر) و (ميديا) (ما ـ دا ـ ا ـ ا) (مادا ا) (Ma-da-a-a) (Medes) ومع (العرب) (مات ا ـ را ـ بي ـ او) (Mat A-ra-bi-u)[٢] . وقد ختم العمود الذي جاء فيه هذا الخبر بأسطر تهشمت جمل منها ؛ يفهم من مآلها أن العرب المذكورين أرسلوا اليه رسلاً ، عرضوا عليه عقد صلح معه ، واستسلامهم لـه ، فوافق على ذلك ، بعد ان كبّدهم جيشه خسائر فادحة ، وأسر منهم ، ونهب . ولم تذكر تلك الأسطر المواضع التي حارب فيها جيش (نبونيد) أولئك الأعراب[٣]. وقد يفهم من هذه السطور الأخيرة ايضاً ان بعض هؤلاء العرب هاجموا البابليين، ونهبوا المناطق الخاضعة لهم بالرغم من عقدهم الصلح معـه ، وموافقتهم على ان يسالموه ، وهذا ما دعاه على ارسال حملات تأديبية عليهم ، انزلـت بهم خسائر فادحة [٤] .

ولم يكن نص (نبونيد) معروفاً بين العلماء يوم اختلفوا في تعيـين موضع (تيماء) . أما اليوم وقد نشر النص وترجم ترجمة دقيقـة صحيحة ، وعرفنا منه (فدك) و (خيبر) و (يثرب) ، وهي مواضع معروفة مشهورة حتى اليوم وتذكر مع (خيبر) ، فقد أجمع العلماء على أن (تـيماء) (نبونيد) هي (تيماء) الحجاز من دون أي شك ، وان موضع اقامـة ملك بابل وقصره

---

١ راجع السطرين ٢٤ و ٢٥ من النص الموسوم :
Nabonidus H2, A and B, In Anatolian Studies, By C. J. add, The Harran Inscriptions of Nabonidus, VIII, 1958, PP. 35.

٢ السطر ٤٢ وما بعده من النص المذكور .

٣ راجع الاسطر من ٤٣ حتى ٤٨ من النص .

٤ Anatolian Studies, VIII, 1958, P. 76, A. R. Burn, Persia and the Greeks, P. 38.

كان في هذا المكان من الحجاز .

ولما كان استيلاء (نبونيد) على (تيماء) في حدود سنة (٥٥١ – ٥٥٢ ق. م.) وجب أن يكون زحفه على الأماكن المذكورة بعد ذلك ، والظاهر ان الذي حمله على التوغل في الجنوب ، رغبته في السيطرة على أخطر طريق برية للتجارة ، تربط بلاد الشأم بالعربية الجنوبية ، وهي طريق قديمة مسلوكة ، تسلكها القوافل التجارية المحملة بأنفس التجارات المطلوبة في ذلك العهد ، ثم السيطرة على البحر الأحمر ، وذلك بالاستيلاء على الحجاز وعسير واليمن وربما على العربية الجنوبية كلها . ولو تم له ذلك ، لكان ملكه قد بلغ المحيط الهندي . ومن يدري ؟ فلعل اختياره (تيماء) مقراً له ، وتجوله في الأرضين الواقعة بينها وبين (يثرب) كان لهذا السبب ، أي لتنفيذ تلك الفكرة الخطيرة ، فكرة السيطرة على جزيرة العرب وبلوغ المياه الدافئة للوصول الى إفريقية والهند والعربية الجنوبية ! إلا أن فكرته هذه لم تتحقق كما يتبين من النص ، فكان أقصى ما وصل اليه (يثرب) ، ثم توقف عند ذلك المكان .

ويرى بعض الباحثين الذين درسوا كتابة (حرّان) هذه أن الصلح الذي أشار اليه الملك يجب أن يكون قد عقد في حوالي سنة (٥٤٨ ق. م.) في مدينة (تيماء) عاصمة الملك الجديدة ، وأن الصلح الذي عقد مع الأعراب قد وقع في (تيماء) أيضاً ، وأن الهجمات التي هاجم بها بعض الأعراب البابليين وقعت إبان وجوده في هذه العاصمة وقبل رحيله عنها الى (بابل) ، ولكن من هم العرب الذين عقدوا الصلح مع (نبونيد) ؟ ومن هم العرب الذين هاجموا جيشه والأرضين التي خضعت له ؟ إن النص لم يشر اليهم ، ولم يتحدث عنهم ، وهم بالطبع قبائل عديدة ، قد يكون منها قبائل سالمت البابليين وحالفتهم ، ومنها قبائل عارضتهم وكرهتهم ، ثم إن بين القبائل منافسة وأحقاد وحسد ، فاذا حالفت قبائلُ حكومةً ما ، حسدتها القبائل المنافسة ، فهاجمتها وهاجمت الحكومة التي عقدت معها الحلف ، لإثبات نفسها ، ولاظهار وجودها ، ولأخذ الزعامة منها ، وهذا داء القبائل منذ كان النظام القبلي .

والذي أراه أن الحجاز لم يكن آنذاك تحت حكومة واحدة يرأسها ملك واحد ، وإنما كان على نحو ما كان عليه عند ظهور الإسلام ، حكومات قرى ومدن وقبائل . ويؤيد ذلك ما جاء في النص البابلي عن (تيماء) أن (نبونيد) ، (قتل

بالسلاح ملك تيماء) (ملكو)[1] . ومعنى هذا أنها كانت في حكم حاكم يلقب نفسه بألقاب الملوك . ولا أستبعد أن يكون حال (ديدان) و (خيبر) و (فدك) و (يديع) و (يثرب) مثل حال هذه المدينة ، أي عليها حكام يلقبون أنفسهم بألقاب الملوك . ولا أستبعد أيضاً أن يكون حالها أو حال بعضها على نحو حال هذه المدن يوم ظهور الإسلام أي تحت حكم سادات المدينة والأشراف يشتركون معاً في الحكم ويتشاورون فيما بينهم عندما يحدث حادث ما في مدينتهم أو قريتهم في أمور السلم وفي أمور الحرب .

ووضع سياسي على هذا النحو ، لا يمكن أن يقاوم جيشاً لجباً قوياً عارماً كجيش بابل المدرّب على القتال ، والذي يعيش على الحروب ، ولذلك انهار بسرعة وسلم أمره الى البابليين . ومن هنا نشم من نص (نبونيد) رائحة الاستخفاف بأسلحة (العرب) ، أي الأعراب سكنة هذه المواضع ، وبأسلحة تلك المدن التي استسلمت له . وكل ما فعله الأعراب أنهم تراجعوا الى البوادي ، وصاروا يشنّون منها غارات على البابليين ليأخذوا منهم ما يجدونه أمامهم ، فاذا تعقبهم البابليون عادوا الى معاقلهم وحصونهم : الصحراء .

وقد عثر على كتابة ثمودية وردت فيها جملة : (رمح ملك بابل) ، وعلى كتابة ثمودية أخرى جاء فيها : (حرب دون) (حرب ديدان)[2] . وقد فسر العلماء الجملتين المذكورتين بأنهما اشارة الى الحرب التي نشبت بين البابليين وأهل ديدان في أيام (نبونيد) ، وان أهل تلك المناطق صاروا يؤرخون بها لأهميتها عندهم كحادث تأريخي[3] . فالكتابتان اذن تحددان وقت تلك الحرب ، وتعينان مبدأ تقويم يؤرخ بموجبه عند أهل ثمود . غير اننا لم نتمكن من الوقوف على ذلك المبدأ من الكتابتين المذكورتين ، لقصرهما ولعدم وجود مفتاح معها يفتح لنا الباب لنصل منه الى الموضع الذي حفظ فيه سر ذلك التأريخ .

أما موضع (Da-da-nu) (دادانو) ، فانه (ديدان) ، وهو موضع معروف مشهور ، ورد ذكره في (العهد القديم) ، وفي عدد من الكتابات[4] .

---

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 84.

٢ A. Van den Branden, Textes Thamoudéens de Philby, Vol. II, PP. 54.

٣ Anatolian Studies, 1958, VII, PP. 78.

٤ W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, 1954, W. F. Albright, Dedan, in Geschichte und Atles Testament, 1953, A. Van den Branden, La Chronologie de Dedan et de Lihyan in Bibliotheca Orientalis, XIV, 1957, 13.

وتحدثت عنه في مواضع من هذا الكتاب ، فكـــان اذن في جملة الأرضين التي خضعت لحكم (نبونيد) .

وأما (Pa-dak-ku) (بداكو) ، فهو موضع (فدك)،ولم يكن مشهوراً في الأخبار القديمة ، وانما اشتهر في ايام الرسول ، الا أن عدم اشتهاره لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وجوده في أيام (نبونيـــد)[1] . وربما لا يستبعد أن يعثر في خرائبه على آثار من عهد (نبونيد) وقبل عهده ، اذ كان معروفاً قبل أيامه ، بدليل ذكره في جملة المواضع التي استولى عليها هذا الملك .

وأما (Hi-ib-ra-a) (خي — اب — را — ا) (خيبرا) ، فهو موضع (خيبر) . وهو موضع معروف وقــد كان من مواطن يهود في أيام النبي . وهو موضع (خيبر) الذي أرخ بحرب وقعت فيه في حوالي سنة (٥٦٨ م) (بعد مفسد خيبر بعام)[2] .

وموضع (Ia-di-hu-u) (Iadihu) ، وهو موضع (يديع) ، ويقع بين (فدك) و (خيبر) ، وقد ذكره (ياقوت الحموي) والهمداني[3] .

وأما (Iatribu) (ايتريبو) ، فهو موضع (يثرب) أي المدينة . وقد ذكر في جغرافيا (بطلميوس) ، فيكون نص (حرّان) اذن أقدم نص ذكر اسم هذا المكان .

و (يثرب) اذن آخر موضع استولى عليه البابليون في الحجـــاز وألحقوه بمملكتهم مملكة بابل . لسكوت النص عن ذكـــر مواضع أخرى تقع في جنوبها ولو كانوا قد تجاوزوها لذكروا اسم الأماكن التي استولوا عليها من دون شك .

وقد استطعنا بفضل هذا النص التأريخي الخطير من العثور على خبر (يثرب) في وثيقة تعود الى ما قبل الميلاد بكثير ، فعلمنا منه انها كانت مدينة عامـــرة قديمة ، وانها كانت أقدم بكثير مما تصوره أهل الأخبار عن نشوئها، ثم استطعنا

---

١ Anatolian Studies, 1958, P., 81.

٢ E. Combe, J. Savaget et G. Wiet, Repertoire Chronologique D'épigraphie Arabe, I, P. 3, No. 3.

٣ البلدان (١٠١٣/٤) ،
Anatolian Studies, 1958, Vol., VIII, P. 83, F. Wuestenfeld, Das Gebiet von Medina, S. 161, Arabien, S. 22.

أن نفهم ان العراقيين كانوا قد استولوا على منطقة مهمة من الحجـاز في ذلك العهد ، وان بعد المسافات بين الحجاز أو العربية الجنوبية لم يحل بين الآشوريين والبابليين من التوغل مسافات شاسعة في جزيرة العرب من طرفيها ومن اجتياز نجد أيضاً ، كما رأينا من وصولهم الى جنوب البحرين على الخليج والى سبأ والى يثرب في هذا العهد .

وقد تنقل (نبونيد) مـدة عشر سنوات في هذه المنطقـة التي فتحها من الحجاز ، في أرض يبلغ طولها حوالي (٢٥٠) ميلاً من (تيماء) الى (يثرب) وحوالي (١٠٠) ميل عرضاً ، يراجع أهلها وينزل بين قبائلها ، ويختلط بها ، ثم يعود الى عاصمته تيماء ، حيث يسير منها أمور الدولة . ويظهر أنه تطبع من خلال اقامته هذه المدة بين العرب ببعض طباعهم ، واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت في النص[١] :

ويرى بعض من عالج هذا النص ودرسه أن الملك البابلي نقل معـه خلقاً من العراق ، وأسكنهم في هـذه الأماكن الحجازية ، في المواضع المذكورة وكان يأتي اليهم من تيماء ، ليتفقد أحوالهم ، وليرى بنفسه سبل الدفاع عنهم وحمايتهم من غارات الأعداء . ويرون أيضاً أن في جملة ما جاء بهم الى هـذه الأماكن اليهود : يهود من بابل ، ويهود من فلسطين ، كما رأوا أن اليهود كانوا قد سكنوا هذه المواضع من قبل ، وربما كان ذلك منذ جاء اليهود الى فلسطين ، فأقاموا بها الى أيام النبي[٢] :

ويظهر أن الملك (نبونيد) كان قد وضع خطة للهيمنة على الأرضين ولالحاقها نهائياً ببابل ، وذلك باسكان أتباعه بها واجبارهم على الإقامة فيها . وقـد نفذ خطتـه هذه فعلاً ، ووزع من كان قد جاء بهم معه على هذه المواضع بأن انتزع الأملاك من أصحابها العرب وأعطاها للمستوطنين الجدد ، وحمـاهم بجيش وضعه في كل مكان لصدّ غارات الأعراب عليهم : ولتقوية معنوياتهم ولتثبيت قلوبهم في البقاء في هذه الأرضين الجديدة . صار يتفقد شؤونهم بين الحين والحين ويزورهم . ولكن الخطة لم تنجح ، لأن الظروف السياسية والعسكرية أكرهتـه

---

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 84.

٢ Anatolian Studies, 1958, Vol. VIII, PP. 86, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 146.

على العودة الى بابل ، فمات مشروعه مع عودته ، فلم تلحق تلك الأرضين ببابل، غير أن أكثر المستوطنين الجدد بقوا في هذا الأماكن ، وفي جملتهم اليهود الذين ازداد عددهم بمرور الأيام وكوّنوا مستعمرات يهوديـة وصلت (يثرب) في الجنوب .

لقد ترك فتح (نبونيد) لهذه الأرضين من الحجاز وبقاء بعض من نقلهم الى هذه المواضع فيها للاستيطان بها أثراً كبيراً من الناحية الثقافية والاقتصادية والحضارية، وهي نواح لم تدرس حتى الآن ، ولم يهتم بها أحد . ولكن وجود ألفاظ عراقية قديمة في لغة أهل (يثرب) والمناطق الأخرى التي تقع الى الشمال منها، وخاصة في الزراعة ، يدل دلالة واضحة على أثر العراق في أهل هذه المواضع ، فقد يكون قسم منه من بقايا أثر أولئك العراقيين الذين نقلوا الى هذه الأماكن، وقد يكون قسم منه من مؤثرات أخرى وقعت قبل هذا الحادث . قد يكون في أيام (بخت نصر) أو قبله ، وقد يكون بعضه من مؤثرات حوادث وقعت بعد ذلك.

وفي نسخة (قران) الحاوية لبعض الإصحاحات من العهد القديم ، وقد عثر عليها في نفس الوقت الذي عثر فيه على نص (حرّان) — أخبار قد تساعدنا في توضيح أسباب سوق (نبونيد) لليهود وأخذهم معه ، وإرسائهم بهذه الأرضين الجديدة من أعالي الحجاز ، إرساءً أقرهم فيها وأبقاهم حتى جاء الإسلام فأبعدهم عن الحجاز[١] .

اننا لا نملك نصوصاً بابلية عن مدى بلوغ سلطان البابليين السياسي في جزيرة العرب وعن صلاتهم بالقبائل العربيـة ، لذلك انحصر علمنا بعلاقة بابل بالعرب في الأمور التي ذكرتها . وقد عثر على نص في مدينة (عانة) ، يثبت وجود صلات تجارية بين بابل والبلاد العربية كما يشير الى أثر بابل في الحياة العربية[٢] .

أما علاقات البابليين بأهل الخليج ، فلا نعرف من أمرها شيئاً ، فلم يرد في النصوص البابلية التي تتحدث عن هذه الحقبة شيء ما عن الفتوحات البابليـة في هذه الأرضين . وقد يعثر على شيء من الكتابات في المستقبل، تتحدث عن نوع

---

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 87.

٢ A. J. Jaussen-R. Savignac, Mission, No. 138, A. T. Olmstead History of the Persian Empire, P. 294.

الصلات التي كانت بين حكومة (بابل) وأهل الخليج في هذا العهد :

وكل ما نعرفه عن علاقة البابليين بالخليج ، ان البابليين كانوا قد ضمّوا جزيرة (دلمون) أي البحرين الى أملاكهم ، وعينوا عليها حاكماً بابلياً، وذلك بعد سنة (٦٠٠ ق. م.) بقليل .[١]

ومعارفنا بصلات العرب بالأخمينيين (Achaemenian) وبالبارثيين (الفرث) (Parthians) قليلة جداً . ويرى بعض المؤرخين أن العرب كانوا في أيام (الأخمينيين) قد تقدموا في زحفهم نحو الشمال،فدخلت قبائل منهم الى العراق، ووسعت مساحة الأرضين التي كان العرب قد استوطنوها سابقاً ، كما تقدموا في هذا العهد نحو الغرب ، فتوسعوا في بلاد الشأم وفي طور سيناء الى شواطىء نهر النيل ، حيث كانوا قد استوطنوها ، وقد قاموا بخدمات كبيرة نحو ملوك الفرس في زحفهم على مصر[٢] .

ولم يلاق العرب أية مقاومة كانت في أثناء حركاتهم وتنقلاتهم ودخولهم الأرضين التي كان الأخمينيون قد استولوا عليها ، ولكن وجدوا أنفسهم في حرية تامة ، لهم الحق في الذهاب الى أي مكان شاءوا ، وهذا مما مكنهم من الدخول الى أرضين جديدة والى توسيع هجرتهم في الأرضين التي كان الأخمينيون قد بسطوا سلطانهم عليها[٣] .

لقد ذكر (اكسنوفون) (Xenophon) العرب في جملة أتباع الملك (كيرش) (Cyrus) (Kyros) الثاني (٥٥٧ – ٥٢٩ ق.م.) (٥٥٩ – ٥٢٩ ق.م)، وذكر أن هذا الملك عيّن والياً عنه على (العربية) (Arabiai) (Arabioi) ويظهر من ورود لفظة (Arabiai) بعد (Kappadokia) أن المراد بها (الجزيرة)، أي (Mesopotamia) ، أو جزء منها . ويظهر من موضع آخر أن (العربية) هي المنطقة الواقعة في شرق (Araxes) أي (الخابور)[٤] .

وقد ورد في أخبار حملة (كيرش) على (بابل) أن جماعة من العرب

---

١ Belgrave, P. 56.

٢ Die Araber, I, S. 164.

٣ Die Araber, I, S. 171.

٤ ZDMG. 94, NF. 19, (1940), 202. f. Die Araber, I, S. 165, Xenophon, Anab. I, 5. I.

كانت تحارب معه [1] . وكانت تلك الجماعة من الأعراب الراكبين للجمال . وذلك في سنة (٥٣٩) قبل الميلاد [2] .

ويتبين من مراجعة الموارد اليونانية التي تعرضت لتأريخ وجغرافية العراق، أن اليونان أخذوا يطلقون لفظة (Arabioi) من هذا الوقت فما بعده بمعنى (العرب) و (عرب) ، أي علماً لقوم وشعب على نحو ما كانوا يطلقون من أسماء على الشعوب الأخرى . وقد ذكروهم في جملة شعوب الجزيرة، أي (Mesopotamia). وقد أخذوا ذلك من (الأيونيين) (Ionien) . وعلى هذا فسيكون مراد (اكسينوفون) وغيره من العربية الأرض التي غلب عليها العرب . ومعنى هذا توسع العرب في زحفهم وتقدمهم نحو الشمال وتغلبهم على أرضين جديدة كان سكانها من بني إرم وغيرهم ، وتعرب كثير من بني إرم وتكوين طبقة عربية مستعربة [3] .

ولما قام (قمبيز) الثاني (قمباسوس) (Cambyses) بغزو مصر سنة (٥٢٥ ق. م.) ، وطلب معونة العرب ، أمدّوه بالجمال ، وبالماء، وساعدوه مساعدة كبيرة لولاها لما تمكن من الوصول الى مصر . ويزعم (هيرودوتس) أن (فانس) (Phanes) ، الذي خان سيده فرعون مصر ، فهرب منه وذهب خلسة الى (قمبيز) وحثّه على فتح مصر ، أشار على الملك بأن يستعين بالعرب ليساعدوه في اجتياز الصحراء . وكان الملك يفكر في الصعوبات التي ستعترض جيوشه في قطع تلك الفيافي والقفار ، ومن أهمها قلة الماء . فلما اقتنع الملك بصواب رأي (فانس) وصدقه ، أرسل رسولاً الى ملك العرب ليتفاوض معه في هذا الأمر ، فوافق العرب على تقديم المساعدات فهيأوا قرباً كثيرة ملؤوها بالماء ، وحملوها على ظهور جمالهم حيث قدموها الى الفرس [4] .

ولم يشر (هيرودوتس) الى اسم الملك العربي الذي وافق على تموين الجيش الفارسي بما يحتاج اليه في حملته على مصر بالماء ، ولم يشر أيضاً الى الأرض التي

---

١ Die Araber, I, S. 171, Xenophon, Cyrup. 7, 5, 14.

٢ Xenophon, Kyrupadie, Vii, 4, 16, 5, 13, Grohmann, Arabien S. 171.

٣ Die Araber, I, S. 165.

٤ G. Rawlinson, The History of Herodotus, I, P. 211, 213, The Cambridge Ancient History, IV, P. 20, Herodotus 3, 4, 7, Die Araber, I, S. 167.

كان يحكمها . وقد يكون هذا الملك أحد ملوك النبط الذين كانوا يحكمون في أعالي الحجاز وفي الأقسام الجنوبية من الأردن وطور سيناء ، وقد يكون أحد كبار سادات القبائل العربية الكبيرة في طور سيناء ، حيث كان له سلطان واسع كبير على الأعراب الساكنين في هذه الأرضين .

وأشار (هيرودوتس) في معرض كلامه على تزويد العرب قمبيز بالماء ، الى وجود نهر عظيم في بلاد العرب ، دعاه : (كوريس) (قوريس) (Corys) ، زعم انه يصب في (البحر الأريتري) (البحر الأرتيري) (Erythraean Sea) أي البحر الأحمر ، قائلاً : ان هناك من يزعم ان ملك العرب عمل انبوباً من جلود الثيران والحيوانات الأخرى لنقل المياه من النهر الى صهاريج ، أمر بحفرها وعملها في الصحراء لخزن الماء فيها ، وان هناك ثلاثة خطوط من هذه الأنابيب تنقل الماء الى مسافة اثني عشر يوماً من النهر الى موضع هذه الصهاريج[1] .

ولا يعقل أن يكون في بلاد العرب نهر على الوصف الذي ذكره (هيرودوتس) في ذلك العهد . كما ان الأنابيب المذكورة الممتدة الى تلك المسافات المذكورة ، هي من مخيلات القصاص الذين أخذ منهم ذلك المؤرخ خبره . والظاهر ان الذين حدثوه عن ذلك النهر ، كانوا قد سمعوا أو شاهدوا السيول التي تصب في البحر الأحمر في مواسم الأمطار الشديدة ، فتصوروها أنهاراً عظيمة تجري طول السنة . أما الصهاريج ، فإنها معروفة في بلاد العرب ، ولا سيما شمال العربية الغربية ، تأتي اليها مياه الأمطار فتملؤها ، وتغطي فتحاتها ، فلا يعرف مواضعها الا أصحابها ، فاذا داهمهم عدو ، سدوا منافذها ، فلا يصل الى مائها أحد . والظاهر ان الذين أمدوا الفرس بالماء ، كانوا يأخذونه من الصهاريج المنتشرة في مختلف الأماكن ، ومن هنا ظهرت أسطورة نقل المياه اليها من ذلك النهر في ثلاثة خطوط من الأنابيب المصنوعة من الجلود .

وذكر (هيرودوتس) في أثناء الكلام على (دارا) (داريوش) (داريوس) (Darius) [2] ، ان جميع سكان آسية الذين أذلهم (كيرش) (كورش) ثم

---

١ Herodotus, Bk. III, 9, Vol. I, P. 213.

٢ فهرست تأريخ الطبري عمل « دي غويه » ، (ص ١٧٥) ، حمزة (ص ٢٠) ، داريوس ، ابن الطبري (ص ٨٣) ، داريوش » ، الاخبار الطوال (ص ٣١)، « طبعة فلاديمير جرجاس » ، « ليدن ١٨٨٨ م » .

(قمبيز) بعده ، قد اعترفوا بسلطانه ، الا العرب . فهؤلاء لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس ، وانما كانوا قد تحالفوا معهم ، وأصبحوا حلفاء وأصدقاء لهم منذ مهدوا الطريق لقمبيز للوصول الى مصر . ولو كانت علاقاتهم غير ودية معهم ، لما تمكن الفرس من القيام بذلك الغزو . وأثنى هـذا المؤرخ على إباء العرب ، وعلى شهامتهم ، وعلى محافظتهم على الوعد والعهود[1] :

وذكر (هيرودوتس) أن الأرضين بين (Phoenicia) ، أي (فينيقية) ومدينة (Cadytis) ، كانت تابعة للسريان الفلسطينيين (Palaestine Syrian). أما الأرضون بين مدينة (Cadytis) وموضع (Jenysus) (Ienysos) ، فقد كانت تابعة للملوك العرب[2] ، ويريد بهم عدداً من سادات القبـائل ولا شك ، ويرى (جيمس رنل) (James Rennell) أن مدينة (Cadytis) هي القدس[3] ويرى آخرون أنها (غزة)[4] . وأما (Jenysus) ، فهي (خان يونس) في جنوب غربي (غزة) على رأي (جيمس رنل)[5] .

يتبين من قول (هيرودوتس) هذا أن العرب كانوا في أيام (قمبيز) أي قبل الميلاد بعدة قرون ، في هذه المنطقة من فلسطين . وانهم كانوا قد انتشروا في (طور سيناء) ، ونزلوا المناطق الشرقية من مصر ، حتى ضفـة نهر النيل ؛ ولهذا السبب أطلق عليها اسم (العربية) دلالة على توغل العرب فيها[6] ؛

لقد كانت (غزّة) مدينة عربية يحكمها ملوك عرب . وقد كانت في حكم ملك عربي في أيام (هيرودوتس) ، وكانت كل الأرضين الواقعة بين (غزة) وبين (Rhinokolura) تحت حكم العرب أيضاً وذلك منذ أيام الفلسطينيـين[7] . وقد كان يحكم (غزة) في أيـام (هيرود الكبير) ملك من أهل غزة[8] ؛ وقد كانت (غزة) قبيل الإسلام وعند ظهوره فرضة العرب ، يقصدها أهـل

---

١ Herodotus, I, P. 254, 3, 5.

٢ Herodotus, I, P. 212, Bk. III, IV-V.

٣ The Geographical System of Herodotus, London, 1800, P. 245, 683.

٤ Herodotus, I, P. 212.

٥ Rennel, P. 259.

٦ Die Araber, I, S. 167.

٧ Grohmann, Arabien, S. 23.

٨ Flavius Josephus, Antiquitates, XV, 7, 9.

العربية الغربية للبيع والشراء . ولا أستبعد أن تكون (غزة) فرضة عرب العربية الغربية في هذا الوقت أيضاً . وقد كان تجار العربية الشرقية يقصدونها أيضاً على الرغم من بعد المسافة واتساع الشقة ، فقد كان أهل (الجرعاء) (جرهـا) (Gerrha) ، يقصدونها ، حاملين معهم تجارة الهند وما وراء الهند ، فتأخذهم إبلهم عن طريق الواحات والآبار الى (دومة الجندل) ومنها الى جنوب فلسطين فغزة حيث يبيعون ما عندهم ويشترون ما يحتاجون اليه من حاصلات البحر المتوسط ثم يعودون بأموالهم الجديدة الى بلادهم لبيعها هناك ، أو لشحنها الى ما وراء الخليج من أرضين .

وفطن (دارا) لخطورة المشروع القديم ، مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر (النيل) فاحتفره[1] . وقد وضع أساس هذا المشروع (رامسيس الثاني) ، غير أنه امتلأ بعد ذلك بالرمال مراراً ، فاحتفره من جاء من بعده من الملوك[2] . وذكر (هيرودوتس) أن الفرعون (نخو) (Necos) كان قد أرسل بعثة دخلت الخليج العربي ، أي البحر الأحمر في اصطلاح اليونان عن طريق القناة التي حفرت بين النيل وهذا البحر ، وكانت هذه البعثة من الفينيقيين للبحث عن أعمدة (هرقل) (Hercules)[3] .

ويرى بعض الباحثين احتمال كون الملك الذي حكم (غزة) في هذا العهد ، ملك من ملوك اللحيانيين[4] :

واهتم (دارا) بأمر التجارة البحرية ، فأمر (Skylax) من اليونانيين بالذهاب الى البحر الأحمر والمحيط الهندي لكشف تلك المناطق وتكوين صلات تجارية معها ، فوصل هذا المكتشف اليوناني – على رواية هيرودوتس – الى الهند . وهو بذلك أول يوناني يبلغنا خبره حتى الآن ، يدخل البحر الأحمر ، ويطوف حول جزيرة العرب للوصول الى الهند[5] . ويفتخر (دارا) في كتابته التي أشار فيها الى مشروع القناة ، بأنه استطاع أن يسيّر السفن عبرها من مصر الى أرض فارس[6] . وقد كانت هذه الخطوة من أعظم الخطوات في تأريخ العالم،ولا شك .

١ Herodotus, I, P. 302, Bk. IV, 39.

٢ Herodotus, I, P. 302, Note. I.

٣ Herodotus, I, P. 302.

٤ Arabien S. 23.

٥ Montgomery, Arabia, P. 69.

٦ Montgomery, Arabia, P. 69, Breasted, History of Egypt, PP. 276, 584, R.W. Rogers, A History of Ancient Persia, PP. 119.

وقد أثرت تأثيراً خطيراً في التجارة العربية في البحار ، اذ فتحت البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي لمنافسين أقوياء ، صار بامكانهم شراء تجارة افريقية والهند وسواحل جزيرة العرب بأسعار رخيصة ، لبيعها في الأماكن التي تريدها والتي كانت تشتريها بأثمان عالية ، وبذلك أخذت من التجار العرب جزءاً كبيراً من أرباحهم ، وألحقت بتجارتهم مع البحر المتوسط ضرراً لا يستهان به :

ولما تحدث (دارا) عن الأرضين التي خضعت لحكمه ، أدخل (عربايه) (أربايه) (Arabaya)[1] في جملة تلك البلاد . وقد دعاها بـ (ماتو أربي) (Matu A-ra-bi) في النص البابلي[2] . ولم يقصد (دارا) بـ (عربايه) كل البلاد العربية ، أي جزيرة العرب وبادية الشأم ، وانما أراد بها بادية الشأم ، كما تحدثت ذلك في شرح المراد من (ماتو أربي) في الكتابات المسمارية . وقد كانت هذه البادية مثل جزيرة العرب موطناً للأعراب منذ وجد العرب .

وقد ذكر (هيرودوتس) ان بلاد العرب كانت تقدم جزية سنوية من الطيب الى (دارا)[3] ، الا انه لم يحدد مكان البلاد العربية ، ولم يشر الى العرب الذين دفعوا هذه الجزية . ولما كانت هذه الجزية طيباً ، فانها تحملنا على التفكير في أن العرب الذين دفعوها كانوا من رجال القوافل المتاجرة التي تأتي بتجارة العربية الجنوبية لبيعها في بلاد الشأم ومصر ، وكان الطيب والبخور من أهم المواد الرائجة في أسواق تلك البلاد . وهذه الجزية لم تكن بالمعنى السياسي المفهوم الذي يدل على خضوع العرب للفرس ، وانما كانت جعالة سنوية تدفع للسلطات الحاكمة على تلك الأسواق مقابل السماح لها بالاتجار ، أو ان (هيرودوتس) عنى ببلاد العرب الأرضين التي كان يسكنها العرب ودخلت تحت حكم الفرس ، وعنى بالعرب الذين دفعوها بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في مصر أو طور سيناء

---

١ The Sculptures and Inscription of Darius the Great, London, 1907, Col. 1, 15, P. XIIII, 4.

٢ « ماتواربي » في النص البابلي ، Col. I, 5, Sculptures, P. XIVIII, The Babylonion Version, 5, 161.

٣ Inscription of Darius on the Rock at Behiston, Translated, by Sir H. Rawlinson, London, 1873, P. III, Herodotus, 3, 91, 97.

أو بادية الشأم .

ويلاحظ ان (هيرودوتس) كان قد ذكر ، كما بينت قبل قليل، ان العرب لم يخضعوا للفرس في ايام كورش ولا في ايام قمبيز ، وانما كانوا حلفاء للفرس. فيظهر من كلام (هيرودوتس) الأخير ان العرب الذين خضعوا للفرس ولدارا، هم من أعراب بادية الشأم، ومن كانت منازلهم وديارهم في فلسطين وفي طور سيناء[1].

ويرى بعض المؤرخين ان (العربية) التي خضعت لحكم (دارا) لم تكن جزيرة العرب ، وانما منطقة الجزيرة الواقعة بين (بابل) وآشور[2] ، مثل منطقة (سنجار) (Singara) و (الحضر) ، وكان العرب قد توغلوا فيها[3] .

وقد ورد في خبر للمؤرخ (اكسينوفون) (Xenophon) وفي كتابة لـ (كيرش الثاني) (Kyros II) (Kyrush II) ، ما يفيد ان العرب كانوا قد خضعوا لحكم الأخمينيين . فورد في كتابة (كيرش) مثلاً : « ملوك الأرضين الغربية الذين يقطنون في الخيام » ، وذلك في جملة من اعترف بسلطان الملك عليهم . غير ان هذه الإشارات لا تفيد ان العرب كانوا قد خضعوا لهم مدة طويلة ، كما انها لا تدل على خضوع حقيقي لهم ، ولا سيما وقد ذكرنا ان (هيرودوتس) قد صرح ان العرب لم يخضعوا لحكم الفرس[4] .

وأشار (هيرودوتس) الى وجود فرقة عسكرية من العرب في الجيوش الفارسية التي كانت بمصر ، كان على رأسها قائد فارسي دعاه (ارسامس) (Arsames) ، وقال انه أحد أولاد (دارا)[5] . ويظهر ان هؤلاء الجنود هم من عرب مصر ، أي من العرب القاطنين هناك ، ولعلهم من سكان الأرضين المحصورة بين النيل والبحر الأحمر[6] . وقد كان العرب ينزلون هذه المنطقة والمنطقة شرقي النيل وجنوب البحر المتوسط والمتصلة بطور سيناء منذ القديم . فالعرب كانوا من قدماء سكان مصر ، لا كما يتصور بعضهم من انهم دخلوا مصر في

---

١ Die Araber I, S. 167. ff.

٢ Mesopotamien, In: RE. 15, (1931), 1131, F. H. Weissbach, Die Keilschriften der Achaimeniden (1911), S. 82. f. R.G. Kent, Old Persian, (1953), 136.

٣ Die Araber, I, S. 165.

٤ Die Araber, I, S. 171.

٥ The Cambridge Ancient History, Vol. IV, P. 190.

٦ Herodotus, II, P. 148, Note. I.

الفتح ، وانهم لذلك غرباء لا صلة هناك بينهم وبين المصريين قبـــل الإسلام : والمعروف ان (الهكسوس) الذين حكموا مصر كانوا من العرب في رأي كثير من العلماء ، بل في نظر قدماء المصريين ، كما حكى ذلك الراهب المصري المؤرخ (مانيتو) (Manetho) في كتابه المؤلف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد[١].

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان (هيرودوتس) قصد بـ (العرب) النبط[٢] ، غير ان بعضاً آخر يخالف هذا الرأي ويعترض عليه ، فيرى ان النبط لم يظهروا ظهوراً بيناً الا في أواخر ايام الأخمينيين ، وكان ظهورهم في (بطرا) (Petra) وما حولها . أما مملكتهم فلم تقم الا في القرن الثاني قبل الميلاد . ولهذا فإن العرب الذين قصدهم المؤرخ اليوناني ، هم عرب آخرون ، وان الأرض التي أرادها ذلك المؤرخ هي : طور سيناء حتى شواطىء نهر النيل[٣] .

ويظهر من الإشارات الواردة في التوراة ، أن عرب الضواحي ، كانوا يقيمون في مستوطنات ، عرفت بـ (حاصير) (حازير) (حاصور) (حصور) (Haser) في العبرانية . ومعناها : (محاط) . وقد كانوا أشباه بدو في الواقع : أناخوا في هذه المواضع واستقروا بها وامتهنوا الرعي[٤] .

وكان الجنود العرب يلبسون كما يقول (هيرودوتس) نوعاً من الثياب يسمى (زيرا) (Zeira) ، وهي ثياب طويلة تشد عليها الحُزُم ، ويحمل مرتدوها على أكتافهم اليمنى قسياً طوالاً . أمـــا في حاله عدم استعمالها ، فيعلقونها على ظهورهم[٥] . والظاهر أن هذه الكلمة هي تحريف (السِّيَرا) . و « السِّيَرا » : « ضرب من البرود،وقيل : ثوب مسير ، فيه خطوط تعمل من القز كالسيور . وقيل : برود يخالطها حرير . وقيل : هي ثياب اليمن »[٦] . ويلاحظ أن الثياب المخططة كانت ولا تزال شائعة بين شعوب الشرق الأدنى ، فلا تستبعد أن تكون كلمة (Zeira) تصحيفاً أو تحريفاً للسيراء ، وهي أقرب اليها من لفظة (إزار) أو مئزر على ما أرى .

---

١ W. G. Waddell, Manetho, P., 85, (The Loeb Classical Library), London, 1948.

٢ Olmstead, History of the Persian Empire, 1948, P. 88.

٣ Die Araber, I, 170, 284, 290.

٤ Die Araber, I, S. 170.

٥ Herodotus, II, P. 147.

٦ اللسان (٦/٥٧) ، ديوان قيس بن الخطيم (ص ٦) .

وقد ألف الفرس – بالاضافة الى الجنود العرب المشاة – كتائب عربيـة من الهجانة ، تقاتل على الإبل ، يلبسون ملابس المشاة ، ويحملون أسلحتهم . يقول (هيرودوتس) : إنهم كانوا يوضعون في مؤخرة الفرسان ، تجنبـاً لانزعاج الخيل إذا ما سارت مع الإبل[١] .

وقد استعملت دول أخرى كتائب عربية من الهجانة في جملة القوات المحاربة، للعمل في البوادي خاصة ، حيث يصعب على المشاة والفرسان اجتيازهـا وتعقيب الأعراب . ولا تزال كتائب الهجانة محافظة على حياتها بين القوات المحاربـة ، ولحماية الحدود الصحراوية حتى الآن .

وقد ألف العرب فرقة محاربة من الرماة بالسهام ومن المقاتلين ، اشتركت في جيش (احشويرش) (Xerxes) (٤٨٥ – ٤٦٥ ق.م.)[٢] :

وقد أدخل الملك (احشويرش) (العربية) (Arabia) في جملة البـلاد التي كانت قد خضعت لحكمه ، وذلك في نص من أيامه ، عثر عليه . وقـد ذكر (العربية) بعد موضع (Maka) وقبل موضع (Gandara)[٣] .

١ Herodotus, II, P. 152.
٢ Die Araber, I, S. 171.
٣ Pritchard, P. 316.

الفصل السادس عشر

العرب والعبرانيون

لم تذكر التوراة (العرب) في مواليد بني نوح : سام ، وحام ، ويافث[1] ؛ ولكنها ذكرت أسماء قبائل لا شك في أصلها العربي ، وفي سكناها في جزيرة العرب . وهذا يؤيد ما ذهبت اليه من أن كلمة (العرب) لم تكن تعني قومية خاصة ، ولم تكن تؤدي معنى العلمية ، وانما ترادف (الأعـراب) والبدو ، أي سكان البادية ، ولهذا لم تذكر في جـدول الأنساب ، وذكرت في مواضع أخرى من التوراة ، لها علاقة بالبادية والتبدي والأعرابية . والا لم تسكت عن ذكر العرب بين الشعوب المصنفة في الجدول المذكور ، وقد كان العرب يجاورون العبرانيين وكانوا على اتصال بهم دائم ، فكان ينبغي ذكرهم في ذلك الجدول ، لو كانت هذه التسمية تعني العلمية في الأصل،وتعني جميع سكان جزيرة العرب من حضر وبدو . أما وهي لم تكن تعني الا قسماً من العرب ، وهم الأعراب أي حالة خاصة من الحالات الاجتماعية، فلذلك لم تذكر ، ومن ذكر في الجدول كلهم حضر مقيمون يعرفون بأسمائهم ، وهم معروفون ، أو قبائل أعرابية عرف العبرانيون أسماءها فذكروها ، فمن طبع العبرانيين اطلاق لفظة (العرب) على الأعراب الذين لا يعرفون أسماءهم وعلى البدو عامة دون تخصيص .

والبدو هم طبقة عاشت عيشة خاصة ، ولم تكن قبيلـة واحدة أو قبائل معينة

---

١ التكوين : الاصحاح العاشر ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول

محدودة يمكن حصرها وارجاعها الى نسب واحد ، على نحو ما نفهم من كنعانيين وفينيقيين ، ثم ان الأعراب لم يكونوا ينتسبون الى جدّ واحد ولا الى أب معين ، لذلك لم تدخلهم التوراة في عداد الشعوب .

وقد ذهبت جماعة من المستشرقين الى ان العبرانيين هم قوم أصلهم من جزيرة العرب ، هاجروا منها وارتحلوا عنها على طريقة الأعراب والقبائل المعروفة نحو الشمال . وجزيرة العرب لذلك هي الوطن الأم الذي ولد فيه العبرانيون . ودليلهم على ذلك هو الشبه الكبير بين حياة العبرانيين وحياة الأعراب ، وان ما ورد في التوراة وفي القصص الإسرائيلي عن حياة العبرانيين ، ينطبق على طريقة الحيـاة عند العرب أيضاً ، ثم ان أصول الديانة العبرانية القديمة وأسسها ترجع الى أصول عربية قديمة . أضف الى ذلك ان العرب والإسرائيليين ساميون ، وجزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، فالعبرانيون على رأيهم هم من جزيرة العرب ، وهم جماعة من العرب اذن ان صحت هذه التسمية ، بطرت على أمها وعاقتها وهربت منها الى الشمال[1] .

وإذا جارينا التوراة في قولها بالأنساب ، نرى أن العرب والعبرانيين هم على رأيها من أصل واحد ، هو سام بن نوح ، ونرى أيضاً أنها تعترف ضمناً بقدم (اليقطانيين) ، أي القحطانيين على الإسرائيليين . فاليقطانيـون هم أبناء يقطان ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام[2] . وعلى ذلك فهم أقدم عهداً من بني اسرائيل ، وأعرق حضارة ومدنية منهم ، ولا سيما إذا ما عرفنا أن كلمة (عبري) على رأي كثير من العلماء تعني التحول والتنقل ، أي البداوة[3] ، أي أنهم كانوا بدواً أعراباً يتنقلون في البادية قبل مجيئهم الى فلسطين واستقرارهم بها وتحضرهم ، على حين كان القحطانيون متحضرين مستقرين أصحاب مدن وحضارة . كذلك جعلت التوراة الفرع العربي الآخر الذي وضعته في قائمة أبنـاء (كورش) أقدم عهداً من الاسرائيليين[4] .

---

١ Montgomery, Arabia, Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I. S. 241.
وسيكـــون رمـزه : Handbuch .

٢ التكوين الاصحاح العاشر ، الاية ٢٠ وما بعدها .

٣ اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (ص ٧٧ فما بعدها) .

٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٦ وما بعدها .

لقد كان العرب، بدواً وحضراً على اتصال بالعبرانيين ، فأينما عاش العبرانيون عاشوا مع العرب . ولعل هذا الاتصال هو الذي حمل نسابيهم على عدّ العرب ذوي قربى لليهود ، ومن ذوي رحمهم . وكان العرب حتى في أيام تكوين العبرانيين حكومة في فلسطين يؤثرون تأثيراً خطيراً في الوضع السياسي هنـاك . وقد كانوا يقطنون بكثرة في الأقسام الشرقية والجنوبية من فلسطين وفي طور سيناء وغزة [1] . بل وكانوا يقطنون في القدس كذلك .

ومن علماء التوراة من يرى أن (أيوب) ، صاحب السفر المسمى باسمه ، أي (سفر أيوب) وهو من أسفار التوراة ، هو رجل عربي ، إذ كانت كـل الدلائل الواردة في سفره تدل على أنه من العرب ، فقد كان من أرض (عوص) (Uz) . و (عوص) وإن اختلف العلماء في مكانها ، فالراجح عندهم أنهـا في بلاد العرب في (نجد) ، أو في بلاد الشام في (حوران) ، أو في (اللجاة) ، أو على حدود (ادوم) (Idumaea) ، أو في العربية الغربية في شمال غربي (المدينة) . ويرى بعضهم أنه كان يسكن في شرق فلسطين أو في جنـوب شرقيها ، أي في جزيرة العرب ، أو في بادية الشام [2] .

وسبب هذا الخلاف ، هو أن التوراة لم تحدد مكـان أرض (عوص) ، فبينما نرى أن سفر (أيوب) يتحدث عن هجوم (أهل سبأ) على ملك (أيوب) واستياق بقر كانت له تحرث الأرض وأتن ترعى [3] ، مما يشعر أن أرض (أيوب) التي هي (عوص) ، كانت على مقربة من السبئيين . نرى هذا السفر يذكر بعد آية واحدة هجوم ثلاث فرق من الكلدانيين على ابل (أيوب) ، مما يجعلنا نتصور أن أرض (عوص) كانت على مقربة من الكلدانيين ، أي في البادية القريبة من الفرات [4] . والرأي عندي أن (أيوب) كان رجلاً غنياً يملك ابلاً وبقراً وأتناً وأملاكاً ، وربما كان سيد قبيلة ، وله رعاة يتنقلون بماشيته في بادية الشام ما بين العراق وفلسطين وأعالي الحجاز ، فأغار (أهل سبأ) على بقر له كانت تحرث أرضه وعلى أتن كانت ترعى في أرضه، وأخذوها من رعاته وحرّاسه.

---

١ Enc. Bibli. I, P. 272. ff.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٨٨/١) ، (١٢٦/٢) Hastings, P. 469, 956.

٣ ايوب ، السفر الاول ، الاية ١٤ فما بعدها

٤ ايوب ، السفر الاول ، الاية ١٧ Hastings, P. 469, 956.

وهؤلاء السبئيون ، هم من السبئيين النـازحين الى الشمال والساكنين في أعالي الحجاز وفي الأردن . فالغارة كانت في هذه المنطقة . أما غارة الكلدانيين فكانت في العراق على مقربة من أرض الكلدان ، وذلك لأن رعاة إبله كانوا قد تنقلوا الى هناك على عادة الأعراب حتى اليوم في التنقل بإبلهم من مكان الى مكان طلباً للماء والكلأ ، فاستولى الكلدانيون عليها وأخذوها ، ولا علاقة لهاتين الغارتين بموطن أيوب .

وقد ذكر في سفر (أيوب) أنه (كانت قنيته سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف من الإبل وخمس مئة فدان بقر وخمس مئة أتان . وله عبيد كثيرون جداً، وكان ذلك الرجل أعظم أبناء المشرق جميعاً)[١] . وتدل هذه الأرقام والأوصاف المذكورة لثروته أنه كان من أعاظم الأغنياء في أيامه ، وأنه كان من (أبنـاء الشرق) ، هي ترجمة لجملة (بني قيديم) (Bene Kedem) العبرانية،وليس في التوراة تحديد لمكان (بني قيديم) (بني قديم) ، ولا تعريف لهم، ولكن التسمية العبرانية هذه ، تشير الى أن المراد منها من كان يقيم في شرق العبرانيين ولا سيما في البادية الواقعة شرق فلسطين[٢] . فهم إذن في نظر العبرانيين،الساكنون في شرقهم. ولما كان أيوب من (بني قيديم) ، ومن أرض (عوص)،فيجب أن تكون أرض (عوص) في البادية في شرق فلسطين،أي في منازل (بني قديم) الممتدة الى العراق[٣]،وهي مواطن الأعراب. وقد عرف واشتهر بعض (بني قيديم) بالحكمة عند العبرانيين[٤] .

ويستدل من يقول بعروبة (أيوب) بالأثر العربي البارز على (سفر أيوب). ومن قدماء من قال بوجود أثر للعروبة في سفره ، العالم اليهودي (ابن عزرا) (بن عزرة) (Ibn Ezra) (Ben ezra) من رجال القرن الثاني عشر . وقـد تبعه في ذلك جماعة من الباحثين الذين وجدوا في الكلمات والتعابير والأسماء الواردة في ذلك السفر ما يشير الى وجود أثر عربي عليه ، حتى ذهب بعضهم الى أن

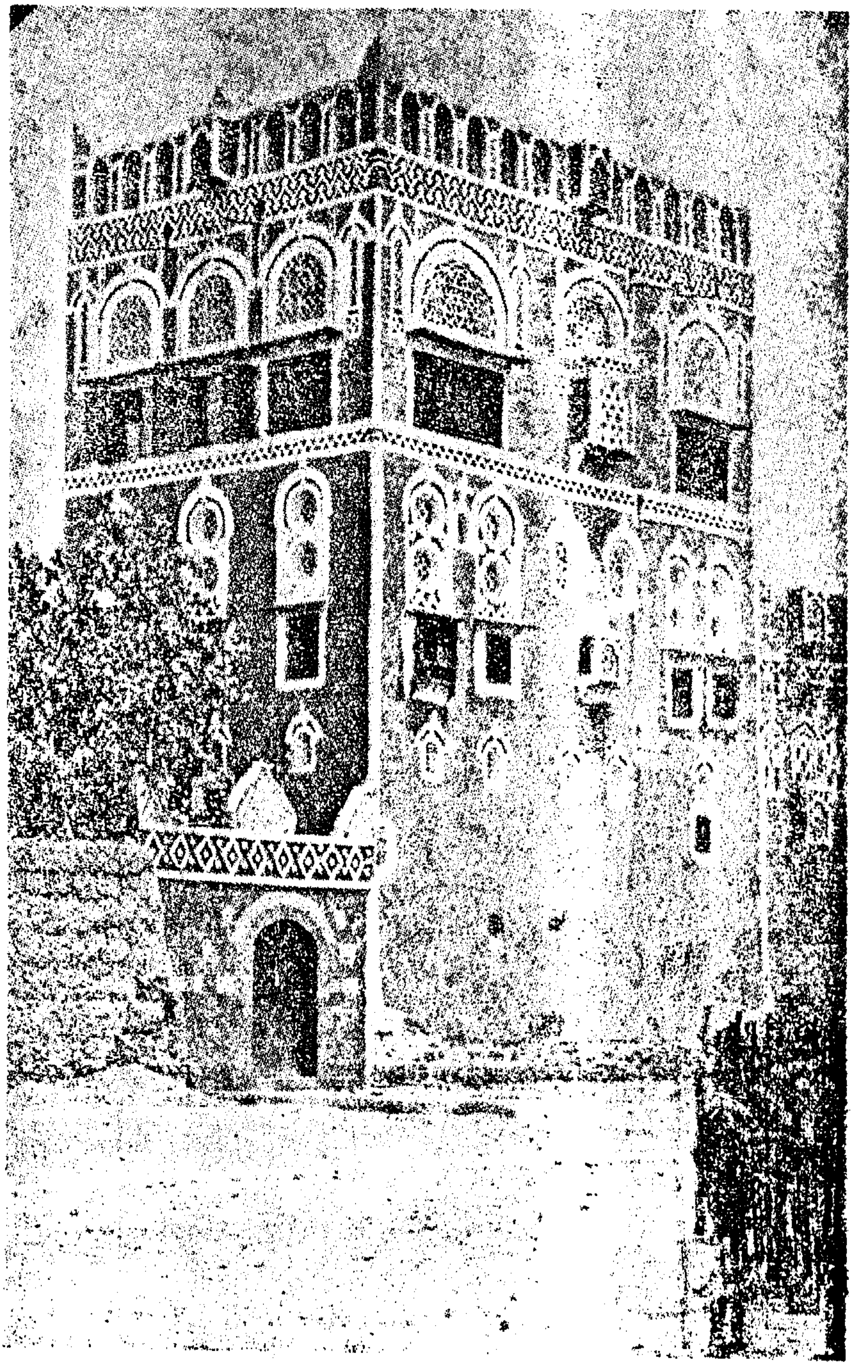
---

١ ايوب ، السفر الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٣

٢ Montgomery, P. 41, 46, 49, 71, 169.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٦١٧/١ فما بعدها) ،

٤ Hastings, P. 200,



دار من دور صنعاء ، ويرى عليها الأثر المعماري اليماني القديم

ذلك السفر هو ترجمة لأصل عربي مفقود[١] .

وفي أثناء حديث التوراة عن أيام (داوود) وملكه ، أشارت الى رجل كان من شجعانه وأبطاله الذين تباهى بهم وافتخر ، دعته (أبيل) العربي (Abiel)[٢] وكان من أهل (بيت عرابة) (بيت عربة) (Beth-Arabah) في تيه (يهودا)[٣] . ويدل لقبه هذا والموضع المذكور انه كان من العرب،وأشارت الى رجل آخر ، ذكرت انه كان على جمال (داوود) ، دعته بـ (أوبيل الإسماعيلي) (Obil)[٤]، فهو من العرب الإسماعيليين . ولا يستبعد أن يكون هذا الرجل من وجوه الأعراب، ولذلك أوكل اليه أمر إبله ، وهي حرفة من صميم عمل أبناء البادية .

وقد أشير في سفر (يوئيل) الى السبئيين ، فورد فيه : « ها أنا ذا أنهضتهم من الموضع الذي بعتموهم اليه ، وأرد عملكم على رؤوسكم ، وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا ليبيعوهم للسبئيين لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم »[٥] . وقد ورد هذا التهديد لأن الصوريين والصيدونيين وجميع دائرة فلسطين كانوا قد استولوا على فضة الهيكل في (أورشليم) وذهبه ونفائسه ، وباعوا (بني يهوذا) و (بني أورشليم) لبني (ياوان)[٦] أي اليونان[٧] . فورد هذا التهديد على لسان (يهوه) إلـه اسرائيل متوعداً أولئك الذين نهبوا الهيكل وأسروا (بني يهوذا) و (بني أورشليم) ، أي سكان القدس ، وباعوهم لليونان ، بمصير سيء ، وبانتقـــام الرب منهم ، وبقرب ورود يوم ، يبيع فيه (أبناء يهوذا) ، أي العبرانيين أبناء المذكورين الى السبئيين .

وتدل جملة « للسبئيين ، لأمة بعيدة » على ان السبئيـــين المذكورين كانوا يسكنون في منازل بعيدة عن العبرانيين . ويظهر انها قصدت السبئيين أهل اليمن، فهم بعيدون عن فلسطين . وكان تجار سبأ يأتون أسواق اليهود لشراء ما فيها من بضاعة بشرية لاستخدامهم في سبأ[٨] .

---

١ Montgomery P. 172, Foster, in Ameri. Journ. of Sem. Languages, October, 1932, PP. 31, Margoliouth, The Relations, P. 30.

٢ اخبار الايام الاول ، الاصحاح ١١ ، الاية ٣٢

٣ Hastings, P. 3.

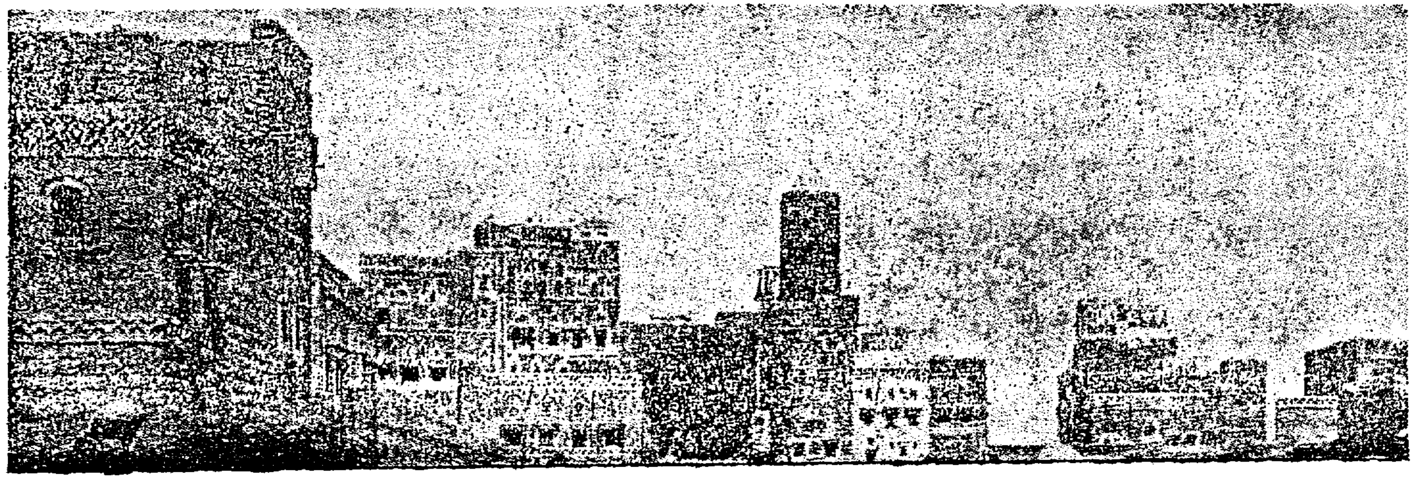
٤ اخبار الايام الاول ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٣٠

٥ يوئيل ، الاصحاح الثالث ، الاية ٧ فما بعدها

٦ يوئيل ، الاصحاح الثالث ، الاية ٥ وما بعدها

٧ Montgomery, P. 181.

٨ Margoliouth, The Relations, P. 50, Hartmann, Arabische Frage, S. 421.



سوق الحطب بصنعاء . وترى بيوت السكن وقد حافظت على طراز البناء القديم

وفي التوراة خبر زيارة ملكة (سبأ) لسليمان . وقصة هذه الزيارة ، وان دونت فيما بعد ، كتبها كتبة التوراة بعد عدة قرون ، الا انها تستند الى قصص قديم كان متداولاً ولا شك بين العبرانيين ، فدوّنه هؤلاء الكتاب .

وقد رأى بعض نقدة التوراة ان هذه القصة قد كتبها أولئك الكتبة لاثبات عظمة سليمان ، وسعة دولته ، وشهرة حكمته . غير ان هذا لم يبت به حتى الآن . ورأى آخرون ان هذه الملكة لم تكن ملكة (سبأ) في اليمن ، لعدم ورود أسماء ملكات في النصوص العربية الجنوبية ، بل كانت ملكة تحكم في العربية الشمالية ، تحكم جماعة من السبئيين الذين كانوا قد نزحوا الى هذه المناطق منذ عهد بعيد ، وكوّنوا مستوطنات سبئية في الأردن وفي أعالي الحجاز[1] .

وتعلل التوراة سبب زيارة ملكة سبأ لسليمان بقولها : « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب ، فأتت لتمتحنه بمسائل ، فأتت الى أورشليم بموكب عظيم جداً. بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة ، وأتت الى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها »[2] . فلما سألته ورأت « البيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي »[3]. وأعطت (سليمان) « مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان »[4] .

وجاء في سفر (الملوك الأول) حكاية عن الذهب الذي وصل الى سليمان : « وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ستمئة وست وستين وزنة ذهب ، ما عدا الذي ورد من عند التجار وتجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض »[5] . ولا تعني جملة « وجميع ملوك العرب » و « كل ملكي

---

١ Hastings, P. 843.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ١ فما بعدها ، وتقابل : سفر اخبار الايام الثاني ، الفصل التاسع ، الاية ١ فما بعدها من الترجمة الكاثوليكية .

٣ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ٤ فما بعدها .

٤ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ١٠ .

٥ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ١٠ ، ١٤ فما بعدها ، اخبار الايام الثاني الاصحاح التاسع ، الاية ١٣ فما بعدها .

ها عرب » في رأيي ونظري ملوك جزيرة العرب ، كما يفهم ذلك من ظاهر النص ، وانما تعني رؤساء أعراب كانوا يقيمون على مقربة من فلسطين ، وفي فلسطين نفسها ، دفعوا اليه هدايا وضرائب،لأنهم كانوا يتاجرون مع العبرانيين ، فقدموا اليه هدايا على قاعدة ذلك اليوم . وقد رأينا ان الآشوريين كتبوا مثل ذلك عن العرب وعن غيرهم في نصوصهم ، اذ لا يعقل خضوع كل ملوك جزيرة العرب لسليمان . فلم يكن ملكه قد جاوز حدود العقبة، كما نجد في التوراة، وقد ذكرنا ان لفظة (هاعرب) ، أي (العرب) انما كانت تعني الأعراب والبدو في العبرانية ، ولذلك فجملة « وكل ملوك العرب » تعني « وكل رؤساء الأعراب» ، وهم كثيرون . فقد كانوا قبائل وعشائر ، ولكل قبيلة وعشيرة سيد ورئيس . وقد كان منهم عدد كبير في فلسطين وفي طور سيناء .

ووجه (سليمان) أنظاره نحو البحر ، ليتجر مع البلاد الواقعة على البحار ، وليستورد منها ما يحتاج العبرانيون اليه ، فأنشأ أسطولاً تجارياً في (عصيون جابر) (Ezion Geber) على خليج العقبة بجانب (أيلة) (أيلوت) (Eloth) (ايلات) (Elath) ، من أرض (أدوم)[1] . وقد عرف خليج العقبة بـ (بحر سوف) ، (يم – سوف) (Yam-Soph) في العبرانية . ولما كان العبرانيون لا يعرفون البحر ، استعان سليمان بـ (حيرام) ملك (صور) في تسيير الاسطول وتدريب العبرانيين على ركوب البحر . فأمده بخبراء من صور ، تولوا قيادة السفن، يخدمهم رجال سليمان . فمخروا البحر حتى وصلوا الى (أوفير) ، وأخذوا من هناك ذهباً ، زنته أربع مئة وعشرون وزنة ، أتوا بها الى سليمان[2] .

ويظن ان (عصيون كيبر) (عصيون جيبر) (عصيون جابر) (Ezion Geber) كانت عند (عين الغديان) في قعر وادي العربة ، على رأي بعض الباحثين[3] ، أو (تل الخليفة) على رأي بعض آخر[4] . وقد عرفت بـ (Berenice) فيما بعد[5] ، وتقع الى الغرب من العقبة . وقد قامت بعثة أمريكية بحفريات علمية

---

١ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٦ .
٢ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٦ فما بعدها .
٣ قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) .
٤ N. Glueck, in BOASOOR. Nos. 71, 72, October, and December, 1938, No. 76, October, 1939, No. 80, October, 1940, J. Hornell, in Antiquity, Vol. XXI, June 1947 PP. 66, W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, 1963, P. 44, 127, 128.
٥ Hastings, P. 253.

بين ١٩٣٨ و ١٩٤٠ في هذا الموضع ، وظفرت – فيما عثرت عليه من الآثار– بأدوات مصنوعة من النحاس ومن الحديد . والظاهر ان سكان هذا الموضع كانوا يحصلون على النحاس من مناجمه الغنية في (طور سيناء) .

وفي جملة ما عثر عليه من آثار في (تل الخليفة) جرتان ، عليهما كتابات بأحرف المسند ، وقد قدر أن تأريخ صنعهما لا يقل عن القرن الثامن قبل الميلاد . وتدل أحرف المسند هذه على ان صانعيها كانوا يكتبون بهذا القلم ، وقد رأى بعض الباحثين ، أنها من صنع أهل مدين . واذا صح هذا الرأي فإنه يكون دليلاً على أن المدينيين كانوا يكتبون به . ويرى (ريكمنس) (G. Ryckmans) أن لهذه الكشوف صلة بالمعينيين الذين كانوا في العلا وتبوك[١] .

وترى طائفة من علماء التوراة أن (أوفير) التي اشتهرت بوفرة ذهبها ، والتي أرسل (سليمان) اليها سفناً مع سفن (حيرام) في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة[٢] ، هي أرض في بلاد العرب . ونظراً الى ورود اسمها بين (شبا) و (حويلة) في الإصحاح العاشر من التكوين[٣] ، ذهب بعض العلماء الى وقوعها في الأقسام الشرقية أو في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب[٤] . ورأى (كلاسر) أنها المنطقة الواقعة على ساحل خليج عمان والخليج العربي[٥] .

وذهب نفر آخر من علماء التوراة الى وقوع (أوفير) في إفريقية أو في الهند[٦] . ولكن الرأي الغالب أنها في العربية على ما ذكرت . وذلك ، لما ورد في التوراة من أن (أوفير) ابن من أبناء (يقطان) ، وقد ذكر بين (شبا)

---

١ G. Ryckmans, On some Problems of South Arabian Epigraphy, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, London, 1952, Rep. Epig. 4918 bis, The Illustrated London News, Vol. 195, No. 5233, 1939, P. 247, G. Ryckmans, Revue Biblique, 1939, P. 247-249, N. Glueck, The Excavations of Solomon's Seaport: Ezion-Geber, in Smithsonian Institution Annual Report for 1941, P. 479.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الاية ٢٧ وما بعدها ، الاصحاح العاشر ، الاية ١١ ، اخبار الايام الثاني ، الاصحاح التاسع الاية ١٠

٣ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٩

٤ قاموس الكتاب المقدس (١٧٨/١) Hastings, P. 669. Enc. Bibli. P. 3514, Simon Dubnow, Die Alteste Geschichte des Judischen Volkes, Judischer Verlag, Berlin, 1925, Bd. I, S. 123.

٥ Skizze, II, S. 353.

٦ Hastings, P. 669.

و (حويلة) ، ونظراً الى أن مواطن اليقطانيين هي ما بين (ميشا وأنت آت نحو سفار جبل المشرق)[1] . و (ميشا) وإن تباينت آراء العلماء في تعيين مكانه فمنهم من ذهب أنه (ميسيني) (ميسان) (Mesene) على رأس الخليج ، (خليج البصرة) ، أو (ماش) (ماشو) (Mashu) الأرض المذكورة في الكتابات الآشورية ، والتي تعني بادية الشام . أو أنه موضع (موزح) أو (موسح) في نجد ، او اسم قبيلة من قبائل نجد[2] . إلا أنك ترى من كل آرائهم انه اسم مكان في بلاد العرب ، او اسم قبيلة عربية ، وأن (سفار) وهي الحد الآخر من حدود منازل اليقطانيين هي (ظفار) (Zafar) ، عاصمة مملكة حضرموت القديمة على رأي علماء التوراة[3] . ولما كانت أسماء ابناء يقطان المذكورين ، والذين قد تحققنا من هويتهم كناية عن اسماء مواضع في جزيرة العرب ، وجب ان تكون (أوفير) في جزيرة العرب كذلك :

ومن الباحثين من يرى ان (أوفير) هي (عسير) ، ورأى آخرون انها ارض (مدين) وقد رجح اكثرهم كونها على سواحل جزيرة العرب الغربية او الجنوبية ، لأن الأماكن هي اقرب الى الوصف الوارد في التوراة من الأماكن الأخرى[4] :

وقد ذكر الهمداني في (معادن اليمامة) موضعاً سماه (الحفير) ، قال : « ومعدن الحفير بناحية عماية ، وهو معدن ذهب غزير »[5] . وصلة وجود الذهب فيه بغزارة ، تنطبق على هذا الموضع أحسن انطباق ، الا ان هذا الموضع بعيد عن البحر ، ولكن من يدري ؟ فلعل كتّاب التوراة لم يكونوا يعرفون مكان (أوفير) ، وانما سمعوا بذهبه ، الذي يتاجر به العرب الجنوبيون ، من الموانىء الساحلية ، فأرسل سليمان سفنه الى مواضع بيعه في سواحل جزيرة العرب لشرائه ، ومن هنا ظن كتّاب (العهد القديم) ان (أوفير) على ساحل البحر . و(الحفير)

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٦ فما بعدها

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢) Hastings, P. 606

٣ قاموس الكتاب المقدس (٥٥٨/١) Hastings, P. 836

٤ Sprenger, Die Alte Geography Arabiens, S. 53. ff. Moritz, Arabien, S. 7, Burton, The Gold Mines of Midian, Skizze, II S. 347, Montgomery, Arabia, P. 38.

٥ صفة (ص ١٥٣ ، سطر ٢٤) .

كما ترى اسم قريب جداً من (أوفير) .

وقد ضرب المثل بكثرة تبر (أوفير) ، وبحسن سبائك ذهبها ، فورد في سفر (أيوب) على لسان (اليفاز التيماني) مخاطباً (أيوب) ، داعياً اياه الى توجيه وجهه لله : « فانك إن تبت الى القدير ، يعاد عمرانك وتنفي الإثم عن أخبيتك ، فتجعل التبر مكان التراب وسبائك أوفير مكان حصى الأودية »[1] :

وأنشأ سليمان خطاً بحرياً آخر ينتهي بأرض اشتهرت بالذهب كذلك ، سميت في التوراة (ترشيش) . وقد استعان سليمان بمدربين وملاحين من (صور) ، أمدّه بهم (حيرام) ملك (صور) . وكان الأسطول مختلطاً اسرائيلياً وحيرامياً، يذهب مرة في كل ثلاث سنوات . وأما البضاعة التي يعود بها من (ترشيش) فهي ذهب وفضة وعاج وقردة وطواويس[2] . ولم يتفق العلماء حتى الآن على تعيين موضع (ترشيش) ، فرأى بعضهم انه مكان في افريقية ، ورأى بعض آخر انه في مكان ما من سواحل آسية الجنوبية ، ورأى آخرون انه في اسبانية[3] : وكانت سفن صور تتاجر مع ترشيش وتربح من هذه التجارة ربحاً فاحشاً ، كما جاء ذلك في التوراة .

وعلى أثر وفاة (سليمان) في حوالي سنة (٩٣٧ ق. م.) انشطرت حكومته شطرين : إسرائيل (Israel) و (يهوذا) (Judah) . وقد أثر هذا الانقسام على أعمال العبرانيين التجارية البحرية ، لذلك لا نسمع لها ذكراً في التوراة الى أيام (يهوشافاط) (Jehoshaphat) ابن الملك (آسا) (Asa) ، الذي حكم فيما بين (٨٧٦) و (٨٥١) ق. م. تقريباً[4] فتحدثنا التوراة أنه اتفق مع (أخزيا) ملك (إسرائيل) على بناء أسطول جديد في (عصيون جابر) ليسير الى (ترشيش) ، غير أن مأربهما لم يتحقق ، إذ تكسرت السفن ، ولم تستطع السير الى (ترشيش)[5] . ويظهر أنه أراد إحياء فكرة (سليمان) القديمة في الاتصال بالبحر الأحمر والمحيط الهندي وبإفريقية وبسواحل جزيرة العرب الجنوبية وبسواحل آسية ، إلا أنه لم ينجح[6] . والظاهر أن العبرانيين لم يكونوا قد اتقنوا

---

١ ايوب ، السفر الثاني والعشرون ، الاية ٢٣ فما بعدها .

٢ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ فما بعدها

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٨٤/١ وما بعدها) Hastings, P. 895

٤ Hastings, P. 400.

٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح العشرون ، الاية ٣٥ فما بعدها

٦ Dubnow, I, S. 165.

بناء السفن والسير بها في البحار ، فأخفقوا ، وأن نجاح (سليمان) في الوصول الى (أوفير) و (ترشيش) مَردّه الى خبرة ومهارة البحـارة الصوريين الفينيقيين .

ويظهر من سفر (الملوك الأول) ان (يهوشافاط) قام بنفسه منفرداً ببناء السفن لإرسالها الى (ترشيش) ، غير انها تكسرت في (عصيون جابر) فعرض (أخزيا بن آخاب) ملك اسرائيل عليه أن يبنيا أسطولاً مشتركاً ، يشترك فيه ملاحون من اسرائيل وملاحون من يهوذا ، الا انه رفض ذلك[1] . ولم نعد نسمع بمحاولات أخرى للعبرانيين ترمي الى اعادة فكرة (سليمان) في بناء سفن بحرية للاتجار بها مع البلاد الواقعة على البحر بمسافات بعيدة عن اسرائيل .

نعم ، لقد كوّن (المكابيون) أسطولاً تجارياً لهم جعلوا مقره في (يافا) (Jappa)[2] ولكنهم لم يتمكنوا من بناء أسطول لهم يخترق مياه البحر الأحمر ، ليزاحم العرب أو غيرهم فيه . فلم يكن الإسرائيليون من عشاق البحر على شاكلة الفينيقيين أو العرب الجنوبيين أو سكان العروض . ولولا المساعـدة الثمينة التي قدمها ملك صور لسليمان ، لما استطاع العبرانيون أن يصلوا الى (ترشيش) أو (أوفير) .

وقد انصرف (يهوشافاط) على ما يظهر الى اقرار الأمن في حدود مملكته ، وتحسين علاقاته مع (أخاب) ملك اسرائيل ، ومع جيران (يهوذا) ، حتى تمكن من عقد محالفات معهـم ، أدت الى الاستقرار والهدوء ، فـلم يحاربوا (يهوشافاط)[3] ، وهذا مما حمل علماء يهود على التجول في مدن (يهوذا) لتعليم الناس أحكام دينهم . وحمل اليه (الفلسطينيون) هدايا وجزىً دفعوها فضة ، كما جاء في التوراة[4] ، ودفع اليه (العرب) كما تقول التوراة أيضاً (٧٧٠٠) كبش و (٧٧٠٠) تيس[5] . ويظهـر ان (العـرب) المذكورين ، هم من الأعراب النازلين في (يهوذا) ومن الأعراب الذين يفدون عليها للاتجار : والا

---

١ الملوك الاول ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية ٣٨ فما بعدها
Montgomery, Arabia, P. 179.

٢ Hastings, P. 849.

٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثامن عشر ، الاية الاولى فما بعدها .

٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ١١

٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ١١

فلمَ يدفع الأعراب الساكنون في خارج (يهوذا) جزى أو هدايا لملكها ، وليس له سلطان عليهم ؟ وقد ترجمت لفظة (عربايم) العبرانية بلفظة (عربان) في ترجمة (جمعية التوراة الأمريكانية) للتوراة الى العربية. أما (الترجمة الكاثوليكية) فقد ترجمتها بلفظة (العرب) . أما المراد من النص العبراني ، فهو(الأعراب) لأن لفظة (عرب) ، لم تكن تعني يومئذ الا هذا المعنى .

وتولى (يهورام) (Jehoram) (٨٥١ — ٨٤٣ ق.م.) ، الحكم على مملكة (يهوذا) بعد (يهوشافاط)[١] . وتذكر التوراة أنه قتل جميع اخوته وبعض رؤساء إسرائيل بالسيف[٢] . وأنه أغضب إلـه (إسرائيل) بأفعاله المنكرة، لذلك (أهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين، فصعدوا الى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضاً . ولم يبق له ابن إلاّ يهوحاز أصغر منه)[٣] . وتذكر بعد ذلك أن اللهَ ابتلاه بمرض في أمعائه وبأمراض رديئة (فذهب غير مأسوف عليه، ودفنوه في مدينة داوود ، ولكن ليس في قبور الملوك)[٤] .

ويظهر أن هجوم العرب على (أورشليم) كان هجوماً شديداً عنيفاً كاسحاً، بدليل ما جاء في الآية التي أشرت اليها في التوراة،وفي الآية الأولى من (الإصحاح التالي) للإصحاح المذكور : (وملك سكان أورشليم أخزيا ابنه الأصغر عوضاً عنه ، لأن جميع الأولين قتلهم الغزاة الذين جاءوا مع العرب الى المحلة)[٥] . وفي هذا الهجوم الماحق دلالة على ضعف مملكة (يهوذا) وتضعضع الأمن فيها وعلى التناحر الشديد الذي كان بين السكان حتى أننا لنجد الشعب فرقاً غير متفقة، وأكثرها تخاصم الحكام .

ويرى (مرغيلوث) (Margoliouth) أن المراد بالعرب الذين بجوار الكوشيين العرب الجنوبيون ، أي سكان اليمن . وذلك لأنهم في جوار (الكوشيين) أي

---

١ (ملك ٨ سنين من سنة ٨٩٢ — ٨٨٥ ق . م) ، قاموس الكتاب المقدس (٥٣٤/٢) . Hastings, P. 400.
٢ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ٤ فما بعدها
٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ١٦ فما بعدها
٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون الاية ١٩ فما بعدها
٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية ١

الحاميين ، السودان ، وهم سكان إفريقية ، لا يفصلهم عنهم إلا مضيق (باب المندب) . ويرى أيضاً أن ذلك الهجوم كان بحراً ، مستدلاً على رأيه هذا بأن العرب المذكورين سرعان ما تراجعوا الى منازلهم بغنائمهم وبما حصلوا عليه من أموال ، دون أن يكلفوا أنفسهم البقاء في (أورشليم) والاستيلاء على (يهوذا) ، وبمساعدة الفلسطينيين للعرب في هجومهم على يهوذا ، وقد كان الفلسطينيون يسكنون سواحل فلسطين[1] .

أما (موسل) ، فيرى أن (العرب الذين بجانب الكوشيين) ، هم العرب النازلون في الأقسام الغربية من (طور سيناء) وعلى حدود مصر ، وفي الأقسام الجنوبية من (طور سيناء) وعلى مقربة من (أيلة) . وقد كانت (طور سيناء) موطناً قديماً للعرب ، وقد أشير في الكتابات المسمارية الى ملوك عرب ، حكموا هذه الأرضين[2] .

ويحدثنا الاصحاح السادس والعشرون من (أخبار الأيام الثاني) أن (عزيا) (Uzziah) ملك (يهوذا) (٧٧٩ — ٧٤٠ ق. م.)[3] . كان مستقيماً في أول أمره مطيعاً لأوامر الكهان ، لذلك وفقه الله ، فخرج (وحارب الفلسطينيين وهدم سورجت وسور يبنة وسور أشدود ، وبنى مدناً في أرض أشدود والفلسطينيين وساعده الله على الفلسطينيين وعلى العرب الساكنين في جوربعل والمعونيين[4] . ويفهم من هذه الآيات أن الفلسطينيين والعرب كانوا جبهة واحدة متحدة ضد مملكة (يهوذا) . وقد كبدوها خسائر فادحة كما رأينا . فلما تولى هذا الملك ، أراد رمي صفوف أهل مملكة (يهوذا) ووقاية مملكته ، وقد نال تأييد شعبه له ، فحارب الفلسطينيين وتغلب عليهم ، وحارب العرب الساكنين في (جوربعل) والمعونيين ، وهدم أسوار المدن التي عرفت بعدائها لـ (يهوذا) ، وبنى مدناً جديدة في (أشدود) وفي الأرضين الساحلية المعروفة بفلسطين :

---

١ Margoliouth, The Relations, P. 52.

٢ Hegaz, P. 274.

٣ Hastings, P. 401, 957, Enc. Bibli. P. 5240, Hegaz, P. 244.
ويدعى ايضا «عزريا» وهو ابن «أمصيا» ، (٨٠٨ — ٧٥٦ ق.م.) (٧٨٢ — ٧٣٧ ق.م.) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٠).

٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السادس والعشرون ، الاية ٦ وما بعدها

ومدينة (جت) ، هي مدينة قديمة في تخوم (دان) ، وبها ولد (جليات) (كلياث) (Goliath) جبّار الفلسطينيين كما أنهـا إحدى مدنهم الخمس[١] : وكانت في أيام داوود في يد الفلسطينيين ، وكان عليها ملك اسمه (أخيش) (Achish)[٢] ، ولم يعرف مكانهـا بالضبط . وأما (يبنة) ، وتعرف أيضاً بـ (يبنئيل) ، فإنها من مدن الفلسطينيين كذلك . وهي (بينة) في الزمان الحاضر ، وتقع على بعد (١٢) ميلاً جنوب (يافا) و (٣) أميال شرقي البحر[٣] ، أو (يمنة) على مسافة ٧ أميال جنوبي (طبرية)[٤] .

ولم يتمكن علماء التوراة من تثبيت موضع (جوربعل) . وتعني لفظة (جور) (مسكن) ، فيكون تفسير (جوربعل) (مسكن بعل)[٥] . ويظهر مـن ذكر الفلسطينيين والعرب الساكنين بهذا المكان والمعونيين بعضهم مع بعض أن أرضيهم كانت قريبة بعضها من بعض ، وأنهم كانوا يداً واحدة على (يهوذا) . ويرى (موسل) أن الزاوية الشمالية الغربية من أرض (حسمى) هي (جوربعـل) . وتقع في رأيه على مقربة من جبل (إرم) الذي يعرف اليوم باسم (رم)، وهو (Aramaua) في (جغرافية بطلميوس) ، ويكون حدّاً من الحدود الشمالية للحجاز[٦] . وذهب بعض الباحثين الى أن (جوربعل) تعني (صخرة بعل)، في بعض النصوص الإغريقية ، ولهذا فسروها بـ (بطرا) . ولذلك قالوا إن العرب المذكورين كانوا العرب الساكنين عند (بطرا) (Petra)[٧] .

وأما (المعونيون) ، فان آراء علماء التوراة متباينة كذلك في تعيين هويتهم[٨] : وقد ذهب بعضهم الى انهم جماعة من (المعينيين) ، الذين كانوا قد استقروا

---

١ يشوع : الاصحاح الحادي عشر ، الاية ٢٢ ، الاصحاح الثالث عشر ، الايـة ٣ ، صموئيل الاول ، الاصحاح السادس ، الاية ١٧ ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٣١٤/١ وما بعدها) .

٢ صموئيل الاول ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ١٠ وما بعدها ، الاصحاح السابع والعشرون ، الاية ١ وما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٤٩٤/٢) .

٤ Enc. Bibli. P. 2303, Hastings, P. 419.

٥ قاموس الكتاب المقدس (٣٤٤/١) Enc. Bibli. P. 1920, Hastings, P. 322.

٦ Hegaz, P. 274.

٧ Montgomery, Arabia, P. 30.

٨ قاموس الكتاب المقدس (٣٦٢/٢)

في (ديدان) ، وكوّنوا مملكة معينية شمالية[1] . وذهب بعض آخر الى انهم سكان (معين مصران)[2] .

وقد استعاد (عزيا) (أيلة) (ايلات) (Eloth) (Elath) ، وبنى ميناءها ، وتقع في أرض (آدوم) ، وهي فرضتها الشهيرة ، ويقع على مقربة منها ميناء (عصيون جابر) الذي تحدثت عنه . وقد بقيت في ملك (يهوذا) الى ان استولى عليها ملك (أرام)[3] . وقد حاول (عزيا) ومن جاء بعده ، جعل (ايلات) (أيلة) ميناء (يهوذا) الجنوبي ، وذلك للاستفادة منه في الاتجار مع افريقية والبلاد العربية وسواحل آسية الجنوبية ، تطبيقاً لخطة (سليمان) ، الا ان هذا الأمر لم يتحقق ، اذ لم تكن مملكة (يهوذا) قوية متمكنة في هذه المناطق الجنوبية ، التي كانت هدفاً للغارات والحروب .

ويظهر ان ميناء (عصيون جابر) كان قد خرب أو امتلأ بالرمال ، فلم يصلح للاستعمال ، فرأى (عزيا) استبدال ميناء (أيلة) به ، وقد يكون ماء هذا الميناء أعمق وأصلح للملاحة وللمواصلات من ذلك الميناء ، لذلك وقع اختيار ملك (يهوذا) عليه[4] .

وفي أخبار حملة (سنحاريب) التاسعة ما يفيد ان (حزقيا) ملك (يهوذا) استخدم الـ (الأربي) ، أي الأعراب ، فيمن استخدمهم للدفاع عن القدس (أورشليم) ، حينما حاصرها ملك آشور[5] . ولم يكن هؤلاء العرب ، الا أعراباً من سكان (يهوذا) ، ومن سكان الأرضين الأخرى في فلسطين .

وعلى عاتق هؤلاء الأعراب وقعت مسؤولية الدفاع عن القدس ، حيث قاموا بدور كبير في الدفاع عنها وفي مقاومة الآشوريين[6] .

ولما سمح الفرس ليهود بابل الذين كانوا في الأسر بالعودة الى بلادهم، توسل

---

١ Margoliouth, P. 51.

٢ Winckler, AOF. 29, 337, Enc. Bibli. P. 3065.

٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السادس والعشرون ، الاية ٢ ، الملوك الثاني ، الاصحاح الرابع عشر ، الاية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (١/١٨٤) ، Hastings, P. 211.

٤ Montgomery, Arabia, P. 179.

٥ Luckenbill, II, 240, Reall. I, S. 125.

٦ A.R. Burn, Persia and the Greeks, P. 21.

(نحميا) الى (ارتحشتا) ، ملك الفرس ، بالسماح له بالعودة الى القدس ، وكان (نحميا) نديماً للملك ، يسقيه الخمر ويؤانسه ، فسمح له . ولما وصل اليها ، وجد المدينة خربة ، وقد تهدمت أسوارها واقتلعت أبوابها، فجمع سكانها وأمرهم باعادة بناء الأسوار واصلاح الثغر والثلم التي فيها ، وعمل أبواب جديدة . ولكنه لقي معارضة شديدة من (سنبلط الحوروني) و (طوبيا العبد العموني) و (جشم العربي) ، اذ عارضوا في اعادة بناء الأسوار والأبواب وهددوه بالزحف على المدينة . ونجد في (سفر نحميا) وصفاً لموقفهم من (نحميا) ، فيه استهزاء وسخرية به وازدراء بأمر سكان (أورشليم) وبالسور الذي أخذ في بنائه ، وبين المستهزئين أناس من العبرانيين . « ولما سمع سنبلط اننا آخذون في بناء السور ، غضب واغتاظ كثيراً ، وهزأ باليهود ، وتكلم أمام اخوته وجيش السامرة ، وقال : ماذا يعمل اليهود الضعفاء ؟ هل يتركونهم ؟ هل يذبحون ؟ هل يكملون في يوم ؟ هل يحيون الحجارة من كوم التراب وهي محرقة ؟ وكان طوبيا العموني بجانبه ، فقال : ان ما يبنونه اذا صعد ثعلب فانه يهدم حجارة حائطهم »[١] . وقد تأثر (نحميا) من هذا الازدراء الشائن كثيراً ، فتراه يوجه وجهه لربه ويخاطبه قائلاً : « اسمع يا إلهنا لأننا قد صرنا احتقاراً ورد تعييرهم على رؤوسهم واجعلهم نهباً في أرض السبي »[٢] .

وصمم (نحميا) كما يقول على الاستمرار في البناء حتى إكماله « فلما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون ان أسوار أورشليم قد رممت ، والثغر ابتدأت تسد ، غضبوا جداً ، وتآمروا معاً أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضرراً »[٣] . ولكنهم كما يفهم من (نحميا) لم ينفذوا تهديدهم بالهجوم على القدس ، بل بقوا يتكلمون ويهددون ، يرسلون الرسل الى (نحميا) للاجتماع به ، ويذكر (نحميا) انهم لم يكونوا يريدون من هذا الاجتماع الا الفتك به ، فرفض . وعندئذ تراسل (سنبلط) و (طوبيا) مع أحد رؤساء (اورشليم) وهو (شمعيا بن دلايا) ، ليدخل (نحميا) الهيكل ، ثم يعلن للناس انه دخل

---

١ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ١ فما بعدها

٢ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ٤ .

٣ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ٧ فما بعدها .

الهيكل خائفاً هارباً ، فتسقط منزلته من أعين الناس . وقــد أحس (نحميا) بالمؤامرة ، فرفض الدخول كما يقول[١] .

وكان (جشم) العربي ، من أشد المعارضين لبناء السور، ولتحصين القدس، وذلك لأنه كان يرى في هذا العمل اعادة لدولة (يهوذا) ولتنصيب (نحميا) ملكاً على (أورشليم) . وقد صرح برأيه هذا الى (نحميا) في رسالة وجهها اليه نقل (نحميا) منها هذه الكلـمات : (وجشم يقول : انك أنت واليهود تفكرون ان تتمردوا ، لذلك أنت تبني السور لتكون لهـم ملكاً بحسب هذه الأمور . وقد أقمت أيضاً أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين في يهوذا ملك »[٢] .

وما كان (جشم) ، ليعارض بناء أسوار القدس ووضع الأبواب لهـا ، واعادة حكومة (يهوذا) التي قضى عليها البابليون الى الوجود لو لم يكن صاحب سلطان وحكم في أرضين تجاور القدس ، ولهذا رأى في اعادة الملكية الى القدس عاصمة مملكة (يهوذا) المنقرضة ، تهديداً له ولمن تحالف معهم على مقاومة هذا المشروع[٣] .

و (جشم) (Geschem) اسم من الأسماء العربية المعروفة . وفي القبائـل العربية قبيلة يقال لها (جشم) ، وهي من قبـائل (بني سعد) ، وهو أيضاً (جشم) من أسماء الرجال[٤] . ويرد بصورة : (جشمو) في الكتابات النبطية[٥] . ولم يشر (نحميا) الى موطنه ومكانه ، ولذلك لا ندري أين كان . وقد ذهب بعض البـاحثين في التوراة الى أنه كان من أهل (السامرة) (Samaria) ، وذهب بعض آخر الى أنه كان من أهل المناطق الجنوبية من (يهوذا) وأنه كان رئيس قبيلة فيها[٦] .

وذهب بعض البـاحثين الى أن (جشم بن شهرو) (جشم بن شهر) ، هو (جشم) المذكور في التوراة . وهو أحد ملوك قبيلة (قيدار) (قدار) (قدرو) . وهو الذي عارض (نحميا) في سنة (٤٤٤) قبل الميلاد في اعادة

---

١ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٢ فما بعدها .
٢ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٦ فما بعدها
٣ (جشم) (Geshem) Enc. Bibli. I, P. 273, ff. (Gushamu)
٤ الاشتقاق (١٥٤/١) ، (١٧٧/٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٢) .
٥ Margoliouth, P. 48, Montgomery, Arabia, P. 29.
٦ Hastings, P. 291, Enc. Bibli. P. 1710, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P. 162.

بناء سور (أورشليم) . وقد كانت (قيدار) مملكة تسيطر على أرض تمتد من (دلتا) النيل الى حدود مملكة (يهوذا) فجنوب (ديدان) بحوالي (٢١) كيلومتراً نحو الجنوب في الحجاز، أما في الغرب فتصل حدودها بالبادية[١] . فملك (قيدار) وهو (جشم بن شهر) ، كان إذن هو المعارض لبناء السور ، وفي معارضته هذه دلالة ولا شك على مقاومته لمحاولة إعادة دولة إسرائيل من بعد السبي .

ويظن أن الإناء الذي عثر عليه بمصر في موضع يقع على مسافة اثني عشر ميلاً الى غرب الإسماعيلية ، وقد دُوّن عليه اسم شخص يدعى (قينو بن جشم ملك قيدار) ، هو ابن (جشم) المعاصر (لنحميا) . وعلى ذلك يكون أحد ملوك (قيدار)[٢] :

وقد كانت (طور سيناء) منذ القديم أرضاً يسكنها العرب ، حتى في أيام داوود وسليمان . ونجد أن رسالة (القديس بولس) الى أهل غلاطية تجعل جبل سيناء في ديار العرب ، وتذكر أن (طور سيناء) موطن أبناء هاجر ، أي العرب[٣] . كما نجد أن النقب ووادي عربة كانا من مواطن الأعراب[٤] . وقد كان أعراب (جشم) وغيره ينتقلون وينزلون في هذه المواطن وعلى مقربة من القدس :

وفي هذا العهد وصل الاتجار بين فلسطين وبين العربية الجنوبية ذروته . فعثر على مواد كثيرة في مواضع متعددة من فلسطين استوردت من العربية الجنوبية . كما عثر في حضرموت على آثار تدل على أنها استوردت من فلسطين وبلاد الشام. وقد كانت حاصلات العربية الجنوبية هي من أهم السلع المطلوبة في فلسطين . ترسل اليها عن طريق البرّ على ظهور الجمال .

ومنذ عهد (نحميا) أي أوسط القرن الخامس قبل الميلاد ، أخذ العبرانيون

---

١ Grohmann, Arabien, S. 23, F. V. Winnett, Notes on the LIhyanite and Thamudic Inscriptios, in Muséon, 51, (1938), 307, 309, W.F. Albright New Light on early Recensions of the Hebrew Bible, In BASOR. Num. 140, 1955, 31, W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 145.

٢ William Culican, The Medes and Persians, London, 1965, P. 151.

٣ الاصحاح الرابع ، الاية ٢٤ فما بعدها .

٤ W. F. Albright, The Archaeology. P. 145.

ينظرون نظرة عداء الى العرب ، ويعدّونهم في الجماعات المعادية لهم[1] . وذلك مما يدل على اتخاذهم موقفاً موحداً ضد العبرانيين وعلى توغلهم في فلسطين في المناطق التي حكمتها حكومتا (إسرائيل) و (يهوذا) ، ولهذا اشتدت مقاومة العرب للعبرانيين واتحدوا مع الشعوب الأخرى في مقاومتهم ، وفي منعهم من إعادة تكوين حكومة يهودية في هذه البلاد .

ولما تولى (يهوذا المكابي) مؤسس أسرة (المكابيين) (Maccabees) (١٦٦ — ١٦١ ق. م.) الحكم ، حارب أعداء العبرانيين[2] ، وكان من بينهم (تيموتاس) (Timotheus) رئيس (العمونيين)[3] ، الذي استأجر جيشاً من العرب ومن الغرباء ليحارب به (يهوذا) ، غير أنه أصيب كما يقول (سفر المكابيين) بخسائر في كل المعارك التي خاضها مع (يهوذا) ، ولم يتمكن من الانتصار عليه[4] .

وقد تحدث سفر المكابيين الثاني عن (تيموتاس) هذا ، فقال : (ثم ساروا (أي اليهود) من هناك تسع غلوات زاحفين على تيموتاس ، فتصدى لهم قوم من العرب يبلغون خمسة آلاف ، ومعهم خمس مئة فارس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان الفوز لأصحاب يهوذا بنصرة الله ، فانكسر عرب البادية ، وسألوا يهوذا أن يعاقدهم على أن يؤدوا اليهم مواشي ويمدوهم بمنافع أخرى)[5] . ولعل هؤلاء العرب ، هم العرب المذكورون ، الذين ذكر السفر الأول من المكابيين أن (تيموتاس) كان قد استأجرهم لمقاتلة اليهود . وقد كانوا من أعراب البادية، كما نرى ذلك في هذا النص .

وورد في (سفر المكابيين الأول) اسم سيد قبيلة عربية هو (زبديئيل) (زبدايل) (زبديل) ، وكان يقطن في (ديار العرب) ، كما جاء ذلك في السفر المذكور.ذكر السفر اسم هذا الرئيس وهو يتكلم على فرار (اسكندر بالس)

---

١ Margoliouth, P. 48, Hastings, P. 406, Enc. Bibli. I, P. 273.

٢ Hastings, A Dictionary. I, P. 936.

٣ A Dictionary, I, P. 937.

٤ المكابيون الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ٦ فما بعدها ، ٣٤ فما بعدها ،المكابيون الثاني الاصحاح الثامن ، الاية ٣٠ ، الاصحاح التاسع ، الاية ٣ ، الاصحاح العاشر الاية ٢٤ فما بعدها .

٥ المكابيون الثاني عشر ، الاية ١٠ فما بعدها

(Alexander Balas) الى (ديار العرب) ، وكان قد مني بهزيمة أوقعه بهـا (بطلميوس) (بطلماوس) (Ptolemy) ، عمه أي والد زوجته . وكان قـد تخاصم معه . فلما وصل (إسكندر بالس) الى (ديار العرب) ، قبض عليه (زبديئيل) ، وقطع رأسه ، وأرسله الى (بطلماوس)[1] .

ولم يتحدث السفر المذكور عن منزل (زبديئيل) ، ولم يحدد مكان (ديار العرب) ، وعندي أن المراد بـ (ديار العرب) بادية الشام ، والأرضين التي دعاها الأشوريون بـ (أريبي) (Aribi) ، وهي موطن آمن لمن يصل اليه ، إذ يصعب للجيوش النظامية أن تقاتل فيها . وقد كان (زبديئيـل) من رؤساء البادية في هذا الزمن . وهـو حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد[2] . وكان الحاكم على اليهود هو (يوناتان) من المكابيين .

ويذكر (سفر المكابيين) أيضاً أن (تريفون) (Tryphon) ، وهو أحد قوّاد (إسكندر بالس) ومن جماعته ، ذهب الى رجل عربي اسمه (ايملكوئيل) ، وكان يربي (أنطيوخس بن الإسكندر) ، فألح عليه أن يسلمه اليه ليملكـه مكان أبيه ، ومكث عنده اياماً . وقد تمكن عربي مع حقد العبرانيين المتزايد على العرب من حكم اليهود ومن تأسيس أسرة حاكمة حكمتهم . ذلك الرجل هو (انتيباتــر) (Antipater) الأدومــي ، نسبــة الى (أدوم) (Edom) (Idumea) (Idumaea) ، وهم سكان جبل سعير ، الذين دعاهم (اويسبيوس) (Eusebius) باسم (Gabelene) أو (Gabalene) أي الجبليين[3] .

فقد تمكن هذا الرجل الذي لم يكن من أسرة ملكية ولا من أسرة معروفـة بفضل شخصيته وبقوته من فرض نفسه حاكماً على (ادوم) (Idumaea) ، ثم تمكن من جعـل نفسه حاكمـاً (Procurator) على اليهوديـة (Iudaea) (Judaea) ،وذلك في حوالي السنة (٣٣) قبل الميلاد . وفي خبر ان (يوليوس قيصر) (Julius Caesar) ، اعترف بـه (Procurator) على اليهوديـة في حوالي السنة (٤٧) قبل الميلاد[4] .

---

١ المكابيون الاول ، الاصحاح الحادي عشر الاية ١٥ وما بعدها

٢ Hastings, P. 20.

٣ Hastings, P. 345.

٤ Smith, A Dictionary of the Bible, I, P. 790. f. Josephus, Anti. Xiv, 7, 3.

ولما وقعت الحرب بين (يوناتان) المكّابي (١٦١ - ١٤٣ ق. م.) و (ديمترتوس الثاني) ، ضرب (يوناتان) العرب المسمين بالزبديين (Zabadaeans) وأخذ منهم غنائم كثيرة [١] . حدث ذلك في سنة (١٤٤ ق. م.) . ويرى بعض علماء التوراة ان هذه القبيلة العربية قبيلة (زبد) (زبيد) كانت تنزل في موضع في شمال غربي (دمشق) ، ويرى بعض آخر احتمال ان ذلك المكان هو (الزبداني) ، الذي يبعد عشرين ميلاً من الشأم على طريق دمشق بعلبك [٢] . وأرى ان من المحتمل أن يكون هؤلاء (الزبديون) هم سكان (زبد) ، وهو خرب في الزمن الحاضر ، يقع بين قنسرين ونهر الفرات . وقد اشتهر عند المستشرقين بالكتابة التي عثر عليها في هذا الموضع ، وقد كتبت باليونانية والسريانية والعربية ، ويرجع تأريخها الى سنة (٥١١ م) . وقد أدخلهم (يوسفوس) في عداد النبط [٣] .

و (أرتاس زعيم العرب) الذي طرد (ياسون) من بلاده حينما التجأ اليه فاراً من الملك (أنطيوخس) ، هو (الحارث) أو (حارثة) وهو من ملوك النبط ، ولا شك . وقد ذكر اسمه في سفر المكابيين الثاني [٤] .

وفي أيام (سترابون) كان العرب في جملة سكان مدن فلسطين ، مثل القدس و (يافا) و (الجليل) [٥] . وذكر (سترابون) ان (الأدوميين) (Idumaens) كانوا يقطنون الأقسام الغربية من (اليهودية) (Iudaea) ، وهم على حد قوله من (النبط) . ولما كان (سترابون) قد نقل كلامه من موارد أخرى قديمة ، فما ذكره يفيد ان العرب كانوا يقيمون في فلسطين قروناً عديدة قبل الميلاد .

وقد ذكر العرب في جملة الشعوب الساكنة في (أورشليم) يوم مرور الخمسين يوماً على المسيح . ويظهر من أعمال الرسل ان أهل القدس كانوا خليطاً في تلك الأيام من معظم شعوب العالم المعروفة يومئذ [٦] .

---

١ سفر الكابيين الاول الاصحاح الثاني عشر الاية ٣١ فما بعدها

٢ Hastings, P. 982, Beeton, Dictionary of Religion Philosophy and Law, P. 1809.

٣ Anti. XIII, 5, 10, Beeton, Dictionary, P. 1809.

٤ المكابيون الثاني ، الاصحاح الخامس الاية ٥ فما بعدها . Dubnow, II, S. 48,

٥ قاموس الكتاب المقدس (٣٣١/١) .

٦ اعمال الرسل ، الاصحاح الثاني ، الاية ٩ وما بعدها

وقد أطلق العبرانيون اسم (طيعة) و (طيابة) على العرب ، محاكاةً لبني إرم . فتجد اللفظة في (التلمود) وفي كتابات العبرانيين المدونة في القرون الأولى للميلاد . وقد أخذ الاسم (طيعة) و (طيابة) من (طيء) اسم القبيلة المعروفة ، على نحو ما ذكرت في الفصل الأول :

وقد ذكرت في (المدراش) قبيلة عربية عرفت بـ (سوجي) ، لعله (سواجر) ، أو ما شابه ذلك من أسماء[١] .

وفي التوراة مصطلحات يرى العلماء انها كناية عن العرب . ففيها مصطلح (بني قديم) (Bene Kedem) ، ومعناه : (أبناء الشرق) ، ويقصد به الساكنون شرق العبرانيين ، أي سكان بادية الشأم ، وهو في معنى (شركوني) (شرقوني) ، أي الساكنون في المشرق . وهم كما نعلم قبائل عديدة من العرب سكنت هذه البادية قبل الميلاد بمدة لا يعلمها الا الله . وقد يكون من بين هؤلاء أقوام من الآراميين[٢] :

وقد وصفت التوراة بعض عادات العرب وزسومهم ، كما تعرفت لتجارتهم : ولما كانت (فلسطين) امتداداً طبيعياً لجزيرة العرب ، وجزء منها ، وكانت على طريق مصر وبلاد الشأم وعلى ساحل البحر المتوسط ، صارت سوقاً مهمة للتجار العرب وللأعراب ، يأتونها لبيع ما عندهم من سلع ، وأهمها أنواع الطيب والذهب والحجارة الكريمة والأغنام والأعتدة وحاصلات بلاد العرب الأخرى[٣] ، كما كانوا يشترون من أسواقها ما فيها مما يحتاجون اليه من حاصلات حوض البحر المتوسط وبلاد الشأم وفي جملة ذلك الرقيق .

وورد في (التلمود) اسم صنم عربي دعي (نشرا)[٤] ، ويقصد به (نسر) ولا شك . وهو من أصنام العرب المعروفة . وقد ذكر (ابن الكلبي) ان حمير تعبدت لنسر[٥] . كما انه ذكر في (التلمود) أيضاً (حج الأعراب) ، وذكر ان مواسم حجهم كانت تتغير بتغير فصول السنة[٦] . وقد تعرض للأحكام الشرعية

---

١ ايخاربائـي (٣/٧)

٢ Hastings, P. 200, The Bible Dictionary, I, P. 177.

٣ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الاية ٢١ وما بعدها .

٤ عبـودة زارة ١١ ب .

٥ الاصنام (ص ١١ ، ٥٧)

٦ عبودة زاره ١١ ب ،

الخاصة بدخول البيوت ، فذكر انها لا تنطبق على خيام العرب ، لأنها متنقلة ، فلا تستقر في مكان واحد[١] . كما ذكر ان من عادة نساء العرب التحجب عند خروجهن الى المحالّ العامة[٢] . ولعله يقصد بذلك نساء المدن ، وذكر ان من عادة الرجال وضع اللثام على وجوههم في أثناء السفر لوقايتهم من الرمال[٣] ، وأشار الى أن للعرب مقدرة فائقة في معرفة مواضع المياه في الصحراء بمجرد شم الرمال[٤]. وورد في (المشنة) (المشنا) ان أغلب طعام العرب من اللحوم[٥] .

وقد ورد في (السنهدرين) ، أن احـــد اليهود قصّ على الحبر (حية) (R. Hiyya) ، أنه رأى مسافراً عربياً أخذ سيفاً بيده فقطع به جملاً قطعاً ، ثم أخذ (جرساً) فدق به ، فنهض الجمل حـــالاً ، وكأنه لم يقطع إرباً ، فقال له الحبر ، إن ما حدث هو نوع من الخداع[٦] .

ونجد في (السنهدرين) كلاماً لـ (ربه بن برحنه) (Rabbah B. Bar Hana) يروي فيه ، أنه كان مسافراً ، وفي أثناء سفره التقى به عربي ، فقال له : تعال معي وسأريك الموضع الذي انشقت به الأرض وابتلعت جماعة (القورحيين) (قورح) (Korah) . فذهب معه اليه ، ورأى به دخاناً . ثم أخذ العربي قطعة من صوف وبلّها بالماء ، ثم وضعها على رمح له ، ثم أدخلها الموضع فاستشاطت بالنار . ثم قال للعربي اصغ الى المكـان ، لعلك تسمع شيئـاً فيه . فسمع أصواتاً تقول: (موسى وتوراته على الحق ، أما القورحيون فهم كذّابون) ثم قال له في كل ثلاثين يوماً يتحول هـؤلاء في جهنم (Gehenna) ، تحول اللحم في القدر ، وهو يقولون : (موسى وتوراته على حق ، أمـا هم ، فهم كذّابون)[٧] .

ونجد قصة هذا الحبر في (بابا بسْرا) (Baba Bathra) ، حيث يقول :

---

١ ١ هلـــوت ٢٨ : ١٠
٢ شبت ٦ : ٦
٣ موعيد قطان ٢٤ ، ومشـنة كليم ٢٩ : ١
٤ بابـا بتـــرا ٧٣ ب
٥ مناحوت ٣٦ ب
٦ Sanhedrin, 67b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, III, P. 460, Translated by, Rabbi I. Epstein.
٧ Sanhedrin 110a, 110b, The Babylonian Talmud, Seder Nozikin, III, P. 757.
قاموس الكتاب المقدس (٢٢٦/٢) «قورح» .

لقد كنـا في سفر في صحراء ، فالتقى بنا تاجر عربي ، وكان ممن يستطيع التنبؤ بمواضع المياه وبالأبعاد وبالطرق من شمّ التربة ، فأردنا الاستفسار منه عن أقرب مكان الينا فيه ماء . فقال لنا : أعطوني رملاً فأعطي ، فشمه ثم قـال أقرب مكان اليكم فيـه ماء هو على بعد ثمانية فراسخ (Parasangs) ثم سرنا وأردنا الاستفسار ثانية منه ، فقدمنا له رملاً ، شمه ثم قال لنا الماء على بعـد ثلاثة فراسخ من هذا المكان . ثم حاول هذا الحبر اختباره لمعرفة مـدى صدقه من كذبه ، فأبدل الرمل ، فلما قدم اليه رملاً آخر . لم يستطع أن يقول شيئاً[1] .

ويقص علينا قصة أخرى يزعم أنها وقعت له مع هذا التاجر العربي ، حيث يقول انه قال له : تعال معي أريك (أموات التيه) ، أي الإسرائيليين الذين ماتوا في التيه في طريقهم إلى أرض الميعاد . فذهب الحبر معه ، ورأى الأموات وكأنهم في حالة فرح وسرور ، وقد رقدوا على أظهرهم ، ثم يقول : وقد رفع احد هؤلاء الأموات ركبته ، ومرّ التاجر العربي من تحت تلك الركبـة ، وقد كان حاملاً رمحه راكباً بعيره ، ومع ذلك فإن رمحه لم يمس رجـل الميت . ثم يقول وقد ذهبت الى أحد الأموات الراقدين فقطعت جزءاً من ذيل ردائه الأزرق العميق ، وعندما حاولت الرجوع ، لم أتمكن من الحركة وبقيت ثابتاً في مكاني ، فقال له العربي : إذا أخـذت شيئاً من هؤلاء فأرجعه الى محله ، وإلا فإنك ستبقى ملتصقاً في مكانك ، لأن من يتطاول على حرمة الراقدين فيأخذ شيئاً منهم ، يجمد في مكانه ، ولا يستطيع التحرك . فذهبت وأرجعت القطعة وتمكنت عندئذ من السير[2] .

ثم يذكر أن هـذا التاجر العربي أخذه الى جبـل الطور (جبل سيناء) (Mount of Sinai) فأراه إياه ، ثم اخذه الى الموضع الذي انشق بالقورحيين ، جماعة (قورح) ، فأراه شقين في الأرض ، ووجـد الدخان لا يزال يخرج منهما ، ثم يذكر أنه اخذ قطعة الصوف وادخلها هو بنفسه ، ثم أخرجهـا وإذا بها وقد علقت بها النار ، ثم يقص باقي القصة على نحو ما جاء في (السنهدرين)[3].
ونجد في (مينحوت) (Menahoth) فتوى تتعلق في نجاسة او طهارة قُرَب

---

١ Baba Bathra, 73b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, Baba Bathra, P. 292.
٢ Baba Bathra, 74a, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, P. 292.
٣ Baba Bathra, 74a, Seder Nezikin, II, P. 293-294.

الماء . وقد ورد في هـذه الفتوى ، أن القرب التي تشد وتعقد بعقدة تكون طاهرة ، إلا اذا عقدت بعقدة عربية . فإنها تكون نجسة ولا يحل الشرب منها [1] :
ونجد هذا البحث مرة أخرى في مكان آخر من (المشنة) في كتاب الـ (قليم) (Kelim) ، أي (كتاب الأواني والأوعية) من (كتاب الطهارة) ، حيث عرضت آراء الأخبار في قرب الماء وفي كيفية عقد عقدتها لمدة طويلة أو لمـدة قصـيرة ، ومن حيث شدة العقدة أو رخاوتها ، وتأثير ذلك في طهارة الماء . فأشير الى قرب ماء العرب وموقفهم من الشرب منها او من الاستفادة من مائها وهل يعد ماؤها طاهراً أو نجساً في الشريعة اليهودية ؟ وقد جاءت آراء الأخبار متباينة في ذلك [2] : ويظهر ان اتصال العرب باليهود اتصالاً وثيقاً بالعراق، وسكن اليهود بين العرب في بلاد العرب ، أثار امام اليهود هذه المشكلة الفقهية ، فهم مضطرون دائمـاً الى الاتصال بالعرب والى شرب الماء منهم ، فظهرت من ثم عندهم هـذه المشكلة ، وكان على الأحبار بيان رأيهم في طهارة ماء القرب ، وقرب العرب منها بوجه خاص ، لما في ذلك من علاقة بقضية الطهارة والنجاسة ومكانتها في فقه يهود :

وفي موضع آخر من كتاب (الأواني والأوعيـة) (Kelim) ، بحث عن جواز أو عدم جواز ارتداء بعض الأرديـة وموقف الشريعة من أكسيـة الرأس وأغطية الوجه والجسم ، فبحث في جملة ما بحث عنه ، عن القناع الذي يصنعه العرب على أوجههم وعن تلثمهم به ، فهل يجوز لليهودي شرعاً ان يفعـل فعل العرب ام لا [3] .

وقد استثنت (المشنه) في كتاب (أو حولت) اي (الخيام) ، عشرة مواضع من تطبيق أحكام الشرع عليهـا ، بخصوص طهارتها او نجاستها لكون ساكنيها من الوثنيين . وقد ذكرت مضارب خيام العرب على رأس هذه المواضع العشرة التي لا تخضع لحكم الشريعة في موضوع حكم طهارتها او نجاستها . وذلك لأن مضارب البدو غير مستقرة ، إذ ان الأعراب يتنقلون من مكان الى آخر . لذلك لا يمكن تطبيق الأحكام الشرعية التي تطبق عـلى العقار الدائم عليها في

---

١ Menahoth, 37b, p. 231, Translated by Eli Cashdan.
٢ The Mishmahs, Kelim, P. 124.
٣ The Mishna Kelim? P. 138.

موضوع نجاسة الأثاث والأواني وكل شيء يكون تحت الخيمة التي يموت فيهـا إنسان ، ولأن اصحابها غير يهود[١] .

وقد أشير في (مينحوت) (Menahoth) الى موضوع تقديم طعام مطبوخ في موقد عربـي ، هل يقبل أو يرفض . فأشار بعض فقهاء الشريعة اليهودية الى عدم جواز الأكل من ذلك الطبيخ[٢] .

ونجد في (بابا بثرا) (Baba Bathra) ، ان الحبر (ماير) (R. Meir) يستثني النبط والعـرب والسلمونيين (Salmoeans) من الوعد الذي أعطاه الله لموسى حين أراه الأرض الموعودة[٣] . ويظهر ان (السلمونيين) ، هم قبيلة من القبائل العربية الشمالية[٤] . لعل لاسمهم علاقة بـ (سلمان) .

وقد ورد ذكر العرب في كتاب الحيض (نده) (Niddah) من كتاب (الطهارة) في الفقه اليهودي . وذلك في موضوع العبـدة وهل يجوز الاتصال بها ، أو لا يجوز ، على اعتبار انها خصصت لأداء الأعمال لا للاتصال الجنسي. وقد أجاز الحبر (شيشت) (R. Shesheth) ايداع العبـدة أي المملوكة الى العرب ، على أن يقال لهم احترسوا من الاتصال بالإسرائيليات[٥] .

وفي التلمود والمشنه والكمارة مسائل فقهية أخـرى عديدة يخرجنا ذكرها هنا من حدود هذا الموضوع تتعلق بموضوع صلات العرب واليهود . في مثل موقف الشريعة اليهودية من ذبائح العرب ، وهي التي يذبحها اليهود للعرب في مقابـل اعطائهم اللحم ليقدم العرب دمها وشحمها للأصنام[٦] .

وموقف الشريعة من المرأة التي يأسرها الأعراب ثم تعاد بعد ذلك الى أهلها بعد فك أسرها ،هل يجوز للحبر أو لغيره التزوج منها أو لا ؟أو موقف الشريعة من المملوكة اليهودية التي تكون في ايدي العرب ، من حيث احتمال دخول العرب بها[٧] . أو موقف الشريعة من الحبوب او المواد الأخرى التي تقـع بين روث

١ The Mishnahs, Oholoth, P. 228.

٢ Menahoth, 63a, Menahoth, P. 372.

٣ Baba Bathra, 56a.

٤ The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, P. 227.

٥ Niddah 47a, The Babylonian Talmud, Seder Tohoroth, P. 328.

٦ The Babylonian Talmud, Seder Kodashim, II, Hullin, P. 214, Hullin, 39b.

٧ The Babylonian Talmud, Seder Nashim, II, P. 199, Kethuboth, 36b.

ماشية العرب[١] ، أو دخول إبل العرب في (كثوبة) (Kethubah) يهودي[٢]. أو موقف اليهودي من المرأة[٣] . أو موضوع نظر اليهودي الى عضو من جسم امرأة عربية ، مثل صدرها حينما يمر في مكان ويراها وقد كشفت عن صدرها لترضع رضيعها[٤] ، أو موقف الشريعة اليهودية من المختتنين العرب[٥] .

ونجد في باب (الشهادات) (الوثائق) (كطين) (خطين) (Gittin) قولاً لأحد الأحبار يقول : ان امرأة عربية جاءت الى أحد اليهود تحمل كيساً فيه تعاويذ لبيعها ، فقال لها اليهودي اعطيك تمرتين عن كل تعويذتين. فاغتاظت المرأة ورمت ما حملته في النهر . فندم اليهودي وقال وددت لو لم أكن قد أعطيتها هذا العوض الرخيص[٦] .

وقد نشأت هذه المعضلات الفقهية من اختلاط اليهود بالعرب في فلسطين وفي الأماكن التي هاجروا اليها من بلاد العرب من جــراء ضغط الرومان عليهم ، وعدم تمكنهم من ممارسة عباداتهم في البلاد الخاضعة للحكم الروماني بسهولة وبحرية تامة ، فهاجر كثير منهــم الى أعالي الحجاز والى العراق حيث اختلطوا بالعرب وعاشوا بينهم في مثل (الأنبار) و (فومبديثة) و (زقونية) (زكونية) (Zekonia) ، وهو موضع على مقربة من (فومبديثة)[٧] . وموضع (بمكسه) (Be-Mikse)[٨] ، (نهردعة) (Nehardea) وسورا (Sura) وأماكن أخرى من العــراق . وقد كان ليهود الفرات اتصال وثيق بالعرب وكانوا يعيشون معهم في كثير من الأماكن ويتاجرون معهم . وكوّن اليهود لهم (كالوتا) أي (جالية) عاشوا فيها متمتعين بشبه استقــلال ذاتي ، يدير رؤساؤهم (كالوتاتهم) ، ويكونون هم الممثلين لأتباعهم أمام السلطات صاحبة النفوذ الفعلي، كما كانوا يعقدون أحلافاً مع الأعراب على طريقة أهل المــدن والحضر في عقد مواثيق مع سادات القبائل لمنع الأعراب من غزوهم ومن التحرش بأملاكهم وتجاراتهم .

---

١ Kethuboth 66b, II, P. 405.

٢ Babylonian, Seder Nashim, II, P. 408.

٣ Babylonian, Seder Nashim, II, P. 452.

٤ Babylonian, Seder Nashim, II, 472, Kethuboth 75a.

٥ Yebamoth 71a, Babylonian, I, P. 479.

٦ Gittin, 45b, Babylonian, Seder Nashim, IV, P. 200.

٧ J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonian, S. 234, Hullin, 39b.

٨ Yebamoth, 45a, babylonian, Seedr Nashim, I, P. 295, Obermeyer, S. 334.

وأود ان أشير هنا الى أهمية (التلمود) و (المشنه) و (الكماره) ، بالنسبة لتأريخ العراق ، ففي أبوابها بحوث قيّمة عن مدن العراق وجغرافية العراق في عهد تدوين هذه الكتب ، وهي تمتد لمئات من السنين . ففي (القيدوشين) مثلاً ، أسئلة وأجوبة عن (اقليم بابل) وعن (ميسان) (Mesene) وعن (ميديا) ، وقد وردت فيها أسماء مدن وأنهار وقرى وغير ذلك مما يساعد كثيراً في فهم جغرافية العراق في عهود ما قبل الميلاد وما بعده[١] .

وقد تساهل الفرس في الغالب مع اليهود ، فنحوهم استقلالاً ذاتياً واسعاً في ادارة شؤون مستوطناتهم وفي ممارسة طقوسهم الدينية وفي الاتجار ، حتى صارت كل مستوطنة تدير شؤونها بنفسها وتختار حاكمها بنفسها ، حتى ان بعضها وضعت على رأسها حاكماً يهودياً لقبته بلقب (ملك) ، أدار شؤون الجالية طبقاً لأحكام يهود . وكان هؤلاء الحكام هم الصلة بين اليهود وبين الفرس . وقد صارت بعض هذه المستوطنات من أهم المراكز العلمية عند اليهود في العالم ، وفي ضمن ذلك فلسطين . وفي هذه المواضع دوّن (التلمود البابلي)،دوّنه أحبارهم الذين استقروا في العراق . وهو يعد من أثمن التراث العبراني الذي ظهر عند اليهود . وقد تأثر بالروح العراقية حتى امتاز بها على التلمود الأورشليمي ، أي التلمود الذي كتب في فلسطين .

وقد لاقى اليهود مساعدة حسنة من العرب ، وعوملوا معاملة طيبة . ويظهر من مواضع في التلمود والمشنه ، أن العبرانيين فرّوا الى جزيرة العرب منذ أيام (بخت نصر)[٢] . وقد تأثر اليهود النازحون الى جزيرة العرب بعادات العرب ورسومهم . ويحدثنا (أبا أريخا) من الأحبار وكبار علماء التلمود في القرن الثالث الميلادي ، أن اليهود كانوا يؤثرون حكم الإسماعيليين ، ويقصد بهم العرب ، على الرومان ، ويؤثرون حكم الرومان على حكم المجوس[٣] . ومع ذلك ، فقد حدث خصام بين العرب واليهود ، فنجد في (التلمود) مواضع يظهر فيها حقد اليهود على العرب وكراهيتهم لهم . كالذي يظهر من كلام (الحبر يشوعه بن ليفي)[٤] (يشوعه بر ليفي)،حين رأى أكواماً من العنب مكدسة ، فقال : (يا للبلاد

١ Keddushin 71b.
٢ The Universal Jewish Encyclopedia, I, P. 439.
٣ Shabth IIa.
٤ R. Joshua b. Levi.

يا للبلاد) . لمن هذه ، لأولئك العرب (الوثنيين)[١] الذين ثاروا علينا لخطيئتنا[٢]. وكالذي يظهر من كتاب (قدوشين) (Kiddushin) ، حيث ورد ، (أعطي العالم عشرة (قابات) من الوقاحة ، خص العرب بتسع منها)[٣] . وفي هذا الكلام دليل على تطاول العرب على اليهود في المواضع التي كانوا يعيشون بها معاً . وحقد اليهود عليهم من أجل ذلك .

ونجد في الأخبار السريانية والعبرانية أخبار غارات وغزوات قام بها عرب العراق على الجاليات اليهودية التي انتشرت من (بابل) وما جاورها حتى جاوزت شمال (عانه) على نهر الفرات . وقد ازعجت هذه الغارات اليهود الذين حولوا هذه الأرضين الى أرض سادتها وغلبتها حتى صيرتها على شاكلة (وادي القرى) عند ظهور الإسلام . فاضطروا الى تحصين مستوطناتهم وأحاطتها بأسوار والى تشكيل قوات تقوم بحمايتها ليل نهار حتى في أيام السبت والأعياد اليهودية ، مع تحريم الشريعة اليهودية العمل يوم السبت . وأباح الأحبار لهذه القوات حمل السلاح في أيام السبت وفي أيام العطل حتى تكون على استعداد للدفاع عن تلك المستوطنات في أية لحظة يشن فيها الأعراب غاراتهم عليها،إذ يحتمل أنها تقوم بقتل اليهود[٤].

وقد تعرض الرعاة اليهود الذين كانوا يخرجون بماشيتهم من مستوطناتهم الى البرية أو الى ضواحي مستوطناتهم الى غارات الأعراب عليهم ، وسلبهم ماشيتهم[٥]، كما تعرض اليهود الى الأسر ، فأسر عدد منهم ، نساءً ورجالاً . حتى سلبوا وأسروا بعض الأحبار ، لذلك كانت الجاليات اليهودية تخشى من الأعراب كثيراً[٦] وقد تعرضت مدينة (نهردعة) (Nehardea) الى الغزو وذلك سنة (٥٧٠) من التقويم السلوقي الموافقة لسنة (٢٥٩) للميلاد. فقد غزاها كما تقول الأخبار اليهودية سيد قبيلة عربية ، اسمه (بابابر نصر) (بابا بن نصر) (Papa Bar Nasr) ، وألحق بها أضراراً فادحة،وخرب بعض أماكنها ، وقد هرب منها بعض أحبارها الى مستوطنات يهودية أخرى[٧] . وقد ذهب المؤرخ اليهودي (كريتس)(Graetz)

---

١ الوثنيون في طبعة (Bomb)

٢ Kethuboth 112a, Babylonian, Seder Nashim, II, P., 225.

٣ القاب (Kab وحدة من وحدات الوزن Kiddushin 49b, Babylonian, Seder Nashim, IV, P., 249.

٤ 'Erubin 45a.

٥ Baba Bathra 36a.

٦ Koheleth 7, Cittin 23a.

٧ Obermeyer, S., 254. ff.

الى أن هذا الأمير العربي المهاجم هو (أذينة) ملك تدمر وزوج الملكة الزباء[1]. غير أن اشتهار ملوك الحيرة عند العرب بـ (آل نصر) وقرب الحيرة من مدينة (نهر دعة) واتصال عربها بالجاليات اليهودية يحملنا على التفكير في أن المهاجم هو أمير من أمراء (آل نصر). ملوك الحيرة، وهم حلفاء الفرس.

وورد في الأخبار أيضاً أن مدينة (فومبديثة) (Pumbaditha) تعرضت للغزو أيضاً، وهي من أمهات مدن الجاليات اليهودية. هاجمها جيش جاءها من (عاقولاء) ويظهر أنه من قوات (آل نصر) ملوك الحيرة[2].

وقد كانت مدينة (فومبديثة)، محاطة بالأعراب. ولذلك كانوا يتعاملون معهم، ويأتون اليهم ويذبحون عندهم. وقد جاء في الأخبار أن أحبارها قد أباحوا لأهلها التعامل مع الأعراب في أيام أعيادهم، أي أعياد الأعراب. وذلك لأن أعياد الأعراب لم تكن ثابتة، تحل في وقت معين وفي مواسم مثبتة، لذلك جوّزوا لهم البيع فيها. لأن أحكام التلمود تمنع اليهود من التعامل مع الغرباء في أيام أعيادهم اذا كانت تلك الأعياد أعياداً دينية.

ولما كانت الشريعة اليهودية لا تعتبر العيد عيداً مقدساً دينياً إلا اذا كان يقع في أوقات ثابتة معينة لا تتغير ولا تتبدل في التقويم، لذلك أفتى الأحبار بعدم اعتبار أعياد الأعراب أعياداً دينية، وأباحوا لأهل المدينة التعامل مع المعيّدين في أيام أعيادهم:

وإلاّ فما كان يحل لهم بيع الأعراب شيئاً في أيام تعييدهم. وقد باعوا لهم خمراً وحبوباً. أما بالنسبة الى أعياد الفرس والروم، فقد منع التلمود اليهود من التعامل مع الفرس أو الفرس فيها، لأنها أعياد ثابتة وقد نص على مواعيدها، وأشير اليها في التلمود، لذلك،طلب من اليهود الامتناع عن بيع الفرس والروم شيئاً في أعيادهم[3].

ويذكر التلمود ان الأعراب (طيعه) (طيية) (طيايه)،المجاورين لموضع (صقونية) (Sikunya)، طلبوا من أهله وهم يهود أن يذبحوا لهم ذبائح في مقابل اعطائهم لحومها وجلودها، أما دمها فيجمع ويعطى للأعراب وذلك

١ Gratz, Geschichte der Juden, IV, 295.

٢ Obermeyer, S., 223.

٣ Obermeyer, S. 234.

لتقديمه لأربابهم . وكانت عادتهم تلطيخ أصنامهم بدم القرابين[1] .

وقد عرف الأعراب بـ (طييعه) في التلمود . أما السريان والموارد اليهودية الأخرى المدونة بالسريانية ، فقد أطلقوا وأطلقت على الأعراب لفظة (طييه) (طيايا) ، وذلك باسقاط حرف العين من الكلمة : (طييعه) والكلمتان من أصل واحد ، هو (طيء) اسم القبيلة العربية المعروفة . وقد كانت في أيام تدوين التلمود من أقوى وأشهر القبائل العربية ، حتى غلب اسمها سائر أسماء القبائل ، فأطلق على كل عربي كائن ما كان[2] .

وأطلقت لفظة (عربايه) في كتاب من كتب التلمود ، على العرب المزارعين الذين استقروا على مقربة من (فومبديثة) . وذكر التلمود ان اولئك العرب المزارعين كانوا قد انتزعوا مزارع اليهود بما فيها من أبنية وأملاك ، وأقاموا بها ، ولهذا السبب ، فقد ذهب اليهود الى حبرهم وقاضيهم (ابيه) (Abaya) ، وطلبوا منه اعطاءهم وثائق تملك أخرى ، حتى يكون في إمكانهم مراجعة السلطات لاثبات ملكيتهم لأملاكهم التي انتزعت بالقوة منهم[3] .

وقد نزح يهود من فلسطين الى الحجاز ، فسكنوا وادي القرى حتى نزلوا (يثرب) ، وذهب قسم منهم الى اليمن ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

---

١ Obermeyer, S. 234.

٢ Obermeyer, S. 233. ff.

٣ Baba Bathra, 168b, Obermeyer, S. 235.

فهرست